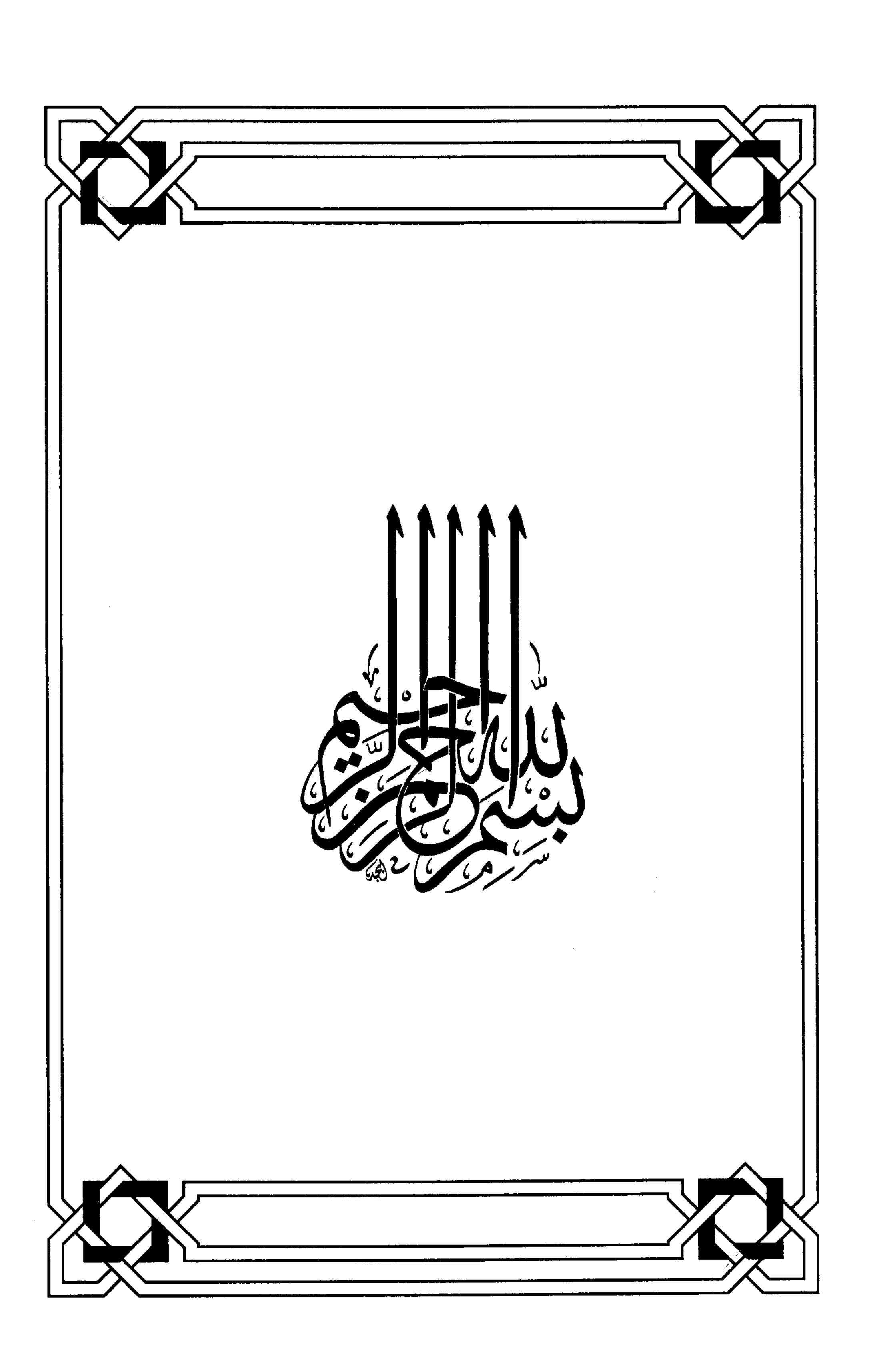


تفسير القرآن الكريم على منهاج الأصلين العظيمين
- الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة -
على فهم الصحابة والتابعين

تفسير منهجي فقهي شامل معاصر

الجزء الخامس

تأليف الأستاذ الدكتور
مأمون حموش


بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المأمون

على منهج التنزيل والصحيح المسنون

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

موافقة وزارة الإعلام

رقم: 91092

ورقم: 91451

تاريخ: 16/ 7/ 2006 م

دمشق - سورية

يطلب من المؤلف

دمشق هاتف: 3218471

المدقق اللغوي

الدكتور أحمد راتب حموش



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (135) .

أخرج الحاكم والطحاوي بإسناد حسن عن القاسم أبي عبد الرحمن عن أبي أمامة مرفوعاً: [اسمُ الله الأعظمُ في سور من القرآن ثلاث: في «البقرة» و«آل عمران» و«طه»][1] .

قال القاسم أبو عبد الرحمن: (فالتمست في «البقرة» فإذا هو في آية الكرسي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ ، وفي «آل عمران» فاتحتها: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ ، وفي «طه»: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾).

موضوع السورة

قصة موسى وفرعون منهاج للجماعة المؤمنة في مجاهدة الطغاة والمجرمين، وهذا القرآن سبيل السعادة للبشرية في الدارين.

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ ثناء الله على القرآن ، نزّله رحمة لنبيّه وتذكرة للأنام ، والله على العرش استوى ، ويعلم السر وأخفى ، وله الأسماء الحسنى.

---

(1) حديث حسن. أخرجه الحاكم (1/ 506) ، والطحاوي في «مشكل الآثار» (1/ 63) ، وإسناده حسن. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (746).

2 ـ ذكر قصة موسى عليه السلام ، وتكليم الله له ورعايته وحمايته ، وإظهار آية العصا وآية اليد ، ليذهب مطمئناً بالقوة لدعوة فرعون وقد طغى .

3 ـ رجاء موسى ربه شرح صدره ، وتيسير أمره ، وإزالة العجمة من لسانه ، وجعل هارون وزيراً له ، وإجابة الله دعوته .

4 ـ امتنان الله على موسى حمايته ورعايته منذ طفولته إلى شبابه إلى وقت نبوته .

5 ـ خشية موسى بطش فرعون به وبأخيه ، وإنزال الله الطمأنينة على قلبه .

6 ـ إبلاغ موسى فرعون رسالة ربه ، ومحاولة فرعون التكذيب بالربوبية ، ومقابلة موسى له بقوارع الوحي وحجج الله البالغة .

7 ـ استكبار فرعون ، واتهامه لموسى بالسحر ، وانصرافه لجمع السحرة للمكر والكيد ، وتحذير موسى لهم مغبة الوعد والوعيد .

8 ـ بدء الاستعراض من السحرة بحبالهم وعصيهم ، وشعور موسى بالخوف من سحرهم ، وتثبيت الله له ليلقي عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون ، ونزول السحرة ساجدين ، معلنين أمام الملأ : آمنا برب موسى وهارون .

9 ـ استنفار فرعون لضبط نفوذه وسلطانه ، وتهديدهُ السحرة بالقتل والصلب ، وإيثار السحرة ما عند الله .

10 ـ أمْرُ الله موسى المسير بالمؤمنين ليلاً ثم اختراق البحر بهم ، واتباع فرعون له بجنوده وغرقهم عن آخرهم .

11 ـ امتنان الله على بني اسرائيل بالنعم الكبيرة ، ومواعدة موسى جانب الطور الأيمن وتكليمه ، وإنزال التوراة والمن والسلوى .

12 ـ قدوم موسى لميقات ربه ، وإضلال السامري القوم بعبادة العجل ، ورجوع موسى غضبان أسفاً يحذر قومه مغبة ما وقعوا به من الشرك بالله .

13 ـ نصيحة هارون لبني إسرائيل بطاعة الرحمان عز وجل ، وعدم الوقوع في هذه الوثنية القبيحة ، ورجوع موسى مؤنباً هارون ، وحواره مع السامري وتوعده له .

14 ـ تسلية الله نبيّه ﷺ في ذكره أخبار ما قد سبق ، ونَعْتُ المجرمين يوم القيامة في ذلهم وحوارهم ، ووصف أهوال الموقف يوم الحشر والحساب .

15 ـ ثناء الله على القرآن ، ووصيته لنبيّه الإنصات لجبريل عليه السلام .

16 ـ عهدُ الله إلى آدم ونسيانه ، وأمره تعالى الملائكة السجود له ، وامتناع إبليس وتحذير الله عداوته ، ووسوسة الرجيم للأبوين حتى أكلا من الشجرة ، والتماس آدم التوبة من ربه حتى تاب عليه وهدى .

17 ـ هبوط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض ، وإرسال الله الرسل ، وضمانه السعادة للمؤمنين ، والشقاء للكافرين ، وذلك في الدارين .

18 ـ ترتيب الله المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره ، وذكر حال الأمم التي زلزلها بكفرها ، وحثّ الله رسوله على الصبر والتسبيح .

19 ـ تنبيه الله نبيّه إلى ترك النظر إلى المستكبرين المترفين ، والانشغال باستنقاذ أهله من النار بإقام الصلاة والصبر على ذلك ، ورزق الله مقسوم والعاقبة للمتقين .

20 ـ سؤال المشركين الآيات والمعجزات ، وهذا القرآن أكبر معجزة ، وفي اتباع هذا النبي منهاج الهداية والنجاة .

❑ ❑ ❑

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 8. **قوله تعالى**: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾.

في هذه الآيات: ثناء الله تعالى على القرآن، نَزَّله نوراً ورحمة لنبيّه وتذكرة للأنام، إنه الله تعالى على العرش استوى، يعلم ما في السماوات وما في الأرض ويعلم السر وأخفى، الله لا إلـه إلا هو له الأسماء الحسنى.

فقوله تعالى: ﴿طه﴾ ـ هو من مثيل الحروف المقطعة التي سبقت في أوائل السور، وأنها أفضل ما تدل على إعجاز هذا الكتاب الذي هو من جنس هذه الأحرف.

وقوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾. انتصار مباشر لهذا القرآن، بعد الافتتاح بتلك الحروف المقطعة، وأنه كلام الله العظيم المعجز، الذي فيه سرّ النجاة من شقاء الدنيا والآخرة، وسرّ حصول سعادة الدارين.

قال قتادة: (﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ لا والله ما جعله الله شقياً، ولكن جعله رحمةً ونوراً، ودليلاً إلى الجنة).

قال النسفي: (﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ لتتعب لفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم، وتحسرك على أن يؤمنوا، أو بقيام الليل[1]).

---

(1) أي كقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ ـ كما قال مجاهد. وقد كان رسول الله ﷺ يصلي من الليل حتى تورمت قدماه.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾.

قيل: هو استثناء منقطع ، أي: ولكن أنزلناه تذكرة. وقيل نصب ﴿ تَذْكِرَةً ﴾ على المصدر ، أي أنزلنا لتذكِّرَ به تذكرة. أو على المفعول لأجله ، والتقدير: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به ، ما أنزلناه إلا تذكرة. وكلها وجوه محتملة تدل على الإعجاز.

قال قتادة: (وإن الله أنزل كتبه ، وبعث رسله رحمة رحم الله بها العباد ، ليتذكر ذاكر ، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله ، وهو ذكر له أنزل الله فيه حلاله وحرامه).

وقوله تعالى: ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾ ـ فيه إشارة إلى صفة العلو لله العلي العظيم ، فإنه تعالى فوق العرش يدبر الأمر ، وهو بائن من خلقه كما وصف سبحانه نفسه.

وقوله: ﴿ تَنزِيلًا ﴾ مصدر ، أي نزلناه تنزيلاً. وقيل: بدل من ﴿ تَذْكِرَةً ﴾.

وقرأ أبو حيوة الشامي ﴿تنزيل﴾ بالرفع ، والنصب أرجح وأشهر. والعُلا: أي العالية الرفيعة ، وهي جمع العُليا. والمعنى كما قال ابن كثير: (هذا القرآنُ الذي جاءك يا محمد تنزيلٌ من ربِّ كلِّ شيء ومليكه ، القادر على ما يشاء ، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتِها ، وخلق السماوات العُلا في ارتفاعها ولطافَتِها).

وقوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ ـ أي علا وارتفع ، كما يليق بجلاله وكماله.

وقوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾.

قال القاسمي: (بيان لشمول قهره وملكته للكل. أي كلها تحت ملكته وقهره وسلطنته وتأثيره. لا توجد ولا تتحرك ولا تسكن ولا تتغير ولا تثبت إلا بأمره).

وقال النسفي: (﴿ وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ ما تحت سبع الأرضين أو هو الصخرة التي تحت الأرض السابعة).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾.

قال ابن عباس: (السّر: ما علمته أنت ، وأخفى: ما قذف الله في قلبك مما لم تعلمه).

وقال أيضاً: (يعني بأخفى: ما لم يعلمه ، وهو عامله ، وأما السّر: فيعني ما أسرّ

في نفسه). أو قال: (السّر: ما أسرّ ابن آدم في نفسه. وأخفى: قال: ما أخفى ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعمله، فالله يعلم ذلك). أو قال: (وأخفى: ما لا يعلم الإنسان مما هو كائن). وعن مجاهد: (﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: أخفى: الوسوسة). وقال عكرمة: (أخفى حديث نفسك). وقال سعيد بن جبير: (﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: السرّ: ما أسررت في نفسك، وأخفى من ذلك: ما لم تحدث به نفسك). وقال أيضاً: (أنت تعلم ما تُسِرُّ اليوم، ولا تعلم ما تُسِرُّ غداً، والله يعلم ما تُسِرُّ اليوم، وما تُسِرُّ غداً).

قلت: وكلها أقوال مفيدة تثري المعنى وتزيد من بيان آفاقه ومدلولاته وإعجاز لفظه.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

قال القاسمي: (﴿ٱللَّهُ﴾ أي ذلك المُنزِل الموصوف بهذه الصفات هو الله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي الفضلى، لدلالتها على معاني التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية والأفعال التي هي النهاية في الحسن).

9 ـ 16. **قوله تعالى**: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾.

في هذه الآيات: قصة موسى عليه الصلاة والسلام وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليم الله تعالى له، وذلك بعدما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صِهْره في رعاية الغنم وسار بأهله قاصداً بلاد مصر بعدما غاب عنها أكثر من عشر سنين، فخرج ومعه زوجته فأضل الطريق وكانت ليلةً شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال في ذلك البرد والظلام، فجعل يَقْدَحُ بِزَنْدٍ معه ليوريَ ناراً فلم يخرج شَرَرٌ منه، وهناك ظهر له من جانب الطور ناراً، من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشرهم إني

آنست ناراً لعلي آتيكم منها بشهاب من نار أو أجد عندها ما يدلني على الطريق. فلما اقترب من النار ناداه ربه تعالى بأجمل العبارات، وبشره بالنبوة وأمره بعبادته وإقام الصلوات، وأكّد له أمر الساعة ليحذر الناس من مغبة الوقوع في الشرك والآثام والموبقات.

فقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾. تسلية من الله لرسوله ﷺ عما يلقاه من أعدائه المشركين. أي هل أتاك ـ يا محمد ـ خبر موسى. قال النسفي: (ليتأسى به في تحمل أعباء النبوة بالصبر على المكاره ولينال الدرجة العليا كما نالها موسى).

وقوله: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾. قال ابن عباس: (لما قضى موسى الأجل، سار بأهله فضلّ الطريق. قال: كان في الشتاء، ورُفعت لهم نارٌ، فلما رآها ظن أنها نار، وكانت من نور الله ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾).

يروي ابن جرير عن ابن إسحاق، عن وهب بن منبه اليماني: (لما قضى موسى الأجل، خرج ومعه غنم له، ومعه زند له، وعصاه في يده يهشّ بها على غنمه نهاراً، فإذا أمسى اقتدح بزنده ناراً، فبات عليها هو وأهله وغنمه، فإذا أصبح غدا بأهله وبغنمه، فتوكأ على عصاه، فلما كانت الليلة التي أراد الله بموسى كرامته، وابتداءه فيها بنبوته وكلامه، أخطأ فيها الطريق حتى لا يدري أين يتوجه، فأخرج زنده ليقتدح ناراً لأهله ليبيتوا عليها حتى يصبح، ويعلم وجه سبيله، فأصلد زنده فلا يوري له ناراً فقدح حتى أعياه، لاحت النار فرآها، ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾).

وقوله: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾. أي لعلي أجيئكم من النار بشعلة. والقبس في كلام العرب: النار في طرف القصبة أو العود.

وقوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾. قال ابن عباس: (يقول: من يدلّ على الطريق). وقال قتادة: (من يهديني إلى الطريق).

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾. أي: فلما أتى النار موسى ناداه ربه، إني أنا ربك فاخلع نعليك وأفض بقدميك إلى بركة الوادي. قال مجاهد: (أمر أن يباشر بقدميه بركة الأرض). وقال ابن أبي نجيح: (في قوله: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ يقول: أفض بقدميك إلى بركة الوادي). وعن ابن عباس: (قوله: ﴿طُوًى﴾: هو اسم للوادي).

وفي التنزيل: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص: 30].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾.

أي: إني اصطفيتك للرسالة من بين جميع أهل زمانك فأصغ لهذا الوحي العظيم.

وفي التنزيل نحو ذلك: ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ [الأعراف: 144].

وقوله: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾.

قال ابن كثير: (هذا أول واجب على المكلّفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له). قلت: وهذه الكلمة العظيمة هي أصل العبادة وهي دعوة الرسل جميعاً وسرّ سعادة الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 52].

وفي صحيح مسلم عن عثمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [من مات وهو يعلم أنهُ لا إله إلا الله دخل الجنة][1].

وفي الصحيحين عن عتبان بن مالك، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الله حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله عز وجل][2].

وقوله: ﴿ فَٱعْبُدْنِى ﴾. قال ابن جرير: (يقول: فأخلص العبادة لي دون كل ما عبد من دوني).

وقوله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ ـ فيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: أقم الصلاة عند ذكرك لي. ذكره ابن كثير. قال مجاهد: (إذا ذكر عبَد ربه).

التأويل الثاني: أقم الصلاة لتذكرني فيها. ذكره القرطبي.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (26)ـ كتاب الإيمان، بابُ الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (11/ 206)، وأخرجه مسلم في الصحيح (33)ـ كتاب الإيمان، من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً.

التأويل الثالث: أقم الصلاة لأذكرك بالمدح في عليين بها. قال القرطبي: (فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل وإلى المفعول).

التأويل الرابع: أقم الصلاة إذا نسيتها حين تذكرها. قال إبراهيم: (﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾: يصليها حين يذكرها).

التأويل الخامس: أي حافظ بعد التوحيد على الصلاة.

قلت: وكلها معان متكاملة يتسع لها اللفظ الإلـهي المعجز، وقد دلّت السنة الصحيحة على بعضها في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ: [مَنْ نَسِيَ صلاةً فَلْيُصَلِّ إذا ذكَرَ، لا كفّارة لها إلا ذلك ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾][1].

الحديث الثاني: أخرج مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده، عن قتادة، عن أنس، عن النبي ﷺ: [إذا رقَدَ أحدكم عن الصلاة، أو غفل عنها، فليصلّها إذا ذكرها، فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾][2].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي في سننه بإسناد صحيح عن أبي هريرة قال: [لما قفل رسول الله ﷺ من خيبر أسرى ليلة حتى أدركه الكَرى أناخ فعرّس ثم قال: «يا بلال اكْلأ لنا الليلة». قال: فصلى بلال، ثم تساند إلى راحلته مستقبل الفجر، فغلبته عيناه فنام، فلم يستيقظ أحد منهم، وكان أولهم استيقاظاً النبي ﷺ فقال: «أي بلالُ»، فقال بلال: بأبي أنت يا رسول الله، أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك، فقال رسول الله ﷺ: «اقْتادُوا»، ثم أناخ فتوضأ فأقام الصلاة، ثم صلى مثل صلاته في الوقت في تمكُّث، ثم قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾][3].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾. أي: إن الساعة جائية أكاد أخفيها لنفسي لا تأتيكم إلا بغتة. قال ابن عباس: (﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ يقول: لا أظهر عليها أحداً غيري).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (597) ـ كتاب مواقيت الصلاة. وفي رواية: ﴿وأقم الصلاة للذِّكرى﴾. ورواه مسلم (684)، وأبو داود (442)، والترمذي (178)، والنسائي (1/ 293)، وابن ماجة (696)، وأحمد (3/ 243)، وابن حبان (1555).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (684)، (316)، ورواه أحمد (3/ 184) من طريق المثنى به.

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3387) في التفسير، سورة طه، آية (14)، وانظر صحيح سنن الترمذي (2530)، وصحيح سنن أبي داود (420 - 421)، وفي صحيح مسلم نحوه.

وقال: (لا تأتيكم إلا بغتة). وعن سعيد بن حبير: (﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ قال: من نفسي).

وقال السُّدي: (ليس أحدٌ من أهل السماوات والأرض إلا قد أخفى الله عنه عِلْمَ الساعة، وهي في قراءة ابن مسعود: ﴿إني أكاد أخفيها من نفسي﴾، يقول: كتمتُها من الخلائق، حتى لو استطعتُ أن أكتُمَها من نفسي لفعلتُ).

وقال قتادة: (﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، وهي في بعض القراءة ﴿أُخفيها من نفسي﴾، ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين، ومن الأنبياء والمرسلين).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: 65].

2 ـ وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: 187].

3 ـ وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: 42 - 44].

ومن صحيح السنة العطرة:

أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن بريدة، عن النبي ﷺ قال: [خمسٌ لا يعلمهُنَّ إلا الله: إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسِبُ غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾][1].

وقوله: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾. أي: لتثاب كل نفس قضى الله امتحانها في الدنيا بما تسعى. فمن يعمل صالحاً فلنفسه، ومن يعمل غير ذلك فإثمه على نفسه.

وفي التنزيل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: 7 ـ 8].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 353)، وكذلك (2/ 24)، (2/ 52)، وهو في صحيح البخاري في كتاب التفسير من حديث ابن عمر ـ نحوه ـ ورواه مسلم وغيره.

وفي سنن ابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إنما يبعث الناس على نياتهم][1].

ورواه من حديث جابر بلفظ: [يحشر الناس على نياتهم].

وبنحوه عند ابن حبان من حديث عائشة: [. . . ثم يبعثون على نياتهم وأعمالهم].

وقوله تعالى: ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾.

أي: فلا يردنّك عن التهيؤ للساعة يا موسى والتأهب لها من لا يؤمن بها ومضى خلف شهواته وأهوائه معظماً لها، فتهلك بذلك وتشقى.

قال الزمخشري: (وفي هذا حث عظيم على العمل بالدليل، وزجر بليغ عن التقليد، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله).

17 ـ 24. قوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾.

في هـذه الآيـات: إبرازُ الله تعالى آية لموسى، عصاه ألقاها فانقلبت بإذن الله حية تسعى، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى، ثم أراه آية أخرى، يده ضمّها إلى جناحه فخرجت بيضاء بإذن ربه الأعلى. ليذهب محملاً باليقين ممتثلاً أمر الله إلى فرعون الذي طغى.

فقوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ ـ استفهام تقريـر.

أي هو تنبيه من الله سبحانه ليقرّر بنفسه أنها خشبة يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه، لِيُعَرِّفَه قدرته تعالى على تحويلها إلى حية تسعى.

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4229)، (4230) ـ كتاب الزهـد ـ باب في النية، وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3407)ـ(3408)، ورواه ابن حبان في صحيحه نحوه، وقد مضى.

قال النسفي: (والسؤال للتنبيه لتقع المعجزة بها بعد التثبت، أو للتوطين لئلا يهوّله انقلابها حَيَّة، أو للإيناس ورفع الهيبة للمكالمة).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾. أي: فأجاب موسى أنها عصاه يعتمد عليها حال المشي ويهزّ بها الشجرة ليسقط ورقُها لترعاه غنمه، وأن له بها مصالح ومنافع أخرى.

قال قتادة: (﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾: أخبط بها الشجر). وقال: (كان نبي الله موسى ﷺ يهشُّ على غنمه ورق الشجر). وقال السدي: (يقول: أضرب بها الشجر للغنم، فيقع الورق). وقال الضحاك: (يقول: أضرب بها الشجر حتى يسقط منه ما تأكل غنمي).

وعن ابن عباس: (﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ قال: حوائج أخرى قد علمتها). وقال مجاهد: (حاجات). أي حاجات أخرى سوى ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴾ ـ ابتداء لأسباب ظهور المعجزة. قال ابن عباس: (لما قيل لموسى: ألقها يا موسى، ألقاها) ـ أي العصا التي كانت في يده.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾. أي: قَلَبَ الله أوصافها وأعراضها، فصارت العصا حَيَّةً بإذن الله ﴿ تَسْعَىٰ ﴾ أي: تنتقل وتمشي وتتحرك. قال وهب بن منبه: (تهتزّ، لها أنياب وهيئة كما شاء الله أن تكون، فرأى أمراً فظيعاً، فولى مدبراً).

وفي التنزيل: ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ [النمل: 10]. فنودي: ﴿ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: 10].

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴾.

قال وهب بن منبه: (فولى مُدبراً، ولم يعقّب، فناداه ربه: يا موسى أقبل ولا تخف ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴾. قال: أي سنردها عصاً كما كانت).

وعن ابن عباس: (﴿ سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴾ يقول: حالتها الأولى). أي سنردها إلى هيئتها الأولى عصاً كما كانت.

وقوله تعالى: ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴾.

أي: أدخل يدك ـ يا موسى ـ في جيبك كما تفسّره الآية الأخرى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ [النمل: 12]. وكذلك الآية: ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ

بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ [القصص: 32]. فهذا برهان ثانٍ لموسى ﷺ إذْ أمره ربه أن يدخل يده في جيبه تخرج بيضاء من غير سوء: أي من غير برص ولا أذى ولا شين.

وعن ابن عباس: (﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ قال: من غير برص). قال الحسن: (أخرجها الله من غير سوء، من غير برص، فعلم موسى أنه لقي ربه).

وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾.

قال ابن جرير: (كي نريك من أدلتنا الكبرى على عظيم سلطاننا وقدرتنا).

وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾. أي تجاوز قدره وحدّه، وتمرَّدَ على ربه.

قال ابن كثير: (أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذي خَرَجت فارّاً منه وهارباً، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وَمُرْهُ فليُحْسِن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغىٰ وبغىٰ، وآثر الحياة الدنيا، ونسي الرب الأعلى).

25 ـ 35. **قوله تعالى**: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

في هذه الآيات: رجاءُ موسى عليه الصلاة والسلام رَبّه، أن يشرح صدره، وييسر أمره، ويزيل العجمة من لسانه، ويجعل هارون وزيراً له يعينه في أمره، رجاء إقامة منهج التعظيم لله وحده والإكثار من ذكره، إنه هو السميع البصير.

فقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ ـ سؤال من موسى عليه السلام ربّه تبارك وتعالى ليشرح صدره فيما بعثه به، إلى أكبر طغاة الأرض وأكثرهم جنوداً وأعمرهم ملكاً. وأن يكون له في مهمته عَوناً ونصيراً وظهيراً.

قال ابن زيد: (﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ قال: جرأة لي). وقال القرطبي: (﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾أي وسّعه ونوّره بالإيمان والنبوة ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ أي سهّل عليّ ما أمرتني به من

تبليغ الرسالة إلى فرعون). وقوله تعالى: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ ـ أي أزل العجمة التي في لساني يفقهوا عني ما أخاطبهم به بالكلام. قال ابن عباس: (كانت في لسانه رُتَّة). قيل: يعني العجمة التي كانت فيه من جمرة النار التي أطفأها في فيه وهو طفل). وقيل غير ذلك، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۝٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾.

هو من تمام سؤال موسى ربه عونه في تيسير مهمته لدعوة ذلك الطاغية المتجبر فرعون. فسأل ربه أن يجعل له عوناً من أهل بيته. قال النسفي: (﴿وَزِيرٗا﴾ ظهيراً أعتمد عليه، من الوزر الثقل، لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنته، أو من الوزر الملجأ، لأن الملك يعتصم برأيه، ويلتجئ إليه في أموره، أو معيناً من الموازرة وهي المعاونة).

أخرَج النسائي بسند صحيح عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [من ولي منكم عملاً فأراد الله به خيراً جعل له وزيراً صالحاً إن نسي ذكَّرَه، وإن ذكَر أعانه][1].

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد مرفوعاً: [ما بعث الله من نبيّ ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتحضّه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضّه عليه، فالمعصوم من عصمه الله][2].

وقوله: ﴿هَٰرُونَ﴾ عطف بيان لـ «وزيراً»، وقوله ﴿أَخِي﴾ بدل أو عطف بيان آخر.

وعن ابن عباس: (﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾ يقول: اشدد به ظهري). وقال ابن زيد: (يقول: اشدد به أمري، وقوّني به، فإن لي به قوّة). وعن مجاهد: (﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾ قال: ظهري). وفي لغة العرب: أزر فلان فلاناً: إذا أعانه وشدّ ظهره. قال الرازي: (الأَزْر: القوة. وقوله تعالى: ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾ أي ظهري. و«آزره» أي عاوَنَه).

قال ابن جرير: (وقوله: ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ يقول: واجعله نبياً مثل ما جعلتني نبياً، وأرسله معي إلى فرعون). وقال ابن كثير: (﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ أي: في مشاورتي).

وقوله تعالى: ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۝٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾.

أي: كي نعظمك بالذكر والتسبيح والدعاء، فإنك العليم بأحوالنا البصير بحاجاتنا.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه النسائي (7/ 159) من حديث القاسم عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وإسناده صحيح، ويشهد له الحديث الذي بعده.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7198)، وأخرجه أحمد (3/ 39) من حديث أبي سعيد، ورواه أحمد (2/ 289) وأبو يعلى (6000)، وصححه ابن حبان (6191) من حديث أبي هريرة.

قال القاسمي: (أي كي نتعاون على تسبيحك وذكرك. لأن التعاون ـ لأنه مهيج الرغبات ـ يتزايد به الخير ويتكاثر ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أي عالماً بأحوالنا، وبأن المدعوّ به مما يفيدنا).

وعن مجاهد قال: (لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً).

36 ـ 40. **قوله تعالى**: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

في هذه الآيات: إجابةُ الله تعالى دعوة موسى ﷺ، وامتنانه عليه بإلهام أمه أيام طفولته قذفه بالتابوت في اليم ليلقيه الله إلى بيت عدوه، ثم إرجاعه إلى أمه لإرضاعه أثناء سعي أخته في ذلك، ثم ما كان من حماية الله له أثناء الشباب بعد قتله القبطي واختباره اختباراً كثيراً.

فقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

قال القرطبي: (لما سأله شرح الصدر، وتيسير الأمر إلى ما ذكر، أجاب سؤاله، وأتاه طِلْبَتَه ومرغوبه).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾.

قال ابن كثير: (تذكير له بنِعَمِهِ السَّالِفة عليه، فيما كان ألهم أمَّه حينَ كانت تُرْضِعُهُ، وتحذر عليه من فرعون وَمَلَئِهِ أن يقتلوه، لأنه كان قد وُلِدَ في السَّنة التي يقتلون فيها الغلمان. فاتخذت له تابُوتاً، فكانت ترضِعُه ثم تَضَعُه فيه، وتُرسِلُه في البحر ـ وهو النيل ـ وتُمْسِكُه إلى مَنْزلها بحبل، فذهبت مرة لتربطه فانفلت منها وذهب به البحر،

فَحصل لها من الغمِّ والهمِّ ما ذكره الله عنها في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: 10]، فذهب به البحر إلى دار فِرعون، ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: 8]، فحَكَم الله ـ وله السلطان العظيم والقدرة التامة ـ أن لا يُرَبَّىٰ إلا على فراش فرعون، ويُغْذَىٰ بطعامه وشرابه، مع محبَّتِه وزوجته له. ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾. أي: عند عَدُوّك، جعلتُه يُحبُّك. قال سلمة بن كُهيل: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ قال: حَبَّبْتُكَ إلى عبادي).

وعن ابن إسحاق قال: (لما ولدت موسىٰ أمه أرضعته، حتى إذا أمر فرعون بقتل الولدان من سنته تلك عمدت إليه، فصنعت به ما أمرها الله تعالى، جعلته في تابوت صغير، ومهدت له فيه، ثم عمدت إلى النيل فقذفته فيه، وأصبح فرعون في مجلس له كان يجلسه على شفير النيل كل غداة، فبينا هو جالس، إذ مرّ النيل بالتابوت فقذف به وآسية ابنةُ مُزَاحم امرأته جالسة إلى جنبه، فقال: إنّ هذا لشيء في البحر، فأتوني به، فخرج إليه أعوانه حتى جاؤوا به، ففتح التابوت فإذا فيه صبي في مهده، فألقى الله عليه محبته، وعطف عليه نفسه، وعنىٰ جل ثناؤه بقوله: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ فرعون هو العدوّ، كان لله ولموسىٰ).

وعن السدي: (﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ وهو البحر، وهو النيل).

وقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾.

قال قتادة: (هو غذاؤه، ولتغذى على عيني). وقال ابن جريج: (أنت بعيني إذ جعلتك أمك في التابوت، ثم في البحر). وقال أبو نهيك: (ولتعمل على عيني). قال ابن جرير ـ شيخ المفسرين ـ: (معناه: ولتغذىٰ وتربىٰ على محبتي وإرادتي).

والمقصود: أنّ تربية موسى عليه الصلاة والسلام إنما كانت برعاية الله سبحانه، لأن العرب حين تقول: (فلان يسير على عيني) يعنون: برعايتي. و(رَبَّيْتُه على عيني) أي: تحت نظري ومراقبتي وإشرافي.

قلت: فلفظ «العين» في التنزيل قد يفيد الصفة التي لابد من إثباتها لله سبحانه، وقد يفيد العناية والرعاية، والله المستعان.

وقوله: ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ ﴾.

إخبار من الله تعالى أنه لما استقر موسى عليه السلام رضيعاً في بيت فرعون، عَرَضوا عليه المراضع فأباها، وهو قوله سبحانه: ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ فجاءت أخته وقالت: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [القصص: 12]. أي: هل أدلكم على مرضعة ترضِعُه لكم بالأجرة؟ فذهبت به وهم معها إلى أمه، فعرضت عليه ثَدْيها، فقَبِلَهُ، فردّ الله موسى إلى أمه وأدخل عليها السرور والفرح من جديد، وأزال عنها الهم والحزن، ونالها إضافة إلى سرورها أجر الإرضاع، ولثواب الله في الآخرة أطيب وأكمل.

وقوله: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ ﴾.

قال ابن جرير: (﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ يعني جل ثناؤه بذلك: قتله القبطي الذي قتله حين استغاثه عليه الإسرائيلي، فوكزه موسى). وقال مجاهد: (﴿ فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾: من قتل النفس). أي: نجيناك ممّا نزل بك من غم ذلك القتل وما تبعه من محاولة القوم أن يقتلوك بما صدر منك، فخلصناك منهم، حتى هربت إلى أهل مدين، فلم يبلغوا إلى قتلك أو قودك سبيلاً. ثم لجأت إلى ذلك الرجل الصالح فطمأنك وقال لك: ﴿ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: 25].

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ ﴾ يقول: اختبرناك اختباراً). أو قال في رواية أخرى: (ابتليت بلاء). والمقصود: استعراض تلك المحن والبلايا التي قضى الله لموسى أن يمرّ بها حتى يكتمل ويصلب ويواجه حمل أمانة الوحي والنبوة.

وفي صحيح مسلم عن سالم بن عبد الله بن عمر قال: [يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة وأركبَكم للكبيرة؟! سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الفتنة تجيء من ها هنا»، وأومأ بيده نحو المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان، وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض، وإنما قتل موسى عليه السلام الذي قتل من آل فرعون خطأً فقال الله عز وجل له: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ ﴾][1].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2905) (50)ـ كتاب الفتن. باب الفتنة نحو المشرق.

وقوله: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: لقد جئت لميقات يا موسى). وقال مجاهد: (على ذي موعد). وقال قتادة: (قدر الرسالة والنبوة).

والمقصود: لقد لبثت يا موسى تلك السنين مقيماً في أهل مدين فارّاً من فرعون وملئه، وكنت ترعى على صهرك، حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، لتأتي من جديد إلى مصر على قدر الله وإرادته لتبدأ مرحلة جديدة، وهي مرحلة القيام بأعباء الرسالة والنبوة ومواجهة الطواغيت.

41 ـ 44. قوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾.

في هذه الآيات: امتنان الله تعالى على موسى ﷺ في لبثه سنين في أهل مدين آمناً من فرعون، ثم مجيئه إلى مصر على موعد لبدء مرحلة جديدة هي القيام بأعباء النبوة، ليذهب مع أخيه هارون بأمر الله لمقابلة الطاغية فرعون ودعوته إلى الحق بقول لين لعله يتذكر أو يخشىٰ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ ـ أي اخترتك نبياً، واجتبيتك رسولاً، واصطفيتك لنفسي كما أريد وأشاء للقيام بأمري ونهيي.

وفي صحيح البخاري ـ عند تفسير هذه الآية ـ عن محمد بن سِيرينَ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: [التقى آدمُ وموسىٰ، فقال موسىٰ لآدمَ: أنت الذي أَشْقَيْتَ الناسَ وأَخْرَجْتَهم من الجنة؟ قال له آدمُ: أَنْتَ الذي اصْطفاكَ الله برسالتِهِ، واصْطفاكَ لِنَفْسِهِ، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم، قال: فوجَدْتَها كُتِبَ عَلَيَّ قبلَ أن يَخْلُقَني؟ قال: نعم، فَحَجَّ آدمُ موسىٰ][1].

وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾.

أي: اذهب أنت وهارون بأدلتي وحججي إلى فرعون الذي تمرّد في ضلاله وعتا في غَيِّه وظلمه، فادعواه إلى الحق ولا تضعفا في ذكري فإن في ذِكرِكُما لي قوة وعزيمة لكما.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (4736)ـ كتاب التفسيرـ سورة طه ـ آية (41)، ورواه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2652).

قال ابن عباس: (﴿وَلَا تَنِيَا﴾ يقول: لا تبطئا). وقال: (يقول: ولا تضعفا في ذكري).

قال ابن زيد: (الواني: هو الغافل المفرط ذلك الواني).

والمقصود: استحضار عظمة الله عز وجل بذكره عند لقاء الطاغية أو الظالم، فإن ذلك ممّا يهوّن على المؤمن أمر العتاة والبغاة وأهوال اقتحام حواجز الكبر التي يصنعها أئمة الكفر في الأرض لِيَحُولوا دون وصول دعوة الله إلى الناس في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

أي اذهبا إلى فرعون الذي تمرّد وعتا، وتَجَهْرَم على الله وعصا، ودعا الناس إلى عبادته وتعظيمه من دون الله، ومع ذلك استميلاه بِلَيِّنِ القول ولطيفه لعله يتذكر أو يخشىٰ.

قال ابن كثير: (هذه الآية فيها عبرةٌ عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العُتُوِّ والاستكبار، وموسى صَفْوَةُ الله من خَلْقِهِ إذ ذاك، ومع ذلك أُمِرَ ألاَّ يخاطِبَ فِرْعون إلا بالملاطفة واللِّين، كما قال يَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ عند قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾: يامَن يَتَحَبَّبُ إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويُناديه؟).

ويُروىٰ هنا من شعر زيد بن عمرو بن نُفيل، أو أمية بن أبي الصَّلْت فيما ذكره ابن إسحاق:

وأنتَ الذي من فَضْلِ مَنٍّ ورحْمَةٍ ... بَعَثْتَ إلى موسىٰ رسولاً مُنادياً
فقلتَ له: فاذهَبْ وهارونَ فادعُوا ... إلى الله فرعونَ الذي كان باغِياً
فقُولا له: هل أنْتَ سَوَّيْتَ هذِه ... بلا وَتَدٍ حتىٰ اسْتَقَلَّتْ كما هِيَا؟
وقولا له: آأنت رَفَّعْتَ هذِهِ ... بلا عَمَدٍ؟ أَرْفِقْ إذن بك بانِياً
وقولا له: آأنت سَوَّيْتَ وَسْطَها ... مُنيراً إذا ما جَنَّهُ الليل هادياً؟
وقولا له: مَنْ يُخرِجُ الشمس بُكْرَةً ... فَيُصْبحَ ما مَسَّت مِنَ الأرض ضاحِياً؟
وقولا له: من يُنْبِتُ الحبَّ في الثّرى ... فَيُصبحَ منه البَقْلُ يَهْتَزُّ رابِيَاً؟
ويُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ في رؤوسه ... ففي ذاكَ آياتٌ لِمَنْ كان واعِيَا

45 ـ 48. قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا

تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: خشيةُ موسى بطش فرعون به وبأخيه ، وطمأنَةُ الله له بأنهما تحت رعايته وحمايته ـ جلّت عظمته ـ ، وأمْرُه تعالى لهما بلقاء فرعون وإخباره أنهما رسولا الله تعالى إليه ليطلق بني إسرائيل من الاستعباد ، وقد أتيناك بحجة على صدق دعوانا ، والسلام من عذاب الله على من أسلم واتبع الهدى. فإن العذاب ـ كما أوحي إلينا من ربنا ـ على من كذّب بكتاب الله وتولى عن طاعته.

فقوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ .

الإفراط: الإسراف والإشطاط والتعدي. والتفريط: التواني.

قال ابن زيد: (﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ قال: نخاف أن يعجل علينا إذ نبلغه كلامك أوأمرك ، يفرط ويعجل). وعن مجاهد: (﴿ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ ﴾ قال: عقوبة منه). وعن ابن عباس: (﴿ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾: يعتدي).

والمقصود: خشية موسى وهارون عليهما السلام من اعتداء فرعون عليهما عند سماعه كلام الحق ، فيحمله ذلك على الشطط في الطغيان والعقوبة والبغي. فهما يستجيران بالله من حدوث ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ .

طمأنة من الله سبحانه لرسوليه موسى وهارون عليهما السلام من أن ينالهما أذى من فرعون ، فهو تعالى معهما بسمعه وبصره ، والمراد بحفظه ونصره وتأييده.

قال ابن عباس: (أسمع دعاءكما فأجيبه ، وأرى ما يراد بكما فأمنع ، لست بغافل عنكما فلا تهتما).

قلت: وجميع آيات المعية مُفَسَّرة بما قبلها أو بعدها ، وهذه الآية العظيمة واحدة من تلك الآيات ، فالله سبحانه معنا بصفاته لا بذاته ، فذاته الكريمة فوق العرش وهو يدبر الأمر في هذا الكون ، كما قال سبحانه: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: 5].

وقوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

أي: فأتيا فرعون فأخبراه أنكما رسولا الله تعالى إليه أن أطلق بني إسرائيل من الاستعباد والاسترقاق، ولا تعذبهم بتكليف المشاق، وقد أتيناك بحجة على صدق دعوانا، وقد سلم من عذاب الله من أسلم واتبع الهدى.

وبنحو ذلك كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتاباً ـ كما روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس ـ وفيه: [بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتَّبَعَ الهدى، أما بعْدُ: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسْلِمْ تَسْلَمْ يُـؤْتِكَ الله أجرك مرتين..] الحديث[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

قال قتادة: (ـ أي ـ كذّب بكتاب الله، وتولى عن طاعة الله).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1ـ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾. [النازعات: 37 - 39].

2 ـ وقال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: 14- 16].

3 ـ وقال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: 31-32].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺقال: [كُلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبىٰ. قالوا: يا رسول الله، ومَنْ يأبىٰ؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبىٰ][2].

49 ـ 56. قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (7) ـ كتاب بدء الوحي، في أثناء حديث طويل.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (7280)ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ .

في هذه الآيات: محاولةُ فرعون أثناء لقائه موسى وهارون إنكار وجود الصانع الخالق ، وتأكيد موسى على ربوبية الله عز وجل الذي خلق كل شيء فَقَدَّرَهُ تقديراً ، فهو تعالى الذي مهّد الأرض وجعل فيها السبل وأنزل الماء وأخرج النبات متاعاً للإنسان والأنعام ثم المرجع إليه تعالى ، فإليه يصرف التعظيم وجميع أعمال العبادة ، فما كان من فرعون إلا أن استكبر وكذب وأبى .

فقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ . في الكلام محذوف تقديره: فأتَيَاه فأبْلَغاه رسالةَ ربهما عز وجل فقال: من ربكما يا موسى. قال النسفي: (خاطبهما ثم نادى أحدهما لأن موسى هو الأصل في النبوة وهارون تابعه). وقد أراد فرعون بذلك إنكار وجود الصانع الخالق ، رب كل شيء وإلـهه ومليكه.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ .

هو جواب موسى البليغ المفحم. قال ابن عباس: (يقول: خلق لكل شيء زوجة ، ثم هداه لمنكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه ومولده). وقال مجاهد: (أعطى كل شيء صورته ثم هدى كل شيء إلى معيشته). وقال أيضاً: (سوَّى خلق كلّ دابة ثم هداها لما يُصلحها وعلَّمها إياه ، ولم يجعل الناس في خلق البهائم ، ولا خلق البهائم في خلق الناس ، ولكن خلق كل شيء فقدره تقديراً). وقال حميد عن مجاهد: (هداه إلى حيلته ومعيشته).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: 2-3].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: 7].

قلت: وهذه الهداية هي هداية الخالق جميع خلقه لمصالحهم ، وهي النوع الأول

من مراتب الهداية: الهداية العامة للخلق. فإن الله سبحانه قد هدى الأشياء والمخلوقات لأسلوب حياتها ولوظيفتها منذ أن خلقها. كما روى الإمام مسلم في صحيحه، والإمام أحمد في مسنده، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة، في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل](1).

قال الراغب الأصبهاني رحمه الله: (كُلُّ ما أوجده الله تعالى فإنه هداه لما فيه مصلحتُه كما نبّه عليه بقوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾. لكن هدايته للجمادات بالتسخير فقط، كالأشياء الأرضية التي إذا تركت تنحو نحو الأسفل، وكالنار التي تنحو نحو العلوّ. وهدايته للحيوانات إلى أفعال تتعاطاها بالتسخير والإلهام، كالنحل فيما يتعاطاه من السياسة ومن عمل العسل، وكالسُّرْفة(2) فيما تبنيه من الأبنية، وكالعنكبوت في نسجه)(3).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾.

محاولةٌ ماكرةٌ من فرعون لصرف المسألة الأولى ـ مسألة الربوبية ـ وإبعادها، لَمَّا واجَهَهُ موسى عليه الصلاة والسلام بتلك الحجة الدامغة: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾. فأعاده موسى بذكاء وحنكة إلى المسألة التي يهرب منها: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾.

قال ابن كثير: (أصح الأقوال في معنى ذلك أنَّ فرعونَ لما أخبرهُ موسى بأنَّ ربَّهُ الذي أرسله هو الذي خلقَ ورزقَ وَقَدَّرَ فهدى، شَرَعَ يحتج بالقُرون الأولى، أي: الذين لم يَعْبدوا الله، أي: فما بالُهم إذا كان الأمرُ كما تقول لم يعبُدوا ربَّك، بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبُدوه، فإن عَمَلَهم عند الله مضبوطٌ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2789)، وأحمد (2/ 327)، والنسائي في الكبرى (11010)، وأخرجه البيهقي في «الصفات» (2/ 124 ـ 125).

(2) السُّرْفَة: دويبة تتخذ لنفسها بيتاً مربعاً من دقاق العيدان، تضم بعضها إلى بعض باللعاب، ثم تدخل فيه وتموت.

(3) ذكره الراغب في كتابه: «تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين». وانظر تفصيل البحث في كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 893 ـ 907) في بحث القدر، مراتب الهداية والضلال.

عليهم ، وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله ، وهو اللوح المحفوظ وكتابُ الأعمال ، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ ، أي: لا يَشِذُّ عنه شيء ، ولا يفوته صغيرٌ ولا كبيرٌ ، ولا ينسى شيئاً. يَصِفُ علمه تعالى بأنه بكل شيء محيطٌ ، وأنه لا ينسى شيئاً ، تبارك وتعالى وتقدّس ، فإن علمَ المخلوق يعتريه نُقصانان ، أحدُهما: عدمُ الإحاطة بالشيء ، والآخر نسيانُه بعد عِلمه ، فنزّه نفسه عن ذلك).

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾.

متابعة من موسى عليه الصلاة والسلام في ذكر بعض صفات الرب سبحانه: إنه ـ تعالى ـ الذي جعل لكم الأرض قراراً تستقرون عليها وتمشون في حوائجكم وتسافرون على ظهرها ، وجعل لكم فيها طرقاً ومسالك(1) تسلكون فيها لأعمالكم وأسفاركم ، وأنزل من السماء ماء فأخرج لكم به من ألوان النباتات والثمار المختلفة الأكل والطعوم والأنواع. كلوا منها وأطعموا بهائمكم ، وفي ذلك آيات كبيرة لأصحاب العقول وأولي الألباب.

قال القرطبي: (﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ أمر إباحة. ﴿وَٱرْعَوْا۟﴾ من رعت الماشية الكلأ ، ورعاها صاحبها رعاية ، أي أسامها وسرحها ، لازم ومتعد ، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أي العقول. الواحدة نُهْيَة. قال لهم ذلك ، لأنهم الذين يُنْتهى إلى رأيهم. وقيل: لأنهم ينهون النفس عن القبائح. وهذا كله من موسى احتجاج على فرعون في إثبات الصانع جواباً لقوله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾. وبيّن أنه إنما يستدل على الصانع اليوم بأفعاله).

وقوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.

أي: من الأرض خلقنا أباكم آدم عليه السلام ثم كنتم من بعد ذلك الأصل ، ثم نعيدكم بعد مماتكم إلى الأرض ، ثم تخرجون منها للبعث والحساب.

قال ابن زيد: (﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ قال: مرة أخرى الخلق الآخر).

أخرج الإمام أحمد والحاكم بسند صحيح من حديث البراء عن النبي ﷺ قال: [إنّ العبد المؤمن إذا خرجت روحه صعدت به الملائكة فلا يمرّون بها على ملأ من الملائكة

(1) كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: 31].

إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟! فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، فيستفتحون لها فيفتح، فيشيّعه من كل سماء مقرّبوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهىٰ بها إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا لعبدي كتابا في عِلّيين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، فتعاد روحه في جسده. . .] الحديث [1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: ولقد أرينا فرعون آياتنا، يعني أدلتنا وحججنا على حقيقة ما أرسلنا به رسولينا موسى وهارون إليه كلها ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ أن يقبل من موسى وهارون ما جاءا به من عند ربهما من الحق استكباراً وعتوّاً).

57 ـ 64. **قوله تعالى**: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

في هذه الآيات: اتهام فرعون موسى بالسحر ومحاولة تقويضه بسحر مثله، واجتماع الناس لرؤية مشهد السحرة في مبارزتهم موسى، وتحذير موسى القوم من مغبة الكذب على الله وإنكار الحق أمام تشجيع فرعون لهم.

فقوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

محاولةٌ من فرعون للتخلص من سلطان حجج موسى وقوة أدلته بالاتهام بالسحر واللجوء إلى المكر والحيلة.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 287)، والحاكم (1/ 37)، والآجري في «الشريعة» ص(367)ـ(370) من حديث البراء، وله شواهد عند ابن ماجة والطيالسي وأبي داود وغيرهم.

قال النسفي: (فيه دليل على أنه خاف منه خوفاً شديداً، وقوله: ﴿بِسِحْرِكَ﴾ تعلل، وإلا فأي ساحر يقدر أن يخرج ملكاً من أرضه؟!).

وقوله تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾.

أي: فلنعارضَنَّكَ بسحر مثل سحرك، فاختر لذلك مكانَ موعدٍ على النَّصَفِ بيننا وبينك. قال مجاهد: (﴿مَكَانًا سُوًى﴾: منصفاً بينهم). وقال قتادة: (نصفاً بيننا وبينك، أي عادلاً بيننا وبينك).

قلت: وأصل قوله ﴿سُوًى﴾ من الاستواء، كما قال ابن زيد: (﴿مَكَانًا سُوًى﴾: مكاناً مستوياً يتبين للناس ما فيه، لا يكونُ صُوَبٌ ولا شيءٌ فيغيب بعضُ ذلك عن بعض، مُسْتَوٍ حينَ يُرَىٰ).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾.

أي: في يوم عيدهم ذلك. قال ابن عباس: (فإنه يوم زينة يجتمع الناس إليه ويحشر الناس له).

وعن ابن جريج قال: (يوم زينة لهم، ويوم عيد لهم ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ إلى عيد لهم).

وقال السدي: (﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ وذلك يوم عيد لهم). وقال ابن زيد: (يوم العيد، يوم يتفرَّغُ الناس من الأعمال، ويشهدون ويحضُرون ويرون). قال ابن كثير: (﴿ضُحًى﴾ أي: ضَحْوَة من النهار ليكونَ أظهرَ وأجلَىٰ وأبْيَنَ وأوضحَ. وهكذا شأنُ الأنبياء، كُلُّ أمرهم واضحٌ بَيِّنٌ، ليس فيه خَفاءٌ ولا ترويج. ولهذا لم يقل: ليلاً، ولكن نهاراً ضُحىً).

وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ ـ فيه إشارة إلى انتفاض فرعون لمواجهة ما أشغله وأهمه، فشرع يجمع الكيد والسحر والسحرة الماهرين من جميع مدائن مملكته، ثم حضر بقوة سلطانه وأبّهته وكيده وسحرته.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾. أي: بادأهم موسىٰ عليه الصلاة والسلام حين اجتمعوا بالتحذير من بطش الله إن عاندوا حججه وآياته سبحانه بالكذب والافتراء ـ يقول ذلك للسحرة.

وعن ابن عباس: (﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ يقول: فيهلككم). وقال قتادة (فيستأصلكم بعذاب فيهلككم). وقال ابن زيد: (يهلككم هلاكاً ليس فيه بقية، قال: والذي يسحت ليس فيه بقية).

قلت: وأصل السحت في كلام العرب الاستئصال. قال الرازي: (أسحته: استأصله).

وقوله تعالى: ﴿فَتَنَازَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾.

قال قتادة: (قال السحرة بينهم: إن كان هذا ساحراً فإنا سنغلبه، وإن كان من السماء فله أمر). وقال وهب بن منبه: (فترادّ السحرة بينهم، وقال بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر).

أي: تشاجر السحرة فيما بينهم أن هذا ليس بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبي، وتناجوا فيما بينهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾.

قال وهب بن منبه: (أشار بعضهم إلى بعض بتناج: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾). وقال قتادة: (موسى وهارون صلى الله عليهما).

والمعنى: قال السحرة فيما بينهم: هذان الرجلان ـ يعنون موسى وهارون ـ فيما يبدو ساحران خبيران بصناعة السحر، فحذار أن يغلباكم اليوم ويستوليا على قلوب الناس ويستبدا بطريقة السحر لهما ينتفعان بها دونكم، بعدما كان لكم منها رزق وعيش ومكانة وصدارة. فإذا كان ذلك وانتصرا وتبعهما العامة قاتلا فرعون وجنوده فانتصرا عليه وأخرجاكم من أرضكم.

وعن ابن عباس: (﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ يعني: مُلْكَهُم الذي هم فيه والعيش).

وعن مجاهد: (﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ قال: أولي العقل والشرف والأنساب).

قال قتادة: (وطريقتهم المُثلى يومئذ كانت بنو إسرائيل، وكانوا أكثر القوم عدداً وأموالاً وأولاداً. قال عدو الله: إنما يريدان أن يذهبا بهم لأنفسهما).

قلت: والمقصود أنهم خافوا على طريقتهم التي كانوا عليها من إتقانهم السحر

وأساليبه والتي كانت تدرّ عليهم الأموال والمناصب والصدارة بين بني إسرائيل وعند فرعون وملئه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّاۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾.

أي: اجتمعوا صفاً واحداً، ثم ألقوا ما في أيديكم مرةً واحدة، فإنكم إذا فعلتم ذلك كان أهيبَ في صدور الرائين، ومن ثمّ تكون لكم الغلبة على هذين الرجلين.

وعن وهب بن منبه قال: (جمع فرعون الناس لذلك الجمع، ثم أمر السحرة فقال: ﴿ٱئْتُواْ صَفًّاۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ أي قد أفلح من أفلج اليوم على صاحبه).

والمقصود: إنْ كانت لكم الغلبة فقد أفلحتم اليوم بعطايا فرعون، وتمكّن فرعون من رياسته العظيمة وملكه العجيب.

65 ـ 70. **قوله تعالى:** ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾.

في هذه الآيات: بدء الاستعراض من السحرة بحبالهم وعصيهم أمام موسى وأعين الناس، وشعور موسى بالخوف من رهبة ما رأىٰ، وتثبيت الله تعالىٰ له بأمره إلقاء ما في يمينه لتحصد سحرهم وكذبهم، وانتهاء المشهد بسجود السحرة لله قائلين آمنا برب هارون وموسى.

فقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ﴾.

أي: قال السَّحرة لموسى لما استعدوا لبدء اللقاء والسجال إما أن تلقي أنت أولاً وإما أن نبدأ نحن بالإلقاء. فأجابهم موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بل أنتم ألقوا. قال ابن كثير: (أي: أنتم أولاً لنرى ماذا تصنعون من السِّحر، وليظهر للناس جليَّةُ أمرهم).

وقوله: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾.

في الكلام متروك، والتقدير: فألقى السحرة ما معهم من الحبال والعصي.

والمعنى: فإذا الحبال والعصي تتحرك وتضطرب وتميد بما أودعوها من الزئبق. قال النسفي: (رُوي أنهم لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت فخيلت ذلك).

أي: يخيّل للناظر أنها حيات تسعى باختيارها ويركب بعضها بعضاً حتى امتلأ منها الوادي.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾.

قال القاسمي: (أي: أحس ﴿ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ وذلك لما جُبِلَ عليه الإنسان من النفرة من الحيات. أو خاف من توهم الخلق المعارضة، بأن لهم من حبالهم وعصيهم حيات، كما أن له من عصاه حية). وقال ابن كثير: (أي: خاف على الناس أن يَفْتَتِنُوا بسحرهم ويَغْترّوا بهم قبل أن يلقي ما في يمينه، فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة أن ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾، يعني عصاه، فإذا هي تلقف ما صنعوا، وذلك أنها صارت ثعباناً عظيماً هائلاً ذا عيون وقوائمَ وعُنُق ورأس وأضراس، فجعلت تتبَعُ تلك الحبالَ والعصي حتى لم تُبقِ منها شيئاً إلا تَلَقَّفَتْهُ وابتلعَتْهُ، والسحرةُ والناسُ ينظرون إلى ذلك عِياناً جَهْرَةً، نَهاراً ضحوةً. فقامت المعجزةُ، واتضح البرهان، ووقع الحق وبطل السِّحر، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾).

وقوله تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾.

أي: فخرّ السحرة سجداً حين رأوا ما أبهر العيون والعقول والقلوب، وهم يلهجون بذكر الرحمن عز وجل ويقولون: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾.

قال القرطبي: (﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ لما رأوا من عظيم الأمر وخرق العادة في العصا، فإنها ابتلعت جميع ما احتالوا به من الحبال والعصي).

71 ـ 76. **قوله تعالى:** ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ

ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: استنفارُ فرعون لضبط سلطانه أمام زعزعة الحق لمكره وكيده ، وتهديدُه السحرة بالقتل والتقطيع والصلب ، وإيثار السحرة المؤمنين ما عند الله .

فقوله : ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ ﴾ ـ هو من كفر فرعون وعناده وكبره وغروره حين شعر بالهزيمة وانحسار السلطان. قال القرطبي : (إنكار منه عليهم ، أي تعديتم وفعلتم مالم آمركم به) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ ﴾ . قال القاسمي : (أي فاتفقتم معه ليكون لكم الملك) . وقال ابن كثير : (قال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بَهْتٌ وكذِبٌ : ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ ﴾ ، أي : أنتم إنما أخذتم السّحر عن موسى ، واتَّفَقْتُم أنتم وإياه عليَّ وعلى رعيتي لتظهروه ، كما قال في الآية الأخرىٰ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 123]) .

وقال القرطبي : (﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ ﴾ . أي رئيسكم في التعليم ، وإنما غلبكم لأنه أحذق به منكم. وإنما أراد فرعون بقوله هذا ليشبه على الناس حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم ، وإلا فقد علم فرعون أنهم لم يتعلموا من موسى ، بل قد علموا السحر قبل قدوم موسى وولادته) .

وقوله : ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ .

قال وهب بن منبه : (يقول : فلأقطعن أيديكم وأرجلكم مخالفاً بين قطع ذلك ، وذلك أن يقطع يمنى اليدين ويسرى الرجلين ، أو يسرى اليدين ويمنى الرجلين ، فيكون ذلك قطعاً من خلاف) .

قال ابن جرير : (وقوله : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ يقول : ولأصلبنكم على جذوع النخل) .

قال السدي : (فقتلهم وقطعهم ، كما قال عبد الله بن عباس حين قالوا : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف : 126] . وقال : كانوا في أول النهار سحرة ، وفي آخر النهار شهداء) .

وقوله: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: ولتعلمنّ أيها السحرة أيّنا أشدّ عذاباً لكم، وأدوم، أنا أو موسى).

وقال النسفي: (﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا ﴾ أنا على ترك إيمانكم بي أو رب موسى على ترك الإيمان به. وقيل يريد نفسه لعنه الله وموسى صلوات الله وسلامه عليه بدليل قوله: ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ ﴾).

وقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾.

أي: لن نختارك على ما أكرمنا الله به من الهدى والإيمان بعظيم الحجج والبرهان.

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ يحتمل تأويلين عند المفسرين:

التأويل الأول: أن يكون معطوفاً على البينات. والتقدير: لن نختارك على ما جاءنا من الإيمان، ولا على فاطرنا وخالقنا الرحمان، فهو المستحق للعبادة وحده العزيز المنّان.

التأويل الثاني: أن يكون قسماً، وجوابه لن نؤثرك مقدّم على القسم. والتقدير: والله الذي فطرنا لن نختارك على ما جاءنا من الحق والهدى والإيمان.

وقوله: ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾. أي من القتل والصلب وألوان التعذيب. قال وهب بن منبه: (أي اصنع ما بدا لك).

وقوله: ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾. قال وهب: (أي ليس لك سلطان إلا فيها. ثم لا سلطان لك بعده).

وقوله: ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾.

أي إنا أقررنا لربنا بتوحيده، وصدقنا بوعده ووعيده، ونحن نرجو بذلك أن يغفر لنا خطايانا وما تعلمناه من السحر وعلمناه، وتجرأنا به على مواجهة الحق ومعارضة آيات الله بإكراهك لنا على ذلك.

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾. قال ابن إسحاق: (خير منك ثواباً، وأبقى عذاباً). وعن محمد بن كعب، ومحمد بن قيس في قول الله: ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ قالا: (خيراً منك إنْ أُطِيع، وأبقى منك عذاباً إن عُصي).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.

قال ابن كثير: (الظاهرُ من السِّياق أن هذا من تَمام ما وَعَظَ به السحرةُ لفرعون، يُحذِّرونه من نِقْمَةِ الله وعذابه الدائم السَّرمَدِي ويُرَغِّبونه في ثوابه الأبديِّ المخلَّد، فقالوا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾، أي: يلقى الله يوم القيامةِ وهو مجرم، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾. كقوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: 36]، وقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: 11 ـ 13]. وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: 77]).

وفي الصحيحين عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملحُ، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون فينظرون ويقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه، ثم ينادى: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون فينظرون فيقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه، فيؤمر به فيذبح، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت][1].

وفي لفظ عند البخاري: [فيزداد أهل الجنة فَرَحاً إلى فرحهم، ويزداد أهلُ النار حُزْناً إلى حُزنهم].

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يَحْيَون، ولكن أناسٌ تُصيبهم النار بذنوبهم فتميتُهم إماتةً، حتى إذا صاروا فحماً أُذِنَ في الشفاعة، فجيء بهم ضبائِرَ، فَبُثُّوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نباتَ الحبَّةِ تكون في حَميل السيل][2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾.

أي: ومن يأت ربه يوم القيامة صادق الإيمان صحيح الدين قد عمل ما أمره الله واجتنب ما نهاه عنه، فأولئك لهم البشارة ببلوغ درجات الجنة العُلا.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6548) ـ كتاب الرقاق، وأخرجه مسلم في الصحيح (8/ 153).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (185)، وأحمد في المسند (3/ 11)، (3/ 78)، وابن ماجة في السنن (4309)، وغيرهم.

وقد حفلت السنة الصحيحة بذكر بعض هذه الدرجات العاليات ، وبديع الغرف الآمنات ، والروضات الفاتنات ، وذلك في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ أهل الجنة يَتَراءَوْن أَهْلَ الغُرَفِ منْ فَوقِهم ، كما تتراءَوْنَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابرَ في الأفق مِن المشرقِ أو المغربِ لتفاضُلِ ما بينهم. قالوا: يا رسول الله ، تلك منازِلُ الأنبياء لا يَبْلُغها غيرُهم؟ قال: بلى ، والذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين][1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [في الجنة مئةُ درجةٍ ما بَيْنَ كُلِّ درجتين مئةُ عام][2].

الحديث الثالث: أخرج أحمد والترمذي بسند صحيح عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: [في الجنة مئةُ درجة ، ما بين كلِّ درجتين كما بينَ السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة ، ومنها تُفَجَّرُ أنهارُ الجنة الأربعة ، ومن فوقها يكون العَرْش ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس][3].

الحديث الرابع: أخرج الترمذي بسند صحيح عن معاذ بن جبل ، أن رسول الله ﷺ قال: [مَن صام رمضانَ وصلَّى الصلاة وحجَّ البيتَ ، لا أدري أذَكَرَ الزكاة أم لا. إلا كان حقاً على الله أنْ يَغْفِرَ لَهُ إنْ هاجَرَ في سبيل الله أو مكثَ بأرضه التي وُلِدَ بها. قال معاذ: ألا أخبر بها الناس؟ فقال رسول الله ﷺ: ذرِ الناس يعملونَ فإنَّ في الجنة مئةَ دَرَجَةٍ ما بين كلِّ درجَتَيْن كما بَيْنَ السَّماء والأرض ، والفِرْدَوسُ أعلى الجنة وأوسَطها وفوقَ ذلك عرشُ الرَّحمن ، ومنها تُفَجَّر أنهارُ الجنة ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفِرْدَوس][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3256) ـ كتاب بدء الخلق ، وكذلك(6556) ، وأخرجه مسلم(2831) ، وأحمد(5/ 340) ، وأخرجه ابن حبان(7393).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي(2662)ـ أبواب صفة الجنة. باب ما جاء في صفة درجات الجنة.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 292) ، (5/ 316) ، والترمذي (2664) ـ واللفظ له ـ وانظر صحيح سنن الترمذي (2056) ـ أبواب صفة الجنة ، الباب السابق.

(4) حديث صحيح. أخرجه الترمذي بسند صحيح من حديث معاذ. انظر صحيح سنن الترمذي (2055) ـ أبواب صفة الجنة. وسلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (921).

وقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

أي: جنات إقامة تتخللها الأنهار ماكثين فيها أبداً، وهو جزاء من تزكى بالإيمان والعمل الصالح، فطهَّر نفسه من الشرك وعمله من الرياء، وصدق المرسلين وتابعهم على منهاجهم.

77 ـ 79. قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ٧٨ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾.

في هذه الآيات: وَحْيُ الله تعالى إلى موسى ﷺ المسير بالمؤمنين ليلاً ـ للخلاص من قبضة فرعون وبطشه ـ واختراق البحر بهم، واتباع فرعون وجنوده لهم، وخوضهم في البحر الذي أطبق مياهه عليهم، ليغرق فرعون وجنده بكفرهم.

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾.

قال مجاهد: (﴿يَبَسٗا﴾: يابساً). وعن ابن عباس: (﴿لَّا تَخَٰفُ﴾ من آل فرعون ﴿دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ من البَحْر غرقاً). قال قتادة: (يقول: لا تخاف أن يدركك فرعون من بعدك ولا تخشى الغرق أمامك).

فإنه حين أبى فرعون أن يرسل مع موسى بني إسرائيل، أوحى الله إلى موسى أن يُسري بهم في الليل ويخلّصهم من قبضة فرعون وبطشه، فخرج بهم ليلاً فأصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون وأرسل يجمع الجند من أرجاء بلاده ويقول: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾[1]، ثم مضى في الجند والعتاد ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ﴾ ـ أي: عند طلوع الشمس. ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أي: نظر كل فريق إلى الآخر، ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾. ووقف موسى ببني إسرائيل، البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فأوحى الله تعالى إلى موسى: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾ فضربه: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: كالجبل

(1) انظر سورة الشعراء، الآيات [54 ـ 63].

العظيم. قال ابن كثير: (وأرسلَ الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابساً كوجه الأرض، ولهذا قال: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا﴾، أي: من فرعون، ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾، يعني من البحر أن يغرق قومك).

وقوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ۝٧٨ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾.

أي: فلحقهم فرعون بمن معه فخاض وراءهم حين قطعوا البحر، فغشي فرعون وجنده من اليم ـ أي من البحر ـ ما غشيهم فغرقوا جميعاً. وسلك فرعون بذلك بقومه طريق الضلال وسبيل أهل النار. قال القاسمي: (﴿فغشيهم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾ أي علاهم منه وغمرهم، ما لايحاط بهوله ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ أي أوردهم الهلاك، بعتوّه وعناده في الدنيا والآخرة. وما هداهم سبيل الرشاد).

80 ـ 82. **قوله تعالى**: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ۝٨٠ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ۝٨١ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ۝٨٢﴾.

في هذه الآيات: يمتن سبحانه وتعالى على بني إسرائيل ببعض النعم الكبيرة، والآلاء الوفيرة، وأعظمها ما كان من نجاتهم من فرعون وجنده أهل الآثام والشرور الخطيرة، وهم ينظرون إلى مصارعهم إذ غرقوا عن آخرهم في صبيحة واحدة، وما نجا منهم أحد. ومواعدة الله موسى وبني إسرائيل إلى جانب الطور الأيمن وتكليمه تعالى موسى وإنزال التوراة والمن والسلوى ليحمدوه تعالى ويعظموه ويتوبوا إليه، وهو الغفار لمن تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى.

فقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ﴾ ـ أي فرعون وجنوده، فقد كانوا يسومونكم سوء العذاب، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم. فأقر أعينكم برؤية مصارعهم. قال تعالى: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾.

ومن ثمَّ فكان من شكر تلك النعمة على بني إسرائيل أن يعظموا التوراة ولا يخالفوا نبيَّ الله موسى، وأن يحمدوا الله دوماً على الخلاص من ذلك الطاغية الفاجر.

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: [لما قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهودُ تصومُ عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليومُ الذي أظهر الله فيه موسى على فرعونَ. فقال: نحن أولى بموسى، فصوموه][1].

وفي رواية: [أنتم أحقُّ بموسى منهم فصوموا].

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: [أن رسول الله ﷺ قدِمَ المدينة، فوجَدَ اليهودَ صِياماً، يَوْمَ عاشوراء. فقال لهم رسول الله ﷺ: ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ قالوا: هذا يومٌ عظيم، أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرّق فرعونَ وقومهَ، فصامه موسى شُكْراً، فنحن نصومه. فقال رسول الله ﷺ: فنحن أحقُّ وأوْلى بموسى منكم. فصامه رسول الله ﷺ وأمرَ بصيامه].[2] وفي لفظ للبخاري: [قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجّى الله بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى. قال: فأنا أحق بموسى منكم. فصامه وأمَرَ بصيامه].

وفي صحيح البخاري عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: [كانَ يوم عاشوراء تعدُّه اليَهود عيداً، قال النبي ﷺ: فصوموه أنتم][3].

وقوله: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾.

وذلك بعد هلاك فرعون، فقد واعد الله تعالى موسى وبني إسرائيل إلى جانب الطور الأيمن، فكلّم موسى وأعطاه التوراة، وهناك سأل موسى الرؤية، وسقط بنو إسرائيل أثناء ذلك في عبادة العجل.

وقوله: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾. أي: رحمة من الله تعالى بهم، فيأخذون حاجتهم إلى الغد. والمنّ: حلوى كانت تنزل عليهم من السماء. والسَّلوىٰ: طائر يسقط عليهم. وهذا امتنان عظيم من الله سبحانه على بني إسرائيل وآية من آيات الثبات على الحق ولكن أكثرهم لا يعلمون.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2004)، كتاب الصوم، وأخرجه كذلك برقم (4680)، (4337)، ورواه مسلم في الصحيح (1130) ح (127)، وأخرجه أبو داود (2444)، وأحمد (1/ 291) وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1130) ح (128)، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (2005) ـ كتاب الصوم ـ باب صوم يوم عاشوراء.

وقوله: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾.

قال ابن عباس: (﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ يقول: ولا تظلموا). وقال قتادة: (﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ يقول: فينزل عليكم غضبي).

قال القرطبي: (﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي من لذيذ الرزق. وقيل: من حلاله إذ لا صنع فيه لآدمي فتدخله شبهة). وقال ابن كثير: (﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾، أي: كلوا من هذا الذي رزقتُكم، ولا تطغوا في رِزقي فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما آمركم به). وقوله: ﴿فَيَحِلَّ﴾ منصوب بالفاء في جواب النهي. وقرأها الأعمش: ﴿فَيَحُلَّ﴾، ﴿ومن يحلُل﴾ من الحلول أي الوقوع. وهي بالكسر ﴿فيحِلّ﴾ من حلَّ يحِلّ إذا وجب وهما قراءتان والكسر أشهر.

وقوله: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾. قال ابن عباس: (أي فقد شقي). وقال الزجاج: (فقد هلك).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾.

هو باب عظيم من أبواب رحمة الله تعالى فتحه لعباده إلى قبيل قيام الساعة، فكل من تاب من ذنبه مهما كان ـ من الشرك حتى الصغائر ـ وأتبعه بالعمل الصالح وثبت على الإيمان، فإنه سيصير بإذن الله إلى المغفرة والجنان.

وعن ابن عباس: (﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ يقول: لم يشكُك). وقال قتادة: (يقول: ثم لزم الإسلام حتى يموت عليه). وعن الربيع بن أنس: (﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ قال: أخذ بسنّة نبيه ﷺ). وقال ابن زيد: (أصحاب العمل). وقال سعيد بن جبير: (أي: استقام على السنة والجماعة).

قلت: وجميعها تفيد المعنى وتزيده وضوحاً وجلاء وتكشف آفاقه وأبعاده.

83 ـ 89. قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم

مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ .

في هذه الآيات: قدوم موسى لميقات ربه ، وإضلال السامري بني إسرائيل بعبادة العجل ، ورجوع موسى غضبان أسفاً محذراً قومه عبادة من لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً.

فقوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ .

أي: وأيّ شيء أعجلك عن قومك يا موسى ، فتقدمتهم وخلفتهم وراءك .

فإنه بعد هلاك فرعون ، مضى موسى ببني إسرائيل: ﴿ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 138-139] . وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتمّها بعشر ، واختار من قومه سبعين رجلاً لميقات ربه ـ كما مر في سورة الأعراف .

قال النسفي: (مضى معهم إلى الطور على الموعد المضروب ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه وأمرهم أن يتبعوه ، قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾ أي: أيّ شيء أوجب عجلتك؟ استفهام إنكار ، وما مبتدأ وأعجلك الخبر).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: قومي على أثري يَلْحقون بي. يقول: وعجلت أنا فسبقتهم رب ، كيما ترضىٰ عني).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ .

أي: فإنا يا موسى قد ابتلينا قومك من بعدك بعبادة العجل الذي دعاهم إليه السامري، فأطاعوه حين استخفهم بذلك، وعصوا أمرك وأمر أخيك هارون وركبوا الأهواء.

وقوله: ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ﴾ . أي: يجمع بين الغضب والحزن على ما صدر. قال ابن عباس: (يقول: حزيناً). وقال قتادة: (أي حزيناً على ما صنع قومه من بعده).

وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾. قال القرطبي: (وعدهم عز وجل الجنة إذا أقاموا على طاعته، ووعدهم أن يسمعهم كلامه التوراة على لسان موسى، ليعملوا بما فيها فيستحقوا ثواب عملهم. وقيل: وعدهم النصر والظفر. وقيل: وعده قوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ الآية).

وقوله: ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾. أي: فهل نسيتم بسبب طول العهد وحصلت الغفلة.

وقوله: ﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾.

قال النسفي: (أي أردتم أن تفعلوا فعلاً يجب به عليكم الغضب من ربكم: ﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ وعدوه أن يقيموا على أمره وما تركهم عليه من الآيات فأخلفوا موعده باتخاذ العجل).

وقوله: ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾. قال ابن عباس: (بأمرنا). وقال قتادة: (بطاقتنا).

وقال ابن زيد: (يقول: بهوانا، قال ولكنه جاءت ثلاثة، قال ومعهم حلي استعاروه من آل فرعون وثياب).

قال الزمخشري: (أي ما أخلفنا موعدك، بأن ملكنا أمرنا. أي لو ملكنا أمرنا، وخلينا وراءنا، لما أخلفناه. ولكن غلبنا من جهة السامري وكيده).

والمقصود: اعتراف منهم بالضعف وحصول الخطأ، والوقوع في الفتنة.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾.

أي: حملنا أثقالاً وأحمالاً من حلي القبط ـ قوم فرعون ـ، وهو حليُّ نسائهم ﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾ أي في النار لسبكها فكان هذا إلقاء السامري.

وقوله: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾.

أي: أخرج لهم من تلك الحليّ المذابة عجلاً جسداً له خوار ـ أي صوت عجل. والمقصود أنه صنع منه شكل عجل يخور كما يخور العجل وجعل فيه منافذ ومخارق، بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج من جراء ذلك صوت يشبه صوت العجل.

وقوله: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾.

أي: فقال السامري والضلال الذين افتتنوا به هذا إلـٰهكم وإلـٰه موسى نَسِيَه هاهنا

وذهب يتطلَّبه. وعن ابن عباس: (﴿فَنَسِىَ﴾، أي: نَسِيَ أن يذكِّركم أن هذا إلـٰهكم).

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: (فقالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾، قال: فعكفوا عليه وأحبّوه حباً لم يحبُّوا شيئاً قطّ يعني مثله، يقول الله: ﴿فَنَسِىَ﴾، أي: ترك ما كان عليه من الإسلام، يعني السامري).

قلت: وكلها تأويلات محتملة تدل على ضلال السامري ومن اتبعه وانخراطهم في سخافة عبادة العجل، ولذلك سفّه الله أحلامهم وعاب عليهم الجهل الذي وقعوا فيه كما تدل على ذلك الآية الآتية.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

أي: أفلا يرون أن العجل الذي عبدوه لا يجيبهم إذا سألوه أو خاطبوه ولا يملك لهم في دنياهم ولا في أخراهم ضراً ولا نفعاً. قال ابن عباس: (لا والله ما كان خُوارُه إلا أن يدخُلَ الريح في دُبره فيخرج من فيه، فَيُسمَع له صوتٌ).

90 ـ 98. **قوله تعالى**: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

في هذه الآيات: نصيحة هارون لبني إسرائيل بطاعة الرحمان عز وجل وعدم السقوط في هذه الوثنية القبيحة، وإصرار القوم على أمرهم، ورجوع موسى مؤنباً هارون، وحواره مع السامري وتوعده له، وتأكيده لقومه أن إلـٰههم الحق هو الله الذي لا إلـه غيره قد وسع كل شيء علماً.

فقوله: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾. هو تحذير هارون لعبدة العجل من بني إسرائيل قبل رجوع موسى إليهم. قال السدي: (يقول: إنما ابتليتم به، يقول: بالعجل).

قال ابن جرير: (يقول: إنما اختبر الله إيمانكم ومحافظتكم على دينكم بهذا العجل، الذي أحدث فيهم الخوار، ليعلم به الصحيح الإيمان منكم من المريض القلب الشاك في دينه).

وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾.

أي: وإن ربكم الرحمان خالق كل شيء ومليكه، وهو وحده المستحق للعبادة، فاتبعوني فيما آمركم به واجتنبوا ما أنهاكم عنه.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا﴾.

هو من عِنَادِ ضُلاَّلِ بني إسرائيل. قال ابن كثير: (أي: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه. وخالفوا هارونَ في ذلك وحاربوه، وكادوا أن يقتلوه).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾.

قال ابن عباس: (لما قال القوم: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أقام هارون فيمن تبعه من المسلمين ممن لم يُفتتن، وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل، وتخوّف هارون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له موسى ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ وكان له هائباً مطيعاً).

والمعنى: لما رجع موسى ورأى ما وقع به القوم من الفتنة امتلأ غيظاً وألقى ما كان بيده من الألواح الإلـهية، وراجعهم في ذلك وعاتبهم، ثم أخذ برأس أخيه هارون يستخبر منه: أي شيء منعك إذ رأيتهم ضلوا عن دينهم ألا تتبعني فتخبرني بالأمر أوّل ما وقع.

وعن ابن جريج: (قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ قال: أمر موسى هارون أن يصلح، ولا يتبع سبيل المفسدين، فذلك قوله: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ بذلك).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾.

في الكلام محذوف، والتقدير: ثم أخذ موسىٰ بلحية أخيه هارون ورأسه يجرّه إليه. فاعتذر إليه هارون أن تأخّر عليه ولم يلحقه فيخبره خشية أن يقول له موسى: لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾.

قال ابن عباس: (﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾: لم تحفظ قولي).

قال ابن كثير: (ـ في قوله ـ: ﴿ يَبْنَؤُمَّ ﴾، ترفَّقَ له بذكر الأمِّ، مع أنه شقيقُه لأبوَيه، لأنّ ذكر الأم هاهنا أرَقُّ وأبلَغ في الحنوِّ والعَطْف).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَٰمِرِيُّ ﴾. هو قول موسى للسامري: أن ما شأنك وما الذي دعاك إلى ما صنعت. قال ابن زيد: (ما أمرك؟ ما شأنك؟ ما هذا الذي أدخلك فيما دخلت فيه). وقال السدي: (مالك يا سامري).

وقوله: ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾. أي علمت أمراً لم يعلموه فصرت به بصيراً.

وقوله: ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾.

قال ابن عباس: (قبض قبضة منه من أثر جبريل، فألقى القبضة على حليهم فصار عجلاً جسداً له خوار، فقال: هذا إلـٰهكم وإلـٰه موسى).

وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: (لما قذفت بنو إسرائيل ما كان معهم من زينة آل فرعون في النار، وتكسّرت ورأى السامريّ أثر فرس جبرئيل عليه السلام، فأخذ تراباً من أثر حافره[1]، ثم أقبل إلى النار فقذفه فيها. وقال: كن عجلاً جسداً له خوار، فكان للبلاء والفتنة).

وقال ابن زيد: (﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ قال: كذلك حدثتني نفسي). أي: زينت لي نفسي. قلت: والمقصود أن الله تبارك وتعالى أراد ما كان من التقاء التراب من أثر حافر فرس جبريل، مع الحليّ في النار ليخرج من ذلك عجل له خوار ليفتتن الناس به ويمتحنوا في صدق إيمانهم بالله. وهذا كما يحصل اليوم من خرق العادة على يد

(1) قيل: رأى السامري أثر جبريل يوم فلق البحر، وقيل: وقت ذهابه بموسى إلى الطور. والله أعلم.

بعض الناس الذين يتعاملون مع الجن ، فيكون منهم بإذن الله ما يفتن الناس ، فيثبت الصادق على دينه ويسقط المنافق.

وقوله: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾.

قال ابن كثير: (أي: كما أَخَذْتَ ومَسِسْتَ ما لم يكن لك أخذُه ومسُّه من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا أن تقولَ: لا مِسَاسَ ، أي: لا تُماسَّ الناسَ ولا يمسُّونك).

وعن قتادة: (﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ قال: عقوبةٌ لهم ، وبقاياهم اليوم يقولون: لا مسَاس).

قلت: والمقصود عقوبة السامري أن لا يَمسّ ولا يُمَسّ ، والمراد منعه من الناس ومخالطتهم.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾. قال الحسن: (لن تغيب عنه). والمراد: يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾.

أي: وانظر إلى ذلك العجل الذي أقمت على عبادته لنحرقنه بالنار قطعة قطعة ، ثم لنذرينه في البحر تذرية يغيب معها ذلك الوثن.

قال ابن عباس: (﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ الذي أقمت عليه. ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾ فحرّقه ثم ذراه في اليم). وقال: (﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ يقول: لنذرينه في البحر). قال: (واليمّ: البحر).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

هو من قول موسى لقومه. أي: مالكم أيها القوم من إلـه إلا الله ، فهو وحده الذي تصلح العبادة له. قال قتادة: (﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ يقول: ملأ كل شيء علماً تبارك وتعالى).

ونصب ﴿عِلْمًا﴾ على التمييز ، أي هو عالم بكل شيء ، كما قال سبحانه: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12]. وكقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ

يقول: [كتبَ الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعَرْشُه على الماء][1].

99 ـ 104. **قوله تعالى**: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

في هذه الآيات: تسليةٌ من الله تعالى لنبيّه محمد ﷺ في ذكره أخبار ما سبق، وأنَّ من أعرض عن قبول هذا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة يحمل إثماً عظيماً. وفي النار يكون من الخالدين، فبئس الحمل وبئس المستقر. إنه يوم ينفخ في القَرْن نفخة القيام تحشر الملائكة المجرمين يومئذ زرق العيون من شدة الأهوال، فيقول بعضهم لبعض ما لبثتم في الدنيا إلا قليلاً، عشرة أيام أو نحوها. فيقول أوفاهم عقلاً بل لبثتم يوماً واحداً.

فقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾.

قال القرطبي: (أي كما قصصنا عليك خبر موسى ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ قصصاً كذلك من أخبار ما قد سبق، ليكون تسلية لك، وليدل على صدقك. ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ يعني القرآن. وسمى القرآن ذكراً، لما فيه من الذكر كما سمى الرسول ذكراً، لأن الذكر كان ينزل عليه. وقيل: ﴿ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ أي شرفاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ [الزخرف: 44] أي شرف وتنويه باسمك).

وقوله تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾. قال مجاهد: (إثماً). والمعنى: من تولى وأدبر عن قبول هذا القرآن وجعله منهجاً له في حياته فإنه يأتي يوم القيامة يحمل إثماً عظيماً.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾. أي: خالدين في النار بأوزارهم فبئسما حملوا. قال ابن عباس: (﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ يقول: بئسما حملوا. قال:

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2653) ـ كتاب القدر، وبنحوه في مسند أحمد بلفظ (قَدَّرَ الله المقادير)، وفي معجم الطبراني بلفظ: (فرغ الله من المقادير وأمور الدنيا).

يعني بذلك: ذنوبهم). أي بئس الحمل حملهم الذي آل بهم إلى الخلود في العذاب.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾.

أي: يوم يَنْفُخُ إسرافيل في الصور نفخة الفزع ثم الصعق ثم نفخة القيام بين يدي رب العالمين للحساب والجزاء، وتحشر الملائكة المجرمين يومئذ زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال.

والصور قرْن ينفخ إسرافيل فيه بأمر الله تعالى، وما زال يحمله ينتظر إشارة الأمر له بذلك.

ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [الصور قَـرْنٌ يُـنْـفَخُ فيه][1].

وأخرج الإمام أحمد والترمذي بسند حسن عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: [كيف أنعمُ وصاحب القَرْن قد التقم القرن وحنى جبهته، يسمع متى يؤمر فينفخ؟ فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما نقول؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا][2].

وقوله تعالى: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾.

قال ابن عباس: (﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يتسارون بينهم). أي: يقول بعضهم لبعض: ما لبثتم في الدنيا إلا قليلاً. عشرة أيام أو نحوها.

وقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾.

قال شعبة: (﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾: أوفاهم عقلاً). وقال ابن كثير: (﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾، أي: في حال تناجيهم بينهم، ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾، أي: العاقل الكامل فيهم، ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾، أي: لِقِصَر مُدَّةِ الدنيا في أنفسهم يوم المعاد، لأن الدنيا كُلَّها وإن تكررت أوقاتها وتعاقبَت لياليها وأيامُها وساعاتُها كأنها يومٌ واحِدٌ، ولهذا يستقصر الكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيامة. وكان غرضهم في ذلك دَرْءَ قيام

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4742) ـ كتاب السنة ـ باب في ذكر البعث والصور. وأخرجه الترمذي (3243)، (3244)، وأحمد (2/ 312)، وصححه ابن حبان (7312)، والحاكم (2/ 436)، وكذا الذهبي. وانظر صحيح سنن أبي داود (3968).

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (3/ 7)، (3/ 73)، والترمذي (2431)، والحاكم (4/ 559).

الحجة عليهم ، لقِصَر المدَّة ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 55-56]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: 37]. وقال تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًاۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: 112-114]. أي: إنما كان لُبثكم فيها قليلاً ، ولو أنكم كنتم تعلمون لآثرتم الباقي على الفاني ، ولكن تصرَّفتم فأسأتُم التصرُّف ، قدَّمتم الحاضِرَ الفاني على الدائم الباقي).

105 ـ 112. قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.

في هذه الآيات: نَسْفُ الله الجبال يوم القيامة فلا منخفض ولا مرتفع ، واتباع الناس صوت داعي الله إلى موقف الحشر مسرعين لا انحراف لهم عنه ، وسكون الأصوات لله تعالى من هيبة الموقف ، والشفاعة لا تكون إلا بإذن الله العليم الحكيم ، الذي خشعت له الوجوه وقد خسر من حمل ظلماً ، وربح المؤمن فلا يخاف لعمله هضماً.

فقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ويسألك يا محمد قومك عن الجبال ، فقل لهم: يذريها ربي تذرية ، ويطيرها بقلعها واستئصالها من أصولها ، ودكّ بعضها على بعض ، وتصييره إياها هباء منبثاً).

وقوله: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾. قال ابن عباس: (يقول: مستوياً لانبات فيه). وقال ابن زيد: (الصفصف: المستوي). والمقصود أنه سبحانه يذهب الجبال يوم

القيامة عن أماكنها ويمحقها ويُسيرها ويذر الأرض بساطاً واحداً. قال ابن كثير: (القاع: هو المستوي من الأرض. والصفصف تأكيدٌ لمعنى ذلك. وقيل: الذي لا نبات فيه. والأول أولى. وإن كان الآخر مُراداً أيضاً باللازم).

وقوله: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾. أي: لا ترى يومئذ في الأرض منخفضاً ولا مرتفعاً، ولا وادياً ولا محدّبا. قال ابن عباس: (﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ يقول: وادياً، ولا أمتاً: يقول: رابية). وعن مجاهد: (﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ قال: ارتفاعاً، ولا انخفاضاً).

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾. أي: يومئذ يتبع الناس صوت داعي الله إلى موقف الحشر مسرعين لا انحراف لهم عنه. قال القاسمي: (أي يجيبونَ الداعي إلى المحشر، فينقلبون من كل صوب إليه). وقال النسفي: (﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي لا يعوج له مدعو، بل يستوون إليه من غير انحراف متبعين لصوته).

وقوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾. أي: سكنت الأصوات لله تعالى من هيبة الموقف فلا كلام لأحد إلا من أذن الله له قولاً.

قال ابن عباس: (﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾، يقول: سكنت. ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ قال: وطء الأقدام). أو قال: (همس الأقدام، وهو الوطء). وفي رواية قال: (يقول: الصوت الخفي). وعن مجاهد: (﴿هَمْسًا﴾ قال: خفض الصوت. أو قال: تخافتاً، قال: كلام الإنسان لا تسمع تحرّك شفتيه ولسانه). وقال ابن جريج: (هو صوت وقع الأقدام بعضها على بعض إلى المحشر). وعن سعيد بن جبير: (﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ قال: الحديث وسره، وَوَطْء الأقدام).

وخلاصة المعنى: وسكنت الأصوات وذلّت يومئذ للرحمان هيبة وإجلالاً، فلا تسمع إلا صوتاً خفيفاً لتحريك الشفاه أو وقع الأقدام لتأخذ أماكنها في أرض المحشر.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾.

أي: لا يستطيع أن يتقدم ـ يومئذ ـ بالشفاعة أحد إلا أن يأذن الله تعالى لمن يشاء ويرضى.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: 23].

2 ـ وقال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: 255].

3 ـ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: 38].

4 ـ وقال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: 26].

وفي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض، فيأتون آدم فيقولون: اشفع إلى ربك، فيقول: لست لها ولكن عليكم بإبراهيم فإنه خليل الرحمن. فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله. فيأتون موسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بعيسى فإنه روح الله وكلمته. فيأتون عيسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بمحمد. فيأتوني فأقول: أنا لها فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد وأخر له ساجداً. فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع. فأقول يا رب أمتي أمتي. فيقال: انطلق فأخرج من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخرُّ له ساجداً فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخرُّ له ساجداً فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع. فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة خردلة من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل. ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخرُّ له ساجداً، فيقال: يامحمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع، فأقول: يا رب! ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله! قال: ليس ذلك لك، ولكن وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله][1].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً:

[حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده! ما مِنْ أحَدٍ منكم بأشَدَّ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «التوحيد» من حديث أنس، انظر: مختصر صحيح البخاري ـ حديث رقم ـ (2133)، وأخرجه مسلم في الإيمان (193).

مُناشدةً لله في استيفاء الحق ، من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون: رَبَّنا كانوا يصومون معنا وَيُصَلُّون ويَحُجُّون ، فيقال لهم: أخرجوا مَنْ عَرَفْتُمْ ـ فتُحَرَّمُ صُوَرُهم على النار ـ فَيُخرجونَ خَلْقاً كثيراً قَدْ أَخذتِ النارُ إلى نِصْفِ ساقيه وإلى رُكبَتَيْه. ثم يقولون: ربَّنا! ما بقيَ فيها أحدٌ مِمَّنْ أَمَرْتنا به. فيقول: ارجعوا ، فَمَنْ وَجَدْتُم في قلبه مثقالَ دينارٍ مِنْ خَيْرٍ فأخرِجوه ، فَيُخْرِجون خَلْقاً كثيراً ، ثم يقولون: رَبَّنا! لم نَذَرْ فيها أحداً مِمَّنْ أمَرْتَنا به. ثم يقول: ارجعوا ، فَمَنْ وَجَدتُمْ في قلبه مِثْقَالَ نصفِ دينارٍ مِنْ خير فَأَخْرِجوه ، فَيُخرجونَ خلقاً كثيراً ، ثم يقولون: رَبَّنا! لمْ نَذَرْ فيها مِمَّنْ أمَرْتنا أحداً ، ثم يقول: ارجعوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذَرَّةٍ من خيرٍ فأخرجوه ، فيخرجون خَلْقاً كثيراً ، ثم يقولون: رَبَّنا لم نَذَرْ فيها خيراً. فيقول الله تعالى: شَفَعَت الملائكةُ وشَفَعَ النبيونَ وشفعَ المؤمنون ، ولم يَبْقَ إلا أرحَمُ الراحمين ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً من النار فَيُخرِجُ منها قوماً لم يعملوا خيراً قطُّ ، قد عادوا حُمَماً فَيُلْقِيهم في نَهْرٍ في أفواهِ الجنة يقال له نَهْرُ الحياة ، فَيَخْرُجونَ كما تخْرُجُ الحبَّةُ في حميل السَّيل . . .] الحديث[1].

وقوله تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴾.

قال قتادة: (﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ من أمر الساعة ﴿ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾ من أمر الدنيا).

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: يعلم ربك يا محمد ما بين أيدي هؤلاء الذين يتبعون الداعي من أمر القيامة ، وما الذي يصيرون إليه من الثواب والعقاب ﴿ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾ يقول: ويعلم أمر ما خلفوه وراءهم من أمر الدنيا).

وقال النسفي: (﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴾ أي بما أحاط به علم الله). أي لا يحيط الخلق بربهم علماً ، بل الله تعالى قد أحاط بكل شؤون خلقه علماً.

وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ ﴾. قال ابن عباس: (يقول: ذلت). وقال مجاهد: (خشعت). وقال ابن زيد: (استأسرت الوجوه للحي القيوم. صاروا أسارى كلهم له. قال: والعاني: الأسير).

والمقصود: خضعت الوجوه يومئذ وذلت ، فاستسلمت الخلائق جميعها لجبّارها

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (183) ـ كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية ، في أثناء حديث طويل.

الحيّ: الذي لا يموت ، القيوم: الذي لا ينام ، الذي هو قيِّم على كل شيء بالحفظ والتدبير ولا قِوام لشيء إلا به.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾. قال قتادة: (من حمل شركاً). وقال ابن زيد: (الظلم هاهنا: الشرك).

قلت: بل الظلم يشمل عند الإطلاق الشرك والمعاصي وأكل الحقوق والبغي ، ومن ثمَّ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، يصيب صاحبه من الخيبة يومئذ حسب مظلمته.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[الحج: 71].

2 ـ وقال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: 18].

وفي صحيح السنة المطهرة في التخويف من الظلم أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر ، أن رسول الله ﷺ قال: [اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة ، واتقوا الشّح فإنَّ الشُّحَ أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم][1].

الحديث الثاني: خَرّجَ مسلم ـ كذلك ـ في الصحيح عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يُقادَ للشاة الجَلْحَاء ـ التي لا قرن لها ـ من الشاة القرناء][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن أبي هريرة: أن رسولَ الله ﷺ قال: [مَنْ كانت عِنْدَه مظْلَمَةٌ لأخيه فليتحَلَّلْهُ مِنْها ، فإنه ليس ثَمَّ دينارٌ ولا دِرْهَمٌ مِنْ قَبْلِ أن يُؤْخَذَ لأخيه من حَسناتِه ، فإن لم يكنْ له حسناتٌ أُخِذَ من سيئاتِ أخيه فطُرِحت عليه][3].

وفي لفظ: [من كانت له مظلمةٌ لأخيه مِنْ عِرْضِهِ أو شيءٍ فليتحلَّلْهُ منه اليوم قبل أن لا يكون دينارٌ ولا درهم ، إنْ كان له عملٌ صالح أُخِذَ منه بقدْرِ مَظْلَمتِهِ ، وإنْ لم يكن له حسناتٌ أُخِذَ من سيئات صاحبه فَحُمِلَ عليه].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2578) ـ كتاب البر والصلة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2582) ـ كتاب البر والصلة ـ الباب السابق.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2449) ـ كتاب المظالم ، وأخرجه كذلك (6534) ـ كتاب الرقاق.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾.

أي: ومن يكن في حياته الدنيا على منهج الإيمان والعمل الصالح فإنه يأتي يوم القيامة آمناً لا يظلم من عمله شيئاً ولا ينقص من حق عمله.

والآية هي الصورة المقابلة للصورة السابقة صورة الظالمين، فإنه تعالى بعد أن ذَكَرَ حالهم ثنّى بذكر المتقين ومآلهم.

قال قتادة: (﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وإنما يقبل الله من العمل ما كان في إيمان). وعن ابن عباس: (﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ قال: لا يخاف ابن آدم يوم القيامة أن يظلم، فيزاد عليه في سيئاته، ولا يظلم فيهضم في حسناته).

وعن حبيب بن أبي ثابت قال: (الهضم: الانتقاص). قال قتادة: (﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ قال: لا يخاف أن يظلم، فلا يجزىٰ بعمله، ولا يخاف أن ينتقص من حقه، فلا يوفىٰ عمله).

وقال الحسن: (لا ينتقص الله من حسناته شيئاً، ولا يحمل عليه ذنب مسيء. وأصل الهضم: النقص).

113 ـ 114. **قوله تعالى**: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

في هذه الآيات: ثناءُ الله على هذا القرآن العربي المبين، الذي قد فُصِّل فيه الوعد والوعيد فهو ذكرى للذاكرين، فتقدّس الله الملك الحق العليم الحكيم. وأمْرُ الله نبيّه الإنصات لجبريل عند تلاوته القرآن، ثم ليقبل عليه بالحفظ ورجاء الله زيادته في العلم والإيمان.

فقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾. أي بلسان عربي مبين فصيح، وهو لسانكم أيها العرب. قال القرطبي: (أي كما بيّنا لك في هذه السورة من البيان، فكذلك جعلناه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي بلغة العرب).

وقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾. أي خوفناهم فيه بضروب من الوعيد. قال

القاسمي: (أي بعبارات شتى، تصريحاً وتلويحاً، وضروب أمثال، وإقامة براهين).

وقوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾. قال قتادة: (ما حُذِّروا به من أمر الله وعقابه، ووقائعه بالأمم قبلهم).

وقوله: ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾. أي موعظة وتذكراً، أو مقاماً وشرفاً. قال قتادة: (﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ قال: جِداً وورعاً. وقد قال بعضهم ـ معناه ـ: أو يحدث لهم شرفاً بإيمانهم به).

وقوله: ﴿ فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾. أي تناهى سبحانه في العلو والعظمة، وتنزه وتقدس.

قال ابن كثير: (أي: تَنَزَّهَ وتقدَّسَ الملكُ الحق، الذي هو حَقٌّ، ووعده حقٌّ، ووعيده حقٌّ، ورسُله حقٌّ، والجنة حقٌّ، والنار حقٌّ، وكل شيء منه حقٌّ. وعدله تعالى ألا يُعَذِّبَ أحداً قبل الإنذار وبعثة الرسل والإعذار إلى خَلْقِه، لئلا يبقى لأحدٍ حُجَّةٌ ولا شبهة).

وقوله: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾.

أي: بل أنصت ـ يا محمد ـ لجبريل وهو يتلوه عليك، فإذا فرغ الملك من قراءته فاقرأه بعده.

والآية كقوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: 16 ـ 19].

قال القاسمي: (وقد كان رسول الله ﷺ إذا لَقَّنَهُ جبريل الوحيَ، يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة، لكمال اعتنائه بالتلقي والحفظ. فأرشد إلى أن لا يساوقه في قراءته، وأن يتأنَّى عليه ريثما يسمعه ويفهمه. ثم ليقبل عليه بالحفظ بعد ذلك).

قلت: بل ضمن الله تعالى له حفظه في صدره بقوله: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: 17]. أي نحن سنجمعه لك في صدرك لئلا تنشغل بعناء حفظه عن مهام الدعوة والجهاد، وإنما تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً.

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما

قال: [كانَ النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحيُ حَرَّكَ به لسانَه يريد أن يَحفَظَهُ ، فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: 16]][1].

وفي الباب بعده قال البخاري: حدثنا عُبَيدُ الله بنُ موسى عن إسرائيلَ، عن موسى بن أبي عائشة: أنه سأل سعيد بن جبير عن قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ قال: وقال ابن عباس: [كان يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ إذا أُنزلَ عليه، فقيل له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ ـ يخشى أنْ يَتَفَلَّتَ منهُ ـ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾: أن نَجْمَعَهُ في صدرك ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أَنْ تَقْرَأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ يقول: أُنزل عليه ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أن نُبَيِّنَهُ على لسانك][2].

وفي رواية قال: [فكان إذا أتاهُ جبريلُ أطْرَقَ، فإذا ذَهَبَ قرأَهُ كما وَعَدَهُ الله]. وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾. أي رب زدني علماً إلى ما علمتني. قال ابن عيينة: (ولم يزل ﷺ في زيادة من العلم حتى توفاه الله عز وجل).

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك: [أَنَّ الله عزَّ وجلَّ تَابعَ الوَحْيَ على رسول الله ﷺ قبل وفاته، حتى تُوُفِّيَ، وأكثَرُ ما كان الوحيُ يومَ توفي رسول الله ﷺ][3].

115 ـ 122. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ۝١١٥ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾.

في هذه الآيات: عهدُالله تعالى إلى آدم ونسيانه، وأمره تعالى الملائكة السجود لآدم

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (4927) ـ كتاب التفسير ـ سورة القيامة، آية (16).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4928) ـ كتاب التفسير، وانظر كذلك (4929) للرواية بعده.
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (3016) ـ كتاب التفسير، وانظر مسند أحمد (3/ 236)، وكذلك النسائي في «فضائل القرآن» (8) من حديث أنس.

وجحود إبليس ، وتحذير الله آدم وزوجته عداوته ، ووسوسة الرجيم لهما حتى أكلا من الشجرة وبدت سوآتهما ، والتماس آدم التوبة من ربه حتى تاب عليه وهدى.

فقوله: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ ﴾. قال مجاهد: (ترك أمر ربّه).

وعن ابن عباس قال: (إنما سُمِّيَ الإنسان لأنه عُهِدَ إليه فنسي).

والمقصود: لقد وصينا آدم من قبل وجود هؤلاء أن لا يقرب الشجرة فخالف إلى ما نُهِيَ عنه. وهكذا النسيان في ذرية آدم وحدوث الغفلة ، فأساس أمر بني آدم قائم على ذلك. وإنما خير الخطائين التوابون.

وقوله: ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾. قال قتادة: (صبراً). وقال عطية: (حفظاً لما أمرته به).

وقال ابن زيد: (العزم: المحافظة على ما أمره الله تبارك وتعالى بحفظه ، والتمسك به).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾.

أي امتنع واستكبر. وكان ذلك الأمر من الله لملائكته بالسجود لآدم تشريفاً له وتكريماً ـ كما مضى في سورة البقرة ـ. وإنما اعتز إبليس بخلقة النار ، واستوهن خلق الصلصال ، واعترته الحمية ، وغلبت عليه الشقوة.

وقوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾.

قال الحسن: (﴿ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ شقاء الدنيا ، لا يُرى ابن آدم إلا ناصباً).

أي: هذا الشيطان ـ يا آدم ـ عدو لك ولزوجك حواء ـ عليهما السلام ـ حيث لم يسجد لك ولم ير فضلك ، وأظهر لك العداوة والحسد ، فلا يكون سبباً لإخراجكما من الجنة.

قال النسفي: (﴿ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ فتتعب في طلب القوت ، ولم يقل فتشقيا مراعاة لرؤوس الآي ، أو دخلت تبعاً ، أو لأن الرجل هو الكافل لنفقة المرأة). وقال القرطبي: (وإنّما خصّه بذكر الشقاء ولم يقل فتشقيان: يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج ، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾.

أي: إن لك في الجنة: الكسوة والطعام والشراب والمسكن، فاحذر من التفريط في ذلك.

وعن ابن عباس: (﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ يقول: لا يصيبك فيها عطش ولا حرّ). أو قال: (يقول: لا يصيبك حرّ ولا أذى). وقال سعيد بن جبير: (لا تصيبك الشمس). قال القرطبي: (أعلمنا في هذه الآية: أن النفقة التي تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة: الطعام والشراب والكسوة والمسكن، فإذا أعطاها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها، فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور، فأما هذه الأربعة فلا بد لها منها، لأن بها إقامة المهجة).

وقوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾.

قال قتادة: (يقول: فألقى إلى آدم الشيطان وحدّثه. يقول: قال له: هل أدلك على شجرة إن أكلت منها خلدت فلم تمت، وملكت ملكاً لا ينقضي فيبلىٰ).

وقوله: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: فأكل آدم وحوّاء من الشجرة التي نُهيا عن الأكل منها، وأطاعا أمر إبليس، وخالفا أمر ربهما ﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ يقول: فانكشفت لهما عوراتهما، وكانت مستورة عن أعينهما).

قلت: وفي الآية دليل أن موافقة إبليس تفضي إلى ظهور العورة والعيوب، وكشف الستر والفضيحة، وما فيه أذى على النفوس وفي واقع الحياة.

وقوله: ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾. أي أقبلا يغطيان عليهما من ورق شجر الجنة. قال قتادة: (يقول: يوصلان عليهما من ورق الجنة).

وقوله: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾. أي: ففسد عليه عيشه بنزوله إلى الدنيا. وقيل معناه: جهل موضع رشده، وسلامة أمنه واستقراره. والغيّ الجهل.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [حاجَّ موسى آدم فقال له: أنتَ الذي أخْرَجْتَ الناسَ من الجنة بذنبكَ فأشقيتَهُم؟ قال آدمُ: يا موسى أنت

الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، أتلومني على أمرٍ كتبه الله عليَّ قبلَ أن يَخْلُقني؟ أوْ قَدَّرَهُ عليَّ قبل أن يخلقني؟ قال رسول الله ﷺ: فَحجَّ آدم موسى][1].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [احتجَّ آدم وموسى عليهما السلام عند رَبِّهما ، فحَجَّ آدمُ موسى ، قال موسى: أنت آدمُ الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكتَهُ ، وأسْكَنَكَ في جنَّتِهِ ، ثم أهْبَطْتَ الناس بخطيئتكَ إلى الأرض؟ قال آدم عليه السلام: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، وأعطاكَ الألواح فيها تِبْيانُ كل شيءٍ ، وقَرَّبَكَ نَجِيّاً ، فبكم وجدتَ الله كتبَ التوراةَ قبل أن أُخْلَقَ؟ قال موسى: بأربعين عاماً. قال آدم: فهل وجدت فيها: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ . قال: نعم. قال: أفتلومني على أن عملتُ عملاً كتبهُ الله عليَّ أن أعْمَلَهُ ، قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله ﷺ: فحَجَّ آدمُ موسى][2].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: اصطفاه ربه من بعد معصيته إياه فرزقه الرجوع إلى ما يرضىٰ عنه ، والعمل بطاعته ، وذلك هو كانت توبته التي تابها عليه. وقوله ﴿وَهَدَىٰ﴾ يقول: وهداه للتوبة ، فوفَّقَهُ لها).

123 ـ 126. **قوله تعالى**: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ .

في هذه الآيات: هبوط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض بأمر الله ، وإرسال الله الرسل والأنبياء للبيان والهدى ، وضمانه تعالى للمؤمنين السعادة في الدارين ، وللمعرضين عن هديه وذكره الشقاء في الدارين.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4738) ـ كتاب التفسير ، سورة طه ، آية (117). وأخرجه البخاري (6614) ، ومسلم (2652) ، وأحمد (2/ 248) ، وبعض أهل السنن.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2652) ح (15) ـ كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى صلى الله عليهما وسلم ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فقوله: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

هو كقوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: 38]. يعني آدم وحواء وإبليس. قال ابن كثير: (﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، قال: آدم وذرِّيته، وإبليس وذرِّيته).

وقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾. قال أبو العالية: (الأنبياء والرسل والبيان). وقال القرطبي: (يعني الرسل).

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾. قال ابن عباس: (لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة). وقال ابن عباس: (ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه، ألا يضلّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وتلا الآية). وعنه قال: (من قرأ القرأن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، ثم تلا الآية).

وقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾.

قال ابن عباس: (يقول: الشقاء). وقال مجاهد: (﴿ضَنكًا﴾: ضيقة). وقال قتادة: (الضنك: الضيق). قال ابن كثير: (قوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾، أي: خالَف أمري وما أنزلته على رسولي، أَعْرَضَ عنه وتناساه وأخذ من غير هداه، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، أي في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراحَ لصدره، بل صَدْرُهُ ضَيِّقٌ حَرِجٌ لضلاله، وإن تَنَعَّمَ ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلُص إلى اليقين والهدى، فهو في قلقٍ وحيرة وشك. فلا يزال في ريبة يتردَّد، فهذا من ضَنْكِ المعيشة). وبعض المفسرين ذهب إلى أن المعيشة الضنك في عذاب القبر، وجعلوا هذه الآية أَحَد الأدلة على عذاب القبر. قلت: والآية تعمّ في عمومها شقاء الدنيا وحياة البرزخ.

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾. قال مجاهد: (يحشر أعمى البصر). وقال أبو صالح: (ليس له حجة). قال ابن جرير: (والصواب من القول في ذلك ما قال الله تعالى ذكره، وهو أن يحشر أعمى عن الحجة ورؤية الشيء كما أخبر جلّ ثناؤه، فعمّ ولم يخصص)[1].

(1) قلت: وقد يراد أن الكافر يحشر أعمى، ثم يبصر مقعده في جهنم فيكون أعمى في حال المحشر وبصيراً فيما بعده. والله تعالى أعلم.

وفي التنزيل نحو ذلك: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: 97].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾.

قال القرطبي: (بأي ذنب عاقبتني بالعمى. ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أي في الدنيا، وكأنه يظن أنه لا ذنب له).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾.

قال قتادة: (نسي من الخير، ولم ينس من الشر). وقال مجاهد: (وكذلك اليوم تترك في النار). والمقصود مقابلة الجزاء للعمل، فإن تناسي آيات الله وحججه وأوامره في الدنيا يقابله يوم القيامة تناسي صاحبه في عذاب جهنم.

أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة، وعن أبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: [يُؤتى العبد يوم القيامة فيقول له: ألمْ أجعلْ لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً وسَخَّرْت لك الأنعام والحرثَ، وتركتك تَرْأَسُ وتَرْبَعُ فكنتَ تَظُنُّ أنَّكَ ملاقِيَّ يَوْمَكَ هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليومَ أنساك كما نسيتني][1].

قال أبو عيسى: (ومعنى قوله: «اليوم أنساك كما نسيتني»: اليوم أتركك في العذاب، وكذا فسَّر بعض أهل العلم هذه الآية: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾ [الأعراف: 51] قالوا: معناه: اليوم نتركهم في العذاب).

وأصله في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ـ ﷺ ـ: [فيلقى العبدَ فيقول: أي فُلْ[2]! ألم أكرِمْكَ وأُسَوِّدْك وأُزَوِّجْكَ وأسخِّر لك الخيلَ والإبل وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ فيقول: بلى أي ربِّ، قال: فيقول: أَفَظَنَنْتَ أنَّك ملاقيَّ؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني][3].

127 ـ 130. قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2558)، أبواب صفة القيامة. انظر صحيح الترمذي (1978).

(2) معناه: يا فلان، وهو ترخيم على خلاف القياس.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (8/ 216)، كتاب التوبة وقبولها، من حديث أبي هريرة. وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1932).

ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.

في هذه الآيات: ترتيبُ الله المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره ، ولعذاب الآخرة أشد ألماً وأدوم زماناً. وتنبيهه تعالى على حال الأمم التي زلزلها بآثامها لتكون عبرة وبياناً. واستحقاق مشركي العرب العذاب لكن قد جعل الله لذلك أجلاً وزماناً ومكاناً. وحثُّ الله نبيّه على الصبر والتسبيح قبل طلوع الشمس وقبل غروبها والأخذ من الليل والنهار قنوتاً وقياماً.

فقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾. أي: من العذاب الضنك في الدنيا والبرزخ. قال ابن القيم في «الجواب الكافي»: (وفسّرت المعيشة الضنك بعذاب القبر ، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك. والآية تتناول ما هو أعمّ منه ، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات ، فإن عمومها من حيث المعنى. فإنه سبحانه رتّب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره. فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، وإن تنعم في الدنيا بأوصاف النعم ، ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب ، والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه. وإنما تواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة ، إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر. فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر. فإنه يفيق صاحبه ، ويصحو. وسكر الهوىٰ وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا سكر في عسكر الأموات. فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله ﷺ في الدنيا وفي البرزخ ويوم المعاد. ولا تقرّ العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بإلـٰهها ومعبودها الذي هو حق ، وكل معبود سواه باطل ، فمن قرّت عينه بالله ، قرّت به كلُّ عين. ومن لم تقر عينه بالله ، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات).

وفي التنزيل: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: 34].

وأخرج الطبراني في «الصغير» بسند صحيح عن البراء ، عن النبي ﷺ قال: [ما اختلج عرق ولا عينٌ إلا بذنب ، وما يدفع الله عنه أكثر][1] .

وقوله: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ . أي أشد ألماً وأدوم زماناً.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ .

قال النسفي: (يريد أن قريشاً يمشون في مساكن عاد وثمود وقوم لوط ويعاينون آثار هلاكهم ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ لذوي العقول ، إذا تفكروا علموا أن استئصالهم لكفرهم فلا يفعلون مثل ما فعلوا).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: 46].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: 40].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ [السجدة: 26].

وخلاصة المعنى: أنَّ الأمة إذا عصت ربها وأصرّت على مخالفة أوامره سلّط الله عليها ألوان الذل والعذاب وهانت عليه ، كما كان حال الأمم السالفة التي زلزلها الله بآثامها.

أخرج الطبراني والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: [إذا ظَهَرَ الزنا والرِّبا في قرية ، فقد أحلوا بأنفسهم عذابَ الله][2] .

وأخرج البيهقي في «شعب الإيمان» ، وأبو نعيم في «الحلية» بسند صحيح عن عائشة مرفوعاً: [إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله عز وجل بأسه بأهل الأرض ، وإن

---

(1) حديث صحيح. رواه الطبراني في «المعجم الصغير» رقم (1053) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2215).

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم والطبراني. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (692).

كان فيهم صالحون ، يصيبهم ما أصاب الناس ، ثم يرجعون إلى رحمة الله][1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ . بيان لحكمة تأخير عذابهم مع ما ورد من الإشارة في الآية السابقة لاستحقاقهم ذلك العذاب .

قال ابن كثير : (أي : لولا الكلمة السابقة من الله ، وهو أنه لا يعذِّبُ أحداً إلا بعد قيام الحجَّة عليه ـ والأجلُ المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدّةٍ مُعَيَّنة ـ لجاءهم العذاب بغتة) .

وقوله : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ .

أي : فاصبر ـ يا محمد ـ على تكذيب قومك واتهامهم لك بالسحر والجنون وكلام الشِّعر ، وعظِّم ربك بالثناء عليه والتسبيح والحمد قبل طلوع الشمس ـ وذلك صلاة الصبح ـ وقبل غروبها ـ وتلك صلاة العصر ـ .

وقد جاءت السنة الصحيحة بتأكيد هذا المعنى في أحاديث ، منها :

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم وأكثر أهل السنن عن جرير بن عبد الله البَجَليِّ رضي الله عنه قال : [كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر ، فقال : إنكم سترون ربكم كما تَرَوْنَ هذا القمر ، لا تُضَامون في رُؤْيَتِه ، فإن استطَعْتُم ألا تُغْلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، فافعلوا ، ثم قرأ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ [ق : 39]][2] .

الحديث الثاني: أخرج مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن أبي بَكْرِ بنِ عُمَارَةَ بْنِ رُوَيْبَةَ ، عن أبيه : قال : [سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لن يلجَ النارَ أحدٌ صَلَّى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» يعني الفجر والعَصْرَ . فقال له رجل من أهل البصرة : آنْتَ سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ قال : نعم . قال الرجل : وأنا أشهد أني

(1) حديث صحيح . أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (2/ 441/ 2) ، وأبو نعيم في الحلية (10/ 218) ، ورواه أحمد في المسند (6/ 294) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1372) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (554) ، كتاب مواقيت الصلاة ، باب فضل صلاة العصر ، وأخرجه كذلك (4851) ، ورواه مسلم (633) ، وأبو داود (4729) ، والترمذي(2551) ، وابن ماجة (177) ، وأحمد (4/ 360) ، وابن حبان (7442) .

سَمِعْتُهُ من رسول الله ﷺ ، سَمِعَتْهُ أُذُنايَ وَوَعاهُ قلبي][1] .

وقوله : ﴿ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ .

قال ابن عباس : (﴿ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ ﴾ قال : آناء الليل : جوف الليل). وقال الحسن : (من أوّله ، وأوسطه ، وآخره). والمقصود : ومن ساعات الليل فتهجد به ، ومن أطراف النهار فسَبِّح كذلك لعلك ترضى بثواب الله لك .

وعن قتادة : (﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ ﴾ قال : هي صلاة الفجر ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ قال : صلاة العصر . ﴿ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ ﴾ قال : صلاة المغرب والعشاء . ﴿ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾ قال : صلاة الظهر). وعن ابن زيد : (﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ قال : الثواب ، ترضى بما يثيبك الله على ذلك).

قال النسفي : (﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ أي اذكر الله في هذه الأوقات رجاء أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك ويسر قلبك).

قلت : والخطاب وإن كان للنبي ﷺ بالصبر وإقامة الصلوات المكتوبة ، والتماس الصلوات النافلة ـ مما يعين على مواجهة الأذى والمحن ـ ، فهو للأمة من باب الأولى . والعاقبة رضوان الله تعالى .

ففي الصحيحين والمسند من حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : [إنَّ الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك؟ فيقول : أنا أُعطيكم أَفْضلَ من ذلك ، قالوا : يا ربِّ وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول : أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً][2] .

131 ـ 132 . قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (634) ، كتاب المساجد ، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما . ورواه أبو داود (427) ، والنسائي (1/ 235) ، وأحمد (4/ 136) ، وابن حبان (1740) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6549) ، كتاب الرقاق ، وكذلك (7518) ، وأخرجه مسلم (2829) ، وأحمد (3/ 88) ، والترمذي (255) ، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (282) .

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢)﴾.

في هذه الآيات: حثُّ الله نبيّه على ترك النظر إلى المترفين أهل الاستكبار، فما هم فيه من متاع الحياة الدنيا صائر إلى الزوال، وإنما هم في امتحان واختبار. وأمرُه له تعالى باستنقاذ أهله من النار، بإقام الصلاة والصبر على ذلك، ورزق الله مقسوم والعاقبة للمتقين.

فقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾. قال مجاهد: (يعني الأغنياء، فقد آتاك الله خيراً مما آتاهم). وعن أبي رافع: (يعني بقوله: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ رجالاً منهم أشكالاً). قال القاسمي: (﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي أصنافاً من الكفرة). وقال ابن كثير: (يقول تعالى لنبيه محمد ـ صلوات الله وسلامُه عليه ـ: لا تنظر إلى ما متَّعنا به هؤلاء المترفين وأشباههم ونُظراءهم، وما هم فيه من النعيم، فإنما هو زهرة زائلة، ونِعمةٌ حائِلة، لِنَختبرهم بذلك، وقليل من عبادي الشكور).

وقوله: ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. أي زينتها. وهو منصوب على أنه بدل من ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أو نُصب بـ ﴿مَتَّعْنَا﴾ على تضمينه معنى: أعطينا وخوّلنا.

وقوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾. قال قتادة: (لنبتليهم فيه).

وقوله: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾. أي مما متعنا به هؤلاء في هذه الدنيا.

قال ابن جرير: (﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ الذي وعدك أن يرزقكه في الآخرة حتى ترضى، وهو ثوابه إياه ﴿خَيْرٌ﴾ لك مما متعناهم به من زهرة الحياة الدنيا. ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ يقول: وأدوم، لأنه لا انقطاع له ولا نفاد).

قلت: والآية وإن كانت خطاباً للنبي ﷺ، فإنها منهاجُ حياة لكل مسلم، لئلا يغتر بما فَتن الله به الطغاة في الأرض وهم يعيثون فيها فساداً ويحاربون دينه وأولياءه. بل إن النبي ﷺ خشي على هذه الأمة من زهرة الدنيا وزينتها وما يفتح عليهم فيها من ذلك. فإلى ذكر بعض هذه الأحاديث من سنته العطرة:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ جلس ذات يوم على المِنْبَر، وجَلَسْنا حَوْلَهُ فقال: [إنّ مما أخافُ عليكم

من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتِها . .] الحديث[1] .

الحديث الثاني: أخرج الشيخان من حديث ابن عباس عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ في حديث اعتزال النبي ﷺ لنسائه ـ قال: [ثم رفعت بصري في بيتِهِ فو الله ما رأيت فيه شيئاً يردّ البصر عن أَهَبَةٍ ثلاثة ، فقلت: يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك ، فإن فارسَ والرومَ وُسِّعَ عليهم وأعطوا الدنيا ، وهم لا يعبدون الله ، وكان متكئاً فقال: أو في شكٍّ أنت يا ابن الخطاب! أولئك قومٌ عُجِّلتْ لهم طيباتُهم في الحياة الدنيا . .] الحديث[2] .

وفي رواية مسلم: [فقال: يا ابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا. قلت: بلىٰ].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي في «الشمائل» بسند صحيح عن مالك بن دينار قال: [ما شبعَ رسولُ الله ﷺ من خُبْزٍ قطّ ، ولا لحمٍ إلا على ضفف[3]][4] .

قال مالك: (سألت رجلاً من أهل البادية: ما الضفف؟ قال: أن يتناول مع الناس) .

الحديث الرابع: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن أبي الدرداء قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ ، ونحن نذكر الفقر ونتخوفه ، فقال: آلفقر تخافون؟ والذي نفسي بيده لَتُصَبَّنَّ عليكم الدنيا صباً ، حتى لا يُزيغَ قلب أحدكم إن أزاغهُ إلا هيَ ، وَايْمُ الله ، لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء][5] .

وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ .

أي: استنقذ أهلك من عذاب الله بإقام الصلاة والصبر على ذلك ، واعلم أن رزقك

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (1465)ـ كتاب الزكاة ، ورواه مسلم (1052) في أثناء حديث طويل.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (89) ـ كتاب العلم ، و(378) كتاب الصلاة. وكذلك (2468) ـ كتاب المظالم. ورواه مسلم (1479) ـ كتاب الطلاق.

(3) قال عبد الله بن عبد الرحمن شيخ الترمذي: (قال بعضهم: هو كثرة الأيدي).

(4) حديث صحيح. انظر: «مختصر كتاب الشمائل» (109) ، باب ما جاء في عيش رسول الله ﷺ.

(5) إسناد حسن ، رجاله ثقات. أخرجه ابن ماجة (5) ـ باب اتباع سنة رسول الله ﷺ. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (688).

مقسوم في دنياك فلا يشغلك عن إقامة أمر دينك ودين أهلك ، ثم العاقبة الصالحة لأهل التقوى.

فربط سبحانه تعالى العبادة بمفهوم الرزق ، فإن الشيطان يهم بالعبد كلما حاول تفريغ جزء من وقته لأهله ، فجاءت الآية تطمئن المؤمن أن الصبر على تعليم الأهل والولد الحق والصلاة وحب الله ورسوله والجهاد في سبيله لا يؤخر من الرزق شيئاً.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: 6].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2ـ3].

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 56ـ58].

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: يروي الإمام أحمد في المسند ، والترمذي في السنن ، عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لو أنكم توكلون على الله تعالى حقَّ توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً][1].

الحديث الثاني: أخرج أحمد والترمذي وابن حبان بسند جيد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى يقول: يا ابنَ آدم تفرّغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسُدَّ فقرك ، وإن لا تفعل ملأت يديك شغلاً ولم أسُدَّ فقرك][2].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس عن النبي ﷺ قال: [من كانت الآخرة همَّه ، جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة.

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (2461). انظر صحيح سنن الترمذي (1911) ، وتخريج: «مشكاة المصابيح» (23). ورواه أحمد.

(2) إسناده جيد. أخرجه الترمذي (2466) ، وأحمد (2/ 358) ، وابن ماجة (4017) ، والحاكم (4432) ، وابن حبان (393). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1359).

ومن كانت الدنيا همَّه ، جعل الله فقره بين عينيه ، وفرَّق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له][1].

133 ـ 135 . **قوله تعالى:** ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾ .

في هذه الآيات: سؤال المشركين رسول الله ﷺ الآيات والمعجزات ، وإنما أهلك الله القرون السالفة بعد وضوح البينات وظهور الدلالات . ولو أُهلك هؤلاء قبل إرسال هذا الرسول الكريم ، وتنزيل هذا الكتاب العظيم ، لاحتجوا على إهلاكهم معترضين . فقل لهم يا محمد: كل منا منتظر ، فانتظروا فستعلمون من أصحاب الصراط المستقيم ، وأتباع المنهج القويم ، منهاج النجاة والهداية للعالمين .

فقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ . هو من قيل المشركين لرسول الله ﷺ .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: قال هؤلاء المشركون الذين وصف صفتهم في الآيات قبل هلا يأتينا محمد بآية من ربه ، كما أتى قومه صالح بالناقة وعيسى بإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص) .

وقوله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ . قال مجاهد: (التوراة والإنجيل) . وقال قتادة: (الكتب التي خلت من الأمم التي يمشون في مساكنهم) .

والمقصود: أولم يأتهم في هذا القرآن العظيم أخبار القرون قبلهم والأمم التي سلفتهم من أهل الكتاب وغيرهم .

وفي التنزيل نحو ذلك: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: 50 ـ 51] .

---

(1) إسناده صحيح . أخرجه الترمذي (2596) ، وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2005) .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [ما مِنَ الأنبياء نَبِيٌّ إلا أُعْطِيَ منَ الآيات ما مِثْلُهُ أومِنَ ـ أوْ آمَنَ ـ عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وَحْياً أوْحاه الله إليَّ ، فأرجو أني أكثرهُمْ تابِعاً يومَ القيامة][1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ .

أي: لو أنا أهلكنا هؤلاء المعاندين المتكبرين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم ، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم ، لاحتجوا بأنهم كيف يُهلكون ولما يرسل إليهم رسول يدعوهم إلى الإيمان ، وما يجب عليهم في حق الله تعالى من اتباع شرعه وتعظيم دينه .

قال النسفي : (﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ﴾ بنزول العذاب ﴿ وَنَخْزَىٰ ﴾ في العقبى) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٩ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: 109 ـ110] .

2 ـ وقال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [فاطر: 42] .

3 ـ وقال تعالى : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٥٥ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ۝١٥٦ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: 155 ـ 157] .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (7274) ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة. ورواه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (152) كتاب الإيمان.

وإنما يحتج يوم القيامة فتقبل حجته عند ربه من لم تبلغه دعوة الرسل ، أو حال دونه ودون فهمها وبلوغها حائل.

فقد أخرج الطبراني بسند صحيح عن الأسود بن سريع مرفوعاً: [أربعة يوم القيامة يدلون بحجة: رجل أصم لا يسمع ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ومن مات في الفترة. فأما الأصم فيقول: يا رب جاء الإسلام وما أسمع شيئاً. وأما الأحمق فيقول: جاء الإسلام والصبيان يقذفونني بالبعر. وأما الهرم فيقول: لقد جاء الإسلام وما أعقل. وأما الذي مات على الفترة فيقول: يا رب ماأتاني رسولك ، فيأخذ مواثيقهم ليطعنه ، فيرسل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار. قال: فوالذي نفسي بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً][1].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾.

أي: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المكذبين من قومك: كُلّ منا منتظر لمن يكون له الفلاح والعاقبة والظفر ، فانتظروا وترقبوا ، فستعلمون من أصحاب الطريق المستقيم ومن المهتدي الذي قد أصاب منهاج الهداية والنجاة.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: 42].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: 56].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [سبأ: 24 ـ 26].

4 ـ وقال تعالى: ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ [القمر: 26].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني (79/ 2) ، وأحمد (4/ 24) ، وابن حبان (1827) ، وأخرجه الديلمي (1/ 1/ 171) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1434).

وفي سنن ابن ماجة ومعجم الطبراني من حديث سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: [عند الله خزائن الخير والشر مفاتيحها الرجال ، فطوبى لمن جعله الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر ، وويل لمن جعله الله مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير][1] .

تم تفسير سورة طه
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منِّه وكرمه

❑ ❑ ❑

(1) حديث حسن. انظر تخريج السنة (296_219) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3987).

ـ دروس ونتـــائج وأحكـــام ـ

1 ـ الرحمان على العرش استوى ، وكل أسماء الله حسنى.

2 ـ موسى ﷺ كليم الله ، ومحمد ﷺ خليله وكليمه.

3 ـ إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق ، إن نسيِ ذكَّره ، وإن ذكَر أعانه. وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء ، إن نسي لم يذكِّره ، وإن ذكَر لم يُعِنْه.

4 ـ معية الله لعباده بصفاته لا بذاته ، فهو تعالى يدبر الأمر من فوق عرشه.

5 ـ استنفار فرعون لحماية سلطانه من الزوال ، وقد أراه سحرته إيماناً كالجبال.

6 ـ الشرك أخفى في الأمة من دبيب النمل ، والله يذهبه بالتوكل.

7 ـ استصغار الكفار مدة مكثهم في هذه الحياة الدنيا إلى يوم واحد.

8 ـ من أعرض عن ذكر الله فإن له معيشة ضنكاً ، ويحشره ربه يوم القيامة أعمى.

9 ـ انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم. والعاقبة للمتقين ، والخسران للمترفين المستكبرين.

10 ـ القرآن الكريم أكبر معجزة خالدة في الأرض إلىٰ يوم القيامة.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (112)

أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله قال: [بنو إسرائيل ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء هُنَّ من العِتاق الأُوَلِ ، وهُنَّ من تلادي][1] .

موضوع السورة

قصص الأنبياء منهاج النجاة للمؤمنين ، وسبيل الشقاء والخزي للكافرين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ إعلام الله تعالىٰ عن اقتراب الساعة ، والناس في غفلة عن الذكر يلعبون.

2 ـ استبعاد الناس النبوة لبشر مثلهم ، شأن الأمم السالفة قبلهم.

3 ـ إثبات بشرية الرسول ، ووجوب الرجوع في فهم الدين لأهل العلم والفضل.

4 ـ إثبات العاقبة والنصر للمرسلين ، والخزي والذل على الكافرين ، وهذا الكتاب شرف للعرب فيه ذكرهم لو كانوا يعقلون.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (4739) ـ كتاب التفسير ـ ، سورة الأنبياء ، من حديث عبد الله بن مسعود.

5 ـ محاولة المجرمين الفرار عند تطويق الله لهم بالعذاب المهين ، واعترافهم أنهم كانوا ظالمين ، حتىٰ صاروا حصيداً خامدين .

6 ـ تأكيد الله خلقه السماوات والأرض بالحق لا باللهو واللعب ، وتقرير سنته في رفع كلمة الحق وإسكات كلمة أهل الكذب ، فله ما في السماوات والأرض والملائكة في عبادتهم له لا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

7 ـ استخفاف الله بآلهة قوم لا تضر ولا تنفع ولا تحيي ولا تميت فهو الإله الحق الأحد الصمد ، ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا .

8 ـ ثناء الله على الملائكة ، وإبطاله دعوىٰ الكفار اتخاذه الولد منهم .

9 ـ لفت أنظار الكفار إلى عظيم قدرته تعالىٰ ، وواسع نعمه وكرمه عليهم .

10 ـ تولي الله نصر دينه ، وكل نفس ذائقة الموت وإنما الناس في اختبار ثم إلى ربهم يرجعون .

11 ـ استهزاء المشركين بالرسول ، وخلق الإنسان من عجل ، وتقرير العذاب على المشركين المستهزئين .

12 ـ تسلية الله نبيّه عما يلقاه من أذىٰ المشركين ، وتقريره تعالىٰ نعمه على الكافرين .

13 ـ إقرار المكذبين بذنوبهم عند حلول العذاب ، والوزن يكون بالعدل يوم الحساب .

14 ـ اشتمال التوراة على الفرقان بين الحق والباطل ، وهذا القرآن في غاية الإعجاز والجلاء والوضوح وهو الكتاب الكامل .

15 ـ إلهامُ الله تعالىٰ إبراهيم ﷺ الحق من صغره، وثناؤه تعالىٰ عليهِ في محاججة قومه .

16 ـ تحطيم إبراهيم الأصنام واستخفافه بعقول قومه ، ونجاته من النار بإذن ربه .

17 ـ نجاة إبراهيم ولوط ـ عليهما الصلاة والسلام ـ إلى بلاد الشام ، وإكرام الله تعالىٰ إبراهيم بإسحاق ويعقوب أئمة من الصالحين ، وحماية الله نبيّه لوطاً من القوم الفاسقين .

18 ـ نجاةُ نوح ﷺ بإذن الله من الكرب العظيم ، وإغراق الله قومه المكذبين .

19 ـ ثناؤه تعالىٰ على داود وسليمان ، وتفهيمه سليمان مسألة الكرم وغنم القوم ، وتسخير الجبال والطير وعمل الدروع لداود ، والريح والشياطين لسليمان .

20 ـ ثناء الله تعالىٰ على صبر أيوب عليه السلام ، وكشفه ضره رحمة به وذكرىٰ للأنام.

21 ـ ثناء الله تعالىٰ على إسماعيل وإدريس وذي الكفل في الصابرين ، وإدخالهم في رحمته إنهم من عباده الصالحين.

22 ـ تضييق الله تعالىٰ على يُونس ﷺ وإدخاله في بطن الحوت ، ودعوته ربه من ذلك السجن بخير الدعاء ، الذي كشف به غمّه وجعله للمؤمنين من خير الرجاء.

23 ـ ثناء الله تعالىٰ على زكريا عليه السلام ، وإجابة دعوته بأن وهب له يحيىٰ وأصلح له زوجه. وذكر قصة مريم وابنها عيسىٰ عليهما السلام عقب قصة زكريا وابنه يحيىٰ عليهما السلام ، وثناء الله على مريم ورفع ذكرها في الأنام.

24 ـ وحدة منهج الأنبياء ، واختلاف الناس عليهم ، وكتابة الملائكة أعمال الأولياء.

25 ـ تأكيد هلاك الأمم المكذبة ، وفَتْح سد يأجوج ومأجوج قبيل الساعة ، وإسرار الكفار الندامة عند معاينة أهوال القيامة.

26 ـ تأكيد وقوع المشركين وآلهتهم في نار العذاب ، والبشرىٰ للمؤمنين يوم الحساب ، وهذا النبي الكريم رحمة لجميع العالمين.

27 ـ وَحْيُ الله تعالىٰ إلى نبيّه عليه الصلاة والسلام ، أنه تعالىٰ الإلٰه الحق الذي لا ينبغي أن يعبد غيره الأنام.

28 ـ إعلانُ البراءة من القوم المشركين ، إن أصروا على الجاهلية والمكر بالإسلام والمسلمين.

29 ـ إخبارُ الله تعالىٰ نبيّه ليعلم قومه أن حلول وقت عقابهم قد يكون قريباً ، وإنما هم في فتنة والله يمكر بهم مكراً شديداً.

30 ـ لا يعلم السر وأخفىٰ إلا الرحمان ، فله الحكم وهو الرب الإله الحق المستعان.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 6. **قوله تعالىٰ:** ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾.

في هذه الآيات: إعلامُ الله اقتراب قيام الساعة والناس في غفلتهم لاهون، وما يأتيهم من قرآن يذكرهم سبيل نجاتهم إلا استقبلوه وهم يلعبون، ويستبعدون النبوة لبشر مثلهم ويتهمونه بالسحر أو الشعر أو الجنون، والله تعالىٰ يهدّدهم وبالقياس على الأمم السالفة الهالكة فهم لا يؤمنون.

فقوله تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

تنبيه من الله تعالىٰ عباده على دنو قيام الساعة وهم غائبون في غفلتهم، لاهون في دنياهم، معرضون عن أخراهم.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 1].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: 1 ـ 2].

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ: [قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [مريم: 39] ـ قال: وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا، ـ ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾][1].

الحديث الثاني: أخرج النسائي بسند صحيح عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ: [﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ قال: في الدنيا][2].

الحديث الثالث: أخرج الحاكم والطبراني بإسناد صحيح عن ابن مسعود مرفوعاً: [اقتربت الساعةُ، ولا يزدادُ الناسُ على الدنيا إلا حِرصاً، ولا يزدادون من الله إلا بُعداً][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: ما ينزل من قرآن يذكرهم به ربهم ويعظهم ويرشدهم فيه إلى ما فيه سعادتهم إلا استمعوه ثم تابعوا لعبهم ومضوا في لهوهم.

قال قتادة: (يقول: ما ينزل عليهم من شيء من القرآن إلا استمعوه وهم يلعبون. ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ يقول: غافلة قلوبهم).

وقوله: ﴿مُّحْدَثٍ﴾ أي جديد إنزاله، حديث أمر الله لرسوله ببلاغه. قال ابن عباس: (مالكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرّفوه وبدّلوه، وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدثُ الكتب بالله تقرؤونه مَحْضاً لم يَشُبْ) ـ رواه البخاري بنحوه.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4730)، كتاب التفسير، سورة كهيعص، في أثناء حديث طويل.

(2) حديث صحيح. أخرجه النسائي في «التفسير» (352) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وانظر صحيح مسلم (2849) ح (41) نحوه.

(3) صحيح الإسناد. أخرجه الحاكم (4/ 324)، والطبراني في «المعجم الكبير» (9787)، وأبو نعيم في «الحلية» (7/ 242)، (18/ 315)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1510).

وقوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

أي: أظهر هؤلاء المعرضون المناجاة فيما بينهم يقولون: هل محمد إلا بشر مثلكم فكيف اختصَّ بالوحي دونكم، فهم يستبعدون كونه نبياً لأنه بشر.

وقوله: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾. قال ابن زيد: (قاله أهل الكفر لنبيهم لما جاء به من عند الله، زعموا أنه ساحر، وأن ما جاء به سحر، قالوا: أتأتون السحر وأنتم تبصرون).

قال ابن كثير: (أي: أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

تهديد ووعيد لأولئك المعرضين الذين يفترون الكذب ويختلقون الشبهات. وقراء مكة قرؤوا أول الآية: ﴿قَالَ رَبِّي﴾ على وجه الخبر. وأما قراء المدينة والبصرة وبعض الكوفيين فقرؤوا ذلك: ﴿قُلْ ربي﴾ على وجه الأمر. وهما قراءتان مشهورتان في الأمصار. والمعنىٰ كما قال النسفي: (قال محمد ـ أو قل يا محمد ـ للذين أسروا النجوىٰ ﴿رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي يعلم قول كل قائل هو في السماء أو الأرض سراً كان أو جهراً ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما في ضمائرهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

إخبار عن تردد القوم في افترائهم وشكهم. فأضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام مما يعتري المرء في نومه فظنها وحياً، ثم عدلوا عن ذلك فقالوا: بل هو كلام مفترىٰ من عنده، ثم بدا لهم أنه شاعر. وهذه هي طبيعة الباطل يترنح ويتأرجح ويتخبّط أهله. قال ابن جرير: (﴿فَلْيَأْتِنَا﴾ يقول: قالوا فليجئنا محمد إن كان صادقاً في قوله، أن الله بعثه رسولاً إلينا، وأن هذا الذي يتلوه علينا وحي من الله أوحاه إلينا ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ يقول: بحجة ودلالة على حقيقة ما يقول ويدّعي ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ يقول: كما جاءت به الرسل الأولون من قبله من إحياء الموتىٰ، وإبراء الأكمه والأبرص وكناقة صالح، وما أشبه ذلك من المعجزات التي لا يقدر عليها إلا الله، ولا يأتي بها إلا الأنبياء والرسل).

وقوله تعالىٰ: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: قياساً على السنن الماضية في الأمم السالفة ، لا يتوقع سلوك هؤلاء مع رسولهم بغير ما قابل الأوائل أنبياءهم لما رأوا الآيات ، لقد قابلوهم بالتكذيب والتنطع والعناد حتىٰ نزل بهم الهلاك والعذاب ، وهذا ما يبدو من هؤلاء كذلك.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: 52 ـ 53].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس: 96 ـ 97].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ [هود: 109].

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال: [يجيء نوحٌ وأُمَّتُه ، فيقول الله: هل بَلَّغْتَ ؟ فيقول: نعم أي ربِّ ! فيقول لأمته: هل بلَّغكم ؟ فيقولون: لا ، ما جاء لنا من نبي ، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ والوسط: العدل ، فيُدعون ، فيشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم][1].

الحديث الثاني: أخرج أحمد في المسند والنسائي في السنن بسند صحيح عن أبي سعيد رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل ، والنبي ومعه الرجلان ، والنبيّ ومعه الثلاثة ، وأكثر من ذلك ، فيُقالُ له: هل بلغت قومك ؟ فيقول: نعم ، فيدعىٰ قومه ، فيقال لهم: هل بلغّكم هذا ؟ فيقولون: لا ، فيقال له: من يشهد لك ، فيقول محمد وأمته. .] الحديث[2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6/ 286) ، (8/ 139) ، وأحمد (3/ 32). وانظر: صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (7890).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 58) ، وابن ماجة (2/ 573 ـ 574) ، والنسائي وغيرهم ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2448).

فالتكذيب سمة ظاهرة في أقوام الرسل جميعهم ، وهذا ما كان من قريش أيضاً في باديء الأمر حين أظهر النبي ﷺ دعوته.

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم ـ واللفظ للبخاري ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فِهْر ، يا بني عَدِيّ لبطون قريش حتىٰ اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرجَ أرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أنَّ خيلاً بالوادي تريد أن تغيرَ عليكم أكنتم مصدقيَّ ؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبّاً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾][1].

7 ـ 10. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ۝٩ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾.

في هذه الآيات: إثبات الله بشرية ورجولة الأنبياء ، وضرورة الرجوع عند الخلاف وسوء الفهم لأهل العلم ، وإثبات العاقبة والنصر للمرسلين ، والخزي والذل على الكافرين. وهذا الكتاب فيه ذكركم ـ معشر العرب ـ أفلا تعقلون.

فقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾. ردٌّ على من استبعد كون الرسل من البشر.

أي: لقد سبق ـ يا محمد ـ في الأمم التي خلت قبل أمتك رسل أوحىٰ الله إليهم لينذروا قومهم ، فما الذي دعاهم لإنكار إرسال الله إليك لهم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4770) ، كتاب التفسير. وانظر تفصيل البحث في كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين (1/ 186 ـ 188).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 9].

2 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰٓ﴾[يوسف: 109].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: 20].

وإنما يصدر من هؤلاء ما صدر من سفهاء الأقوام فيما مضىٰ من قولهم لرسلهم: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾.

وقوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ـ فيه ضرورة الرجوع لأهل العلم لفهم أمور الدين ونفي شبه المبطلين.

قال قتادة: (يقول: فاسألوا أهل التوراة والإنجيل ـ قال أبو جعفر: أراه أنا قال: ـ يخبروكم أن الرسل كانوا رجالاً يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق).

وقال ابن زيد: (﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: أهل القرآن، والذكر: القرآن، وقرأ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾).

وقد ورد في فضل العلم وطلبه والسؤال عنه أحاديث من السنة الصحيحة:

الحديث الأول: في صحيح سنن ابن ماجة من حديث أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [... وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء. إنَّ الأنبياء لم يُوَرِّثوا ديناراً ولادِرْهَماً. إنما وَرَّثوا العلم. فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر][1].

الحديث الثاني: وفي الباب عن زر بن حبيش قال: أتيت صفوان بن عَسَّال المُرادي، فقال: ما جاء بك؟ قُلتُ: أنبط العلم. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ما مِنْ خَارجٍ خَرَجَ مِنْ بيتِهِ في طلب العِلم إلا وَضَعَت له الملائكة أجنحتها، رِضاً بما يصنع][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (223)، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم. انظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (182)، وهو جزء من حديث أطول.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (226) في الباب السابق. وانظر صحيح ابن ماجة (185).

الحديث الثالث: روى الطبراني في الأوسط ، والبزار في المسند ، بإسناد حسن عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [فضل العلم خير من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع][1]. وفي رواية: [فضل العلم أحبُّ إلي من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾.

أي: لم نجعلهم ملائكة لا يأكلون الطعام ، بل جعلناهم ـ مثلك يا محمد ـ أجساداً يطعمون ويموتون.

قال الضحاك: (يقول: لم أجعلهم جَسداً ليس فيهم أرواح لا يأكلون الطعام ، ولكن جعلناهم جسداً فيها أرواح يأكلون الطعام).

وعن قتادة: (قوله: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾: أي لا بد لهم من الموت أن يموتوا).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾.

هو إشارة من الله سبحانه إلى المهمّ في أمر الرسل: أنهم نُصروا على المكذبين من أقوامهم ، وكانت لهم العاقبة في نهاية الأمر ، وأهلك الله المعاندين المسرفين.

قال قتادة: (والمسرفون: هم المشركون).

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قال ابن عباس: (﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾: شرفكم).

وقال مجاهد: (﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ قال: حديثكم). وقال الحسن: (دينكم).

وقال سفيان: (نزل القرآن بمكارم الأخلاق ، ألم تسمعه يقول: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قلت: وكل ما سبق يحتمله التأويل ، وإن كان المقصود الأعلى في هذه الآية التنبيه على شرف هذا القرآن ، وتحريض قريش والعرب على معرفة قدره ورفعته وسموه.

قال ابن كثير: (﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ، أي: هذه النعمة وتتلقَّونها بالقبول ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: 44]).

---

(1) حديث حسن. رواه البزار والطبراني عن حذيفة ، والحاكم عن سعد. انظر الروض النضير (1/ 440) وتخريج العلم (112/ 13) ، وصحيح الجامع الصغير (4090).

11 ـ 15. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾.

في هذه الآيات: تصوير الله تعالىٰ هلاك المجرمين، ومحاولتهم الهرب عند نزول العذاب المهين، ثم اعترافهم أنهم كانوا ظالمين، حتىٰ أُسكتوا عن آخرهم وصاروا خامدين.

فقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾. قال مجاهد: (وكم أهلكنا). وأصل القَصْم في كلام العرب: الكَسْر. وقوله: ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ المراد أهل القرية التي ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾، وظلمها هو نقضها العهد مع الله سبحانه، نقضها «لا إله إلا الله».

وقوله: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾. أي: أنشأنا بعد إهلاكها أمة أخرىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي محاولين الفرار.

قال ابن جرير: (ـ يقول ـ: فلما عاينوا عذابنا قد حَلَّ بهم إذا هم يهربون سراعاً عجلىٰ يَعْدون منهزمين).

وقوله: ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾. أي لا تفروا. ـ خطاب على وجه الاستهزاء وقد فاتهم قطار النجاة.

وقوله: ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾. قال قتادة: (ارجعوا إلى دنياكم التي أترفتم فيها).

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾. قال مجاهد: (لعلكم تفقهون). وقال قتادة: (لعلكم تُسألون من دنياكم شيئاً استهزاء بهم).

أي لا تركضوا ولا تفروا لعلكم تسألون عن أنواع الخمور التي تعرفونها وعن أصناف المعازف والمسكرات التي كنتم تتقنونها. لا تركضوا وارجعوا لعلكم تسألون عن أسماء نجوم اللهو والفجور والمجون التي كنتم تفقهون بها. لا تركضوا لعلكم تسألون عن فقه استعمال وسائل نقل المنكرات وكشف العورات. لا تركضوا وارجعوا

لعلكم تسألون عن الحيل التي كنتم تتعاملون بها في بيعكم وشرائكم وتجارتكم ، وعن طرق التلاعب بالأسعار وسبل الرشوة والاحتكار.

أخرج الطبراني بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: [خمسٌ بخمس: ما نقض قوم العهد إلا سُلِّطَ عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طفَّفوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر](1).

وله شاهد عن ابن ماجة والبزار والبيهقي ـ واللفظ له ـ بسند صحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: [يا معشر المهاجرين خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتىٰ يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سُلِّطَ عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض ما في أيديهم ، ومالم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جُعل بأسهم بينهم](2).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾. اعتراف منهم بما كانوا عليه من الذنوب والآثام ، ولكن بعدما فات وقت الندم وحاق بهم الخسران.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾.

قال قتادة: (يقول: حتىٰ هلكوا). والمقصود: ما زال ذلك الاعتراف والتأنيب لأنفسهم حتىٰ سكنت حركتهم ، وانطفأت شرارتهم ، وصاروا هموداً لا حراك لهم.

16 ـ 20. قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ

(1) حديث حسن. رواه الطبراني في الأوسط (1/ 85/ 1) ، وبنحوه الحاكم (2/ 126) ، (4/ 540) ، وانظر صحيح الجامع ـ حديث رقم ـ (3235).

(2) حديث صحيح. رواه ابن ماجة (4019) ، والبيهقي (3/ 346) ، وأبو نعيم في «الحلية» (8/ 333 ـ 334) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (106).

فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: تأكيد الله خلقه السماوات والأرض بالحق لا باللهو واللعب ، وتقرير سنته تعالىٰ في رفع كلمة الحق وإسكات كلمة أهل الكذب ، فله سبحانه ما في السماوات والأرض والملائكة في عبادتهم له لا يستحسرون ، ينزهونه الليل والنهار لا يفترون .

فقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ .

قال قتادة : (يقول : ما خلقناهما عبثاً ولا باطلاً) .

والمقصود : أن الله تبارك وتعالىٰ خلق السماوات والأرض بالعدل والقسط وخلق العباد لتعظيمه وحده لا شريك له وإفراده بالعبودية .

وفي التنزيل :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص : 27] .

3 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك : 2] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ .

قال مجاهد : (﴿ لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا ﴾ من عندنا ، وما خلقنا جنة ولا ناراً ، ولا موتاً ولا بعثاً) .

قال القاسمي : (﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا ﴾ استئناف مقرر لما قبله من انتفاء اللعب واللهو . أي لو أردنا أن نتخذ ما يتلهىٰ به ويلعب لاتخذناه من عندنا) .

وقال قتادة : (﴿ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ : أي ماكنا فاعلين) . وقال مجاهد : (كل شيء في القرآن ﴿ إِن ﴾ فهو إنكار) .

وقوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ .

قال قتادة : (والحق كتاب الله القرآن ، والباطل : إبليس ، فيدمغه فإذا هو زاهق : أي ذاهب) . أو قال : ﴿ زَاهِقٌ ﴾ : هالك) .

والمقصود: أن آيات الله فيها بيان الحق الذي يدحض الباطل فإذا هو ذاهب مضمحل هالك.

وقوله: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾. أي: ولكم الويل أيها المفترون مما تشركون فتنسبون لله الولد وتكذبون. قال ابن جريج: (﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ قال: تشركون). وقال قتادة: (﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾: أي تكذبون).

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾.

إخبار عن عبودية الملائكة لله تعالىٰ مالك السماوات والأرض، وهم بذلك لا يَتْعَبون ولا يَملّون، بل هم في سجود وذكر وتعظيم لله هم فيه دائبون.

قال ابن عباس: (﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ لا يرجعون). وقال مجاهد: (لا يحسَرون).

وقال قتادة: (لا يَعْيَوْن). وقال ابن زيد: (﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾. قال: لا يستحسرون، لا يملُّون ذلك الاستحسار، قال: ولا يفترون، ولا يسأمون).

وقوله تعالىٰ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾. أي هم في تسبيح دائم لا ينقطعون عنه.

قال ابن عباس عن كعب: (إنهم ألهموا التسبيح كما ألهمتم الطَّرف والنَّفس).

وقال كعب الأحبار أيضاً: (إنهم جُعل لهم التسبيح، كما جُعِلَ لكم النفس، ألست تأكل وتشرب وتقوم وتقعد، وتجيء وتذهب، وأنت تَنَفَّس؟ قلت[1]: بلىٰ، قال: فكذلك جُعل لهم التسبيح).

وفي التنزيل ونحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: 30].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: 7].

وفي مسند الإمام أحمد وجامع الترمذي بسند حسن عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إني أرىٰ ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطَّت السماء وَحُقَّ لها

---

(1) القائل: عبد الله بن الحارث، الراوي عن كعب الأحبار ـ كما ذكر ابن جرير بسنده إليه.

أن تَئِطَّ ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضعٌ جبهته لله تعالىٰ ساجداً ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون إلى الله][1].

وله شاهد عند ابن نصر في «الصلاة» من حديث عائشة مرفوعاً: [ما في السماء الدنيا موضع قدم ، إلا عليه ملك ساجد ، أو قائم ، فذلك قول الملائكة: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ ، ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ ، ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾].

وشاهد آخر عنده من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: (بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه رضي الله عنهم إذ قال لهم: هل تسمعون ما أسمع ؟ قالوا: ما نسمع من شيء. قال: إني لأسمع أطيط السماء ، وما تُلام أن تَئِطَّ ، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد ، أو قائم].

21 ـ 25. **قوله تعالىٰ**: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

في هذه الآيات: استخفافُ الله بآلهة القوم لا تحيي ولا تميت ، فلو كان في السماء والأرض آلهة غير الله معبودون لفسدتا ، والله تعالىٰ لا يُسأل عما يفعل وجميع خلقه يُسألون. فالمشركون مدعوون لإثبات استحقاق آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع أن تُعبد ولكنهم بعبادتهم جاهلون. والله تعالىٰ هو الذي بيده النفع والضر وحده ، فهو المستحق للعبادة ولكن أكثرهم لا يعلمون.

فقوله تعالىٰ: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ ـ استهزاء بآلهة لا تحيي ولا تميت.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد والترمذي وابن نصر في «الصلاة» (2/43) ، و(1/44) من حديث عائشة ، وحكيم بن حزام ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1059) ـ (1060).

قال مجاهد: (ينشرون: يُحيون). وقال ابن زيد: (يقول: أفي آلهتهم أحد يحيي ذلك ينشرون). قال القرطبي: (أنشر الله الميت فَنُشِر أي أحياه فحيي).

وربما قال قائل: لقد كانوا يقرون لله عز وجل أنه خالق السماوات والأرض وأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولىٰ، إلا أنهم ينكرون البعث ـ وما كانوا ينسبون لآلهتهم ذلك!! فكيف يكون توجه الآية؟. الجواب: اسم القادر ـ عز وجل ـ يقتضي ذلك.

قال الزمخشري: (لكنهم بادعائهم لها الإلهية، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار، لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور. والإنشاء من جملة المقدورات. ثم قال: وفيه باب من التهكم بهم والتوبيخ والتجهيل، وإشعار بأن ما استبعدوه من الله لا يصح استبعاده، لأن الإلهية لما صحت صحّ معها الاقتدار على الإبداء والإعادة).

وقال القاسمي: (سر قوله تعالىٰ ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ هو التحقير، أي تحقير الأصنام بأنها أرضية سفلية).

وقوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

أي: لو كان في السماء، والأرض آلهة غير الله معبودون لفسدتا. تنّزه الله سبحانه عن أن يكون له شريك أو ولد، وتقدّس عما يفتري الظالمون والأفاكون عُلوّا كبيراً.

وفي التنزيل:

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: 91].

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: [يا أبا المنذر، أي آية في كتاب الله أعظم؟ ـ قلت: الله ورسوله أعلم، فرددها مراراً ثم قال أبي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ ـ فضرب صدري وقال: ليهنك العلم أبا المنذر، والذي نفسي بيده أن لهذه الآية لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾.

قال ابن جريج: (المعنىٰ لا يسأله الخلق عن قضائه في خلقه، وهو يسأل الخلق عن

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (5/ 141 ـ 142) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه مرفوعاً، وانظر صحيح مسلم (2/ 199) نحوه.

عملهم ، لأنهم عبيد). وقال قتادة: (لا يسألُ عما يفعل بعباده ، وهم يُسألون عن أعمالهم).

وفي الأثر عن علي رضي الله عنه: (أن رجلاً قال له: يا أمير المؤمنين: أيحب ربنا أن يُعصىٰ ؟ قال: أفيعصىٰ ربنا قهراً ؟ قال: أرأيت إن منعني الهدىٰ ومنحني الردىٰ أأحسن إليَّ أم أساء ؟ قال: إن منعك حقك فقد أساء ، وإن منعك فضله فهو فضله يؤتيه من يشاء. ثم تلا الآية: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: 88].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: 92 ـ 93].

وفي سنن الترمذي بسند صحيح من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ، ثم يَطّلِع عليهم رب العالمين ، فيقول: ألا يَتَّبِع كُلُّ إنسان ما كان يعبد. .] الحديث[1].

وقوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾.

أي: أم اتخذ هؤلاء المشركون من دون الله آلهة تنفع وتضر ، وتخلق وتحيي وتميت ، قل لهم ـ يا محمد ـ هاتوا دليلكم على ما تزعمون ، فهذا القرآن فيه خبر من معي مما وعدهم الله به من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ، وخبر من قبلي من الأمم السالفة في الكتب المتقدمة.

وعن قتادة: (﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ يقول: هاتوا بينتكم على ما تقولون. ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ يقول: هذا القرآن فيه ذكر الحلال والحرام. ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ يقول: ذكر أعمال الأمم السالفة وما صنع الله بهم وإلى ما صاروا).

وعن ابن جريج: (﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ قال: حديث من معي ، وحديث من قبلي).

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

أي: بل أكثر هؤلاء المشركين يجهلون الحق فهم يعرضون عنه ولا يصغون إليه.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2695) ـ كتاب السنن ـ أبواب صفة الجنة ، باب ما جاء في خلود أهل الجنة ، وأهل النار ، وانظر صحيح سنن الترمذي (2072).

وعن قتادة: (﴿فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ قال: عن كتاب الله).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

فيه: وحدة دعوة الرسل، ووحدة منهاج النبوة، فهو يتلخّص بكلمة النجاة وسرّ السعادة في الدارين: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

قال قتادة: (أرسلت الرسل بالإخلاص والتوحيد، لا يقبل منهم عمل حتىٰ يقولوه ويقرّوا به، والشرائع مختلفة في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي القرآن شريعة، حلال وحرام. وهذا كله في الإخلاص لله والتوحيد له).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: 36].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ [الزخرف: 45].

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [أنا أَوْلىٰ الناس بعيسىٰ بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إِخْوَةٌ لِعَلّاتٍ، أُمَّهاتُهُمْ شتىٰ ودينهم واحد][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: [كُنْتُ رَديفَ النبي ﷺ على حمار، فقال لي: يا معاذُ، أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحقُّ العباد على الله: أن لا يعذب من لا يُشْرِكُ به شيئاً. قلت: يا رسول الله، أفلا أُبَشِّرُ الناس؟ قال: لا تُبَشِّرهم فيتكلوا][2].

الحديث الثالث: أخرج مسلم في الصحيح عن عتبان بن مالك عن النبي ﷺ قال:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3442)، (3443)، كتاب أحاديث الأنبياء، ورواه مسلم وغيره.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (13/ 300)، كتاب التوحيد، وأخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (30)، كتاب الإيمان.

[إنَّ الله حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله عز وجل][1].

26 ـ 29. **قوله تعالىٰ:** ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إبطالُ ادعاء الكفار أن الله اتخذ ولداً من ملائكته، وثناء من الله تعالىٰ على الملائكة فهم لا يتكلمون ولا يشفعون إلا بإذنه، وهم من ربهم مشفقون.

فقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾.

قال قتادة: (قالت اليهود: إن الله تبارك وتعالىٰ صاهر الجنّ، فكانت منهم الملائكة، قال الله تبارك وتعالىٰ تكذيباً لهم وردّاً عليهم: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ وإن الملائكة ليس كما قالوا، إنما هم عباد أكرمهم الله بعبادته).

والمقصود: دحض ادعاء الكفار أن الله اتخذ ولداً من ملائكته، تنزه سبحانه وتعالىٰ عما يفتري الظالمون علواً كبيراً، وتبرئة الملائكة مما ينسبون لهم، وأنهم: ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾.

وقوله: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴾ ـ ثناء من الله تعالىٰ على الملائكة، فهم لا يتكلمون إلا بما يأمره سبحانه.

وقوله: ﴿ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾. قال قتادة: (لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم، ولا يعملون عملاً إلا به).

وقوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾. قال ابن عباس: (يقول: يعلم ما قدّموا وما أضاعوا من أعمالهم).

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: يعلم ما بين أيدي ملائكته مالم يبلغوه،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (33)، كتاب الإيمان، من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً. وانظر صحيح البخاري (11/ 206).

ما هو ، وما هم فيه قائلون وعاملون ، وما خلفهم: يقول: وما مضىٰ من قبل اليوم مما خلفوه وراءهم من الأزمان والدهور ما عملوا فيه).

وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾. أي: لا تشفع الملائكة إلا لمن رضي الله عنه.

قال ابن عباس: (يقول: الذين ارتضىٰ لهم شهادة أن لا إله إلا الله).

وقال مجاهد: (لمن رضي عنه).

وفي التنزيل:

قوله سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: 255]. وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: 23].

وقوله: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾. قال قتادة: (يقول: وهم من خوف الله وحذار عقابه أن يحلّ بهم مشفقون. يقول: حذرون أن يعصوه ويخالفوا أمره ونهيه).

وقوله تعالىٰ: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قال ابن كثير: (أي: مَنْ ادّعىٰ منهم أنه إله من دون الله ، أي: مع الله ، ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ، أي: كُلَّ من قال ذلك. وهذا شرطٌ ، والشرطُ لا يلزمُ وقوعُه ، كقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ ، وقولِهِ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65]).

30 ـ 33. قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

في هذه الآيات: يلفت الله تعالىٰ أنظار الكفار إلى عظيم جبروته وكمال سلطانه ، وقهره لجميع المخلوقات ، فهل رأىٰ الجاحدون ألوهيته أو المشركون بعبادته كيف

كانت السماوات والأرض في التصاق ففتق هذه من هذه ، فجعل السماوات سبعاً ، وفصل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء ، فإذا السماء تمطر بإذنه تعالىٰ ، وإذا الأرض تنبت بإذنه ، وقد جعل من الماء حياة كل شيء من خلقه أفلا يؤمنون.

وجعل في الأرض الجبال تثبيتاً لها وكذلك المسالك بين الجبال يهتدون عليها في أسفارهم ومعايشهم ، والسماء سقفاً مرفوعاً محفوظاً من الشياطين ، وكثير من الناس عن هذه الآيات والنعم الكبيرة معرضون. وهو الذي خلق الليل والنهار وكذلك الشمس والقمر وكل في دوران منتظم يجرون.

فعن ابن عباس: (قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ . . . الآية ، يقول: كانتا ملتصقتين ، فرفع السماء ووضع الأرض). قال: (كانتا ملتزقتين ، ففتقهما الله). وقال قتادة: (كانتا جميعا ، ففصل الله بينهما بهذا الهواء).

قال القاسمي: (وقال بعض علماء الفلك في تفسير هذه الآية: ﴿ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾[1] أي ذرات ، أي غازات أي سديم. ثم تجاذبت كما يتجمع السحاب فصارت كتلة واحدة. مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ أي كتلة واحدة. فدارت ثم تقطعت وتفصلت بالقوة الدافعة ، فتكونت الأرض والسماوات ، تصديقاً لقوله تعالىٰ: ﴿ فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ أي فصلناهما ، فصارتا كرات من الماء في يومين. ثم قال: وفي هذا الوقت كان عرشه على الماء. أي كان ملكه وسلطانه على الماء والله أعلم).

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: وأحيينا بالماء كل شيء يرونه في هذه الحياة الدنيا من البشر والبهائم والزروع والثمار والأشجار وغير ذلك. أفلا يدعوهم ذلك إلى أن يصدقوا ربهم تعالىٰ الإيمان !؟.

وعن قتادة: (﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ قال: كل شيء حي خُلِق من الماء).

---

(1) والآية بتمامها: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: 11].

قال ابن جرير: (وقوله: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: أفلا يصدّقون بذلك، ويقرّون بألوهة من فعل ذلك ويفردونه بالعبادة).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾.

أي: وكذلك جعلنا في الأرض الجبال الشامخات الثابتات كيلا تتكفأ الأرض بالناس. والرواسي: جمع راسية، وهي الثابتة. قال قتادة: (رواسي: أي جبالاً). قال: (كانوا على الأرض تمور بهم، لا تستقرّ، فأصبحوا وقد جعل الله الجبال، وهي الرواسي أوتاداً للأرض).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾. الفجاج: المسالك، واحدها فجّ. أي: وكذلك جعلنا في الأرض مسالك بين الجبال يتحركون عليها لحاجاتهم ومعايشهم، ويهتدون أثناء السير فيها إلى أسفارهم.

قال ابن عباس: (﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ سبلاً، قال: بين الجبال). وقال قتادة: (﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾: أي أعلاماً. وقوله: ﴿سُبُلًا﴾ أي طرقاً، وهي جمع السبيل).

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾، أي: ثغراً في الجبال يَسْلُكُون فيها طُرُقاً من قُطْرٍ إلى قُطْرٍ، وإقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض، يكون الجَبَلُ حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فَجْوَةً لغيره، ليَسْلُكَ الناسُ فيها من هاهنا إلى هاهنا، ولهذا قال: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾. قال مجاهد: (مرفوعاً). وقال قتادة: (سقفاً مرفوعاً، وموجاً مكفوفاً). والمقصود: ومن آياتنا كذلك أن جعلنا السماء سقفاً على الأرض كالقبّة عليها ﴿مَّحْفُوظًا﴾ عاليا محروساً من أن يُنال. قال ابن جرير: (يقول: حفظناها من كل شيطان رجيم).

وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾. قال مجاهد: (الشمس والقمر والنجوم آيات السماء). أي: وهم عن هذه الآيات العظيمة التي تحويها السماء ذات الاتساع الكبير والارتفاع الشاهق المثير، من كواكب ونجوم، وشمس وقمر، ومجرات وأفلاك، ذات حركة ودوران، ومسارات لها انتظام، لا يتفكرون في بارئها وصانعها،

ولا يعتبرون بمبدعها ومُسَيِّرها ، ولا ينتبهون للوازم ذلك كله من إفراد الله ـ تعالىٰ ـ العظيم القهار بالعبادة والمحبة والطاعة والإخبات .

وفي التنزيل :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق : 6].

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ [الشمس : 5].

3 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105].

وفي مسند الطيالسي وسنن البيهقي بسند حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : [تفكروا في آلاء الله ، ولا تفكّروا في الله][1] .

ورواه أبو نعيم من حديث ابن عباس بلفظ : [تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في الله] .

وله شاهد آخر عند أبي نعيم في «الحلية» من حديث عبد الله بن سلام مرفوعاً ، بلفظ : [لا تفكروا في الله ، وتفكروا في خلق الله ، فإن ربنا خَلَقَ مَلَكاً ، قدماه في الأرض السابعة السفلىٰ ، ورأسه قد جاوز السماء العُليا ، ما بين قدميه إلى ركبتيه مسيرة ست مئة عام ، وما بين كعبيه إلى أخمص قدميه مسيرة ست مئة عام ، والخالق أعظم من المخلوق][2] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ .

أي : وهو سبحانه خالق الليل بسكونه وظلامه ، وخالق النهار بضيائه وأنسه ، ويطوّل هذا تارة ويقصِّره أخرىٰ ، والثاني كذلك ، وخلق الشمس وحركتها وضياءها ، وخلق القمر ومنازله وحركته ، وكل في فلك يسبحون . قال مجاهد : (يَجْرون) .

---

(1) حديث حسن . أخرجه البيهقي في «الشعب» (1/ 75) ، والطبراني في «الأوسط» (6456) ، ورواه الطيالسي وغيره . انظر السلسلة الصحيحة (1788) ، وصحيح الجامع (2972) ـ (2973) .

(2) إسناده حسن في الشواهد . أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (6/ 66 ـ 67) من حديث عبد الله بن سلام مرفوعاً ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، حديث رقم ، (1788) وشواهده .

وقال ابن عباس: (يدورون). والفلك في لغة العرب: كل شيء دائر.

قال القرطبي: (أي يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: 40].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: 96].

34 ـ 35. قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تولّي الله نصر دينه فهو الحي الذي لا يموت والأنبياء والرسل يموتون. وكل نفس ذائقة الموت وإنما الناس في اختبار ثم إلى ربهم يرجعون.

فقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾. ردٌّ على المشركين الذين كانوا يدفعون نبوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويقولون: شاعر نتربص به ريب المنون. قال القرطبي: (فقال الله تعالىٰ: قد مات الأنبياء من قبلك، وتولىٰ الله دينه بالنصر والحياطة، فهكذا نحفظ دينك وشرعك).

وفي التنزيل:

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: 26 ـ 27].

وقوله: ﴿ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ أي: أفإن مت يا محمد فهؤلاء يؤمّلون أن يعيشوا بعدك أو يخلدوا في الأرض بعد غيابك!؟ لا، لن يكون هذا، بل هم ميتون بكل حال عشت أو مت، والكل إلى فناء.

وقوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: كل نفس منفوسة من خلقه، معالجة غصص الموت، ومتجرعة كأسها).

وقوله: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ قال ابن عباس: (بالرخاء والشدة، وكلاهما بلاء). وقال قتادة: (يقول: نبلوكم بالشر بلاء والخير فتنة).

وقال ابن زيد: (نبلوهم بما يحبون وبما يكرهون ، نختبرهم بذلك لننظر كيف شكرهم فيما يحبون ، وكيف صبرهم فيما يكرهون). وعن علي عن ابن عباس: (قوله: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ ﴾ يقول: نبتليكم بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنىٰ والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدىٰ والضلالة ، وقوله: ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ يقول: وإلينا يُردّون فيجازون بأعمالهم ، حسنها وسيئها).

36 ـ 40. **قوله تعالىٰ**: ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

في هذه الآيات: استهزاء المشركين بالرسول وهم أحق أن يُستهزأ بهم. والإنسان خُلق من عَجَلٍ والكفار المستعجلون للعذاب سيرون ما ينزل بهم. وتقريبٌ من الله لهؤلاء المنكرين البعث والعذاب ما هم مقبلون عليه من العذاب المهين.

فقوله: ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾.

قال القاسمي: (عُنِيَ بهذه الآية مستهزئو قريش ، كأبي جهل وأضرابه ممن كان يسخر من رسالته صلوات الله عليه ، ويتغيظ لسبّ آلهتهم وتسفيه أحلامهم).

وقوله: ﴿ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾. أي: فهم أحق أن يستهزأ بهم.

قال ابن جرير: (يقول: فيعجبون من ذكرك يا محمد آلهتهم التي لا تضرّ ولا تنفع بسوء ﴿ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ الذي خلقهم وأنعم عليهم ، ومنه نفعهم ، وبيده ضرّهم ، وإليه مرجعهم بما هو أهله منهم أن يذكروه به كافرون).

وفي التنزيل نحو ذلك:

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ

لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَاۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 41 ـ 42].

وقوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾. قال قتادة: (خلق عجولاً).

قال النسفي: (والظاهر أن المراد الجنس، وأنه ركب فيه العجلة، فكأنه خلق من العجل، ولأنه يكثر منه).

قلت: والذي يبدو من السياق أن المقصود تسرّع الإنسان في الجناية على نفسه قبل التأني والبحث، فيستجيب لوسوسة شيطانه في نَفْخِهِ فيه الكبر والاستهزاء بغيره ولو كان غيره يدعو إلى الحق، وهذا حال المشركين حين قابلوا الوحي والنبوة بالعجب والتنطع والعجلة وركبوا موجة الكبر التي حرَّكها إبليس في نفوسهم حتىٰ ران على قلوبهم وكان الهلاك بإصرارهم.

وقوله: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

هو جواب الله تعالىٰ لأولئك المتعجلين نزول العذاب بهم والانتقام منهم. وهنا نكتة لطيفة كما قال ابن كثير رحمه الله: (والحكمة في ذكر عجلة الإنسان هاهنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك فقال الله تعالىٰ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ لأنه تعالىٰ يُملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يُفْلِتْه، يُؤَجِّلُ ثم يُعَجِّلُ، وَيُنْظِرُ ثم لا يؤخِّر، ولهذا قال: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾، أي: نِقَمِي وحُكْمِي واقتداري على مَنْ عصاني، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

إخبار من الله سبحانه عن سلوك هؤلاء المشركين كمَنْ قبلهم في استعجال الرسل بوقوع العذاب بهم، تكذيباً منهم بذلك وجحوداً واستبعاداً.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

تقريبٌ من الله سبحانه لهؤلاء المنكرين البعث والحساب والعذاب لما هم مقبلون عليه من النكال بوصفه أحوالهم وهم في غمرات الجحيم، لا يستطيعون ردّ النار عن وجوههم ولا عن ظهورهم ولا سبيل لهم يومئذ إلى فرج أو نصر أو خلاص مما هم فيه.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر: 16].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف: 41].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ [إبراهيم: 50].

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: [يقول الله تبارك وتعالىٰ لأَهْوَنِ أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها ؟ فيقول: نعم ، فيقول: قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك ولا أدخلكَ النار ، فأبيتَ إلا الشرك][1].

وفي لفظ آخر: [يقول الله لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: يا ابن آدم ! كيف وجدت مضجعك ؟ فيقول: شر مضجع . .] الحديث.

وفي جامع الترمذي ومسند أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال: [يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، يُساقون إلى سجن في جهنم يسمىٰ بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يُسْقونَ من عُصارةِ أهل النار ، طينةِ الخبال][2].

وقوله تعالىٰ: ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾.

أي: بل تأتيهم النار فجأة كما تأتيهم الساعة بغتة فلا يجدون أنفسهم إلا وقد أحيط بهم في سعير النار ولهبها وسمومها فلا حيلة حينئذ لردها ولا هم يمهلون أو يؤخرون لتوبة واعتذار ، فقد فات أوان التوبة والاستغفار.

قال الفراء: (فتبهتهم: أي تحيرهم). وقيل: فتفجؤهم. وقال الجوهري: (بَهَتَه بَهْتاً أخذه بغتة). والمقصود: أن النار تغشاهم فجأة وتلفح وجوههم حتى تحيرهم في اندفاعها نحوهم ، ولا حيلة عندهم لردها أو دفعها. ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي: ولا يؤخّر عنهم هذا الحال السيِّئ ساعة واحدة. وقال القرطبي: (أي: لا يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 134)، وانظر مختصر صحيح مسلم (1955) ـ كتاب صفة القيامة ، من حديث أنس بن مالك.

(2) حديث حسن. رواه أحمد في المسند ، والترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (2492). انظر صحيح سنن الترمذي (2025) ، وصحيح الجامع (7896). وقد مضى تخريجه.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال: [نارُكم هذه التي يوقد ابنُ آدم ، جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم. قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله ، قال: فإنها فُضِّلَت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها][1].

41 ـ 45. **قوله تعالىٰ:** ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تثبيت الله تعالىٰ نبيّه ﷺ بأن له في طريق الأنبياء قبله أسوة ، فالمكر سيحيق بالمستهزئين. قل لهؤلاء المشركين ـ يا محمد ـ: من الذي يحفظكم بالليل والنهار من أمر الرحمن إذا نزل بكم ، بل أنتم عن ذكر ربكم وشكره معرضون. فهل لكم آلهة تمنعُ نزول العذاب بكم ؟ أم هي هزيلة لا تستطيع نصر أنفسها ولا هي مصحوبة بالنصر والتأييد ؟! إنما غرّ هؤلاء متاع الحياة الدنيا فهلاّ نظروا إلى أطراف البلاد كيف يفتحها الله للمسلمين ، ويتعظوا بهذا الوحي الكريم ، وإنما الصم لا يسمعون ولا يعقلون ما ينذرون.

فقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

تسلية من الله تعالىٰ لرسوله ﷺ عما يلقاه من إيذاء المشركين واستهزائهم وتكذيبهم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 149 ـ 150). وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1976) ـ كتاب صفة النار.

قال النسفي: (سلّىٰ رسول الله ﷺ عن استهزائهم به بأن له في الأنبياء أسوة، وأن ما يفعلونه به يحيق بهم كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوا).

وفي التنزيل:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: 34].

وقوله: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ﴾.

قال ابن عباس: (يحرسكم). وقال قتادة: (قل من يحفظكم بالليل والنهار من الرحمن).

والخطاب لهؤلاء المشركين المستعجلين العذاب. أي: قل لهم يا محمد، من يحفظكم ويحرسكم بالليل إذا نمتم، وبالنهار إذا انتشرتم من أمر الرحمان إن نزل بكم، ومن عذابه إن وقع عليكم.

وقوله: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾. قال ابن كثير: (أي: لا يعترفون بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، بل يُعرضون عن آياته وآلائه). وقال القرطبي: (﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم﴾ أي عن القرآن. وقيل: عن مواعظ ربهم. وقيل: عن معرفته. ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ لاهون غافلون).

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ﴾.

أي: أم لهؤلاء المشركين آلهة تقدر على نصرهم إذا نزل بهم عذابنا وحل بهم سخطنا ونقمتنا.

وقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾. قال قتادة: (يعني الآلهة).

أي: بل هم من الضعف والمهانة والعجز بحيث لا تستطيع آلهتهم الهزيلة المخلوقة الدفاع عنهم ولا عن نفسها إذا قضىٰ الله تعالىٰ نزول العذاب بهم.

وقوله: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾. قال مجاهد: (لا ينصرون). أو قال: (ولا هم يحفظون).

وعن ابن عباس: (يقول: ولا هم منا يُجارون). وقال قتادة: (لا يُصحبون من الله بخير).

قال القاسمي: (ومعناه: كيف تستطيع آلهتهم التي يدعونها من دوننا أن تمنعهم

منا ، وهي لا تستطيع نصر أنفسها ولا هي بمصحوبة منا بالنصر والتأييد).

وقوله : ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾ .

قال ابن كثير : (يقول تعالىٰ مخبراً عن المشركين : إنما غرَّهم وحملهم على ما هم فيه من الضَّلال أنهم مُتِّعوا في الحياة الدنيا ونُعِّمُوا ، وطالَ عليهم العُمر فيما هُم فيه ، فاعتقدوا أنهم على شيء).

وقوله : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ .

قال الحسن البصري : (يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر). أي : أفلا يرىٰ هؤلاء المشركون ـ يا محمد ـ كيف نخرّب البلاد في النواحي المجاورة والأرجاء المختلفة بقهرنا أهلها وغلبهم وإجلائهم. قال القاسمي : (أي ننقص أرض الكفر فَنُخَرِّبُها من نواحيها بقهرنا أهلها وغلبتنا لهم وإجلائهم عنها بالسيوف ، فيعتبروا بذلك ويتعظوا به ويحذروا منا أن ننزل من بأسنا بهم نحو الذي قد أنزلنا بمن فعلنا ذلك به من أهل الأطراف).

وقوله : ﴿ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ ـ تقريعٌ للمشركين بغرورهم وجهلهم بالله وقدرته وجبروته. قال قتادة : (يقول : ليسوا بغالبين ، ولكن رسول الله ﷺ هو الغالب).

وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ﴾ . أي بهذا التنزيل العظيم. قال قتادة : (أي بهذا القرآن).

وقوله : ﴿ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ . أي لا يجدي هذا الإنذار عمن ختم الله على قلبه وطمس على سمعه وجعل على بصره غشاوة.

قال سعيد ، عن قتادة : (يقول : إن الكافر قد صمَّ عن كتاب الله لا يسمعه ، ولا ينتفع به ولا يعقله ، كما يسمعه المؤمن وأهل الإيمان).

46 ـ 47. قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : إقرار المكذبين بذنوبهم عند حلول العذاب بهم ، والوزن يوم القيامة هو الحق فلا تظلم نفس مثقال ذرة وكفىٰ بالله حفيظاً.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

النفحة: النصيب والحظ. قال الرازي: (ونَفْحَةٌ من العذاب: قِطْعةٌ منه). وقال قتادة: (يقول: لئن أصابتهم عقوبة). والمعنىٰ: ولئن نزل بهؤلاء المكذبين قطعة من عذاب الله لرأيتهم يعترفون بذنوبهم ويقرّون أنهم كانوا في هٰذه الحياة الدنيا ظالمين.

وقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

قال ابن كثير: (أي: ونضع الموازين العَدْل ليوم القيامة. الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدّد الأعمال الموزونة فيه).

قلت: ويؤيد هذا ما روىٰ الحاكم بسند صحيح عن سلمان، عن النبي ﷺ قال: [يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت، فتقول الملائكة: يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول الله تعالىٰ: لمن شئت من خلقي، فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، ويوضع الصراط مثل حد الموسىٰ، فتقول الملائكة: من تجيز على هذا؟ فيقول: من شئت من خلقي، فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك][1].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن عائشة: [أن رجلاً قعد بين يدي رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله: إن لي مَمْلوكين، يكذبونني، ويخونونني، ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ قال: «يُحْسَبُ ما خانوكَ وعَصَوْكَ وكَذَّبوك، وعِقابُكَ إيَّاهم، فإن كان عقابُك إياهم بِقَدْرِ ذنوبهم كان كَفافاً لا لَكَ ولا عليكَ، وإنْ كانَ عقابُك إياهم دونَ ذنوبهم كان فَضْلاً لك، وإنْ كان عقابُك إياهم فوقَ ذنوبهم اقْتُصَّ لهم مِنْكَ الفَضْلُ».

قال: فتنحّىٰ الرجل، فجعل يبكي ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: «أما تَقْرأ كِتابَ الله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ الآية.

فقال الرجل: والله يا رسول الله، ما أجد لي ولهم شيئاً خيراً من مفارقتهم، أشهدك أنهم أحرار كلهم][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/ 586)، والآجري في «الشريعة» (382)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (941).

(2) صحيح الإسناد. انظر صحيح سنن الترمذي (2531) ـ كتاب التفسير ـ سورة الأنبياء.

وقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾.

أي: فلا يظلم الله نفساً وإن كان الذي له من عمل الحسنات أو السيئات وزن حبة من خردل جئنا بها فأحضرناها. قال ابن زيد: (كتبناها وأحصيناها له وعليه).

وقال: (يؤتىٰ بها لك وعليك، ثم يعفو إن شاء أو يأخذ، ويجزي بما عمل له من طاعة). وعن مجاهد: (﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ قال: جازَيْنا بها).

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾. أي عالمين حافظين، ولا أحد أسرع حساباً منا.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 40].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46].

4 ـ وقال تعالىٰ ـ من قيل لقمان ـ: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 16].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما روىٰ عن الله تبارك وتعالىٰ أنه قال: [يا عبادي إني حَرَّمتُ الظلمَ على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا] الحديث[1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي وابن ماجة بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يستخلِصُ رجلاً من أُمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشُرُ عليه تسعةً وتسعين سِجلاً، كُلُّ سجلٍّ مَدُّ البصر، ثم يقول: أَتُنكِرُ من هذا شيئاً؟ أظَلَمتْكَ كَتَبتي الحافِظُون؟ قال: لا، يارب. قال: أفلك عُذْرٌ أو حسنةٌ؟ قال: فيُبْهَتُ الرجلُ فيقول: لا، يا رب. فيقول: بلىٰ، إنَّ لك عندنا حسنة واحدةً، لا ظلم اليوم عليك. فيُخرجُ له بطاقة فيها: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله»، فيقول: أَحْضِروه.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 17)، وأخرجه أحمد في المسند (5/ 160).

فيقول: يا ربِّ، ما هذه البطاقةُ مع هذه السِّجلاتُ! فيقال: إنك لا تُظلم.

قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة. قال: ولا يثقل شيءٌ باسم الله الرحمن الرحيم](1).

الحديث الثالث: أخرج الشيخان وأحمد والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم](2).

48 ـ 50. قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

في هذه الآيات: اشتمال التوراة على الفرقان بين الحق والباطل، والهدىٰ والضلال، والذكرىٰ للمؤمنين الذين هم من الساعة مشفقون. وهذا القرآن كذلك كتاب مبارك في غاية الإعجاز والجلاء والوضوح فعجب من قوم له ينكرون.

فقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾. قال مجاهد: (الكتاب).

وقال قتادة: (الفرقان: التوراة حلالها وحرامها، وما فرق الله به بين الحق والباطل).

وقال ابن زيد: (الفرقان: الحق آتاه الله موسىٰ وهارون، فرق بينهما وبين فرعون، قضىٰ بينهم بالحق، وقرأ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: 41] قال: يوم بدر). قال: (يعني النصر).

والآية كغيرها من الآيات يقرن الله تعالىٰ بين ذكر موسىٰ ومحمد عليهما الصلاة والسلام وبين كتابيهما.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2639)، وابن ماجة (4300)، وأحمد (2/ 213)، والحاكم (1/ 6 ـ 529)، وابن حبان (225)، ورجاله ثقات.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6406)، (7563)، ومسلم (2694)، والترمذي (3467)، وابن ماجة (3806)، وأحمد (2/ 232)، وابن حبان (831).

قال ابن كثير: (وجامعُ القول في ذلك أن الكتب السماوية تَشتمِلُ على التفرقة بين الحق والباطل، والهُدى والضلال، والغَيِّ والرشاد، والحلال والحرام، وعلى ما يحصُل نوراً في القُلوب، وهدايةً وخوفاً وإنابةً وخشية، ولهذا قال: ﴿ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: تذكيراً لهم وعظة).

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾.

يشتمل على ركني النجاة: خشية الله بالغيب، والعمل والاستعداد للقائه يوم القيامة. فالإيمان: قول وعمل. والقول قولان: قول القلب وقول اللسان. والعمل عملان: عمل القلب وعمل الجوارح.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: 12].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: 33].

وقوله: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾. أي: خائفون وجلون حذرون.

أخرج أبو نعيم في «الحلية» بسند حسن في الشواهد عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال: [قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمْنَين ولا خوفين، إنْ هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع فيه عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع فيه عبادي][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾. قال قتادة: (أي هذا القرآن).

أي: أفأنتم معشر العرب منكرون لهذا القرآن المبارك الذي أنزله الله تعالىٰ على محمد ﷺ كما أنزل التوراة من قبل على موسىٰ عليه الصلاة والسلام، وهو الكتاب المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفيه ذكر أخبار الأمم وأخبار ما يجري وما سيكون إلى يوم القيامة، وأخبار كل شيء، فكيف تنكرونه وهو في هذه الغاية من الجلاء والوضوح والبيان والإعجاز.

51 ـ 56. قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ

(1) حسن لشواهده. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (6/ 98)، والبزار كما ذكر الهيثمي في «المجمع» (10/ 308)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (742).

عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

في هذه الآيات: إلهامُ الله تعالىٰ إبراهيم ﷺ الحق من صغره، وثناؤه تعالىٰ عليه في قوة محاججته لأبيه وقومه في عكوفهم على عبادة الأوثان والأصنام، وترك عبادة الرحمان، فاطر السماوات والأرض، وله الخلق والأمر، وهو ربّ جميع الأنام.

فقوله: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾. قال مجاهد: (هديناه صغيراً).

وعن قتادة قال: (يقول: آتيناه هداه). والمقصود: هداه الله من صغره وألهمه الحق وقوة الحجة ليفيد منها عند جداله قومه.

كما في التنزيل:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 83].

وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: وكنا عالمين به أنه ذو يقين وإيمان بالله وتوحيد له، لا يشرك به شيئاً). والمقصود: أنه كان أهلاً لهذا الاختصاص من الله تعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾.

قال مجاهد: (الأصنام). قال ابن كثير: (هذا هو الرُّشد الذي أوتيه من صِغره، الإنكارُ على قومه عبادةَ الأصنام من دون الله عز وجل، فقال: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾، أي: مُعْتكِفون على عِبادتها).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾.

احتجاج فاسدٌ من القوم إذ اعتبروا صنيع الآباء الضُّلال حجة تُسَوِّغ لهم عبادتهم الأوثان من بعدهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

إخبارٌ من الله تعالىٰ عن قول إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ مجيباً لهم في

احتجاجهم الفاسد على عبادة الأوثان بصنيع الآباء: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في منهاج عبادتكم في ذهاب عن سبيل الحق وجور عن قصد السبيل، لا يخفىٰ ذلك على عاقل، بل هو ظاهر بيِّن.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾.

قال النسفي: (أي أجادٌّ أنت فيما تقول أم لاعبٌ، استعظاماً منهم إنكاره عليهم، واستبعاداً لأن يكون ما هم عليه ضلالاً).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

أي: بل ربكم أيها القوم رب السماوات والأرض الذي خلقهن وخلق ما فيهن من المخلوقات، ومن جملتها أصنامكم وآلهتكم الضعيفة التافهة التي تصرفون لها العبادة بسبب خفة عقولكم وفراغ قلوبكم من الإيمان بالله الخالق العظيم الواحد الأحد، وأنا أشهد أنه لا إله غيره، ولا ربّ سواه، وإليه كل الخلق والأمر وله صحيح العبادة.

57 ـ 70. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ۝٥٨ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ۝٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ۝٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٧ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ۝٧٠﴾.

في هـذه الآيـات: تحطيمُ إبراهيم ﷺ أصنام قومـه، واستخفافه بعقولهم عند

محاكمتهم له ، واجتماعهم على تحريقه فأنجاه الله ـ قال: يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ـ، وَردّ كيدهم في نحرهم وجعلهم الأخسرين.

فقوله تعالىٰ: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾.

قال النسفي: (﴿ وَتَٱللَّهِ ﴾ أصله والله ، وفي التاء معنىٰ التعجب من تسهيل الكيد على يده مع صعوبته وتعذره لقوة سلطة نمرود). وقال ابن كثير: (أقسم الخليلُ قسماً أسْمَعَهُ بعض قومه: ليكيدَنَّ أصنامَهُم ، أي: ليحرِصَنَّ على أذاهم وتكْسِيرهم بعد أن يُوَلُّوا مُدْبرين ، أي: إلى عيدهم. وكان لهم عيدٌ يخرجون إليه).

قال السُّدِّيُّ: (لما اقترب وقتُ ذلك العيد قال أبوه: يا بُنَيَّ ، لو خَرَجْتَ معنا إلى عيدنا لأعجبك دينُنا! فخرج معهم ، فلما كان ببعض الطريق ألقىٰ نفسَه إلى الأرض وقال: إني سقيم. فجعلوا يمرون عليه وهو صريعٌ فيقولن: مَهْ! فيقول: إني سقيم. فلما جَاز عامَّتُهم وَبقِيَ ضُعَفاؤهم ، قال: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾ ، فسمعه أولئك).

وقوله: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا ﴾. قال ابن عباس: (يقول: حُطاماً). وقال مجاهد: (كالصَّريم).

وقال قتادة: (أي قطِعاً). والمقصود: فكسر أصنامهم وجعلهن قطعاً ـ من الجذ وهو القطع ، جمع جذاذة ـ.

وقوله: ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾.

قال ابن عباس: (إلا عظيماً لهم عظيم آلهتهم). وقال مجاهد: (جعل إبراهيم الفأس التي أهلك بها أصنامهم مسندة إلى صدر كبيرهم الذي ترك). قال قتادة: (كادهم بذلك لعلهم يتذكرون أو يبصرون).

والمقصود: تَرَكَ كبيرَ الأصنام قاصداً لعلهم يرجعون إليه فيسألونه عن كاسرها فيتبين لهم عجزه ، أو لعلهم يظنون أنه هو غار لنفسه وأَنِفَ أن تُعْبد معه هذه الأصنام الصِّغار فكسرها. وقيل: لعلهم يرجعون إلى إبراهيم أو إلى الله. والتفسير الأول أنسب للسياق ومكيدة إبراهيم ﷺ بهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

قال القاسمي: (﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا ﴾ أي هذا الفعل الفظيع ﴿ بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لجرأته على إهانتها وهي الجديرة عندهم بالتعظيم. أو لإفراطه في التجذيذ والحطم، وتماديه في الاستهانة بها. أو بتعريض نفسه للهلكة. والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتشنيع).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾. أي: سمعنا فتىً يعيبهم يقال له إبراهيم.

قال ابن جريج: (يذكرهم يعيبهم). وقال ابن إسحاق: (سمعناه يسبها ويعيبها ويستهزئ بها، لم نسمع أحداً يقول ذلك غيره، وهو الذي نظن صنع هذا بها).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾. أي: أحضروه على مرأىٰ الناس ليشهدوا عقوبته.

قال ابن إسحاق: (﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾: أي ما يصنع به). قال ابن كثير: (وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام، أن يُبَيِّنَ في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقولهم في عبادة هذه الأصنام، التي لا تدفع عن نفسها ضَرّاً، ولا تستطيع لها نصراً، فكيف يُطلَبُ منها شيءٌ من ذلك).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾.

أي: سألوه في مشهد الناس أحقاً أنت الذي فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟! ـ وإنما أرادوا إقامة البينة عليه ثم عقوبته أمام الملأ ليكون عبرة لمن يعتبر ـ فكادهم صلوات الله وسلامه عليه بإجابة ذكية بأن نسب الفعل إلى كبيرهم ليضعهم أمام تفاهة منهجهم في التفكير والعبادة. قال قتادة: (قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾... الآية، وهي هذه الخصلة التي كادهم بها). وقال ابن إسحاق: (غضب من أن يعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر منها، فكسرهن).

قال القرطبي: (إن كانوا ينطقون فاسألوهم. فعلق فعل الكبير بنطق الآخرين، تنبيهاً لهم على فساد اعتقادهم. كأنه قال: بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء. وقيل: بيّن أن من لا يتكلم ولا يعلم لا يستحق أن يعبد).

ولا شك أن قول إبراهيم ﷺ ذلك من المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لَمْ يَكْذِبْ إبراهيم إلا ثلاثاً](1).

وفي الصحيحين والمسند عنه مرفوعاً: [لم يَكْذِبْ إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام إلا ثلاثَ كَذَباتٍ: ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ في ذات الله عزَّ وجل، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: 89]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: 63]، وقال: بَيْنا هو ذاتَ يومٍ وسارةُ إذ أتىٰ على جَبَّارٍ من الجبابرةِ، فقيل لهُ: إن هذا رجُلٌ مَعَهُ امرأةٌ مِنْ أَحْسَنِ الناس، فأرْسَلَ إليهِ فسألهُ عَنْها، فقال: مَنْ هذه؟ قال: أختي، فأتىٰ سارةَ فقال: يا سارةُ، ليس على وجهِ الأرض مؤمنٌ غيري وغيرُكِ، وإنَّ هذا سألني عَنْكِ فأَخْبَرْتُه أنَّكِ أختي فلا تُكَذّبيني، فأرسلَ إليها، فلمَّا دَخَلَتْ عليهِ ذَهَبَ يتناولها بيدهِ فأُخِذَ، فقال: ادعي اللهَ لي ولا أَضُرُّكِ، فَدَعَت اللهَ فأُطْلِقَ ثم تَناوَلَها الثانية فأُخِذَ مِثْلَها أو أشدَّ، فقال: ادعي اللهَ لي ولا أَضُرُّكِ، فدعَتِ اللهَ فَأُطْلِقَ، فدَعَا بَعضَ حَجَبَتِهِ فقال: إنَّكَ لم تأتِني بإنسانٍ، إنما أَتَيْتَني بِشَيطانٍ، فأخْدَمَها هاجرَ، فأَتَتْهُ وهو قائِمٌ يُصَلي فأومأَ بيدهِ: مَهْيَم؟ قالت: ردَّ الله كيدَ الكافرِ ـ أو الفاجرِ ـ في نَحْرِهِ وأخدم هاجر. قال أبو هريرةَ: تِلْكَ أُمُّكُمْ يا بني ماء السماء](2).

وقوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. أي بترك حراستكم الآلهة. أو كما قال النسفي: (فرجعوا إلى عقولهم وتفكروا بقلوبهم لما أخذ بمخانقهم ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ على الحقيقة بعبادة ما لا ينطقُ لا من ظلمتموه حين قلتم من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين، فإنه من لا يدفعُ عن رأسهِ الفاس، كيف يدفعُ عَنْ عابديهِ الباس).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾.

أي: ثم أطرقوا في الأرض وأصابتهم حيرة من أمرهم، ثم قالوا لإبراهيم: كيفَ تقول لنا سلوهم وهم لا ينطقون وأنتَ تعلمُ أنها لا تنطق! قال قتادة: (﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أدركتِ الناسُ حيرة سوء).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3357)، كتاب أحاديث الأنبياء، وانظر كذلك (2217) منه.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3358)، كتاب أحاديث الأنبياء، وكذلك (5084)، وأخرجه مسلم (2371)، وأبو داود (2212)، ورواه أحمد (2/ 403)، وابن حبان (5737).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾.

قال ابن إسحاق: (يقول: ألا ترون أنهم لم يدفعوا عن أنفسهم الضر الذي أصابهم، وأنهم لا ينطقون فيخبرونكم من صَنَعَ ذلكَ بهم، فكيف ينفعونكم أو يضرون).

والمقصود: أنَّ إبراهيم ﷺ استفاد من حيرتهم وعجزهم عن تفسير الموقف بأَنْ واجههم بفساد المنهج الذي هم عليه: كيفَ تعبدون من لا ينطقُ ولا يضر ولا ينفع؟!.

وقوله تعالى: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: قُبحاً لكم وللآلهة التي تعبدون من دون الله، أفلا تعقلون قبح ما تفعلون من عبادتكم ما لا يضرُ ولا ينفعُ، فتتركوا عبادته، وتعبدوا الله الذي فطر السماوات والأرض، والذي بيدِهِ النفع والضّر).

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾.

قال ابن إسحاق: (أجمع نمرود وقومه في إبراهيم فقال: ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ أي: لا تنصروها منه إلا بالتحريق بالنار إن كنتم ناصريها).

فبنوا له بنياناً، وأوقدوافيهِ ناراً، ثم ألقوهُ في النار. فقال إبراهيم عند ذلكَ: «حسبي الله ونعم الوكيل».

ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي اللهُ عَنْهُما قال: [﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾، قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: إنَّ الناسَ قد جَمَعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل][1].

وفي رواية له عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [كانَ آخِرَ قول إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل].

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾.

قال ابن جريج: (قوله: ﴿ بَرْدًا ﴾ قال: بردت عليه ﴿ وَسَلَٰمًا ﴾ لا تؤذيه).

قلت: وهذه كرامة عظيمة من الله تعالىٰ لنبيِّه وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ومعجزة باقية في ذكراها تتلوها الأجيال المتعاقبة على مرّ الدهور والأزمان. فإن الصدق

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (8/ 172)، حديث رقم (4563) ـ (4564) ـ كتاب التفسير.

مع الله في نصر دينه لا بد أن يقابله خرق للعادات ونصر من الله لأوليائه وعباده الصالحين.

وفي التنزيل:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: 2 ـ 3].

وفي سنن ابن ماجة وجامع الترمذي بسند صحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً][1].

ولفظ الترمذي: [لو أنكم كنتم تَوَكَّلونَ على الله حقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُم كما تُرْزَقُ الطَّيْرُ، تغدو خِماصاً، وتروحُ بِطاناً].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾.

أي: أراد القوم بمكرهم إيقاع الكيد والنكال والعذاب بإبراهيم عليه الصلاة والسلام، فردّ الله تعالىٰ المكر ليحيق بأهله، وجعلهم من المغلوبين الأسفلين الخاسرين.

71 ـ 75. قوله تعالىٰ: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ۝٧١ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ۝٧٢ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ۝٧٣ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ۝٧٤ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥﴾.

في هذه الآيات: نجاةُ إبراهيم ولوط ـ عليهما الصلاة والسلام ـ إلى بلاد الشام. وإكرام الله إبراهيم بإسحاق ويعقوب أئمة من الصالحين، يدعون إلى الدين الحق

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4164)، والترمذي (2461). انظر صحيح الترمذي (1911).

ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وكانوا لله عابدين. وإعطاء الله تعالىٰ نبيّه لوطاً ﷺ علماً وحكماً وحمايته من القوم الفاسقين، وإدخاله في رحمته إنه كان من الصالحين.

فقوله تعالىٰ: ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

قال قتادة: (كانا بأرض العراق، فأنجيا إلى أرض الشام، وكان يقال للشأم عماد دار الهجرة، وما نقص من الأرض زيد في الشأم، وما نقص من الشأم زيد في فلسطين، وكان يقال: هي أرض المحشر والمنشر، وبها مجمع الناس، وبها ينزل عيسىٰ بن مريم، وبها يهلك الله شيخ الضلالة الكذّاب الدجال).

والمقصود: أن الله تبارك وتعالىٰ لما سَلَّم إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من نار قومه، أخرجه من بين ظهرانيهم إلى بلاد الشام، إلى الأرض المقدسة منها.

قلت: والشام مُهاجَرُ الأمة من الفتن إلى قيام الساعة، وفيها بقية المؤمنين والماء. وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ، وذلك في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الحاكم في «المستدرك» بسند صحيح عن عبد الله موقوفاً ـ في حكم المرفوع ـ: [يُوشِك أن تَطْلُبوا في قُراكم هذه طَسْتاً مِنْ ماءٍ فلا تجدونَهُ، يَنْزَوي كلُّ ماءٍ إلى عُنْصُرِه، فيكون في الشام بقَّيةُ المؤمنين والماء][1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند صحيح عن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قال: [سمعت رسول الله ﷺ يقول: يا طوبىٰ للشام! يا طوبىٰ للشام! يا طوبىٰ للشام! قالوا: يا رسول الله وبم ذلك؟ قال: تلك ملائكة الله باسطو أجنحتها على الشام].

وفي رواية: [طوبىٰ للشام، إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليه][2].

وفي لفظ: [لأنَّ ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليه].

الحديث الثالث: أخرج أحمد في المسند عن أبي الدرداء مرفوعاً: [بينما أنا نائم إذ رأيتُ عمودَ الكتاب احتمل من تحت رأسي، فظننت أنه مذهوب به فأتبعته بصري، فعُمِدَ به إلى الشام. ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشام].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم في «المستدرك» (4/ 504) بسند صحيح من حديث عبد ا لله موقوفاً ـ في حكم المرفوع ـ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (3078).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2/ 33)، والحاكم (2/ 229)، وأحمد (5/ 184). وسنده صحيح.

وله شاهد عند الطبراني من حديث عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: [رأيتُ في المنام أخذوا عمودَ الكتاب فعمدوا به إلى الشام، فإذا وقعت الفتنُ فالأمن بالشام] وسنده حسن[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: ووهبنا له إسحاق ولداً، ويعقوب ابن ابنه نافلة).

وقال قتادة: (والنافلة: ابن ابنه يعقوب). أي أعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: 71]. وعنىٰ بقوله: ﴿وَكُلًّا﴾ إبراهيم وإسحاق ويعقوب. ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ ـ أي أهل صلاح وتقوىٰ وعمل بطاعة الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾. هو تحصيل الصبر واليقين بالله عز وجل والعمل بطاعته. كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾. فبالصبر واليقين، تُنال الإمامة في الدين.

قال قتادة: (جعلهم الله أئمة يُقتدى بهم في أمر الله. وقوله: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يقول: يهدون الناس بأمر الله إياهم بذلك، ويدعونهم إلى الله وإلى عبادته).

وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾.

أي: وأوحينا إليهم فيما أوحينا إليهم من الشرائع إقام الصلاة بحدودها وأركانها وواجباتها وخشوعها، والإنفاق في سبيل الله زكاة للأموال والخيرات، فكانوا عند حسن الظن في صدق الإيمان وحسن العبادة. قال قتادة: (﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ يقول: كانوا لنا خاشعين، لا يستكبرون عن طاعتنا وعبادتنا).

وقوله: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: وآتينا لوطاً حكماً، وهو فصل القضاء بين الخصوم، وعلماً: يقول: وآتيناه أيضاً علماً بأمر دينه، وما يجب عليه من فرائضه).

---

(1) حديث حسن. انظر تخريج «فضائل الشام» ـ الألباني. وكتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 1008ـ 1016). ـ لتفصيل البحث في فضائل الشام.

وقوله: ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ﴾.

أي: ونجيناه من العذاب الذي أنزلناه بأهل قرية سدوم التي انتشر في أهلها فعل الفواحش ـ من إتيانهم الذكور في أدبارهم ـ وكان لوط ﷺ قد بعث إليهم.

وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴾. أي: أصحاب سوء من العمل خارجين عن طاعة الله.

وقوله: ﴿ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ﴾. قال ابن زيد: (في الإسلام).

قال القرطبي: (﴿ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ﴾ في النبوة. وقيل: في الإسلام. وقيل: الجنة. وقيل: عنىٰ بالرحمة إنجاءه من قومه ﴿ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾).

76 ـ 77. قوله تعالىٰ: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

في هذه الآيات: نجاةُ نوحٍ ﷺ بإذن الله من الكرب العظيم، وإغراق الله تعالىٰ القوم الذين كذبوه وكانوا ظالمين.

فقوله: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ ﴾. أي: واذكر يا محمد نوحاً إذ نادىٰ ربه من قبلك، ومن قبل إبراهيم ولوط، لِنُهلِكَ من كَذَّبه من قومه وأسرف في العتو والطغيان.

وفي التنزيل:

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: 26 ـ 27].

وقوله: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

أي: فاستجبنا له دعاءه وأهلكنا القوم الظالمين. ونجيناه وأهله أهل الإيمان من ولده وحلائلهم ومن مضىٰ على منهاج الإيمان، من أهوال ذلك الطوفان.

وفي التنزيل:

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى

ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: 10 ـ 14].

وقوله: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾. قال أبو عبيدة: ﴿مِن﴾ بمعنىٰ علىٰ. وقيل: المعنىٰ فانتقمنا له.

قال النسفي: (مَنَعْناه منهم أي من أذاهم). والمقصود: أن النصر كان لنوح ﷺ ـ ومن مضىٰ على منهاجه ـ في آخر الأمر وحين الفصل، وكان الهلاك والغرق من نصيب أهل التكذيب والطغيان، وأهل الاستهزاء والعصيان.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. أي: إنهم كانوا على منهاج سوء فاستأصلهم الغرق أجمعين.

قال ابن كثير: (أي: أهلكهم الله بعامَّةٍ، ولم يُبْق علىٰ وجهِ الأرض منهم أحداً، إذْ دَعا عليهم نبيُّهم).

78 ـ 82. **قوله تعالى:** ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

في هذه الآيات: تفهيم الله سليمان في مسألة الكرم وغنم القوم، وتسخير الجبال مع داود يسبحن والطير، وتعليمه عمل الدروع الملبوسة، وتسخير الريح والشياطين لسليمان، عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين الصلاة والسلام.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾.

قال أشعث عن أبي إسحاق عن مّرة عن ابن مسعود: (كان ذلك الحَرْث كرماً قد نبتت عناقيده). وعن مّرة: (كان الحرث نبتاً).

والمقصود: أنه من حرث الأرض من غرسه أو نباته.

قال ابن عباس: (﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ قال: رعت). وقال ابن إسحاق: (النفش: الرعية تحت الليل). وعن قتادة: (النفش بالليل، والهَمْل بالنهار).

قلت: وفي لغة العرب: لا يكون النفش إلا بالليل، والهَمَلُ يكون ليلاً ونهاراً. قال الرازي: (و ﴿نَفَشَتْ﴾ الإبل والغنم أي رَعَت ليْلاً بلا راع. قال: وأنفَشَها غيرُها تركها ترعىٰ ليلاً بلا راع).

وتفصيل الخبر كما رواه ابن جرير من طريق أشعث عن أبي إسحاق عن مرة، عن ابن مسعود ـ في قوله ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ ـ قال: (كَرْم قد أنْبتَتَ عناقيده، فأفسدَتْه. قال: فقضىٰ داودُ بالغنم لصاحب الكَرْم. فقال سليمان: غيرُ هذا يا نبيَّ الله! قال: وما ذاك؟ قال: تدفَعُ الكَرْمَ إلى صاحب الغنم فيقَومُ عليه حتىٰ يعودَ كما كان، وتَدْفَعُ الغنَم إلىٰ صاحب الكرم فيصيب منها، حتىٰ إذا كان الكَرْمُ كما كان دَفَعْتَ الكَرْم إلى صاحبه، ودَفَعْتَ الغنم إلى صاحبها، فذاك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾).

وله شاهد عند ابن أبي حاتم عن خُدَيج عن أبي إسحاق عن مُرَّة عن مَسْروق قال: (الحَرْثُ الذي نَفَشَت فيه الغنم إنما كان كَرْماً نَفَشَت فيه الغنمُ، فلم تَدع فيه ورقة ولا عُنقوداً من عِنَب إلا أكَلَته، فأتوا داودَ فأعطاهم رِقَابها. فقال سليمان: لا، بل تؤخذ الغَنَمُ فتُعطىٰ أهل الكَرْمِ، فيكون لهم لَبَنُها ونفعُها، ويُعطىٰ أهل الغَنَم الكَرْم فَيَعْمُروه ويُصلِحوه، حتىٰ يعودَ كالذي كان ليلةَ نَفَشَت فيه الغنمُ، ثم يُعطىٰ أهلُ الغنم غَنَمَهم، وأهلُ الكرمِ كَرْمهُم).

قلت: وأما في شرعنا، فعلىٰ أصحاب الحوائط حفظ حيطانهم وزروعهم بالنهار، وعلىٰ أصحاب المواشي حفظ مواشيهم بالليل. فإن فرّط صاحب الماشية في ضبط وحبس ماشيته ليلاً فانتشرت وأفسدت شيئاً من زروع الناس فعليه ضمان ذلك.

وأدلة ذلك كثيرة:

1 ـ **الدليل الأول**: أخرج ابن ماجة وأبو داود بسند صحيح عن مُحَيِّصَةَ: [أنَّ ناقة للبراء بن عازب، دخلت حائط رجل فأفسدته، فقضىٰ رسول الله ﷺ، على أهل

الأموال حفظها بالنهار ، وعلى أهل المواشي حفظها بالليل][1] . وفي لفظ ابن ماجة : [فقضىٰ أن حِفْظَ الأموال على أهلها بالنهار . وعلى أهل المواشي ما أصابت مواشيهم بالليل] .

2 ـ **الدليل الثاني** : أخرج أبو داود بسند صحيح عن حرام بن مُحَيِّصَة الأنصاري ، عن البراء بن عازب ، قال : [كانت له ناقة ضارية ، فدخلت حائطاً فأفسدت فيه ، فَكُلِّمَ رسول الله ﷺ فيها ، فقضىٰ : أنَّ حفظ الحوائط بالنهار على أهلها ، وأن حفظ الماشية بالليل على أهلها ، وأن على أهل الماشية ما أصابت ماشِيَتُهم بالليل][2] .

وقوله : «ضارية» أي التي تعتاد رعي زرع الناس . والحائط : البستان . وقوله : «أن حفظ الأموال» أي البساتين . فما أتلفت الماشية بالنهار فالتقصير من صاحب البستان ، فلا ضمان ، وما أتلفت بالليل فالتقصير من صاحبها ، وعليه الضمان .

3 ـ **الدليل الثالث** : يروي ابن جرير بإسناده عن عامر ـ أي الشعبي ، وكذلك عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الشعبي : [أنَّ شاةً وقعت في غزل حائك فاختصموا إلى شُرَيح ، فقال الشعبي : انظروه فإنه سيسألهم ليلاً وقعت فيه أو نهاراً ، ففعل . ثم قال : إن كان بالليل ضمن ، وإن كان بالنهار لم يضمن ، ثم قرأ شريح : ﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ﴾ قال : والنَّفْش بالليل والهَمَل بالنهار] .

وفي لفظ ابن جرير ، قال عامر : (جاء رجلان إلى شُريح ، فقال أحدهما : إن شياه هذا قطعت غَزْلاً لي ، فقال شريح : نهاراً أم ليلاً ؟ قال : إن كان نهاراً فقد برئ صاحب الشياه ، وإن كان ليلاً فقد ضمن ، ثم قرأ : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ﴾ قال : كان النفش ليلاً)[3] .

وهذا التفريق بين الليل والنهار حكمته ظاهرة ، كما قال القرطبي رحمه الله : (وذلك أن أهل المواشي لهم ضرورة إلى إرسال مواشيهم ترعىٰ بالنهار ، والأغلب عندهم أن من عنده زرع يتعاهده بالنهار ويحفظه عمن أراده ، فجعل حفظ ذلك بالنهار على أهل

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (2332) ـ كتاب الأحكام ، وأخرجه أبو داود (3569) ـ كتاب الإجازة . وانظر صحيح سنن أبي داود (3047) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (3570) ـ كتاب الإجازة ، باب المواشي تفسد زرع قوم ، انظر صحيح سنن أبي داود (3048) ، وصحيح سنن ابن ماجة (1888) ـ باب الحكم فيما أفسدت المواشي .

(3) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (24701) ، ويشهد لهذا القضاء من شريح الدليلان قبله .

الزروع ، لأنه وقت التصرف في المعاش ، كما قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: 11]. فإذا جاء الليل فقد جاء الوقت الذي يرجع كل شيء إلى موضعه وسكنه ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [القصص: 72] وقال: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الإنعام: 96] ، ويرد أهل المواشي مواشيهم إلى مواضعهم ليحفظوها ، فإذا فرّط صاحب الماشية في ردّها إلى منزله ، أو فرّط في ضبطها وحبسها عن الانتشار بالليل حتىٰ أتلفت شيئاً فعليه ضمان ذلك).

فائدة: أما قوله ﷺ: [العَجْماءُ جُرْحُها جُبَارٌ][1] ، فالمقصود ما انفردت به البهيمة فأتلفته دون سائق أو قائد. أو يقال: هو حديث عام ، ثم خصّ منه الزرع والحوائط بحديث البراء السابق. والله تعالىٰ أعلم.

وقد ذهب مالك والجمهور إلى القول بحديث البراء ، وذهب أبو حنيفة وأصحابه وبعض الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ ، فما أفسدت البهائم ليلاً أو نهاراً لا يلزم صاحبها شيء ، واستدلوا بحديث: «جُرْح العجماء جُبار» ، والراجح قول مالك والجمهور وأنه عموم ورد فيه التخصيص ، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾. أي: لا يخفىٰ علينا من ذلك الحكم شيءٌ ، ولا يغيب عنا علمه. وفي الآية دليل على أن أقل الجمع اثنان.

وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾. أي: ألهمنا سليمان صحة الحكم في المسألة ودقة الفتوىٰ.

قال الحسن: (أثنىٰ على سليمان ولم يذمَّ داود).

قلت: والآية تشير إلى أن الصواب كان مع سليمان عليه الصلاة والسلام ، ولكن داود مأجور كذلك في اجتهاده. وبذلك جاءت سنة نبينا محمد ﷺ ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم وأصحاب السُنن عن عمرو بن العاص أنه

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ: [العَجْماء جُرْحها جُبارٌ ، والبئر جُبَارٌ ، والمَعْدِنُ جُبارٌ ، وفي الرِّكازِ الخُمُسُ]. انظر صحيح البخاري (6912) ـ كتاب الديات. وأخرجه مسلم (1710). والعجماء البهيمة ، وسميت بذلك لأنها لا تتكلم ، جبار: أي جنايتها هدر ليس فيها ضمان. و«المعدن جبار» أي لا زكاة فيما يستخرج منه. و(الركاز) الكنوز المدفونة قبل الإسلام ، وفيها الخمس.

سمع رسول الله ﷺ يقول: [إذا حكمَ الحاكِمُ فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر][1] .

الحديث الثاني: أخرج أبو داود وابن ماجة والحاكم بسند صحيح عن بريدة ، عن النبي ﷺ قال: [القُضاة ثلاثةٌ: واحدٌ في الجنة ، واثنان في النار ، فأما الذي في الجنة ، فرجل عرف الحق فقضىٰ به. ورجلٌ عرف الحق ، فجار في الحكم ، فهو في النار ، ورجلٌ قضىٰ للناس على جهل فهو في النار][2] .

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم وأحمد والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [كانت امرأتان مَعَهمُا ابناهُما ، جاءَ الذئبُ فذهب بابن إحداهُما ، فقالت صاحِبَتُها: إنّما ذهبَ بابنِكِ ، وقالت الأخرىٰ: إنما ذهبَ بابنِكِ ، فتحاكمتا إلى داود فقضىٰ به للكبرىٰ ، فخرجتا على سُليمان بنِ داود عليهما السلام فأخبرتاه ، فقال: ائتُوني بالسِّكين أشُقُّه بينهما ، فقالت الصغرىٰ: لا تَفْعَلْ يرحَمُكَ الله ، هو ابْنُها ، فقضىٰ به للصغرىٰ][3] . قال أبو هريرة: (والله إنْ سمعتُ بالسِّكين إلا يومئذ وما كُنّا نقولُ إلا المُدْية).

وقوله: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ .

قال النسفي: (﴿ حُكْمًا ﴾ نبوة ، ﴿ وَعِلْمًا ﴾ معرفة بموجب الحكم).

وقوله: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ﴾ .

قال ابن كثير: (وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزَّبور ، وكان إذا تَرَنَّمَ به تَقِفُ الطيرُ في الهواء فتُجاوِبُه ، وتَرُدُّ عليه الجبال تأويباً).

قلت: والصوت الحسن يزيد القرآن حسناً وجمالاً ، ويزداد المستمع له تأثراً ، فيزداد القلب بذلك تعلقاً وخشية ، وقد جاء ذلك في صحيح السنة في أحاديث:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (7352) ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، وأخرجه مسلم (1716)، وأبو داود (3574)، والترمذي (1326)، والنسائي (8/ 223)، وابن ماجة (2314)، وأحمد (4/ 198).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (3573)، كتاب الأقضية ، وابن ماجة (2315)، والحاكم (4/ 90).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3427)، كتاب أحاديث الأنبياء ، وأخرجه مسلم (1720) ، وأحمد (2/ 322) ، والنسائي (8/ 234 ـ 236)، وبوّب عليه في كتاب القضاء: «باب الحاكم يوهِمُ خِلافَ الحُكْمِ ليستعْلِمَ الحقَّ».

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ما أذِنَ الله لشيءٍ ما أذِنَ لنبي حسنِ الصوتِ يتغنىٰ بالقرآن يجهر به][1].

وهو بمعنىٰ: ما استمع الله لشيء من كلام الناس كما استمع لمن تغنىٰ بالقرآن، إشارة إلى الرضىٰ والقبول.

الحديث الثاني: أخرج مسلم وأحمد والنسائي عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه: [أنَّ رسول الله ﷺ قال له: لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود. فقال أبو موسىٰ: لو علمت مكانك لحبَّرْتُ لك تحبيراً][2].

وأصل الزمر الغناء، والمراد الصوت الحسن، وآل داود هو داود نفسه، وقوله «لحَبَّرتُ»: يريد تحسين الصوت وتحزينه.

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [زينوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوتَ الحسنَ يزيد القرآن حُسْناً][3].

وقوله: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾. أي: قضينا ذلك في أم الكتاب من تسخير الجبال والطير مع داود ﷺ.

قال القاسمي: (إشارة إلى أنه ليس ببدع في جانب القدرة الإلـٰهية، وإن كان عند المخاطبين عجيباً).

وفي التنزيل نحو ذلك: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝١٧ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 17 ـ 19].

وقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾. أي: عمل الدروع الملبوسة، فقد كانت قبل ذلك صفائح فجعلها حلقاً وسردها، أي أدخل بعضها في بعض.

قال قتادة: (كانت صفائح، فأوّل من سَرَدها وحَلّقها داود عليه السلام).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7544)، كتاب التوحيد، وانظر مختصر صحيح مسلم (2111).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (793)، والنسائي في «فضائل القرآن» (83)، وأحمد (5/ 349).

(3) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود (1320)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (772).

وفي التنزيل:

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: 10 ـ 11].

أي لا تُدِقَّ المسمار فيقلَقَ في الحَلْقة، ولا تُغَلِّظْهُ فَيَفْصِمَها، واجعله بِقَدَر.

قال الحكم بن عُتيبة: (لا تُغْلِظْهُ فَيَفْصِمَ، ولا تُدِقَّهُ فَيَقلَق).

وقوله: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾. أي: لتحفظكم من جراحات قتالكم، وتحرز أجسامكم عند لقاء عدوكم.

وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾. أي: لنعم ربكم عليكم، وتسخيره من الوسائل ما فيه مصلحتكم.

قال القرطبي: (أي علىٰ تيسير نعمة الدروع لكم. وقيل: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ بأن تطيعوا رسولي).

وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾.

قال قتادة: (ورث الله سليمان داود، فورثه نبوّته وملكه وزاده على ذلك أن سخّر له الريح والشياطين).

وقال ابن زيد: (﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ قال: عاصفة شديدة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها، قال: الشام).

وقد جاء في التفاسير أنه كان لسليمان عليه الصلاة والسلام بساط من خشب يوضع عليه الخيل والجند والمتاع، فيأمر الريح فترفعه، فما يدري القوم إلا وقد أظلهم بسلطانه وهيبته عليه الصلاة والسلام.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: 12].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: 36].

وقوله: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾. أي: لا يخفىٰ علينا شيء.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: وسخرنا أيضاً لسليمان من الشياطين من يغوصون له في البحر، ويعملون عملاً دون ذلك من البنيان والتماثيل والمحاريب).

وفي التنزيل:

﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ۝ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: 37 ـ 38].

أي بعض الشياطين في غوص في أعماق البحار، يستخرجون له الجواهر واللآلئ، وبعضهم في البناء، وبعضهم في الصناعة، والكل تحت أمره وسلطانه.

وقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾. أي: لأعدادهم وتحركاتهم وأعمالهم.

قال ابن كثير: (أي: يحرسُه اللهُ أن ينالَه أحد الشياطين بسوء بل كلٌّ في قبضته وتحت قهره، لا يتجاسرُ أحد منهم على الدُّنُوِّ إليهِ والقربِ منه، بل هو يحكم فيهم إن شاء أطلقَ، وإن شاءَ حَبَسَ منهم من يشاء. ولهذا قال: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾).

83 ـ 84. قوله تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ۝﴾.

في هذه الآيات: يقول جل ثناؤه: واذكر يا محمد أيوبَ إذ نادىٰ ربه إثر الضر والبلاء الذي نزل بهِ، ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، فاستجاب الله له وكشف ما مسّهُ من ضر وجهد وبلاء، وأكرمه بأن آتاهُ أهله في الآخرة ومثلهم معهم في الدنيا رحمة منه سبحانه وعبرة لأهل الصبر على الحق وآلام الطريق.

وعن نوف البِكَاليِّ قال: (﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ قال: أوتيَ أجْرَهم في الآخرة، وأعطي مثلهم في الدنيا).

أخرج أبو يعلىٰ في «المسند» وأبو نعيم في «الحلية» بسند جيد عن أنس بن مالك مرفوعاً: [إنَّ نبيَّ الله أيوب ﷺ لبث بهِ بلاؤهُ ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانهِ كانا يغدوانِ إليهِ ويروحان، فقال أحدهما لصاحبهِ ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبهُ أحداً من العالمين، فقال لهُ صاحبه: وما ذاكَ؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمهُ الله فيكشف ما به، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتىٰ ذكرَ ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقولان غير أن الله تعالى يعلم أني كنتُ أمر بالرجلين يتنازعان، فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهيةَ أن يذكر الله إلا في حق، قال: وكان يخرجُ إلى حاجتهِ فإذا قضى حاجتهُ أمسكتهُ امرأتهُ بيده حتىٰ يبلغ،

فلما كان ذات يوم أبطأ عليها وأوحي إلىٰ أيوب أن ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ فاستبطأته ، فتلقته تنظر وقد أقبل عليها وقد أذهب اللهُ ما بِهِ من البلاء وهو أحسن ما كان ، فلما رأتهُ قالت : أي بارك اللهُ فيك ، هل رأيت نبي الله هذا المبتلىٰ ، واللهِ على ذلكَ ما رأيتُ أشبهَ منكَ إذ كانَ صحيحاً ، فقال : فإني أنا هو : وكان له أندران ـ أي بيدران ـ أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتىٰ فاض ، وأفرغت الأخرىٰ في أندر الشعير الوَرِقَ حتى فاض][1] .

85 ـ 86. قوله تعالى : ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : ثناء الله تعالى على إسماعيل وإدريس وذي الكفل في الصابرين ، وإدخالهم في رحمته إنهم من الصالحين .

قال النسفي : (﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ ﴾ بن إبراهيم ﴿ وَإِدْرِيسَ ﴾ بن شيت بن آدم ﴿ وَذَا ٱلْكِفْلِ ﴾ أي اذكرهم ، وهو إلياس أو زكريا أو يوشع بن نون وسمي به لأنه ذو الحظ من الله ، والكفل الحظ ، ﴿ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أي هؤلاء المذكورون كلهم موصوفون بالصبر) .

قال ابن كثير : (وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبيّ) .

وقوله : ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ﴾ . قال القاسمي : (أي في النبوة أو في نعمة الآخرة) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ . أي من أهل الخير والصلاح والرشاد .

87 ـ 88. قوله تعالى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (1/176 ـ 1/177) ، وأبو نعيم في «الحلية» (3/ 374 ـ 375) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (17) .

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨﴾.

في هذه الآيات: تضييق الله على يونس وإدخاله في بطن الحوت، ودعوته ربه من ذلكَ السجن بخير الدعاء، الذي كشف اللهُ به غمّهُ وهو لجميع المؤمنين من خير الرجاء.

فقوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ - يعني الحوت. أي: اذكر يا محمد صاحب النون، أي صاحب الحوت، وهو يونس بن متىٰ، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾. قال ابن عباس: (يقول: غضب على قومه).

وقوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾. أي: فظن أن لن نعاقبه بالتضيق عليه ببطن الحوت.

وقال مجاهد: (فظن أن لن نعاقبه بذنبه). وقال قتادة: (ظن أن لن نقضي عليه العقوبة). وكلا المعنيين محتمل: التضييق أو التقدير والقضاء.

ومثال الأول: قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: 7].

ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ [القمر: 12].

وإنما كانَ ذلكَ حين بعثَ اللهُ يونس عليهِ الصلاة والسلام إلى أهل «نِيْنَوىٰ» بالموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم متوعداً بالعذاب بعد ثلاث، فخافوا بعد خروجه وعلموا أن دعوة النبي حق، فخرجوا بذراريهم وأنعامهم إلى الصحراء يستغفرون ويجأرون فرفع اللهُ عنهم العذاب، وامتحن يونس عليه السلام في ركوب السفينة ونزول القرعة به ليلتقمه الحوت.

وقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. هو من أعظم الدعاء عند الكرب والمصيبة، وقد جعله الله تعالى شرعاً ماضياً في أمة محمد ﷺ إلى قيام الساعة.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند، والترمذي في السنن، بسند صحيح، عن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: [دعوةُ ذي النون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت، ﴿لَّآ

إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ، لم يدعُ بها رجلٌ مسلمٌ في شيء قطُّ إلا استجابَ اللهُ له][1].

وعن ابن مسعود (﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾. قال: ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل).

وقوله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾. أي: فاستجبنا دعاءه إذ دعانا في بطن الحوت ، ونجيناه من غمّ الذنب والحبس.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. أي: من هول المصائب والشدائد إذا جأروا إلى الله تعالى بالدعاء وجوامع الكلم من ذلك.

أخرج أبو يعلىٰ بسند حسن عن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: [من دعا بدعاء يونس استُجيبَ لهُ][2].

قال أبو سعيد الأشج ـ أحد رواة الحديث ـ: (يُريدُ به ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾).

89 ـ 90. **قوله تعالى**: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

في هذه الآيات: يقول جلَّ ثناؤه: واذكر يا محمد زكريا حين جأر إلى ربه بالدعاء فقال: ربِّ لا تذرني وحيداً لا ولد لي ولا عقب ، وارزقني وارثاً من آل يعقوب يرثني ويقوم بالأمر من بعدي في الناس إنك أنتَ خير الوارثين. يقول جل ذكره: فاستجبنا لزكريا دعاءه وآتيناهُ سؤلهُ فوهبنا له يحيىٰ ولداً ووارثاً ، وأصلحنا لهُ امرأتهُ إذ كانت عقيماً لا تلد ـ فجعلها الله ولوداً ـ. يقول تعالى: إنّ الذين سميناهم لك يا محمد

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3752) وأحمد والحاكم. انظر تخريج الترغيب (275/2)، و(3/ 43)، وصحيح الجامع الصغير (3378)، وصحيح سنن الترمذي (2785).

(2) حديث حسن. أخرجه أبو يعلىٰ (707) ، ورجاله ثقات. ويشهد له ما قبله.

ـ زكريا وزوجه ويحيى ـ كانوا يسارعون في الطاعات والقربات ويعبدون ربهم رغباً ورهباً ، وكانوا أهل إخبات ورقة وخشوع .

فقوله : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ .

قال ابن كثير : (﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ . أي : خِفيةً من قومه) .

وقوله : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ . قال ابن جرير : (لا ولد لي ولا عقب) .

وقوله : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ . قال القرطبي : (أي خير من يبقىٰ بعد كل من يموت) . وهو ثناء ودعاء ورجاء مناسب للمسألة .

وقوله : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ . أي ولداً ووارثاً .

وقوله : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ . قال ابن عباس : (وهبنا لهُ ولدها) .

وقال قتادة : (كانت عاقراً ، فجعلها اللهُ وَلوداً ، ووهب له منها يحيىٰ) .

قال ابن جرير : (إن الله أصلح لزكريا زوجهُ ، كما أخبر تعالى ذكره بأن جعلها ولوداً حسنة الخُلُق) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ ـ ثناء على مسارعتهم إلى الطاعات واستقامة منهج عبادتهم .

قال ابن جريج : (رغباً في رحمة الله ، ورهباً من عذاب الله) . وقال ابن زيد : (﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ قال : خوفاً وطمعاً ، قال : وليس ينبغي لأحدهما أن يفارق الآخر) .

وقوله : ﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ . قال النسفي : (متواضعين خائفين) .

قال قتادة : ﴿ خَٰشِعِينَ ﴾ أي : متذلِّلين لله عز وجل) . وقال أبو العالية : (خائفين) .

وقال مجاهد : (مؤمنين حقاً) . وكلها معان متقاربة متكاملة .

91. قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ .

في هذه الآية : ذكر قصة مريم وابنها عيسىٰ عليهما السلام عقب ذكر قصة زكريا وابنهِ يحيىٰ عليهما السلام ـ كما تكرر ذلكَ في غير موضع من القرآن ـ لمناسبة ذلكَ . فإخراج

ولد من شيخ كبير وعجوز عاقر لم تلد في شبابها تمهيد مناسب لإخراج ولد من أم بلا أب ، واللهُ على كلِّ شيءٍ قدير.

فقوله: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ - يعني مريم عليها السلام ، كما قال جل ثناؤهُ في سورة التحريم: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم: 12]. والمراد الثناء على عفتها وتأكيد طهارتها وبراءتها من كل ما نُسب إليها من المبطلين.

وقوله: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾.

قال النسفي: (أجرينا فيها روح المسيح ، أو أمرنا جبريل فنفخ في جيبِ درعها فأحدثنا بذلكَ النفخ عيسىٰ في بطنها ، وإضافة الروح إليه تعالى لتشريف عيسىٰ عليه السلام).

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾. قال ابن عباس: (العالمين الجنّ والإنس). قال القاسمي: ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ﴾ أي نبأهما ﴿ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أي في كمال قدرته واختصاصه من شاء بما شاء. وقد كان من آيتهما إتيان الرزق لمريم في غير أوانه، وتثمير النخل اليابس، وإجراء العين، ونطق ابنها في المهد، وإحياء الموتىٰ. وإبراء الأكمه والأبرص).

92 ـ 94. قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (93) فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (94) ﴾.

في هذه الآيات: إثباتُ الله تعالى لوحدة منهاج النبوة ، فإن الأنبياء الذين ذكرهم قبل ذلك يخرجون في أصول دينهم من مشكاة واحدة ، واختلاف الناس على أنبيائهم بين مصدق لهم ومكذب وكلهم إليه تعالى راجعون ، والملائكةُ لأعمال أهل الإيمان والسعي الدؤوب في الصحف كاتبون.

فعن ابن عباس ومجاهد: (﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ ، يقول: دينكم دينٌ واحد).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [أنا أولىٰ الناس بعيسىٰ

ابن مريم ، في الأولىٰ والآخرة. قالوا: كيف؟ يا رسول الله! قال: الأنبياءُ إخوةٌ من عَلّات ، وأُمَّهاتهم شتَّىٰ ، ودينهم واحد ، فليسَ بَيْنَنا نبيٌّ][1].

قال الزجاج: (انتصب ﴿أُمَّةً﴾ على الحال ، أي في حال اجتماعها على الحق ، أي هذه أمتكم ما دامت أمة واحدة واجتمعتم على التوحيد ، فإذا تفرقتم وخالفتم فليسَ من خالف الحق من جملة أهل الدين الحق).

وقوله: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾. أي: أفردوني بالعبادة والتعظيم.

وفي التنزيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: 51 ـ 52].

وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ﴾. قال ابن زيد: (تقطعوا: اختلفوا، في الدين).

قال ابن كثير: (أي: اختلفت الأمم على رُسُلِها، فمن بين مُصَدِّق لهم ومكذِّب).

وقوله: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾. تَوَعُّدٌ لأهل الزيغ والضلال ، وأهل العناد وتكذيب الرسل بعذاب النكال. فالمرجع إلى الله تعالى يوم القيامة فيجازي كلاً بعمله ، فيسعد المحسن ويشقىٰ المسيء.

وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾.

أي: من عمل الصالحات وقد جاء مؤمناً على منهاج الإيمان لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، فإن الله تعالى يثيبه ويبارك له سعيه فلا يظلم مثقال ذرة.

وفي التنزيل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: 30].

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله لا يظلمُ مُؤمناً حسَنَةً ، يُعْطي بها في الدنيا ويَجْزي بها في الآخرة ، وأما الكافر فَيُطْعَمُ بحسناتِ ما عَمِلَ بها لله في الدنيا ، حتىٰ إذا أفضىٰ إلى الآخرةِ ، لم تكُنْ لهُ حَسَنَةٌ يُجْزىٰ بها][2].

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾. أي: نكتب عمله الصالح كله ، صغيره وكبيره ، وقليلهُ وكثيره ، لينعم بثوابه وتضاعف أجره يوم القيامة.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2365) (145) ، كتاب الفضائل ، باب فضائل عيسىٰ عليه السلام.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2808) ـ كتاب صفات المنافقين. حديث (56)، (57).

وفي كنوز السنة الصحيحة من آفاق هذا المعنىٰ الكثير الكثير ، ومن ذلك :

الحديث الأول: أخرج أحمد ومالك والحاكم بسند صحيح في الشواهد من حديث بلال بن الحارث المزني أن رسول الله ﷺ قال: [إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه..] الحديث[1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند حسن لغيره عن أبي ذر مرفوعاً: [تبسُّمكَ في وجه أخيكَ لك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيكَ عن المنكر صدقة ، وإرشادكَ الرجل في أرض الضلال لك صدقة ، وبصرك الرجل الرديء البصر لك صدقة ، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوكَ في دلو أخيكَ لك صدقة][2].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة وأحمد بسند حسن عن أبي هريرة مرفوعاً: [إن الرَّجل لتُرْفَـعُ درجتهُ في الجنة ، فيقول: أنىٰ لي هذا؟ فيقال: باستغفار ولدكَ لك][3].

95 ـ 97. قوله تعالى: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

في هذه الآيات: تأكيدُ هلاك الأمم التي دمّرها الله ، وفَتْحُ سد يأجوج ومأجوج علامة من علامات اقتراب الساعة ، وإسرار الكفار الندامة عند رؤية أهوال القيامة.

فقوله: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾. قال ابن عباس: (وجب). والتقدير: حرام على أهل

(1) حديث صحيح. أخرجه مالك (2/ 985/ 5)، والترمذي (2/ 52)، وابن ماجة (3969)، وأحمد (3/ 469)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (888).

(2) حسن لغيره. أخرجه الترمذي (1/ 354) ، وابن حبان (864) ، وانظر الصحيحة (572).

(3) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (3660) ، وأحمد (2/ 509) ، وانظر صحيح الجامع (1613).

قرية أمتناهم أن يرجعوا إلى الدنيا. قال عكرمة: (﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قال: لم يكن ليرجع منهم راجع، حرام عليهم ذلك).

وفي رواية عن ابن عباس: (فلا يرجع منهم راجع، ولا يتوب منهم تائب).

والمقصود: كتب الله تعالىٰ على كل أمة أهلكها أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة، ومن ثمَّ فلا يرجعون إلى التوبة بعد فوات أوانها.

وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾.

أي: حتىٰ إذا فتح سد يأجوج ومأجوج الذي بناهُ ذو القرنين وحجبهم به عن الناس وخرجوا مسرعين من كل مرتفع من الأرض يعيثون في أرجائها فساداً.

فالحدب المرتفع من الأرض. قال ابن عباس: (﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ أي يسرعون في المشي إلى الفساد).

ويأجوج ومأجوج قوم من نسل نوح عليه الصلاة والسلام من أولاد يافث، تُركوا وراء السد الذي بناهُ ذو القرنين ـ كما مَرَّ ذكره في سورة الكهف مفصلاً ـ.

أخرج البخاري في صحيحه عن زينب بنت جحش رضي اللهُ عَنْها، أنها قالت: [استيقظ النبي ﷺ من النوم مُحْمَراً وَجْهُهُ يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وعقد سفيان تسعين أو مئة. قيل: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث][1].

فهم يحفرون كل يوم في محاولة منهم للخروج من ذلكَ السجن الذي كتبه الله عليهم قسطاً وعدلاً، إلا أنهم يمكرون ويمكر اللهُ بهم وهو خير الماكرين.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة مرفوعاً: [إنّ يأجوج ومأجوج يحفرون كُلَّ يومٍ، حتىٰ إذا كادوا يَرَوْنَ شعاعَ الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فسنحفره غداً، فيعيدهُ الله أشدَّ ما كان، حتىٰ إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فسنحفره غداً إن شاء الله تعالى، واستثنوا، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس، فَيَنْشِفُون الماء ويتحصن الناس منهم في حصونهم. فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع عليها الدمُ الذي احفَظَّ، فيقولون:

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (13/ 9 ـ 10)، وأخرجه مسلم (8/ 165 ـ 166).

قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء، فيبعث الله نَغَفاً في أقفائهم فيقتلون بها. قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده، إن دواب الأرض لتسْمَنُ وتَشْكَرُ شَكَراً من لحومهم][1].

وقوله: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾. قال ابن زيد: (اقترب يوم القيامة منهم).

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: حتىٰ إذا فتحت يأجوج ومأجوج، اقترب الوعد الحقّ، وذلكَ وعد الله الذي وعد عبادهُ أن يبعثهم من قبورهم للجزاء والثواب والعقاب). والمقصود: أن خروج يأجوج ومأجوج علامة اقتراب يوم النشور والحساب.

وقوله: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. أي: من شدة ما يشاهدونه من الأهوال والأمور العظام. والتقدير: فإذا جاء الوعد الحق بأهواله ودنت الساعة بعلاماتها وحقائقها شخصت أبصار الذين كفروا.

قال النسفي: (﴿شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي مرتفعة الأجفان لا تكادُ تطرف من هول ما هم فيه).

وقوله: ﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ ـ أي في الدنيا.

قال القاسمي: (أي لم نعلم أنه حق). والمقصود: أن الكفار لما رأوا أهوال يوم الحساب وعاينوا عظيم البلاء أيقنوا أنهم كانوا في لهو وغفلة عن هذه الحقائق ولم يستعدوا لها وأسروا الندامة.

وقوله: ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾. قال القرطبي: (يقولون: يا ويلنا إنا كنا ظالمين بمعصيتنا، ووضعنا العبادة في غير موضعها).

والمقصود: أن الكفار أيقنوا يومئذ برؤية سجلات أعمالهم وفيها جبال آثامهم ومعاصيهم.

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة، أن النبي ﷺ قال: [ليسَ أحدٌ يحاسبُ يومَ القيامة إلا هلك. قلت: أوليسَ يقول الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ فقال: إنما ذلكَ العرض، ولكن من نوقش في الحساب يهلك][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 510 ـ 511)، والترمذي (2/ 197)، والحاكم (4/ 488)، وابن حبان (1908)، وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 1056)، لتفصيل البحث.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4939)، وأخرجهُ مسلم (2876)، من حديث عائشة.

98 ـ 103. **قوله تعالى**: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

في هذه الآيات: خطابُ الله تعالى لأهل مكة من مشركي قريش ومن مضىٰ على منهاجهم في عبادة الأوثان وتعظيم الأصنام بأن ما تعبدونه من دون الله من الآلهة إنما هم وقود جهنم التي أنتم إليها داخلون. وأن لهؤلاء المشركين وآلهتهم زفيراً في نارِ جهنم وهم فيها لا يسمعون. والذين سبقت لهم من الله السعادة هم فيما اشتهت أنفسهم خالدون، فلا فزع ولا نصب وتستقبلهم الملائكة بالبشرىٰ: هذا يومكم الذي كنتم توعدون.

فقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾. قال ابن عباس: (شجر جهنم).

أو قال: (وقودها). وقال مجاهد: (حَطبها). وقال قتادة: (حطب جهنم يقذفون فيها).

وفي التنزيل: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 24].

وقوله: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾. أي: فيها داخلون.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

قال ابن زيد: (الآلهة التي عبد القوم، قال: العابد والمعبود).

والمعنىٰ: لو كان هؤلاء آلهة كما زعمتم ما دخلوا النار، وكل من العابد والمعبود في النار خالدون.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

أي: لهؤلاء المشركين وآلهتهم زفير في نار جهنم وهم في النار لا يسمعون.

قال النسفي: (﴿لَهُمْ﴾ للكفار ﴿فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أنين وبكاء وعويل ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ شيئاً ما، لأنهم صاروا صماً وفي السماعِ نوع أنس فلم يعطوه).

وفي التنزيل: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: 106]. والزفير: خروج أنفاسهم، والشهيق: ولوج أنفاسهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

قال عكرمة: (﴿الْحُسْنَىٰ﴾ الرحمة). وقال غيره: السعادة.

أخرج الطبراني والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس قال: [لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾. قال عبد الله ابن الزِّبَعْرَى: أنا أخصم لكم محمداً، فقال: يا محمد! أليس فيما أنزل عليكَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾؟ قال: نعم. فهذه النصارىٰ تعبدُ عيسىٰ وهذه اليهود تعبد عزيراً وهذه بنو تميم تعبد الملائكة فهؤلاء في النار؟! فأنزل الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾][1].

وعن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: [لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآية، قال المشركون: عيسىٰ يعبد، وعزير والشمس والقمر! فأنزل سبحانهُ وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾][2].

والخلاصة: إن الذين سبقت لهم من الله السعادة أحسن الله مآلهم وثوابهم بما أسلفوا من الأعمال الصالحة في الدنيا، فنجاهم سبحانهُ من العذاب وحصَّل لهم رفيع الثواب.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26].

2 ـ وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60].

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري، أن النبي ﷺ قال: [إن الله عز وجل

---

(1) أخرجه الطبراني عن ابن عباس، والحاكم من طريق آخر وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقهُ الذهبي. انظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ سورة الأنبياء ـ الآيات: «98 ـ 101».

(2) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» بسند صحيح. وانظر المرجع السابق.

يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لَبَّيْكَ ، ربنا وسَعْدَيْك ، والخيرُ في يديك ، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضىٰ؟ يا رَبِّ! وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً مِنْ خلقِك. فيقول: ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولون: يا ربِّ! وأيُّ شيء أفضلُ من ذلكَ؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رِضواني ، فلا أسخَطُ عليكم بعدهُ أبداً][1].

وقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: لا يسمع أهل الجنة حسيسَ النار إذا نزلوا منزلهم من الجنة. قال: وهم فيما تشتهيه نفوسهم من نعيمها ولذاتها ماكثون فيها، لا يخافون زوالاً عنها ، ولا انتقالاً عنها).

قال ابن جرير: (ويعني بالحسيس: الصوت والحس).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [قال الله عزَّ وجل: أَعْدَدْتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عَيْنٌ رأتْ ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ][2]. زاد في رواية: (ذُخْراً ، بَلْهَ[3] ما أطلعكم الله عليه).

ومصداق ذلكَ قول الله تعالى في كتابه: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: 17].

وقوله: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴾. قال ابن عباس: (يعني النفخة الآخرة).

وقال سعيد بن جبير: (النارُ إذا أطبقت على أهلها). وقال الحسن: (انصراف العبد حين يؤمر به إلى النار). وقيل: الموت ، وقيل غير ذلك.

قلت ، وفي التنزيل: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ﴾. فيكون الفزع للحشر وأهواله ، فأهل الإيمان يأمنون ذلكَ الفزع يومئذ بفضل رحمة الله بهم.

وقوله: ﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾.

أي: وتستقبلهم الملائكةُ يهنئونهم ويبشرونهم قائلين لهم: ﴿ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي

---

(1) حديث صحيح. أخرجهُ مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2829) ـ كتاب الجنة ، وصفة نعيمها وأهلها ، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2824) ـ كتاب الجنة ، وصفة نعيمها وأهلها.

(3) بَلْهَ: بمعنىٰ دع أو سوىٰ ، أي سوىٰ ما ذكر في القرآن. والتقدير: دع ما أُطْلعتم عليه فإنه يسيرٌ في جنب ما اُدُّخِرَ لهم.

﴿كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيه عظيم الثواب، وجزيل التكريم، ورفيع الحِباء، مقابل ما صبرتم في الدنيا على طاعة الله وتعظيم أمره، واجتناب نهيه وحراسة دينهِ في الأرض.

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [حُفَّتْ الجنَّةُ بالمكاره، و حُفَّت النارُ بالشهوات][1].

104 ـ 107. **قوله تعالى**: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾.

في هذه الآيات: طيُّ الله السماء يوم القيامةِ كطي الصحف، وثبوت البشرىٰ للمؤمنين الصابرين على منهاج النبوة بملك الدنيا وسياستها وعز الآخرة. وهذا النبي الكريم، إنما هو رحمة لجميع العالمين.

فقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: كطي الصحيفة على الكتاب). وفي رواية: (كطي الصحف).

وقال مجاهد: (السِّجل الصحيفة). والمقصود: كطي الصحف على ما فيها من المكتوبات.

وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾. أي: كما بدأ سبحانه الخلق فهو القادرُ على إعادتهم وإحيائهم من قبورهم ليوم البعث والحساب. قال مجاهد: (حُفاة عُراة غُرْلاً).

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي اللهُ عَنْهُما قال: [خطب النبي ﷺ فقال: إنكم محشورون إلى الله حُفاةً عُراةً غُرْلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾، ثم إنَّ أوَّلَ مَنْ يُكْسَىٰ يوم القيامة إبراهيم، ألا إنَّـهُ يُجاء برجالٍ من أمتي، فيؤخذُ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب أصحابي، فيُقالُ: لا تَدْري ما أَحْدَثوا

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2822) ـ كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها.

بَعْدك. فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ فيقال: إنَّ هؤلاء لمْ يزالوا مُرْتَدين على أعقابهم مُنْذُ فارقتهم][1].

وقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾. أي: ذلك واجب الوقوع، فهو من جُملة وعد الله الذي لا يُخلف ولا يُبَدَّل ولا بد من وقوعه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾.

قال مجاهد: (﴿ٱلزَّبُورِ﴾ الكتاب ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ قال: أم الكتاب عند الله). وقال سعيد: (كتبنا في القرآن من بعد التوراة).

قال القاسمي: (﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾: أي العاملون بطاعته. المنتهون إلى أمره ونهيه. دون العاملين منهم بمعصيته، المؤثرين طاعة الشيطان على طاعته. و﴿ٱلزَّبُورِ﴾ علم على كتاب داود عليه السلام، ويقال: المراد بِهِ كل كتاب منزل. والذكر ـ قالوا ـ التوراة أو أم الكتاب. يعني اللوح الذي كتبَ فيه كل شيء قبل الخلق، والله أعلم).

قلت: والآية تحمل البشرىٰ للمؤمنين الصابرين على إقامة منهج الله تعالى بملك الدنيا وسياستها وعز الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾. قال ابن عباس: (يقول: عاملين). وقال كعب: (لأمة محمد).

قال ابن كثير: (أي: إن في هذا القرآن الذي أنزلناهُ على عبدنا محمد ﷺ لبلاغاً: لَمَنْفَعة وكفايةً لقوم عابدين، وهم الذين عبدوا الله بما شَرَعَه وأحبَّهُ ورَضِيَه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشَهَوات أنفسهم).

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾. أي: رحمة مهداة من الله لجميع خلقه.

قال النسفي: (لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه، ومن لم يتبع فإنما أتي من عند نفسه حيث ضيّع نصيبه منها. وقيل: هو رحمة للمؤمنين في الدارين وللكافرين في الدنيا

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4740) ـ كتاب التفسير ـ سورة الأنبياء، آية (104)، وأخرجه مسلم (2860)، ح (57)، وأخرجه أحمد في المسند (1/ 235)، (1/ 253).

بتأخير العقوبة فيها. وقيل: هو رحمة للمؤمنين والكافرين في الدنيا بتأخير عذاب الاستئصال والمسخ والخسف).

وبعض أهل اللغة يذهبون إلى نصب ﴿رَحْمَةً﴾ على الحال، والتقدير: «ذا رحمة». ومنهم من يجعلها مفعولاً له. فيكون «إلا» للحصر، و«رحمة»: مفعول لأجلِهِ منصوب، وهذا وجه قوي.

وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

ومن كنوز السنة الصحيحة في ذلك أحاديث كثيرة، منها:

الحديث الأول: أخرج ابن سعد في «الطبقات» والحاكم في «المستدرك» بسند صحيح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [يا أيها الناس، إنما أنا رحمة مهداة][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن عساكر بسند صحيح لشواهده عن علي مرفوعاً: [إن الله بعثني إلى كل أحمرَ وأسودَ، ونُصرت بالرُّعب، وَأُحِلَّ لِيَ المغنمُ، وجُعلت لِيَ الأرضُ مسجداً وطهوراً، وأعطيتُ الشفاعة للمذنبين من أمتي يوم القيامة][2].

الحديث الثالث: روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: [قيلَ يا رسول الله! ادْعُ على المشركين، قال: إني لمْ أُبْعَثْ لعَّاناً، وإنما بُعِثْتُ رحمةً][3].

الحديث الرابع: روىٰ مسلم عن أبي صالح عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: [اللهمَّ إنما أنا بَشَرٌ، فأيُّما رَجُلٍ من المسلمين سَبَبْتُهُ، أو لَعَنْتُهُ، أو جَلَدْتُهُ، فاجْعلها له زكاةً ورحمةً][4].

الحديث الخامس: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عمرو ابن أبي قرة قال: [كان

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (1/ 192) عن أبي صالح بإسناد صحيح مرسل، والحاكم في «المستدرك» ووصله عن أبي هريرة. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (490).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن عساكر، وله شواهد كثيرة. انظر «مجمع الزوائد» (8/ 258 ـ 259)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1724).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2599) ـ كتاب البر والصلة، وأبو يعلىٰ (6174).

(4) حديث صحيح. رواه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2601) ـ كتاب البر والصلة، وانظر: (2602)، (2600) من الباب نفسه.

حذيفة بالمداين ، فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ لأناس من أصحابه في الغضب ، فينطلق ناسٌ ممن سمعَ ذلكَ من حذيفة ، فيأتونَ سلمان فيذكرون له قول حذيفة. فيقول سلمان: حذيفة أعلمُ بما يقول ، فيرجعون إلى حذيفة فيقولون له قد ذكرنا قولك لسلمان ، فما صدقك ولا كذبك!

فأتىٰ حذيفة سلمان وهو في مَبْقَلَةٍ فقال: يا سلمان ، ما يمنعكَ أن تصدقني بما سمعتُ من رسول الله ﷺ؟ فقال سلمان: إن رسول الله ﷺ ، كان يغضب فيقول في الغضب لناس من أصحابه ، ويرضىٰ فيقول في الرضا لناس من أصحابه. أما تنتهي! حتىٰ تورِّثَ رجالاً حب رجال ، ورجالاً بغض رجال ، وحتىٰ توقعَ اختلافاً وفرقة؟ ولقد علمت أن رسول الله ﷺ ، خطب فقال: «أيُّما رَجُل من أمتي سَبَبْتُهُ سَبَّةً ، أوْ لَعَنْتُهُ لَعْنَةً في غضبي ، فإنما أنا مِنْ وَلدِ آدم ، أَغْضَبُ كما يَغْضَبُونَ ، وإنما بَعثني رَحْمةً للعالمينَ ، فاجْعَلها عليهم صلاة يوم القيامة». والله لَتَنْتَهِيَنَّ! أَوْ لأكْتُبَنَّ إلى عُمر][1].

108 ـ 112. **قوله تعالى:** ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٨ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ۝١٠٩ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝١١٠ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝١١١ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١١٢﴾.

في هذه الآيات: وَحْيُ الله تعالى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام ، أنَّـهُ تعالى الإلـٰهُ الحق الأحد الصمد الذي لا ينبغي أن يعبدَ غيرَهُ الأنام ، وإعلانُ البراءةِ من القوم إن أصروا على الجاهلية واجتنابِ الإسلام ، وإخبارُ الله نَبِيَّـهُ لِيُعْلِمَ قَوْمَهُ أن حلول وقت عقابهم إنما هو بيد الرحمان ، فهو يعلم السر وأخفىٰ وله الحكم وهو المستعان.

فقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: قل يا محمد: ما يوحي إلي ربي

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4659) ، وأحمد (5/ 437) بإسنادٍ حسن. وانظر صحيح سنن أبي داود (3894) ـ كتاب السُّنة ، باب في النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ.

إلا أنَّـهُ لا إلـه لكم يجوز أن يُعبدَ إلا إلـهٌ واحدٌ ، لا تصلحُ العبادة إلا له ، ولا ينبغي ذلكَ لغيره. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ يقول: فهل أنتم مذعنون لهُ أيها المشركون ، العابدون الأوثان والأصنام بالخضوع لذلك ، ومتبرئون من عبادة ما دونه من آلهتكم).

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾. قال ابن جريج: (فإن تولوا: يعني قريشاً). قال القرطبي: (أي إن أعرضوا عن الإسلام ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي أعلمتكم على بيان أنا وإياكم حرب لا صلح بيننا).

والمقصود: إعلان البراءة من القوم إن أصروا على الجاهلية واجتناب الإسلام.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 41].

2 ـ قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: 58].

وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾. قال ابن جريج: (الأجل).

والمقصود: إخبار الله تعالىٰ نبيَّهُ ﷺ ليقول لقومه المعاندين: إن الوقت والأجل الذي يحل به عقاب الله بكم لا أعلمه ، وربما كان قريباً أو يؤخره تعالى بحكمته إلى أجل أبعد ، فالأمر راجع إلى مشيئته وحكمته جلت عظمته وقدرته ، وإنما أنا لكم نذير.

وفي الصحيحين عن أبي موسىٰ عن النبي ﷺ قال: [مثلي ومثلُ ما بعثني اللهُ بِهِ كمثل رجلٍ أتىٰ قوماً ، فقال: يا قوم إني رأيتُ الجيش بعيني ، وإني أنا النذيرُ العُريان ، فالنجاءَ النجاءَ ، فأطاعهُ طائفةٌ مِنْ قومِهِ ، فأدلجوا ، وانطلقوا على مهلِهم فنجوا ، وكذبته طائفةٌ منهم ، فأصبحوا مكانَهم ، فَصَبَّحهم الجيش ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلكَ مَثَلُ من أطاعني فاتبع ما جئت به ، ومثلُ من عصاني وكذّب بما جئت بِهِ من الحق](1).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾.

أي: إنه تعالىٰ يعلمُ السر وأخفىٰ ، ويعلم الغيب وما سيكون ، ويعلم ما تخفي

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6482) ، كتاب الرقاق. وأخرجهُ مسلم (2283) ، كتاب الفضائل ، من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه.

الصدور ، ويعلم ما يسرون وما يعلنون ، فلا يغيبُ عنه شيء من أمر خلقه .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .

قال ابن عباس : (يقول : لعل ما أُقرِّب لكم من العذاب والساعة ، أن يؤخَّر عنكم لمدتكم ، ومتاع إلى حين ، فيصير قولي ذلكَ لكم فتنة) .

وقال ابن جرير : (لعل تأخيرهُ ذلكَ عنكم مع وعده إياكم ، لفتنة يريدها بكم ، ولتتمتعوا بحياتكم إلى أجل قد جعله لكم تبلغونه ، ثم ينزل بكم حيئنذ نقمته) .

وقوله : ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ . أي : قل يا محمد : يا رب افصل بيني وبين قومي ممن كذبني بالحق . قال ابن عباس : (لا يحكم بالحق إلا الله ، ولكن إنما استعجل بذلكَ في الدنيا ، يسأل ربه على قومه) . قلت : وهذه الدعوة قد مضىٰ عليها الأنبياء من قبل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ففي التنزيل نحو ذلك : ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف : 89] .

وقوله : ﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ . أي : قل يا محمد : وربنا الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء ، وغمرت نعمتهُ كل عباده ، أستعينُ به على تكذيبكم وعنادكم وجحودكم آلاءه ورحمته بكم بإرساله لي بالنبوة ومنهج النجاة لكم .

قال النسفي : (﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ العاطف على خلقه ﴿ ٱلْمُسْتَعَانُ ﴾ المطلوب منه المعونة ﴿ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ـ قال : كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه ، وكانوا يطمعون أن تكون الشوكة لهم والغلبة فكذب اللهُ ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسول الله ﷺ والمؤمنين ، وخذلهم ـ أي الكفار ـ وهو المستعانُ على ما يصفون) .

تم تفسير سورة الأنبياء

بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

❑ ❑ ❑

دروس ونتـــائج وأحكـــام

1 ـ اقتربت الساعةُ ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حرصاً ، ولا يزدادون من الله إلا بعداً.

2 ـ شرف العرب بهذا القرآن والنبي عليه الصلاة والسلام ، ووجوب الرجوعِ لفهم الدين إلى أهل العلم والإيمان.

3 ـ تعاقب سنن الله في أمم المكذبين ، واعتراف القوم بظلمهم حين نزول العذاب المهين.

4 ـ سنة الله رفع لواء الحق وأهله ، وتنكيس لواء الباطل وإزهاقه.

5 ـ الله تعالى هو الإلـه الحق الأحد الصمد ، ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا.

6 ـ الميزان يوم القيامة له كفتان ، والوزن يومئذ بالحق فلا تظلم نفس شيئاً.

7 ـ التوراة والإنجيل والقرآن فرقان بين الحق والباطل ، والقرآن ناسخٌ لكل الشرائع قبله وهو الكتاب الكامل.

8 ـ سنة الله تعالى في تأييد ونجاة المرسلين ومن معهم من المؤمنين ، وإنزالُ الهلاك والعذاب على الملأ الكافر وأتباعهم من المجرمين.

9 ـ وحدة منهاج الأنبياء ، فإن الأنبياء إخوة لعلات ، دينهم واحد وأمهاتهم شتىٰ.

10 ـ خروج يأجوج ومأجوج آخر الزمان ، بعد هلاك الدجال على يد المسيح عيسىٰ عليه السلام.

❑ ❑ ❑



قال الجمهور: (السورة مختلطة ، منها مَكِّي ومنها مَدَنيّ). وعدد آياتها (78).

موضـوع السورة

تشريع الحج إلى بيت الله الحرام
وإحياء ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ الأمر بصدق التقوىٰ لمواجهة أحداث زلزلة الساعة وأهوال القيامة.

2 ـ ذمّ المكذبين بالبعث والنشور ، والمتبعين في منهاجهم كل شيطان مريد.

3 ـ الاستدلال على البعث ببدء الخلق ، ومراحل خلق الإنسان حتىٰ البعث من القبر.

4 ـ نَعْتُ أرباب الضلال بعد وصف الضُّلال ، فهم يجمعون بين قلة العلم وحب الجدل.

5 ـ نَعْتُ حال أكثر الناس في تأرجح صلتهم بالله ، فهم يعبدونه على شرط العافية والرزق ، فإن نزل بهم بعض الآلام والمصائب تغيّر حالهم.

6 ـ ذكر أهل السعادة بعد ذكر أهل الشقاوة ، فهم في روضات الجنات ناعمون.

7 ـ دعوة للحاقدين على نصر هذا الدين أن يموتوا بغيظهم ، فإن الله ناصر رسوله ودينه.

8 ـ الفصل بين الملل يوم القيامة ، واشتراك جميع المخلوقات في السجود لله ، وامتناع الكافرين وقد حقّ عليهم الخزي والعذاب .

9 ـ اختصام الفريقين يوم القيامة : فريق الأولياء ، وفريق الكفرة الأعداء . فالفريق الأول أهل النعيم ، والفريق الثاني أهل الشقوة والجحيم .

10 ـ ذَمُّ الله الصادّين عن سبيله والمسجد الحرام ، وَأَمْرُ الله إبراهيم بعمارة البيت ومناداة الناس للحج من جميع البلدان .

11 ـ تعظيمُ الحرمات وتعظيم الشعائر من تقوىٰ القلوب ، والبُدْن فيها منافع ثم محلها إلى البيت العتيق ، وذبحُ المناسك على اسم الله أَمْرٌ للمؤمنين المخبتين ، والله تعالىٰ يناله التقوىٰ من المؤمنين .

12 ـ دفاع الله تعالىٰ عن المؤمنين ، وسخطه على الخائنين الكافرين ، وتشريع القتال لإقامة هذا الدين ، ودفْعُ الله الناس بعضهم ببعض لنصرة الحق المبين .

13 ـ الوعد للمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بالشوكة والتمكين .

14 ـ إخبار الله تعالىٰ عن تكذيب الأمم المرسلين ، ونزول الدمار والهلاك على القوم المسرفين المستكبرين .

15 ـ استعجال المشركين العذاب وليسوا بمعجزين ، ولهم في الآخرة عذاب الجحيم ، والمؤمنون موعودون بالنصر في الدنيا ولهم في الآخرة جنات النعيم .

16 ـ إبطال الله وساوس وأماني الشيطان ، ونسخ الله بحكمته بعض الأحكام .

17 ـ استمرار الكفار في الشك والريب من هذا القرآن ، حتىٰ تنزل بهم ساعة الانتقام .

18 ـ ثناء الله على المهاجرين والمجاهدين ، ووعدهم بالنصر المبين والرزق الكريم .

19 ـ ربْطُ النصر بأمر الله ، والله هو الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال .

20 ـ إخبار الله عن عجائب آياته في هذا الكون ، ولكن الإنسان كفور .

21 ـ تقرير الله الشرائع في كل أمة ، وجعل شريعة محمد ﷺ ناسخة لكل شريعة ، وتهديد ووعيد للذين جعلوا منهاجهم جدال المرسلين .

22 ـ إخبارُ الله عن كمال قدرته وكتابته كل شيء ، ونعْتُ سلوك المجرمين تجاه المؤمنين ، والنار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير.

23 ـ تسفيهُ آلهة المشركين ، فهي عاجزة عن خلق ذباب واحد ، وهم عاجزون عن الانتصار لها لو سلبها الذباب شيئاً ، فضعف الطالب والمطلوب ، والله هو القوي العزيز.

24 ـ اجتباءُ الله الرسل وعلمه بأعمالهم وما هم قادمون عليه ، ومردّ جميع الأمور ومصير جميع العباد إلى الله تعالىٰ.

25 ـ أمْرُه تعالىٰ عباده المؤمنين بالصلاة والجهاد وبذل وسعهم لخدمة هذا الدين ، ملة أبيهم إبراهيم الذي سمّاهم المسلمين.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 2. **قوله تعالىٰ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾.

في هذه الآيات: أمْرُ الله عباده أنْ يَصْدُقوه التقوىٰ فإن زلزلةَ أهوال القيامة شيء عظيم. فهنالك تترك الأم ولدها لشدة الكرب وتُسْقِطُ كل حامل حملها وترىٰ الناس سكارىٰ من شدة الخوف وليس من الشراب، فلقد عَظُم ما يعاينونه من الأهوال.

فقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

ترغيب وترهيب، وتطميع وتخويف، يحث الله تعالىٰ بذلك عباده على استفراغ وسعهم في تقواه، والاستعداد لمواجهة أحداث يوم عصيب، وأهوال قيام الساعة.

وأصل الزلزلة شدة الحركة، فهي من زَلَّ عن الموضع إذا زال عنه وتحرّك. والجمهور على أنها الزلزلة المعروفة التي هي إحدىٰ شرائط الساعة، والتي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة.

قلت: والراجح أن هذه الزلزلة تشمل إضافة لذلك أهوال يوم الحشر وما يكون فيه من أمور عظيمة، فإن لفظة «الزلزلة» تستعمل في تهويل الشيء، وقد جاءت السُّنَّةُ الصحيحة بتفصيل زلزلة ذلك اليوم في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الترمذي بسند صحيح عن عمران بن حصين قال: [كنا مع النبي ﷺ في سفر فتفاوت بين أصحابه في السير، فرفع رسول الله ﷺ صوته بهاتين الآيتين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾. فلما سمع ذلك أصحابه حثوا المطي وعرفوا أنه عِندَ قول يقوله. فقال:

«هَلْ تَدْرُونَ أيُّ يَوْمٍ ذلِكَ ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذلك يَوْمٌ يُنادي الله فيه آدمَ فيناديه رَبُّهُ فيقول: يا آدمُ ابْعَث بَعْثَ النار. فيقول: أي رَبِّ وما بعثُ النار ؟ فيقول: مِنْ كلِّ ألف تِسْعُ مَئَةٍ وتِسْعَةٌ وتِسعون إلى النار ، وواحِدٌ إلى الجنة». فَيَئِسَ القومُ حتىٰ ما أبْدَوا بِضاحِكَةٍ. فلما رأىٰ رسول الله ﷺ الذي بأصحابه قال: «اعملوا وأبشروا ، فوالذي نَفسُ مُحَمَّدٍ بيدِه ، إنّكمُ لَمعَ خليقتَيْنِ ما كانتا مع شيء إلا كَثَّرتاهُ: يأجوجُ ومأجوجُ ، ومَنْ ماتَ مِنْ بني آدم ، وَبَني إبليسَ».

قال: فسُرِّيَ عن القوم بعض الذي يجدون ، قال: «اعملوا وأبْشِروا فوالذي نَفْسُ محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشَّامَةِ في جَنْبِ البعير أو كالرَّقْمَةِ في ذراع الدّابة»](1).

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: قال النبي ﷺ: [يقول الله عزَّ وجلَّ يومَ القيامة: يا آدمُ ، فيقولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنا وسَعْدَيك. فَيُنادَىٰ بِصَوْتٍ: إنَّ الله يأمُرُكَ أَنْ تُخرِجَ مِنْ ذُرِّيَتِكَ بَعْثاً إلى النار. قال: يا رَبِّ وما بَعْثُ النار ؟ قال: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ ـ أُراه قال ـ تِسْعَ مئَةٍ وتِسْعَةً وَتِسْعينَ ، فحينَئِذٍ تضَعُ الحامل حَمْلَها ويشيبُ الوليد ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾. فَشَقَّ ذلك على الناس حتىٰ تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ ، فقال النبي ﷺ: «مِنْ يأجوجَ ومأجوجَ تِسعَ مئَةٍ وتِسْعَةً وتِسْعينَ ومنْكم وَاحدٌ. ثم أنتم في الناس كالشَّعْرَةِ السَّوْداء في جَنْبِ الثَّوْرِ الأبيضِ أو كالشَّعْرَةِ البيضاء في جَنْبِ الثَّوْر الأسْوَدِ ، وإني لأرجو أن تكونوا رُبُعَ أهل الجنة» فَكَبَّرْنا ، ثُمَّ قال: «ثُلُثَ أهل الجنة» فكَبَّرْنا ، ثم قال: «شَطْرَ أهل الجنة» فَكَبَّرْنا](2).

الحديث الثالث: أخرج أبو يعلىٰ وابن حبان والحاكم بسند حسن من حديث أنس قال: [﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ ـ إلى ـ ﴿وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ قال: نزلت على النبي ﷺ وهو في مَسير له ، فرفع بها صوته حتىٰ ثابَ إليه أصحابه فقال: «أتدرون أيَّ يوم هذا ؟ هذا يوم يقول الله عزَّ وجلَّ لآدم ﷺ يا آدم قم فابعث بَعْثَ أهل النار ، من كل ألف تِسع مئةٍ وتسعة وتسعون إلى النار وواحد

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3394) ـ في التفسير ، سورة الحج ، الآيات: «1 ـ 2». وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2534) ، وصحيح مسلم (1/ 139).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4741)، كتاب التفسير ، سورة الحج ، باب قوله: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾ [الحج: 2] ، وانظر صحيح مسلم (222) ، ومسند أحمد (3/ 32).

إلى الجنة». فَكَبُرَ ذلك على المسلمين ، فقال النبي ﷺ: «سَدِّدُوا وقارِبوا وأبشروا فوالذي نفسي بيده ما أنتم في الناس إلا كالشَّامَة في جنب البعير أو كالرَّقْمة في ذراع الحمار وإن معكم خليقتين ما كانتا مع شيء إلا كثّرتاه يأجوج ومأجوج ومن هلك من كفرة الجن والإنس»][1] .

وعن ابن زيد: (﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ قال: تترك ولدها للكرب الذي نزل بها). وقال الحسن: (ذهلت عن أولادها بغير فطام). **والمقصود:** شدة الهول يوم الحشر ومتاعب النفوس القادمة على الحساب.

وعن الحسن: (﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ ، يقول: وتسقط كل حامل من شدّة كرب ذلك حملها). قال: (﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ ﴾ من الخوف ﴿ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ ﴾ من الشراب).

وعن ابن جريج: (﴿ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ ﴾ قال: ما هم بسكارىٰ من الشراب ﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾).

وعن ابن وهب قال: (قال ابن زيد ، في قوله: ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ ﴾ قال: ما شربوا خمراً ﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ يقول تعالىٰ ذكره: ولكنهم صاروا سكارىٰ من خوف عذاب الله عند معاينتهم ما عاينوا من كرب ذلك وعظيم هوله ، مع علمهم بشدّة عذاب الله).

والمقصود: أن الناس يصيرون يومئذ في دهشة في عقولهم ، فتغيب أذهانهم من شدة الهول حتىٰ يحسبهم من ينظر إليهم أنهم سكارىٰ وما هم كذلك على الحقيقة.

3 ـ 4. قوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤ ﴾.

في هذه الآيات: ذمُّ الله تعالىٰ مُكَذّبي البعث والنشور ، ومنكري قدرة الله تعالىٰ على إحياء مَنْ في القبور ، وَهُمْ بذلك مُتَّبعون كل شيطان مريد من أهل الجن أو الإنس

(1) حديث حسن. أخرجه أبو يعلىٰ (3122) ، وصححه ابن حبان (7354) ، والحاكم (1/ 29) ، (4/ 566) ووافقه الذهبي ، وإسناده على شرطهما ، وهو متصل الإسناد ، وتقدم شاهداه.

أصحاب العتو والغُلُوّ والشرور. لقد قضي على الشيطان وكتب عليه أن أتباعه يقتبسون من ضلاله المفضي إلى عذاب السعير.

فعن ابن جُريج: (﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ قال: النضْر بن الحارث.

ويعني بقوله: ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ من يخاصم في الله، فيزعم أن الله غير قادر على إحياء من قد بَلي وصار تراباً، بغير علم يعلمه، بل بجهل منه بما يقول، ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ في قيله ذلك وجداله في الله بغير علم ﴿كُلَّ شَيۡطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾).

ولا شك أن هذا حال كثير من أهل البدع والضلال، فهم يعرضون عن اتباع الحق بدليل صحيح، ويَمْضُونَ خلف أهوائهم وما ألْفَوا عليه آباءهم ومشايخهم، فيقعون في الغلو أو الابتداع أو تحكم المردة من الشياطين.

ففي مسند الإمام أحمد بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [إياكم والغُلُوّ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو][1].

وفي الصحيحين عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ][2].

وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾. قال قتادة: (كُتب على الشيطان، أنه من اتبع الشيطان من خلق الله). وقال مجاهد: (﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ قال: الشيطان اتبعه. وقوله: ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ يقول: فإن الشيطان يضله، يعني: يُضِلّ من تولاه).

والمقصود: قضي على الشيطان وسبق أن كتب عليه أنه يُضل أتباعه ولا يهديهم الحق.

وقوله: ﴿وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: ويسوق من اتّبَعهُ إلى عذاب جهنم الموقدة، وسياقه إياه إليه بدعائه إياه إلى طاعته ومعصية الرحمن، فذلك هدايته من تبعه إلى عذاب جهنم).

قلت: والآية تجمع بين مراتب الضلال الثلاث:

أ ـ الضياع والانحراف.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (1/ 215) من حديث عبد الله بن عباس، وسنده صحيح. انظر تحقيق: «فتح المجيد» (249 ـ 250).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5/ 221) ـ في الصلح، وأخرجه مسلم (1718) ـ في الأقضية.

ب ـ الترك والإهمال والتناسي والخذلان.

ج ـ الهداية إلى النار يوم القيامة.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: 168 ـ 169].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: 22 ـ 24].

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنم يسمىٰ بولس، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال][1].

5 ـ 7. **قوله تعالىٰ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾.

في هذه الآيات: استدلالٌ على البعث ببدء الخلق، فالله تعالىٰ بدأ خلق الإنسان من طين، ثم من نطفة من ماء مهين، ثم سواه علقة فمضغة لِيُتَابع تشكيله وتخطيطه أو يُوقَف فيكون الإسقاط، فتارة يستقر في الرحم وتارة لا يستقر، ثم يخرج الجنين طفلاً

(1) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي (2025)، وتخريج المشكاة (5112)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (7896).

فيرعاه ليصبح شاباً يمدُّه بالهمة والقوة ، ثم قد يُقبضُ في حالة الشباب ، وقد يُمَدّ له في العمر إلى الشيخوخة والهرم ، وظهور علامات العجز وضعف العقل والفهم ، وكذلك الأرض تتحرك بالنبات بنزول المطر عليها ، وتخرج الأصناف من الثمار والزروع. كل ذلك بسبب أن الله هو الحق وحده المحيي والمميت ، فهو الذي يبعث من في القبور ليوم الحشر والحساب.

فقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾.

ردٌّ على المنكرين للبعث والمعاد ، بذكره سبحانه إحاطته بأحوال العباد ، فهو خلقهم أول مرة من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾. قال قتادة: (تامة وغير تامة). وقال مجاهد: (السِّقط مخلوق وغير مخلوق).

قال النسفي: (يعني إن ارتبتم في البعث فمزيل ريبكم أن تنظروا في بدء خلقكم وقد كنتم في الابتداء تراباً وماء ، وليس سبب إنكاركم البعث إلا هذا وهو صيرورة الخلق تراباً وماء ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم ﴾ أي أباكم ﴿ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ ﴾ خلقتم ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ أي قطعة دم جامدة ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ أي لحمة صغيرة قدر ما يمضغ ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ المخلقة المسواة الملساء من النقصان والعيب ، كأن الله عز وجل يخلق المضغة متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك ، فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم ، وإنما نقلناكم من حال إلى حال ومن خلقة إلى خلقة ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ بهذا التدريج كمال قدرتنا وحكمتنا ، وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً ثم من نطفة ثانياً ولا مناسبة بين التراب والماء ، وقدر أن يجعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاماً قادر على إعادة ما بدأه).

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: [حَدَّثنا رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ قال: إنّ أحدكم يجمع خلقُه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقةً مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكاً ، ويؤمر بأربع كلمات ، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح][1].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3208)، ومسلم (2643)، وأبو داود (4708)، والترمذي (2137)، وابن ماجة (76)، وأحمد (1/ 382)، وابن حبان (6174).

قال ابن كثير: (وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة ، مكثت أربعين يوماً كذلك ، يُضاف إليه ما يجتمع إليها ، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله ، فتمكث كذلك أربعين يوماً ، ثم تستحيل فتصير مضغة: قطعةً من لحم لا شكلَ فيها ولا تخطيط ، ثم يشْرَعُ في التشكيل والتخطيط ، فَيُصَوَّرُ منها رأس ويَدان ، وصدر وبطن ، وفخذان ، ورِجْلان ، وسائر الأعضاء. فتارة تُسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط ، وتارة تُلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ ، أي كما تشاهدونها).

وقوله: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. قال مجاهد: (التمام).

وقال ابن زيد: (الأجل المسمىٰ: إقامته في الرحم حتىٰ يخرج).

والمقصود: أنه تارة يستقر الحمل في الرحم وتارة لا يستقر. قال القرطبي: (والأجل المسمىٰ يختلف بحسب جنين وجنين ، فَثَمَّ من يسقط وثَمَّ من يكمل أمره ويخرج حَيّاً).

وقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾. أي: في حالة من الضعف في البدن والحواس يحتاج إلى رعاية الأهل وحنان الأبوين. قال القرطبي: (﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي أطفالاً ، فهو اسم جنس. وأيضاً فإن العرب قد تسمّي الجمع باسم الواحد).

وقوله: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾. أي: في كمال الشباب واستواء العقل وحسن المنظر.

قال ابن جرير: (يقول: ثم لتبلغوا كمال عقولكم ونهاية قواكم بعمركم).

وقوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾.

أي: ومنكم من يقبض في حالة شبابه وقوته ، ومنكم من يُمَدُّ له في العمر إلى حالة الشيخوخة والهرم ، وظهور علامات العجز وضعف العقل والفهم.

وفي التنزيل:

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54].

قلت: ومَنْ بلّغَهُ الله من العمر ستين سنة فقد أقام حجته تعالىٰ عليه في العمر،

فيكون بذلك قد أخذ حدّه الكامل ليختار طريق الإيمان أو طريق الكفر ، وإنما الناس في غفلة عن ذلك .

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق هذا المعنىٰ أحاديث :

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [أعذر الله إلى امريءٍ أخَّرَ أجله حتىٰ بلغ ستين سنة][1] .

الحديث الثاني : أخرج الحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة مرفوعاً: [إذا بلغَ الرجل من أمتي ستين سنة ، فقد أعذر الله إليه في العمر][2] .

ورواه عبد بن حميد من حديث سهل بن سعد بلفظ : [إذا بَلَّغَ الله العبدَ ستين سنة فقد أعْذَرَ إليه ، وأبْلَغَ إليه في العُمُرِ] .

الحديث الثالث: أخرج الحاكم بسند صحيح عن سهل بن سعد مرفوعاً: [من عَمَّرَ من أمتي سبعين سنة ، فقد أعذر الله إليه في العمر][3] .

وله شاهد في المسند من طريق سعيد المقبري عن أبي هريرة بلفظ : [لقد أعذر الله إلى عبد أحياه حتىٰ بلغ ستين أو سبعين سنة ، لقد أعذر الله إليه][4] .

الحديث الرابع: أخرج الترمذي وابن ماجة بسند حسن لذاته عن أبي هريرة مرفوعاً: [أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك][5] .

وقوله : ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ . قال ابن جريج : (لا نبات فيها) .

وقوله : ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ . قال قتادة : (حسنت ، وعُرِف الغيث في ربوها) .

والمقصود: تحركت بالنبات بنزول المطر عليها ، ﴿وَرَبَتْ﴾ . أي : ضاعفت النبات

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (11/ 200 ـ فتح) ، وانظر مسند أحمد (2/ 275) .

(2) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (2/ 427 ـ 428) ، والخطيب في «التاريخ» (1/ 290) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1089) . وانظر لرواية عبد بن حميد ـ بعده ـ صحيح الجامع (408) .

(3) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (2/ 428)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي. قال الألباني في السلسلة الصحيحة (3/ 80) ـ عقب الحديث 1089 ـ (وهو كما قالا) .

(4) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (2/ 275) ، وانظر مستدرك الحاكم (2/ 427 ـ 428) .

(5) حسن لذاته ، صحيح لغيره. أخرجه الترمذي (2/ 272) ، وابن ماجة (4236) ، وابن حبان في «صحيحه» (96/ 2) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (757) .

واشتد ثمرها ، فأنبتت ما فيها من الألوان والفنون من أصناف الثمار والزروع وأنواع النباتات المختلفة الطعوم والروائح والأشكال والمنافع والألوان.

وقوله: ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾. قال قتادة: (حسن). والبهيج: ما هو حسن المنظر طيب الريح.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾. قال القاسمي: (أي ذلك الذي ذكر من خلق الإنسان على أطوار مختلفة ، وتصريفه في أحوال متباينة ، وإحياء الأرض بعد موتها ، حاصل بسبب أن الله هو الحق وحده في ذاته وصفاته وأفعاله. المحقق لما سواه من الأشياء. فهي من آثار ألوهيته وشؤونه الذاتية وحده ، وما سواه مما يعبد باطل ، لا يقدر على شيء من ذلك).

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾. أي: كما أحيا النطفة والأرض الميتة ، فهو سبحانه القادر على ذلك.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: 39].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الأحقاف: 33].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 79].

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق ذلك المعنىٰ أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أبو نعيم في «الحلية» بسند حسن في الشواهد ، عن عبد الله بن سلام مرفوعاً: [لا تفكروا في الله ، وتفكروا في خلق الله ، فإن ربنا خلق مَلَكاً ، قدماه في الأرض السابعة السفلىٰ ، ورأسه قد جاوز السماء العليا ، ما بين قدميه إلى ركبتيه مسيرة ست مئة عام ، وما بين كعبيه إلى أخمص قدميه مسيرة ست مئة عام ، والخالق أعظم من المخلوق][(1)].

الحديث الثاني: روىٰ الطبراني في «الأوسط» بسند حسن لشواهده ، عن عبد الله بن

---

(1) حسن لشواهده. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (6/ 66 ـ 67) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1788) ، وما في حاشيته من التحقيق.

عمر مرفوعاً: [تفكروا في آلاء الله ، ولا تفكروا في الله عز وجل][1] .

وله شاهد من حديث أبي هريرة مرفوعاً به. وزاد: [فإنكم لن تدركوه إلا بالتصديق].

وشاهد من حديث ابن عباس بلفظ: [تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله][2] .

الحديث الثالث: أخرج أبو داود وابن ماجة بسند حسن عن أبي رزين ، قال موسىٰ العقيلي ، قال: [قلت: يا رسول الله ، أكلنا يرىٰ ربه ؟ مخلياً به يوم القيامة ، وما آية ذلك في خلقه ؟ قال: يا أبا رزين ، أليس كلكم يرىٰ القمر ليلة البدر مخلياً به ؟ قلت: بلى ! قال: فالله أعظم فإنما هو خلق من خلقِ الله ، فالله أجل وأعظم][3] .

وقوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . أي: لا يمتنع على قدرته العجيبة شيء.

وقوله: ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ . أي: قادمة لا شك في ذلك ولا ريب.

وقوله: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ . أي: من الأموات ، لموقف الحشر ، ونوال الثواب والعقاب.

8 ـ 10. قوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: وَصْفُ أربابِ الضلال بعد نَعْتِ الضُلّال ، فَهُمْ في حالة تَنَطُّعٍ وغُرور ، وقِلَّةٍ في العلم والحجة ، وإنما يدفعهم للكلام بغير علم حب الرياسة والظهور ، أولئك سيلقون الخزي والنكال يوم النشور.

فقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ .

قال ابن كثير: (لما ذكر تعالىٰ حال الضُّلال الجُهَّال المقلِّدين في قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ

(1) حسن في الشواهد. أخرجه الطبراني في «الأوسط» (6456) من حديث ابن عمر ، والبيهقي في «الشعب» (1/ 75) ، وانظر للشاهد ابن عساكر في «المجلس» (139) من الأمالي (1/ 50) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1788).

(2) حديث حسن. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» من حديث ابن عباس. انظر صحيح الجامع (2973).

(3) حديث حسن. رواه ابن ماجة (180) ، وأبو داود (4731) ـ كتاب السنة ـ باب في الرؤية. وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (3957).

مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ [الحج: 3] ، ذكر في هذه حال الدُّعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبِدَع ، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ ، أي بلا عقل صحيح ، ولا نَقْل صريح ، بل بمجرَّدِ الرأي والهوىٰ).

والمقصود: وصف حال طائفة من المدّعين أهل التنطع والغرور بأن جدالهم لا يكون ببرهان وحجة ، ولا ببيّنة وبصيرة ، ولا بوحي من كتاب أو سنة ، وإنما هو التعالم أو حب الظهور ، الذي يفسد ويقطع الظهور.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: 110].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾ [الأنعام: 144].

وفي سنن أبي داود وابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [من تعلم علماً مما يُبْتغىٰ به وجهُ الله تعالىٰ ، لا يتعلمه إلا ليصيبَ به عرضاً من الدنيا ، لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة][1]. يعني ريحها.

وفي سنن ابن ماجة بإسناد صحيح عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ، ولا تماروا به السفهاءَ ، ولا تخيّروا به المجالس ، فمن فعل ذلك فالنار النار][2].

وقوله: ﴿ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾. قال المبرّد: (العِطْفُ ما انثنىٰ من العنق). وقال المفضّل: (والعطف الجانب ، ومنه قولهم: فلان ينظر في أعطافه: أي في جوانبه). وعِطْفَا الرجل من لدُن رأسه إلى وَرِكَيْه. والعرب تقول: ثنىٰ فلان عني عِطفه إذا أعرض واستكبر. والمقصود بالآية وصف المعرض عن الحق في جداله واستكباره.

فقوله: ﴿ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ ـ قال ابن عباس: (يقول: مستكبراً في نفسه). أو قال: (يعرض عن ذكري). وقال مجاهد وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم: ﴿ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ ،

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3664) ، وابن ماجة وغيرهما. وانظر صحيح أبي داود (3112).
(2) حديث صحيح. رواه ابن ماجة وابن حبان والحاكم. انظر صحيح الجامع الصغير (7247).

أي: (لاوِي عُنُقِهِ، وهي رقبته). وقال ابن زيد: (لاوياً رأسه، معرضاً مولياً، لا يريد أن يسمع ما قيل له). قلت: والعطف الجانب.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: 5].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ [لقمان: 7].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: 38 ـ 39].

4 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: 61].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق معنىٰ الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [بينما رجل يمشي في حلة تُعْجِبُهُ نفسُه، مُرَجِّلٌ رأسَهُ، يختال في مِشْيَتِهِ، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة][1].

الحديث الثاني: خَرَّج مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: [لا يدخل الجنة من كان في قلبه مِثقالُ ذرة من كِبر. فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة؟ قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطرُ الحق وغَمْطُ الناس][2].

الحديث الثالث: أخرج الشيخان عن حارثة بن وهب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ألا أخبركم بأهل النار؟ كُلُّ عُتُلٍّ جوّاظ مستكبر][3].

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾. أي: ليصد المؤمنين بالله عن دينهم، ويقف عثرة دون دخول الناس في الدين الحق.

وقوله: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾. قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه: لهذا المجادل في الله

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (10/ 221)، (10/ 222)، وأخرجه مسلم (2088).
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (91)، وأخرجه أبو داود (4091)، والترمذي (1999).
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (8/ 507 ـ 508)، (10/ 408)، وأخرجه مسلم (2853).

بغير علم ، في الدنيا خزي وهو القتل والذّل ، والمهانة بأيدي المؤمنين ، فقتله الله بأيديهم يوم بدر).

وقوله: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾. أي: نسلط عليه في الآخرة عذاب الحرق في جهنم. ويكون بذلك قد جمع له عذاب الدارين.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾. تقريع وتوبيخ ، أي إنما صَلِيتَ هذا العذاب بما اجترحت يداك وبما اكتسبت من عمل. قال النسفي: (أي السبب في عذاب الدارين هو ما قدمت نفسه من الكفر والتكذيب ، وكنىٰ عنها باليد لأن اليد آلة الكسب).

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

أي: هو المُقْسِط سبحانه والعادل في حكمه بين عباده فلا يظلم تعالىٰ أحداً.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر ، عن رسول الله ﷺ ، فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: [يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. .] الحديث(1).

11 ـ 13. قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾.

في هذه الآيات: نَعْتُ حال كثير من الناس يعبدون الله على شرط القوة والرزق والعافية ، فإن نزل بهم من المصائب والفتن انقلبوا إلى الجادّة الثانية ، وأشركوا بالله وجحدوا نعمه الباقية.

فعن مجاهد: (﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قال: على شَكٍّ ، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾ رخاء وعافية ﴿ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾: استقر ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ عذاب ومصيبة ﴿ٱنقَلَبَ﴾ ارتدّ ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ كافراً).

وعن قتادة: (﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾ يقول: أكثر ماله، وكثرت ماشيته اطمأنّ وقال: لم

(1) حديث صحيح. رواه مسلم في الصحيح (8/ 17) ، ورواه أحمد في المسند (5/ 160).

يصبني في ديني هذا منذ دخلته إلا خير ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ يقول: وإن ذهب ماله ، وذهبت ماشيته ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ﴾).

وعن ابن زيد قال: (هذا المنافق ، إن صلحت له دنياه أقام على العبادة ، وإن فسدت عليه دنياه ، وتغيّرت انقلب ، ولا يقيم على العبادة إلا لما صَلَحَ من دنياه. وإذا أصابته شدّة أو فتنة ، أو اختبار أو ضيق ، ترك دينه ورجع إلى الكفر).

وفي صحيح البخاري ـ عند تفسير هذه الآية ـ عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قال: كان الرَّجُلُ يَقْدَمُ المدينة ، فَيُسْلِمُ ، فإنْ ولَدَتِ امرأَتُهُ غُلاماً وَنُتِجَتْ خَيْلُهُ قال: هذا دينٌ صالحٌ ، وإنْ لمْ تَلِدِ امْرأَتُهُ ولمْ تُنْتَجْ خَيْلُهُ قال: هذا دينُ سُوءٍ][1].

وقوله: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ﴾. أي: ما أصاب من الدنيا ولا سَعِدَ في الآخرة ، فالكفرُ بالله ونعمه يورث الشقاء والإهانة في الدار الآخرة.

قال القرطبي: (وخسرانه الدنيا بأن لا حظّ له في غنيمة ولا ثناء ، والآخرة بأن لا ثواب له فيها).

وقال النسفي: (والخسران في الدنيا بالقتل فيها ، وفي الآخرة بالخلود في النار).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾. أي: هذا الخسران في الدارين ، هو أبلغ الخسارة وأظهرها. قال القاسمي: (أي الواضح الذي لا يخفىٰ على ذي بصيرة).

وقوله: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾. قال ابن زيد: (يكفر بعد إيمانه).

وقال أبو السعود: (﴿يَدْعُواْ﴾: استئناف مبين لعظيم الخسران). والمقصود: أنه يستنصر الأوثان والأنداد ويسترزقها ويستغيث بها وهي لا تنفعه ولا تضره ، بل سيكون هذا التوجّه الفاسد سبب خسارته في الدنيا وشقائه في الآخرة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾. أي: ذلك المنهج هو منهج الشقاء الأبعد عن الاستقامة.

قال ابن جرير: (يقول: ارتداده ذلك داعياً من دون الله هذه الآلهة هو الأخذ على غير استقامة ، والذهاب عن دين الله ذهاباً بعيداً).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4742) ـ كتاب التفسير ـ سورة الحج ، آية (11).

وقوله: ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾. قال ابن كثير: (أي: ضَرَرُه في الدنيا قبل الآخرة أقربُ من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضَرَرُهُ محقَّقٌ متيقّنٌ).

وقوله: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾. قال مجاهد: (يعني الوثن).

وقال ابن زيد: (العشير: هو المعاشر الصاحب، وقد قيل: عني بالمولىٰ في هذا الموضع: الوليّ الناصر).

قلت: وعموم الآية يشمل كل ما عبد من دون الله وصرفت له العبادة والتعظيم، من الأوثان وطواغيت الإنس والجن، فإنه بئس المولىٰ: أي الناصر الصاحب، وبئس العشير: أي المعاشر المصاحب.

14. قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤)﴾.

في هذه الآية: عَطْفٌ على ذكر أهل الشقاوة، بذكر أهل النجاة والسعادة، فإن أهل الإيمان والعمل الصالح سيرثون جنان النعيم، تجري من تحتها الأنهار في سرور مقيم، فإنه تعالىٰ هدىٰ هؤلاء وأشقىٰ أولئك: بعلمه وحكمته وكمال عدله، فهو سبحانه أعلم بالشاكرين، وهو تعالىٰ يفعل ما يريد.

أخرج ابن أبي عاصم في «السّنة»، بسند صحيح عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب أنه قال: [قلت يا رسول الله: أرأيت عملنا هذا على أمر قد فرغ منه أم على أمر نستقبله؟ فقال رسول الله ﷺ: بل على أمر قد فرغ منه. قال عمر: ففيم العمل؟ فقال رسول الله ﷺ: كلا، لا يُنال إلا بعمل. فقال عمر: إذن نجتهد][1].

وكذلك روىٰ الآجري، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، عن هشام بن حكيم: [أن رجلاً أتىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أنبتدئ الأعمال أم قد قُضِيَ القضاء؟ فقال: إنَّ الله تعالىٰ أخذ ذرية آدم من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه، فقال: هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل

---

(1) رجاله ثقات. أخرجه ابن أبي عاصم في «كتاب السنة» (161). قال الألباني: حديث صحيح. ورجال إسناده ثقات. انظر «تخريج كتاب السنة» ص (71).

الجنة ، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار][1] .

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (وقد علم الله تعالىٰ فيما لم يزل عددَ مَنْ يدخل الجنة وعدد من يدخل النار ، جملة واحدة ، فلا يزاد في ذلك العدد ولا ينقص منه ، وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه ، وكل ميسر لما خُلِقَ له ، والأعمال بالخواتيم ، والسعيد من سعد بقضاء الله ، والشقي من شقي بقضاء الله)[2] .

15 ـ 16 . **قوله تعالىٰ:** ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ۝١٥ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ۝١٦ ﴾ .

في هذه الآيات: دَعْوَةُ الحاقدين على نَصْرِ الله نبيّه أن يموتوا بغيظهم ، ويخنقوا أنفاسهم ، فإن الله أنزل عليه القرآن بالحق ، ووعده النصر ، وهو تعالىٰ يوفق ويهدي من يريد .

فعن قتادة: (﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ قال: من كان يظنّ أن لن ينصر الله نبيّه ﷺ ، ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ ﴾ يقول: بحبل إلى سماء البيت ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ يقول: ثم ليختنق ثم لينظر هل يذهبنَّ كيده ما يغيظ) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: (﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، أي: ليتوصَّلَ إلى بلوغ السماء ، فإن النصرَ إنما يأتي محمداً من السماء ، ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ ذلك عنه ، إن قدَرَ على ذلك) .

وعن السدي: (﴿ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ : يعني من شأن محمد ﷺ) .

وقال عطاء: (فلينظرْ هل يَشْفي ذلك ما يجدُ في صدره من الغيظ) .

وغاية المعنىٰ: من ظَنَّ أن الله سيخذل محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه ، فإن الله تعالىٰ تكفّل بنصره وتأييده وإظهاره على عدوه ، فمن لم يعجبه ذلك فليخنق نفسه وليحترق غيظاً . فهو كما قال ابن عباس: (من كان يظنّ أن لن ينصر الله محمداً ، فليربط حبلاً في سقف ، ثم ليختنق به حتىٰ يموت) .

(1) سنده صحيح . أخرجه الآجري (ص 172) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص 326) .
(2) متن العقيدة الطحاوية . وانظر تفصيل البحث في كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 803 ـ 907) .

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: 51].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: 21].

وقد حصل لنبينا محمد ﷺ من التأييد العجيب والنصر البليغ يوم بدر، حتىٰ أراه الله مصرع أعدائه أمام عينه، وشاركته الملائكة ذلك الظفر.

ففي صحيح البخاري ومسند أحمد عن رفاعة عن النبي ﷺ قال: [جاء جبريل فقال: ما تعدّون من شهد بدراً فيكم؟ قلت: خيارنا. قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة هم عندنا خيار الملائكة][1].

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ ـ يعني هذا القرآن. أنزله الله تعالىٰ آيات واضحات في اللفظ والمعنىٰ، معجزات في البيان والآفاق، ليكون حجة منه سبحانه على عباده.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾. أي: يوفق لإصابة الحق من شاء فهو أعلم بالشاكرين.

17 ـ 18. قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِـِٔينَ وَالنَّصَٰرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوٓا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (17) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (18)﴾.

في هذه الآيات: فَصْلُ الله بين الطوائف في اختلاف منهاج عبادتها وتوجهاتها يوم القيامة والله على كل شيء شهيد. إنَّ الله تعالىٰ يسجد له من في السماوات ومن في

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في المغازي (3992)، باب شهود الملائكة بدراً، ورواه أحمد وابن ماجة وابن حبان من طريق رافع بن خديج. انظر صحيح الجامع (3081).

الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والمؤمنون ، وأبى السجود الكافرون ، فحق عليهم العذاب ، فما يصح الخروج عن طاعة ربّ الأرباب.

فعن قتادة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ ﴾. قال: (الصابئون: قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون للقبلة ، ويقرؤون الزبور.. والمجوس: يعبدون الشمس والقمر والنيران. والذين أشركوا: يعبدون الأوثان. والأديان ستة: خمسة للشيطان ، وواحد للرحمن).

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

أي: إنّ الله تعالىٰ يحكم بينهم بالعدل يوم القيامة فيجازي كلاً منهم ما يستحق ، فمن آمن به تعالىٰ وأقام أركان الإيمان أدخله الجنة ، ومن كفر به وكذّب بالوحي أدخله النار ، إنه سبحانه شهيد على أعمالهم جميعاً ، حفيظ لأقوالهم ، عليم بسرائرهم ، ولا يُظْلَمُ عنده أحد من عباده.

وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾. قال مجاهد: (ظلال هذا كله).

والمعنىٰ: ألم تر ـ يا محمد ـ بقلبك ، أن كل شيء في هذا الكون الفسيح يسجد لله العظيم ، فالملائكة في السماوات ، والحيوانات في جميع الجهات ، من الإنس والجن والدواب والطير ، كل قد علم صلاته وتسبيحه. قال ابن كثير: (وقوله: ﴿ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ ﴾ ، إنما ذكر هذه على التنصيص ، لأنها قد عُبدت من دون الله ، فَبَيَّنَ أنها تسجد لخالقها ، وأنها مربوبة مُسَخَّرة ، ﴿ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: 37]).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ [النحل: 48].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: 49].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ [النور: 41].

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق معنىٰ الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده، والنسائي وابن حبان في صحيحه، عن أبي ذر الغِفاري قال: [سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [يس: 38] قال: مستقرّها تحت العرش].

وفي رواية أخرىٰ: قال أبو ذر: [دخَلْتُ المسجدَ ورسول الله ﷺ جالِسٌ، فلما غابت الشمس قال: يا أبا ذر! هل تدري أينَ تذهَبُ هذه الشمس؟ قال: قلتُ: الله ورسوله أعلَمُ. قال: فإنها تذهب فتستأذن في السجود، فيؤذَنُ لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حَيْثُ جِئْتِ، فتطلعُ من مَغْرِبها][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة والترمذي بسند حسن ـ واللفظ لابن ماجة ـ عن ابن عباس قال: [كنت عند النبي ﷺ فأتاه رجل فقال: إني رأيت البارحة، فيما يرىٰ النائم، كأني أُصَلّي إلى أصل شجرة. فقرأت السجدة فسجدت. فسجدت الشجرة لسجودي. فسمعتها تقول: اللهم احطُط عني بها وِزراً، واكتب لي بها أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً. قال ابن عباس: فرأيت النبي ﷺ قرأ السجدة فسجد. فسمعته يقول في سجوده مثل الذي أخبره الرجل عن قول الشجرة][2].

وفي لفظ الترمذي: [قال الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد: قال لي ابن جريج: يا حسن! أخبرني عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيتني الليلة وأنا نائم، كأني أصلي خلف شجرة، فسجدت فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: «اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، وضَع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود».

قال الحسن: قال لي ابن جريج: قال لي جدك: قال ابن عباس: فقرأ النبي ﷺ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (159)، كتاب الإيمان، والنسائي في «الكبرىٰ» (11176)، وأحمد في المسند (5/ 177)، وابن حبان (6153) ـ (6154)، وغيرهم.

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (1053) في الصلاة، باب سجود القرآن، وأخرجه الترمذي (584). وانظر صحيح سنن ابن ماجة (865)، وصحيح سنن الترمذي (473).

سجدة ثم سجد. فقال ابن عباس: فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند، والترمذي في الجامع، وابن ماجة في السنن، بسند حسن عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إني أرىٰ مالا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضِعُ أربع أصابعَ إلا وملك واضِعٌ جبهته لله تعالىٰ ساجداً، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفُرُش ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون إلى الله](1).

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾. قال مجاهد: (المؤمنون). قال ابن جرير: (يقول: ويسجد كثير من بني آدم، وهم المؤمنون بالله).

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾. قال مجاهد: (وكثير أبىٰ السجود، لأن قوله ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ يدل على معصية الله وإبائه السجود، فاستحقّ بذلك العذاب). وقال أيضاً: (وكثير من بني آدم حقّ عليه عذاب الله، فوجب عليه بكفره به، وهو مع ذلك يسجد لله كله).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا قرأ ابْنُ آدم السَّجْدَةَ فسَجَدَ، اعتزلَ الشيطانُ يبكي، يقول: يا وَيْلَهُ ـ وفي رواية: يا وَيْلي ! ـ أُمِرَ ابْنُ آدمَ بالسجود فسَجَدَ فله الجَنَّة، وأمِرْتُ بالسجود فأَبَيْتُ فَلِيَ النار](2).

وفي رواية: «فعصيت فلي النار».

وقوله: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾.

أي: ومن يهن الله بالشقاوة فماله من مكرم بالسعادة.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾. قال النسفي: (من الإكرام والإهانة وغير ذلك، وظاهر هذه الآية والتي قبلها ينقض على المعتزلة قولهم، لأنهم يقولون شاء أشياء ولم يفعل، وهويقول يفعل ما يشاء).

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند، والترمذي في الجامع (2428)، وابن ماجة في السنن (4190). انظر صحيح سنن الترمذي (1882).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (81)، كتاب الإيمان. ورواه ابن ماجة (1052)، وأحمد (2/ 443).

19 ـ 22. **قوله تعالىٰ:** ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

في هذه الآيات: اختصامُ الفريقين عند ربهم يوم القيامة: فريق الأولياء، وفريق الكفرة الأعداء. فالكفار في نار العذاب يصب على رؤوسهم الحميم، فيصهر به ما في بطونهم والجلود، ويضربون بسياط من جديد، ويمنعون من الخروج ليتضاعف عليهم العذاب الشديد.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه قال: [نزلت: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ ﴾ في ستة من قريش: علي وحمزة وعبيدة بن الحارث، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة][1].

وفي رواية: عن قَيْسِ بن عُبَادٍ، عن أبي ذرٍ رضي الله عنه أنه كان يُقسم قسماً: [إنَّ هذه الآية: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه، وعُتْبَة وصاحِبَيْه يوم بَرَزُوا في يوم بدر][2].

وأخرج البخاري في الصحيح، والنسائي في التفسير، عن قَيْسِ بن عُبادٍ، عن عليٍّ رضي الله عنه قال: [أنا أوّلُ مَنْ يَجْثُو بَيْنَ يدي الرحمن للخصومة يومَ القيامة، قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ ﴾. قال: هم الذين بارزوا يوم بَدْرٍ: عَليٌّ وحَمْزَةُ وعُبَيْدَةُ، وشَيْبَةُ بنُ ربيعةَ وعُتْبَةُ بن ربيعةَ والوليدُ بنُ عُتبة][3].

والمقصود: إخبار من الله تعالىٰ عن الفريقين المتخاصمين الذين خرجوا للمبارزة يوم بدر، الفريق الأول: أهل الإيمان حمزة وعلي وعبيدة رضي الله عنهم. والفريق الثاني: أهل الكفر من أبناء عمومتهم عتبة وشيبة والوليد بن عتبة عليهم سخط الله

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3966)، كتاب المغازي. وانظر كذلك (3968).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4743)، كتاب التفسير، سورة الحج، آية (19).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4744)، كتاب التفسير، وأخرجه النسائي في «التفسير» (362).

وغضبه. قال مجاهد: (مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث). وقال عطاء: (هم المؤمنون والكافرون). قلت: وخصام الفريقين كان في الإيمان بالوحي وتصديق النبوة.

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾. أي: فُصِّلَت لهم ثياب ملتهبة من النار.

قال مجاهد: (الكافر قطعت له ثياب من نار، والمؤمن يدخله الله جنات تجري من تحتها الأنهار).

وقال سعيد: (﴿ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾: ثياب من نحاس، وليس شيء من الآنية أحمىٰ وأشد حَرّاً منه).

وقوله: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾. قال مجاهد: (يقول: يصب على رؤوسهم ماء مُغْلىٰ).

وقال سعيد: (هو النحاس المذاب، أذاب ما في بطونهم من الشَّحم والأمعاء).

وقوله تعالىٰ: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾. أي يذيب هذا السائل المغلي شحومهم وأمعاءهم وكذلك يشوي جلودهم حتىٰ تتساقط.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾. المقامع: جمع مِقْمَعة.

قال النسفي: (سياط مختصة بهم يضربون بها). وقيل: المقامع المطارق، وهي المرازب.

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

أي: كُلّما هموا بالخروج من النار أعيدوا فيها بالضرب من الملائكة بالمقامع والإهانة وغير ذلك، وقيل لهم: ذوقوا عذاب الحريق المؤلم الموجع.

قال الفضيل بن عياض: (والله ما طمعوا في الخروج، إنَّ الأرجُلَ لَمُقَيَّدَة، وإن الأيدي لموثَّقَةٌ، ولكن يرفعُهم لَهَبُها، وتَرُدُّهم مقامِعُها).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[السجدة: 20].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة: 37].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: [نارُكم جُزْءٌ من سبعين جُزْءاً من نار جهنم. قيل: يا رسول الله، إن كانت لكافية، قال: فُضِّلتْ عليهن بِتِسْعةٍ وستِّينَ جُزْءاً كُلُّهنَ مِثْلُ حَرِّها][1].

23 ـ 24. قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

في هذه الآيات: ذكْرُ الصورة المقابلة للصورة السابقة، فأهل الجنة في النعيم المقيم، في الوقت الذي فيه أهل النار في أشد الجحيم، فالمؤمنون تجري من تحتهم الأنهار ويحلون من أساور الذهب واللؤلؤ ويلبسون الحرير وينعمون بتمام المِنّة. وقد هداهم الله إلى طيب القول وإلى منازلهم في الجنة.

فقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾.

قال ابن كثير: (أي: تتخَرّق في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقُصورها، يَصْرفونها حيث شاؤوا وأين شاؤوا).

وقوله: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾. الأساور: جمع أَسْوِرة، وأسورة واحدها سِوار. قال القرطبي: (قال المفسرون: لما كانت الملوك تلبَس في الدنيا الأساور والتِّيجان جعل الله ذلك لأهل الجنة، وليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة: سوار من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ. قال هنا وفي فاطر: ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ [فاطر: 33]. وقال في سورة الإنسان: ﴿ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان: 21]).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3265)، كتاب بدء الخلق. وانظر مختصر صحيح مسلم (1976).

وقوله: ﴿ وَلُؤْلُؤًا ﴾ ـ منصوب بفعل محذوف دلّ عليه الأول. أي: ويحلون لؤلؤاً.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: سمعت خليلي ﷺ يقول: [تبلغ الحِليةُ منَ المؤمن حيثُ يَبْلغُ الوضوء][1].

وفي التنزيل:

﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان: 21].

قال ابن القيم: (جمّل البواطن بالشراب الطهور، والسواعد بالأساور، والأبدان بثياب الحرير).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أَوَّلُ زُمْرَةٍ تلجُ الجنة صورَتُهم على صورة القمر ليلةَ البدر، لا يَبْصُقون فيها ولا يَمْتَخِطون، ولا يَتَغوَّطُون، آنِيَتُهم فيها الذهب، أمْشاطهم من الذهب والفضة، ومَجامِرُهُم الألُوَّةُ، ورشْحُهم المِسْكُ، ولكل واحدٍ منهم زَوْجَتان يُرَىٰ مُخُّ سوقِهما من وراء اللحم من الحُسْنِ، لا اختلاف بينهم ولا تباغُضَ، قلوبهم قَلْبٌ واحِدٌ، يُسبِّحونَ الله بُكرةً وعَشِياً][2].

وقوله: ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: ولبوسهم التي تلي أبشارهم فيها ثياب حرير).

فكما أن ثياب أهل الشقاء قد فُصِّلت لهم من نار، فكذلك ـ في مقابلة ذلك ـ ثياب أهل النعيم من الحرير بنوعيه ـ السندس والإستبرق ـ قد فُصِّلت لهم.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ [الإنسان: 21].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الدخان: 51 ـ 53].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (250)، كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3245)، كتاب بدء الخلق، ورواه مسلم (1956) ـ (1957).

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 31].

والسندس مَارَقَّ من الديباج، والإستبرق ما غلظ منه. قال الزجاج: (هما نوعان من الحرير).

وقوله في آية «الإنسان» ـ «عاليهم» ـ: يفيد أن ذلك اللباس ظاهر بارز للزينة والجمال.

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق معنىٰ الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: [أهدىٰ أكيدر[1] دومة إلى النبي ﷺ جبة من سندس، فتعجب الناس من حسنها، فقال: لمناديل سعد في الجنة أحسن من هذا][2].

وله شاهد فيهما من حديث البراء قال: [أهدي لرسول الله ﷺ ثوب حرير فجعلوا يعجبون من لينه، فقال رسول الله ﷺ: تعجبون من هذا؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا][3].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب، أن رسول الله ﷺ قال: [إنما يلبَسُ الحريرَ في الدنيا مَنْ لا خَلاقَ له في الآخرة][4].

ويشهد له رواية أخرىٰ فيه عنه قال: قال النبي ﷺ: [مَنْ لبس الحرير في الدنيا لم يَلْبَسْهُ في الآخرة].

الحديث الثالث: خرَّج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس ولا تبلىٰ ثيابه ولا يفنىٰ شبابه، في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر][5].

---

(1) أي: أميرها.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3248)، كتاب بدء الخلق، وكذلك (2615) ـ (2616)، ورواه مسلم (2468)، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل سعد بن معاذ، رضي الله عنه.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5836)، كتاب اللباس، باب منْ مسّ الحرير من غير لُبْسٍ، ورواه مسلم. انظر صحيح مسلم (2469)، الكتاب السابق، الباب السابق.

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5835)، كتاب اللباس. وانظر للشاهد حديث (5834) منه.

(5) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2836)، كتاب الجنة ونعيمها. باب في دوام نعيم أهل الجنة.

وقوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ـ فيه أقوال متقاربة متكاملة.

1 ـ قال ابن عباس: (ألهموا). وقيل: الطيب من القول: القرآن، وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: الأذكار المشروعة.

2 ـ قال ابن زيد: (هدوا إلى الكلام الطيب: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، قال الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: 10]).

3 ـ قال ابن جرير: (وهداهم ربهم في الدنيا إلى شهادة أن لا إله إلا الله).

4 ـ قال ابن كثير: (فهُدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب) ـ يعني في الجنة. ولا شك أن الكلام الطيب يشمل تحية أهل الجنة، وتحية الملائكة لهم «السلام»، وكذلك التسبيح والتحميد.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: 23].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: 23 ـ 24].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: 25 ـ 26].

وفي صحيح مسلم عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: [إنَّ أهلَ الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يَتْفِلونَ ولا يبولون، ولا يتغوَّطون ولا يمتخِطون. قالوا: فما بال الطعام؟ قال: جُشاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ المسْكِ، يُلْهمون التسبيح والتحميد، كما يُلهمونَ النَّفَس][1]. وفي رواية: (ويُلهمونَ التسبيح والتكبير، كما يُلهمون النَّفَس).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [قلوبهم قلبٌ واحدٌ، يسبحون الله بُكرةً وعَشِيّاً][2].

وقوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾. أي: في الدنيا والآخرة. والحميد فعيل بمعنىٰ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2835) ـ كتاب الجنة ونعيمها.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3245)، وأخرجه مسلم (2834) ح (17)، وقد مضىٰ بتمامه.

مفعول: أي محمود. قال النسفي: (أي أرشد هؤلاء في الدنيا إلى كلمة التوحيد وإلى صراط الحميد أي الإسلام، أو هداهم الله في الآخرة وألهمهم أن يقولوا الحمد لله الذي صدقنا وعده، وهداهم إلى طريق الجنة. والحميد الله المحمود بكل لسان).

قلت: والهداية المذكورة في هذه الآية هي النوع الرابع من أنواع الهداية. فالهداية كما وردت في القرآن والسنة تقسم إلى الأقسام الآتية:

1 ـ هداية الخالق العامة لجميع خلقه لمصالحهم. كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: 2 ـ 3].

2 ـ هداية الدلالة والإرشاد. وهي هداية البيان وإقامة الحجة من الرسل على أممهم. قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 165]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الدهر: 3].

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: [إنه لم يكن نبيّ قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدلَّ أمته على خيرِ ما يعلمه لهم وينذرهم شرَّ ما يعلمه لهم. .]الحديث(1).

3 ـ هداية التوفيق والإلهام. وهي هداية خاصة بالمؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله. قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: 11]. وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن قتادة بن النعمان، أنّ رسول الله ﷺ قال: [إذا أحبَّ الله عَبْداً حَماهُ في الدنيا كما يَظَلُّ أحدُكُم يَحْمي سَقيمَهُ الماء](2).

4 ـ هداية الله المؤمنين يوم القيامة إلى الجنة. وهي هداية في الدار الآخرة إلى مساكن النعيم والخلود. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: 9]. قال مجاهد: (يهديهم ربهم بإيمانهم: يكون لهم نوراً يمشون به). وقال ابن جرير: (يرشدهم ربهم بإيمانهم إلى الجنة).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح، وأحمد في المسند. انظر مختصر صحيح مسلم (1199).
(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2123) ـ أبواب الطب. انظر صحيح سنن الترمذي (1659).

وعن مجاهد: (﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد: 5 ـ 6]. قال: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً). وقال ابن عباس: (هم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم).

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري أن نبيّ الله ﷺ قال: [إذا خَلَصَ المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، يتقاصُّون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتىٰ إذا هذبوا ونقوا أذن لهم بدخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا][1].

وله شاهد فيه من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [والذي بعثني بالحق ما أنتم في الدنيا بأعرف بأحوالكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم إذا دخلوا الجنة].

25 ـ 29. **قوله تعالىٰ**: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٥ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝٢٦ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ۝٢٨ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۝٢٩ ﴾.

في هذه الآيات: ذمُّ الله الكفار الذين يصدون عن سبيله ويمنعون المؤمنين من المسجد الحرام الذي جعله الله للصلاة والطواف والعبادة يقصده الناس من جميع الأمصار. وتوعّد من يَهّم في الحرم بأمر فظيع من الشرك أو المعاصي الكبار بعذاب أليم. وتعيين الله تعالىٰ لخليله إبراهيم مكان البيت للعمارة والعبادة، وأمره مناداة

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2440) ـ كتاب المظالم. وانظر مسند أحمد (3/ 13)، (3/ 74).

الناس بالحج إليه من جميع الأقطار. ليجمعوا أثناء حجهم من المنافع الأخروية والدنيوية ويشكروا الله على كتابتهم في الحجاج والعُمّار.

فقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾. قال النسفي: (أي يمنعون عن الدخول في الإسلام). وقال ابن كثير: (﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾، أي: ومن صفتهم مع كُفرهم أنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أي: ويصدون عن المسجد الحرام مَنْ أراده من المؤمنين الذين هم أحقُّ الناس به في نفس الأمر).

فقوله: ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ حال من فاعل كفروا، والتقدير: وهم يصدون، أي هي صفة استمرار منهم، فقد جمعوا بين الكفر والصد عن سبيل الله والمسجد الحرام، احتكاراً وكبراً وعلواً في الأرض بالظلم والإفساد.

وقوله: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾. أي: جعله الله للصلاة والطواف والعبادة لجميع الناس حاضرهم وباديهم. والعاكف: المقيم الملازم. والبادي: أهل البادية ومَنْ يقدُم عليهم.

قال القرطبي: (يقول: سواء في تعظيم حرمته وقضاء النّسك فيه الحاضرُ والذي يأتيه من البلاد، فليس أهل مكة أحقّ من النازح إليه).

فائدة: دور مكة توهب وتورث وتباع وتملك بخلاف الأرض.

وهذا مأخوذ من فعله ﷺ يوم الفتح إذ لم يقسم أراضي مكة بين الغانمين.

وذهب الإمام أحمد إلى أن الإمام مخيَّرٌ بين وقفها وقسمتها، وبنحوه ذهب أبو حنيفة. ولكن هناك فرق بين الأرض وبين الدور، فأرض مكة وقف من الله على العالمين فهي أرض لا تقسم كسائر القرىٰ المفتوحة، لقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ الآية.

قال ابن القيم: (وأما مكة، فإن فيها شيئاً آخر يمنع من قسمتها ولو وجبت قسمة ما عداها من القرىٰ، وهي أنها لا تُملك، فإنها دارُ النسك، ومتعبَّدُ الخلق، وحرَمُ الرب تعالىٰ الذي جعله للناس سواء العاكِفُ فيه والباد، فهي وقف من الله علىٰ العالمين)[1].

---

(1) انظر: «زاد المعاد» (3/ 434)، وكتابي: السيرة النبوية (1300 ـ 1312) لتفصيل البحث.

وقال في موضع آخر: (فإن الأرض ليست داخلةً في الغنائم التي أمر الله بتخميسها وقسمتها ، ولهذا قال عمر: إنها غيرُ المال). ثم قال: (فالصواب القول بموجب الأدلة من الجانبين ، وأن الدور تُملكُ ، وتوهبُ ، وتورثُ وتُباع ، ويكون نقلُ الملك في البناء لا في الأرض والعرصة ، فلو زال بناؤه ، لم يكن له أن يبيع الأرض ، وله أن يبنيها ويُعيدها كما كانت ، وهو أحقُّ بها يَسْكنُها ويُسْكِنُ فيها من شاء)[1].

وإليه ذهب الشافعي رحمه الله: إلى أن رِباع مكة تملك وتورَّث وتؤجَّر ، واحتج بما روىٰ البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد قال: [قلت يا رسول الله ، أتنزل غداً في دارك بمكة ؟ فقال: وهل ترك لنا عَقيلٌ من رِباع ؟ وفي رواية: (يا رسول الله أين نَنْزِلُ غداً ؟ قال النبي ﷺ: «وهل تركَ لنا عقيلٌ من مَنْزِلٍ ؟»). ثم قال: لا يرث المؤمن الكافر ، ولا الكافر المؤمن»][2].

وكذلك احتجّ بما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترىٰ من صفوان بن أمية داراً بمكة ، فجعلها سِجْناً بأربعة آلاف درهم ، وهو أول من حبس في السجن في الإسلام.

وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

قال ابن عباس: (يعني أن تستحل من الحرام ما حرّم الله عليك من لسان أو قتل ، فتظلم من لا يظلمك ، وتقتل من لا يقتلك ، فإذا فعل ذلك فقد وجب له عذاب أليم).

وعن ابن عباس أيضاً: (﴿بِظُلْمٍ﴾ بشرك). وقال مجاهد: (هو أن يعبد فيه غير الله).

وكذلك عن مجاهد: (﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: يعمل فيه عملاً سيئاً). وقال ابن زيد: (الإلحاد: الظلم في الحرم).

والخلاصة: إنَّ مَنْ يَهُمُّ في الحرم بأمرٍ فظيع من الشرك أو المعاصي الكبار عامداً قاصداً الظلم غير متأول فقد وجب له عذاب أليم.

وذهب بعض علماء العربية أن الباء في قوله تعالىٰ: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ زائدة ، والتقدير: ومن يرد فيه إلحاداً. ومثله قوله تعالىٰ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: 20] ، والتقدير: تُنْبِتُ الدُّهن.

---

(1) انظر: «زاد المعاد» (3/ 437) ، وانظر المرجع السابق ص (1311 ـ 1312) ـ المجلد الثالث.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4282) ـ (4283) ، كتاب المغازي ، ورواه مسلم (1351) ، وأبو داود (2910) ، وابن ماجة (2730) ، وأحمد (5/ 201) ، والبيهقي (6/ 34) ، وغيرهم.

وفي مسند الإمام أحمد بإسناد على شرط الشيخين عن سعيد بن عمرو قال: [أتىٰ عبد الله بن عمرو ابن الزبير: وهو جالس في الحِجر فقال: يا ابن الزُّبير، إياكَ والإلحادَ في الحَرَم، فإني أشهد لسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: يُحِلُّها ويُحلُّ به رجُلٌ من قريش، لو وُزِنَتْ ذنوبُه بذنوب الثقلين لوزَنَتْها. قال: فانظر لا تكون هو](1).

وفي رواية: [يا ابن الزبير، إياكَ والإلحادَ في حرم الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه سَيُلحِدُ فيه رجلٌ من قُرَيش، لو توزنُ ذنوبُه بذنوب الثقلين لَرَجَحَتْ، فانظر لا تكونُه](2).

وقوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ ـ أي عيَّنا له موضعه وأريناه أصله ليبنيه.

قال ابن جرير: (بوأنا: وطأنا له مكان البيت). وقال النسفي: (واذكر يا محمد حين جعلنا لإبراهيم مكان البيت مباءة أي مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة، وقد رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء، فأعلم الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها فكنست مكان البيت فبناه على أساسه القديم) ـ وبنحوه ذكر القرطبي.

قلت: والذي ذكره القرطبي والنسفي له ما يشهد له من حديث أبي قلابة ـ كما ذكر الذهبي ـ قال: (لما أهبط الله تعالىٰ آدم قال: «يا آدم إني مهبط معك بيتاً يطاف حوله كما يطاف حول عرشي، ويصلىٰ عنده كما يصلىٰ عند عرشي». فلم يزل كذلك حتىٰ كان الطوفان رفع، فكانت الأنبياء تحجه، يأتونه فلا يعرفون موضعه، حتىٰ بوأه الله تعالىٰ لإبراهيم عليه السلام). قال الذهبي: (وهو ثابت عن أبي قلابة، وأين مثل أبي قلابة في الفضل والجلالة؟ هرب من تولية القضاء من العراق إلى الشام)(3).

وفي التنزيل ما يؤيد ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: 96 ـ 97].

---

(1) إسناده على شرطهما. أخرجه أحمد (2/ 196 ـ 219)، ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في «المجمع» (3/ 284 ـ 285).

(2) أخرجه أحمد (2/ 136)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (3/ 285) وقال: رجاله ثقات. وكون الحجاج هو المراد بالحديث أقرب من كونه ابن الزبير، فالحجاج لم يقتصر على رمي الكعبة بالمنجنيق، بل قتل الآلاف من المسلمين، فجزاه الله بما كسبت يداه.

(3) انظر: مختصر العلو (129)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 189) ـ الأثر (5).

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: 125].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127].

فالأساسات التي قام عليها البيت موجودة من قبل، وإنما رفع البناء عليها وجدّده إبراهيم بمعاونة ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

وفي صحيح البخاري عن أبي ذر رضي الله عنه قال: [قلت: يا رسول الله، أيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ في الأرض أوّل؟ قال: «المسجد الحرام»، قال: قلت: ثم أيُّ؟ قال: المسجِدُ الأقصىٰ. قلت: كم كانَ بينَهما؟ قال: أربعون سنة، ثم أيْنَما أدْرَكَتْكَ الصلاةُ بَعْدُ فَصَلِّهِ فإن الفَضْلَ فيه][1]. وفي رواية: (ثم قال: حَيْثما أدركتك الصلاة فصَلِّ والأرض لك مسجدٌ).

قلت: وإنما جدّد سليمان عليه الصلاة والسلام بناء بيت المقدس بعد خرابه كما هو معلوم.

وقوله: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾. ـ «أنْ» ـ هي التفسيرية. أي المفسرة للقول، والتقدير: قائلين له ﴿لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ ـ أي ابنه خالصاً على اسمي وحدي، لتكون العبادة لله وحده.

وقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾. قال مجاهد: (من الشرك). وقال قتادة: (من الشرك وعبادة الأوثان).

وقوله: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

قال ابن زيد: (القائم والراكع والساجد هو المصلي، والطائف هو الذي يطوف به.

وقوله: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ يقول: والركع السجود في صلاتهم حول البيت).

قال ابن كثير: (أي: اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطائف به معروفٌ، وهو أخصُّ العبادات عند البيت، فإنه لا يفْعَل ببقعة من الأرض سواها، والقائمين، أي: في الصلاة، ولهذا قال: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، فقرن الطواف بالصلاة، لأنهما لا يُشرَعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده، والصلاة

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3366)، كتاب أحاديث الأنبياء، وانظر (3425) منه.

إليه في غالب الأحوال ، إلا ما استثنىٰ من الصلاة عند اشتباه القبلة وفي الحرب ، وفي النافلة في السَّفر ، والله أعلم).

قلت: والطواف في البيت صلاة ، فيجب لها الوضوء والتطهر من الجنابة ، إلا أنه أبيح فيها الكلام. وللطائف أن يقرأ القرآن ويدعو ويسبح ويهلل وغير ذلك مما هو مشروع في الذكر.

فقد أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: [الطواف بالبيت صلاة ، ولكن الله أحل فيه النطق ، فمن نطق فلا ينطق إلا بخير. وفي رواية: فأقلوا فيه الكلام][1].

وقوله: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾.

أي: ناد في الناس داعياً لهم إلى إقامة هذه المناسك العظيمة بحج بيت الله الحرام.

وعن سعيد بن جبير قال: (لما فرغ إبراهيم من بناء البيت أوحىٰ الله إليه أن أذّن في الناس بالحج. فخرج فنادىٰ في الناس: يا أيها الناس إن ربكم قد اتَّخَذَ بيتاً وأمركم أن تحجوه. قال: قال ابن عباس: فسمعه ما بين السماء والأرض ، ألا ترىٰ الناس يجيئون من أقصىٰ الأرض يلبون).

وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾.

قال ابن عباس: (﴿رِجَالًا﴾ على أرجلهم ، ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ قال: الإبل).

فجُمع لأنه أريد بكل ضامر: النوق. ولذلك قال: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾. قال ابن عباس: (من مكان بعيد).

وفي التنزيل:

﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: 37]. قال ابن كثير: (فليس أحدٌ من أهل الإسلام إلا وهو يَحِنُّ إلى رؤية الكعبة والطواف ، والناس يقصِدُونها من سائر الجهات والأقطار).

وقوله: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾. قال مجاهد: (الأجر في الآخرة، والتجارة في الدنيا).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (960). انظر صحيح سنن الترمذي (767) ، ورسالتي: الحج والعمرة ص (32) لتفصيل أكبر.

وقوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾. قال قتادة: (أيام العشر، والمعدودات أيام التشريق).

وقوله: ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ ـ أي الهدايا والبُدْن التي أهدوها من الإبل والبقر والغنم.

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ ـ أمر إباحة لا وجوب. قال مجاهد: (إنما هي رخصة).

وقوله: ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾.

قال عكرمة: (هل المضطرُّ الذي عليه البؤس، والفقير: المتعفِّف). وقال مجاهد: (هو الذي لا يبسط يده). وقال قتادة: (هو الزَّمِنُ). وقال مقاتل: (هو الضَّرير).

قلت: وقد ذكر البخاري في «كتاب العيدين» من صحيحه، باباً سمّاه: باب فضل العمل في أيام التشريق، وقال ابن عباس: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ [الحج: 28]: أيام العشر، والأيام المعدودات: أيامُ التشريق، وكان ابنُ عمرَ وأبو هريرة يَخْرجان إلى السوق في أيام العشر يُكبِّران ويكبِّرُ الناس بتكبيرهما، وكبَّر محمدُ بن عَليٍّ خلف النافلة.

ثم روىٰ البخاري في الباب عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: [ما العملُ في أيام (العشر) أفضلُ منها في هذه. قالوا: ولا الجهاد؟ قال: ولا الجهادُ، إلا رجُلٌ خرجَ يُخاطِرُ بنفسه وماله فلمْ يَرْجِعْ بشيءٍ][1].

وقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾. قال ابن عمر: (التفثُ: المناسكُ كُلُّها).

وقال مجاهد: (حلق الرأس وحلق العانة وقص الأظفار وقص الشارب ورمي الجمار). وزاد ابن جريج: (والأخذ من اللحية).

قلت: والراجح ما ذكره ابن عمر من أن التفث جميع المناسك، لحديث عروة بن مُضَرس مرفوعاً: [من شهد صلاتنا هذه، ووقف معنا حتىٰ يَدْفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً، فقد تَمَّ حَجُّه وقضىٰ تَفَثَهُ][2].

وقوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ ـ وهو ما نذر المرء على نفسه في الحج من شيء مشروع أو مباح. فإن كان غير مشروع أو غير مباح فلا وفاء به.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (969)، والترمذي (757)، وأحمد (1/ 224)، وغيرهم.
(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (891)، وابن ماجه (3016). انظر صحيح الترمذي (707).

فقد أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: [من نذر أن يُطيعَ الله فَلْيُطِعْهُ ، ومَنْ نذَرَ أن يعصي الله فلا يعصه][1].

وفي سنن النسائي بسند صحيح عن عِمران بن حُصَين ، عن النبي ﷺ قال: [النذر نَذْران ، فما كان مِنْ نَذْرٍ في طاعة الله فذلك لله ، وفيه الوفاء. وما كان من نذر في معصية الله فذلك للشيطان، ولا وفاء فيه، ويكفِّره ما يكفِّر اليمين][2].

وقوله: ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾.

قال ابن الزبير: (إنما سمي البيت العتيق ، لأن الله أعتقه من الجبابرة).

وفي الصحيحين عن ابن عباس أنه قال: [أُمِرَ الناس أن يكون آخرَ عهدهم بالبيت الطوافُ ، إلا أنه خُفِّفَ عن المرأة الحائض][3].

فيودِّع المسلم البيت بطواف ، كما استقبله بطواف ، فإن قضىٰ حجّه واستطاع أن يتابع بعد فترة بعمرة كان ذلك خيراً كبيراً.

فقد أخرج الترمذي والنسائي بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: [تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقرَ والذنوب ، كما ينفي الكيرُ خبثَ الحديد والذهب والفضة ، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة][4].

وأخرج البزار بسند صحيح عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: [الحُجّاجُ والعُمّار وَفْدُ الله ، دعاهم فأجابوه ، سألوه فأعطاهم][5].

30 ـ 33. قوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (11/ 504) ـ في الأيمان والنذور.
(2) حديث صحيح. أخرجه النسائي ـ كما في صحيح الجامع (6680) ـ وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان. (1/ 460) لتفصيل البحث.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1755) ، ومسلم (1328) ، والبيهقي (5/ 161).
(4) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (807) ، والنسائي (115) ، وانظر صحيح الجامع (2901).
(5) حديث صحيح. أخرجه البزار (1153) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1820).

خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ .

في هذه الآيات: تعظيمُ الحرمات تعظيمٌ للدين ، والشركُ أكبر الآثام وعقابه أليم. وتعظيمُ الشعائر من تقوىٰ القلوب ، ولكم في البدن منافع في الشرب والركوب ، إلىٰ وقت وجوب نحرها عند البيت العتيق.

فعن مجاهد ، في قوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال: (الحرمة: مكة والحجّ والعمرة ، وما نهىٰ الله عنه من معاصيه كلها). وقال الليث: (حرمات الله ما لا يحل انتهاكها).

وقال قوم: (الحرمات هي الأمر والنهي). وقال الزجاج: (الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه).

قلت: وكل ما سبق داخل في مفهوم حرمات الله ، فإن تعظيم الشرع الممثل بالقرآن والسنة العطرة وما جاء فيهما من أحكام يورث الخير في الدنيا والآخرة.

قال ابن القيم: (وأول التعظيم تعظيم الأمر والنهي ، وهو أن لا يُعارضا بترخص جاف ، ولا يُعَرَّضَا لتشدّد غال).

أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن شهاب ، أن سالم بن عبد الله حَدَّثَه: [أنه سمع رجلاً من أهل الشام ، وهو يسأل عبد الله بن عمر: عن التمتع بالعمرة إلى الحج ، فقال عبد الله بن عمر: هي حلال. فقال الشامي: إنَّ أَباك قد نهىٰ عنها. فقال عبد الله بن عمر: أرأيت إن كان أبي نهىٰ عنها وصنعها رسول الله ﷺ ! أمرُ أبي يُتَّبَع ، أم أمر رسول الله ﷺ ؟ فقال الرجل: بل أمر رسول الله ﷺ. فقال: لقد صنعها رسول الله ﷺ][1].

وقوله: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾. أي هذا التعظيم لأحكام هذا الدين يتبعه عند الله يوم القيامة ثوابٌ جزيل وخير وفير.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (830)، أبواب الحج. باب ما جاء في التمتع. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (658).

﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه: وأحلّ الله لكم أيها الناس الأنعام، أن تأكلوها إذا ذكَّيتموها، فلم يحرّم عليكم منها بحيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حامياً، ولا ما جعلتموه منها لآلهتكم ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ يقول: إلا ما يتلىٰ عليكم في كتاب الله، وذلك: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهلّ لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردّية، والنطيحة، وما أكل السبع، وما ذُبح على النُصب، فإن ذلك كله رجس).

وقوله: ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ ﴾. قال ابن عباس: (يقول تعالىٰ ذكره: فاجتنبوا طاعة الشيطان في عبادة الأوثان). أي: فعبادة الأوثان هي الرجس من ذلك.

وقوله: ﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾. أي: واحذروا قول الكذب وماهو افتراء على الله.

وعن ابن عباس: (﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ يعني: الافتراء على الله والتكذيب).

وعن عاصم، عن وائل بن ربيعة، عن عبد الله، قال: (تعدل شهادة الزور بالشرك، وقرأ: ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾).

وفي الصحيحين وسنن الترمذي عن أبي بَكْرَةَ قال: قال رسول الله ﷺ: [ألا أُنَبِّئُكُمْ بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلىٰ، يا رسول الله. قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين ـ وكان مُتَّكِئاً فجَلَسَ ـ فقال: ألا وقولُ الزور، ألا وشهادةُ الزور. فما زال يكرِّرُها، حتىٰ قلنا: ليته سكتَ][1].

وقوله: ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ ﴾. أي مستقيمين على الإخلاص لله وتوحيده وتعظيم شرعه. و﴿ حُنَفَآءَ ﴾ نصب على الحال.

وقوله: ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾. أي: لا تدعون مع الله إلـٰهاً غيره. فله العبادة وله الكبرياء وحده لا شريك له.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5976)، وأخرجه مسلم (87)، وأخرجه الترمذي (1901).

وقوله: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾.

قال قتادة: (هذا مثل ضربه الله لمن أشرك بالله في بُعده من الهدىٰ وهلاكه).

وعن مجاهد: (﴿ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ قال: بعيد).

والمقصود: أنّ مثل المشرك بالله في بعده عن الهدى وإصابة الحق وهلاكه وذهابه عن ربه كمثل ذلك الذي خرّ من السماء فتخطفه الطير في الهواء وتقطعه وتمزقه، فهلك، أو هوت به الريح في مكان بعيد فلقي مصيره الفاجع.

وفي حديث البراء ـ في المسند وسنن أبي داود ومستدرك الحاكم ـ في صعود ملائكة العذاب بروح الكافر وخروج الريح الخبيثة منها، قال رسول الله ﷺ: [فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان ـ بأقبح أسمائه التي كان يسمىٰ بها في الدنيا ـ، حتىٰ ينتهي به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾. فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلىٰ، ثم يقال: أعيدوا عبدي إلى الأرض فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرىٰ، فتطرح روحه من السماء طرحاً حتىٰ تقع في جسده، ثم قرأ: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾] الحديث[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾.

يشمل تعظيم أوامر الله جميعها، ومن ذلك استحسان البُدن واستسمانها، وأداء مناسك الحج كما جاءت في القرآن وصحيح السنة، دون ترخص جاف أو تشدّد غال.

قال مجاهد: (﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾: الاستسمان والاستعظام).

أو قال: (استعظام البدن، واستسمانها، واستحسانها).

وقال ابن زيد: (الشعائر: الجمار، والصفا والمروة من شعائر الله، والمَشْعَر الحرام، والمزدلفة).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2/ 281)، والحاكم (1/ 37 ـ 40)، وأحمد (4/ 287 ـ 288)، وكذلك (4/ 295 ـ 296) في أثناء حديث طويل، وقد مضىٰ بتمامه.

وقال محمد بن أبي موسىٰ: (الوقوف بعرفة من شعائر الله ، وبِجَمْع[1] من شعائر الله ، ورمي الجمار من شعائر الله ، والبُدْن من شعائر الله ، ومن يعظمها فإنها من شعائر الله في قوله: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ فمن يعظمها فإنها من تقوىٰ القلوب).

وفي كنوز صحيح السنة العطرة من ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أبو داود بسند صحيح عن يزيد بن شيبان قال: أتانا ابن مربع الأنصاري ونحن بعرفة فقال: أما إني رَسولُ رَسُولِ الله ﷺ إليكم ، يقول لكم: [قِفوا على مشاعركم ، فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم][2].

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن أنس: [أنَّ رسول الله ﷺ ضحّىٰ بكبشين أَملحَين أقرنين][3].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عائشة وعن أبي هريرة: [أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يضحي ، اشترىٰ كبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوءين. فذبح أحدهما عن أمّته ، لمن شهد لله بالتوحيد ، وشهد له بالبلاغ. وذبح الآخر عن محمد وعن آل محمد ﷺ][4].

الحديث الرابع: أخرج أحمد وأبو داود بسند صحيح عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: [أربعٌ لا تجوز في الأضاحي: العَوْراءُ البيِّنُ عَوَرُها ، والمريضة البيِّنُ مَرَضُها ، والعَرْجاءُ البيِّنُ ظَلَعُها ، والكسيرة التي لا تُنْقي][5].

والظلع: هو العرج ، والكسيرة: المنكسرة الرجل التي لا تقدر على المشي.

وقوله: «لا تنقي» من أنقىٰ إذا صار ذا نِقيٍ. فالمعنىٰ: التي ما بقي لها مخ من غاية العجف.

---

(1) جَمْع: المزدلفة.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1919) ـ كتاب المناسك. باب موضع الوقوف بعرفة.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5558) ، ومسلم (1966) ، وأبو داود (1794) ، وأخرجه أحمد في المسند (3/ 170) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(4) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (3122) ، كتاب الأضاحي. وانظر صحيح ابن ماجة (2531).

(5) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2802) ، والترمذي (1497) ، والنسائي (7/ 215) ، وابن ماجة (3144) ، وأحمد (4/ 284) ، ورجاله ثقات.

وقوله تعالىٰ: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ .

أي: لكم في هذه البدن منافع من الركوب عند الحاجة وشرب ألبانها عند الضرورة إلى أن تنحر ، وهو الأجل المسمىٰ ، ثم محلها ـ وهو وقت وجوب نحرها ـ انتهاؤه إلى البيت العتيق ، وهو الكعبة . وأقوال أئمة التفسير حول هذا المعنىٰ:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قال: ما لم يسمّ بدناً).

2 ـ قال مجاهد: (﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قال: الركوب واللبن والولد ، فإذا سميت بدنة أو هدياً ذهب كله). وقال: (لكم في ظهورها وألبانها وأوبارها ، حتىٰ تصير بُدْناً). أو قال: (في أشعارها وأوبارها وألبانها ، قبل أن تسميها بدنة). وفي لفظ: (قبل أن تسمىٰ هدياً).

3 ـ وعن عطاء قال: (منافع في ألبانها وظهورها وأوبارها ، إلى أجل مسمىٰ: إلى أن تقلد).

4 ـ وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها وإن كان هَدْياً ، إذا احتاج إلى ذلك.

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه: [أنّ النبي ﷺ رأىٰ رجلاً يسوقُ بَدَنَةً ، قال: «اركبْها» ، قال: إنّها بَدَنَةٌ. قال: «ارْكَبْها» ، قال: إنّها بَدَنَةٌ ، قال: «اركبها» ثلاثاً][1]. وفي لفظ: [فقال في الثالثة أو في الرابعة: ارْكَبْها وَيْلكَ أو وَيْحَك].

الحديث الثاني: روىٰ مسلم عن أنس قال: [مُرَّ على النبي ﷺ ببدنة أو هَدِيّة ، فقال: «اركبْها» قال: إنها بَدَنَةٌ أو هَدِيّةٌ ، فقال: «وإنْ»][2].

الحديث الثالث: خرّج مسلم في الصحيح عن أبي الزبير قال: سمعت جابر بن عبد الله سُئِلَ عَنْ رُكوبِ الهَدْيِ ؟ فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: [ارْكبْها بالمعروف إذا أُلْجِئْتَ إليها ، حتىٰ تجدَ ظَهْراً][3]. وفي لفظ: [اركبْها بالمعروف ، حتىٰ تجد ظهْراً].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1690) ، كتاب الحج ، وكذلك (2754) ـ (2755) ، كتاب الوصايا ، ورواه مسلم (2323) ، والترمذي (911) ، والنسائي (5/ 176) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1323) ، كتاب الحج ، في روايات مختلفة.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1324) ، كتاب الحج ، باب جواز ركوب البدنة المهداة لمن احتاج إليها ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

34 ـ 35. **قوله تعالىٰ**: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

في هذه الآيات: ذَبحُ المناسك وإراقة الدماء على اسم الله أمْرُ الله في جميع الأمم والبشرىٰ للمخبتين. الذين ذلّت قلوبهم لله بالخشوع وجوارحهم بأداء الصلاة وإيتاء الزكاة والصدقات وكانوا مع الصابرين.

فعن مجاهد: (﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ قال: إهراق الدماء ﴿ لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾ عليها).

وعن ابن عباس: (﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾، قال: عيداً). وقال عكرمة: (ذَبْحاً).

قال ابن كثير: (يخبر تعالىٰ أنه لم يزل ذبحُ المناسك وإراقة الدّماء على اسم الله مَشْروعاً في جميع المِلَل).

وقوله: ﴿ لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾.

قال القرطبي: (أي على ذبح ما رزقهم. فأمر تعالىٰ عند الذبح بذكره وأن يكون الذبح له، لأنه رازق ذلك. ثم رجع اللفظ من الخبر عن الأمم إلى إخبار الحاضرين بما معناه: فالإلٰه واحد لجميعكم، فكذلك الأمر في الذبيحة إنما ينبغي أن تخلص له).

وفي الصحيحين عن أنس قال: [ضحىٰ النبي ﷺ بكَبْشَينِ أمْلَحين، فرأيْتُه واضِعاً قدَمَهُ على صِفاحِهما يُسَمِّي ويكبِّرُ فَذَبَحهُما بيده][1].

فالسنة أن يذبح الرجل بيده إن تيسَّر، وأن يستقبل بذبيحته القبلة.

فقد روىٰ عبد الرزاق بسند صحيح عن ابن عمر: [أنه كان يكره أن يأكل ذبيحة ذبحت لغير القبلة][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5558)، كتاب الأضاحي، وأخرجه مسلم (1966)، وغيرهما.

(2) حديث صحيح. أخرجه عبد الرزاق (8585) بإسناد صحيح عنه. وانظر كتابي: الحج والعمرة على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (ص 50 ـ 52) لتفصيل أكبر.

فيضجعها على جانبها الأيسر ويضع قدمه اليمنىٰ على جانبها الأيمن. قال الحافظ في الفتح «10/ 16»: (ليكونَ أسهل على الذابح في أخذ السكين باليمين، وإمساك رأسها بيده اليسار).

وأما الإبل فالسنة أن ينحرها وهي قائمة معقولة اليسرىٰ قائمة على ما بقي من قوائمها ووجهها قِبَل القبلة، ويقول عند الذبح: (بسم الله والله أكبر، اللهم إنّ هذا منك ولك، اللهم تقبّل مني).

وقوله تعالىٰ: ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، لأن من البهائم ما ليس من الأنعام، كالخيل والبغال والحمير. وقيل: إنما قيل للبهائم بهائم لأنها لا تتكلم ـ ذكره ابن جرير.

وقوله: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾.

أي فلله إلهكم الحق اخضعوا وذلوا له بالعبودية والطاعة، وبشر ـ يا محمد ـ المنيبين لربهم المتواضعين لأمره المذعنين لطاعته، الخاشعين لذكره.

وعن مجاهد: (﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ قال: المطمئنين). أو قال: (المطمئنين إلى الله).

وقال قتادة: (المتواضعين). وقال عمرو بن أوس: (المخبتون: الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا). وقال السدي: (الوَجِلين). وقال الثوري: (﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾، قال: المطمئنين الراضِينَ بقضاء الله، المستسلمين له).

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. أي: خافت من تذكر عظمته قلوبهم، وهو أحسن التفسير للآية السابقة ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾. قال ابن زيد: (من شدة في أمر الله، ونالهم من مكروه في جنبه).

وقوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾. أي بأركانها وواجباتها ووضوئها وشروطها.

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

قال ابن زيد: (﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من الأموال ﴿يُنفِقُونَ﴾ في الواجب عليهم إنفاقها فيه في زكاة، ونفقة عيال، ومن وجبت عليه نفقته، وفي سبيل الله).

36 ـ 37. قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ

سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

في هذه الآيات: تشريعُ ذبح البدن وذِكْرُ اسم الله عليها مصطفة، وتذليل لحومها ولبنها وركوبها إنما هو فضل الله عليكم ـ أيها المؤمنون ـ لعلكم تشكرون. إنه لن يصل إلى الله لحمها ودمها وإنما يناله التقوىٰ منكم، ومن ذلك إتمام مناسككم، والبشرىٰ للمحسنين.

فعن عطاء: (﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ قال: البقرة، والبعير). وقال مجاهد: (إنما البُدْن من الإبل). قلت: فالبدن يشمل البقر والإبل، وهو من أفضل ما يهدىٰ إلى بيت الله الحرام. وقد صحّ أن النبي ﷺ جعل البقرة في الأضاحي عن سبعة، وكذلك البَدَنة، وإليه ذهب الإمام الشافعي، وكذلك الإمام أحمد في المشهور عنه.

ففي صحيح مسلم عن ابن عباس قال: [نحرنا مع رسول الله ﷺ عامَ الحديبية، البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة][1].

وأما إسحاق وغيره من الفقهاء فقد ذهبوا إلى أن البدنة تجزئ عن عشرة.

وفي التحقيق فإن البدنة تجزئ عن سبعة أو عشرة حسب حجمها. وعليه تدل مجموع الأحاديث، ومن ذلك:

الحديث الأول: أخرج البخاري عن رافع بن خديج: [أن رسول الله ﷺ قَسَمَ بينهم الغنائم، فعدل الجَزُور بِعَشْرِ شِياه][2].

الحديث الثاني: أخرج مسلم عن جابر قال: [خرجنا مع رسول الله ﷺ مُهِلِّينَ بالحج معنا النساءُ والولدانُ، فلما قدمنا مكة، طُفْنا بالبيت وبالصفا والمروة، وأمرنا رسولُ الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كُلُّ سبعة منا في بَدَنة][3].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد والنسائي بسند حسن عن ابن عباس قال: [كنّا

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1318)، كتاب الحج، ورواه البخاري وغيره من أهل السنن.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2507)، كتاب الشركة، باب من عدل عَشَرَةً من الغنم في القَسْم. وانظر كتابي: السيرة النبوية (3/ 1723) لتفصيل البحث.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1318)، كتاب الحج. باب الاشتراك في الهدي.

مع النبي ﷺ في سفر ، فحضَر الأضحىٰ ، فاشتركنا في البقرة سَبْعة ، وفي الجزور عشرة][1] .

وواضح أن أحاديث السبعة أكثر وأصح . قال ابن القيم : (وإما أن يُقال : عَدْلُ البعير بعشرة من الغنم ، تقويمٌ في الغنائم لأجل تعديل القِسمة ، وأما كونُه عن سبعة في الهدايا ، فهو تقدير شرعي ، وإما أن يُقال: إن ذلك يختلف باختلاف الأزمنة ، والأمكنة ، والإبل ، ففي بعضها كان البعير يعدل عشر شياه ، فجعله عن عشرة ، وفي بعضها يَعْدِلُ سبعة ، فجعله عن سبعة ، والله أعلم)[2] .

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ . قال مجاهد: (أجرٌ ومنافع). وقال إبراهيم النَخعِيُّ: (يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها).

وقوله : ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ . قال ابن عباس : (قياماً على ثلاث قوائم ، معقولةً يدُها اليسرىٰ ، يقول: «باسم الله والله أكبر ، اللهم منك ولك).

وقال مجاهد: (إذا عُقِلت رجلُها اليسرىٰ قامت على ثلاث). قال: (﴿صَوَافَّ﴾: تُصَفُّ بين يديها).

وفي قراءة لابن مسعود: «صوافن» ـ قال قتادة: (أي: مُعَقّلة قياماً). وفي قراءة طاووس والحسن: ﴿فاذكروا الله عليها صوافي﴾ ، يعني خالصةً لله عز وجل ، وكذلك رواه مالك عن الزهري. وقال عبد الرحمن بن زيد: («صوافي»: ليس فيها شِرْكٌ كَشِرْكِ الجاهلية لأصنامهم).

واختار ابن جرير القراءة المشهورة: ﴿صَوَافَّ﴾ بمعنىٰ مصطفة ، واحدها: صافة ، وقد صفت بين أيديها وهي المعقولة إحدىٰ قوائمها.

وقال القرطبي: (﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ أي انحروها على اسم الله ، و﴿صَوَافَّ﴾ أي قد صُفّت قوائمها. والإبل تُنحر قياماً معقولة. وأصل هذا الوصف في الخيل ، يقال: صَفَنَ الفرس فهو صافن إذا قام على ثلاث قوائم وثنىٰ سُنْبُك الرابعة ، والسّنبك طرف الحافر).

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (1/ 275) ، والنسائي (7/ 222) ، والترمذي (905).

(2) انظر: «زاد المعاد» (2/ 266 ـ 267) ، وكتابي: السيرة النبوية (3/ 1724).

وقد جاءت السنة العطرة بهذا المعنىٰ في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن زِيادِ بن جُبيرٍ قال: [رأَيْتُ ابنَ عمرَ رضي الله عنهما أتىٰ على رَجُلٍ قد أناخ بدنَتَهُ يَنْحَرُها، قال: ابعثها قياماً مُقَيَّدةً، سُنَّةَ محمدٍ ﷺ][1].

قال البخاري في كتاب الحج من صحيحه ـ باب نحرِ البُدْن قائمة ـ وقال ابن عمر رضي الله عنهما: سنة محمد ﷺ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿صَوَآفَّ﴾: قياماً.

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند حسن عن جابر: [أنَّ رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البُدْن معقولةَ اليُسْرىٰ، قائمة على ما بقي من قوائمها][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند جيد عن أبي رافع: [أنّ رسول الله ﷺ كان إذا ضحّىٰ اشترىٰ كبشين سمينين أقرنين أملحَين، فإذا صلىٰ وخطبَ الناس أُتي بأحدهما وهو قائم في مُصَلّاه فذَبحه بنَفْسِهِ بالمُدْية، ثم يقول: «اللهمّ، هذا عن أمتي جميعها، مَنْ شَهِدَ لك بالتوحيد وشَهدَ لي بالبلاغ». ثم يُؤتىٰ بالآخر فيذبحه بنفسه، ثم يقول: «هذا عن محمد وآل محمد» فيطعِمُها جميعاً المساكين، ويأكل هو وأهله منهما][3].

وقوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾. أي: إذا سقطت على جنوبها ميتة. فكنىٰ عن الموت بالسقوط. قال مجاهد: (﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ سقطت إلى الأرض).

أو قال: (نحرت). وقال ابن زيد: (فإذا ماتت). وقال ابن إسحاق: (إذا فرغت ونُحِرت).

والمقصود: لا يجوز الأكل من البدنة إذا نحرت حتىٰ تموت وتبرد حركتها، ولا بد من الإسراع في الذبح وتحديد الشفرة لئلا تُعَذّب البهيمة.

ففي صحيح مسلم عن شداد بن أوس قال: [ثِنْتان حَفِظْتُهُمَا عَنْ رسول الله ﷺ قال: إنَّ الله كتب الإحسانَ على كل شيء، فإذا قَتَلْتُمْ فأحِسنُوا القِتْلَةَ، وإذا ذَبَحْتُم فأحسنوا

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1713)، كتاب الحج. باب نحر الإبل مقيدة. وأخرجه مسلم (1320)، وأبو داود (1768)، وأحمد (2/ 3)، وابن حبان (5903) من حديث ابن عمر.

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود في السنن (1767)، ويشهد له ما قبله.

(3) أخرجه أحمد (6/ 8)، (6/ 391 ـ 392)، وأخرجه ابن ماجة كما مضىٰ، والحديث صحيح.

الذَّبْحَ ، وليُحِدَّ أحدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، فَليُرِحْ ذبيحته][1] .

وفي سنن أبي داود وابن ماجة بسند حسن عن أبي واقد اللَّيْثيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: [ما قُطِعَ من البهيمة وهي حَيَّةٌ فهو مَيْتَةٌ][2] .

وقوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ . قال مالك: (يستحب ذلك). فهو أمر إباحة لا وجوب.

وعن مجاهد: (هي رخصة. وقال: إن شاء أكل ، وإن شاء لم يأكل).

وقوله: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ ـ فيه أقوال متقاربة متكاملة:

1 ـ قال ابن عباس: (القانع: المستغني بما أعطيته ، وهو في بيته. والمعترّ: الذي يتعرَّض لك ، ويلمّ بك أن تطعمه من اللحم ولا يسأل ، وهؤلاء الذين أمر أن يطعموا من البدن).

2 ـ قال مجاهد: (القانع: جارك الذي يقنع بما أعطيته. والمعترّ: الذي يتعرّض لك ولا يسألك). وقال: (القانع: أهل مكة. والمعترّ: الذي يعتريك فيسألك).

3 ـ قال قتادة: (القانع: المتعفف الجالس في بيته ، والمعترّ: الذي يعتريك فيسألك).

وقد استدل بعض أهل العلم بهذه الآية: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ أنّ الأضحية تُجَزَّأُ ثلاثةَ أجزاء ، فثلث لصاحبها يأكله ، وثلث يهديه لأصحابه ، وثلث يتصدق به على الفقراء.

وفي صحيح البخاري من حديث سلمة بن الأكوع قال: قال النبي ﷺ: [مَنْ ضَحّىٰ منكم فلا يُصْبِحَنَّ بعدَ الثالثة وبَقِيَ في بيتِهِ منه شيء. فلما كان العامُ المقبلُ قالوا: يا رسول الله ، نفعلُ كما فعلنا العام الماضي ؟ قال: كلوا وأطعموا وادَّخِروا ، فإن ذلك العام كان بالناس جَهْدٌ فأَرَدْتُ أن تُعينوا فيها][3] .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1955) ، كتاب الصيد والذبائح. باب الأمر بإحسان الذبح والقتل ، وتحديد الشفرة.

(2) حسن صحيح. أخرجه أبو داود (2858) ، وابن ماجة (3216) ، والترمذي (1480) ، وأخرجه أحمد (5/ 218) ، والحاكم (4/ 239) وصححه ووافقه الذهبي.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (5569) ـ كتاب الأضاحي. وأخرجه ابن حبان في صحيحه (5929).

وفي لفظ مسلم: (فكلوا وادّخِروا وتصدقوا)[1]. وفي رواية: (كلوا وتزودوا وادّخروا).

وفي لفظ آخر: (كلوا وأطعموا واحْبِسوا أو ادّخِروا)[2].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: هذا التذليل من الله تعالىٰ لهذه البدن لكم: في ركوبها ولحومها ولبنها إنما هو فضل الله وكرمه عليكم لعلكم تحسنون شكره وعبادته.

وفي التنزيل نحو ذلك:

قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: 71 ـ 73].

ولكنْ: قليل من عباد الله هم الشاكرون، وأكثر الناس في غفلة عن نعم الله التي تغمرهم.

ففي المسند للإمام أحمد بسند صحيح عن عتبة بن عبد، عن النبي ﷺ قال: [لو أنَّ رجلاً يُجَرُّ على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرماً في مرضاة الله تعالىٰ لَحَقِرَهُ يوم القيامة][3].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة وعن أبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: [يؤتىٰ بالعبد يوم القيامة فيقول له: ألمْ أجْعل لك سَمْعاً وبَصَراً ومالاً وَوَلداً وسَخَّرْت لك الأنعام والحرث، وتركتُكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ، فكنتَ تَظُنُّ أنك ملاقِيَّ يَوْمَكَ هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني][4].

وقوله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾.

قال إبراهيم: (ما أريد به وجه الله). وهو كما قال ابن زيد: (إن اتقيت الله في هذه

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1971) ـ كتاب الأضاحي. وانظر للرواية الأخرىٰ (1972) منه.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1973) ـ كتاب الأضاحي، في ختام حديث أطول.

(3) حديث حسن. انظر صحيح الجامع (5125)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 675)، وكتابي: تحصيل السعادتين على منهج الوحيين (98 ـ 99) لتفصيل هذا البحث.

(4) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2558). أبواب صفة القيامة. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (1978)، وأصله في صحيح مسلم.

البُدن ، وعملت فيها لله ، وطلبت ما قال الله تعظيماً لشعائر الله ، ولحرمات الله).

وعن ابن جريج قال: (كان أهل الجاهلية ينضَحُون البيتَ بلُحوم الإبل ودِمَائها ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فنحن أحق أن ننضح. فأنزل الله تعالىٰ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم][1].

وفي رواية: [إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: كذلك سخّر الله لكم هذه البدن وذلّلها كي تعظموا الله على ما هداكم له من أمر دينكم وإتمام مناسك حجكم.

قال ابن زيد: (﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ﴾ قال: على ذبحها في تلك الأيام ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يقول: وبشّر يا محمد الذين أطاعوا الله فأحسنوا في طاعتهم إياه في الدنيا بالجنة في الآخرة).

38 ـ 41. **قوله تعالىٰ:** ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

في هذه الآيات: دفاعُ الله عن المؤمنين ، وسخطه على الخائنين الكافرين ، وتشريعُ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2564) (33) ، وأخرجه أيضاً برقم (34) ـ وهي الرواية الأخرىٰ.

القتال لإقامة هذا الدين ، ودفعُ الله الناس بعضهم ببعض لنصرة الحق المبين. والمؤمنون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر موعودون بالشوكة والتمكين.

فقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: إن الله يدفع غائلة المشركين عن الذين آمنوا بالله وبرسوله ، إنّ الله لا يحبّ كلّ خوّان يخون الله ، فيخالف أمره ونهيه ويعصيه ، ويطيع الشيطان ﴿ كَفُورٍ ﴾ يقول: جَحود لنعمه عنده ، لا يعرف لمنعمها حقه فيشكره عليها).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٖ قَدْرٗا ﴾ [الطلاق: 3].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ ﴾ [الزمر: 36].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ الله تعالىٰ قال: من عادىٰ لي وليّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبَّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينّه ، وإن استعاذني لأعيذنّه ، وما تردّدت عن شيء أنا فاعله تردّدي عن قبض نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته][1].

فمن كان ولياً لله آذن الله تعالىٰ من عاداه بالحرب ، وكان في عناية الله وحراسته.

وفي صحيح مسلم عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ صلّى صلاة الصبح فهو في ذِمَّة الله ، فلا يَطْلُبَنَّكُم الله من ذِمَّتِهِ بشيء ، فإنه من يَطْلُبْهُ من ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ يُدْرِكْهُ ، ثم يَكُبَّهُ على وجهه في نار جهنم][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (6502) ـ كتاب الرقاق ، باب التواضع.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (657) ـ كتاب المساجد ـ باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة ، من حديث جندب رضي الله عنه.

وقوله تعالىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

أخرج أحمد في المسند ورجاله رجال الصحيح، وكذلك الترمذي في السنن بسند صحيح عن ابن عباس قال: [لمّا خرجَ النبي ـ ﷺ ـ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيّهم! إنا لله وإنا إليه راجعون، لَيَهْلِكُنَّ. قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ قال أبو بكر رضي الله عنه: فعرفت أنه سيكون قتال. قال ابن عباس: (وهي أول آية نزلت في القتال)][1].

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾. قال ابن كثير: (أي: هو قادرٌ على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبلو جُهدَهم في طاعته، كما قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: 4 ـ 6]).

وعن ابن عباس: (﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ قال: وقد فعَل).

وفي التنزيل أيضاً:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 14 ـ 15].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 16].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 142].

4 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: 31].

أخرج الخطيب في «التاريخ» وبنحوه الإمام أحمد والحاكم بسند صحيح عن أنس

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3170)، والنسائي في «الكبرى» (11345)، وأخرجه ابن جرير (25254) ـ (25255)، وإسناده صحيح، ورواه أحمد والحاكم وغيرهم.

مرفوعاً: [النَّصْرُ مع الصَّبْرِ، والفَرَجُ مع الكَرْب، وإنَّ مع العُسْرِ يُسْراً][1].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾.

قال ابن عباس: (أُخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق، يعني محمداً وأصحابه).

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾.

أي: ما كان لهم من ذنب حين أخرجهم الكفار واضطروهم إلى الهجرة إلا أنهم أخلصوا التوحيد لله بقولهم: ربنا الله وحده لا شريك له، وأفردوه بالعبادة والتعظيم.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ [الممتحنة: 1].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [البروج: 8].

وفي صحيح البخاري من حديث أسامة بن زيد أنه قال زمن الفتح: يا رسول الله أين تنزل غداً؟ قال النبي ﷺ: [وهل ترك لنا عقيل مِنْ منزل][2].

وقوله: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾.

الصوامع: المعابد الصِّغار التي تخصّ الرهبان. قال مجاهد: (صوامع الرهبان). وقال الضحاك: (﴿لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ﴾ وهي الصوامع الصغار يبنونها).

والبيع أوسع من الصوامع، وأكثر عابدين فيها، وهي خاصة بالنصارىٰ أيضاً. وقيل بل هي كنائس اليهود.

قال الضحاك: (البيع: بيع النصارىٰ). وقال مجاهد: (﴿وَبِيَعٞ﴾ قال: وكنائس).

وقال ابن زيد: (البيع: الكنائس). وروي عن ابن عباس: (أنها كنائس اليهود).

والصلوات: قال ابن عباس: (يعني بالصلوات الكنائس). وقال الضحاك: (﴿وَصَلَوَٰتٞ﴾ كنائس اليهود، ويسمون الكنيسة صلوتاً). وقال أبو العالية: (هي مساجد الصابئين).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الخطيب في «التاريخ» (10/ 287)، والديلمي (4/ 111 ـ 112)، وانظر مسند أحمد (1/ 307)، ومستدرك الحاكم (3/ 541 ـ 542)، والسلسلة الصحيحة (2382).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4282) ـ كتاب المغازي. وانظر تفصيل البحث في كتابي: السيرة النبوية. (3/ 1276) ـ في أثناء فتح مكة.

وقال مجاهد: (﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ مساجد لأهل الكتاب ، ولأهل الإسلام بالطرق) ، والله تعالىٰ أعلم.

وقوله: ﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ قال رفيع: (مساجد المسلمين). وقال قتادة: (المساجد: مساجد المسلمين يذكر فيها اسم الله كثيراً).

وقوله: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾. قال الضحاك: (الجميع يذكر فيها اسم الله كثيراً).

وقيل: بل الضمير في قوله ﴿فِيهَا﴾ عائد إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات.

قال ابن جرير: (الصوابُ لَهُدِّمَت صوامع الرهبان وبِيَعُ النصارىٰ وصلواتُ اليهود ، وهي كنائسهم ، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسمُ الله كثيراً ، لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب). وقال بعض أهل العلم: (هذا تَرَقٍّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن ينتهي إلى المساجد ، وهي أكثر عُمَّاراً وأكثر عُبّاداً ، وهم ذوو القَصْدِ الصحيح).

والخلاصة: هذه سنة من سنن الله تعالىٰ في خلقه وعباده ، فإنه لولا أنه سبحانه يدفع عن قوم بقوم ، ويكشف شرَّ أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدّره من الأسباب والتصريف لشؤون وأحوال العباد ، لفسدت الأرض ، وأهلك القويّ الضعيف ، ولَبَالَغَ المتجبرون والطغاة في عتوهم وبطشهم ، ولكن إرادة الله وأقداره تكسرهم وتمنعهم.

وقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾.

سنة أخرىٰ من سنن الله تعالىٰ ، وهي في أوليائه وأتباع أنبيائه ورسله. فإنهم إن صدقوا الله تعالىٰ نَصْرَ دينه ، صَدَقَهُم الله جل ثناؤه النصرَ والتمكين.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: 51].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: 21].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: 7 ـ 8].

وفي مسند الإمام أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين عن عبد الرحمن بن

كعب بن مالك عن أبيه مرفوعاً إلى النبي ﷺ: [إن المؤمنَ يجاهدُ بسيفه ولسانه][1].

وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: [﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي، ألا إنّ القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي][2].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. أي: هو القوي فيمكن المؤمنين بقوته وجبروته ليقهروا عدوهم، وهو العزيز فكل الطغاة مقهورون بعزته مهزومون بكبريائه أذلاء تحت حكمه وقضائه.

وقوله: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾. هو غاية التمكين، ومنهاج المؤمنين، فإن في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إقامة للدين.

قال أبو العالية: (كان أمرهم بالمعروف أنهم دعوا إلى الإخلاص لله وحده، لا شريك له، ونهيهم عن المنكر، أنهم نهوا عن عبادة الأوثان، وعبادة الشياطين، قال: فمن دعا إلى الله من الناس كلهم، فقد أمر بالمعروف، ومن نهىٰ عن عبادة الأوثان وعبادة الشيطان، فقد نهىٰ عن المنكر).

وفي التنزيل:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ﴾ [النور: 55].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾. قال زيد بن أسلم: (وعند الله ثواب ما صنعوا).

قال ابن جرير: (يقول: ولله آخر أمور الخلق، يعني: أن إليه مصيرها في الثواب عليها، والعقاب في الدار الآخرة).

وفي التنزيل:

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83]، ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 35].

وفي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً: [من أَحْسَنَ في

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (6/ 387)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1631).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم والترمذي. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1102).

الإسلام لم يُؤاخذ بما عمِلَ في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أُخِذَ بالأول والآخر][1] .

42 ـ 46. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ۝﴾ .

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالىٰ عن تكذيب الأمم المرسلين ، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم ، وقوم لوط وكذلك كُذِّبَ موسىٰ رغم الحجج البينات ، والأدلة القاطعات الواضحات ، فأملىٰ تعالىٰ للكافرين ، ثم أخذهم بعذاب مهين. إنه كم من قرية كذَّبَ أهلها فنزل بها العذاب ، فإذا هي خراب ، وبئر لا يُستسقىٰ منها ولا يردها أحد ، وقد كانت تعج بالواردين ، وَقَصْرٍ محكم البنيان ، لم يمنع أهله من الخزي والخذلان. أفلم يبصر هؤلاء المكذبون أثناء تحركهم في الأرض مصارع أمثالهم من الأمم المكذبة الزائلة ، فإنها لا تعمىٰ الأبصار ولكن تعمىٰ القلوب التي في الصدور.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ الآية.

تسلية من الله سبحانه لنبيه محمد ﷺ عما يلقاه من أذىٰ قومه وتكذيبهم له ، وإخباره أن هذا الموقف الساقط الذي يواجه به قومه ما يأتيهم من الحق والحجة والبرهان إنما هو سنة إخوانهم من الأمم الخالية المكذبة مع رسل الله إليهم.

وقوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: فأمهلت لأهل الكفر بالله من هذه الأمم ، فلم أعاجلهم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6921) ـ كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم ـ ، ورواه مسلم في الصحيح (120) ح (190) ـ كتاب الإيمان ـ باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية.

بالنقمة والعذاب ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ يقول: ثم أحللت بهم العقاب بعد الإملاء ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يقول: فانظر يا محمد كيف كان تغييري ما كان بهم من نعمة ، وتنكري لهم عما كنت عليه من الإحسان إليهم ، ألم أبدلهم بالكثرة قلة ، وبالحياة موتاً وهلاكاً ، وبالعمارة خراباً ؟ يقول: فكذلك فعلي بمكذّبيك من قريش ، وإن أمليت لهم إلى آجالهم ، فإني مُنْجِزك وعدي فيهم ، كما أنجزت غيرك من رسلي وعدي في أممهم ، فأهلكناهم ، وأنجيتهم من بين أظهرهم).

وفي الصحيحين عن أبي موسىٰ رضي الله تعالىٰ عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ الله لَيُمْلي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يُفْلِته. قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]][1].

وقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾.

أي: وكم ـ يا محمد ـ من قرية أهلكتها وهي مكذبة لرسولها ، وتقوم على الكفر وفعل المعصية.

وقوله: ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾. قال الضحاك: (خواؤها: خرابها ، وعروشها: سقوفها).

وقال قتادة: (﴿خَاوِيَةٌ﴾: خربة ليس فيها أحد).

وقوله: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾. أي: لا يُستقىٰ منها ، ولا يرِدُها أحد بعد أن كانت تعجّ بكثرة الواردين لها ، والمزدحمين على السقاية منها.

وعن عطاء عن ابن عباس: (﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ قال: التي تُرِكت ، وقال غيره: لا أهل لها).

وعن قتادة قال: (عطلها أهلها ، تركوها).

وقوله: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ ـ فيه أقوال متقاربة:

1 ـ عن عكرمة: (﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ قال: مُجَصَّص). قال: (والجصّ بالمدينة يسمىٰ الشِّيد).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686) ، ومسلم (2583) ، والترمذي (3110) ، والبيهقي (6/ 94) ، وأخرجه ابن ماجة (4018) ، وابن حبان (5175).

2 ـ وعن مجاهد: (﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ قال: بالقِصَّة أو الفضة). وقال: (بالقصّة يعني بالجصّ).

3 ـ قال قتادة: (كان أهله شيّدوه وحصَّنوه، فهلكوا وتركوه). وقال الضحاك: (﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ يقول: طويل).

وكلها أقوال محتملة، وإنما العبرة من كل ما سبق أن شدة البناء والإحكام والتحصين والارتفاع لم تحم أهل القصر والبنيان من حلول بأس الله ونقمته بهم لما جاء أجلهم وحان وقت عذابهم مقابل تكذيبهم وبغيهم.

وقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: أفلم يسيروا ـ هؤلاء المكذبون رسلهم الجاحدون قدرة ربهم على إحداث التغيير والدمار ـ فينظروا إلى مصارع ضربائهم وأمثالهم من الأمم الماضية المكذّبة الزائلة.

وقوله: ﴿فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ﴾.

قال النسفي: (أي يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد ونحوه، ويسمعون ما يجب سماعه من الوحي).

وقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

قال ابن كثير: (أي: ليس العمىٰ عمىٰ البصر، وإنما العمىٰ عمىٰ البصيرة، وإن كانت القوة الباصرةُ سليمةً فإنها لا تنفذ إلى العِبَر، ولا تدري ما الخبر).

فائدة: القلب مركز التفكير والفقه، وليس العقل الذي في الدماغ.

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: 179].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: 46].

والحق أن الدماغ هو متأثر بالقلب الذي هو من جهة: مركز حياة الأبدان وموجه حركتها، وبتعطله تتعطل الحياة. ومن جهة ثانية: فهو مركز الفكر والعقل والفقه والوعي والفهم.

وفي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير مرفوعاً: [ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسدَ الجسد كلّه، ألا وهي القلب][1].

47 ـ 51. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

في هذه الآيات: استعجالُ المشركين العذاب ولن يخلف الله وعده في الانتقام منهم، وإن مقدار ألف سنة عند خَلْقِه كيوم واحدٍ عنده بالنسبة إلى حكمه. إنه كم من قرية طغىٰ أهلها فكان إنظارهم ثم نزول العذاب بهم وإلى الله المصير. قل ـ يا محمد ـ معلناً للناس أنك نذير مبين، فالمؤمنون لهم مغفرة لذنوبهم وهم في جنات النعيم، والكافرون ليسوا معجزين ولهم عذاب الجحيم.

فقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾. أي: استهزاء وكبراً. **والمقصود:** طغاة مكة الذين كذبوا النبوة وجحدوا الدار الآخرة.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: 32].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: 53].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: 16].

وفي مسند الإمام أحمد بإسناد قوي عن عقبة بن عامر مرفوعاً: [إذا رأيت الله يعطي

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (52)، كتاب الإيمان. وكذلك (2051)، ورواه مسلم. وانظر تفصيل البحث ـ العلاقة بين الروح والقلب والنفس والعقل ـ في كتابي: تحصيل السعادتين على منهج الوحيين (198 ـ 212).

العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج. ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾][1].

وقوله: ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ ـ عام في أوليائه وأعدائه.

قال ابن جرير: (ولن يخلف الله وعده الذي وعدك فيهم، من إحلال عذابه ونقمته بهم في عاجل الدنيا، ففعل ذلك، ووفىٰ لهم بما وعدهم، فقتلهم يوم بدر).

قلت: ووعد الله تعالىٰ في الانتقام من أعدائه لا يقتصر على الدنيا، بل يشمل خزي يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

قال ابن عباس: (من الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض). وقال النسفي: (أي كيف يستعجلون بعذاب من يوم واحد من أيام عذابه في طول ألف سنة من سنيكم لأن أيام الشدائد طوال).

قال ابن كثير: (أي: هو تعالىٰ لا يعجَلُ، فإنَّ مقدارَ ألفِ سنةٍ عند خَلْقِهِ كيوم واحدٍ عنده بالنسبة إلى حُكمِهِ، لعِلْمِهِ بأنَّهُ على الانتقام قادر، وأنه لا يفوتُه شيء، وإن أجَّلَ وأنْظَرَ وأمْلَى).

وفي جامع الترمذي ومسند أحمد بسند حسن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [يدخلُ فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمس مئة عام][2].

وفي سنن أبي داود بسند صحيح عن سعد بن أبي وقاص: [أن النبي ﷺ قال: إني لأرجو، أنْ لا تعجزَ أمتي عند ربها أن يؤخرهم نِصفَ يوم. قيل لسعد: وكم نصف ذلك اليوم؟ قال: خمس مئة سنة][3].

وله شاهد عنده من حديث أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله ﷺ: [لَنْ يُعْجزَ الله هذه الأمةَ من نصف يوم][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 145)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (414).

(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي في الجامع (2353) ـ (2354)، وأحمد في المسند (2/ 296)، والنسائي في «الكبرىٰ» (11348)، وابن حبان (676).

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4350)، كتاب الملاحم. وانظر صحيح سنن أبي داود (3656).

(4) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4349)، كتاب الملاحم، باب قيام الساعة، من حديث أبي ثعلبة الخشني. انظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (3655).

وأخرج ابن جرير بسنده إلى أبي نَضْرَة ، عن سُمَير بن نَهار قال: قال أبو هريرة: (يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم. قلت: وما نصف يوم ؟ قال: أو ما تقرأ القرآن ؟ قلت: بلىٰ. قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾)[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

قال النسفي: (أي: وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حيناً ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ أي المرجع إلي فلا يفوتني شيء).

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

ردٌّ على كفار مكة حين سألوا رسول الله ﷺ تعجيل العذاب ، فأخبرهم أنه إنما عليه النذارة وليس إليه أمر العقاب ، فالله يحكم ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: 41].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

قال ابن جريج: (الجنة). فإن أهل الإيمان والعمل الصالح موعودون من ربهم بستر ذنوبهم ومضاعفة حسناتهم.

قال محمد بن كعب القرظي: (إذا سمعت الله تعالىٰ يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ، فهو الجنة).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

1 ـ قرأ قراء المدينة والكوفة «معاجزين».

قال ابن عباس: («معاجزين»: مشاقّين) ، أو قال: (مراغمين). وعن قتادة قال: (كذّبوا بآيات الله ، فظنوا أنهم يُعجزون الله ، ولن يعجزوه).

2 ـ وقرأ بعض قراء مكة والبصرة: «مُعَجِّزين» أي عَجَّزوا الناس وثَبَّطوهم عن اتباع رسول الله ﷺ وعن الإيمان بالقرآن. قال مجاهد: (قوله: «مُعَجِّزين»: مُبَطِّئين ، يُبَطِّئُونَ الناس عن اتباع النبي ﷺ).

والقراءتان مشهورتان في الأمصار ، والمعنىٰ متقارب ، فإن المكذبين بآيات الله

(1) موقوف في حكم المرفوع. رواه ابن جرير في «التفسير» ، ويشهد له حديث الترمذي (2353).

ووعده ووعيده يحسبون أنهم يفلتون من حكم الله ويحاربون أولياءه ويصدون الناس عن سبيل الله ، ونار الجحيم تنتظرهم لتكون مستقرهم ومآلهم .

52 ـ 54. **قوله تعالىٰ** : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : إبطالُ الله وساوس وأماني الشيطان من دعوة الرسل ، وجعل تلك الأماني والوساوس فتنة للشاكين المنافقين والقاسية قلوبهم ، ففي إنزال الله آيات القرآن ونسخ ما ألقىٰ الشيطان تثبيت للمؤمنين ، ودحض لأمنيات المبطلين ، والله يهدي المؤمنين إلى صراط مستقيم .

فقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ الآية .

قال البخاري : (وقال ابن عباس في ﴿ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ : إذا حَدَّثَ ألقىٰ الشيطان في حديثه ، فيُبْطِلُ الله ما يُلقي الشيطان ويُحْكِمُ آياته ، ويُقال أُمْنِيَّتُهُ قِراءتُه ، ﴿ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴾ [البقرة: 78]: يقرؤون ولا يكتبون)[1] .

وقال القاسمي : (﴿ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ ﴾ أي رغب في انتشار دعوته ، وسرعة علوّ شرعته ﴿ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ أي بما يصد عنها ، ويصرف المدعوّين عن إجابتها ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي يبطله ويمحقه ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ ﴾ أي يثبتها ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ . ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ يعلم الإلقاءات الشيطانية ، وطريق نسخها من وجه وحيه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يحكم آياته بحكمته) .

قلت : وأما ما ذكر المفسّرون عند هذه الآية من قصة الغرانيق : أن رسول الله ﷺ

(1) انظر صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، سورة الحج ، الحاشية .

مدح أصنام الكفار بقوله: «تلك الغرانيق العُلا ، وإن شفاعتهن لترتجىٰ» فهو كذب وافتراء وباطل. ويبدو أنه من صنع المشركين الذين لم يتمالكوا عند سماع سورة النجم يتلوها رسول الله ﷺ عند الكعبة إلا أن خرّوا ساجدين.

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: [أَنَّ النبي ﷺ سجدَ بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس][1].

وكذلك أخرج البخاري من طريق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [قرأ النبي ﷺ النجم بمكة ، فسجد فيها وسجد من معه غيرَ شيخ ، أخذ كفاً من حصىٰ ، أو تراب ، فرفعه إلى جبهته ، وقال يكفيني هذا ، فرأيته بعد ذلك قُتِلَ كافراً][2].

والذي يظهر في التحقيق أنه لما توالىٰ على الذين سجدوا من المشركين اللوم والعتاب ممن لم يحضر من رفاقهم وعشائرهم ، لجؤوا إلى الكذب والافتراء وزعموا أن رسول الله ﷺ مدح أصنامهم فسجدوا لذلك. ثم إن القصة لا تثبت من الجهة الحديثية ، فإن أسانيدها مظلمة يحطم بعضها بعضاً[3] ، فضلاً عن أنها مرفوضة متناً لاصطدامها مع العصمة النبوية ، في قضية الوحي والتوحيد والأمور الإيمانية الشرعية.

وقوله: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾.

قال ابن جريج: (يقول: وللذين قست قلوبهم عن الإيمان بالله ، فلا تلين ولا ترعوي، وهم المشركون بالله). وقال: (﴿ لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ : هم المنافقون).

والآية تشير إلى بعض مقتضيات حكمته تعالىٰ من ذلك أنه يجعل هذا الإلقاء

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1071) ـ كتاب الكسوف ، وكذلك في كتاب سجود القرآن.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1070) ـ الكتاب السابق. وانظر تفصيل البحث في كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (1/ 310 ـ 311).

(3) قال ابن كثير: (وكلها مرسلات ومنقطعات). فالزنادقة ـ فيما يبدو ـ ركبوا الأسانيد إلى التابعين بل وصل به بعضهم إلى ابن عباس. وقد حكم ببطلان قصة الغرانيق ، أبو بكر بن العربي ، والشوكاني ، والبيهقي ، وابن إسحاق صَاحب السيرة حيث سئل عن هذه القصة فقال: هذا من وضع الزنادقة. نقله عنه أبو حيان في البحر. وقال أبو منصور الماتريدي: (هذا الخبر من إيحاء الشيطان إلى أوليائه الزنادقة). وجمع الألباني رسالة في بطلان طرق هذا الخبر سماها: «نصب المجانيق في نسف قصة الغرانيق».

الشيطاني فتنة للشاكين المنافقين والقاسية قلوبهم عن قبول الحق ، ابتلاء لهم ليزدادوا عتواً وإثماً ، ورحمة للمؤمنين ليزدادوا يقيناً وثباتاً .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ . أي : في ضياع وضلال ومخالفة وعناد عن قبول الحق والإذعان إليه .

وقوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ . هو إخبار من الله تعالىٰ عن بعض حكمته من إنزال آيات القرآن ، في دحض أمنيات الشيطان . قال ابن جريج : (﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ : يعني القرآن) .

قال ابن جرير : (يقول تعالىٰ ذكره : وكي يعلم أهل العلم بالله أن الذي أنزله الله من آياته التي أحكمها لرسوله ، ونسخ ما ألقىٰ الشيطان فيه ، أنه الحق من عند ربك يا محمد ، ﴿ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ ﴾ : يقول : فيصدقوا به ، ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ : يقول : فتخضع للقرآن قلوبهم ، وتذعن بالتصديق به ، والإقرار بما فيه) .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

يدل على هداية التوفيق والإلهام ، للثبات على الحق والإيمان ، ضد محاولات كيد الشيطان .

قال النسفي : (فيتأولون ما تشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة ، ويطلبون لما أشكل منه المحمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة) .

أخرج البيهقي بسند حسن عن إبراهيم بن عبد الرحمن العُذري قال : قال رسول الله ﷺ : [يحمل هذا العلم من كل خلف عُدولُه ، ينفون عنه تحريفَ الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين][(1)] .

55 ـ 57. قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ

(1) الحديث روي موصولاً من طريق جماعة من الصحابة ، وصحح بعض طرقه الحافظ العلائي . انظر تفصيل ذلك في كتابي : أصل الدين والإيمان (1/ 269) .

فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

في هذه الآيات: استمرارُ الكفار في الشك والريب من هذا القرآن حتىٰ تنزل بهم ساعة النقمة فجأة أو عذاب يوم القيامة. إنه في ذلك اليوم يتفرد الله تعالىٰ بالملك والحكم فالمؤمنون في جنات النعيم، والكفار في شقاء الجحيم.

فعن ابن جريج: (﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ قال: من القرآن).

أي: لا يزال الكفار في شك وريب من هذا القرآن الذي أحكم الله آياته. واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾. أي حتىٰ تأتيهم ساعة النقمةِ فجأة، فيحلّ بهم بأس الله وسخطه. قال مجاهد: (﴿بَغْتَةً﴾: فجأة). وقال قتادة (﴿بَغْتَةً﴾، بَغَتَ القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قوماً قطّ إلا عند سكرتهم وَغِرَّتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغْتَرُّ بالله إلا القوم الفاسقون).

وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾. قال مجاهد: (قال أبي بن كعب: هو يوم بدر) ـ واختاره ابن جرير. وقال مجاهد ـ في رواية أخرىٰ ـ وعكرمة: (هو يومُ القيامة لا ليلةَ له).

قلت: والسياق يدل على القول الثاني، وهو وعيد القيامة وما يكون من الهول والمصيبة على الكفار في ذلك اليوم العقيم، ولذلك قال تعالىٰ في الآية بعدها: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾. واختاره الحافظ ابن كثير وقال: (وهذا القولُ هو الصحيح ـ يشير إلى قول عكرمة ومجاهد ـ وإن كان يوم بدر من جُملة ما أوعدوا به).

وقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾. أي السلطان والحكم لله يوم يحشر الناس، ويوضع الميزان، ويكون القصاص.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: 4].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: 26].

ومن كنوز السنة العطرة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الحاكم بسند جيد عن سلمان، عن النبي ﷺ، قال: [يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت، فتقول الملائكة: يا رب: لِمَنْ يَزِنُ هذا؟ فيقول الله تعالىٰ: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانَك ما عبدناك حقّ عبادتك. ويوضع الصراط مثل حد الموسى فتقول الملائكة: من تجيز على هذا؟ فيقول: من شئت من خلقي. فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك][1].

الحديث الثاني: خرّج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة مرفوعاً: [لتؤدُّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتىٰ يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء][2].

الحديث الثالث: أخرج أحمد في المسند بسند صحيح عن أبي هريرة مرفوعاً: [يقتص الخلق بعضهم من بعض حتىٰ الجماء من القرناء، وحتىٰ الذرة من الذرة][3].

ورواه من طريق أبي حجيرة عنه مرفوعاً بلفظ: [ألا والذي نفسي بيده، ليختصمن كل شيء يوم القيامة حتىٰ الشاتان فيما انتطحتا][4].

وفيه من حديث أبي ذر قال: [رأىٰ رسول الله ﷺ شاتين تنتطحان، فقال: يا أبا ذر! أتدري فيمَ تنتطحان؟ قلت: لا، قال: ولكن ربك يدري، وسيقضي بينهما يوم القيامة][5].

الحديث الرابع: أخرج الشيخان عن عائشة: [أن النبي ﷺ قال: ليس أحد يحاسَبُ يومَ القيامة إلا هلك. قلت: أوليس يقول الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ فقال: إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش في الحساب يهلك][6].

---

(1) حديث صحيح. رواه الحاكم (4/ 586)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (941).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم وبعض أهل السنن. انظر مختصر صحيح مسلم (1837).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 363)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (1967).

(4) إسناده حسن. أخرجه أحمد في المسند (2/ 290)، وانظر الصحيحة ج (3) ص (609).

(5) أخرجه أحمد (5/ 162)، وانظر تفصيل البحث في كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 742).

(6) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4939)، وأخرجه مسلم (2876)، وغيرهما.

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

نعتٌ لِمُسْتَحِقّي جنات الخلد والنعيم المقيم، إنهم المؤمنون على منهاج النبوة، أهل العمل الصالح والمسابقة في الخيرات.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

نَعْتٌ لِمُسْتَحِقّي صلي الجحيم والعذاب المهين، إنهم الذين كفروا بالوحي وكذبوا النبوة. فإن جَزاء الاستكبار عن الإيمان بالله وحده ومتابعة الرسل هو نار جهنم.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 56].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60].

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يُساقون إلى سجن في جهنم يسمىٰ بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسْقون من عُصارة أهل النار، طينةِ الخبال][1].

58 ـ 60. قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60)﴾.

في هذه الآيات: ثناءُ الله تعالىٰ على المهاجرين والمجاهدين ووعدهم الرزق الحسن وخير المنازل إذا قضوا في سبيل الله والله خير الرازقين. ووعدٌ لِمَنْ بُغِيَ عليه من المؤمنين فأخرجوا من ديارهم بانتصار الله لهم من المشركين الظالمين.

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي وأحمد. انظر صحيح سنن الترمذي (2025)، وتخريج المشكاة (5112)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (7896).

فقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ ﴾.

فيه أجر مفارقة العشائر والأوطان، والأهلين والخلّان، لإعلاء كلمة الحق ودين الرحمن، ولو كان ثمن ذلك الأرواح والأبدان.

قال النسفي: (﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ خرجوا من أوطانهم مجاهدين ﴿ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ ﴾ في الجهاد ﴿ أَوْ مَاتُواْ ﴾ حتف أنفهم ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ ﴾ قيل الرزق الحسن الذي لا ينقطع أبداً).

وقد حفلت السنة العطرة بآفاق هذا الرزق الحسن في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة: أنّ رسول الله ﷺ قال: [تَكَفَّلَ الله لِمَنْ جَاهَدَ في سبيله، لا يُخْرِجُهُ إلا الجهادُ في سبيله وتصديقُ كَلِماتِه، بأنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ أو يرجِعَهُ إلى مَسْكَنِهِ الذي خرجَ منه مع ما نالَ من أجْرٍ أو غنيمة][(1)].

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [انتدب الله لِمَنْ خرجَ في سبيله لا يُخْرجُه إلا إيمانٌ بي وتصديقٌ بِرُسُلي أنْ أَرْجِعَهُ بما نالَ مِنْ أَجْرٍ أو غنيمة أو أدخِلَهُ الجنة، ولولا أَنْ أَشقَّ على أمتي ما قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيّةٍ، وَلَوَدِدْتُ أني أقتل في سبيل الله، ثم أُحْيَا، ثم أُقْتَلُ ثم أُحْيَا ثم أقتلُ][(2)].

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي أمامة الباهلي، عن رسول الله ﷺ قال: [ثلاثة كُلّهم ضامِنٌ على الله عز وجل، رجلٌ خرج غازياً في سبيل الله، فهو ضامن على الله حتىٰ يتوفاه فيدخله الجنة، أو يرده بما نال من أجر وغنيمة، ورجل راح إلى المسجد فهو ضامن على الله حتىٰ يتوفاه فيدخله الجنة أو يرده بما نال من أجر وغنيمة، ورجل دخل بيته بسلام فهو ضامن على الله عز وجل][(3)].

وقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: وإن الله لهو خير من بسط فضله على أهل طاعته وأكرمهم).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7457)، كتاب التوحيد، ورواه مسلم وغيره.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (36)، كتاب الإيمان، باب: الجهادُ من الإيمان. وانظر الحديث (2787)، (2797)، (7227) منه.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2494)، كتاب الجهاد، وانظر صحيح سنن أبي داود (2178).

وقال النسفي: (﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لأنه المخترع للخلق بلا مثال، المتكفل للرزق بلا ملال).

يروي ابن جرير في التفسير، وكذلك ابن أبي حاتم ـ واللفظ له ـ قال: (حَدّثنا أبو زُرْعةَ، حدثنا زيد بن بِشْر، أخبرني همَامٌ، أنه سمع أبا قبيل وربيعةَ بنَ سَيْفٍ المَعَافِرِيَّ يقولان: كنا بِرودِسَ، ومعنا فَضالةُ بن عُبَيد الأنصاري صاحبُ رسول الله ﷺ فَمُرَّ بجنازتين، إحداهما قتيل والأُخرىٰ مُتوفّى، فمال الناسُ على القتيل، فقال فَضالة: مالي أرىٰ الناسَ مالُوا معَ هذا وتركوا هذا ؟! فقالوا: هذا قتيلٌ في سبيل الله تعالىٰ. فقال: والله ما أُبالي من أيِّ حُفْرتَيْهما بُعِثْتُ، اسمعوا كتاب الله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾).

وقوله: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۚ﴾ ـ أي الجنان. وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾. قال ابن عباس: (عليم بنياتهم، حليم عن عقابهم).

وقوله: ﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾.

وعدٌ من الله تعالىٰ المؤمنين بالنصر على المشركين الذين بغوا عليهم فأخرجوهم من ديارهم.

قال القرطبي: (﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ أي بالكلام والإزعاج من وطنه، وذلك أن المشركين كذّبوا نَبيّهم وآذوا مَنْ آمن به وأخرجوه وأخرجوهم من مكة، وظاهروا على إخراجهم ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ أي لينصرنَّ الله محمداً ﷺ وأصحابه، فإن الكفار بغوا عليهم).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

أي: إنه تعالىٰ ذو عفو وصفح عمن انتصر من ظالمه، غفور لما صَدَر من انتصاره مِمَّن ظَلَمه مثل ما فُعِل به من الظلم.

61 ـ 62. قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ

ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ .

في هذه الآيات: رَبْطُ نصر الله الغائب الموعود ، بقدرته في هذا الكون المشهود ، والله هو الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال ، سبحانه هو السميع البصير العلي الكبير .

فقوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ .

أي : ذلك النصر للمظلوم ممن بغىٰ عليه هو بعض ما يجريه الله تعالىٰ في هذا الكون من التدبير ، فهو القادر على كل شيء ، ومن آيات قدرته إيلاج الليل في النهار ، والنهار في الليل : أي إدخاله مِنْ هذا في هذا ، ومِنْ هذا في هذا ، فتارة يطولُ الليل ويقصر النهار كما هو في الشتاء ، وتارة يطولُ النهار ويقصر الليل كما هو في الصيف ، ذلك بأنه خالق الليل والنهار ومصرفهما .

وقوله : ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ .

قال النسفي : (فلا يخفىٰ عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر والبغي والإنصاف ، وأنه سميع لما يقولون ولا يشغله سمع عن سمع ، وإن اختلفت في النهار الأصوات بفنون اللغات ، بصير بما يفعلون ولا يستتر عنه شيء بشيء في الليالي ، وإن توالت الظلمات) .

وقوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ . أي : الإلـه الحق الذي لا تصلح العبادة إلا له ، ولا ينبغي التعظيم إلا إليه ، فهو الخالق الواحد الأحد المهيمن القهار .

وقوله : ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ .

أي : إنَّ كل ما عُبِدَ مِنْ غير الله باطل ، من الأصنام والأوثان والطواغيت والشياطين .

وقوله : ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ .

قال ابن جرير : (﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ ذو العلوّ على كل شيء ، هو فوق كل شيء ، وكل شيء دونه . ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ يعني العظيم ، الذي كل شيء دونه ، ولا شيء أعظم منه) .

وفي التنزيل من أدلة العلو :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا

يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ [النحل: 49 ـ 50].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: 4].

ومن صحيح السنة العطرة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري عن أنس: أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: [زَوَّجَكُنَّ أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات].

وفي لفظ: [إنّ الله أنكحني في السماء].

وفي رواية: [زوجنيك الرحمن من فوق عرشه][1].

الحديث الثاني: خَرَّجَ مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [ألا تأمنوني وأنا أمين مَنْ في السماء؟ يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً][2].

الحديث الثالث: أخرج الحاكم بسند صحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [اتقوا دعوة المظلوم، فإنها تصعد إلى الله كأنها شرارة][3].

وأما ﴿الْكَبِيرُ﴾: فهو الموصوف بالجلال وكبر الشأن:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: 9].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: 12].

فالله تعالىٰ هو الكبير لأنه أكبر من كل شيء، والمتعال: لأنه علا كل شيء وقهره وأحاط بكل شيء علماً، فهو الذي خضعت له الرقاب ودان له العباد طوعاً وكرهاً.

63 ـ 66. قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «التوحيد»، والترمذي (2/ 210)، وأحمد (3/ 226).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري ومسلم في أثناء حديث طويل. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (514) ص (140).

(3) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (1/ 29)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (871).

ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالىٰ عن عجائب آياته في هذا الكون، من إنزاله الماء واخضرار الزرع، وتسخيره ما في الأرض والفلك تجري في البحر، وحمله السماء أن تقع على الأرض وإحياؤه الموتىٰ، ولكن الإنسان كفور.

فقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾.

دلالة جديدة على قدرة الله وعظيم سلطانه، فهو الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً، فينزل الماء على الأرض اليابسة المحلة فتصبح خضراء عُقيب المطر قد أخرجت نباتها بإذن ربها.

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ [الزمر: 21].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾. أي: لطيف باستخراج النبات من الأرض، خبير بحاجة العباد وفاقتهم.

قال ابن عباس: (﴿خَبِيرٌ﴾ بما ينطوي عليه العبد من القنوط عند تأخير المطر. ﴿لَطِيفٌ﴾ بأرزاق عباده).

وقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. قال القرطبي: (خلقاً وملكاً، وكلٌّ محتاج إلى تدبيره وإتقانه).

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾. أي: الغني في كل شيء، المحمود على كل حال.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ذِكْرٌ لنعمة أخرىٰ مما امتن الله به على عباده، فقد سخّر لعباده ما يحتاجون إليه من الدواب والشجر والأنهار وغير ذلك.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: [خلق الله

التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبثَّ فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة ، في آخر الخلق ، في آخر ساعةٍ من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل][1] .

وقوله : ﴿ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ .

أي : وكذلك سَخَّرَ لكم الفلك تجري في البحر بأمره ، ولكم من جَرْيها منافع كثيرة ، في النقل والتجارة والأسفار .

وقوله : ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ ـ هو كقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر : 41] .

قال ابن كثير : (أي : لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض ، فهَلك مَنْ فيها ، ولكن من لُطْفِهِ ورحمته وقدرته ، يُمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

أي : إنه تعالىٰ رحيم بعباده رغم ذنوبهم وظلمهم ، فكل ما سبق بعض أفضاله وآلائه فيهم : من ألوان التسخير الكثيرة ، وإمساك السماوات لئلا تقع عليهم ، وغير ذلك من النعم وألوان الرزق التي تدل على رأفته سبحانه بهم .

وفي التنزيل :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الرعد : 6] .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ ﴾ [النحل : 16] .

وفي صحيح البخاري عن أبي موسىٰ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [لَيْسَ أحدٌ أصْبَرَ على أذى سَمِعَه من الله ، إنهم ليدعون له ولداً ، وإنه ليعافيهم ويرزقهم][2] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2789) ، كتاب صفات المنافقين . باب ابتداء الخلق ، وخلق آدم عليه السلام .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (6099) ، كتاب الأدب ، باب الصبر في الأذىٰ ، من حديث أبي موسىٰ . وكذلك (7378) .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر مرفوعاً إلى النبي ﷺ ـ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالىٰ ـ قال: [يا عبادي ! إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم] الحديث[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴾.

قال النسفي: (﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ﴾ في أرحام أمهاتكم ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ ﴾ لإيصال جزائكم ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴾ لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم ، ودفع عنه من صنوف النقم ، أو لا يعرف نعمة الإنشاء المبدئ للوجود ، ولا الإفناء المقرب إلى الموعود ، ولا الإحياء الموصل إلى المقصود؟!).

67 ـ 69. قوله تعالىٰ: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تقريرُ الله الشرائع في كل أمة وجعل شريعة نبينا محمد ﷺ ناسخة لجميع الشرائع قبلها. وتهديد ووعيد للذين جعلوا منهاجهم جدال المرسلين ، ويوم الفصل يعلمون ما كانوا فيه يمترون.

فقوله: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ ﴾. قال ابن عباس: (يقول: عيداً).

وقال مجاهد: (إراقة الدم بمكة). وقال قتادة: (﴿ مَنسَكًا ﴾: ذبحاً وحَجّاً).

وأصل المنْسَك الموضع الذي يعتاده الإنسان ويتردّد إليه لخير أو شر ، ولكنه غالباً ما يربط بالتعبد وأعمال العبادة. ومنه مناسك الحج. قال الرازي: (و«المَنْسَك» بفتح السين وكسرها الموْضِعُ الذي تُذْبَحُ فيه النَّسائِك ، وقرئ بهما قولُه تعالىٰ: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا ﴾).

قلت: والراجح من سياق الآية أن المقصود أعم من الذبح ، فقوله: ﴿ مَنسَكًا هُمۡ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 17) ، وأحمد (5/ 160) في أثناء حديث طويل.

نَاسِكُوهُ﴾ أي شرعاً هم عاملون به مأمورون باتباع تفاصيله. وهذا متكرر في كل أمة مضت من الأمم، حتىٰ ختم الله الرسالات ونسخ الشرائع بشريعة محمد ﷺ التي لا يُقبل اليوم غيرها.

وقوله: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾. قال الزجاج: (أي فلا يجادلنك). قال القرطبي: (أي لا ينازعنك أحد منهم فيما يُشرع لأمتك، فقد كانت الشرائع في كل عصر).

وقوله: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾.

أي: لا تلتفت ـ يا محمد ـ إلى جدال المشركين، وامض في دعوتك إلى التوحيد والدين الحق، فإنك أنت على الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. أي: إن جادلوك بالباطل فأعرض عن مماراتهم.

قال مجاهد: (﴿وَإِن جَادَلُوكَ﴾ قال: قول أهل الشرك: أما ما ذبح الله بيمينه ﴿فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم).

والآية فيها تهديد ووعيد، فإن جدال الأنبياء والمرسلين ليس كجدال أحد من الناس.

وقوله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

قال النسفي: (هذا خطاب من الله للمؤمنين والكافرين، أي يفصل بينكم بالثواب والعقاب، ومسلاة لرسول الله ﷺ مما كان يلقىٰ منهم).

وقال القرطبي: (في هذه الآية أدبٌ حَسَنٌ علّمه الله عبادَه في الرد على من جادل متَعنِّتاً ومِراء ألا يجاب ولا يُناظر ويُدفع بهذا القول الذي علّمه الله لنبيّه ﷺ).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 41].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: 15].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا

أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: 24 ـ 26].

4 ـ وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: 8].

وفي مستدرك الحاكم بسند صحيح عن ابن سابط عن عمرو بن ميمون الأودي قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بني أود! إني رسولُ رسولِ الله ﷺ: [تعلمون المعادَ إلى الله، ثم إلى الجنة أو إلى النار، وإقامةٌ لا ظعن فيه، وخلودٌ لا موت، في أجسادٍ لا تموت][1].

70 ـ 72. **قوله تعالىٰ:** ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالىٰ عن كمال علمه وقدرته وكتابته كل شيء وما هو كائن إلى الأبد، والمشركون على مدار الزمان يعبدون آلهة لا تضر ولا تنفع وينسون الواحد الأحد. وإذا تُتلىٰ علىٰ مشركي قريش ـ وأمثالهم ـ آيات القرآن الواضحة الدلالة والحجة علت وجوههم الكراهة لما يسمعون، وجوارحهم الهمّ بالبطش بالذين يؤمنون، فقل لهم ـ يا محمد ـ: أفأنبئكم أيها المشركون بأكره إليكم من ذلك: النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير.

فقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

إخبار عن كمال علمه سبحانه وإحاطته بخلقه وتمام تقديره، وكتابته تفاصيل كل

(1) صحيح الإسناد. أخرجه الحاكم (1/ 83)، وله شواهد كثيرة. وانظر السلسلة الصحيحة (1668).

ذلك في اللوح المحفوظ ، فلا ينفذ قضاء في هذا الكون إلا قد عَلِمَه وكَتَبَه ، وأن كل شيء عليه تعالى يسير.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ [لقمان: 16].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: 7].

وفي كنوز السنة العطرة من آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: خرّج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. وكان عرشه على الماء][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح من حديث عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن أول ما خلق الله القلم ، ثم قال له: اكتب ، فجرىٰ في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة][2].

وفي رواية: [إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب. قال: يا رب وما أكتب؟

قال: اكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد].

وفي لفظ: [اكتب مقادير كل شيء حتىٰ تقوم الساعة].

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، والإمام أحمد في مسنده ، عن أبي هريرة قال: [جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر. فنزلت: ﴿ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر: 48 ـ 49]][3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 51) ـ في القدر باب: كتب المقادير قبل الخلق. وانظر مختصر صحيح مسلم (1841) بلفظ: (كتب الله مقادير الخلائق...).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (5/ 317) ، والترمذي في التفسير (2/ 232) ، وانظر تخريج: «مشكاة المصابيح» (94) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 806) لتفصيل البحث.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد ومسلم وبنحوه البخاري. انظر مختصر صحيح مسلم (1838).

وقوله: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾.

إخبار عن حال المشركين على مدار الزمان، فإنهم يدعون آلهة لا تضر ولا تنفع، ولا علم لهم فيما اختلقوه وائتفكوه، وإنما هو تعظيم مسلك الآباء والأجداد بلا دليل ولا حجة ولا برهان، ولا يليق التعظيم والكبرياء إلا بالله عز وجل.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: 50].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون: 117].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: [قال الله تعالىٰ: الكبرياء ردائي، والعِزُّ إزاري، فمن نازعني في شيء منهما عذّبته][1].

ورواه أحمد عنه بلفظ: [قال الله تعالىٰ: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفتُه في النار].

وقوله: ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾. أي: من ناصر ينصرهم ويدفع عنهم ما كتب الله عليهم من الشقاء والنكال والعقاب.

وقوله: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ﴾.

أي: وإذا تتلىٰ على مشركي قريش آيات القرآن الواضحة الدلالة والحجة تتبين في وجوههم ـ يا محمد ـ العبوس والكراهة لما يسمعون من الحق، شأن المشركين مع الوحي على مدار الزمان.

وقوله: ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾.

قال ابن عباس: (﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ ﴾ يقول: يبطشون). أو قال: (يقعون بمن ذكرهم).

وقال مجاهد: (يكادون يقعون بهم).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 35 ـ 36)، والبخاري في «الأدب المفرد» (552) نحوه، ورواه أحمد باللفظ الآخر، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (540).

قال النسفي: (﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ يبطشون، والسطو الوثب والبطش ﴿بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ هم النبي ﷺ وأصحابه).

وقوله: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

قال الضحاك: (يقول: أفأنبئكم أيها المشركون بأكره إليكم من هؤلاء الذين تتكرّهون قراءتهم القرآن عليكم، هي ﴿ٱلنَّارُ﴾، وعدها الله الذين كفروا).

فقوله: ﴿ٱلنَّارُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي. **والمقصود**: ستكون النار أغيظَ عليكم ـ معشر المشركين ـ من غيظكم من التالين الذكر، وأشد عليكم مما تجدونه من جرّاء ذلك من الضجر والكراهة، بل ستكون النار يوم القيامة مصدر تعاستكم وشقائكم، فبئست النار المستقر والمنزل والمقام لكم.

73 ـ 74. **قوله تعالىٰ**: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ (73) مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (74)﴾.

في هذه الآيات: تسفيه آلهة المشركين بضرب مثل لعجزها، فهي عاجزة عن خلق ذباب واحد، وهم عاجزون عن الانتصار لها لو سلبها الذباب شيئاً، فضعف الطالب والمطلوب. إنهم لم يقدروا الله حق قدره حين أشركوا به والله هو القوي العزيز.

فقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥٓ﴾.

أي: ضرب مثل لسخافة وحقارة الأصنام التي يعبدها المشركون فأنصتوا له وتفهّموا مغزاه. قال ابن زيد: (هذا مثل ضربه الله لآلهتهم).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ﴾.

أي: إن الذين تدعون وتعبدون من دون الله من الأوثان والطواغيت والسادة والشياطين وغيرهم مما يدعىٰ ويعبد من الآلهة الباطلة لن يقدروا على خلق الذباب المعروف في صغره وضعفه ولو اجتمعوا من أجل ذلك.

قال القرطبي: (الذباب اسم واحد للذكر والأنثىٰ، والجمع القليل أَذِبَّة والكثير ذِبّان).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ قال: [قال الله عزَّ وجلَّ: ومن أظلمُ مِمَّنْ ذهبَ يخلقُ كَخَلْقي؟ فليخلُقوا ذَرَّةً، أوْ لِيَخْلُقوا حَبَّةً أو شعيرة][1].

وفي مسند الإمام أحمد بسند حسن في الشواهد عن أبي زُرْعة عن أبي هريرة ـ رفع الحديث ـ قال: [ومن أظلم مِمَّن خَلَقَ كخلقي! فَلْيَخْلُقُوا مثلَ خَلقي ذَرّة، أو ذُبابة، أو حَبَّة][2].

وقوله: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾.

قال ابن كثير: (أي: هم عاجِزونَ عن خَلْقِ ذُبَابٍ واحِدٍ، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سَلَبَها شيئاً من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك. هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا قال: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾).

وعن ابن عباس: (﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ قال: آلهتهم ﴿وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾: الذباب).

أي عجز الطالب وهو الصنم أو الآلهة الباطلة أن تستنقذ من الذباب شيئاً سلبه، كالطيب وما أشبهه، فالذباب هو المطلوب، والصنم أو الوثن هو الطالب.

وقوله: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ﴾. قال ابن زيد: (حين يعبدون مع الله ما لا ينتصف من الذباب ولا يمتنع منه).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. أي: هو القوي سبحانه الذي كل شيء دونه ضعيف فقير محتاج إلى عونه وقوته، وهو العزيز الذي قد عزَّ كلَّ شيء فَقَهَرَهُ وغلبه، ولا يليق الكبر إلا به سبحانه.

أخرج الإمام أحمد بسند رجاله ثقات عن أبي هريرة مرفوعاً: [قال الله عز وجل:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7559)، كتاب التوحيد، وكذلك (5953)، وأخرجه مسلم (2111)، وابن حبان (5859)، وأخرجه البيهقي (7/ 268).

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (2/ 391) ح (8839)، وسنده حسن في الشواهد.

الكبرياء ردائي ، والعزة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما ألقيه في النار][1] .

ورواه أبو داود بلفظ: [قال الله عز وجل: الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحِداً مِنهما ، قَذَفْتُهُ في النار][2] .

75 ـ 78. **قوله تعالىٰ:** ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: اجتباءُ الله الرسل ، وعلمه بأعمالهم وما هم قادمون عليه وبعد فنائهم ، ومرد الأمور والعباد كله إلى الله . وأمْر الله تعالىٰ عباده المؤمنين بإقامة ركوعهم وإتمام سجودهم والتذلل الكامل لربهم وفعل الخيرات لعلهم يفلحون. وأمره لهم بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وألسنتهم وأنفسهم وبذل وسعهم في ذلك ، فهو اختارهم لدينه واصطفاهم لحرب أعدائه والجهاد في سبيله ، وما أراد بهم الحرج والتضييق ، بل ملة أبيهم إبراهيم الذي سماهم المسلمين ، ليكونوا بذلك شهداء مع نبيّهم على بلاغ الرسل ضد أممهم المكذبة بذلك يوم القيامة ، فليقابلوا شكر هذه النعمة العظيمة بالقيام بحقها من الصلاة والزكاة وإقامة الدين وتمكين الصلة بالله نعم المولىٰ ونعم النصير.

فقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾ .

إخبار منه تعالىٰ أنه يختار من الملائكة رسلاً ـ كجبريل وميكائيل ـ يرسلهم إلى

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 248) ورجاله ثقات. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (541).
(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (4090) ، كتاب اللباس. باب ما جاء في الكبر. وانظر صحيح سنن أبي داود (3446).

أنبيائه ومن شاء من عباده ، ويختار من الناس من شاء أنبياء يرسلهم إلى الناس لإبلاغ رسالاته.

وقد حفلت السنة العطرة بذكر آفاق ذلك في أحاديث ، منها :

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند ، عن أبي زُرعة عن أبي هريرة قال: [جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء ، فإذا ملك ينزل ، فقال له جبريل: هذا الملك ما نزل منذُ خُلقَ قبل الساعة ، فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك: أملكاً أجعلك أم عبداً رسولاً ؟ قال له جبريل: تواضع لربك يا محمد ! فقال رسول الله ﷺ: لا ، بل عبداً رسولاً][1].

الحديث الثاني: أخرج أحمد وأبو يعلىٰ والبزار بسند صحيح عن علي قال: [قال لي النبي ﷺ ولأبي بكر يوم بدر: مع أحدكما جبريل ومع الآخر ميكائيل ، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال ، أو يكون في الصف][2].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾. أي: سميع لأقوال عباده ، بصير بأعمالهم وشؤونهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

أي: يعلم أفعال ملائكته ورسله من قبل أن يخلقهم ومن قبل أن يرسلهم ، ويعلم ما يكون مما لم يأت مما هم قادمون عليه وبعد فنائهم ، ومَرَدّ الأمور والعباد كله إلى الله سبحانه.

وفي التنزيل:

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ [الجن: 26 ـ 28].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 231) ، وسنده صحيح على شرط مسلم. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1002).

(2) إسناده صحيح. أخرجه أحمد في المسند (1/ 147) ، وأبو يعلىٰ (340). وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 540) ـ لتفصيل البحث.

قال النسفي: (والذي هو بهذه الصفات لا يسأل عما يفعل، وليس لأحد أن يعترض عليه في حكمه وتدابيره واختيار رسله).

وقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾.

أمر منه سبحانه لعباده المؤمنين بإقامة ركوعهم وإتمام سجودهم ـ لله تعالىٰ ـ في صلاتهم، والتذلل لربهم والخضوع له بالطاعة في أعمالهم كلها، وفعل الخيرات التي يرجىٰ من ورائها النجاح والفلاح.

وقوله: ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾. أي: بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم، ابذلوا ما بوسعكم.

قال ابن عباس: (لا تخافوا في الله لومة لائم).

وبنحوه قوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾. أي عظموا أمره وخافوه سبحانه حق الخوف.

وقوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾. قال ابن زيد: (هو هداكم).

قال ابن جرير: (يقول: هو اختاركم لدينه، واصطفاكم لحرب أعدائه، والجهاد في سبيله).

وقال ابن كثير: (﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾. أي: يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضّلكم وشرَّفكم وخصَّكم بأكرم رسول، وأكملِ شرع).

وفي التنزيل:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: [ما مِنَ الأنبياء نبيٌّ إلا أُعطي من الآيات ما مِثْلُهُ آمَنَ عليه البَشَرُ، وإنما كان الذي أوتيتُهُ وَحْياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثرهم تابعاً يومَ القيامة][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4981)، كتاب فضائل القرآن، وانظر (7274)، ورواه مسلم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

قال ابن عباس: (الحرج: الضيق، فجعل الله الكفارات مَخْرجاً من ذلك).

وقال أبو العالية: (إن الله لم يضيق عليكم، لم يجعل عليكم في الدين من حرج).

وقال الضحاك: (جعل الدين واسعاً، ولم يجعله ضيقاً).

قلت: ويشمل هذا على ما رخّصَ الله لعباده في حالات الحرج من مرض أو ضيق أو عجز أو بعض ما يكون من ذلك في الحضر والسفر.

وأمثلة ذلك كثيرة: في الاستنجاء والوضوء أو التيمّم والصلاة وما يكون في السفر من قصر وجمع، وكذلك جمع في الحضر حالة الضيق أو الحرج، وفي الصيام والحج وبعض أنواع البيوع والمعاملات والتي تدل بمجموعها على مرونة هذا الدين واستيعابه لكل أحوال العباد.

ومن أحاديث السنة العطرة في ذلك:

الحديث الأول: روىٰ النسائي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: [إذا ذهب أحدكم إلى الغائط فليذهب معه بثلاثة أحجار فَلْيَسْتَطِبْ بها فإنها تجزئ عنه][1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي والنسائي بسند حسن عن صفوان قال: [كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا كنا سفراً ألا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة، لكن من غائط وبول ونوم][2].

الحديث الثالث: أخرج مسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عباس قال: [جمع رسول الله ﷺ بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء بالمدينة في غير خوف ولا مطر][3].

قيل لابن عباس: ما أراد إلى ذلك ؟ قال: (أراد أن لا يحرج أمته).

الحديث الرابع: أخرج النسائي والطبراني بسند حسن عن ابن عمر قال: قال

(1) حديث صحيح. أخرجه النسائي (1/ 42)، وأبو داود (40/ 61/ 1)، وانظر صحيح النسائي (43).
(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي (96/ 65/ 1)، والنسائي (1/ 84)، وسنده حسن.
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (705/ 489/ 1)، والنسائي في السنن (1/ 290)، وأخرجه كذلك أبو داود في السنن (1198/ 77/ 4).

رسول الله ﷺ: [إذا حضر أحدكم الأمر يخشىٰ فوته فليصل هذه الصلاة. (يعني الجمع بين الصلاتين)][1].

الحديث الخامس: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أسامةَ بن شريك قال: [خرجت مع النبي ﷺ حاجاً، فكان الناس يأتونه، فَمَنْ قال: يا رسول الله سعيت قبل أن أطوفَ أو قدّمت شيئاً أو أخّرت شيئاً فكان يقول: لا حرَجَ لا حرجَ] الحديث[2].

الحديث السادس: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي بكر بن عبد الرحمن، عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: [لقد رأيت رسول الله ﷺ بالعَرْج يصب على رأسه الماء وهو صائم من العطش أو من الحر][3].

الحديث السابع: أخرج الإمام مسلم عن عائشة قالت: [دَخَلَتْ هندُ بنتُ عُتبة امرأة أبي سفيان على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النَّفَقةِ ما يكفيني ويكفي بَنيَّ إلا ما أخذتُ من ماله بغير علمه، فهل عليَّ في ذلك مِنْ جُناح؟ فقال رسول الله ﷺ: خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك][4].

إلى غير ذلك من المرونة العالية في منهاج الفقه الإسلامي المستنبط من سيرته العطرة ـ صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾. قال الزجاج: (المعنى اتبعوا ملة أبيكم). وقال الفرّاء: (انتصب على تقدير حذف الكاف، كأنه قال كمِلّة). وبنحوه أفاد ابن جرير حيث قال: (نصب ﴿مِّلَّةَ﴾ بمعنىٰ: وما جعل عليكم في الدين من حرج، بل وسّعه، كملّة أبيكم، فلما لم يجعل فيها الكاف اتصلت بالفعل الذي قبلها فنصبت، وقد يحتمل نصبها أن تكون على وجه الأمر بها، لأن الكلام قبله أمر، فكأنه قيل: اركعوا واسجدوا، والزموا ملة أبيكم إبراهيم).

---

(1) حديث حسن. أخرجه النسائي (1/ 98)، والطبراني في «الكبير» (3/ 194 ـ 2/ 1)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1370).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2014)، كتاب المناسك، وسنده صحيح.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (2348). وانظر صحيح سنن أبي داود (2072). والعَرْج: قرية على أيام من المدينة.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (1714)، كتاب الأقضية. وانظر تفصيل ذلك في كتابي: السيرة النبوية (3/ 1301 ـ 1320).

وقال النسفي: (أي اتبعوا ملة أبيكم، أو نصب على الاختصاص، أي: أعني بالدين ملة أبيكم).

وقوله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ ـ فيه تأويلان محتملان:

1 ـ قال ابن عباس: (يقول: الله سماكم المسلمين من قبل). وقال مجاهد: (الله سماكم).

2 ـ قال ابن زيد: (﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾، يعني إبراهيم، وذلك لقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: 128]).

واختار الأول ابن جرير رحمه الله، وإن كان التأويل الثاني سالكاً بإعادة الضمير إلى إبراهيم.

ويمكن أن يقال: الله تعالىٰ سمانا المسلمين ـ كما جاء في النص الآتي من حديث الحارث الأشعري ـ وكذلك صدر ذلك في كلام ودعاء إبراهيم، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وقوله: ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ ـ يعني القرآن.

قال مجاهد: (الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة، وفي الذكر).

وفي مسند أحمد وسنن الترمذي والنسائي بسند صحيح من حديث الحارث الأشعري مرفوعاً: [ومن دعا بدعوةِ الجاهلية فهو مِنْ جُثاء جهنم، وإن صامَ وصلىٰ وزعمَ أنه مسلم، فادعوا بدعوة اللهِ التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عبادَ الله][(1)].

وفي رواية: [ومن دعا بدعوىٰ الجاهلية فهو من جُثىٰ جهنم. قالوا: يا رسول الله وإن صلى وصام؟ فقال: وإن صلىٰ وصام، وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم التي سمّاهم الله عز وجل: المسلمين المؤمنين، عباد الله].

وقوله: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

قال مجاهد: (﴿مِن قَبْلُ﴾ قال: في الكتب كلها والذكر ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ يعني القرآن، وقوله: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يقول تعالىٰ ذكره اجتباكم الله وسماكم أيها المؤمنون بالله وآياته، من أمة محمد ﷺ مسلمين، ليكون محمد

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 202)، والترمذي (2867)، (2868) في الأمثال، وأخرجه النسائي عِند تفسير هذه الآية، ورواه ابن حبان والحاكم. انظر فتح المجيد (494 ـ 495).

رسول الله شهيداً عليكم يوم القيامة ، بأنه قد بلغكم ما أرسل به إليكم ، وتكونوا أنتم شهداء حينئذٍ على الرسل أجمعين ، أنهم قد بلّغوا أممهم ما أرسلوا به إليهم).

قلت: وهذا المعنىٰ قد ورد في القرآن وصحيح السنة.

ففي التنزيل:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: 143].

ومن كنوز السنة العطرة:

الحديث الأول: أخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ـ في خطبته ﷺ في حجة الوداع أيام التشريق ـ قال: [ألا إن الله حرّم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا ، ألا هل بلغت ؟ قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد ثلاثاً][(1)].

وله شاهد في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله: [أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم عرفة: ألا هل بلغت ؟ قالوا: نعم. وفي لفظ: (وقد تركت فيكم مالن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله ، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون ؟ قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأدّيت ونصحت)].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه ، وأحمد في مسنده عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال: [يجيء نوحٌ وأمَّته ، فيقول الله: هل بلَّغت ؟ فيقول: نعم ، أي ربِّ ! فيقول لأمته: هَلْ بلَّغكم ؟ فيقولون: لا ، ما جاء لنا من نبيّ ؟ فيقول لنوح: من يشهد لك ؟ فيقول: محمدٌ وأمته ، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ والوسط: العدل ، فَيُدْعَون ، فيشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم][(2)].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند والنسائي وابن ماجة في السنن ، بسند صحيح عن أبي سعيد رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل ، والنبيُّ ومعه الرجلان ، والنبيّ ومعه الثلاثة ، وأكثر من ذلك ، فيُقال

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4402) ، كتاب المغازي ، باب حجة الوداع. وانظر للشاهد بعده مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (707) ص (188).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6/ 286) ، (8/ 139) ، وأحمد (3/ 32) ، وغيرهما.

له: هل بلغت قومك ؟ فيقول: نعم ، فَيُدْعىٰ قومه ، فيقال لهم: هل بَلَّغكم هذا ؟ فيقولون: لا ، فيقال له: من يشهدُ لك ؟ فيقول: محمدٌ وأمته ، فيدعىٰ محمدٌ وأمتُه ، فَيقالُ لهم: هل بَلَّغَ هذا قومه ؟ فيقولون: نعم ، فيقال: وما عِلْمُكُم بذلك ؟ فيقولون: جاءنا نبيُّنا ، فأخبرنا أن الرسل قد بَلَّغوا فصدَّقناه ، فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾][1] .

وقوله: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ . أي: فأقيموا الإسلام في حياتكم ، وأخصُّ ذلك صلاتكم وزكاتكم. قال ابن كثير: (أي: قابلوا هذه النعمةَ العظيمة بالقيام بِشُكْرِها ، وأدّوا حَقَّ الله عليكم في أداء ما افترض ، وطاعةِ ما أوجَبَ ، وتَرْكِ ما حَرَّم. ومن أهمِّ ذلك إقامُ الصلاة وإيتاء الزكاة ، وهو الإحسان إلى خلقِ الله بما أوجبَ للفقير على الغني ، من إخراجِ جُزْءٍ نَزْرٍ من ماله في السَّنة للضعفاء والمحاويج).

وقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ . قال ابن جرير: (يقول: وثقوا بالله ، وتوكلوا عليه في أموركم).

وقوله: ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ . أي: حافظكم ومؤيدكم ومعينكم وناصركم على أعدائكم.

وقوله: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ . أي: فنعم الولي ونعم الناصر المعين.

وفي المعجم «الأوسط» للطبراني بسند حسن ، من حديث أنس ، أن رسول الله ﷺ كان يقول: [يا وليَّ الإسلام وأهله ، مسِّكني بالإسلام حتىٰ ألقاك][2] .

تم تفسير سورة الحج

بعون الله وتوفيقه ، وواسع منِّه وكرمه

❑ ❑ ❑

---

(1) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (3/ 32) ، وصحيح البخاري (6/ 286) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (7889).

(2) حديث حسن. رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله ثقات. انظر: «مجمع الزوائد» (10/ 186) ، وكذلك سلسلة الأحاديث الصحيحة (1476).

دروس ونتـــائج وأحكـــــام

1 ـ يوم زلزلة الساعة يوم عظيم ، يأمر الله فيه آدم أن يخرج بعث النار: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعون ـ واحد إلى الجنة من المؤمنين ، والبقية إلى النار من يأجوج ومأجوج ـ.

2 ـ المؤمنون في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود.

3 ـ مراتب الضلال: أ ـ الضياع والانحراف.
ب ـ الترك والإهمال والتناسي والخذلان.
ج ـ الهداية إلى النار يوم القيامة.

4 ـ الملك الموكل بالرحم يؤمر بكتابة أربع كلمات: العمل والرزق والأجل والمستقر.

5 ـ أعمار هذه الأمة بين الستين والسبعين ، وأقلهم من يتجاوز ذلك.

6 ـ تفكروا في آلاء الله ، ولا تفكروا في الله عز وجل.

7 ـ التعالم وحب الرياسة والظهور ، يفسد المجتمع ويقطع الظهور.

8 ـ أهل النار: كل عُتل جَوَّاظ مستكبر ، والكبر بَطرُ الحق وغَمْطُ الناس.

9 ـ المنافق يعبد الله على حرف ، والمؤمن يعبد الله في كل حال.

10 ـ علم الله فيما لم يزل عدد أهل الجنة وعدد أهل النار ، فلا زيادة ولا نقصان.

11 ـ يُقال للمستكبرين الذين يصدون عن سبيل الله ويكيدون لمنع حصول الشوكة والقوة لأهله: موتوا بغيظكم ، إن الله ناصر دينه وأوليائه.

12 ـ كل ما خلق الله من شيء فهو يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون. ولله يسجد ما في السماوات والأرض ، وكل قد علم صلاته وتسبيحه.

13 ـ من يُهن الله بالشقاوة فماله من مكرم بالسعادة .

14 ـ نار الدنيا جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، كلهن مِثلُ حَرِّها .

15 ـ المؤمنون في الجنة جَمَّل الله بواطنهم بالشراب الطهور ، وسواعدهم بالأساور ، وأبدانهم بثياب الحرير .

16 ـ مراتب الهداية : أ ـ هداية الخلق العامة .

ب ـ هداية الدلالة والإرشاد .

ج ـ هداية التوفيق والإلهام .

هـ ـ هداية المؤمنين يوم القيامة إلى الجنة .

17 ـ دور مكة توهب وتورث وتباع وتملك بخلاف الأرض .

18 ـ الهمّ في الحرم بأمر أثيم ، يوجب له من الله العذاب الأليم .

19 ـ المسجد الحرام أول مسجد وضع في الأرض ثم المسجد الأقصىٰ .

20 ـ الطواف بالبيت صلاة ، ولكن الله أحل فيه النطق ، فمن نطق فلا ينطق إلا بخير ، فأقلوا فيه الكلام .

21 ـ ما من أيام العمل الصالح أحب فيهن إلى الله من أيام العشر .

22 ـ التفث : المناسك كلها . ومن نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه ، ويكفره ما يكفِّر اليمين .

23 ـ الحجاج والعمار وفدُ الله ، دعاهم فأجابوه ، سألوه فأعطاهم .

24 ـ الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه ، وأول التعظيم تعظيم الأمر والنهي ، وهو أن لا يُعارضا بترخّصٍ جاف ، ولا يُعَرّضا لتشدّد غال .

25 ـ أكبر الكبائر : الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور .

26 ـ منافع البدن : الركوب عند الحاجة ، والشرب من ألبانها عند الضرورة .

27 ـ السنة ذبحُ الرجل بيده ، وأن يستقبل القبلة بذبيحته ، وأن يحدّ شفرته ، ويريح ذبيحته .

28 ـ إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

29 ـ إن الله يدافع عن المؤمنين ، ويمكر بالكافرين ، ويفضح المنافقين .

30 ـ القتال شوكة للمؤمنين ، والنصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، وإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً.

31 ـ الصوامع للرهبان ، والبيع والصلوات لأهل الكتاب ، والمساجد للمسلمين.

32 ـ التمكين في الأرض لإقامة الدين ، ومحاصرة الشرك والفسق والمجرمين.

33 ـ إن الله تعالىٰ ليملي للظالم ويستدرجه ، فإذا أخذه لم يفلته.

34 ـ ليس العمىٰ عمىٰ البصر ، إنما العمىٰ عمىٰ البصيرة.

35 ـ القلب مركز العقل والفقه ، والدماغ مركز المحاكمات والتفكير.

36 ـ يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم : خمس مئة عام.

37 ـ قصة الغرانيق من أماني الشيطان ، والله يبطل الباطل ويحق نصرة الحق والرسل وأهل الإيمان.

38 ـ يقتص الخلق بعضهم من بعض يوم القيامة ، حتىٰ الجماء من القرناء.

39 ـ أجر مفارقة العشائر والأوطان ، والأهلين والخلاّن ، لإعلاء كلمة الرحمان ، هو دخول الجنان.

40 ـ من راح إلى المسجد فهو ضامن على الله ، ومن دخل بيته بسلام فهو ضامن على الله ، والمجاهد في سبيل الله ضامن على الله : الغنيمة أو الجنة.

41 ـ لكل أمة شريعة ومنسك ، وشريعة محمد ناسخة للشرائع قبلها.

42 ـ أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد.

43 ـ المشركون يحاولون البطش بأهل الحق ، والله ناصر أوليائه ولو كره الكافرون.

44 ـ الحرج : الضيق ، والله تعالىٰ لم يجعل علينا في الدين من حرج.

45 ـ مَنْ دعا بدعوة الجاهلية فهو من جُثاء جهنم ، وإن صامَ وصلىٰ وزعم أنه مسلم ، فادعوا بدعوةِ الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (118).

موضوع السورة

وصف المؤمنين والثناء عليهم والانتصار لهم في الدارين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ الثناء على المؤمنين في خشوعهم في صلاتهم وإعراضهم عن اللغو في كلامهم وعلاقاتهم ، وأدائهم لزكاة أموالهم ، وحفظهم لفروجهم وأماناتهم وعهودهم ، وضمان جنات الفردوس لمستقرهم.

2 ـ خلقُ الإنسان من نطفة فعلقة فمضغة ، ثم تشكيل العظام واللحم ، فالحياة فالموت فالبعث فالحساب فالمستقر.

3 ـ خلقُ السماوات وإنزال المطر وإخراج الزرع والثمر وخلق الأنعام وذكر منافعها.

4 ـ إرسال الله تعالى الرسل: خبر نوح وقومه واستهزائهم ، وأمر الله تعالى له بصناعة السفينة وقصة النجاة للمؤمنين ، والغرق للكافرين.

5 ـ تتابع الرسل في الأمم ، واستمرار التكذيب والعناد حتى نزول النِّقَم.

6 ـ قصة موسى وهارون مع فرعون وقومه ، وانتهاء التكذيب بإهلاكه وجنده.

7 ـ أمْرُ الله تعالى الرسل وعباده المؤمنين بأكل الحلال ، وامتثال الصالح من الأعمال.

8 ـ سنة الله في استدراج القوم الظالمين ، ثم استئصالهم من حيث لا يشعرون.

9 ـ ثناء الله على الخاشعين المحسنين ، المسارعين في الخيرات لعلهم يفلحون.

10 ـ التكاليف الشرعية متحملة ، وكتاب الأعمال دقيق ينطق بالصغائر والكبائر ، والقوم في غفلة عن مصيرهم ، وإنما يستجيرون عند نزول الهلاك بهم.

11 ـ ذم أهل الهوى في منهاج عبادتهم ، فهم في ضلالة وطغيان يعمهون.

12 ـ إنزالُ المصائب على المشركين لعلهم يذكرون ، وتنبيههم إلى نعم الله عليهم لعلهم يشكرون ، وصرفهم لرؤية عجائب قدرته تعالى لعلهم يعقلون.

13 ـ اقتضاء الإيمان بالربوبية الإيمان بتوحيد الألوهية ، والمشركون هم الكاذبون.

14 ـ نفي الولد والشريك عن الله ، وتعدّد الآلهة يقتضي خراب العالم.

15 ـ الأمر بالدفع بالتي هي أحسن والاستعاذة بالله من همزات الشياطين أو أن يحضرون.

16 ـ طلب المحتضر من الكفار الرجعة إلى الدنيا ليعمل صالحاً ، وعذاب القبر حق.

17 ـ انعدام الانتفاع بالأنساب والقربى عند النفخ في الصور ، والأعمال على الميزان: فمن ثقلت موازينه كان من المفلحين ، ومن خفت موازينه كان من الخاسرين.

18 ـ اعتراف أهل الشقاء يوم القيامة بشقوتهم ، وتمنيهم الخروج من النار ، فيخرسهم الجبار ، وينتصر لأوليائه ، ويخزي أعداءه.

19 ـ اعتراف المشركين يوم الحشر بمكثهم في الحياة الدنيا يوماً أو بعض يوم.

20 ـ أهل الشرك يومئذ في الأشقياء ، وأهل الإيمان هم أهل الدعاء والابتهال إلى الله والرجاء ، وسيكونون من المرحومين وفي منازل السعداء.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 11. قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

في هذه الآيات: ثناءُ الله تعالى على المؤمنين، الخاشعين في صلاتهم والمعرضين عن لغو القول وللزكاة هم فاعلون، ولفروجهم هم حافظون، ولأماناتهم وعهدهم هم راعون، وعلى صلواتهم يحافظون، لقد حُقّ لهم ميراث جنات الفردوس هم فيها خالدون.

فقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

قال ابن جرير: (قد أدرك الذين صدقوا الله ورسوله محمداً ﷺ، وأقرّوا بما جاءهم به من عند الله، وعملوا بما دعاهم إليه مما سمى في هذه الآيات الخلود في جنّات ربهم، وفازوا بِطَلِبتهم لديه).

قال البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا المغيرة بن سلمة، حدثنا وهيب عن الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد مرفوعاً: [خلق الله تبارك وتعالى الجنة، لبنةٌ من ذهبٍ، ولبنةٌ من فضة، وملاطُها المسكُ، فقال لها: تكلّمي، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ، فقالت الملائكة: طوبى لك ، منزل الملوك][1] .

وخرّجه البيهقي موقوفاً بلفظ: [إنّ الله عز وجل أحاط حائط الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، ثم شقق فيها الأنهار ، وغرس فيها الأشجار ، فلما نظرت الملائكة إلى حسنها قالت: طوبى لك منازل الملوك].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ . أي: الذين هم في صلاتهم متذللون خائفون وجلون. قال ابن عباس: (يقول: خائفون ساكنون). وقال مجاهد: (السكون فيها). وقال الزهري: (سكون المرء في صلاته). وقال الحسن: (كان خشوعهم في قلوبهم ، فغضوا بذلك البصر ، وخفضوا به الجناح). وقال أيضاً: (﴿خَٰشِعُونَ﴾: خائفون). وقال قتادة: (الخشوع في القلب). قال ابن كثير: (والخشوع في الصلاة إنما يحصُل لمن فَرَّغ قلبه لها ، واشتغل بها عَمَّا عداها ، وآثرها على غيرها ، وحينئذ تكون راحة له وقرّة عين).

أخرج أحمد وأبو داود بسند جيد عن سالم بن أبي الجعد ، أنَّ مُحَمد بنَ الحنفيَّة قال: دخلت مع أبي على صِهْرٍ لنا من الأنصار ، فَحَضَرت الصلاةُ ، فقال: يا جاريةُ ، ائتني بِوَضوءٍ لعلِّي أُصَلِّي فأستريحَ. فرآنا أنكرنا عليه ذلك ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [قُمْ يا بلالُ ، فأرِحْنا بالصلاة][2] .

وفي رواية عن سالم بن أبي الجعد أيضاً قال: قال رجل: [ليتني صليت فاسترحت ، فكأنهم عابوا عليه ذلك ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يا بلالُ أَقِم الصلاةَ ، أرِحْنا بها].

وفي المسند وسنن النسائي بسند صحيح عن أنس ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: [حُبِّبَ إليَّ من دُنْياكم: النِّساءُ والطِّيب ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة][3] .

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ . يشمل الشرك ، واللغو من القول ،

(1) صحيح موقوف ومرفوع. أخرجه البزار (3508) ، وأبو نعيم (6/ 204) ، وفي «صفة الجنة» (1/ 137/ 140) ، والبيهقي في «البعث» (236) من حديث أبي سعيد. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث (2662) ـ ولا شك أن الموقوف هنا له حكم المرفوع.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4985) ـ (4986). وأحمد (5/ 371) ، والطحاوي في «المشكل» (5549) ، وانظر صحيح سنن أبي داود (4171) ـ (4172).

(3) حديث صحيح. أخرجه النسائي (7/ 61) ، وأحمد (3/ 128) ، (3/ 285) ، وأخرجه أبو يعلى (3482) من حديث أنس. وانظر صحيح الجامع(3119).

والباطل ، والمعاصي. قال ابن عباس: (يقول: الباطل). وقال الحسن: (﴿عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ قال: عن المعاصي). وقال قتادة: (أتاهم ـ والله ـ من أمر الله ما وقذهم عن ذلك). يعني عن كل ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ﴾.

يشمل زكاة النفس من الشرك والدنس ، وزكاة الأموال والصدقات الواجبة ، فقد فرضت الزكاة بمكة مجملة عامة ثم حُدِّدَت أنصبتها في المدينة ، فالآية وإن كانت مكية فهي تدل على ما وجب عليهم بادئ الأمر من مطلق الزكاة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾. قال ابن عباس: (يقول: رضي الله لهم إتيانهم أزواجهم وما ملكت أيمانهم).

والمقصود: أنَّ حفظ الفروج عن مواقعة الزنا واللواط وما حرّم الله تعالى هو من صفات المؤمنين ، وبورك لهم في مواقعة الحلال من الزوجات وما ملكت الأيمان.

أخرج أحمد بسند حسن عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ، عن النبي ﷺ قال: [احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك ، قيل: إذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال: إن استطعت أن لا يرينّها أحد فلا يرينّها. قيل: إذا كان أحدنا خالياً؟ قال: الله أحقُّ أن يُستحيا منه من الناس][1].

قال ابن عروة الحنبلي في «الكواكب» (575/ 29/ 1): (ومباح لكل واحد من الزوجين النظر إلى جميع بدن صاحبه ولمسه حتى الفرج لهذا الحديث ، ولأن الفرج يحل له الاستمتاع به فجاز النظر إليه ولمسه كبقية البدن).

قلت: وهذا الذي ذكره ابن عروة الحنبلي رحمه الله داخل في آفاق مفهوم قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾.

قال ابن عباس: (نهاهم الله نهياً شديداً ، فقال: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ فسمى الزاني من العادين). وقال ابن زيد: (﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾: الذين

---

(1) رواه أصحاب السنن إلا النسائي ففي «العشرة» (1/ 76) ، ورواه أحمد (5/ 3 ـ 4) ، والبيهقي (1/ 199) ، واللفظ لأبي داود (2/ 171) وسنده حسن.

يتعدون الحلال إلى الحرام). وقال عطاء ، عن أبي عبد الرحمن: (من زنى فهو عاد).

قال ابن جرير: (وقوله: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ يقول: فمن التمس لفرجه مَنْكَحاً سوى زوجته وملك يمينه ، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ يقول: فهم العادون حدود الله ، المجاوزون ما أحلّ الله لهم ، إلى ما حرَّمَ عليهم).

وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة وقال: (فهذا الصنيع خارجٌ عن هذين القسمين ـ يعني الأزواج وما ملكت الأيمان ـ).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾.

أي: ومن صفات هؤلاء المؤمنين الوفاء بالعهود وحفظ الأمانات ، وأداؤها إلى أصحابها.

قال القرطبي: (والأمانة والعهد يجمع كلَّ ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً ، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك ، وغاية ذلك حفظه والقيام به. والأمانة أعمّ من العهد ، وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد).

قلت: وقد جاءت نصوص الوحيين بالوفاء بالعهود وتحريم الخيانة والغدر.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: 34].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: 58].

وفي صحيح السنة المطهرة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [المسلمون على شروطهم][1].

ورواه الطبراني من حديث رافع بن خديج بلفظ: [المسلمون عند شروطهم فيما أحِلّ].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (3594) من حديث أبي هريرة. وانظر للروايات بعده صحيح الجامع (6590) ـ (6592).

وله شاهد عند الحاكم من حديث أنس بلفظ : [المسلمون عند شروطهم ، ما وافق الحق من ذلك] .

الحديث الثاني : أخرج البخاري ومسلم عن أنس قال : قال النبي ﷺ : [لكل غادر لواء يوم القيامة ، يقال : هذه غَدْرةُ فلان][(1)] .

وفي لفظ لمسلم من حديث أبي سعيد : [لكل غادر لواء عند اسْتِه يوم القيامة يُرْفَعُ له بقدرِ غَدْرِه ، ألا ولا غادِرَ أعظمُ غدراً من أمير عامة][(2)] .

الحديث الثالث : أخرج الترمذي بسند صحيح من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [المسلم أخو المسلم ، لا يخونُه ، ولا يكذِبُهُ ، ولا يخذُلُه ، كل المسلم على المسلم حرام ، عِرضُهُ ، ومالهُ ودمهُ][(3)] .

الحديث الرابع : خَرّج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، أنّ رسول الله ﷺ قال : [آيةُ المنافقِ ثلاثٌ : إذا حَدَّث كَذَبَ ، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ ، وإذا اؤْتُمِنَ خانَ][(4)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ .

أي : يحافظون على أدائها في أوقاتها ، تامة بأركانها وواجباتها وشروطها .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه : [قلت : يا رسول الله ، أيُّ العمل أفضل؟ قال : الصلاة على وقتها . قلت : ثم أيٌّ؟ قال : برُّ الوالدين . قلت : ثم أيٌّ؟ قال : الجهاد في سبيل الله][(5)] .

وفي جامع الترمذي بإسناد صحيح عن القاسم بن غنام ، عن عمته أم فروة ، وكانت ممن بايعت النبي ﷺ قالت : سئل النبي ﷺ : أي الأعمال أفضل؟ قال : [الصلاة لأول وقتها][(6)] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (10/ 464) ، (12/ 299) ، وأخرجه مسلم (1735) .
(2) حديث صحيح . أخرجه الإمام مسلم في الصحيح (1738) (16) ـ من حديث أبي سعيد .
(3) حديث صحيح . انظر صحيح الترمذي (1572) ، وصحيح الجامع الصغير (6582) .
(4) حديث صحيح . أخرجه مسلم (59) ـ كتاب الإيمان ، باب خصال المنافق .
(5) حديث صحيح . أخرجه البخاري (527) ، (5970) ، ومسلم (85) ، وأحمد (1/ 451) .
(6) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (170) ـ في الصلاة . باب ما جاء في الوقت الأول من الفضل . وانظر صحيح سنن الترمذي (144) ، وصحيح أبي داود (452) .

وفي الباب عن عائشة قالت: [ما صلى رسول الله ﷺ صلاة لوقتها الآخر مرتين حتى قبضه الله][1].

قال الشافعي: (والوقت الأول من الصلاة أفضل. ومما يدل على فضل أول الوقت على آخره: اختيار النبي ﷺ وأبي بكر، وعمر، فلم يكونوا يختارون إلا ما هو أفضل، ولم يكونوا يدَعون الفضلَ، وكانوا يصلون في أول الوقت).

وفي المسند وسنن ابن ماجة عن ثوبان مرفوعاً: [استقيموا ولن تُحصوا، واعلموا أن خير أعمَالكم الصلاة، ولا يُحافظ على الوضوء إلا مؤمن][2].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

هو غاية البشرى في نهاية المطاف، فإن تعظيم حرمات الله وشعائره يورث أجمل الجنان ـ جنة الفردوس تحت عرش الرحمان.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: 63].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: 72].

أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:
[ما مِنكم مِنْ أحَدٍ إلا له مَنْزِلان، مَنْزِلٌ في الجنة، ومَنْزِلٌ في النار. فإذا مات، فدخلَ النار، ورِثَ أهلُ الجنة مَنْزِلَهْ. فذلك قولهُ تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾][3].

وله شاهد في صحيح مسلم عن أبي بُردة بن أبي موسى، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: [يجيءُ يومَ القيامة ناسٌ من المسلمين بذنوبِ أمثالِ الجبال، فيغفرها الله لهم، ويَضَعُها على اليهود والنصارى][4].

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [فإذا سألتم الله فاسألوه

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (174) ـ الباب السابق. وانظر صحيح الترمذي (146).
(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 276)، (5/ 282)، وابن ماجة (277)، والحاكم (1/ 130).
(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4341)، آخر كتابه السنن. باب صفة الجنة، وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3503)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (2279).
(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2767) ح (51).

الفردوس فإنه أوسطُ الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنة][1] .

قال مجاهد: (الفردوس: بستان بالرومية). وقال ابن جرير: (﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ﴾ البستان ذا الكَرْم ، وهو ﴿ ٱلْفِرْدَوْسَ ﴾ عند العرب) ، والله تعالى أعلم.

قلت: وجنان الله تعالى في الدار الآخرة ثمان ، أعلاها جنة الفردوس وأجملها.

فقد أخرج البخاري عن أنس: [أن حارثة بن سراقة قتل يوم بدر ، وكان في النظّارة ، أصابه سهم طائش فقتله ، فجاءت أمه فقالت: يا رسول الله ، أخبرني عن حارثة؟ فإن كان في الجنة صبرت ، وإلا فليَرَيَنَّ الله ما أصنع. فقال: ويحك أهبلت؟! أو جنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة ، وإنه في جنة الفردوس][2] .

وفي رواية: [إنها جنان ثمان ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى].

12 ـ 16. **قوله تعالى**: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: تقريرُ الله تعالى خلق الإنسان الأول من قبضة جمعها من تراب الأرض ، ثم تتابع النسل من نطفة فعلقة فمضغة ، ثم كان تشكيل العظام وكسوته باللحم ، فتبارك الله أحسن الخالقين. ثم يكون الموت بعد اكتمال السعي في هذه الحياة الدنيا ، ثم القيام للحساب بين يدي رب العالمين.

فقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ .

قال قتادة: (استُلّ آدم من الطين). وقال أيضاً: (استلّ آدم من طين ، وخُلقت ذرّيته من ماء مهين).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2790) ـ كتاب الجهاد والسير ، وأحمد في المسند (2/ 335) ، وابن حبان (4611) ـ في أثناء حديث طويل.

(2) حديث صحيح. انظر فتح الباري (7/ 304) ، شرح صحيح البخاري ـ حديث رقم ـ (3982).

والمقصود: أنّ خلق آدم كان من سلالة ـ وهي المستلة ـ من كل تربة من ترب الأرض المختلفة ، قبضها الله تعالى وأوجد منها آدم عليه السلام .

أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله خَلق آدم من قَبْضَةٍ قبضَها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض: جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والسَّهلُ والحَزْنُ والخبيثُ والطيب](1) .

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ .

أي: ثم جعلنا النسل المتتابع بعد الخلق الأول نطفة تتوضع في الرحم في مكان مُعَدّ لذلك ، قد هُيِّئَ ليستقر فيه الجنين إلى بلوغ أمره. فالضمير في قوله ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ عائد على جنس الإنسان .

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: 7 ـ 8] .

2 ـ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: 20 ـ 23] .

والعرب تسمي ولد الرجل ونطفته: سليله وسلالته ، لأنهما مسلولان منه .

قال مجاهد: (﴿مِن سُلَالَةٍ﴾ من مَنِيّ آدم). والماء المهين: هو الماء الضعيف ، والمراد المنيّ .

وقوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ .

إخبار عن انتقال من حال إلى حال ، حتى يتشكل الإنسان في أحسن تقويم ، فالنطفة ـ وهي الماء الدافق الذي يخرج من صُلب الرجل ، وهو ظهره ، وترائب المرأة ، وهي عظام صدرها ما بين الترقُوة إلى السرة ـ تصير علقة حمراء. قال عكرمة: (وهي دم). أي: قطعة من دم ، ثم تصير مضغة ، أي: قطعة من لحم ، لا شكل فيها

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4693) ، والترمذي (2955) ، وأحمد (4/ 400) ، (4/ 406) ، والحاكم (2/ 261 ـ 262) ، وابن حبان (6160). وانظر صحيح أبي داود (3926).

ولا تخطيط ، ثم تصير بإذن الله عظاماً ، ثم يُلبس الله تعالى العظام لحماً .

وأول عظم يتشكل من الإنسان هو عجب الذنب ، قال ابن عباس : (وهو عَظْمُ الصلب) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [لَيْسَ من الإنسان شيءٌ إلا يَبْلى ، إلا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذَّنَبِ ، ومنه يركّب الخلق يوم القيامة][1] .

وفي لفظ لمسلم وأبي داود وابن ماجة : [كل ابن آدم يأكله التراب إلا عَجْبَ الذَّنَبِ ، مِنْهُ خُلِقَ ، ومنه يُرَكَّبُ][2] .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ . يَشمل نفخ الروح فيه ، ثم إخراجه إلى الحياة لينتقل فيها من الطفولة إلى الشباب فالكهولة فالشيخوخة .

قال ابن عباس : (نفخ الروح فيه) . وقال الضحاك : (يعني الروح تنفخ فيه بعد الخلق) . وقال ابن عباس أيضاً : (خرج من بطن أمه بعدما خلق ، فكان من بدء خلقه الآخر أن استهلّ ، ثم كان من خلقه أن دُلّ على ثدي أمه ، ثم كان من خلقه أن علم كيف يبسط رجليه ، إلى أن قعد ، إلى أن حبا ، إلى أن قام على رجليه ، إلى أن مشى إلى أن فُطِمَ ، فعلم كيف يشرب ويأكل من الطعام ، إلى أن بلغ الحلم ، إلى أن بلغ أن يتقلب في البلاد) .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [إنَّ أحدكم يُجمع خلقُهُ في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكاً ، ويؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتب عمله ، ورزقه ، وأجله ، وشقي أو سعيد ، ثم ينفخُ فيه الروح ، فإن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخل النار . وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4935) ـ كتاب التفسير ، وكذلك (4814) ، وأخرجه مسلم (2955) ، والنسائي (4/ 111 ـ 112) .

(2) انظر صحيح مسلم (2955) ، وسنن أبي داود (4743) ، وابن ماجة (4266) ، ومسند أحمد (2/ 322) ، (2/ 428) ، وصحيح ابن حبان (3139) .

ذراع فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة ، فيدخل الجنة][1] .

وله شاهد فيهما وفي المسند بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إنّ الله تعالى وَكَّلَ بالرحم ملكاً يقول: أي رب نطفة ، أي رب علقة ، أي رب مضغة ، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: أي رب شقي أم سعيد؟ ذكر أو أنثى؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه][2] .

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ .

أي: فتعالى أمره سبحانه في قدرته وعلمه ، وهو خير المقدرين وخير الصانعين. قال مجاهد: (يصنعون ويصنع الله ، والله خير الصانعين) .

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ .

أي: ثم إنكم بعد ما ذُكر من مراحل إنشائكم لمفارقون لهذه الحياة الدنيا ، وذلك عند انقضاء آجالكم .

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ . أي: من قبوركم للحساب والمجازاة. قال النسفي: (تحيون للجزاء). ثم يُوَفّى كل عامل عمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: 7 ـ 8] .

وفي مستدرك الحاكم بسند صحيح من حديث معاذ بن جبل مرفوعاً: [تعلمون المعادَ إلى الله ، ثم إلى الجنة أو إلى النار ، وإقامةٌ لا ظعن فيه ، وخلودٌ لا موت في أجسادٍ لا تموت][3] .

17 ـ 22. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ۝ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ۝

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3208) ، ومسلم (2643) ، وأبو داود (4708) ، وغيرهم.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6595) ، ومسلم (2646) ، وأحمد (3/ 148) ، وغيرهم.
(3) صحيح الإسناد. أخرجه الحاكم (1/ 83) ، وله شواهد كثيرة. انظر «المجمع» (10/ 396) ، وكذلك سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1668) .

فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

في هذه الآيات: عَطْفٌ على خلق الإنسان ، بِذِكْرِ خَلْقِ السماوات السبع العظام ، وإنزال المطر من السماء وإسكانه في جوف الأرض وإخراج الزرع والفواكه والنخيل والثمار. وفي خلق الأنعام عبرة ومنافع لكم أيها الناس ومنها تأكلون ، وتركبون عليها وكذلك على الفلك تُحملون.

فقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ . قال ابن عباس: (الطرائق: السماوات). وقال مجاهد: (يعني: السماوات السبع).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: 15].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: 12].

وقوله: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: وما كنا في خلقنا السماوات السبع فوقكم عن خلقنا الذي تحتها غافلين ، بل كنا لهم حافظين من أن تسقط عليهم فتهلكهم).

فالمعنى كما في التنزيل: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: 4].

قال ابن كثير: (أي: وهو سبحانه لا يحجُب عنه سماءٌ سماءً ، ولا أرضٌ أرضاً ، ولا جبلٌ إلا يعلم ما في وَعْره ، ولابَحْرٌ إلا يعلم ما في قَعْره ، يعلم عدَدَ ما في الجبال والتلال والرمَال ، والبحار ، والقِفار والأشجار ، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59]).

وقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ . قال ابن جريج: (ماء هو من السماء).

والمقصود: ذِكْرُ حِكْمَتِه سبحانه بإنزال ماء المطر بحسب الحاجة ، لينتفع به العباد

وتحيا به البلاد ، وقد سلكه ينابيع في الأرض لتحصل الفائدة منه عند طلبه.

وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ﴾.

قال النسفي: (أي كما قدرنا على إنزاله نقدر على إذهابه ، فقيِّدوا هذه النعمة بالشكر).

وقولهُ تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: فأحدثنا لكم بالماء الذي أنزلناه من السماء ، بساتين من نخيل وأعناب ، ﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾ يقول: لكم في الجنات فواكه كثيرة ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يقول: ومن الفواكه تأكلون).

وخصّ سبحانه بالذكر النخيل والأعناب لأنها أشرف الثمار وأهمها عند العرب ، وخاصة أهل الحجاز. فالنخيل لأهل المدينة ، والأعناب لأهل الطائف ، فذكرهم سبحانه بأجَلِّ ما يعرفون من نعم الله عليهم في طعامهم ليفردوه سبحانه بالشكر والتعظيم.

قال القرطبي: (﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنات. ﴿فَوَٰكِهُ﴾ من غير الرطب والعنب. ويحتمل أن يعود على النخيل والأعناب خاصة إذ فيها مراتب وأنواع ، والأول أعم لسائر الثمرات).

وقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾.

المقصود بالشجرة هنا: شجرة الزيتون. والطور: الجبل. و﴿سَيْنَآءَ﴾ و«سِيْناء» قراءتان مشهورتان. فأهل الكوفة قرؤوها بفتح السين ، وأهل المدينة والبصرة بكسرها. وطور سيناء هو طور سينين ، وهو الجبل الذي كَلَّمَ الله عليه موسى عليه السلام ، وما حوله من جبال الزيتون.

قال ابن عباس: (﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾: هو جبل بالشام مبارك. قال: الجبل الذي نودي منه موسى ﷺ). وقال قتادة: (هو جبل حسن). قال الضحاك: (الطور: الجبل بالنبطية ، وسيناء: حسنة بالنبطية).

وقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ أي تنبت ومعها الدهن. قال مجاهد: (بثمره). وعن ابن عباس: (﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ يقول: هو الزيت يؤكل ويُدَّهن به). وقيل: الباء زائدة

والتقدير: تُنبت الدهن. وقيل: التقدير: تنبت جناها ومعه الدهن، فالمفعول محذوف.

وقوله: ﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾. قال ابن زيد: (هذا الزيتون صبغ للآكلين، يأتدمون به ويصطبغون به).

قال القاسمي: (﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ أي ملتبسة بالدهن المستصبح به ﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ أي وبإدام يغمس فيه الخبز فـ ﴿الصبغ﴾ كالصباغ ما يصطبغ به من الإدام. ويختص بكل إدام مائع، يقال: «صبغ اللقمة: دهنها وغمسها» وكل ما غمس فقد صبغ. كذا في «المصباح» و«التاج»).

قلت: وفضل الزيت وارد في القرآن الكريم كذلك في سورة النور.

قال تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.

وأما السنة العطرة فقد جاء في فضائل الزيت والادهان به أحاديث صحيحة، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند حسن عن أبي أسيد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: [كلوا الزيت وادّهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة والترمذي بسند حسن في الشواهد عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: [ائتدموا بالزيت وادّهنوا به، فإنه يخرجُ من شجرة مباركة][2].

الحديث الثالث: أخرج الطبراني بسند حسن عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: [ائتدموا من هذه الشجرة، يعني الزيت، ومَنْ عُرِضَ عليه طيبٌ فَلْيُصِبْ منه][3].

قال ابن القيم في «زاد المعاد»: (الزيت حار رطب في الأولى، وغلط من قال: يابس، والزيت بحسب زيتونه، فالمعتصر من النضيج أعدلُه وأجوده، ومن الفج فيه برودة ويُبوسة، ومن الزيتون الأحمر متوسط بين الزيتين، ومن الأسود يُسخن ويرطب

---

(1) حديث صحيح لشواهده. أخرجه أحمد (3/ 497)، والحاكم (2/ 397) وصححه ووافقه الذهبي.

(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي (1851)، وابن ماجة (3319)، ورجاله ثقات. وانظر صحيح الجامع (18)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (379).

(3) حديث حسن. أخرجه الطبراني بسند حسن. وأورده الهيثمي في «المجمع» (5/ 43)، وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (19)، والمرجع السابق.

باعتدال ، وينفع من السموم ، ويطلق البطن ، ويخرج الدود ، والعتيق منه أشد تسخيناً وتحليلاً ، وما استُخْرِجَ منه بالماء فهو أقل حرارة ، وألطف وأبلغ في النفع ، وجميع أصنافه ملينة للبشرة ، وتبطئ الشيب. قال: وماء الزيتون المالح يمنع من تَنَفُّطِ حرق النار ، ويشد اللّثَةَ ، وورقُه ينفع من الحمرة والنّملة ، والقروح الوسخة ، والشّرى ، ويمنع العرق ، ومنافعه أضعاف ما ذكرنا)[1].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾.

ذكرُ بعض نعم الله تعالى في تسخير الأنعام للناس ، فطريقة خلقها تشدّ إلى التأمل في عظيم قدرته سبحانه ، واللبن الخارج من بين الفرث والدم آية كبرى ، وبعض الأنعام كالإبل يُحمل عليها ويُركب ظهرها ويشرب درّها ، آية أخرى. ثم يضاف إلىٰ كل ذلك تذليل لحومها للأكل ، وما يكون من غذائها من عظيم الفائدة للأبدان ، آيات لقوم يتفكرون.

قال ابن جرير: (وقوله: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ يقول: وعلى الأنعام وعلى السفن تحملون ، على هذه في البرّ ، وعلى هذه في البحر).

23 ـ 25. **قوله تعالى:** ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إرسالُ الله تعالى نبيّه نوحاً ﷺ يدعو قومه لإفراد الله سبحانه بالعبادة والتعظيم ، ومقابلةُ الملأ الكافر له بالاستهزاء وأنه بشر ليس بملك كريم ، وأنهم ما سمعوا بمثل ذلك في آبائهم الأولين ، ثم اتهامهم له بالجنون وتواصيهم بانتظار اقتراب استراحتهم منه وريب المنون.

---

(1) انظر تفصيل البحث في كتابي: منهج الوحيين في معالجة زلل النفس وتسلط الجن (303).

فقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

إخبار من الله تعالى عن إرساله لنبيه نوح عليه الصلاة والسلام لينذر قومه عذاب الله وانتقامه ممن أشرك به ولم يفرده بالعبادة والتعظيم.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾. قال ابن كثير: (أي: ألا تخافون من الله في إشراككم به؟!).

وقوله: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟﴾. يعني السادة والأشراف والأكابر منهم. ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾. قال النسفي: (أي يطلب الفضل عليكم ويترأس).

وقال القرطبي: (أي يسودكم ويشرُف عليكم بأن يكون متبوعاً ونحن له تبع).

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾.

أي: لو شاء الله إرسال رسول لأرسل ملكاً من عنده ولم يكن بَشراً.

وقوله: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾. أي: ما سمعنا ببعثه البشر في أجدادنا والأمم قبلنا. قال النسفي: (أي: بإرسال بشر رسولاً، أو بما يأمرنا به من التوحيد وسب آلهتنا، والعجب منهم أنهم رضوا بالألوهية للحجر ولم يرضوا بالنبوة للبشر).

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾. أي: ما بنوح إلا الجنون، إذ يزعم أن الله اختاره من بينكم لرسالته، واختصه بالوحي من دونكم.

وقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾. قال ابن جرير: (يقول: فتلبثوا به، وتنظروا به حتى حين). وقال ابن كثير: (أي: انتظروا به ريبَ المنون، واصبروا عليه مُدَّةً حتى تستريحوا منه).

26 ـ 30. قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

في هذه الآيات: استنصارُ نوح ﷺ بالله من تكذيب قومه المجرمين، وَوَحْيُ الله تعالى إليه بصناعة السفينة وإدخال فيها من كل زوجين وأهله المؤمنين، وحمدُ الله عند ركوبها على النجاة من القوم الظالمين، ودعائه تعالى عند النزول منها اختيار خير المنازل لعباده الصالحين.

فقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾.

فيه إعلام بانسداد الطريق بين نوح عليه الصلاة والسلام وقومه الذين أصروا على التكذيب والعناد، وعدم الانتفاع بأي بلاغ. فهنالك استنصر نوح ربّه عليهم كما قال تعالى في سورة القمر: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾.

وقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾. هو جواب الله تعالى دعاء نوح ﷺ، فأمره بصنع السفينة وإحكامها وإتقانها.

وفي سورة هود: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾. قال ابن عباس: (بعين الله). وقال قتادة: (بعين الله ووحيه). وقال ابن جرير ـ في آية القمر المشابهة ـ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾: (تجري السفينة التي حملنا نوحاً فيها بمرأى منا ومنظر).

قلت: فلفظ «العين» في التنزيل يفيد الصفة التي لابد من إثباتها لله عز وجل، وقد يفيد العناية والرعاية ـ كما هو هنا ـ وقد يفيد الأمرين معاً، والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾.

قال القاسمي: (﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ كناية عن الشدة. كقولهم «حمي الوطيس». و﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ كانون الخبز حقيقة. وأطلقه بعضهم على وجه الأرض ومنبع الماء، للآية مجازاً ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أي فأدخل في الفلك ﴿مِن كُلٍّ﴾ أي من كل أمة ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾).

قال ابن كثير: (أمره تعالى بِصَنْعة السفينة وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، أي: ذكراً وأنثى من كُلِّ صِنْفٍ من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾، أي: من سبقَ فيه القولُ

من الله بالهلاك ، وهم الذين لم يُؤمنوا به من أهله ، كابنه وزوجته ، والله أعلم).

وقوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: ولا تسألني في الذين كفروا بالله أن أنجيهم ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ يقول: فإني قد حتمت عليهم أن أغرق جميعهم).

والمقصود: لا يكن بك شفقة عليهم إذا رأيتهم حوصروا بالماء وحلّ بهم الغرق والهلاك ، فإن الله تعالى قد قضى إغراق قومكَ الذين كفروا وكانوا مجرمين.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

يعني: إذا اعتدلت يا نوح أنت ومن معك من المؤمنين في السفينة فاحمدوا الله العظيم أن نجاكم من القوم المشركين. وهذا ما فعله نوح ﷺ حين أمر قومه بذلك.

ففي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ [هود: 41]. فذكر نوح ربه آمراً قومه بذلك عند ابتداء سيره وعندَ انتهائه.

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ۝١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: 12 ـ 14].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: [أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبَّرَ ثلاثاً ، ثم قال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾. اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البرَّ والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هَوِّن علينا سفرنا هذا ، واطْوِ عَنَّا بُعْدَه ، اللهم أنت الصاحِبُ في السفر والخليفة في الأهل. اللهم إني أعوذ بك من وَعْثاء السفر ، وكآبة المَنْظَرِ وسوءِ المُنْقَلَبِ في المال والأهل. وإذا رجع قالهنّ وزاد فيهن: آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون][1].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن علي بن ربيعة قال: [شهدت علياً أُتِيَ بدابة ليركبها ، فلما وضع رجله في الركاب قال بسم الله ، فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله. ثم قال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2/ 998) ، وانظر صحيح سنن الترمذي (2743).

لَمُنقَلِبُونَ﴾. ثم قال: الحمد لله ثلاثاً، الله أكبر ثلاثاً، سبحانك إني قد ظلمت نفسي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ثم ضحك. فقلت: من أي شيء ضحكت يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت، ثم ضحك فقلت: من أي شيء ضحكت يا رسول الله؟ قال: إنّ ربَّك لَيَعْجَبُ مَنْ عبدِه إذا قال: ربِّ اغفر لي ذُنوبي، إنه لا يَغْفِرُ الذنوبَ غَيْرُك][1]. وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لنبيه نوح عليه السلام: وقل إذا سلمك الله وأخرجك من الفلك، فنزلت عنها ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا﴾ من الأرض ﴿مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ﴾ من أنزل عباده المنازل).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾.

أي: إن في إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين لدلالات بينات على صدق الأنبياء في دعوتهم، وصدق الله لهم في نصرهم على عدوهم، وإنما قضى الله تعالى ابتلاء القوم بعضهم ببعض ليميز الخبيث من الطيب، ثم يحق الحق ويزهق الباطل.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 179].

2 ـ وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 16].

وقال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 18].

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أبي عبيدة بن حذيفة عن عمته فاطمة أنها قالت: [أتينا رسول الله ﷺ، نعوده في نسائه، فإذا سقاء معلق نحوه يقطر

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3691) ـ أبواب الدعوات ـ باب ما يقول: إذا ركب دابة، انظر صحيح سنن الترمذي (2742)، وصحيح أبي داود (2267).

ماؤه عليه من شدة ما يجد من حرّ الحمى ، قلنا: يا رسول الله لو دعوت الله فشفاك. فقال رسول الله ﷺ: إنّ من أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم][1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي وابن ماجة بسند حسن عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط][2].

الحديث الثالث: يروي الدارمي وأحمد بسند صحيح عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قال: [بينا رسول الله ﷺ قاعد مع أصحابه إذ ضحك ، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ قالوا: يا رسول الله! ومم تضحك؟ قال: عجبت لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، إن أصابه ما يحب حمد الله وكان له خير ، وإن أصابه ما يكره فصبر كان له خير ، وليس كل أحد أمره كله خير إلا المؤمن][3].

31 ـ 41. **قوله تعالى**: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

في هذه الآيات: تتابعُ الرسل في الأمم وتكذيب الملأ الكافر بالنبوة في كل زمان

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (6/ 369) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (145).
(2) إسناده حسن. أخرجه الترمذي (2/ 64) ، وابن ماجة (4031) ، وانظر المرجع السابق (146).
(3) صحيح على شرط مسلم. أخرجه الدارمي (2/ 318) ، وأحمد (6/ 16) من حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب. وانظر صحيح مسلم (8/ 227).

وحين ، والتشكيك في أمر المعاد والبعث من القبور والقيام لرب العالمين ، واستنصار كل رسول بالله العظيم ، لينزل العذاب فيحيط بالقوم الظالمين.

فقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾.

أي: ثم أوجدنا من بعد مهلك قوم نوح قوماً آخرين. قيل المراد عاد ، وقيل ثمود وهو الراجح لذكر مهلكهم في آخر الآيات بالصيحة ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

أي: فبعث الله فيهم رسولاً من بينهم يحذرهم مغبة الشرك وعبادة الأوثان ، ويحثهم على إفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم ، وينذرهم بأسه تعالى وبطشه إن أصروا على الكفر وما هم عليه من الانحراف والجحود.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وقالت الأشراف من قوم الرسول الذي أرسلنا بعد نوح ، وعنى بالرسول في هذا الموضع: صالحاً ، وبقومه: ثمود ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ يقول: الذين جحدوا توحيد الله ، وكذّبوا بلقاء الآخرة: يعني كذبوا بلقاء الله في الآخرة. وقوله: ﴿ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ يقول: ونعّمناهم في حياتهم الدنيا ، بما وسّعنا عليهم من المعاش ، وبسطنا لهم من الرزق ، حتى بطروا وعَتَوا على ربهم ، وكفروا. قال: وقوله: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ يقول: قالوا: بعث الله صالحاً إلينا رسولاً من بيننا وخصه بالرسالة دوننا وهو إنسان مثلنا يأكل مما نأكل منه من الطعام ويشرب مما نشرب ، وكيف لم يرسل ملكاً من عنده يبلغنا رسالته).

قال ابن كثير: (فكذبوه وخالفوه ، وأبوا من اتباعه لكونه بشراً مثلهم ، واستنكفوا عن اتباع رسول بشري ، فكذّبوا بلقاء الله في القيامة ، وأنكروا المعاد الجُثماني ، وقالوا: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ أي بعيد بعيد ذلك).

وقوله تعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾.

كقول كفار مكة: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ ﴾ [الجاثية: 24].

وكقيلهم وهم يقسمون كذباً ـ كما حكى الله عنهم في سورة النحل ـ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 38]. مما يدل أن منهج الكفر واحد منذ القرون الأولى إلى قيام الساعة.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

قال النسفي: (أي ما هو إلا مفتر على الله فيما يدعيه من استنبائه وفيما يعدنا من البعث، ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾. أي: استفتح الرسول وطلب النصر من الله على قوم أصروا على كفرهم وتكذيبهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾.

إجابةُ الله دعوة رسوله بأن الندم سيحيط بهم مصبحين نتيجة استهزائهم بالوحي والنبوة.

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾.

أي: وقع بهم انتقام الله تعالى باستحقاقهم العقاب منه بكفرهم وتماديهم.

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾. أي صيرناهم كالغثاء لا قيمة له. والغثاء ما ارتفع على السيل ونحوه. قال ابن عباس: (جعلوا كالشيء الميت البالي من الشجر).

وقال مجاهد: (كالرميم الهامد، الذي يحتمل السيل).

قال النسفي: (شبههم في دمارهم بالغثاء، وهو حميل السيل ما بلي واسودّ من الورق والعيدان).

وقوله: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. أي: هلاكاً لهم. أو بُعْداً لهم من رحمة الله. والفاء عاطفة، و﴿بعداً﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف والتقدير: ابعدوا بعداً.

أي: أبعد الله القوم الظالمين بإهلاكهم إذ أصروا على الكفر بربهم وتكذيب رسله ووحيه.

42 ـ 44. **قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (42) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (43) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا

وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: استمرارُ إرسال الله تعالى الرسل في القرون المتتابعة ، واستمرار تكذيب الملأ الكافر وأتباعهم في الأمم المتلاحقة ، وختام ذلك نزول نقمة الله على المكذبين وتصييرهم أحاديث للأجيال القادمة .

فقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾ .

أي : ثم أوجدنا من بعد هلاك هؤلاء أمماً وأقواماً آخرين .

قال ابن عباس : (يريد بني إسرائيل) . قال القرطبي : (وفي الكلام حذف : فكذبوا أنبياءهم فأهلكناهم) .

وقوله تعالى : ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ .

قال ابن كثير : (يعني : بل يُؤخذون حسبَ ما قدَّر لهم تعالى في كتابه المحفوظ وعِلْمِهِ قبل كَوْنِهِم ، أمة بعد أمة وقرناً بعد قرنٍ ، وجيلاً بعد جيل ، وخلفاً بعد سلف) .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ . معنى ﴿ تَتْرَا ﴾ تتواتر . قال ابن عباس : (يعني يتبع بعضهم بعضاً) .

والمقصود : ثم واترنا رسلنا على أجيال الخلق يتبع بعضهم بعضاً ترغيباً وترهيباً .

وقوله : ﴿ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا ﴾ . أي : بالهلاك .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ . أي أخباراً وأحاديث للناس لِضَرْبِ المثل والتعجب . قال الأخفش : (إنما يقال هذا في الشر ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ ولا يقال في الخير ، كما يقال : صار فلان حديثاً أي عبرة ومثلاً ، كما قال في آية أخرى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ [سبأ : 19]) .

وقوله : ﴿ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول : فأبعد الله قوماً لا يؤمنون بالله ، ولا يصدقون برسوله) .

45 ـ 49 . **قوله تعالى** : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا

لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

في هذه الآيات: إخباره تعالى أنه تابع الرسالة فبعث موسى وأخاه هارون ـ عليهما السلام ـ إلى فرعون وقومه بحجة الحق البالغة وسلطان الوحي العظيم. فقابلوا ذلك بالكبر والبغي والعلو في الأرض واتباع سبيل الشياطين، وعاملوهما كما عاملت الأمم السابقة الهالكة رسلها مستنكرين بشريتهما محتجين بانقياد الناس ـ بالإكراه والظلم ـ لهم، فجاء العذاب وقصم الله فرعون والقبط، وأكرم الله موسى والمؤمنين معه بهدي التوراة ليكون لهم نوراً في الدنيا ونجاة في الآخرة.

قال النسفي: (﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعملون بشرائعها ومواعظها).

وقال ابن كثير: (وأنزل على موسى الكتاب ـ وهو التوراةُ ـ فيها أحكامهُ وأوامِرُه ونواهيه، وذلك بعدما قَصَم الله فِرعونَ والقبط، وأخذهم أخذَ عزيز مقتدر. وبعد أن أنزل الله التوراة لم يُهلك أمةً بعامَّة، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: 43]).

50. **قوله تعالى**: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾.

في هذه الآية: يخبر تعالى أنه جعل عيسى وأمه مريم ـ عليهما السلام ـ حجة على أهل ذلك الزمان، في إظهار قدرته جل ذكره بإنشاء الأجسام من غير أصل، فهو كآدم خلقه من تراب وقال له كن فكان، وهذه الآية باقية إلى قيام الساعة، وأنه تعالى برحمته آوى عيسى وأمه إلى أرض منبسطة مرتفعة ذات خصب وماء.

فعن قتادة: (﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ﴾ قال: ولدته من غير أب هو له، ولذلك وُحِّدت الآية، وقد ذكر مريم وابنها).

وقال ابن عباس: (الربوة: المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات).

قال: (وقوله: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ يقول: ذات خصب ﴿وَمَعِينٍ﴾ يعني ماء ظاهراً). وقال (المعين الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: 24]).

وقال مجاهد: (ربْوة مستوية). وقال سعيد بن جبير: (﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ استوى الماء فيها). وقال قتادة: (﴿وَمَعِينٍ﴾ الماء الجاري). وقال: (هو بيت المقدس).

وخلاصة القول: لقد آوى الله تعالى عبده عيسى بن مريم ﷺ وأمه إلى أرض مرتفعة خصبة تحفل بالنبات والثمر والماء رحمة منه تعالى بهما. وظاهر آيات القرآن أن ذلك كان في بيت المقدس، والله تعالى أعلم.

51 ـ 56. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾.

في هذه الآيات: أمْرُ الله تعالى الرسل وعباده المؤمنين بأكل الحلال، وامتثال الصالح من الأعمال، والدعوة إلى الدين الحق، واجتناب الفرقة أو الانزلاق إلى الشبهات والشهوات، والتنبيه إلى سنة الله في استدراج القوم الظالمين، ثم استئصالهم من حيث لا يشعرون.

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

أمرٌ من الله سبحانه لعباده المرسلين بأكل الحلال وترك الحرام وامتثال صالح الأعمال، وهو ـ تعالى ـ عليم بأعمالهم ومجازيهم بجميعها أحسن الثواب. قال الحسن: (﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، يعني: الحلال). والخطاب وإن كان موجهاً للرسل فهو لأتباعهم من باب أولى، وإنما خصّ المرسلين بالكلام لأنهم قدوة العباد وأسوة البشرية جميعاً.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾. وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ [البقرة: 172]. ثم ذكر الرجل يُطيل السفَرَ أشعثَ أغبرَ، يَمُدُّ يديه إلى السماء، يا ربِّ! يا ربِّ! وَمَطْعَمُهُ حرامٌ، ومَشْرَبُهُ حرام، ومَلْبَسُهُ حرامٌ، وغُذِيَ بالحرام، فأنّى يُستجابُ لذلك][1].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾.

يعني: وإن ملتكم معشر الأنبياء ملة واحدة، ودينكم دين واحد، وهو دين التوحيد: إفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم، فاتقوا الله ربكم وادعوا الخلق إلى هذا الدين القويم.

قال ابن جريج: (﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ قال: الملة والدين).

وقد نصب قوله: ﴿ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ على الحال.

وقوله تعالى: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾.

أي: تمزقت أمم الرسل فيما بينهم، وجعلوا دينهم أدياناً، واتبعوا الشبهات والشهوات. و﴿ زُبُرًا ﴾: جمع زبور. أي كتباً مختلفة. قيل: تفرقوا في دينهم فرقاً كل فرقة تنتحل كتاباً. وعن الحسن قال: (قطعوا كتاب الله قطعاً وحرفوه).

وقوله: ﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾. أي كل فريق بما هم عليه من الهوى والضلال معجبون.

قال النسفي: (كل فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم ﴿ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ من الكتاب والدين أو من الهوى والرأي ﴿ فَرِحُونَ ﴾ مسرورون معتقدون أنهم على الحق).

وقوله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾. تهديد ووعيد. أي: فدع يا محمد هؤلاء القوم الذين انغمسوا في غَيهم وضلالهم إلى حين حلول عذابهم أو انقضاء آجالهم. قال مجاهد: (﴿ فِى غَمْرَتِهِمْ ﴾: في ضلالهم).

وقوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾

قال مجاهد: (﴿ أَنَّمَا نُمِدُّهُم ﴾: نعطيهم، نسارع لهم، قال: نزيدهم في الخير، نُمْلي لهم، قال: هذا لقريش).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1015) ـ كتاب الزكاة، ورواه الترمذي في الجامع (2989)، وأحمد في المسند (2/ 328).

قال ابن كثير: (يعني: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لِكَرامَتِهم علينا ومَعَزَّتهم عندنا؟! كلاّ، ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: 35]، لقد أخطؤوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاءً، ولهذا قال: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 55].

2 ـ وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿44﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: 44 ـ 45].

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: 178].

ومن صحيح السنة المطهرة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند قوي عن عقبة بن عامر مرفوعاً: [إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله لَيُمْلي للظالم حتى إذا أخذه لمْ يُفْلِتْهُ، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]][2].

الحديث الثالث: خرّج مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله لا يَظْلِمُ مؤمناً حسنةً، يُعطي بها في الدنيا ويَجْزي بها في الآخرة، وأما

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 145)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (414).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686)، ومسلم (2583)، والترمذي (3110)، وابن ماجة (4018)، وأخرجه ابن حبان (5175)، والبيهقي (6/ 94).

الكافِرُ فَيُطْعَمُ بحسنات ما عَمِلَ بها لله في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة ، لم تكُنْ له حسَنةٌ يُجْزى بها][1] .

57 ـ 61. **قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ .

في هذه الآيات: ثناءُ الله تعالى على عباده المؤمنين ، الذين جمعوا إلى إيمانهم إحساناً وشفقة من يوم الدين ، والذين يسارعون في الخيرات وقلوبهم وجلة أن لا يقبل منهم يوم يعرضون على رب العالمين .

فقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ .

قال الحسن البصري : (إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة ، وإن الكافر جمع إساءة وأمناً) .

فالمؤمنون بالله وجلون خائفون مع إحسانهم وإيمانهم ومبادرتهم إلى الطاعات والقربات .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ . يشمل الآيات الكونية والشرعية .

قال النسفي : (﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بكتب الله كلها ، لا يفرقون بين كتبه كالذين تقطعوا أمرهم بينهم وهم أهل الكتاب) .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ .

أي : يفردون ربهم سبحانه بالعبادة والتعظيم ، ويوحدونه في أسمائه وصفاته ومحامده لا شريك له .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ .

أي : يعطون الصدقات ويتقربون بالطاعات وهم خائفون أن لا يقبل منهم . قال ابن عباس : (المؤمن ينفق ماله ويتصدق وقلبه وجل أنه إلى ربه راجع) . وقال سعيد بن

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2808) ـ كتاب صفات المنافقين ، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة ، وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا ، ورواه أحمد .

جبير: (يفعلون ما يفعلون وهم يعلمون أنهم صائرون إلى الموت، وهي من المبشرات).

أخرج الترمذي وابن ماجة بسند صحيح عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: [سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا، يا بِنْتَ الصديق ولكنهم الذين يَصومون ويُصلون وَيَتَصَدَّقون وهم يخافون أن لا تُقْبَلَ منهم، أولئك الذين يُسارعون في الخيرات وهم لها سابقون][1].

وفي لفظ ابن ماجة: [قالت: أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: لا. يا بنت أبي بكر. «أو يا بنت الصديق!»، ولكنه الرجل يصومُ وَيَتَصَدَّق ويُصَلّي، وهو يخاف أن لا يُتَقَبَّلَ منه].

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: سبقت لهم السعادة).

وقال ابن زيد: (والخيرات: المخافة والوجل والإيمان، والكف عن الشرك بالله، فذلك المسابقة إلى هذه الخيرات، وقوله: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ كان بعضهم يقول: معناه: سبقت لهم من الله السعادة، فذلك سبوقهم الخيرات التي يعملونها).

قلت: والحديث السابق يدل على أن حالة القلب الذي يخشى صاحبه عدم القبول وهو مجتهد في الإيمان والعمل الصالح هي حالة صِحِّية يُرجى لصاحبها السبق والفوز في الآخرة. وقد جاءت نصوص الوحيين بذلك:

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: 16].

2 ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3401)، وابن ماجة (4198). انظر صحيح سنن الترمذي (2537)، وصحيح سنن ابن ماجة (3384)، ورواه أحمد.

ومن كنوز السنة العطرة:

أخرج الترمذي وابن ماجة بسند حسن عن أنس: [أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو بالموت، فقال: كيف تجدك؟ قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو، وأمنه مما يخاف](1).

62 ـ 67. قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

في هذه الآيات: التكاليف الشرعية متحملة، وكتاب الأعمال دقيق ينطق بصغائر الأعمال وكبارها، والقوم في غفلة عن مصيرهم، وإنما يستجيرون ويستغيثون عند نزول الهلاك بهم.

فقوله: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

فيه دليل أن التكاليف الشرعية هي في حدود سعة الإنسان، وأن الشرائع التي أمر الله بها يطيق العبد حملها والقيام بها.

ذكر الشاطبي في «الموافقات»: (أن المشقة الشرعية لا يجوز دفعها لأنها دفع للتكليف). واستدل بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: 10].

وذلك بعد قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: 2].

(1) إسناده حسن. أخرجه الترمذي (994)، وابن ماجة (4261). وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص 24)، وانظر صحيح سنن الترمذي (785)، وصحيح ابن ماجة (3436).

وبيّن أن المشقة قد تبلغ من الأعمال العادية ما يظن أنه غير معتاد ، ولكنه في الحقيقة معتاد .

وقوله : ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

قال ابن كثير : (يعني : كتاب الأعمال ، ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ، أي : لا يبخسون من الخير شيئاً ، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين) .

وقوله : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ . قال مجاهد : (في عمى من هذا القرآن) .

قال ابن جرير : (وعنى بالغمرة : ما غمر قلوبهم ، فغطاها عن فهم ما أودع الله كتابه من المواعظ والعبر والحجج) .

وقوله : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : (﴿ وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ ﴾ ، أي : سيئة ﴿ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ يعني الشرك ﴿ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾ ، قال : لابُدَّ أن يعملوها)[1] . وقال مجاهد : (الخطايا) .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ . قال ابن عباس : (يستغيثون) . قال ابن زيد : (المترفون : العظماء . ﴿ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ يقول : فإذا أخذناهم به جأروا ، يقول : ضجّوا واستغاثوا مما حلّ بهم من عذابنا) .

والجؤارُ : رفع الصوت ، كما يجأر الثور ، والخطاب لأهل مكة وما حلّ بطغاتهم يوم بدر ، وهو حال الأمم التي ينزل بها سخط الله وعذابه على مدار الزمان .

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾ .

أي : سواء جأرتم أم لم تجأروا ، فقد حَلَّ بكم سخط الله ونزل العذاب ولا طريقة لرفعه . قال الربيع بن أنس : (﴿ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ﴾ لا تجزعوا الآن حين نزل بكم العذاب ، إنه لا ينفعكم ، فلو كان هذا الجزع قبلُ نفعكم) .

---

(1) وقيل : لابد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة ، فقد حقت عليهم كلمة العذاب ، وسبق في علم الله أنهم أشقياء أهل سوء خاتمة . وفي الصحيحين والمسند عن ابن مسعود ، قال رسول الله ﷺ : [فو الذي لا إله غيره ، إن الرجلَ ليعمل بعملِ أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذِراع ، فَيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخُلها] . رواه البخاري في صحيحه (6594) ، ومسلم (2643) ، وأحمد في مسنده (1/ 382) .

وقوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: تدبرون). وقال مجاهد: (تستأخرون).

قلت: والخطاب لأهل مكة لما عُرض عليهم الحق وهذا الوحي العظيم، فاستكبروا وطغوا وعاندوا. فوصفهم الله سبحانه بقوله: ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾. قال ابن عباس: (يقول: مستكبرين بحرم البيت أنه لا يظهر علينا فيه أحد). وقال مجاهد: (﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ قال: بمكة بالبلد). وقال الحسن: (مستكبرين بحرمي). وقال قتادة: (مستكبرين بالحرم).

ثم وصفهم سبحانه بقوله: ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾. وأصل السَّمر والمسامرة في لغة العرب: الحديث بالليل.

ومنه قولهم: سَمَرَ يَسْمُرُ فهو سامِرٌ. قال الرازي: (السُّمار: وهم القوم يَسْمُرون).

قال ابن عباس: (قوله: ﴿سَٰمِرًا﴾ يقول: يَسْمرون حول البيت).

وقال مجاهد: (سامراً: مجلساً بالليل). وقال ابن زيد: (كانوا يَسْمرون ليلتهم ويلعبون: يتكلمون بالشعر والكهانة وبما لا يدرون).

قال ابن جرير: (يقول: تَسْمرون بالليل، ووحّد قوله: ﴿سَٰمِرًا﴾ وهو بمعنى السُّمَّار، لأنه وضع موضع الوقت. ومعنى الكلام: وتهجرون ليلاً، فوضع السامر موضع الليل، فوحد لذلك. وقد كان بعض البصريين يقول: وُحِّد ومعناه الجمع، كما قيل: طفل في موضع أطفال، ومما يبين عن صحة ما قلنا في أنه وضع موضع الوقت، فوحد لذلك، قول الشاعر:

مِن دونهم إن جِئْتَهُم سَمَراً ... عَزف القِيَانِ ومَجْلِسٌ غَمْر

فقال: سمراً لأن معناه: إن جئتهم ليلاً وهم يسمُرون، وكذلك قوله: سامراً).

قلت: وعندئذ يكون قوله: ﴿ تَهْجُرُونَ﴾ على وجهين:

الوجه الأول: أن يكون المقصود إعراضهم عن القرآن أو البيت أو رسول الله ﷺ. قال ابن عباس: (يهجرون ذكر الله والحق). وقال السدي: (السبّ).

الوجه الثاني: أن يكون المقصود تماديهم بالقول كما يهجُر الرجل في منامه وذلك إذا هذى، فوصفهم بأنهم يقولون في القرآن باطلاً من القول وما لا معنى له، وقد وردَ في اللغة الهَجْرُ بمعنى الهذيان.

فعن سعيد بن جبير: (تَهْجُرون: قال: يَهْجرون في الباطل). وفي رواية: (قال: يسمرون بالليل يخوضون في الباطل). وقال مجاهد: (بالقول السيِّئ في القرآن). وقال ابن زيد: (الهذيان الذي يتكلم بما لا يريد ولا يعقل، كالمريض الذي يتكلم بما لا يدري).

وكلا الوجهين يحتمله البيان الإلهي الكريم، وهو موافق لقراءة عامة قراء الأمصار، كما ذكر شيخ المفسرين رحمه الله، إذ اختار القراءة بفتح التاء وضم الجيم، قال: (لإجماع الحجة من القراء).

وأما القراءة الثانية بضم التاء وكسر الجيم: ﴿تُهْجِرون﴾ فقرأ بها نافع بن أبي نعيم، وهي بمعنى: يُفحِشون في المنطق ويقولون الخنا. قال الرازي: (والهَجْر: ضدُّ الوصل)، وأهْجَرَ الرجل إذا أفحش في القول. ومنه تفسير ابن عباس: (تُهْجِرون: قال: تقولون هُجْراً). وقال الحسن: (تُهجرون رسولي). وقال قتادة: (يقول: يقولون سوءاً). وقال الضحاك: (يقولون المنكر والخنا من القول، كذلك هَجْر القول).

وخلاصة القول: إن كفار مكة لما طغوا أخذوا يَسْمرون بالليل يتغنون بكلام فاحش يؤذي الله ورسوله، ويتمادون بلغو القول وهم يَهْذون ويلعبون ويطربون. والآية السابقة تشبه قوله تعالى في سورة «النجم»: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾. قال ابن عباس: (هو الغناء بالحميرية، سمد لنا: غنى لنا). وقال مجاهد: (هو الغناء يقول أهل اليمن: سَمَدَ فلان إذا غنى).

68 ـ 75. **قوله تعالى**: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

في هذه الآيات: ذمُّ الله تعالى منهج الكفار في التعامل مع الحق فهم معرضون، ولو

اتبع الحق أهواءهم لفسد الكون فإنهم قوم جاهلون مفسدون. فهل تسألهم ـ يا محمد ـ أجراً على دعوتك لهم أم أنت محتسب في دعوتك إياهم إلى الصراط المستقيم. إن الذين لا يؤمنون بالآخرة تائهون في ضلالتهم ولو كشفنا عنهم ضرّهم لعادوا في طغيانهم يترددون.

فقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

إنكار على المشركين سوء تعاملهم مع الوحي الكريم، وعدم تفهمهم آيات هذا الذكر الحكيم. قال قتادة: (﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾: إذن والله يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله لو تَدَبَّرَهُ القوم وعقلوه، ولكنهم أخذوه بما تشابَه، فهلكوا عند ذلك).

وفي قوله: ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أكثر من تأويل:

التأويل الأول: أم جاءهم أمر ما لم يأت آباءهم الأولين فأنكروه وأعرضوا عنه. ذكره ابن جرير.

التأويل الثاني: قيل: ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل. قال القرطبي: (أي بل جاءهم ما لا عهد لآبائهم به، فلذلك أنكروه وتركوا التدبر به).

التأويل الثالث: قال ابن عباس: (وقيل: المعنى أم جاءهم أمان من العذاب، وهو شيء لم يأت آباءهم الأولين فتركوا الأعز).

قلت: والإعجاز القرآني يحتمل كل ذلك، ومفاد الآية الإنكار على طغاة مكة وأمثالهم عبر الزمان إعراضهم عن الهدى والحق وهذا القرآن العظيم، خوفاً على التقاليد والأعراف وموروث الأجداد. قال القاسمي: (﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي من الهدى والحق، فاستبدعوه واستبعدوه، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال. مع أن المجيء بما لم يعهد، لا يوجب النفرة. لأن المألوف قد يكون باطلاً، فتقتضي به الحكمة التحذير منه).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾.

توقيف للقوم وتقريع وتقبيح. قال سفيان: (بلى! قد عرفوه ولكنهم حسدوه).

قال النسفي: (﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ محمداً بالصدق والأمانة ووفور العقل وصحة النسب وحسن الأخلاق!! أي عرفوه بهذه الصفات ﴿فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ بغياً وحسداً).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾.

أي: أم يتهمون رسولهم بالجنون؟! فهو يأتي من الكلام بما لا معنى له!!

كلا، فالأمر ليس كذلك، فهم يعلمون حقاً أنه أرجحهم عقلاً وأفضلهم رأياً وأثقبهم ذهناً، وأنه جاءهم بالحق الأبلج والصراط القويم الذي فيه تهديد أهوائهم الفاسدة، وشهواتهم الحاكمة، وأعرافهم الجاهلية البالية. فلما لم يجدوا طريقاً لردِّ هذا الوحي العظيم الذي يهدّد منازلهم الجاهلية، نسبوه إلى الجنون في محاولة لكسر شوكته ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ﴾.

قال مجاهد وابن جريج: (الحق: الله). والمعنى: ولو أجابهم الله عز وجل وأجرى التدبير على أهواء هؤلاء المشركين لحصل الفساد في السماوات والأرض لفساد أهوائهم وإراداتهم.

وقوله: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾.

في تأويل الآية هنا قولان متكاملان:

القول الأول: الذكر هنا هو القرآن، أتيناهم به. قال ابن عباس: (أي ببيان الحق وذكر مالهم به حاجة من أمر الدين)، فهم عنه معرضون.

القول الثاني: أي: بل أتيناهم بشرفهم، لأن هذا القرآن كان شرفاً لهم إذ نزل على رجل منهم وخوطبوا به بلغتهم فأعرضوا عنه وكفروا به. قال السدي وسفيان: (﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أي بما فيه شرفهم وعزّهم). وقال قتادة: (أي بما لهم فيه ذكر ثوابهم وعقابهم).

وقوله: ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾. أي غافلون مستكبرون.

وقوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾. قال الحسن: (أجراً). وقال قتادة: (جُعْلاً). وقوله: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾. أي فرزق ربك خير فلا يستطيع أحد أن يرزق مثل رزقه، أو أن ينعم مثل إنعامه.

قال ابن كثير: (أي: أنت لا تسألهم أجرةً ولا جُعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه، كما قال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ [سبأ: 47]، وقال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ

ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[ص: 86]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: 23]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: 20 ـ 21]).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾.

أي: وإنما تدعوهم أنت ـ يا محمد ـ إلى صراط الله القويم، الذي فيه النجاة وسعادة الدارين، وإن الذين يكذبون بالآخرة ويوم الحساب لعادلون عن سواء السبيل وجائرون منجرفون. قال الرازي: («نكبَ» ـ فلان ـ عن الطريق: عَدَل. وتنكَّب عنه تَنَكُّباً أي مال وعدل). قال ابن عباس: (﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ يقول: عن الحق لعادلون).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: 52 ـ 53].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند، وأبو داود في السنن، بسند صحيح عن أبي تميمةَ عن رجل من قومه، أنه أتى رسول الله ﷺ، أو قال: شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله أو قال: أنت محمد؟ فقال: نعم. قال: فإلامَ تَدْعو؟ قال: [أدعو إلى ربك الذي إن مَسَّكَ ضر فدعوته كشفَ عنكَ، والذي إن أضللت بأرض قفرٍ فدعوته ردّ عليك، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: [قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قال: يا معشر قريش اشتروا أنفسكم

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود (3442)، وكتابي: السيرة النبوية (1/ 148) لتمام الحديث، ورواه أحمد بلفظ مقارب.

لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبدِ مَنافٍ لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباسُ بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا صفية عمةَ رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنتَ محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً][1] .

الحديث الثالث: أخرج الحاكم والترمذي بسند صحيح عن جابر مرفوعاً: [إني رأيت في المنام كأن جبريلَ عند رأسي ، وميكائيل عند رجليَّ ، يقول أحدهما لصاحبه: اضربْ له مثلاً ، فقال: اسمع سمعت أذُنكَ ، واعقِل عقلَ قلبُك ، إنما مثلك ومثلُ أمّتك كمثل ملكٍ اتخذ داراً ، ثم بنىٰ فيها بَيْتاً ، ثم جعل فيها مائدةً ، ثم بعثَ رسولاً يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من تركه ، فاللهُ هو الملكُ ، والدارُ الإسلامُ ، والبيتُ الجنةُ ، وأنت يا محمد رسول ، مَنْ أجابكَ دخلَ الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكَلَ ما فيها][2] .

وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول تعالى: ولو رحمنا هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ورفعنا عنهم ما بهم من القحط والجدب ، وضرّ الجوع والهزال. ﴿لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ يعني: في عتوّهم ، وجرأتهم على ربهم. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يعني يترددون).

وقال ابن كثير: (يُخبر تعالى عن غلظهم في كُفرهم ، بأنه لو أزاح عِلَلَهُم وأَفْهَمَهُم القرآن لما انقادوا له ، ولاَسْتَمَرُّوا على كُفرهم وطغيانهم ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: 23] ، وقال: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: 27 ـ 29] ، فهذا من باب عِلمه تعالى بما لا يكون ، ولو كان كيف كان يكون. قال الضحاك ، عن ابن عباس: كل ما فيه «لَوْ» فهو مما لا يكون أبداً) انتهى.

76 ـ 83. قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4771) ـ كتاب التفسير ، وانظر كذلك (4770) منه.

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/ 393) ، وأصله عند البخاري. وانظر صحيح الجامع (2461).

تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

في هذه الآيات: إنزالُ الله المصائب والشدائد في المشركين ليردَّهم ذلك عن الكفر والباطل الذي هم غارقون فيه، وتذكيرهم بنعم الله عليهم في السمع والأبصار والأفئدة لعلهم يشكرون. وتنبيههم إلى عجائب قدرته تعالى في بث الخلق في الأرض والإحياء والإماتة واختلاف الليل والنهار لعلهم يعقلون. ومقابلة المشركين ذلك بالكبر والغرور واتهام قوارع الحق بأنها من أساطير الأولين.

أخرج ابن جرير والنسائي وابن حبان والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس قال: [جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد! أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العِلْهِزَ - يعني الوبر والدم - فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾][1].

﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾: أي فما خشعوا. ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: ما لجؤوا إلى ربهم بالاستغفار والدعاء.

والمقصود: ابتلاهم الله بالمصائب والشدائد عسى أن يردهم ذلك عَمَّا هُمْ غارقون فيه من الكفر والضلالة، فما نفعهم ذلك، بل تابعوا في غَيِّهم وضلالهم ومخالفتهم.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 43].

2 ـ وقال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: 10 ـ 13].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه النسائي في «التفسير» (372)، وابن حبان (967)، والطبراني (12038) من طرق، وصححه الحاكم (2/ 394)، وأخرجه ابن جرير (65633)، والبيهقي في «الدلائل» (4/ 81) من وجه آخر عن عكرمة عن ابن عباس. وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة المؤمنون ـ آية (76).

وفي الأثر عن عمر: (لا أبالي على أي حال أصبحت أو أمسيت. إن كان الغنى، إنّ فيه للشكر، وإن كان الفقر إن فيه للصّبر).

وقال بعض السلف: (نعمته فيما زوى عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما بسط لي منها. إني رأيته أعطاها قوماً فاغتروا).

وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾.

قال القاسمي: (يعني ما نزل بهم من القتال والقتل يوم بدر، أو باب المجاعة والضر. ﴿ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أي حزنى نادمون على ما سلف منهم، في تكذيبهم بآيات الله، في حين لا ينفعهم الندم والحزن).

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: والله الذي أحدث لكم أيها المكذبون بالبعث بعد الممات، السمع الذي تسمعون به، والأبصار التي تبصرون بها، والأفئدة التي تفقهون بها، فكيف يتعذر على من أنشأ ذلك ابتداء إعادته بعد عدمه وفقده).

وقوله: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾. أي: ما أقل شكركم لله على ما تفضل به عليكم من نعمة السمع والبصر والفؤاد والعقل وغيرها من النعم التي لا تعد ولا تحصى.

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

قال النسفي: (خلقكم وبثكم بالتناسل ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم).

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

أي: وأمر الحياة والموت بيده سبحانه، فيحيي النسم بالإنشاء، ويميتها بالإفناء، وتعاقب الليل والنهار بأمره، في الظلمة والنور، والزيادة والنقصان، كل ذلك إليه وحده لا مصرف له سواه، أفبعد ذلك تنكرون قدرته تعالى على البعث للحساب ومقايضة الأعمال وتصريف الثواب والعقاب؟!

وقوله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾.

إخبار عن تعاقب السنن في الأمم المتتابعة، فقول الآخرين يشبه قول الأولين، فكما لم يعتبر المشركون الأولون بآيات الله ولم يتدبروا حججه البالغة، كذلك مضى

من بعدهم على العناد والتكذيب. يقولون: أئذا متنا وعدنا تراباً ، قد فنيت أجسامنا ، وبرأت عظامنا من لحومنا ، أئنا لمبعوثون من قبورنا أحياء كما كنا؟ إن هذا لشيء عجيب وما هو بكائن!

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أي: لقد وُعدنا هذا نحن منك ، وآباؤنا من قبل مجيئك ـ يا محمد ـ من قوم مثلك زعموا أنهم رسل الله ، فلم نر له حقيقة ، وما هو إلا من أباطيل الأولين وترّهاتهم.

84 ـ 90. **قوله تعالى:** ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

في هذه الآيات: قوارعُ من الوحي الكريم ، في إثبات اقتضاء الإيمان بالربوبية الإيمان بتوحيد الألوهية ، فالرب الذي يملك ويجير وبيده ملكوت كل شيء هو الإلـه الحق المستحق للعبادة والتعظيم ، والمشركون هم الكاذبون.

فقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

توجيه الله تعالى نبيه محمداً ﷺ للأسلوب الأمثل في مواجهة شرك قومه عن طريق إقرارهم لله تعالى بالربوبية ، لماذا لم يفردوه سبحانه بالألوهية؟! ولماذا لم يوحدوه وينزهوه تعالى في أسمائه وصفاته ومحامده!؟

فهم مُقِرُّون أَنَّ الأرض ومن فيها لله فقل لهم ـ يا محمد ـ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾. قال النسفي: (فتعلموا أن من فطر الأرض ومن فيها كان قادراً على إعادة الخلق ، وكان حقيقاً بأن لا يشرك به بعض خلقه في الربوبية).

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

قال ابن كثير: (أي: من هو خالقُ العالم العُلْوي بما فيه من الكواكب النيِّرات، والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات، ومَنْ هو ربُّ العرش العظيم؟ يعني الذي هو سَقْفُ المخلوقات. ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾، أي: إذا كنتم تعترفون بأنه رب السماوات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عِقابَه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراكِكُم به؟!).

قلت: وقد وصف الله تعالى في هذه الآية عرشه بالعرش العظيم لأنه أعظم المخلوقات، ونهاية الخلق، فليس فوقه إلا الله.

قال ابن عباس: (إنما سمّي عرشاً لارتفاعه).

ووصفه في آية أخرى بالعرش الكريم فقال جل ثناؤه في آخر السورة: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: 116].

والكريم: أي الحسن البهي، فجمع عرش الرحمن بين العظمة في الاتساع والعلو، والحسن الباهر. والله تعالى قد تعالى فوق العرش وكلِّ ما دونه، كما قال سبحانه في الآية السابقة: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ﴾. فليس ثمَّ مكانٌ ولا حدودٌ فوق العرش، فإن ذلك كله ينقطع عنده، وما فوقه إلا الله جلت عظمته.

وقد جاءت السنة الصحيحة بآفاق ذلك في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: [ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في الصحيح من حديث أبي ذر ـ أيضاً ـ أن النبي ﷺ قال يوماً: أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة في «كتاب العرش» (1/ 114)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص (290)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (109).

[إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش ، فتخر ساجدة ، فلا تزال كذلك حتى يقال لها : ارتفعي . .] الحديث[1] .

الحديث الثالث: أخرج ابن خزيمة بسند صحيح عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: [الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر أحد قدره][2] .

قلت: فالكرسي تحت عرش الرحمن وهو موضع قدمي الباري عز وجل ، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقوله: ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ . قال مجاهد: (خزائن كلّ شيء). فهو سبحانه الملك المتصرف بشؤون خلقه جميعاً لا رادّ لأمره.

قال تعالى: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ [هود: 56].

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عمر قال: [كانَتْ يمينُ النبي ﷺ: لا ، ومُقَلِّب القلوب][3] .

وفي لفظ: [كثيراً ما كان النبي يَحْلِفُ: لا ، ومُقَلِّبِ القلوب].

الحديث الثاني: خرّج مسلم في الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [إنَّ قلوبَ بني آدم كلّها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد ، يُصرِّفه حيث يشاء. ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم مصرف القلوب! صَرِّف قلوبنا على طاعتك][4] .

الحديث الثالث: أخرج أحمد في المسند ، ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة مرفوعاً: [والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يُذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم][5] .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1/ 96). وانظر مختصر صحيح مسلم (2138).

(2) صحيح موقوف رجاله كلهم ثقات. أخرجه ابن خزيمة في «التوحيد» ، وعبد الله بن أحمد في «السنة». انظر مختصر العلو (45/ ص 102) ـ تحقيق الألباني.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6628) ـ كتاب الأيمان والنذور ، وكذلك (6617) ـ في القدر.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 51) ، كتاب القدر ، باب تصريف الله القلوب كيف شاء.

(5) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 94) ، وأحمد (2/ 308) ، وله روايات كثيرة. وانظر للشاهد مسند أحمد (3/ 238) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (1951).

وله شاهد في المسند من حديث أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [والذي نفسي بيده ـ أو قال: والذي نفس محمد بيدِه ـ لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله عز وجل، لغَفَرَ لكم، والذي نفس محمد بيده ـ أو قال: والذي نفسي بيده ـ لو لم تخطئوا لجاء الله عز وجل بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم].

وقوله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: وهو السيد العظيم الذي يحتاج إليه جميع خلقه، فَيَمْنَعُ من يشاء ولا يُمنع منه، وَيُؤَمِّنُ مَنْ يشاء، ولا يُؤَمَّنُ مَنْ أخافه، إن كنتم ـ أيها الجاحدون ـ تعلمون.

أخرج أبو داود وأحمد بسند صحيح عن أبي جري جابر بن سليم قال: [رأيت رجلاً يصدر الناس عن رأيه، لا يقول شيئاً إلا صدروا عنه، قلت: من هذا؟ قالوا: هذا رسول الله ﷺ، قلت: عليك السلام يا رسول الله، مرتين، قال: لا تقل عليك السلام، فإن عليك السلام تحية الميت، قل: السلام عليك. قال: قلت: أنت رسول الله ﷺ؟ قال: أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضرٌّ فدعوته كشفه عنك، وإن أصابك عامُ سنة فدعَوْتَه أنبَتَها لك، وإن كنت بأرض قَفْراء أو فلاة فَضَلَّتْ راحلتك فدعوتَهُ رَدَّها عليك][1]..

وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾. قال ابن عباس: (يقول: تكذبون). أي: سيعترفون أن السيد العظيم الذي تتجه الخلائق إليه بحاجاتها فيجير من يشاء، ولا يجار عليه، هو الله الواحد الأحد لا شريك له.

فقل لهم يا محمد: فكيف تُصرف عقولكم وتشركون في عبادته. قال القرطبي: (أي فكيف تخدعون وتصرفون عن طاعته وتوحيده. أو كيف يُخَيَّلُ إليكم أن تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع! والسحر هو التخييل. وكل هذا احتجاج على العرب المقرّين بالصانع).

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

قال ابن كثير: (﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾، وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: في عبادتهم مع الله

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4084) ـ كتاب اللباس. وانظر صحيح سنن أبي داود (3442).

غيره ، ولا دليلَ لهم على ذلك ، كما قال في آخر السورة : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ، فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ما هُم فيه من الإفك والضَّلال ، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لآبائهم وأسلافِهم الحيارَى الجُهَّال ، كما قال الله عنهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 23]) .

91 ـ 92. قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: نفي الولد والشريك عن الله تعالى ، وأنه لو قُدِّر تعدد الآلهة لم ينتظم الوجود ، إذ يحاول كل واحد نَظْمَ خلقه وضَبْطَ ملكه ، ولا بد من أن يقهر أحدهما الآخر ، وسيظهر أثر ذلك في الكون. ولما كان هذا الوجود متسقاً منتظماً في عالَمَيْه العلوي والسفلي دَلّ ذلك على وحدانية الصانع وأنه الإله الحق الأحد الصمد عالم الغيب والشهادة لا شريك له .

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : 22] .

2 ـ وقال تعالى : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك : 3] .

3 ـ وقال تعالى : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد : 9] .

أي : يعلم سبحانه ما يغيب عن مخلوقاته وما يشاهدونه ﴿ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ : أي تقدس وتنزه سبحانه عما يشرك به الكافرون .

93 ـ 98. قوله تعالى: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ

ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

في هذه الآيات: تعليمُ الله تعالى نبيّه ﷺ أن يدعو بنجاته مما هو نازل بالقوم المشركين. وإخباره أن الله تعالى لو شاء لأراه الخزي والنقمة بالمعاندين. وأَمْرُهُ تعالى له بالدفع بالتي هي أحسن والاستعاذة به ـ جلت عظمته ـ من همزات الشياطين أو أن يحضرون.

فقوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد: ربّ إنْ تُرِيَنِّي في هؤلاء المشركين ما تعدهم من عذابك فلا تهلكني بما تهلكهم به، ونجني من عذابك وسخطك، فلا تجعلني في القوم المشركين ولكن اجعلني ممن رضيت عنه من أوليائك).

وقوله: ﴿فَلَا تَجۡعَلۡنِي﴾ جواب لقوله: ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي﴾ ـ اعترض بينهما بالنداء.

والخلاصة: هذا دعاء عظيم يحتاج المسلم أن يدعو به ربه تعالى عند حلول النقم، كي يجنّبه سبحانه الفتن، ومصارع السوء والإحن.

وفي السنة العطرة من آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في «الأدب المفرد» والترمذي وأحمد، بسند صحيح لشواهده، عن العباس بن عبد المطلب قال: [قلت يا رسول الله علمني شيئاً أسأله الله عز وجل. قال: سل الله العافية. فمكثت أياماً، ثم جئت فقلت: يا رسول الله علمني شيئاً أسأله الله. فقال لي: يا عباس يا عم رسول الله! اسألوا الله العافية في الدنيا والآخرة][1].

الحديث الثاني: أخرج الطبراني والحاكم بسند حسن عن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال لعمه العباس: [يا عَمِّ! أكثِر الدعاء بالعافية][2].

الحديث الثالث: أخرج أحمد والترمذي بسند صحيح عن معاذ بن رفاعة قال: قام

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (726)، والترمذي (2/ 266)، وأحمد (1/ 209). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1523).

(2) حديث حسن. أخرجه الطبراني (11908)، والحاكم (1/ 529)، وانظر المرجع السابق.

أبو بكر الصديق على المنبر ، ثم بكى ، فقال: قام رسول الله ﷺ عام الأول على المنبر ، ثم بكى فقال: [سلوا اللهَ العَفْوَ والعافيةَ ، فإن أحداً لمْ يُعْطَ بَعْدَ اليقين خيراً من العافية][1] .

الحديث الرابع: أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة ـ قال: أحْسِبُهُ قال: في المنام ـ فقال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: لا ، قال: فوضع يَدَهُ بين كَتِفَيَّ حتى وَجَدْتُ بردها بين ثديي ـ أو قال: في نَحري ـ فعلمت ما في السماوات وما في الأرض. قال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: نعم في الكفارات ، والكفارات: المكث في المسجد بعد الصلاة ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإسباغ الوضوء في المكاره ، ومن فعل ذلك عاش بخير ، ومات بخير ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه ، وقال: يا محمد إذا صليت فقل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون][2] .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾ .

أي: لو شئنا ـ يا محمد ـ لأريناك ما سينزل بهم من العذاب والفتن نتيجة عنادهم وإصرارهم على شركهم. قال القرطبي: (نبّه على أن خلاف المعلوم مقدور ، وقد أراه الله تعالى ذلك فيهم بالجوع والسيف ، ونجّاه الله ومن آمن بهِ من ذلك).

وقوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ .

أمر من الله تعالى بالعفو والصفح ومكارم الأخلاق ، فهو الترياق النافع في معاملة الناس ، وينعكس خيره على العبد بالشيء الكثير.

قال الحسن: (﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ قال: والله لا يصيبها صاحبها حتى يكظم غيظاً ، ويصفَح عما يكره).

قلت: وهذا الدافع بالإحسان نافع مع المسلمين عامة ، ومع الكفار زمن الدعوة

(1) حديث حسن صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (3811) من حديث معاذ بن رفاعة. وكذلك ابن ماجة (3849). انظر صحيح الترمذي (2821) ، ورواه أحمد.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (3463) ـ أبواب تفسير القرآن ، سورة (ص). وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2580).

والغربة ، فإذا وجب الجهاد وقتال المشركين وجب التنكيل بهم والغلظة عليهم.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: 34].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: 119].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل: 125].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أبو يعلى بسند حسن في الشواهد عن أنس قال: [لقي رسول الله ﷺ أبا ذر فقال: يا أبا ذر! ألا أدلك على خصلتين هما أخف على الظهر ، وأثقل في الميزان من غيرهما؟ قال: بلى يا رسول الله قال: عليك بِحُسْنِ الخُلُقِ ، وطول الصَّمْتِ ، فو الذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما](1).

وفي رواية: (ما تَجَمَّلَ الخلائق بِمثلهما).

الحديث الثاني: أخرج البخاري في «خلق أفعال العباد» والحاكم في المستدرك بسند صحيح عن يزيد بن المقدام بن شريح بن هاني عن المقدام عن أبيه عن هاني: [أنه لما وفدَ على رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله أي شيء يوجب الجنة؟ قال: عليك بِحُسْنِ الكلام ، وبَذْلِ الطعام](2).

الحديث الثالث: أخرج أبو داود وأحمد بسند صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: [أثقل شيء في الميزان الخلق الحسن](3).

وله شاهد عند الترمذي وزاد فيه: [وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة].

---

(1) حسن لشواهده. أخرجه أبو يعلى في مسنده (2/ 834) من حديث أنس بن مالك ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1938).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص79) ، والحاكم (1/ 23) ، وابن حبان في صحيحه (1937 ـ 1938).

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2/ 289) ، وأحمد (6/ 446) ، والترمذي (3/ 146).

وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

أمر من الله سبحانه لنبيه ﷺ بالاستعاذة من شياطين الجن ، لأنهم لا يقبلون رشوة ولا ينفع معهم جميل ، بعكس شياطين الإنس فإنه يمكن شراؤهم بحسن الخلق وطيب المعاملة ، وهذا منهج قويم يحتاجه المسلمون في حياتهم.

قال ابن زيد: (همزات الشياطين: خَنْقُهم الناس ، فذلك همزاتهم. ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ في شيء من أمري).

والهمزات: جمع هَمْزة ، والهَمْزُ هو الغَمْز. قال الرازي: (وهمزات الشياطين خَطَراته التي يُخْطِرُها بقلب الإنسان). وكذلك الهمز: هو النَّخْسُ والدفع. والمقصود: الاستعاذة بالله من نزعات الشياطين الشاغلة عن ذكر الله تعالى ، ومن محاولات اقترابه من العبد بمسّ وإيذاء أو سحر.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: 36].

2 ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201].

3 ـ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: 98].

ومن كنوز السنة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: يروي الديلمي بسند صحيح عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [لا تسبوا الشيطان ، وتعوذوا بالله من شره](1).

الحديث الثاني: خرّج مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تأكلوا بالشمال ، فإن الشيطان يأكل بالشمال](2).

وله شاهد عنده من حديث ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال: [لا يأكُلَنَّ أحدُكم بشماله ولا يَشربَنَّ بها ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها].

---

(1) حديث صحيح. رواه الديلمي (4/ 148) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2422).

(2) حديث صحيح. رواه مسلم (2019). وانظر للشاهد (2020) (106) ، وأخرجه مالك (2/ 922).

الحديث الثالث: خرّج مسلم في الصحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [لو أنَّ أحَدَهُمْ ، إذا أراد أن يأتي أهله ، قال: باسم الله ، اللهمَّ جَنِّبْنا الشيطان ، وجَنِّب الشيطان ما رَزَقْتَنا ، فإنه ، إنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُما ولدٌ في ذلك ، لم يَضُرَّه شيطانٌ أبداً][1].

الحديث الرابع: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي اليَسَر: أن رسول الله ﷺ كان يدعو: [اللهم إني أعوذ بك من الهدم ، وأعوذ بك من التردِّي ، وأعوذ بك من الغرق ، والحرق ، والهرم ، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت ، وأعوذ بك: أن أموت في سبيلك مدبراً ، وأعوذ بك أن أموت لديغاً][2].

99 ـ 100. قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبارٌ من الله جَلَّت عظمته عن حال المحتضر من الكفار وقد أوشك على الرحيل من هذه الدنيا وبلغت الروح الحلقوم ، وعاين نزول أمر الله به ، فقال ـ لعظيم ما يعاين مما هو مُقْدم عليه من العذاب ـ تندماً على ما فات ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ كي أعمل صالحاً فيما تركت قبل اليوم من العمل وضيعت من العمر ، ولكنه لا يجاب إلى ذلك ويمكث في عذاب القبر في البرزخ إلى يوم البعث والحساب.

فقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾.

قال ابن زيد: (﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾: هذه في الحياة الدنيا ، ألا تراه يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ قال: حين تنقطع الدنيا ، ويعاين الآخرة ، قبل أن يذوق الموت).

وقوله: ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

قال ابن عباس: (﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾: يريد شهادة أن لا إله إلا الله).

قال القرطبي: (﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي فيما ضيّعت وتركت العمل به من الطاعات. وقيل: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ من المال فأتصدق. و﴿لعل﴾ تتضمَّنُ تردداً ، وهذا الذي يسأل الرجعة قد

---

(1) حديث صحيح. رواه مسلم (1434) ـ كتاب النكاح. باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1552) ـ كتاب الصلاة. وانظر صحيح أبي داود (1373).

استيقن العذاب ، وهو يوطِّن نفسه على العمل الصالح قطعاً من غير تردد. فالتردد إما يرجع إلى رده إلى الدنيا ، وإما إلى التوفيق ، أي أعمل صالحاً إن وفقتني ، إذ ليس على قطع من وجود القدرة والتوفيق لو رُدَّ إلى الدنيا).

وقوله: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾.

كلا: حرفُ رَدْعٍ وزَجْر ، فهي كلمة ردّ ، والمقصود بالآية أحد تأويلين:

التأويل الأول: أي ليس الأمر على ما يظنه من أنه يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا.

التأويل الثاني: قيل: بل لو أجيب إلى ما يطلب لما وفّى بما يقول ، **بل** غلبه كفره مرة أخرى.

قلت: وكلا التأويلين محتمل يدل عليه السياق.

فدليل التأويل الأول: قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المنافقون: 10 ـ 11].

ودليل التأويل الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنعام: 27 ـ 28].

وقوله: ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾.

كل حاجز بين شيئين فهو برزخ ، قال الجوهري: (البرزخ الحاجز بين الشيئين).

والمقصود هنا بالبرزخ الحياة ما بين الدنيا والآخرة ، من وقت خروج الروح إلى وقت البعث للحساب.

قال مجاهد وابن زيد: (البَرْزَخُ ما بين الموت إلى البعث). وقال الضحاك: (ما بين الدنيا والآخرة).

ومن كنوز صرح السنة المطهرة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الترمذي بسند جيد من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا قُبِرَ الميتُ ، أو قال أحدُكم ، أتاه ملكان ، أسودان أزرقان ، يُقال لأحدهما: المُنْكَرُ ، والآخرُ: النكيرُ ، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: ما كان يقول: هو عبدُ الله ورسولهُ ، أشهدُ أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً عبدهُ ورسولهُ ،

فيقولان: قد كنا نعلمُ أنك تقولُ هذا ، ثم يُفسَحُ له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ، ثم يُنَوَّر له فيه ، ثمُ يقال له نَمْ ، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهُم؟ فيقولان: نَمْ كنَوْمَةِ العروس الذي لا يوقِظُهُ إلا أحبُّ أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مَضْجَعِه ذلك. وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون ، فقلت: مثله ، لا أدري ، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ، فيقال للأرض التئمي عليه ، فتلتئِمُ عليه ، فتختلف أضلاعُه ، فلا يزال فيها معذباً حتى يَبْعَثَهُ الله من مضجعِه ذلك][1].

الحديث الثاني: أخرج الطبراني بسند حسن عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ قال: [إنّ الموتى ليعذّبون في قبورهم ، حتى إنَّ البهائم لتسمعُ أصواتهم][2].

وله شاهد عند الإمام أحمد من حديث عائشة مرفوعاً: [عذاب القبر حق].

الحديث الثالث: أخرج ابن حبان من حديث أم بشر رضي الله عنها قالت: [دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا في حائط من حوائط بني النجار ، فيه قبور منهم قد ماتوا في الجاهلية ، فسمعهم وهم يعذبون ، فخرج وهو يقول: استعيذوا بالله من عذاب القبر ، قالت: قلتُ: يا رسول الله! وإنهم ليُعَذَّبونَ في قبورهم؟ قال: نعم عذاباً تسمعُهُ البهائِم][3].

101 ـ 104. قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

في هذه الآيات: انعدامُ الانتفاع بالأنساب والقربى عند النفخ في الصور للقيام لرب العالمين. فمن ثقلت أعماله في الميزان كان من المفلحين ، ومن خفت حسناته وثقلت سيئاته كان من الخاسرين ، ومأواه إلى نار الجحيم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2/ 163) ، وابن أبي عاصم في «السنة» (864).

(2) حديث حسن. أخرجه الطبراني (3/ 78/ 2) بإسناد حسن. وانظر للشاهد مسند أحمد (6/ 174) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (1377).

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (787) ، وأحمد (6/ 362). وانظر المرجع السابق (1444).

فقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾.

قال ابن عباس: (فذلك حين ينفخ في الصور فلا حي يبقى إلا الله).

والمعنى: إذا نفخ في الصور يوم النشور، وقام الناس من القبور، فيومئذ لا تنفع الأنساب والقربى، ولا يجدي إلاالصدق مع الله في العبادة والامتثال.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس: 34 ـ 37].

2ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [المعارج: 10].

قال النسفي: (﴿ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون في الدنيا، لأن كلاً مشغول عن سؤال صاحبه بحاله. ولا تناقض بين هذا وبين قوله: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ فالقيامة مواطن، ففي موطن يشتد عليهم الخوف فلا يتساءلون، وفي موطن يفيقون فيتساءلون).

قلت: وأما نسبه ﷺ فمتصل يوم القيامة فلا ينقطع كما تنقطع بقية الأنساب، وإنما ينتفع به أهله ما أقاموا منهاج النبوة ولم يحدثوا في الدين. **وفي ذلك أحاديث:**

الحديث الأول: أخرج الطبراني في «المعجم الكبير» بسند حسن عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً: [كُلُّ سَبَبٍ ونسَبٍ مُنْقَطِعٌ يومَ القيامة، إلا سببي ونَسَبي][(1)].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند جيد عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر: [ما بالُ رجال يقولون: إن رَحِمَ رسول الله ـ ﷺ ـ لا تنفعُ قومه؟ بلى، والله، إنَّ رحمي موصولة في الدنيا والآخرة، وإني ـ أيها الناس ـ فَرَطٌ لكم. فإذا جئتم قال رجلٌ: يا رسول الله، أنا فلانُ بن فلانٍ. وقال آخر: أنا فلانُ بن فلان. فأقول: أما النسبُ فقد عرفتُ، ولكنكم أحدثتم بعدِي، وارتددتُم القهقرى][(2)].

---

(1) حسن لشواهده. أخرجه الطبراني في «الكبير» (3/ 129/ 1)، وانظر السلسلة الصحيحة (2036).

(2) أخرجه أحمد (3/ 18)، (3/ 39)، (3/ 62)، وأخرجه أبو يعلى (1238)، وقال الهيثمي في «المجمع» (10/ 364): رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن محمد بن عقيل، وقد وثق. والحديث حسن في الشواهد.

الحديث الثالث: أخرج أبو بكر الشافعي في «الفوائد» والخطيب في «التاريخ» بِسند حسن لغيره عن عقبة بن عامر قال: [خَطَب عمر بن الخطاب إلى علي بن أبي طالب ابنته من فاطمة ، وأكثر تردده إليه ، فقال: يا أبا الحسن! ما يحملني على كثرة ترددي إليك إلا حديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّ سَبَبٍ ونَسَبٍ مُنْقَطِعٌ يومَ القيامة ، إلا سَبَبي ونَسبي». فأحبَبْتُ أن يكون لي منكم أهل البيت سبب وصهر. فقام عليّ فأمر بابنته من فاطمة فَزُيِّنَتْ ، ثم بعث بها إلى أمير المؤمنين عمر ، فلما رآها قام إليها فأخذ بساقها ، وقال: قولي لأبيك: قد رضيت ، قد رضيت ، قد رضيت ، فلما جاءت الجارية إلى أبيها قال لها: ما قال لك أمير المؤمنين؟ قالت: دعاني وقبلني ، فلما قمت أخذ بساقي ، وقال قولي لأبيك قد رضيت ، فأنكحها إياه ، فولدت له زيد بن عمر بن الخطاب ، فعاش حتى كان رجلاً ، ثم مات][1].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

قال ابن عباس: (أي: من رَجَحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: أولئك الذين فازوا بما طلبوا ، ونجُوا من شرِّ ما منه هربوا).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأعراف: 8].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: 47].

3 ـ وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: 7 ـ 8].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الحاكم بسند صحيح عن سلمان ، عن النبي ﷺ قال: [يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت ، فتقول الملائكة:

(1) أخرجه أبو بكر الشافعي في «الفوائد» (73/ 257/ 1) ، وابن عدي (6/ 2) ، والخطيب في «التاريخ» (6/ 182) ، وللحديث شواهد كثيرة ترتقي به للحسن. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2036) عقب الحديث المذكور.

يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقي، فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك، ويوضع الصراط مثل حد الموسى، فتقول الملائكة: من تجيز على هذا؟ فيقول: من شئت من خلقي، فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم][2].

الحديث الثالث: خرّج مسلم عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [الطهورُ شطرُ الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماوات والأرض][3].

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد في المسند بإسناد حسن عن ابن مسعود رضي الله عنه: [أنه كان يجني سِواكاً من الأراك وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: مِمَّ تضحكون؟ قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه، فقال: والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد][4].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: ومن خَفَّت موازين حسناته، فرجَحت بها موازين سيئاته، ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ يقول: غَبَنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله ﴿ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴾ يقول: هم في نار جهنم).

والمقصود: من ثقلت سيئاته في الميزان فرجحت كفتها على كفة حسناته فهؤلاء الذين خابوا وهلكوا وخسروا الصفقة، وهم في جهنم ماكثون مقيمون لا يظعنون.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [إنه ليأتي الرجل

---

(1) رواه الحاكم (4/ 586)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (941).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7563) ـ كتاب التوحيد، وأخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة ـ حديث رقم ـ (2694).

(3) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (120).

(4) حديث حسن. أخرجه أحمد وغيره بسند حسن. انظر تخريج الطحاوية (82) ـ تحقيق الألباني.

العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، وقال: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۝١٠٥﴾ [الكهف: 105]][1].

وقوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾.

أي: يسْفعُ وجوههم لهب النار ، فتحرقها ، فتتقلص الشفاه عن الأسنان في تكشّر وعُبوس.

قال ابن جريج ، عن ابن عباس: (﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ قال: تنفح ، ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ والكلوحُ: أن تتقلّص الشفتان عن الأسنان ، حتى تبدو الأسنان).

وقال علي ، عن ابن عباس: (﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ يقول: عابسون).

قلت: وقوله: ﴿كَالِحُونَ﴾ من الكلوح ، وهو يجمع في كلام العرب بين التكشر والعبوس.

قال الرازي: (الكلوحُ: تكشُّرٌ في عبوس). والمقصود: حرق الوجوه في نار جهنم يصير أصحابها في حالة مشوهة ومنظر قبيح.

قال القاسمي: (وتخصيص الوجوه لأنها أشرف الأعضاء. فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار).

105 ـ 111. **قوله تعالى**: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٠٥ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ۝١٠٦ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۝١٠٧ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۝١٠٩ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۝١١٠ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝١١١﴾.

في هذه الآيات: اعترافُ أهل الشقاء يوم القيامة بشقوتهم وضلالهم وتمنيهم الخروج من النار ، فَيُخْرِسُهُم الجبار ، وينتصر لأوليائه ، ويخزي أعداءه بما كانوا يسخرون. وينجي الذين اتقوا بمفازتهم بما كانوا يعملون ويصبرون.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4729) ـ كتاب التفسير، سورة الكهف، آية (105).

فقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾. تقريع للطغاة وتوبيخ بعدما وقعوا في شباك جهنم.

قال ابن كثير: (هذا تقريعٌ من الله تعالى لأهل النار وتوبيخٌ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التي أوبقتهم في ذلك، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾؟ أي: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت الكتب، وأزلت شبُهكم، ولم يبق لكم حجة تُدْلونَ بها كما قال تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: 165]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: 15]، وقال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: 8 ـ 11]).

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾.

فيه أكثر من تأويل:

1 ـ قال مجاهد: (﴿ غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾: التي كتبت علينا).

2 ـ قال القرطبي: (غلبت علينا لذاتنا وأهواؤنا، فسمى اللذات والأهواء شقوة، لأنهما يؤدّيان إليها).

3 ـ قيل: المقصود حسن الظن بالنفس وسوءُ الظن بالخلق.

قلت: وكلها أقوال متقاربة متكاملة، مفادها أن الطغاة اعترفوا متأخرين بعدما لفحتهم نار جهنم أنهم اختاروا طريق الشقاوة في الحياة الدنيا، فتحاكموا لأهوائهم وشهواتهم ومناهج الضلال وصدّوا عن سبيل الله، فحقّ عليهم الشقاء الذي كتبه الله عليهم بعلمه وعدله وحكمته.

وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾.

هو أمل لا تحقيق لهُ، وأمنية لا إجابة لها، فالكفار في جهنم يتمنون الرجعة ويعاهدون ربهم أن لا يعودوا إلى آثامهم وجرائمهم ولكن دون جدوى، فقد فاتهم قطار النجاة، وقضى الله انتهاء الحياة الدنيا، وسيتابعون حياتهم في نار جهنم في نحيب وبكاء.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: 37].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿11﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ [غافر: 11 ـ 12].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿12﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: 12 ـ 13].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس، عن النبي ﷺ قال: [يقول الله لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: لو أنَّ لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقول: أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي][1].

الحديث الثاني: أخرج الحاكم بسند حسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: [إن أهل النار ليَبْكون حتى لو أُجْرِيت السفن في دموعهم جَرَتْ، وإنهم ليبكون الدم][2].

الحديث الثالث: يروي ابن ماجة بسند صحيح عن عبد الله بن قيس قال: كنت عند أبي بردة ذات ليلة. فدخل علينا الحارث بن أُقَيْشٍ. فحدثنا الحارث ليلتئذ، أن رسول الله ﷺ قال: [إنَّ مِنْ أمتي مَنْ يَدْخُلُ الجنةَ بشفاعتِهِ أكثَرُ مِنْ مُضَرَ. وإنَّ مِنْ أُمَّتي مَنْ يَعْظُمُ للنارِ حتى يكونَ أَحَدَ زواياها][3].

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾. كلام تسكيت وتوبيخ وتحقير، وما هو بكلام تشريف.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (6557)، وانظر مختصر صحيح مسلم (1955).
(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/ 605)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1679).
(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4323) ـ في صفة النار، انظر صحيح ابن ماجة (3490).

قال ابن عباس: (هذا قول الرحمن عزّ وجَلّ، حين انقطع كلامهم منه).

قال النسفي: (﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا﴾ اسكتوا سكوت ذلة وهوان ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ في رفع العذاب عنكم، فإنه لا يرفع ولا يخفف). وقال القرطبي: (أي ابْعُدوا في جهنم، كما يقال للكلب اخْسَأ أي ابْعُد).

قال أبو الدرداء: (فعند ذلك يئسوا من كل خير، فيدْعون بالويل والشَّهيق والثبور) ـ ذكره بسنده ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾.

قال مجاهد: (هُمْ بلال وخَبّاب وصُهَيْب، وفلان وفلان من ضعفاء المسلمين، كان أبو جهل وأصحابه يهزؤون بهم).

وقال ابن زيد: (﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾: يسخرون منهم كما سخر قوم نوحٍ بنوح، اتخذوهم سخرياً: اتخذوهم هُزؤاً، لم يزالوا يستهزئون بهم).

والمقصود: انتصار الرحمن عز وجل لأوليائه من أعدائه، فقد كان المجرمون يضحكون في الحياة الدنيا من المؤمنين وتضرعهم ودعائهم وعبادتهم وإخلاصهم في منهاجهم لله تبارك وتعالى.

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: 29 ـ 36].

وفي شرح السنة عن أنس، عن النبي ﷺ قال: [يا أيها الناس! ابكوا فإن لم تستطيعوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم، كأنها جداول، حتى تنقطع الدموع، فتسيل الدماء، فتقرّح العيون، فلو أن سُفُناً أُزْجِيَتْ[1] فيها لجرت][2].

---

(1) أي: أرسلت.

(2) حسن لشواهده. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3491)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 767)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (1679).

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي﴾. قال ابن كثير: (أي: حَمَلَكُم بغضُهم على أن نسيتم مُعَاملتي).

وقوله: ﴿وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾. أي استهزاء من عبادتهم وحرصهم على إرضاء ربهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾. انتصار آخر من الله تعالى وبشارة للمؤمنين.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: إني أيها المشركون بالله المخَلَّدون في النار، جزيت الذين اتخذتموهم في الدنيا سخرياً من أهل الإيمان بي، وكنتم منهم تضحكون. ﴿ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ على ما كانوا يلقَون بينكم من أذى سخريتكم وضحككم منهم في الدنيا، أنهم هم الفائزون).

والمقصود: هذا يوم ثواب صبر المؤمنين على الأذى في سبيل علو أمر دينهم، وتحديهم للطغاة في إقامة ما أمرهم به ربهم ونالهم بسببه الأذى، فهم اليوم أصحاب الظفر الفائزون بجنات الخلود والنعيم المقيم.

112 ـ 118. قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٍ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

في هذه الآيات: اعترافُ المشركين يوم الحشر بمكثهم في الحياة الدنيا يوماً أو بعض يوم، وتقريعُ الباري عز وجل لهم بظنهم أنهم إليه لا يرجعون، فتعالى الله الملك الإله الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم، فإنه من يشرك بالله كان من الأشقياء الخاسرين، وأما المؤمنون فإنهم في ابتهال إلى الله ودعاء ورجاء ليكونوا بإذنه تعالى من عباده المرحومين.

فقوله تعالى: ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾.

أي: كم تُلَخِّصون ما أمضيتم في الحياة الدنيا أمام ما تستقبلون من الزمان في الدار الآخرة.

قال القرطبي: (وهذا السؤال للمشركين في عَرَصات القيامة أو في النار).

وقوله: ﴿ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾.

قال النسفي: (استقصروا مدة لبثهم في الدنيا بالإضافة إلى خلودهم ولما هم فيه من عذابها لأن الممتحن يستطيل أيام محنته ويستقصر ما مرّ عليه من أيام الدعة).

وقوله: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾. قال مجاهد: (الملائكة). وقال قتادة: (فاسأل الحُسّاب). أو قال: (فاسأل أهل الحساب). وكلا التأويلين ممكن.

وقوله تعالى: ﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

قال ابن كثير: (أي: مُدَّةً يسيرة على كل تقدير ﴿ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾، أي: لما آثرتم الفاني على الباقي، ولما تَصَرَّفتم لأنفسكم هذا التصرف السيِّئ ولا استحققتم من الله سُخطَه في تلك المدة اليسيرة، ولو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لَفُزْتُم كما فَازوا).

والمقصود: سَتُخْتَزَلُ الحياة الدنيا بجميع أفراحها وآلامها في بعض يوم من أيام الحياة الآخرة، وسيعلم الكافرون ضخامة الجُرم الذي صنعوه إذ خسروا الصفقة وضيعوا العمر بالكفر والشهوات، فأورثهم ذلك شقاء سرمدياً يوم القيامة.

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [يُؤْتى بِأَنْعَمِ أهل الدنيا، مِنْ أهلِ النار، يومَ القيامة، فَيُصْبَغُ في النار صَبْغَةً، ثم يُقال: يا ابن آدمَ! هل رأيت خيراً قط؟ هل مَرَّ بكَ نعيمٌ قطُّ؟ فيقول: لا، واللهِ! يا ربِّ! وَيُؤتى بأشَدِّ الناس بُؤْساً في الدنيا، مِنْ أهل الجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً في الجنة، فيقال له: يا ابنَ آدمَ! هَلْ رأيْتَ بُؤساً قَطُّ؟ هل مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقولُ: لا، واللهِ! يا رب! ما مَرَّ بي بُؤْسٌ قَطُّ، ولا رأيتُ شِدَّةً قطُّ][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2807) ـ كتاب صفات المنافقين، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، وصبغ أشدهم بؤساً في الجنة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: أفحسبتم أيها الأشقياء أنا إنما خلقناكم إذ خلقناكم لعباً وباطلاً، وأنكم إلى ربكم بعد مماتكم لا تصيرون أحياء، فتجزون بما كنتم في الدنيا تعملون؟).

وقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾.

أي: فتنزَّه الله الملك الحق وتقدس عما ينسب إليه المشركون من الأولاد والشركاء والأنداد، وعن أن يخلق عباده عبثاً أو سفهاً، بل هو الحكيم لا معبود بحق سواه رب العرش الكريم.

قال ابن كثير: (فذكر العرش لأنه سقفُ جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريمٌ، أي: حَسَنُ المنظر بَهِيُّ الشكل، كما قال تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: 10]).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

قال مجاهد: (﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ قال: بينة). أو قال: (حجة).

والمقصود: من يدع مع الله الذي لا تصلح العبادة إلا له معبوداً آخر لا حجة له بذلك، فإنما يوفى حساب عمله السَّيِّئ عند ربه الأحد الصمد الذي أشرك به، ومن ثَمَّ فلا فلاح للكافرين لا في الدنيا ولا في الآخرة.

قال الرازي: (نبّه تعالى بالآية، على أن كل ما لا برهان فيه، لا يجوز إثباته، وذلك يوجب صحة النظر وفساد التقليد).

وفي سنن أبي داود ومسند الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي تميمة عن رجل من قومه، أنه أتى رسول الله ﷺ، أو قال: شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله أو قال: أنت محمد؟ فقال: نعم. قال: فإلامَ تدعو؟ قال: [أدعو إلى ربكَ الذي إن مَسَّكَ ضرّ فدعوته كشَفَ عنك، والذي إن أضللت بأرض قفرٍ فدعوته رَدَّ عليك، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4084). انظر صحيح سنن أبي داود (3442)، وصحيح الجامع الصغير (242)، ورواه أحمد.

وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

أمر من الله تعالى لنبيّه ﷺ بالابتهال إليه ودعائه واستغفاره والثناء عليه، فإنه تعالى خير من رحم ذا ذنب، وخير من عفا، وخير من فرّج الكروب والمحن والمصائب، ومِنْ ثَمَّ فأمته ﷺ محتاجة إلى هذا الخطاب من باب أولى.

فبالاستغفار يبسط الله تعالى لعباده السرور والنعم.

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾ [نوح: 10 ـ 12].

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة][1].

وفي صحيح مسلم عن الأغرِّ بنِ يَسَار المزَنِيِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يا أيها الناس! توبوا إلى الله، فإني أتوب إلى الله في اليوم مئة مرة][2].

وفي لفظ: [إنه لَيُغَانُ على قلبي، وإني أستغفر الله في اليوم مئة مرة].

والغَيْنُ: هو ما يتغشى القلب من الغفلات.

والله نسأل مغفرة الذنوب والزّلات، والنجاة يوم الحسرات، إنه تعالى بالمؤمنين رؤوف رحيم.

تم تفسير سورة «المؤمنون»

بعون الله وتوفيقه، وواسع منِّـه وكرمه

❑ ❑ ❑

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (11/ 85)، وأخرجه الترمذي (3255).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2702) (42) ـ كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه. وانظر للفظ بعده (2702) (41) من الباب نفسه.

دروس ونتـــائج وأحكـــام

1 ـ قالت الجنة: قد أفلح المؤمنون. فقالت الملائكة: طوبى لك منازل الملوك.

2 ـ الخشوع في الصلاة يحصل لمن فَرَّغَ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها.

3 ـ احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك، والله أحق أن يُستحيا منه من الناس.

4 ـ المسلمون على شروطهم فيما أُحِلّ، وفيما وافق الحق من ذلك.

5 ـ لكل غادر لواء يوم القيامة، والمسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يخذله.

6 ـ أفضل الأعمال: الصلاة على وقتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله.

7 ـ جنة الفردوس أوسط وأعلى الجنة، وفوقها عرش الرحمان، ومن الفردوس تتفجّر أنهار الجنة.

8 ـ صُلب الرجل هو ظهره، وترائب المرأة عظام صدرها.

9 ـ كل ابن آدم يأكله التراب إلا عَجْبَ الذَّنب، مِنْهُ خُلِقَ، ومنه يُرَكَّب.

10 ـ تعلمون المعاد إلى الله، ثم إلى الجنة أو النار، وإقامة لا ظعن فيه، وخلود لا موت، في أجسادٍ لا تموت.

11 ـ النخيل والأعناب أشرف الثمار وأهمها عند العرب، والزيت يؤكل ويدّهن به، وهو يخرج من شجرة مباركة.

12 ـ دعاء الركوب للسفر: سبحان الذي سخَّر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون. الحمد لله ثلاثاً، الله أكبر ثلاثاً، سبحانك إني قد ظلمت نفسي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

13 ـ إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإجابة الدعاء متعلقة بطيب المأكل والملبس.

14 ـ المؤمنون يتقربون إلى الله بمختلف الطاعات وهم خائفون مشفقون أن لا يقبل منهم .

15 ـ التكاليف الشرعية متحملة ، وكتاب الأعمال دقيق ينطق بالصغائر والكبائر .

16 ـ التزام الاستغفار ، يقابله الغفار بإغداق النعم والأرزاق والأمطار .

17 ـ اقتضاء الإيمان بتوحيد الربوبية الإيمان بتوحيد الألوهية .

18 ـ الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر أحد قدره .

19 ـ سلوا الله العفو والعافية ، فإن أحداً لم يُعْطَ بعد اليقين خيراً من العافية .

20 ـ حسن الخلق ، وطول الصمت ، ما عمل الخلائق بمثلهما .

21 ـ همزات الشياطين خطراته ونزعاته ومحاولات اقترابه من العبد بمس أو إيذاء أو سحر . وفي الحديث : أعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت .

22 ـ البرزخ ما بين الموت إلىٰ البعث ، وسؤال الملكين وعذاب القبر حق .

23 ـ الميزان حق ، فمن ثقلت موازينه نجا ، ومن خفت موازينه هلك ، وفي هذه الأمة من يَعْظُم للنار حتى يكون أحدَ زواياها .

24 ـ كل ما لا برهان فيه لا يجوز إثباته ، وهذا يوجب صحة النظر وفساد التقليد .

25 ـ الغَيْنُ ما يتغشىٰ القلب من الغفلات ، وبالاستغفار يزول وتتنزل الرحمات .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مدنية في غالبها ، وعدد آياتها (64)

موضوع السورة

أحكام العفاف والستر
ونور الوحي في حياة وقلوب المؤمنين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ التنبيه على شأن هذه السورة ، وذكر عقوبة الزنىٰ لغير المحصن .

2 ـ الإعلام بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة ، وتحريم نكاح الزانية أو تزويج الزاني .

3 ـ تحريم القذف وبيان حدّه وعواقبه ، وتشريع الملاعنة وأحكامها .

4 ـ قصة أهل الإفك ، وبراءة عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلى يوم القيامة .

5 ـ تشريع آداب عالية في الاستئذان قبل الدخول ، واستثناء الأماكن العامة .

6 ـ الأمْرُ بغض البصر ـ للمؤمنين والمؤمنات ـ عما لا يحل النظر إليه ، وأَمْرُ المؤمنات بعدم إبداء زينتهن إلا الوجه والكفين ، وبيان ما يحل إظهاره أمام المحارم ، والنهي عن الضرب بالأرجل لما يحرك الفتنة على الرجال .

7 ـ الترغيب في التزويج للأحرار والعبيد والوعد بالغنىٰ والرزق على ذلك.

8 ـ الأمر بالاستعفاف حتىٰ يكون النكاح ، والترغيب بمساعدة المكاتبين ، والتحذير من إكراه الإماء على الزنىٰ.

9 ـ تمثيل بديع لقلب المؤمن الذي شعّ بنور الوحي الكريم ، والله تعالىٰ منوّر السماوات والأرض وهادي أهلهما وهو بكل شيء عليم.

10 ـ ذِكْرُ أطهر البيوت في الأرض عقب ذكر أطهر القلوب وأزكاها ، وفضيلة إعمار المساجد والثناء على عمارها.

11 ـ ضرب مثلين لنوعي الكفار: الرؤساء والأتباع. لا تنفعهم أعمالهم يوم الحساب ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

12 ـ إثباتُ تسبيح جميع المخلوقات ، وسوقُ الله السحاب وإنزاله المطر ، ولمعان البرق يأخذ بالبصر ، وتعاقب الليل والنهار ، وخَلْقُ كل دابة من ماء ، آيات لقوم يتفكرون.

13 ـ ذِكْرُ بعض صفات المنافقين ، يعلنون الإيمان وما هم بمؤمنين ، ويعرضون عن التحاكم لله ورسوله وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين. وأما المؤمنون فهم يخبتون لله ويرضون بحكمه وأولئك هم الفائزون.

14 ـ فضحُ المنافقين في تأكيدهم الخروج للجهاد مع رسول الله بالحلف وهم كاذبون. ومن يطع الله ورسوله ينعم بنور الهداية ومن يعرض فما على الرسول إلا البلاغ المبين.

15 ـ وعْدُ الله تعالىٰ المؤمنين الاستخلاف في الأرض والتمكين ، وعجزُ الكافرين عن الهروب من عذاب الله الأليم.

16 ـ آداب رفيعة في الاستئذان ، وبيان وجوب ذلك على الأطفال إذا بلغوا الحلم ، ولا جناح على القواعد من النساء أن يضعن ثيابهن غير متبرجات وأن يلتمسن العفاف والله سميع عليم.

17 ـ رفع الحرج عن الأعمىٰ والأعرج والمريض ، وجواز الأكل من بيوت القرابة ، والأمر بإلقاء السلام عند الدخول.

18 ـ إرشاد الله تعالىٰ عباده المؤمنين إلى الأدب مع نبيهم ، وإذا دخلوا أو خرجوا فليستأذنوا ولا يتفرقوا إلا عن أمره .

19 ـ النهي عن مناداة الرسول كمناداة غيره ، أو ظن دعائه كدعاء غيره .

20 ـ الوعيد الشديد على من تعمد مخالفة أمر الرسول ﷺ والله بكل شيء عليم .

❑ ❑ ❑

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 2. **قوله تعالىٰ**: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾.

في هذه الآيات: تعظيمُ الله تعالىٰ شأن هذه السورة الكريمة المشتملة على بيان أحكام العفاف والستر لقوم يَذَّكرون. إن عقوبة الزنىٰ لغير المحصن الجلد دون رأفة مع شهود هذا الحدّ من طائفة من المؤمنين.

فقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾. سورة: خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي، أو هذه. و﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾ صفة لها. قال القاسمي: (والتنكير للتفخيم). وقال ابن كثير: (فيه تنبيه إلى الاعتناء بها ولا يَنْفي ما عداها).

وقوله: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾. أصل الفرض القطع، أي جعلناها مقطوعاً بها ـ حكاه النسفي. وقد قرأ قُرّاءٌ من الحجاز والبصرة بتشديد الراء: «وَفَرَّضناها». قال مجاهد: (أي بَيَّنا الحلال والحرام والأمر والنهي والحدود). فالتأويل: فصّلناها ونزّلنا فيها فرائض مختلفة. وأما عامّة قراء المدينة والكوفة والشام فقرؤوها بالتخفيف: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾. قال ابن عباس: (يقول: بيناها). وقال البخاري: (يقول: فَرَضنا عليكم وعلى مَنْ بَعْدكم). والقراءتان مشهورتان في الأمصار، ولا مانع من اختيار إحداهما.

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾. قال ابن جريج: (الحلال والحرام والحدود). والمقصود: اشتمال السورة على آيات واضحات الدلالة صريحات البيان في مفاهيم الستر والعفاف وغير ذلك من الأحكام الشرعية، التي يحفظ الله بها النفوس والبيوت من سبل الشياطين.

وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. قال ابن جريج: (يقول: لتتذكروا بهذه الآيات البينات التي أنزلناها).

وقوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾. فيه تفصيل حكم الزاني والزانية في الإسلام، مع ما جاء بيانه في السنة المطهرة. وتفصيل ذلك:

الزاني إما أن يكون بكراً أو محصناً:

أ ـ حدّ الحر المحصن.

إذا زنىٰ الحر المحصن المكلف مختاراً فحدّه الرجم حتىٰ يموت. والمقصود بالمحصن مَنْ سَبَقَ له الوطء بنكاحٍ صحيح. والمكلف هو البالغ العاقل، فلا حدّ على الصبي والمجنون لحديث: «رفع القلم عن ثلاثة»(1).

فقد أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن جابر بن عبد الله الأنصاري: [أن رَجُلاً من أسلم أتىٰ رسول الله ﷺ فَحدَّثه أنه قد زنىٰ، فشهد على نفسه أربع شهادات، فأمر به رسول الله ﷺ فَرُجِمَ، وكان قد أُحْصِن](2).

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب الناس يوماً فقال: [إنّ الله بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشىٰ إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق على من زنىٰ إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف](3).

ب ـ حدّ الرقيق.

إذا زنىٰ غير الحر ـ عبداً كان أو أمة ـ فلا رجم عليه، ولكن يجلد خمسين جلدة، لقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: 25].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: [رُفِعَ القلمُ عن ثلاثة: عن النائم حتىٰ يستيقظ، وعن الصغير حتىٰ يكبر، وعن المجنون حتىٰ يَعْقِل أو يُفيقَ] وسنده صحيح. انظر صحيح سنن ابن ماجة (1660)، وصحيح الترمذي (1150).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (4407). انظر صحيح سنن أبي داود (3725)، ورواه الترمذي في الجامع (1454).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6830)، ومسلم (1691)، وأبو داود (4395)، وأخرجه الترمذي (1456)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

أخرج الإمام مالك في الموطأ ، والبيهقي بسند حسن ، عن عبد الله بن عياش المخزومي قال: [أمرني عمر بن الخطاب في فتية من قريش ، فجلدنا ولائد من ولائد الإمارة ، خمسين خمسين في الزنا][1] .

ج ـ حدّ البكر .

قال تعالىٰ : ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ .

أخرج البخاري عن زيد بن خالد الجهني قال: [سمعت النبي ﷺ يأمر فيمن زنىٰ ولم يحصن جلد مئة وتغريب عام][2] .

وفي صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: [خذوا عني ، خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلاً ، البكر بالبكر جلد مئة ونفي سنة ، والثيب بالثيب جلد مئة والرجم][3] .

ء ـ من أُكره على الزنا فلا حدّ عليه .

فقد أخرج البيهقي بسند صحيح عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: [أُتي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بامرأة جهدها العطش ، فمرّت على راع فاستسقت ، فأبىٰ أن يسقيها إلا أن تمكنه من نفسها ، ففعلت ، فشاور الناس في رجمها ، فقال عليّ رضي الله عنه: هذه مضطرة أرىٰ أن تخلي سبيلها ، ففعل][4] .

وقوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ . قال مجاهد: (أن تقيم الحدّ). قال ابن زيد: (فتدعوهما من حدود الله التي أمر بها ، وافترضها عليهما). والمقصود: عدم تعطيل حدود الله ، وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية ألا تكون حاصلة ، فإذا رفعت الحدود إلى السلطان وجب إقامتها وعدم تعطيلها. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن

---

(1) حديث حسن. أخرجه مالك (1508/ 594) ، وكذلك البيهقي (8/ 242) بسند حسن.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (6831) ، وانظر: «إرواء الغليل» (2347).
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1690) ، وأبو داود (4392) ، والترمذي (1461) ، وأخرجه ابن ماجة (2550) ، وانظر مختصر صحيح مسلم (1036).
(4) حديث صحيح. أخرجه البيهقي (8/ 236) ، وانظر الإرواء (2313) ، وكتاب: «الوجيز في فقه السنة والكتاب العزيز» ـ (ص 430 ـ 434).

رسول الله ﷺ قال: [تَعافوا الحدودَ فيما بينكم ، فما بلغني مِنْ حَدٍّ فقدْ وَجَبَ][1] .

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [حَدٌّ يُعْمَلُ به في الأرض ، خيرٌ لأهلِ الأرض مِنْ أنْ يُمْطَروا أربعين صَبَاحاً][2] .

ورواه من حديث ابن عمر بلفظ: [إقامةُ حَدٍّ من حدود الله ، خيرٌ من مَطَرِ أربعين ليلةً ، في بلاد الله عز وجل] .

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن عُبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: [أقيموا حُدودَ الله في القريب والبعيد. ولا تأخذكم في الله لَوْمَةُ لائمٍ][3] .

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾. قال ابن جرير: (يقول: إن كنتم تصدقون بالله ربكم وباليوم الآخر ، وأنكم فيه مبعوثون لحشر القيامة ، وللثواب والعقاب).

وقوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. قال قتادة: (نفر من المسلمين)[4] . والمقصود: ليكون ذلك موعظة للناس وعبرة ونكالاً وإعلاناً لسلطان الحق في الأرض.

3. **قوله تعالىٰ**: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

في هذه الآية: إخبارُ الله تعالىٰ بحقيقةٍ مهمة: الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة ، أي: لا يُطاوعه على مُراده من الزنا أو فجوره إلا زانية مثله ، أو مشركة تَسْتَبيحُ ذلك ، وكذلك حُرِّم على المؤمنين نكاح الزانية أو تزويج الزاني ، فإن الزنىٰ من صفات المشركين.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4376) ـ كتاب الحدود. وانظر صحيح أبي داود (3680).

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في السنن (2538). وانظر صحيح ابن ماجة (2056) ـ (2057).

(3) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (2540) ـ كتاب الحدود ، باب إقامة الحدود ، وانظر صحيح سنن ابن ماجة (2058).

(4) قال مالك: (الطائفة أربعةُ نفرٍ فصاعداً ، لأنه لا يكون شهادةٌ في الزنا دون أربعة شهداء فصاعداً) ـ رواه عبد الرزاق ، وهو قول الشافعي. قلت: والمهمّ في الأمر حضور بعض المسلمين للحكمة السابقة في الاعتبار وإظهار سلطان الحق.

أخرج أبو داود والترمذي بسند جيد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: [كان رَجُلٌ يقال له: مَرْثَدُ بن أبي مَرْثَدٍ، وكان رجلاً يحمل الأُسارىٰ من مكة حتىٰ يأتيَ بهم المدينة. قال: وكانت امرأة بَغِيٌّ بمكة يقال لها: عَناق، وكانت صديقة له، وأنه واعد رجلاً من أُسارىٰ مكة يَحْملُهُ. قال: فجئتُ حتىٰ انتهيتُ إلى ظل حائطٍ من حوائطِ مكة في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عَنَاقُ فأبصَرَتْ سوادَ ظلِّ تحت الحائط، فلما انْتَهَتْ إليَّ عَرَفَتْني، فقالت: مَرْثَد؟ فقلت: مَرْثَد. فقالت: مرحباً وأهلاً، هَلُمَّ فَبِت عندنا الليلة. قال: فقلت: يا عناقُ، حَرَّمَ الله الزنا. فقالت: يا أهلَ الخيام، هذا الرجُل يحملُ أَسْراكم، قال: فتبعني ثمانية ودخلتُ الخَنْدَمَةَ[1]، فانْتَهيْتُ إلى غار ـ أو: كَهْف ـ فدخلت فيه، فجاؤوا حتىٰ قاموا على رأسي فبالُوا، فَظَلَّ بولُهم على رأسي، فأعماهم الله عني. قال: ثم رجَعوا ورجعتُ إلى صاحبي فَحَمَلْتُه، وكان رجلاً ثقيلاً، حتىٰ انتهيْتُ إلى الإِذْخَرِ، ففككت عنه أكبُلَهُ، فجعلت أحمِلُه ويُعينني، حتى قدمت المدينة، فأتيت رسول الله ـ ﷺ ـ فقلت: يا رسول الله، أَنْكِحُ عناقاً؟ ـ مرتين ـ فأمسك رسول الله ﷺ فلم يردِ عَليَّ شيئاً، حتىٰ نزلت: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: يا مَرْثَدُ، ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ﴾، فلا تَنْكِحها][2].

وأخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو: [أنَّ رجلاً من المسلمين استأذن رسول الله ﷺ في امرأة يقال لها: أم مهْزُولٍ ـ كانت تُسافِحُ، وتشترط له أن تُنفق عليه ـ قال: فاستأذن رسول الله ﷺ ـ أو: ذُكِرَ له أمرُها ـ قال: فقرأ عليه نبيُّ الله ﷺ: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ﴾][3].

وفي رواية: [فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾].

---

(1) الخندمة: جبل بمكة.

(2) إسناده جيد. أخرجه أبو داود (2051)، والترمذي (3177)، والنسائي في «الكبرىٰ» (5338)، والبيهقي (7/ 153)، والحاكم (2/ 166) مختصراً. وقال صحيح الإسناد وأقره الذهبي. وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة النور، آية (3).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 159)، وانظر لما بعده (2/ 225)، ورواه النسائي في «التفسير» (379)، والبيهقي (7/ 153)، والحاكم (2/ 193 ـ 194) وصححه ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في المجمع (7/ 74): ورجال أحمد ثقات.

قلت: وفي قوله: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ـ تحريم صريح بتزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المُسَافح حتى يتوب توبة صادقة نصوحاً، وكذلك تحريم تَزَوُّج الرجل الصالح بالمرأة الزانية الفاجرة إلا أن تقلع عن فعلها المشين وتصدق التوبة والعفاف. وقد جاءت السنة المطهرة بآفاق ذلك في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يَنْكِحُ الزاني المجلودُ إلا مِثله][1].

الحديث الثاني: أخرج أحمد والنسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [ثلاثة لا يدخلون الجنة، ولا ينظر الله إليهم يومَ القيامة: العاقُّ لوالديه، والمرأة المترجِّلة[2] والديُّوث. وثلاثةٌ لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاقُّ لوالديه، ومدمنُ الخمر، والمَنَّانُ بما أعطىٰ][3].

وله شاهد عند الطبراني من حديث عمار بن ياسر بلفظ: [ثلاثة لا يدخلون الجنة أبداً: الدَّيوثُ، والرَّجُلةُ منَ النساء، ومدمنُ الخمر].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند حسن في الشواهد عن سالم بن عبد الله بن عمر قال: حدّثني عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: [ثلاثةٌ قَدْ حَرَّمَ الله عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاقّ، والدَّيوث الذي يقر في أهله الخبث][4].

4 ـ 5. قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

في هذه الآيات: تحريم القذف وبيان حدّه وعواقبه، والذين يستهينون بأمر القذف أولئك هم الفاسقون. إلا الذين تابوا وأصلحوا فإن الله غفور رحيم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2052)، كتاب النكاح. وانظر صحيح أبي داود (1807).

(2) هي المرأة المتشبهة بالرجال.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 134)، والنسائي (5/ 80)، والطبراني (13180) وأخرجه ابن حبان (7340)، والبيهقي (8/ 388)، وانظر للشاهد صحيح الجامع (3057).

(4) حسن لشواهده. أخرجه أحمد في المسند (2/ 69)، (2/ 128) من حديث عبد الله بن عمر، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ عقب الحديث ـ (674).

فقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ ﴾.

﴿ يَرۡمُونَ ﴾: أي يقذفون بالزنىٰ. و﴿ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ﴾: أي المسلمات الحرائر العاقلات البالغات العفيفات عن الزنىٰ. فيه بيان حد القذف، فمن قذف مسلماً، وليس لديه أربعة شهداء عدول يشهدون أنهم رأوه ـ أو رأوها ـ على الزنا، حُدَّ ثمانين جلدة، ولم تقبل شهادته أبداً في أي واقعة كانت، لظهور كذبه.

قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣ ﴾ [النور: 23].

قال القاسمي: (وتخصيص النساء لخصوص الواقعة، ولأن قذفهن أغلب وأشنع. وإلا فلا فرق فيه بين الذكر والأنثى). وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات][1].

وقوله: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ ﴾. قال ابن زيد: (الكاذبون).

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾. أي: إلا الذين تابوا من بعد القذف وأصلحوا أعمالهم، فإن الله تعالىٰ غفور رحيم، يقبل توبتهم ويعفو عنهم.

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: (ذهب الجمهور إلى أن شهادة القاذف بعد التوبة تقبل. ويزول عنه اسم الفسق. سواء كان بعد إقامة الحد أو قبله، لقوله تعالىٰ: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾. روىٰ البيهقي عن ابن عباس في هذه الآية: فمن تاب فشهادته في كتاب الله تقبل. وتأولوا قوله تعالىٰ: ﴿ أَبَدٗا ﴾ على أن المراد ما دام مصرّاً على قذفه. لأن «أبد كل شيء» على ما يليق به).

وقال الزمخشري: (والذي يقتضيه ظاهر الآية ونظمها، أن تكون الجمل الثلاث بمجموعهن جزاء الشرط. كأنه قيل: ومن قذف المحصنات فاجلدوهم، وردّوا شهادتهم وفسّقوهم. أي فاجمعوا لهم الجلد والرد والتفسيق، إلا الذين تابوا عن

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5/ 294) في الوصايا، وأخرجه مسلم (89) في الإيمان.

القـذف وأصلحـوا ، فـإن الله يغفـر لهـم ، فينقلبـون غيـر مجلـوديـن ولا مـردوديـن ولا مُفَسَّقين).

وفي صحيح البخاري في «كتاب الشهادات» ـ باب شهادة القاذف والسارق والزاني ـ عن عمر رضي الله عنه ، أنه جَلَدَ أبا بكرة وشبل بن معبد ونافعاً ، بقذف المغيرة بالزنىٰ ، لما شهدوا بأنهم رأوه متبطن المرأة. ولم يَبُتَّ زيادُ الشهادة. ثم استتابهم وقال: من تاب قبلتُ شهادته. وفي رواية قال لهم: من أكذب نفسه قبلت شهادته فيما يستقبل. ومن لم يفعل ، لم أجز شهادته. فأكذب شبل نفسه ونافع. وأبىٰ أبو بكرة أن يرجع.

وقد ذهب الإمام مالك والشافعي وأحمد بن حنبل إلى أنه إذا تاب قُبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق. وخالف أبو حنيفة وذهب إلى أن الفسق يرتفع بالتوبة ويبقىٰ مردودَ الشهادة أبداً ، وما عليه الجمهور أقرب وأرجح ، والله تعالىٰ أعلم.

6 ـ 10. قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

في هذه الآيات: تشريع الملاعنة ، إذا قذف الرجل زوجته ولا شهود له فيحضرها إلى الإمام فيدعي عليها بذلك ، فَيُحْلِفُه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء ، إنه لصادق في رميه إياها بالزنا. والخامسة أن لعنة الله عليه إن كذب في دعواه ، فإذا قال ذلك بانت منه وتوجه عليها حدّ الزنا. ويدرأ عنها الحد أن تُلاعن فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماها به. ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. ولولا لطفُ الله ورحمته ومنّه على المؤمنين ما شرع هذا الفرج من الضيق والخلاص من الحرج ، وهو مع ذلك تواب لما يجترحه عباده من الآثام ، رحيم بهم إذا أقبلوا عليه وأنابوا إليه ، حكيم في أقواله وأفعاله وتشريعه.

أخرج البخاري ومسلم وأحمد ومالك وأكثر أهل السنن عن سهل بن سعد: [أن

عويمراً أتىٰ عاصم بن عدي وكان سيد بني عجلان فقال: كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلاً يقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ سَلْ لي رسول الله ﷺ عن ذلك. فأتىٰ عاصم النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، فكَرِه رسول الله ﷺ المسائل، فسأله عويمر فقال: إنَّ رسول الله ﷺ كره المسائل وعابها. قال عويمر: والله لا أنتهي حتىٰ أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك. فجاء عويمر فقال: يا رسول الله، رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبتك، فأمرها رسول الله ﷺ بالملاعنة بما سمىٰ الله في كتابه فلاعنها، ثم قال: يا رسول الله، إنْ حبستها فقد ظلمتها فَطَلَّقها فكانت سنة لمن كان بعدهما في المتلاعنين. ثم قال رسول الله ﷺ: انظروا فإن جاءت به أَسْحَمَ أَدْعَجَ العينين عظيم الأليتين خَدَلَّجَ الساقين فلا أحسب عويمراً إلا قد صدق عليها، وإن جاءت به أحيمر كأنه وَحَرَةٌ فلا أحسب عويمراً إلا قد كذب عليها، فجاءت به على النعت الذي نعت به رسول الله ﷺ من تصديق عويمر، فكان بعد ينسب إلى أمه][1].

وفي صحيح البخاري وسنن أبي داود والترمذي وابن ماجة عن ابن عباس: [أنَّ هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: البيِّنة أو حدّ في ظهرك. فقال: يا رسول الله، إذا رأىٰ أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: البينة وإلا حدٌّ في ظهرك. فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، فلينزلن الله ما يُبَرِّئُ ظهري من الحد. فنزل جبريل وأنزل عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ فقرأ حتىٰ بلغ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليها، فجاء هلال فشهد، والنبي ﷺ يقول: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟ ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة. قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع. ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم. فمضت. فقال النبي ﷺ: أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين، سابغ الإليتين، خَدَلَّجَ الساقين، فهو لشريك بن سحماء، فجاءت به كذلك. فقال النبي ﷺ: لولا ما مضىٰ من كتاب الله لكان لي ولها شأن][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4745)، ومسلم (1492) ح (2)، (3)، وأخرجه أبو داود (2247)، (2248)، وأحمد (5/ 334)، وابن ماجة (2066)، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4747)، وأبو داود في السنن (2237)، والترمذي في الجامع (3229)، وأخرجه ابن ماجة (2067)، وغيرهم.

الأحكام المترتبة على اللعان:

إذا تلاعن الزوجان ترتب على تلاعنهما هذه الأحكام:

1 ـ التفريق بينهما.

ففي الصحيحين عن ابن عمر قال: [لاعنَ النبي ﷺ بين رجل وامرأة من الأنصار وفرّق بينهما][1].

2 ـ التحريم المؤبد.

لقول سهل بن سعد ـ كما روىٰ أبو داود والبيهقي بسند صحيح ـ: (مضت السنة في المتلاعنين أن يفرق بينهما، ثم لا يجتمعان أبداً)[2].

3 ـ استحقاق الملاعَنَة الصداق.

ففي الصحيحين عن أيوب عن سعيد بن جبير قال: [قلت لابن عمر: رجل قذف امرأته؟ فقال: فرّق النبي ﷺ بين أخوي بني العجلان، وقال: الله يعلم أن أحدكما لكاذب، فهل منكما تائب؟ فأبيا. وقال: الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟ فأبيا. فقال: الله يعلم أن أحدكما لكاذب، فهل منكما تائب؟ فأبيا، ففرّق بينهما. قال أيوب: فقال لي عمرو بن دينار: إن في الحديث شيئاً لا أراك تحدثه، قال: قال الرجل: مالي؟ قال: قيل: لا مال لك، إن كنت صادقاً فقد دخلت بها، وإن كنت كاذباً فهو أبعد منك][3].

4 ـ التحاق الولد بالملاعنة.

ففي الصحيحين عن ابن عمر: [أنّ النبي ﷺ لاعَنَ بين رجل وامرأته، فانتفىٰ من ولدها، ففرَّق بينهما، وألحق الولد بالمرأة][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5314)، وأخرجه مسلم (1494).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2233)، والبيهقي (7/ 410)، وانظر الإرواء (2104).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5311)، ومسلم (1493)، وأبو داود (2241)، والنسائي (6/ 177)، من حديث سعيد بن جبير.

(4) متفق عليه. أخرجه البخاري (5315)، ومسلم (1494)، وأبو داود (2242)، والترمذي (1218)، والنسائي (6/ 178)، وابن ماجة (2069).

5 ـ ثبوت التوارث بين الملاعنة وولدها.

ففي الصحيحين وسنن أبي داود ـ في حديث سهل بن سعد ـ قال ابن شهاب: (فكانت السنة بعدهما أن يفرق بين المتلاعنين، وكانت حاملاً، وكان ابنها يُدعىٰ لأمه. قال: ثم جرت السنة في ميراثها أنها ترثه، ويرث منها ما فرض الله له)[1].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾ نكتة لطيفة في اختصاصها بالغضب إن صدق عليها، واختصاصه من قبل باللعن إن كان من الكاذبين. قال ابن كثير: (فَخَصَّها بالغضب، لأنَّ الغالب أن الرجل لا يَتَجَشَّم فضيحة أهله وَرَمْيَها بالزنا إلا وهو صادقٌ مَعْذورٌ، وهي تعلمُ صدقه فيما رماها به. ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غَضَب الله عليها، والمغضوبُ عليه هو الذي يعلم الحقَّ ثم يحيدُ عنه).

قال القاسمي: (﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾: أي لحرجتم وشق عليكم كثير من أموركم، ولكن لرحمته ولطفه، شرع لكم من الفرج والمخرج، ما أنزله وأحكمه).

11 ـ 26. قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ

(1) متفق عليه. أخرجه البخاري (5309)، ومسلم (1492)، وأبو داود (2235)، من حديث سهل.

وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

في هذه الآيات: تبرئة عائشة أم المؤمنين مما رماها به المنافقون، أهل الإفك والبهتان المبين، وتأديب الله تعالىٰ عباده المؤمنين بآداب حفظ أعراضهم وسمعة بيوتهم وعدم الخوض في حكايات الثرثارين والكاذبين، وبيان بعض السنن والحكم التي قضاها الله تبارك وتعالىٰ في العالمين. فإلى تفصيل حادثة الإفك وما تبعها من أحكام وآداب شرعية عالية.

لقد سقطت ورقة عبد الله بن أبي بن سلول في قومه إثر القرآن النازل في تكذيبه، وفضح ما كان من محاولته لإثارة الفتنة وتحريك دعوى الجاهلية بين المسلمين، وذلك أثناء العودة من غزوة بني المصطلق، فكان قومه بعد ذلك يعنفونه ويلومونه كلما ظهرت منه حماقة أو خطأ أو غباء، حتى إن ابنه عبد الله همَّ بقتله والتخلص منه.

يروي ذلك ابن إسحاق بسند حسن، قال: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: [أن عبد الله أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتلَ عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلاً فمُرني به، فأنا أحمل إليك رأسَه، فوالله لقد علمت الخزرجُ ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتلَه، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتلَ رجلاً

مؤمناً بكافر ، فأدخل النار. فقال رسول الله ﷺ: بل نترَفَّقُ به ، ونُحْسِنُ صُحْبَتَهُ ما بقي معنا][1] .

ورواه الطبراني والبزار بلفظ آخر وفيه أن النبي ﷺ قال له: (لا ، ولكن بر أباك وأحسن صحبته) وسنده صحيح[2] .

وقد ظهر مباشرة أثر هذه الحكمة النبوية في معالجة النفاق ، إذ أصبح رأس النفاق موضع التوبيخ من قومه ، كلما بدرت منه حماقة جديدة أو فاحت رائحة الغل والحقد من قلبه .

ففي رواية ابن إسحاق السابقة : (قال: وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويُعَنِّفونه. فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب ، حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترىٰ يا عمر ، أما والله لو قتلتُه يوم قلتَ لي اقتُله ، لأُرْعِدت له آنُفٌ ، لو أمرتها اليوم بقَتْلِه لقتلته ، قال: قال عمر: قد والله علمتُ لأمرُ رسول الله ﷺ أعظمُ بركة من أمري)[3] .

ثم وقف عبد الله رضي الله عنه على باب المدينة يمنع أباه من دخولها ، واستل سيفه مهدداً والده رأس النفاق أن لا يدخلها إلا بإذن من رسول الله ﷺ.

روى ذلك الإمام الترمذي بإسناد حسن عن جابر ، قال: [فقال له ابنُه عبد الله بن عبد الله: والله لا تَنْقَلِب حتى تُقِرَّ أنك الذليل ورسولُ الله ﷺ العزيز ففعل][4] .

وهنا دخل المدينة ذليلاً صاغراً ولكنه بيت شراً ، فما لبث فيها قليلاً حتى أحدث فتنة عمياء كادت تودي بصواب طائفة من المسلمين ، وتركت آخرين منهم حيارىٰ قلقين لا يعرفون رشداً من أمرهم ، حين أقدم الخبيث على اتهام سيدة البراءة عائشة رضي الله عنها بالزنا والفاحشة ، وعلى إيذاء النبي ﷺ بالتطاول على عرضه وبسط القول فيه كذباً وزوراً.

فلندع أم المؤمنين ، أسوة الطاهرات العفيفات في الأمة ، تروي لنا خبر الإفك

---

(1) انظر: سيرة ابن هشام (2/ 291) بسند حسن.

(2) حديث حسن. قال الهيثمي في المجمع (9/ 318): رواه البزار ورجاله ثقات. وانظر صحيح السيرة ـ إبراهيم العلي ـ ص 255.

(3) انظر: سيرة ابن هشام (2/ 290 ـ 292) ، وهو حديث حسن لغيره كما مضىٰ.

(4) انظر: سنن الترمذي (3315) ، كتاب التفسير ، وهو حسن صحيح.

وما نزل ببيت النبوة ومجتمع المسلمين حينئذ من الأذى :

فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : [كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً قرع بين أزواجه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه . فأقرع بيننا في غزاة غزاها ، فخرج سهمي فخرجت معه بعدما أنزل الحجاب ، فأنا أحمل في هودج وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة ، آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين أذنوا بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحيل ، فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع أظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه .

فأقبل الذين يرحلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي أركب وهم يحسبون أني فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشهن اللحم ، وإنما يأكلهن العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج فاحتملوه . وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ، فجئت منزلهم وليس فيه أحد ، فأممت منزلي الذي كنت وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي ، فبينما أنا جالسة غلبتني عيناي فنمت .

وفي رواية لابن إسحاق : (فتَلَفَّفت بجلبابي : ثم اضطجعتُ في مكاني ، وعرفت أن لو قد افتُقدت لرُجع إليّ) .

قالت : وكان صفوان بن المُعَطّل السُّلَمي ثم الذكواني من وراء الجيش ، فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائم وأتاني ، وكان يراني قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته . (وفي رواية ابن إسحاق : قالت : فوالله إني لمُضطجعة إذ مَرَّ بي صفوان بن المعطّل السُّلَمي ، وقد كان تخلَّف عن العسكر لبَعْض حاجته ، فلم يبتْ مع الناس ، فرأى سوادي ، فأقبل حتى وقف عليّ ، وقد كان يراني قبل أنْ يُضربَ علينا الحجاب ، فلما رآني قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ظعينة رسول الله ﷺ! وأنا متلفِّفَةٌ في ثيابي ، قال : ما خلَّفك يرحمك الله؟ قالت : فما كَلَّمْتُه ، ثم قرّب البعير ، فقال : اركبي ، واستأخر عني . قالت : فركبت ، وأخذ برأس البعير ، فانطلق سريعاً ، يطلب الناس ، فوالله ما أدركنا الناس ، وما افتقدْت حتى أصبحتُ ، ونزل الناس ، فلما اطمأنوا طلع الرجلُ يقود بي ، فقال أهل الإفك ما قالوا ، فارتعج العسكر ـ أي تحرك واضطرب ـ ، والله ما أعلم بشيء من ذلك) .

وأما رواية البخاري: قالت: فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته، فوطئ يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا معرسين في نحو الظهيرة، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي بن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهراً، والناس يفيضون من قول أصحاب الإفك ويريبني في وجهي أني لا أرى من النبي ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض، إنما يدخل فيسلم ثم يقول كيف تيكم؟ لا أشعر بشيء من ذلك حتى نقهت فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع متبرزنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في البرية أو في التنزه، فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبي رهم نمشي فعثرت في مِرطها فقالت: تَعِسَ مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت! أتسبين رجلاً شهد بدراً. فقالت: يا هنتاه ألم تسمعي ما قالوا؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرضي. فلما رجعت إلى بيتي دخل عليَّ رسول الله ﷺ فَسلم فقال: كيف تيكم؟ فقلت: ائذن لي إلى أبوي. قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ فأتيت أبواي فقلت لأمي: ما يتحدث به الناس؟ فقالت: يا بنيّة! هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، فقلت: سبحان الله! أو لقد يتحدث الناس بهذا، قالت: فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يَرْقَا لي دَمْعٌ ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الودّ لهم، فقال أسامة: أهلك يا رسول الله ولا نعلم والله إلا خيراً. وأما عليّ فقال: يا رسول الله لَمْ يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك. فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: يا بريرة! هل رأيت فيها شيئاً يريبك؟ فقالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت منها أمراً أغمض عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة سِنٍّ تنام عن العجين، فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول. فقال رسول الله ﷺ: من يَعْذِرُني[1] من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي؟ فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله أنا والله أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا فيه أمرك. فقام سعد بن عبادة وهو

(1) أي من يقوم بعذري إن كافأته على سوء صنيعه فلا يلومني.

سيد الخزرج ، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية ، فقال: كذبت لعمرو الله لا تقتله ولا تقدر على ذلك. فقام أسيد بن الحضير فقال: كذبت لعمرو الله والله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر ، فنزل وخفضهم حتى سكتوا وسكت ، وبكيت يومي لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم فأصبح عندي أبواي وقد بكيت ليلتي ويوما حتى ظننت أن البكاء فالق كبدي. قال: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي ، فبينما نحن كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ فجلس ولم يجلس عندي من يوم قيل فِيَّ ما قيل قبلها ، وقد مكث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء.

قالت: فتشهد ثم قال: يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه. فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أُحسُّ منه قطرة ، وقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ! قال: والله وما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ؟ فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ فيما قال! قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ؟. قالت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن ، فقلت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس ووقر في أنفسكم وصدقتم به ، ولئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئة لَتُصدِّقُنِّي ، والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 18]. ثم تحولت على فراشي وأنا أرجو أن يبرئني الله ، ولكن والله ما ظننت أن ينزل في شأني وحياً ، ولأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم بالقرآن في أمري ، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله ، فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، حتى أنه ليتحدر مثل الجمان من العرق في يوم شات ، فلما سري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: يا عائشة احمدي الله فقد برأك الله. فقالت أمي: قومي إلى رسول الله ﷺ. فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله. فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ ـ الآيات ـ فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر رضي الله عنه ، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد ما قاله لعائشة ،

فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه. وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري! فقال: يا زينب! ما علمت؟ ما رأيت؟ فقالت: أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيراً، قالت: وهي التي كانت تساميني فعصمها الله بالورع][1].

فإلى تفصيل ما نزل من القرآن الكريم، وهو يفضح سوءة المنافقين، ويرتقي بالمؤمنين المخلصين، ليرفعهم إلى مستوى الأدب الرفيع وحسن الظن، فإن المنافقين والشياطين يحبون أن تشيع الفاحشة في الأرض، ويودون خراب بيوت المسلمين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وفي التفاسير عن ابن عباس: (قوله: ﴿جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾... الآية قال: الذين افتروا على عائشة: عبد الله بن أبي، وهو الذي تولى كِبْره، وحسان بن ثابت، ومِسْطَح، وحَمْنة بنت جحش).

فقد أغري بدعاية رأس النفاق جماعة من المؤمنين استزلهم الشَيطان فوقعوا في الإفك منهم حسان بن ثابت، ومِسْطَحُ بن أُثاثة، وحَمْنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ التي عصمها الله بالورع، بينما هلكت أختها وخاضت مع الخائضين.

وقوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. قال ابن جرير: (يقول: لا تظنوا ما جاؤوا به من الإفك شراً لكم عند الله، وعند الناس، بل ذلك خير لكم عنده وعند المؤمنين، وذلك أن الله يجعل ذلك، كفارة للمرمي به، ويُظهر براءته مما رمي به، ويجعل له منه مخرجاً).

وعن علقمة بن وقاص وغيره قالوا: قالت عائشة: (كان الذي تولىٰ كبره: الذين يجمعهم في بيته، عبد الله بن أبي بن سَلُول).

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (4141)، كتاب المغازي. وكتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة ـ حادثة الإفك ـ لتفصيل البحث.

وقال ابن زَيد: (أما الذي تولى كبره منهم ، فعبد الله بن أُبي بن سلول الخبيث ، هو الذي ابتدأ هذا الكلام ، وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقود بها).

وعن عروة عن خالته عائشة قال: (وأخبرت أنه كان يحدّث به عنهم ، فيقره ويسمعه ويستوشيه).

وقال مجاهد: (والذي تولى كِبْرَهُ هو عبد الله بن أبي ابن سلول ، وهو بدأه).

ثم عاتب الله من خاض بالإفك من المؤمنين ، وعلمهم الأدب الرفيع الذي كان ينبغي أن يتحلّوا به إذا ما عصفت بهم محاولات أهل المكر والكذب والنفاق ، فقال جل ذكره: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

قال ابن زيد في التفسير: (الخير ظنّ المؤمن أن المؤمن لم يكن ليفجر بأمه ، وأن الأم لم تكن لتفجر بابنها ، إن أراد أن يفجر فجر بغير أمه ، يقول: إنما كانت عائشة أماً ، والمؤمنون بنون لها ، محرّماً عليها ، وقرأ: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ الآية).

في حين أثنى الله على أبي أيوب وطائفة من المؤمنين كذبوا الخبر لثقتهم بآل بيت النبوة ، وإدراكهم طبيعة المهزلة الساقطة التي كان يديرها المنافقون ، فما إن سمع أبو أيوب بها قال: (سبحانك ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم).

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عروة عن عائشة رضي الله عنها: [أن رسول الله ﷺ خطب الناس فحمد الله وأثنىٰ عليه وقال: ما تشيرونَ عليّ في قوم يَسُبّون أهلي ما علمتُ عليهم من سوءٍ قط. وعن عروة قال: لما أُخبرت عائشةُ بالأمر قالت: يا رسول الله أتأذَنُ أن أنطَلِقَ إلى أهلي فأذِنَ لها وأرسل معها الغلامَ. وقال رجلٌ من الأنصار سبحانك ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾][1].

وفي التفاسير عن محمد بن إسحاق ، عن أبيه ، عن بعض رجال بني النجار: [أن أبا أيوب خالد بن زيد ، قالت له امرأته أمّ أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى وذلك الكذب ، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله ، قال: فعائشة والله خير منك. قال: فلما نزل القرآن ، ذكر الله من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ وذلك حسان وأصحابه

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (9/ 92) ، وفتح الباري (13/ 344).

الذين قالوا ما قالوا ، ثم قال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ . . . الآية: أي كما قال أبو أيوب وصاحبته].

فهلاّ جاء هؤلاء العصبة الذين اختلقوا الإفك ورموا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالبهتان ، بأربعة شهداء يشهدون على حقيقة ما يزعمون ، فإذْ لم يفعلوا فأولئك عند الله هم الكاذبون. ولولا تفضل الله عليكم أيها الخائضون ، بتركه تعجيل عقوبتكم في الدنيا ، ثم رحمته بقبول توبتكم وعفوه عنكم في الدنيا والآخرة ، لمسكم فيما خضتم فيه من أمرها عذاب عظيم معجل في الدنيا ، لقاء ما أسرفتم على أنفسكم وآذيتم أمكم ونبيكم.

وقد أمر النبي ﷺ بإقامة حد القذف على مسطح وحسان وحمنة كما يروي البزار والبيهقي بإسناد حسن ، وأما رأس النفاق فلا داعي لإقامة الحد عليه ، إذ إن في إقامته عليه كفارة ، وهو ممن توعده الله جهنم يصلاها ذليلاً صاغراً ، ويذوق فيها عذاباً أليماً ، فهو أدنىٰ بكثير من أن يقام عليه الحد ، هذا تفسير ، والتفسير الآخر أورده ابن القيم بزاد المعاد: أنّ ذلك المنافق كان لا يترك دليلاً ضده يدينه في كلامه ، فكان لا يتكلم بالإفك أمام المؤمنين ، وأميل إلى التفسير الأول.

ثم عاب الله على الذين تلقونه بألسنتهم وخاضوا فيه دون دليل أو علم ، وهم يحسبون ذلك هيناً وهو عند الله عظيم ، وإنما كان الأليق بهم أن يقولوا: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم.

فعن مجاهد: (إذ تلقونه بألسنتكم: قال: ترْوونه بعضُكم عن بعض).

وقال ابن جرير: (يقول: وتلقيكم ذلك كذلك ، وقولكُموه بأفواهكم ، عند الله عظيم من الأمر ، لأنكم كنتم تؤذون به رسول الله ﷺ وحليلته. فلولا أيها الخائضون في الإفك ، الذي جاءت به عصبة منكم ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ ممن جاء به ﴿قُلْتُم﴾ ما يحل لنا أن نتكلم بهذا ، وما ينبغي لنا أن نتفوه به ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ تنزيهاً لك يا رب ، وبراءة إليك مما جاء به هؤلاء).

ثم أخبر المؤمنين ليحذروا: أنّ هناك من يحب أن تَشيع الفاحشة في صفوفهم ، ويخرب بيوتهم ويهددها من الداخل ، وأولئك لهم عذاب أليم ، فإياكم أن تتبعوا خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر وفاسد القول والعمل. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾. قال ابن عباس: (ما اهتدى منكم من الخلائق لشيء من

الخير ، ينفع به نفسه ، ولم يتق شيئاً من الشر يدفعه عن نفسه).

وقال ابن زيد: (ما زكى: ما أسلم ، وقال: كل شيء في القرآن من زكى أو تزكى فهو الإسلام). والله سميع لما تقولون ، عليم بكل ما يصدر عنكم ، فهو محصيه عليكم ليجازيكم به.

ثم خاطب الله الصديق الذي أصيب في أهله ونالت ألسنة المفترين ابنته الطاهرة ، وقد كان عزم على قطع معونته وصدقاته عن مسطح بن أثاثة الذي خاض في الإفك مع الخائضين ، فقال أبو بكر بعدما نزلت براءة عائشة رضي الله عنها: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعدما قاله لعائشة ، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

فقال أبو بكر كما يروي البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها: [بلىٰ والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه].

ثم بين سبحانه أنّ جزاء كل من يرمي محصنة لم تقارف سوءاً هو اللعن في الدنيا والآخرة ما لم يحدث توبة ويقام عليه الحد فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ ﴾.

واختار ابن جرير قولَ مَنْ قال: (نزلت هذه الآية في شأن عائشة ، والحكم بها عام في كل من كان بالصفة التي وصفه بها فيها).

ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء المفترين القاذفين المحصنات بالسوء ستشهد عليهم يوم القيامة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، وسوف ينالون يومئذ ما يستحقون، ثم بين جل ذكره أن الخبيثات للخبيثين والطيبات للطيبين.

قال ابن عباس: (يقول: الخبيثات من القول ، للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال ، للخبيثات من القول).

وقال الضحاك وَزاد: (والطيبات من القول للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من القول ، فهذا في الكلام ، وهم الذين قالوا لعائشة ما قالوا ، هم الخبيثون. والطيبون المبرؤون مما قال الخبيثون).

ووعد الطيبين أن ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ﴾. قال قتادة: (مغفرة لذنوبهم، ورزق كريم في الجنة).

دروس ونتائج وأحكام:

1 ـ الولاء والبراء هو محور منهج الإيمان عند المسلمين:

فالولاء يكون لله ولرسوله وللمؤمنين ، والبراء يكون من الشرك والمشركين والمنافقين ، وهذا عبد الله ابن المنافق ابن سلول قد أظهر تألقاً عالياً في امتثال مفهوم الولاء والبراء كما بَيَّنَهُ الوحي الكريم ، وسجل رقماً عالمياً آنذاك في مفهوم الحب والبغض في الله ، فآثر أن يقوم بنفسه بتخليص المجتمع المسلم من أمراض والده التي تهدد سلامة الجماعة المؤمنة وأمنها ، الأمر الذي يدل على دخول الإيمان إلى أعماق قلوب أولئك الرجال حتى أحدث تغييراً واضحاً في مقاييسهم وعلاقاتهم وسلوكهم ، فقال لأبيه رأس النفاق: (والله لا تنقلب حتى تقرّ أنك الذليل ورسول الله العزيز).

وقد علل النبي ﷺ لعبد الله منعه من قتل أبيه بالحرص على سمعة الإسلام ونبي الأمن والسلام ، فقال له ـ كما يروي البزار ورجاله ثقات ـ: [لا يتحدث الناس أن محمداً قتل أصحابه].

لقد أسهب الوحي الكريم في تعميق مفهوم الولاء والبراء في قلوب المؤمنين زمن التنزيل ، لينعكس ذلك على تصوراتهم ويقينهم وأعمال جوارحهم ، فجاءت النصوص تؤصل ذلك المفهوم المنهجي مرة بعد مرة ، لتدرك الجماعة المؤمنة أهميته ، ولتمضي الأمة من بعدهم على ذلك السبيل القويم.

فقد قال الله في سورة المجادلة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وقال في سورة الممتحنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

وفي الصحيحين والمسند عن أنس عن النبي ﷺ قال: [ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحبّ المرءَ لا يحبه

إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقىٰ في النار][1] .

2 ـ بشرية الرسول وعدم علمه بالغيب :

فقد قاسىٰ النبي ﷺ ألمَ ما يقال في عرضه ، وفي أحب الناس إليه زوجته عائشة بنت أحب الناس إليه أبي بكر الصديق قرابة شهر ، ولو كان يعلم الغيب أو يقدر على استحضار الوحي لفعل ، ولخفف بذلك عن نفسه ومن حوله تلك المعاناة التي دامت أياماً طويلة ، وفي هذا أكبر دليل على أنه بشر يأتيه الخبر من الوحي ، فإذا تأخر عنه فترة من الزمن عايش الأحداث كغيره وحاكم الأمور ببشريته وبما معه من أدلة وهدي ونور .

وفي هذا يقول الدكتور العمري : (وفي حادثة الإفك توضيح دقيق لبشرية الرسول ﷺ ، فقد تأثّر أبلغ التأثر لرمي المنافقين زوجه . ومع حرصه عليها وحبه لها ولأبيها ، فإنه لم يتمكن من الكشف عن الغيب أو استحضار الوحي الذي انقطع عنه شهراً ليجري عليه الابتلاء والامتحان)[2] .

لقد قال الله في سورة الكهف : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ .

وفي صحيح الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال : [قال النبي ﷺ لجبريل : ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾][3] .

وكذلك لو كان الوحي ـ كما يزعم بعض المستشرقين وبعض المنهزمين ـ أنه إلهام نفسي أو تألق عقلي أو تفاعل بين الأفكار والخواطر التي تجوب داخل النفس ، لكان ذلك الألم النفسي كافياً لانبثاق شيء من الإلهام والخواطر التي تحول دون استمرار هذه المعاناة للعواطف الملتهبة المتقلبة وتؤدي لإنهاء الصراع ، وقد أشار إلى ذلك الدكتور العمري في كتابه «السيرة النبوية الصحيحة» .

ولكن الأمر كما قال الله في سورة الحاقة : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

وكما قال في سورة الأعراف : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ

(1) حديث صحيح . انظر صحيح البخاري (21)، كتاب الإيمان، وصحيح مسلم (43)، كتاب الإيمان .
(2) انظر كتاب : «السيرة النبوية الصحيحة» (2/ 415) .
(3) حديث صحيح . انظر صحيح البخاري (4731) ، كتاب التفسير .

أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

وفي كنوز السنة الصحيحة تأكيد كبير لهذا المفهوم في الإسلام.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن رافع بن خديج، أن رسول الله ﷺ قال: [إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيءٍ من رأيي، فإنما أنا بشر][1].

وله شاهد صحيح في المسند من حديث طلحة بلفظ: [إنما أنا بشر مثلكم، وإن الظن يخطئ ويصيب، ولكن ما قلتُ لكم: قال الله، فلن أكذب على الله]. وهو رواية لمسلم من حديث رافع[2].

وفي الصحيحين والمسند عن أم سلمة عن النبي ﷺ قال: [إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ، فلعل بعضكم أن يكونَ ألحن بحجّته من بعض، فأقضيَ له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها][3].

وفي صحيح الإمام مسلم عن جابر عن النبي ﷺ قال: [إنما أنا بشر، وإني اشترطْتُ على ربي عزَّ وجل: أيَّ عبدٍ من المسلمين شَتَمْتُهُ، أو سَبَبْتُهُ، أن يكون ذلك له زكاةً وأجراً][4].

وفيه وفي مسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجة بسند صحيح عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [إنما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نَسِيَ أحدُكم فليسجُدْ سجدتين وهو جالس][5].

وكذلك يروي ابن سعد بإسناد صحيح عن محمود بن لبيد عن النبي ﷺ أنه قال: [إنما أنا بشر تدمَعُ العين ويخشع القلبُ، ولا نقول ما يُسخِط الربَّ، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون][6].

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (2362)، كتاب الفضائل.
(2) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (2361)، كتاب الفضائل، من حديث رافع بن خديج.
(3) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (6967) كتاب الحيل، وصحيح مسلم (1713) كتاب الأقضية، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.
(4) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (2602)، كتاب البر والصلة.
(5) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (572) ح (94). ورواه أحمد وابن ماجة.
(6) حديث صحيح. أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (1/ 142)، وانظر السلسلة الصحيحة (1732).

3 ـ براءة عائشة إلى يوم القيامة:

قال الحافظ ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾: (وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبّها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية، فإنه كافر لأنه معاند للقرآن).

لقد عوض الله عائشة رضي الله عنها عن محنتها ودموعها البريئة التي انهمرت في أيام المحنة والصبر، ومنعتها من النوم والراحة، أن شرفها بصدق توكلها ببراءة في قرآن يُتلى يتعبد به الناس على مر الدهور والأزمان. فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾. وقد ذكّرها ابن عباس بتلك الشهادة من الله أثناء موتها حين دخل عليها فقال لها: (أبشري فإنك زوجة رسول الله ﷺ، وكان يحبك ولم يتزوج بكراً غيرك، ونزلت براءتك من السماء) ـ تفسير ابن كثير ـ.

لقد شرفها الله بنزول الوحي لتبرئتها ولم تكن هي تتوقع ذلك، فكانت تقول: (ولشأني في نفسي كانَ أحقرَ من أن يتكلم الله فيَّ بوحي يُتلى) أخرجاه في الصحيحين عنها.

وجاء جبريل يوماً إلى النبي ﷺ وبعث لها معه سلاماً، فأقرأها إياه.

ففي صحيح الإمام مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: [يا عائشة، هذا جبريل يقرأ عليك السلام، فقالت: وعليه السلام ورحمة الله، قالت: وهو يرى ما لا أرى][1].

وبقيت عائشة رضي الله عنها محبوبَة نبينا الأولى من بين زوجاته، ينتظر يومها بفارغ الصبر. روى مسلم عنها قالت: [إن كان رسول الله ﷺ ليتفقد، يقول: (أين أنا اليوم، أين أنا غداً)، استبطاء ليوم عائشة، قالت: فلما كان يومي، قبضه الله بين سَحْري[2] ونحري][3].

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (2447)، كتاب فضائل الصحابة.

(2) السحْر: الرئة.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (7/ 137)، وهو في مختصر صحيح مسلم برقم (1663)، باب: في فضائل عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

وفي صحيح مسلم أيضاً عنها قالت: [أرسلَ أزواجُ النبي ﷺ فاطمةَ بنتَ رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فاستأذنت عليه وهو مضطجع معي في مِرْطي، فأذِنَ لها، فقالت: يا رسول الله إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنكَ العدلَ في ابنةِ أبي قُحافة[1] وأنا ساكتة، قالت: فقال لها رسول الله ﷺ: أي بنية ألستِ تُحبِّين ما أحب؟ فقالت: بلى، قال: فأحبي هذه، قالت: فقامَتْ فاطمة رضي الله عنها حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ، فرجعت إلى أزواج رسول الله ﷺ فأخبرتهن بالذي قالت، وبالذي قال لها رسول الله ﷺ، فقلن لها: ما نراك أغْنَيْتِ عنا من شيء، فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقولي له: إن أزواجَكَ ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة، فقالت فاطمة: والله لا أكلمه فيها أبداً، قالت عائشة: فأرسل أزواجُ النبي ﷺ زينب بنت جَحْشٍ رضي الله عنها زوجَ النبي ﷺ، وهي التي كانت تساميني[2] منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أرَ امرأةً قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدَق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظمَ صدقةً، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصَدَّقُ به وتقرَّبُ به إلى الله تعالى ما عدا سَوْرَةً من حِدَّةٍ كانت فيها، تُسْرِعُ منها الفَيْئَة ـ تعني فيها شدة في الخلق وسرعة في الغضب لكنها تسرع الرجعة ولا تصر ـ، قالت: فاستأذنت على رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ مع عائشة في مرطها على الحالة التي دخلت فاطمة عليها وهو بها، فأذن لها رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنَكَ العدل في ابنة أبي قحافة، قالت: ثم وقَعَتْ بي، فاستطالت عليَّ، وأنا أرقبُ رسول الله ﷺ، وأرقبُ طَرْفَهُ هل يأذن لي فيها، قالت: فلم تبرح زينب حتى عرفتُ أن رسول الله ﷺ لا يكرهُ أن أنتَصِرَ، قالت: فلما وَقَعْتُ بها لم أَنْشَبْها ـ أي لم أمهلها ـ حين أنحيت عليها ـ أي قصدتها بالمعارضة وانتصرت منها ـ، قالت: فقال رسول الله ﷺ وتَبَسَّمَ: إنها ابنةُ أبي بكر][3].

4 ـ الأصل في المؤمنين الظن بأنفسهم خيراً:

فقد نبه الله سبحانه المؤمنين إلى ذلك حين نزلت الآيات من سورة النور تبرئ عائشة، وترتقي بالمجتمع المسلم إلى رفيع الأدب والخلق: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ

(1) المراد التسوية في محبة القلب بينها وبينهن، وهو أمر لا تكليف فيه ولا يملكه أحد.

(2) أي تعادلني وتضاهيني في الحظوة والمنزلة الرفيعة.

(3) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (1662)، الباب السابق.

وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ .

وقد تألق من بين المؤمنين بهذا الخلق أبو أيوب رضي الله عنه ، وكذلك زينب بنت جحش التي قالت: (أحمي سمعي وبصري ، والله ما علمت إلا خيراً). وكذلك أسامة ابن زيد رضي الله عنه.

وقد جاءت السنة الصحيحة لتؤصل جذور هذا الخلق الكريم في قلوب المؤمنين ، وَلتَعدَ على ذلك الأجر العظيم.

فقد أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أسماء بنت يزيد أن رسول الله ﷺ قال: [من ذَبَّ عَنْ عِرْض أخيه بالغَيْبَة ، كان حقاً على الله أن يعتقَه من النار][1] .

والمسلمون بذلك يُفَوِّتون الفرصة على شياطين الإنس والجن ، الذين يهمهم أن تشيع الفاحشة بين صفوفهم ، ويتمنون بذلك خراب بيوتهم وتمزيق روابطهم وصلاتهم. وفي هذا يقول الدكتور العمري: (والحق أن حادثة الإفك كادت تشعل نار العصبية من جديد بين الأوس والخزرج هذه المرة ، حيث تجادل زعماؤهم بغضب في المسجد ، وكان هذا هو مقصد المنافقين أن يهدموا وحدة المسلمين ويزعزعوا ثقتهم بقيادتهم ، ويشعلوا نار الفتنة بينهم ، ولكن الله سلم ، وتمكن الرسول عليه الصلاة والسلام من تهدئة الجميع والحفاظ على وحدتهم والخروج من الامتحان الصعب بنجاح)[2] .

وقد أجاد ابن القيم رحمه الله في وصفه لموقف أسامة حين أخذ يسلي رسول الله ﷺ ويشير عليه بإمساك أهله دون التفات لمحاولات الأعداء ومكرهم وكلامهم فقال: (وأشار عليه أسامةُ وغيرُه بإمساكها ، وألا يلتفت لكلام الأعداء ، . . لَمَّا عَلمَ حُبَّ رسول الله ﷺ لها ولأبيها ، وعلمَ من عفتها وبراءتها ، وحَصانتها ودَيانتها ما هي فوقَ ذلك ، وأعظمُ منه ، وعرف من كرامةَ رسول الله ﷺ على ربِّه ومنزلته عنده ، ودفاعه عنه ، أنه لا يجعلُ رَبَّةَ بيته وحبيبته من النساء ، وبنتَ صدِّيقه بالمنزلة التي أنزلها بَه أرباب الإفك ، وأن رسول الله أكرمُ على ربه ، وأعزُّ عَلَيه من أن يجعل تحته امرأة بغيّاً ، وعلم أن الصديقة حبيبةَ رسول الله ﷺ أكرمُ على ربها من أن يَبْتَليها بالفاحشة ، وهي تحت رسوله.

---

(1) حديث صحيح . رواه أحمد بإسناد صحيح . انظر صحيح الجامع (6116).

(2) انظر كتاب: «السيرة النبوية الصحيحة» (2/ 412).

قال: وَمَنْ قَوِيَتْ معرفته لله ومعرفته لرسوله وقدره عندَ الله في قلبه ، قال كما قال أبو أيوب وغيره من سادات الصحابة ، لما سمعوا ذلك: ﴿سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾[1].

5 ـ **تمحيص الله لقلوب المؤمنين بالابتلاء وتأخر الوحي:**

فقد كانت الأيام التي وافقت حادثة الإفك مدرسة للصحابة ليتلقوا فيها تربية خاصة يراد منها أن ترفعهم وتصقل نفوسهم وقلوبهم.

وقد فصّل ابن القيم القول في ذلك فقال: (فإن قيل: فما بال رسول الله ﷺ توقَّفَ في أمرها ، وسأل عنها ، وبحث ، واستشار ، وهو أعرفُ بالله ، وبمنزلتِهِ عنده ، وبما يليق به ، وهَلاَّ قال: سُبْحانك هذا بُهتان عظيم ، كما قاله فضلاءُ الصحابة؟ فالجوابُ: أن هذا من تمام الحِكَمِ الباهِرَةِ التي جعل اللهُ هذه القصة سبباً لها ، وامتحاناً وابتلاءً لرسوله ﷺ ، ولجميع الأمة إلى يومِ القيامة ، ليرفع بهذه القصة أقواماً ، ويضعَ بها آخرين ، ويزيدَ الله الذين اهتَدوا هُدىً وإيماناً ، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ، واقتضىٰ تمامُ الامتحان والابتلاء أن حُبِسَ عن رسول الله ﷺ الوحي شهراً في شأنها ، لا يُوحى إليه في ذلك شيء لتتم حِكمتُهُ التي قدّرها وقضاها ، وتظهرَ على أكمل الوجوه ، ويزدادَ المؤمنون الصادقون إيماناً وثباتاً على العدل والصدق ، وحُسْنِ الظن بالله ورسوله ، وأهل بيته ، والصديقين من عباده ، ويزداد المنافقون إفكاً ونفاقاً ، وَيُظْهِر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم ، ولتتم العبودية المرادةُ من الصديقة وأبويها ، وتَتِمَ نعمةُ الله عليهم ، ولتشتد الفاقةُ والرغبة منها ومِن أبويها ، والافتقارُ إلى الله والذلُّ له ، وحُسْنُ الظن به ، والرجاء له ، ولينقطع رجاؤها من المخلوقين ، وتيأسَ من حصول النُّصْرَةِ والفرج على يد أحد من الخلق ، ولهذا وفّتْ هذا المقام حقَّه ، لما قال لها أبواها: قُومي إليه ، وقد أنزل اللهُ عليه براءتَها ، فقالت: والله لا أقومُ إليه ، ولا أحْمَدُ إلا الله ، هو الذي أنزل براءتي.

وأيضاً فكان من حِكمة حَبْسِ الوحي شهراً ، أن القضية مُحِّصَتْ وتمحَّضَتْ.. فوافى الوحي أحوجَ ما كان إليه رسول الله ﷺ وأهلُ بيته ، والصِّدِيقُ وأهلُه ، وأصحابُه والمؤمنون ، فورد عليهم ورودَ الغيث على الأرض أحوجَ ما كانت إليه.

---

(1) انظر تمام ذلك في كتاب: «زاد المعاد» (3/ 260).

ثم قال: وأيضاً فإن الله سبحانه أحبَّ أن يُظهِرَ منزلةَ رسوله وأهلِ بيته عنده، وكرامتهم عليه، وأن يخرجَ رسولَه عن هذه القضية، ويتولىٰ هو بنفسه الدفاعَ والمنافحةَ عنه... بل يكونُ هو وحدَه المتوليَ لذلك، الثائرَ لرسولِه وأهل بيته.

وأيضاً فإن رسول الله ﷺ كان هو المقصود بالأذى، والتي رُمِيَتْ زوجتُه، فلم يكن يليق به أن يشهد ببراءتها مع علمه، أو ظنه الظن المقاربَ للعلم ببراءتها، ولم يظنَّ بها سوءاً قط، وحاشاه، وحاشاها، ولذلك لما استعذر من أهل الإفك، قال: «مَنْ يعذِرني في رجل بلغني أذاهُ في أهلي، والله ما علمتُ على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي»، فكان عنده من القرائن التي تشهد ببراءة الصديقة أكثر مما عند المؤمنين، ولكن لكمال صبره وثباته، ورفقه، وحسن ظنه بربه، وثقته به، وفّى مقامَ الصبر والثبات، وحسن الظن بالله حقَّه، حتى جاءه الوحي بما أقَرَّ عينَهُ، وسَرَّ قلبَهُ، وعظمَ قدره، وظهر لأمته احتفالُ ربه به، واعتناؤه بشأنه)[1].

6 ـ ثبوت إقامة الحد على القاذفين:

فقد قال الله جل ثناؤه في سورة النور: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾.

لقد أمر النبي ﷺ بإقامة الحد ـ حد القذف ـ على مسطح وحسان وحمنة.

فقد أخرج البيهقي بسند حسن عن عَمْرَةَ بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: [لما تلا رسول الله ﷺ القصة التي نزل بها عذري على الناس نزل رسول الله ﷺ فأمر برجلين وامرأة ممن كان باء بالفاحشة في عائشة فجلدوا الحد، قال: وكان رماها عبد الله بن أبي ومسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بِنت جحش أخت زينب بنت جحش رموها بصفوان بن المعطل السلمي][2].

قال ابن القيم في زاد المعاد: (ولما جاء الوحيُ ببراءتها، أمرَ رسول الله ﷺ بمن صَرَّح بالإفك، فحُدُّوا ثمانين ثمانين، ولم يُحد الخبيثُ عبد الله بن أبي، مع أنه رأس أهل الإفك، فقيل: لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة، والخبيث ليس أهلاً

---

(1) انظر تمام ذلك في كتاب: «زاد المعاد» (3/ 261/ 262).
(2) انظر سنن البيهقي (8/ 250) بإسناد حسن. ويشهد له ما في سنن الترمذي (3181) كتاب التفسير، وكذلك ما في سنن ابن ماجة (2765)، كتاب الحدود.

لذلك ، وقد وَعَدَهُ الله بالعذاب العظيم في الآخرة ، فيكفيه ذلك عن الحد ، وقيل : بل كان يستوشي الحديثَ ويجمعه ويحكيه ، ويُخْرجه في قوالب من لا يُنسب إليه ، وقيل: الحدُّ لا يثبتُ إلا بالإقرار ، أو بِبَيِّنَة ، وهو لم يُقر بالقذف ، ولا شهد به عليه أحد ، فإنه إنما كان يذكُرُه بين أصحابه ، ولم يشهدُوا عليه ، ولم يكن يذكره بين المؤمنين. وقيل: حدُّ القذف حقُّ الآدمي ، لا يُستوفى إلا بمطالبته ، وإن قيل: إنه حقٌّ لله ، فلا بُدَّ من مطالبة المقذوف ، وعائشة لم تُطالب به ابنَ أبي.

وقيل: بل تَرَكَ حدّه لمصلحة هي أعظمُ من إقامته ، كما تركَ قتله مع ظهور نفاقِه ، وتكلمه بما يوجب قتله مراراً ، وهي تأليفُ قومه ، وعدمُ تنفيرهم عن الإسلام ، فإنه كان مطاعاً فيهم ، رئيساً عليهم ، فلم تُؤمن إثارةُ الفتنة في حده ، ولعله تُرِك لهذه الوجوه كلها.

فجلد مِسْطَحَ بن أثاثة ، وحسانَ بن ثابت ، وحَمْنَةَ بنتَ جَحْشٍ ، وهؤلاء من المؤمنين الصادقين تطهيراً لهم وتكفيراً ، وترك عبد الله بن أبي إذن ، فليس هو من أهل ذاك)[1].

وجملة القول: إن عبد الله بن أبي لم يكن أهلاً لإقامة الحد عليه وهو ممن أسرف في محاربة الله ورسوله ، وقد توعده الله بعذاب عظيم ، وأنزل في ذمه قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة.

7 ـ مشروعية الإقراع بين النساء في السفر وجواز خروجهن للغزو ومشاركتهن بذلك:

وهذا كما حدث يوم أحد ، فكذلك حدث في غزوة بني المصطلق ، إذ كانت القرعة من نصيب عائشة.

وقد مضىٰ في حديث البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: [كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً قرع بين أزواجه (وفي لفظ عند ابن إسحاق: أقرع بين نسائه) فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه. فأقرع بيننا في غزاة غزاها فخرج سهمي فخرجت معه].

(وفي رواية ابن إسحاق: فلما كانت غزوة بني المُصْطلق أقرع بين نسائه ، كما كان

(1) انظر كتاب: «زاد المعاد» (3/ 263 ـ 264).

يصنع ، فخرج سَهْمي عليهن معه ، فخرج بي رسول الله ﷺ).

27 ـ 29. **قوله تعالىٰ:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تشريع آداب شرعية عالية في الاستئذان قبل الدخول ثم إلقاء السلام ، ويستثنىٰ من ذلك الأماكن العامة التي فيها منافع مشتركة للناس ، فيجوز دخولها دون استئذان ، والله يعلم السر والعلن وما تبدون وما تكتمون.

فعن ابن عباس: (﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ﴾ قال: الاستئناس: الاستئذان). قال النسفي: (والاستئناس في الأصل الاستعلام والاستكشاف ، من أنِسَ الشيء إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً ، أي حتىٰ تستعلموا أيطلق لكم الدخول أم لا). فقد أمر الله تعالىٰ المؤمنين بالتحلي بهذه الآداب الرفيعة فيما بينهم ، فلا يُشرع لهم أن يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتىٰ يستأذنوا قبل دخولهم ويسلموا بعده.

آداب الاستئذان:

1 ـ يشرع الاستئذان ثلاثاً ـ كما جاء في السنة العطرة ـ فإن أُذِن له وإلا انصرف.

ففي الصحيحين والمسند عن أبي بُرْدَةَ عَنْ أبي موسىٰ الأشعري قال: [جاء أبو موسىٰ إلى عمر بن الخطاب فقال: السلام عليكم ، هذا عَبْدُ اللهِ بنُ قَيْسٍ ، فلم يَأْذَنْ لهُ ، فقال: السلام عليكم ، هذا أبو موسىٰ ، السلام عليكم ، هذا الأَشْعَرِيُّ ، ثم انْصَرَفَ ، فقال: رُدُّوا عَلَيَّ ، رُدُّوا عَليَّ ، فجاءَ فقال: يا أبا موسى! ما رَدَّكَ؟ كُنَّا في شُغْلٍ ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الاستئذان ثلاثٌ ، فإنْ أُذِنَ لكَ وإلا فارجعْ». قال: لتأتِيَنِّي على هذا بِبَيِّنةٍ ، وإلا فَعَلْتُ وَفَعَلْتُ ، وفي رواية: (وإلا أوجعتك). وفي لفظ: (قال: فوالله لأُوجِعَنَّ ظَهْرَكَ وَبَطْنَكَ ، أو لتأتِيَنَّ بِمَنْ يَشْهَدُ لك على هذا). فذهب أبو موسىٰ. قال عمر: إنْ وَجَدَ بَيِّنَةً تجدوه عِنْدَ المِنبَرِ عَشِيَّةً ، وإنْ لمْ

يجدْ بَيِّنَةً فلم تجدوه ، فلما أن جاء بالعشِيّ وَجَدَهُ ، قال: يا أبا موسىٰ! ما تقولُ؟ أقدْ وَجَدْت؟ قال: نعم ، أُبَيُّ بن كَعْبٍ ، قال: عَدْلٌ ، قال: يا أبا الطُّفَيْل! ما يَقولُ هذا؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك يا ابن الخطاب! فلا تكونَنَّ عذاباً على أصحاب رسول الله ﷺ. قال: سبحان الله! إنما سَمِعْتُ شيئاً ، فأحْبَبْتُ أن أتثَبَّت][1]. وفي رواية: (فقال عمر: خَفِيَ عليَّ هذا مِنْ أمْرِ رسول الله ﷺ ، ألهاني عنه الصَّفْقُ بالأسواق).

وفي المسند وسنن أبي داود بسند جيد عن أنس: [أن رسول الله ﷺ استأذن على سعد بن عبادة فقال: السلام عليك ورحمة الله. فقال سعد: وعليك السلام ورحمةُ الله ، ولم يسمع النبي ﷺ حتىٰ سَلَّم ثلاثاً ، وردَّ عليه سعد ثلاثاً ولم يُسْمِعْه. فَرَجَعَ النبي ﷺ فاتَّبَعَهُ سعد فقال: يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ما سَلَّمْتَ تسليمةً إلا وهِيَ بأذني ، ولقد رَدَدْتُ عليك ولم أُسْمِعْكَ ، وأردتُ أن أستكثر من سلامك ومن البركة. ثم أدخله البيت. فقرّب إليه زبيباً ، فأكل نبيُّ الله ، فلما فَرَغ قال: أكل طعامَكم الأبرار ، وَصَلَّت عليكم الملائكة ، وأفطر عندكمُ الصائمون][2].

2 ـ يكره قول المستأذن «أنا» إذا قيل له: من هذا؟.

ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال: [أتيتُ النبي ﷺ ، فَدَعَوْتُ ، فقال النبي ﷺ: مَنْ هذا؟ قلتُ: أنا ، قال: فخرج وهو يقول: أنَا ، أنَا][3].

3 ـ يحرم النظر في بيت غيره.

ففي صحيح مسلم عن سهل بن سعد: [أنَّ رجلاً اطَّلَعَ في جُحْرٍ في باب رسول الله ﷺ ، ومع رسول الله ﷺ مِدْرىً يَحُكُّ به رأسَهُ ، فلما رآه رسول الله ﷺ: قال: لو أعْلَمُ أنَّكَ تَنْظُرُني لطَعَنْتُ به في عَيْنِكَ. وقال رسول الله ﷺ: إنَّما جُعِلَ الإذْنُ مِنْ أجْلِ البَصَر][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2062) ، ومسلم (2153) ، وأبو داود (5181) ، وأحمد (398) ، (400) وكذلك أخرجه ابن حبان (5807).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 138) ، والبزار (2007) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (8/ 34): ورجالهما رجال الصحيح. وأخرج أبو داود (3854) وأبو يعلىٰ (4310) عجزه فقط.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2155) ـ كتاب الآداب ، باب كراهة قول المستأذن أنا ، إذا قيل من هذا ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2156) ـ كتاب الآداب ، باب تحريم النظر في بيت غيره.

ثم روىٰ في الباب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [مَنْ اطَّلَعَ في بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إذْنِهم ، فَقَدْ حَلَّ لهم أن يفقؤوا عَيْنَه][1].

وفي رواية: [لو أنَّ رَجُلاً اطَّلَعَ عليك بِغَيْرِ إذْنٍ فَخَذَفْتَهُ بِحَصَاةٍ ، فَفَقَأْتَ عَيْنَهُ ، ما كان عليك مِنْ جُناحٍ].

4 ـ ينبغي للمستأذن ألا يقف تلقاء الباب بوجهه ، وليكن الباب عن يمينه أو يساره.

أخرج أبو داود بسند صحيح عن هزيل ، قال: جاء رجل فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن ، فقام على الباب مُسْتَقْبِلَ الباب ، فقال له النبي ﷺ: [هكذا ـ عنك ـ أو هكذا ، فإنما الاستئذان من النَّظَر][2].

5 ـ ينبغي للمستأذن إلقاء السلام قبل الدخول إذا أُذِنَ له.

ففي سنن أبي داود بسند صحيح عن ربعيّ ، قال: [حدثنا رجل من بني عامر: أنه استأذن على النبي ﷺ وهو في بيت فقال: ألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: اخْرُجْ إلى هذا! فَعَلِّمْهُ الاستئذان ، فقل له: قل: السلام عليكم ، أأدخل؟ فسمعه الرجل ، فقال: السلام عليكم ، أأدخل؟ فأذن له النبي ﷺ ، فدخل][3].

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. أي: ذلكم الذي يعلمكم الله تعالىٰ من الاستئذان والتسليم خير لكم من تحية الجاهلية وعاداتها في الدخول بغير إذن. قال النسفي: (فكان الرجل من أهل الجاهلية إذا دخل بيت غيره يقول حييتم صباحاً وحييتم مساء ثم يدخل ، فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف واحد. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: قيل لكم هذا لكي تذكروا وتتعظوا وتعملوا ما أمرتم به في باب الاستئذان).

وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾. أي: فإن كانت تلك البيوت خالية من أهلها فلا يشرع لكم دخولها ، إذ لا يجوز للمرء التصرف في ملك غيره إلا بإذنه.

وقوله: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾. أي: إن طلب الانصراف فانصرفوا

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2158) ـ كتاب الآداب ، الباب السابق.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (5174) ـ كتاب الأدب ، باب في الاستئذان ، وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (4310).

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (5177) وإسناده صحيح ، وجهالة الصحابي لا تضرّ.

ولا تحرجوا الناس. قال سعيد بن جبير: (لا تقفوا على أبواب الناس).

وقوله: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾. أي رجوعكم أزكىٰ لكم وأطهر وأقرب للتقوىٰ. قال قتادة: (قال رجل من المهاجرين: لقد طلبتُ عُمُري كُلَّه هذه الآية فما أدركتُها: أن أستأذِنَ على بعضِ إخواني، فيقول لي: ارجع، فأرجعُ وأنا مغتبط، لقوله: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. أي: هو عليمٌ بامتثالكم ما يأمركم به من محاسن الآداب، واجتنابكم ما ينهاكم عنه من قبيحها، وهو بكل شيء عليم.

وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾. استثناء من عموم ما سبق، فلا حرج بدخول الأماكن غير المسكونة كالمطاعم والمحلات التجارية والأماكن المعدة لنزول المسافرين والتجار وغير ذلك مما فيه قضاء لحاجاتكم وإيواء لأمتعتكم ومنافع لكم.

قال قتادة: (﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾: هي الخانات، تكون لأهل الأسفار). وقال مجاهد: (كانوا يضعون في بيوت في طرق المدينة متاعاً وأقتاباً، فَرُخِّصَ لهم أن يدخلوها). وقال أيضاً في تفسير الآية: (هي البيوت التي ينزلها السفْر، لا يسكنها أحد).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾. قال القاسمي: (وعيد لمن يدخل مدخلاً من هذه المداخل، لفسادٍ، أو اطلاع على عورات. أفاده أبو السعود).

30 ـ 31. قوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ

عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾.

في هذه الآيات: أَمْرُ الله المؤمنين والمؤمنات بغض البصر عما لا يحل النظر إليه، وتعليق السلامة في النسب والفروج على ذلك. وأَمْرُ المؤمنات بعدم إبداء زينتهن إلا الوجه والكفين، وارتداء الجلباب الشرعي الذي يغطي كل شيء خاصة العنق والصدر، ويستثنىٰ المحارم في إظهار مواضع الزينة العامة أمامهن، والتحذير من الضرب بالأرجل على الأرض لما يحرك الفتنة على الرجال، والأمر بالتوبة إلى الله ابتغاء الفلاح وسعادة الدارين.

فقوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾. أمْرٌ من الله تعالىٰ لعباده المؤمنين بغض البصر عما لا يجوز لهم النظر إليه من المحارم، ورَبْطُ ذلك بحفظ الفروج وزكاة النفوس وتقوىٰ الله عز وجل.

قال ابن عباس: (﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ قال: يغضوا أبصارهم عما يكره الله). وقال ابن زيد: (يغض من بصره: أن ينظر إلى ما لا يحلّ له، إذا رأىٰ ما لا يحل له غضّ من بصره، لا ينظر إليه، ولا يستطيع أحد أن يغض بصره كله، إنما قال الله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾).

وفي كلام العرب: غَضَّ طرفهُ أي خفضه، ويقال غضَّ بصره يغضّه غضّاً.

وهذا الأمر من معالي الأخلاق التي دعا لها الإسلام وأقرها في مكارم الأخلاق. ومن ذلك قول عنترة:

وأغضُّ طرفي ما بَدَتْ لي جارتي حتىٰ يُواري جارتي مأواها

قال البخاري: (وقال سعيد بن أبي الحسن للحسن: (إن نساء العجم يكشفن صدورهن ورؤوسهن! قال: اصرف بصرك، يقول الله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾)[1]. وقال بعض السلف: (النظر سِهام سمٌّ إلى القلب). قال القرطبي: (ولقد كره الشَّعبي أن يُديم الرجل النظر إلى ابنته أو أمه أو أخته، وزمانه خير من زماننا هذا! وحرام على الرجل أن ينظر إلى ذاتٍ محرّمة نظر شهوة يردّدها).

(1) أورده بإثر حديث (6227)، وسعيد هذا هو أخو الحسن البصري.

وقد جاءت السنة الصحيحة بآفاق هذه الآداب الرائعة في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [إياكم والجلوسَ على الطرقات. فقالوا: يا رسول الله، مالنا من مجالسنا بُدٌّ نتحدث فيها. فقال: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقَّهُ. قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غضُّ البصر، وكفّ الأذىٰ، وردّ السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر][1].

الحديث الثاني: روىٰ مسلم في صحيحه، وأبو داود في سننه، وأحمد في مسنده، عن جرير بن عبد الله البَجَلي رضي الله عنه قال: [سألت النبي ﷺ عن نَظْرَةِ الفَجْأَةِ، فأمرني أن أصرف بصري][2]. قال مجاهد: (إذا أقبلت المرأة جلس الشيطان على رأسها فزيَّنها لمن ينظر، فإذا أدبرت جلس على عَجُزها فزيّنها لمن ينظر).

الحديث الثالث: أخرج أبو داود والترمذي بسند جيد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لعليٍّ: [يا عليُّ، لا تُتبع النظرةَ النظرةَ، فإن لك الأولىٰ، وليس لك الآخرة][3].

قال خالد بن أبي عمران: (لا تُتْبِعَنَّ النَّظرة النظرة، فربما نظر العبد نظرةً نَغِلَ[4] منها قلبه كما يَنْغَلُ الأديم فلا ينتفع به).

الحديث الرابع: أخرج الطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، والبغوي بسند حسن عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [اكفُلُوا لي بست أكفلْ لكم بالجنة: إذا حَدَّثَ أحدُكم فلا يكذب، وإذا اؤْتُمِنَ فلا يَخُنْ، وإذا وعد فلا يُخْلِف، وغُضُّوا أبصاركم، وكُفُّوا أيديكم، واحفظوا فُروجكم][5].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6229)، وأحمد (3/ 36)، وابن حبان (595).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2159)، وأبو داود (2148)، والترمذي (2776)، وأحمد (4/ 358)، (4/ 361)، وابن حبان (5571).

(3) حديث حسن. أخرجه أبو داود بسند حسن (2149)، والترمذي (2777)، وأخرجه أحمد (5/ 351)، وانظر صحيح سنن أبي داود (1881).

(4) النّغل: الفساد.

(5) أخرجه الطبراني في «الكبير» (8018)، و«الأوسط» (2560)، وله شاهد من حديث عبادة بن الصامت يتقوىٰ به. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1525).

الحديث الخامس: أخرج أبو داود بسند صحيح عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تباشر المرأةُ المرأةَ لتنعتها لزوجها، كأنما ينظر إليها][1].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: إن الله ذو خبرة بما تصنعون أيها الناس، فيما أمركم به من غضّ أبصاركم عما أمركم بالغضّ عنه، وحفظ فروجكم عن إظهارها لمن نهاكم عن إظهارها له).

وقوله: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾. تخصيص للإناث هنا بالخطاب على طريق التأكيد، وإلا فإن قوله: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عام، ويتناول الذكور والإناث، فلا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة، ولا المرأة أن تنظر إلى الرجل، إن رافق ذلك شهوة.

قلت: وأما بغير شهوة فيجوز للرجل أن ينظر إلى المرأة وهو يكلمها لحاجة ضرورية، كما يجوز للمرأة أن تنظر للرجل ـ بدون شهوة ـ بشكل عام. فإلى تفصيل ذلك:

1 ـ يباح للمرأة النظر إلى الرجل، لأن الأصل أن الرجل لم يُسْتر ولم يُحْجَب عن المرأة.

ففي صحيح مسلم من حديث فاطمة بنت قيس أن النبي ﷺ أمرها أن تَعْتَدَّ في بيتِ أم شريك، ثم قال: [تلك امرأة يغشاها أصحابي، اعتدّي عندَ ابن أم مكتوم، فإنه رجلٌ أعمىٰ، تضعين ثيابك، فإذا حَلَلْتِ فآذِنيني] الحديث[2].

وفي الصحيحين ـ واللفظ للبخاري ـ عن عروة بن الزبير، أن عائشة رضي الله عنها قالت: [لقد رأيت رسول الله ﷺ يوماً على باب حُجْرَتي والحَبَشَةُ يلعبونَ في المسجد، ورسول الله ﷺ يَسْتُرني بردائه أنْظُرُ إلى لعبهم][3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (2150) ـ كتاب النكاح. انظر صحيح سنن أبي داود (1882). ورواه البخاري.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1480) ـ كتاب الطلاق، ورواه مالك (2/ 580)، والشافعي (2/ 18)، وأحمد (6/ 412) في أثناء حديث مطول.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (454) ـ كتاب الصلاة، ورواه مسلم نحوه، ورواه أحمد في المسند (6/ 247).

أما حديث: «أفعمياوان أنتما» فضعيف عند المحدثين، وهو يعارض حديث فاطمة بنت قيس السابق، الذي رواه مسلم ومالك وأحمد وغيرهم.

2 ـ يجوز للرجل النظر للمرأة دون شهوة في حاجة لا بد منها. فما دام قد أذن الله للمرأة بكشف وجهها جاز أن ينظر لها لسبب ما إلا إذا شعر بنظره الشهوة.

ففي سنن أبي داود بسند صحيح عن أم حبيبة: [أنها كانت تحت عبيد الله بن جحش، فمات بأرض الحبشة، فزوجها النجاشي النبي ﷺ، وأمهرها عنه أربعة آلاف، وبعث بها إلى رسول الله ﷺ، مع شرحبيل بن حسنة][1].

وفي صحيح مسلم عن أنس قال: [لما انقضت عدة زينبَ بنتِ جحش قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: ما أَجِدُ أحداً آمنَ عندي وأوثق في نفسي منك، ائت زينب فاخطبها علي. قال: فانطلق زيد فأتاها وهي تخمر عجينها، فلما رأيتها عظمت في صدري فلم أستطع أن أنظر إليها حين عرفت أن الرسول ﷺ قد ذكرها] الحديث[2].

3 ـ ويحرم النظر عند وجود داعي الشهوة ويجب الرجوع إلى الأصل وهو غض البصر.

ففي صحيح مسلم وسنن أبي داود عن جابر: [أن النبي ﷺ رأىٰ امرأة، فأتىٰ امْرأته زينب، وهي تَمْعَسُ مَنِيئَةً[3] لها، فقضىٰ حاجته، ثم خَرَج إلى أصحابه فقال: إنَّ المرأة تُقْبِلُ في صورةِ شيطان، وتُدْبِرُ في صورة شيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأتِ أهلَهُ، فإن ذلك يرُدُّ ما في نفسه][4].

وفي لفظ: [إذا أحدُكُم أعجبَتْه المرأة، فوقعت في قلبه فَلْيَعْمِد إلى امرأتِه فَلْيُواقِعْها، فإن ذلك يرُدُّ ما في نفسه]. وفي رواية أبي داود: (فإنه يضمر ما في نفسه).

وفي الصحيحين وسنن أبي داود عن ابن عباس قال: [ما رأيت شيئاً أشبه باللمم، مما قال أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: إنّ الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمنىٰ وتشتهي، والفرج يصدق ذلك ويكذبه].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2107) ـ كتاب النكاح. انظر صحيح أبي داود (1853).
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1428)، وأحمد في المسند (3/ 195 ـ 196).
(3) معست الجلد أي دلكته، فالمنيئة فعيلة بمعنىٰ الجلد، والمراد الدباغ والإصلاح.
(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1403) ـ كتاب النكاح، وأبو داود (2151) ـ في النكاح أيضاً.

وفي لفظ: [واليدان تزنيان، فزناهما البطش، والرجلان تزنيان، فزناهما المشي، والفم يزني، فزناه القبلُ]. وفي لفظ: [والأذن زناها الاستماع][1].

وقوله: ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾. قال سعيد بن جبير: (عن الفواحش). وقال قتادة: (عمّا لا يَحِلّ لهنّ). وقال مقاتل: (عن الزنا). وقال أبو العالية: (كل آية أنزلت في القرآن يُذكَرُ فيها حِفْظُ الفروج فهو من الزنا، إلا هذه الآية: ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾، ألا يراها أحدٌ. وفي لفظ: فإنه يعني الستر) ـ ذكره ابن جرير.

وقوله: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾. تصريح بوجوب ستر الزينة كلها وعدم إظهار شيء منها أمام الأجانب إلا ما ظهر بغير قصد منهن، فلا يؤاخذن عليه إذا بادرن إلى ستره.

ومن أقوال أئمة التفسير في مفهوم هذه الآية:

1 ـ عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود، قال: (الزينة زينتان: فالظاهرة منها: الثياب، وما خفي: الخلخالان والقُرطان والسِّواران).

2 ـ عن ابن عباس قال: (الظاهر منها: الكحل والخدّان). وقال: (الزينة الظاهرة: الوجه، وكحل العين، وخضاب الكف، والخاتم).

3 ـ عن سعيد بن جبير: (﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ قال: الوجه والكفّ). وقال الأوزاعي: (الكفين والوجه).

وروىٰ البيهقي عن ابن عباس وغيره: (﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾: الوجه والكفان). قلت: والذي يرجح من النصوص المختلفة ومن سياق الآية أنّ الذي استثني ما كان ظهر من المرأة من غير قصد فبادرت إلى ستره، وأما الوجه والكفان فلا يجب على المرأة سترهما. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: [لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مجوِّبٌ عليه بحجفة[2] له... ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سُليم وإنهما لمشمرتان أرىٰ خَدم سوقهما

(1) حديث صحيح. رواه الشيخان، وأبو داود ـ واللفظ كله له ـ انظر صحيح سنن أبي داود (1884)، (1885) ـ (1886).

(2) أي مترس عليه «بحجفة» أي بترس.

ـ يعني الخلاخيل ـ تنقزان[1] القرب على متونهما تفرغانه في أفواه القوم][2].

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: (وهذه كانت قبل الحجاب، ويحتمل أنها كانت عن غير قصد للنظر).

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح في الشواهد عن عائشة: [أن أسماء بنت أبي بكر، دخلت على رسول الله ﷺ، وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها رسول الله ﷺ، وقال: يا أسماءُ إنَّ المرأة إذا بلغت المَحيضَ، لم يَصْلُحْ أن يُرَىٰ منها إلا هذا وهذا. وأشار إلى وجهه وكفيه][3].

الحديث الثالث: خرّج مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ـ في حجة الوداع ـ أنه قال: [كان الفضل بن عباس رديفَ رسول الله ﷺ، فجاءته امرأةٌ من خَثْعَمَ تستفتيه، فجعل الفضل ينظرُ إليها، وتنظرُ إليه، فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر..][4].

وفي رواية: [فقال له العباس: يا رسول الله لم لويت عنق ابن عمك؟ قال: رأيت شاباً وشابة فلم آمن الشيطان عليهما].

وقوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾. أَمْرٌ من الله تعالىٰ النساء المؤمنات بليِّ الخمار على العنق والصدر. و«الخمر» جمع خمار، وهو ما يغطىٰ به الرأس. و«الجيوب» جمع «الجيب» وهو موضع القطع من الدرع والقميص، وهو من الجوب وهو القطع. وهذه الآية تدل على ما دلت عليه بعض الأحاديث السابقة من عدم وجوب ستر المرأة لوجهها لأن الخمار غطاء الرأس، فأمَرَ تعالىٰ بليِّ الخمار على العنق والصدر دلالة على و جوب سترهما، ولم يأمر بلبسه على الوجه فدل على أنه ليس بعورة. قال ابن حزم في «المحلى» (3/ 216 ـ 217): (فأمرهن الله تعالىٰ بالضرب

---

(1) أي: تثبان و«القرب على متونهما»، أي: تحملانها وتقفزان بها وثباً.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (7/ 290) من حديث أنس رضي الله عنه.

(3) صحيح في الشواهد. أخرجه أبو داود (4104) ـ كتاب اللباس. باب فيما تبدي المرأة من زينتها. وانظر صحيح سنن أبي داود (3458).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1334) ـ كتاب الحج. وانظر (1218) من حديث جابر في حجة الوداع، وانظر مسند أحمد (1/ 211).

بالخمار على الجيوب ، وهذا نصٌّ على ستر العورة والعنق والصدر ، وفيه نص على إباحة كشف الوجه لا يمكن غير ذلك).

وقد ذكر القرطبي (12/ 230) وغيره في سبب نزول هذه الآية : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ : (أن النساء كن في ذلك الزمان إذا غطين رؤوسهن بالأخمرة ، وهي المقانع ، سدلنها من وراء الظهر كما يصنع النبط ، فيبقىٰ النحر والعنق والأذنان لا ستر على ذلك. فأمر الله تعالىٰ بليِّ الخمار على الجيوب).

وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت : [يرحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شققن أكنف[1] مروطهن فاختمرن بها][2].

وأخرج الطبراني في «المعجم الكبير» بسند صحيح عن الحارث بن الحارث الغامدي قال : [قلت لأبي ونحن بمنىٰ : ما هذه الجماعة؟ قال : هؤلاء القوم قد اجتمعوا على صابئ لهم ، قال : فنزلنا ، «وفي رواية : فتشرفنا» ، فإذا رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى توحيد الله والإيمان به ، وهم يردون عليه قوله ويؤذونه ، حتىٰ انتصف النهار وتصدع عنه الناس ، وأقبلت امرأة قد بدا نحرها تبكي ، تحمل قدحاً فيه ماء ومنديلاً ، فتناوله منها ، وشرب وتوضأ ، ثم رفع رأسه إليها فقال : يا بنية! خمري عليك نحرك ، ولا تخافي على أبيك غلبة ولا ذُلاً. قلت : من هذه؟ قالوا : هذه زينب بنته][3].

وقوله : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾. توضيحٌ لمحارم المرأة الذين يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها ، وهم : زوجها ، والدها ، والد زوجها ، ابنها ، ابن زوجها ، أخوها ، ابن أخيها ، ابن أختها ، النساء المسلمات ، أَمَتُها ورقيقها من الرجال والنساء ، والأجراء والأتباع ممن لا أرب له في النساء كالأبله والأحمق ونحو ذلك. قال ابن كثير : (كل هؤلاء محارم

---

(1) وفي رواية عند أبي صالح : أكثف.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4102) ـ كتاب اللباس. انظر صحيح أبي داود (3457).

(3) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (ج 1/ 245/ 2) ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (4/ 46 ـ 1/ 243 ـ 1) ، وانظر : «حجاب المرأة المسلمة» ص (36) وقال الألباني : هذا الحديث صحيح.

المرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها ، ولكن من غير اقتصادٍ وتَبَهْرُج).

قلت: وقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ يعني مواضع الزينة ، وهي في العادة:

1 ـ الخاتم والسوار في الكفين.

2 ـ القُرْط على شحمة الأذنين.

3 ـ الدُّمْلوج في المعضد.

4 ـ القلادة: في العنق.

5 ـ الخَلْخَال: في الساقين.

فهذه المواضع هي مواضع زينة النساء ، وهي في التحقيق مواضع الوضوء ، فجاز للمرأة إظهار هذه المواضع أمام مَنْ سبق من المحارم.

وأما قول بعض الفقهاء: «عورة المرأة من السرة إلى الركبة» فهذا مما لا دليل عليه ، فإن كان قياساً على الرجل فهو قياس مع الفارق للنصوص الصريحة الآتية:

الحديث الأول: أخرج الترمذي بسند صحيح عن عبد الله ، عن النبي ﷺ قال: [المرأة عوْرة ، فإذا خَرَجَتْ استَشْرَفها الشَّيْطان][1].

الحديث الثاني: أخرج الطبراني بسند حسن من حديث ابن مسعود قال: [النساء عورة ، وإن المرأة لتخرج من بيتها وما بِها بأسٌ ، فَيَسْتَشْرِفُها الشيطان ، فيقول: إنك لا تمرين بأحدٍ إلا أعجبتِهِ ، وإن المرأة لتلبس ثيابها ، فيُقال: أين تريدين؟ فتقول: أعودُ مريضاً ، أو أشهد جنازةً ، أو أصلي في مسجد! وما عَبَدَت امرأة ربَّها مثلَ أن تعبده في بيتها][2].

فهذه النصوص تدل أن المرأة كلها عورة وليس فقط: «ما بين السرة والركبة» فإن ذلك مما لا دليل عليه ، أضف إلى ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الدال على مواضع الزينة ، فهل الثدي وتحت الإبط موضع زينة عند العرب تضع المرأة فيه شيئاً من زينتها؟! الجواب: لا ، بل هو موضع فتنة وزينة للزوج لا لغيره ، فتنبّه.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (1189). انظر صحيح سنن الترمذي (936) ، وتخريج: «مشكاة المصابيح» ـ حديث رقم ـ (3109).

(2) إسناده حسن. انظر تخريج الترغيب (1/ 345) ، وقوله: «فيستشرفها الشيطان» أي ينتصب ويرفع بصره إليها ويَهُمُّ بها ، لأنها قد تعاطت سبباً من أسباب تسلطه عليها.

وأما تفصيل بعض مفردات الآية السابقة:

فالبعل هو الزوج. قال القرطبي: (يرىٰ الزينة من المرأة وأكثر من الزينة، إذ كل محلٍّ من بدنها حلال له لذةً ونظراً. ولهذا المعنىٰ بدأ بالبعولة).

وأبناء بعولتهن: المراد ذكور أولاد الأزواج، ويدخل فيه أولاد الأولاد وإن سَفَلوا، من ذُكران كانوا أو إناث، كبني البنين وبني البنات، وكذلك آباء البعولة والأجداد وإن عَلَوْا من جهة الذكران لآباء الآباء وآباء الأمهات وكذلك أبناؤهن وإن سَفَلوا. ذكره القرطبي ثم قال: (وكذلك أبناء البنات وإن سفلن، فيستوي فيه أولاد البنين وأولاد البنات. وكذلك أخواتهن، وهم مَنْ ولده الآباء والأمهات أو أحد الصِّنفين. وكذلك بنو الإخوة وبنو الأخوات وإن سَفَلُوا من ذُكران كانوا أو إناث كبني بني الأخوات وبني بنات الأخوات. وهذا كله في معنىٰ ما حرم من المناكح، فإن ذلك على المعاني في الولادات وهؤلاء محارم).

وأما قوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾. فالمقصود النساء المسلمات، ويدخل في هذا الإماء المؤمنات. ولا حرج لغير المسلمات أن تظهر المرأة أمامهن كما تظهر أمام نساء المؤمنات إلا إن كنّ ممن يَصِفْنَ لأزواجهن أو للرجال ما يَرَيْن، فعندئذ يحرم على المرأة إظهار زينتها أمامهن، وهذا الحكم لا يخصّ النساء غير المسلمات فقط، بل ينسحب على النساء المسلمات إن اشتركن بعلة وصف المحاسن لأزواجهن أو للرجال.

وأما ما ذهب إليه بعض الفقهاء من تحريم إظهار المرأة المسلمة شيئاً من بدنها أمام المرأة المشركة فهذا مما لا دليل عليه، والعلة السابقة وهي: وصف المحاسن قد تشترك بها المسلمة والكافرة كما أشرت، والله تعالىٰ أعلم.

وقوله: ﴿أَوْمَامَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ يشمل العبيد والإماء المسلمات والكتابيات. قال ابن عباس: (لا بأس أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته).

أخرج أبو داود بسند صحيح عن أنس: [أنَّ النبي ﷺ أتىٰ فاطمة بعبد قد وهبه لها، قال: وعلى فاطمة ثوب، إذا قنَّعت به رأسها، لم يبلغ رجليها، وإذا غَطَّت به رجليها لم يبلغ رأسها. فلما رأى النبي ﷺ ما تلقىٰ قال: إنه ليس عليك بأسٌ، إنما هو أبوك وغلامُك][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4106) ـ كتاب اللباس، باب لبس النساء، (34) باب في العبد ينظر إلى شعر مولاته. وانظر صحيح أبي داود (3460).

وأخرج ابن ماجة بسند صحيح عن جابر: [أن أم سلمة استأذنت رسول الله ﷺ: في الحجامة. فأمر النبي ﷺ أبا طيبة أن يحجمها. وقال: حسبت أنه كان أخاها من الرضاعة ، أو غلاماً لم يحتلم][1].

وقوله: ﴿أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ الإرْبَـةُ الحاجة. وقوله: ﴿ٱلتَّـٰبِعِينَ﴾ قال قتادة: (هو التابع يتبعك يصيب من طعامك). قال ابن عباس: (فهذا الرجل يتبع القوم ، وهو مُغَفَّلٌ في عقله ، لا يكترث للنساء ولا يشتهيهنّ).

وقال مجاهد: (الذين لا يهمهم إلا بطونهم ، ولا يُخافون على النساء). وقال أيضاً: (﴿غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ﴾ قال: هو الأبله ، الذي لا يعرف شيئاً من النساء). وقال الشعبي: (تبع الرجل وحشمه: الذي لم يبلغ أَرَبَه أن يطَّلع على عورة النساء). وقال سعيد بن جبير: (المعتوه). وقال الزهري: (هو الأحمق ، الذي لا همة له بالنساء ولا أرب).

قلت: وكلها أقوال متقاربة تتوجَّهُ إلى مَنْ لا فَهْمَ له ولا همة ينتبه بها إلى أمر النساء ، وإنما يكون في القوم أو نشأ بينهم ويتبعهم لإرفاقهم إياه ولا حاجة له في النساء.

وفي صحيح مسلم وسنن أبي داود ـ واللفظ له ـ عن عائشة قالت: [كان يدخل على أزواج النبي ﷺ مُخَنَّث ، فكانوا يعدونه ، من غير أولي الإربة ، فدخل علينا النبي ﷺ يوماً ، وهو عند بعض نسائه ، وهو ينعت امرأة ، فقال: إنها إذا أقبلت ، أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان. فقال النبي ﷺ: «ألا أرىٰ هذا يعلم ما هاهنا ، لا يدخُلَنَّ عليكن هذا». فحجبوه][2].

وفي زيادة عند أبي داود: (وأخرجه ، فكان بالبيداء يدخل كل جمعة يستطعم).

وفي رواية: [فقيل: يا رسول ، إنه إذن يموت من الجوع ، فأذن له أن يدخل في كلّ جمعة مرتين فيسأل ثم يرجع].

وقوله: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾. قال مجاهد: (لم يَدْروا

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (3480) في الحجامة ـ كتاب الطب. انظر صحيح ابن ماجة (2803) ، وصحيح سنن أبي داود (3459).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2181) ، وأبو داود (4107) ، وانظر للزيادة (4109) ، (4110).

ما ثَمَّ ، من الصِّغَرِ قبل الحُلُم). قال ابن كثير: (يعني لِصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهنّ ، من كلامِهنَّ الرَّخيمِ ، وتَعَطُّفِهن في المِشْيَةِ وحَرَكاتِهنَّ وسكناتِهنَّ ، فإذا كان الطفلُ صغيراً لا يفهَمُ ذلك فلا بأس بدُخوله على النساء ، فأما إن كان مُرَاهِقاً أو قريباً منه بحيث يعرف ذلك ويَدْريه ، ويُفَرِّقُ بين الشوهاء والحسناء ، فلا يُمَكَّن من الدخول على النساء).

قلت: وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ في أحاديث:

الحديث الأول: في الصحيحين من حديث عقبة بن عامر: [أن رسول الله ﷺ قال: إياكم والدخولَ على النِّساء. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله ، أفرأيت الحَمْوَ؟ قال: الحَمْوُ: المَوْتُ][1].

الحديث الثاني: خرّج مسلم في صحيحه عن ابن عباس يقول: سمعت النبي ﷺ يخطب يقول: [لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو مَحْرم] الحديث[2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح من حديث جابر بن سمرة قال: [خطب عمر الناس بالجابية فقال: إن رسول الله ﷺ قام في مثل مقامي هذا فقال: أحسنوا إلى أصحابي ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم يحلف أحدهم على اليمين قبل أن يستحلف عليها ، ويشهد على الشهادة قبل أن يُستشهد ، فمن أحبَّ منكم أن ينال بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد ، ولا يخلونَّ رجل بامرأة ، فإن ثالثهما الشيطان ، ومن كان منكم تسرّه حسنته وتسوؤه سيئته فهو مؤمن][3].

وقوله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾. قال ابن عباس: (فهو أن تقرعَ الخَلْخال بالآخر عند الرجال ، ويكون في رجليها خلاخل ، فتحركهنّ عند الرجال ، فنهىٰ الله سبحانه وتعالىٰ عن ذلك ، لأنه من عمل الشيطان).

ويبدو أنها كانت عادة في الجاهلية ، تضرب المرأة برجلها الأرض إذا مشت فيسمع طنين خلاخيلها ، فنهىٰ الله المؤمنات عن مثل ذلك.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5232) ـ كتاب النكاح ، وأخرجه مسلم (2172) ، وأحمد (4/ 149) ، والترمذي (2171) ، وابن حبان (5588) ، والبيهقي (7/ 90).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1341) ـ كتاب الحج ، في أثناء حديث أطول ، ورواه البخاري.

(3) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (1/ 177) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (431).

قلت: وكل ما كان من التكلف من المرأة في إظهار الزينة في الطريق داخل في مفهوم وآفاق هذه الآية كفتحات بعض الثياب، وإظهار بعض الألوان على الرأس أو الأغطية، والروائح العطرة التي تفوحُ في أثناء المسير فتحرك شهوة الرجال، وغير ذلك من أعمال الفتنة، وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن زينب امرأة عبد الله قالت: [قال لنا رسول الله ﷺ: إذا شَهِدَتْ إحداكُنَّ المَسْجِدَ فلا تَمَسَّ طِيباً][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أيما امرأة أصابت بَخُوراً، فلا تشهد معنا العشاء الآخرة][2].

الحديث الثالث: روى أبو داود والترمذي بسند حسن عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: [إذا استعطرت المرأةُ فمَرَّت على القوم ليجدوا ريحها، فهي كذا وكذا. قال قولاً شديداً][3].

ولفظ الترمذي: [كُلُّ عَيْن زانية، والمرأةُ إذا استعْطَرت فَمَرَّت بالمجلس فهي كذا وكذا. يعني: زانية].

الحديث الرابع: أخرج أبو داود وابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة، قال ـ أي: الراوي عنه ـ: [لَقِيَتْهُ امرأة وجد منها ريح الطيب ينفح ولذيلها إعْصَار[4]، فقال: يا أمَةَ الجبَّار، جئتِ من المسجد؟ قالت: نعم! قال: وله تطيبت؟ قالت: نعم! قال: إني سمعتُ حِبِّي أبا القاسم ﷺ يقول: لا تُقْبَلُ صلاةٌ لامرأةٍ تطيَّبَتْ لهذا المسجد، حتى ترجِعَ فتغتَسلَ غُسْلَها من الجنابة][5].

وقوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾. أمر من الله عباده المؤمنين بالتوبة إليه مما كان منهم من الصفات الجاهلية المذمومة، والتقرب إليه

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (443) ح (142) ـ كتاب الصلاة باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة، وأنها لا تخرج مطيبة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (444)، الباب السابق، ورواه أبو داود (4175).

(3) حديث حسن. أخرجه أبو داود (4173). وانظر صحيح سنن الترمذي (2237).

(4) أي غبار ترفعه الريح.

(5) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4174)، وابن ماجة (4002)، وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (3517).

بامتثال ما يحب من العادات والآداب والأخلاق الرفيعة المعلومة ، ليدركوا بذلك السعادة في الدنيا والآخرة.

32 ـ 34. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

في هذه الآيات: الترغيبُ في التزويج ، للأحرار والعبيد ، والوعد بالغنىٰ والرزق على ذلك. والأمْرُ بالاستعفاف حتى يكون النكاح ، ومساعدة المكاتبين ، والتحذير من إكراه الإماء على الزنىٰ ، وهذه الآيات فيها موعظة للمتقين.

فقوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ أمر بالتزويج ، على كل من قدر عليه ، فإن الزواج من سنة الأنبياء والمرسلين ، ونَبيُّنا ﷺ سيكاثر بذريات أمته الأمم يوم القيامة.

فقد أخرج ابن ماجة بسند حسن عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: [النِّكاحُ مِنْ سُنَّتي ، فَمَنْ لم يَعْمَلْ بسنَّتي فليس مني ، وتزوجوا فإني مكاثرٌ بكم الأمم. ومن كان ذا طَوْلٍ فَلْيَنْكِحْ وَمَنْ لم يَجِدْ فعليه بالصيام ، فإن الصومَ له وجاء](1).

وفي الصحيحين وسنن ابن ماجة وأبي داود عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [يا معشرَ الشباب! من استطاع مِنكم الباءة فليتزوَّج. فإنه أغضُّ للبصرِ وأحْصَنُ للفرجِ. ومَنْ لمْ يَسْتَطِعْ فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء](2).

(1) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (1846) ـ كتاب النكاح. باب ما جاء في فضل النكاح ، انظر صحيح سنن ابن ماجة (1496).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1905) ، ومسلم (1400) ، وأبو داود (2046) ، وابن ماجة (1845) ، والترمذي (1081) والنسائي (6/ 57) ، وأحمد (1/ 378) ، وابن حبان (4026).

والأيامىٰ: جمع أيِّم. قال الرازي: (﴿ٱلْأَيَٰمَىٰ﴾: الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء، الواحد منهم «أيِّم» سواء كان تزوّج من قبل أو لم يتزوّج. وامرأة أيّم بِكْراً كانت أو ثيّباً). قال القرطبي: (المقصود من قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ الحرائر والأحرار، ثم بين حكم المماليك فقال: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ يعني الذكور والإناث، والصلاح الإيمان).

قال أبو السعود: (واعتبار الصلاح في الأرقاء، لأنَّ مَنْ لا صلاحَ لهُ منهم، بمعزل من أن يكون خليقاً بأن يعتني مولاه بشأنه، ويشفق عليه، ويتكلف بما لا بد منه شرعاً وعادة، من بذل المال والمنافع. بل حقّه ألا يستبقيه عنده).

وقوله: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾. حثٌّ على الإقدام على الزواج فإن الله وعد الرزق على التقوىٰ. قال ابن عباس: (رغَّبهم الله في التزويج، وأمر به الأحرار والعبيد، ووعَدَهم عليه الغِنىٰ).

يروي ابن جرير بسنده عن ابن مسعود قوله: (التمسوا الغِنىٰ في النكاح، يقول الله تعالىٰ: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾).

وفي التنزيل: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2 ـ 3].

ومن كنوز صحيح السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج ابن عدي في «الكامل» بسند حسن عن أبي هريرة مرفوعاً: [حقٌّ على الله عونُ مَنْ نَكَحَ التِماسَ العفافِ عما حَرَّمَ الله][1].

الحديث الثاني: أخرج أحمد والترمذي وابن ماجة بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: [ثلاثةٌ حقٌّ على الله تعالىٰ عونهم: المجاهِدُ في سبيل الله، والمكاتَبُ الذي يريدُ الأداءَ، والناكحُ الذي يريدُ العفاف][2].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾. أي: واسع الفضل والمنّ والكرم، عليمٌ بأحوال عباده من الفقر والغنىٰ وغير ذلك وما يصلح لهم.

---

(1) حديث حسن. أخرجه ابن عدي بسند حسن. انظر صحيح الجامع (3147)، ويشهد له ما بعده.

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (2/ 251)، والترمذي (1655)، والنسائي (6/ 61)، وابن ماجة (2518)، وابن حبان (4030)، والحاكم (2/ 160).

وقوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾. أمْرٌ من الله تعالىٰ لمن لا يستطيع نكاحاً بلزوم التعفُّفِ والابتعاد عن الحرام حتىٰ يأتي الله بالفرج والسعة.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 4].

وفي الصحيحين والمسند والسنن عن علقمة بن قيس قال: [كنت مع عبد الله بن مسعود بمنىٰ. فخلا به عثمان. فجلست قريباً منه. فقال له عثمان: هل لك أن أزوجك جارية بكراً تذكرك من نفسك بعض ما قد مضىٰ؟ فلما رأى عبد الله أنه ليس له حاجة سوىٰ هذا، أشار إلي بيده. فجئت وهو يقول: لئن قلت ذلك، لقد قال رسول الله ﷺ: [يا معشر الشباب! مَن استطاع منكم الباءة فليتزوج. فإنه أَغَضُّ للبصَرِ وأحْصَنُ للفرْجِ. ومن لم يَسْتَطِعْ، فعليه بالصَّوم، فإنه له وجاء][(1)].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾. أمْرٌ من الله تعالىٰ للسادة بمعاونة عبيدهم إن أرادوا المكاتبة للخروج من حال الرِّق. واشترط أهل العلم أن يكون للعبد كسب يكفيه للوفاء.

ومفهوم المكاتبة: أن يكاتِبَ الرجل عبده على مال يؤديه مُنجَّماً عليه، فإذا أدّاه فهو حُرّ. ويجوز حالاً كما يجوز منجماً ومؤجلاً لإطلاق الأمر. واختلف العلماء هل الأمر هنا للوجوب أم للاستحباب علىٰ قولين:

القول الأول: الوجوب. وهو قول الشافعي في القديم، ومذهب ابن جرير شيخ المفسرين.

قال البخاري: (وقال رَوْحٌ، عن ابن جريج، قلتُ لعطاء: أواجبٌ عليَّ إذا علمتُ له مالاً أن أكاتِبَهُ؟ قال: ما أراه إلا واجبا. وقال عمرو بن دينار: قلت لعطاء: أَتأْثُرُه عن أحد؟ قال: لا. ثم أخبرني أن موسىٰ بن أنس أخبرَه أن سِيرينَ سألَ أنساً المُكاتَبَةَ، وكان كثير المال فأبىٰ، فانطلق إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: كاتِبْه. فأبىٰ، فضربَهُ بالدُّرة، ويتلو عمر ـ رضي الله عنه ـ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾. فكاتبه) ـ ذكره البخاري تعليقاً.

وله شاهد عند ابن جرير بسند صحيح عن قتادة، عن أنس بن مالك: (أن سيرين

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1905)، ومسلم (1400)، وابن ماجة (1845)، واللفظ له، وأبو داود (2046)، والترمذي (1081)، والنسائي (6/ 57)، وأحمد (1/ 378).

أراد أن يُكَاتبه ، فتلكّأ عليه ، فقال له عمر : لتُكاتِبَنَّه) .

القول الثاني: الندب وعدم الوجوب. وهو مذهب أبي حنيفة ومالك ، والشافعي في الجديد. قال ابن وهب: قال مالك: (الأمر عندنا أن ليس على سَيِّد العبد أن يكاتِبَهُ إذا سأله ذلك ، ولم أسمع أحداً من الأمة أكره أحداً على أن يُكاتِبَ عبده).

قال مالك: (وإنما ذلك أمرٌ من الله تعالىٰ وإذنٌ منه للناس ، وليس بواجب). واحتج الشافعي في مذهبه الجديد على عدم الوجوب بحديث حنيفة الرقاشي ـ الذي أخرجه أبو يعلىٰ وأحمد بسند حسن ـ مرفوعاً: [لا يحل مالُ امرئٍ مسلم إلا بطيب نفس منه][(1)].

قلت: والراجح الندب لا الوجوب ، فإن الرجل حرٌّ في ماله ، فلو طلب منه عبدُهُ المكاتبة فإن شاء كاتبه وإن شاء لم يفعل. قال الشعبي: (إن شاء كاتَبَهُ ، وإن شاء لم يكاتبه). ومن ثمَّ فإنَّ الأمرَ في الآية أمر إرشاد واستحباب ، لا أمر تحتّم وإيجاب ، وهو قول الجمهور.

قال القرطبي: (وتمسك الجمهور بأن الإجماع منعقد على أنه لو سأله أن يبيعه من غيره لم يلزمه ذلك ، ولم يجبر عليه وإن ضوعف له في الثمن. وكذلك لو قال له أعتقني أو دَبِّرني أو زوّجني لم يلزمه ذلك بإجماع ، فكذلك الكتابة ، لأنها معاوضة فلا تصح إلا عن تراضٍ. وقولهم: مطلق الأمر يقتضي الوجوب صحيح ، لكن إذا عَرِيَ عن قرينة تقتضي صرفه عن الوجوب ، وتعليقه هنا بشرط علم الخير فيه ، فعلّق الوجوب على أمر باطن وهو علم السيّد بالخيرية. وإذا قال العبد: كاتبني ، وقال السيد: لم أعلم فيك خيراً ، وهو أمر باطن ، فيرجع فيه إليه ويعوّل عليه. وهذا قويّ في بابه).

وأما قوله: ﴿خَيْرًا﴾ ففيه أقوال متكاملة:

1 ـ قال مالك بن أنس: (الخير: القوة على الأداء). أو قال: (الاكتساب والأداء). وهو قول الشافعي.

2 ـ وقال الحسن: (﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قال: صدقاً ، ووفاء ، وأداء ، وأمانة). وقال مجاهد: (مالاً وأمانة). وقال ابن عباس: (إن علمتم لهم مالاً).

3 ـ وقال عمرو بن دينار: (أحسبه كل ذلك المال والصلاح).

(1) حديث حسن. أخرجه أبو يعلىٰ (1570) ، وأحمد (5/ 72) ، وانظر صحيح الجامع (7539).

4 ـ وقال ابن زيد: (إن علمت فيه خيراً لنفسك ، يؤدي إليك ويصدّقك ما حدثك ، فكاتبه).

5 ـ وقال عبيدة السَّلْماني: (إقامة الصلاة والخير).

وقوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾. قال النسفي: (أمر للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمهم من الزكاة لقوله تعالىٰ: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾).

قلت: وقد صنّف البخاري في صحيحه كتاباً سماه: كتاب المكاتب ، وذكر فيه باباً: باب استعانة المكاتَبِ وسؤاله الناس. روىٰ فيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: [جاءت بَريرةُ فقالت: إنّي كاتَبْتُ أهلي على تِسْعِ أواقٍ في كُلِّ عام أُوقيَّةٌ فأعينيني ، فقالت عائشة رضي الله عنها: إنْ أحَبَّ أهلُك أنْ أَعُدَّها لهم عَدَّةً واحِدةً وَأُعْتِقَكِ فَعَلْتُ فيكون ولاؤُكِ لي ، فَذَهَبَتْ إلى أهلها فأبَوْا ذلك عليها ، فقالت: إنّي قدْ عرَضْتُ ذلك عليهم ، فأبَوْا إلا أنْ يكونَ الولاءُ لهُمْ ، فسمِعَ بذلك رسول الله ﷺ فسألني فأخْبَرْتُه فقال: خُذيها فَأَعْتِقيها واشترطي لهم الولاء ، فإنَّ الولاءَ لِمَنْ أعْتَقَ. قالتْ عائِشة: فقام رسول الله ﷺ في الناس فحَمِدَ الله وأثنىٰ عليه ، ثم قال: أمّا بَعْدُ ، ما بالُ رجالٍ يَشْتَرِطون شُروطاً ليست في كتاب الله؟ فأيّما شَرْطٍ كان ليس في كتاب الله فهو باطل وإنْ كانَ مئةَ شَرْطٍ ، فقضاءُ الله أحَقُّ ، وشرْطُ الله أوثَقُ ، ما بالُ رجالٍ يقولُ أحدُهم: أَعْتِقْ يا فُلانُ وَلِيَ الولاءُ ، إنما الولاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ][1]. وفي لفظ: [اشتريها فأعْتقيها ودَعيهم يشترطوا ما شاؤوا. فاشترتها عائشة فأعتقتها واشترط أهلها الولاء. فقال النبي ﷺ: الولاء لمن أعْتَقَ وإنِ اشترطوا مئةَ شرط].

وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: [الولاءُ لِمَنْ أعْطىٰ الوَرِقَ وَوَلِيَ النِّعمة].

وقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. قال ابن عباس: (كانوا في الجاهلية يُكرهون إماءهم على الزنا ، يأخذون أجورهُنّ ، فقال الله: لا تكرهوهنّ على الزنا من أجل المنالة في الدنيا ، ومن يكرههنّ فإنّ الله من بعد إكراههن غفور رحيم لهنّ: يعني إذا أكرهن).

وقال ابن زيد: (﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ﴾ قال: غفور رحيم لهن حين أكرهن ، وَقُسِرْن على ذلك).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2563) ـ (2565) كتاب المكاتب ، وانظر الحديث (456) منه. وللرواية الأخرىٰ (6760) ـ كتاب الفرائض ، وهي رواية مُفَسِّرة للحديث.

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بذكر أسباب نزول هذه الآية:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر قال: [كان عبد الله بنُ أبي بن سلول يقول لجارية له: اذهبي فابْغينا شيئاً، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ﴾ لهنّ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾][1].

الحديث الثاني: روىٰ مسلم ـ أيضاً ـ عن جابر رضي الله عنه: [أنَّ جاريةً لعبد الله بن أُبيّ بن سلول يقال لها: مُسَيْكَةُ، وأُخرىٰ يقال لها: أُمَيْمَةُ، فكان يريدهما «وفي رواية: فكان يُكرههما» على الزِّنىٰ، فَشَكَتا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزلَ اللهُ عَزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾][2].

الحديث الثالث: أخرج الطبراني ورجاله رجال الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [كانت لعبد الله بن أبي جارية تزني في الجاهلية، فلما حُرِّمَ الزنا قالت: لا والله لا أزني أبداً، فنزلت الآية][3].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾. تأكيد لآيات القرآن أنزلها الله واضحات مفسِّرات لأحكام هذا الشرع العظيم، ويأتي الوحي الثاني وهو: السنة المطهرة، لتزيد في ذكر آفاق هذه الأحكام وتبيان مدلولاتها ومعانيها.

وقوله: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾. أي: وأنزلنا في هذا القرآن أخبارَ الأمم الماضية والقرون الغابرة وما حَلَّ بها حين خالفت منهاج رسلها وتطاولت على الوحي النازل إليها.

وقوله: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾. قال ابن كثير: (أي: زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم، ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي: لمن اتّقىٰ الله وخافه).

35. قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (3029) كتاب التفسير، سورة النور، آية (33).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (3029) ح (27) ـ كتاب التفسير، الباب السابق.

(3) حديث صحيح. أخرجه الطبراني ـ ورجاله رجال الصحيح ـ ورواه البزار بنحوه، انظر الصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي ـ سورة النور، آية (33)، وروىٰ ابن جرير نحوه في التفسير ـ حديث رقم ـ (26084).

مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (٣٥)﴾.

في هذه الآية: نَعْتُ الله سبحانه ـ هادي أهل السماوات والأرض، ومنورهما ـ لقلب المؤمن المشعّ بنور الوحي العظيم، في نموذج رائع من التمثيل، وضرب رفيع من التشبيه، يعجز أهل الأرض ولو اجتمعوا على الإتيان بمثله، والله بكل شيء عليم.

فعن ابن عباس: (﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يقول: الله سبحانه هادي أهل السماوات والأرض). وقال مجاهد فيها: (يدبِّر الأمر فيهما، نجومِهما وشمسِهما وقَمَرِهما). وعن أبي العالية عن أبي بن كعب في قول الله: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ قال: (فبدأ بنور نفسه، فذكره، ثم ذكر نور المؤمن فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾، يقول: مثل نور المؤمن).

وفي لفظ: (يقول: مَثَلُ نور مَنْ آمن به. قال: هو عبد جعل الله القرآن والإيمان في صدره).

وكذلك قال سعيد بن جبير ـ والضحاك ـ: (﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾: قال: مثل نور المؤمن).

وهذا هو التأويل الأول للآية.

التأويل الثاني: قيل بل عني بالنور محمد ﷺ، والهاء في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ عائدة على اسم الله.

روي ذلك عن كعب قال: (﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾: مثل محمد ﷺ، كمشكاة).

التأويل الثالث: قيل بل المراد بالنور هدى الله وبيانه، وهو القرآن، والهاء من ذكر الله.

قال ابن عباس: (﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾: مثلُ هداهُ في قلب المؤمن). وقال الحسن: (مثل هذا القرآن في القلب، كمشكاة). وقال ابن زيد: (نور القرآن الذي أنزل على رسوله ﷺ وعباده، هذا مثل القرآن ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾).

قلت: ولا شك أن نوره تعالىٰ هذا الوحي العظيم وهدي نبيّه الكريم يشع في قلب

عبده المؤمن ، فحجابه سبحانه النور ، وكتابه نور ، وسيرة رسوله ﷺ نور على نور ، وقلب عبده المؤمن منوّر بهذا الخير كله .

وأما المشكاة ففي معناها أكثر من قول :

القول الأول : قيل هي كل كوّة لا منفذ لها ، وهو مثل ضربه الله لقلب محمد ﷺ .

قال ابن عباس : (المشكاة : كوّة البيت) . وفي لفظ : (موضع الفتيلة) . وقال كعب : (المشكاة وهي الكوة ، ضربها الله مثلاً لمحمد ﷺ) .

القول الثاني : قيل بل عني بالمشكاة صدر المؤمن ، وبالمصباح : القرآن والإيمان ، وبالزجاجة : قلبه .

فعن أبي العالية عن أبي بن كعب : ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ قال : (مثل المؤمن قد جعل الإيمان والقرآن في صدره كمشكاة ، قال : المشكاة : صدره . ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ قال : والمصباح القرآن والإيمان الذي جعل في صدره . ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ قال : والزجاجة قلبه . ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ﴾ ، قال : فمثله مما استنار فيه القرآن والإيمان كأنه كوكب دري ، يقول : مضيء ، ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ قال : والشجرة المباركة : أصله المباركة الإخلاص لله وحده وعبادته ، لا شريك له . ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال : فمثله مَثل شجرة التفّ بها الشجر ، فهي خضراء ناعمة ، لا تصيبها الشمس على أي حال كانت ، لا إذا طلعت ، ولا إذا غربت ، وكذلك هذا المؤمن قد أُجيرَ من أن يُصيبه شيء من الغيرِ ، وقد ابتُلي بها ، فثبته الله فيها ، فهو بين أربع خلال : إنْ أُعطي شكَر ، وإن ابتُلي صَبَر ، وإن حكم عدل ، وإن قال صدق ، فهو في سائر الناس كالرجل الحيّ يمشي في قبور الأموات ، قال : ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ فهو يتقلب في خمسةٍ من النور : فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدْخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى النور يوم القيامة في الجنة) .

وقال ابن عباس : (﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ قال : مثل هداه في قلب المؤمن ، كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسّه النار ، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوء ، كذلك يكون قلب المؤمن يعمل بالهدىٰ قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم ازداد هدىٰ على هدىٰ ، ونوراً على نور ، كما قال إبراهيم صلوات الله عليه قبل أن تجيئه المعرفة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ حين رأى الكوكب من غير أن يخبره أحد أن له رباً ، فلما أخبره الله أنه ربه ، ازداد هدىٰ على هدىٰ) .

وفي قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ قال: يعني إيمان المؤمن وعمله.

القول الثالث: قيل هو مثل للمؤمن، والمصباح مثل لفؤاده، والمشكاة مثل لجوفه.

قال مجاهد: (المصباح وما فيه مثل فؤاد المؤمن وجوفه، المصباح مثل الفؤاد، والكوّة مثل الجوف).

وقيل غير ذلك، واختار ابن جرير قول من قال: ذلك مثل ضربه الله للقرآن في قلب أهل الإيمان به، فقال: (مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد، الذي أنزله إليهم، فآمنوا به، وصدقوا بما فيه، في قلوب المؤمنين، مثل مشكاة، وهي عمود القنديل الذي فيه الفتيلة.. ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وهو السراج، وجعل السراج وهو المصباح مثلاً لما في قلب المؤمن من القرآن والآيات المبينات ثم قال: ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾.. فقال: الزجاجة، وذلك صدر المؤمن الذي فيه قلبه كأنها كوكب دري. قال: مثل الصدر في خلوصه من الكفر بالله والشك فيه، واستناره بنور القرآن، واستضاءته بآيات ربه المبينات، ومواعظه فيها، بالكوكب الدري).

قلت: وجميع الأقوال متقاربة، وهي اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، وإن كنت أميل إلى القول الثاني وتفصيلاته الدقيقة، وأن معنىٰ قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ هو نور الوحي على نور الإيمان، نور السنة على نور الفطرة، نور التشريع والدين الحق على نور الميثاق، نور الهداية طَمَسَ ظلمة الشهوات وازدحامها على النفس والعقل والقلب، نورٌ على نور، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور.

إنّ أساس التوازن الصحيح بين إرشادالعقل ومحاكماته الدقيقة من جهة، وبين ضغط قوىٰ الغرائز وميلها إلى التفلت من جهة أخرىٰ، هو الاستعانة بالله العظيم، والاستمداد من وحيه الكريم، وهو معنىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. فلا نجاة للعبد من خطر نفسه واندفاع غرائزه إلا بموازنة ذلك بعلم الكتاب والسنة، وملء العقل والقلب بنورهما المشع، الذي ينعكس صحةً في العقل وقراراته ومحاكماته، ونوراً في القلب وهدىٰ وأمناً واستقراراً في حركاته وتقلباته، وحركة صحيحة وعملاً صالحاً يظهر على الجوارح.

وقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. أي: يعاقب الله ذكر الأمثال في القرآن لتنبيه عباده إلى منافعهم ومصالح دنياهم وأخراهم، وهذا المثل

العظيم الذي ضربه سبحانه لنور الوحي الذي يسطع على القلوب فتفرز الحياةَ والإشعاعَ المضيء هو من أنفع الأمثال لهم ، والله أعلم بمن يستحق الهداية وهذا النور ممن يستحق الضلال والخلود في الظلام .

36 ـ 38. **قوله تعالىٰ:** ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: ذِكْرُ أطهر البيوت في الأرض عقب ذكر أطهر القلوب وأزكاها ، فَلَقُلوبٌ عمرت بالإيمان يناسب أصحابها بيوتٌ عمرت بذكر الرحمان ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من الفضل والإحسان ، والله يرزق من يشاء بغير حساب .

فقوله: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ . قال ابن عباس: (وهي المساجدُ تُكْرَم ، ونهي عن اللغو فيها) . وقال مجاهد: (مساجد تُبنىٰ) . وقال قتادة: (هي هذه المساجد ، أمر الله سبحانه ببنائها ورَفعها ، وأمر بِعِمَارَتها وتطهيرها) . وقال الحسن: (﴿ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ يقول: أن تُعَظَّم لذكره) .

يروي ابن جرير بسنده عن عمرو بن ميمون قال: (أدركت أصحاب رسول الله ﷺ وهم يقولون: المساجد: بيوت الله ، وإنه لحقٌّ على الله أن يُكْرِمَ من زاره فيها) .

وقد حفلت السنة العطرة بآفاق هذه الآية في أحاديث كثيرة ، منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن عُبيد الله الخَوْلاني أنه سمع عثمانَ بن عفان ، عِنْد قول الناس فيه حين بنىٰ مسجدَ الرسول ﷺ: إنكم قد أكْثَرتُم ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: [مَنْ بنىٰ مَسْجداً لله يبتغي به وَجْه الله تعالىٰ بنىٰ الله له بيتاً في الجنة][1] . وفي رواية: (مِثْلَهُ في الجنة) .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (450) ـ كتاب الصلاة ، وأخرجه مسلم (533) ـ كتاب المساجد . وانظر للرواية الثانية (533) ح (25) ـ باب فضل بناء المساجد والحث عليها . وأخرجه أحمد (1/ 61) والترمذي (318) ، والبيهقي (2/ 437) ، وابن حبان (1609) .

وفي رواية لمسلم عن مَحْمودِ بنِ لَبيدٍ ، أنَّ عثمانَ بن عفان أراد بناء المسجد ، فكِرهَ الناس ذلك ، فأحَبُّوا أنْ يَدَعَهُ على هيئتِهِ. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [مَنْ بنىٰ مَسْجِداً لله بنىٰ الله له في الجنة مِثْلَه].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن جابر بن عبد الله ، أن رسول الله ﷺ قال: [مَنْ بنىٰ مَسْجِداً لله كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ ، أَوْ أَصْغَرَ ، بنىٰ الله له بيتاً في الجنة](1).

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [مَنْ بَنَىٰ مَسْجِداً يُذْكَرُ فيه اسمُ الله ، بَنَىٰ الله له بيتاً في الجنة](2).

الحديث الرابع: أخرج أبو داود وابن ماجة عن عائشة: [أن رسول الله ﷺ أمر بالمساجد أن تبنىٰ في الدور ، وأن تطهر وتطيب](3).

قلت: وبناؤها لا بد أن يكون على منهاج النبوة ، وإلا فإن زخرفتها وإضاعة الأموال في تزيينها من علامات انهيار الأمة وضعفها ومن علامات الساعة. والأحاديث في ذلك كثيرة ، منها:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تقوم الساعةُ حتىٰ يتباهىٰ الناسُ في المساجد](4).

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن ابن عباس قال: [قال رسول الله ﷺ: «ما أُمِرْتُ بتشييدِ المساجد». قال ابن عباس: لتزخرفنَّها كما زخرفت اليهود والنصارىٰ](5).

الحديث الثالث: أخرج ابن أبي شيبة بسند حسن عن سعيد بن أبي سعيد مرفوعاً:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (738) ـ كتاب المساجد والجماعات. انظر صحيح سنن ابن ماجة (603).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (735) ـ الكتاب السابق ـ باب من بنىٰ لله مسجداً. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (601).

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (455) ، والترمذي (594) ، وابن ماجة (758) ، وغيرهم.

(4) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (739) ـ كتاب المساجد والجماعات. انظر صحيح سنن ابن ماجة (604) ـ باب تشييد المساجد ، وصحيح أبي داود (432).

(5) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (448) ـ كتاب الصلاة. باب في بناء المساجد. وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (431).

[إذا زوقتم مساجدكم ، وحليتم مصاحفكم ، فالدمار عليكم][1].

وفي رواية: [إذا زخرفتم مساجدَكم ، وحليتم مصاحفكم ، فالدمار عليكم].

وقوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾. قيل: آيات كتابه ، وقيل: هو كل ذكر ورجاء ودعاء. قال ابن عباس: (يقول: يُتلىٰ فيها كتابه).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: 18].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: 29].

ومن كنوز صحيح السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: روىٰ مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال: [بينما نحنُ في المسجد مع رسول الله ﷺ إذْ جاء أعرابيٌّ ، فقام يبول في المسجد ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُزْرِمُوه ، دَعُوه» ، فتركوه حتىٰ بال ، ثم إنَّ رسول الله ﷺ دعاه فقال له: إنَّ هذه المساجِدَ لا تَصْلُحُ لشيءٍ مِنْ هذا البَوْلِ والقَذَرِ ، إنما هي لِذِكْرِ الله عزَّ وجلَّ ، والصَّلاةِ ، وقراءةِ القرآن ، أو كما قال رسول الله ﷺ ، قال: فأمر رجلاً من القوم ، فجاءَ بِدَلْوٍ مِنْ ماءٍ ، فَشَنَّهُ[2] عليه][3].

الحديث الثاني: أخرج مسلم والنسائي عن بُريدة: [أنَّ رجلاً أنشدَ في المسجد ، فقال: مَن دعا إلي الجمَل الأحمر؟ فقال النبي ﷺ: لا وَجَدتَ ، إنما بُنِيت المساجِدُ لما بُنيت له][4].

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند حسن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه قال: [نهىٰ رسول الله ﷺ عن البيع والابتياع ، وعن تناشُد الأشعارِ في المساجد][5].

---

(1) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (1/ 100/ 2) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1351).

(2) أي فصبه عليه.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (285) ـ كتاب الطهارة ، وانظر صحيح البخاري (219) ، (221) ، (6025) ، وكذلك مسند أحمد (3/ 226) ، وسنن النسائي (1/ 47).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (569) ، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (174) ، وابن ماجة (765) ، وابن حبان (1652).

(5) حديث حسن. أخرجه أبو داود (1079) ، والترمذي (322) ، وأحمد (2/ 178) ، وغيرهم.

الحديث الرابع: أخرج الترمذي وابن حبان بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [إذا رأيتم من يبيعُ أو يبتاعُ في المسجد فقولوا: لا أربحَ الله تجارتك. وإذا رأيتُم من يَنْشُدُ ضالة في المسجد فقولوا: لا رَدَّها الله عليك][1].

وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾. أي: يصلي لله ويذكره فيها غدوة وعشياً رجال لا تشغلهم أعمال البيع والصفق في الأسواق للتكسب عنْ ذِكر الله وإقامة صلاة الجماعة وأداء الزكاة المفروضة. قال ابن عباس: (﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ يقول: يصلي له فيها بالغداة والعشي، يعني بالغدو: صلاة الغداة، ويعني بالآصال: صلاة العصر، وهما أوّل ما افترض الله من الصلاة، فأحبّ أن يذكرهما، ويذكر بهما عبادته). وقال الحسن: (أذن الله أن تبنى، فيصَلّىٰ فيها بالغدو والآصال). والوقف التام على قوله: «والآصال» عند من قرأ من القرّاء: ﴿يُسَبَّحُ له فيها بالغدو والآصال﴾ ـ بفتح الباء مِن «يُسَبَّح» على البناء لما لم يُسَمَّ فاعله. والقراءة بالكسر ﴿يُسَبِّحُ﴾ أشهر في الأمصار.

قلت: وقوله: ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل «يُسَبِّح» مرفوع. والوقف على نهايات الآيات مستحب دوماً، لأن النبي ﷺ كان يقطع قراءته فيقرأ آية آية، وكثير من الاجتهادات في غير ذلك مما لا دليل عليه.

ففي جامع الترمذي ومستدرك الحاكم بسند صحيح عن أم سلمة قالت: [كانَ يُقَطِّعُ قِراءتَهُ آيةً آيةً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ثم يقف: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ثم يقف][2].

قال ابن كثير: (فقوله: ﴿رِجَالٌ﴾ فيه إشعار بهممهم السامية، ونِياتهم وعزائمهم العالية، التي بها صاروا عُمَّاراً للمساجد، التي هي بيوتُ الله في أرضِه، ومواطِنُ عبادتِه وشكره، وتوحيده وتنزيهه، كما قال تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23]). وعن ابن عباس: (﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يقول: عن الصلاة المكتوبة). وقال السدي: (عن الصلاة في جماعة).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (131)، وابن حبان (1650)، وانظر صحيح مسلم (568) نحوه.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (3107) ـ أبواب القراءات. انظر صحيح سنن الترمذي (2336)، ورواه الحاكم.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: 9].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الجمعة: 9].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: 43].

ومن كنوز السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [أتىٰ النبي ﷺ رجل أعمىٰ، فقال: يا رسول الله! ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أن يرخِّصَ له فيصليَ في بيته فرخَّصَ له، فلما ولّى دعاه فقال: هل تسمع النداء بالصلاة؟ فقال: نعم. قال: فأجِبْ][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة وأبو داود بسند صحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [مَنْ سمع النداء فلم يأته فلا صلاة له إلا مِنْ عُذْر][2].

قال الشافعي: (لا أرخص لمن قدر على صلاة الجماعة في ترك إتيانها إلا من عذر).

الحديث الثالث: روىٰ مسلم عن عبد الله قال: [لقد رأيتنا وما يتخَلَّفُ عن الصلاة إلا مُنافِقٌ قَدْ عُلِمَ نِفَاقُه، أو مريضٌ، إنْ كان المريضُ ليمشي بين رجلين حتىٰ يأتيَ الصلاة. وقال: إن رسول الله ﷺ عَلَّمَنا سُنَنَ الهدىٰ، وإنَّ مِن سُنَنِ الهدىٰ، الصلاة في المسجد الذي يؤذَّنُ فيه][3].

الحديث الرابع: أخرج الحاكم بسند صحيح عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (653) ـ كتاب المساجد. باب يجب إتيان المسجد على من سمع النداء.

(2) حديث صحيح. رواه أبو داود وابن ماجة والحاكم من حديث عبد الله بن عباس. انظر صحيح سنن أبي داود (560)، وصحيح الجامع (6176).

(3) حديث صحيح. خرّجه مسلم (654) ـ كتاب المساجد، باب صلاة الجماعة من سنن الهدىٰ.

قال: [إسباغ الوضوء في المكاره ، وإعمال الأقدامِ إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، يغسلُ الخطايا غسلاً][1].

الحديث الخامس: أخرج ابن أبي شيبة وابن خزيمة بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [ما تَوطَّنَ رجلٌ المساجِدَ للصلاةِ والذكرِ إلا تَبَشْبَشَ الله تعالىٰ إليه كما يَتَبَشْبَشُ أهل الغائب بغائبهم إذا قدِمَ عليهم][2].

وقوله: «تَبَشْبَشَ» أصله من فرح الصديق بمجيء الصديق واللطف في المسألة والإقبال ، والمراد هنا تلقيه ببره وتقريبه وإكرامه.

الحديث السادس: أخرج الحاكم بسند صحيح عن عبد الله بن سلام مرفوعاً: [إنَّ للمساجد أوتاداً ، هم أوتادُها ، لهم جلساءُ من الملائكة ، فإن غابوا سألوا عنهم ، وإنْ كانوا مَرْضَىٰ عادوهم ، وإن كانوا في حاجةٍ أعانوهم][3].

وأما النساء فلا تجب عليهن صلاة الجماعة ، ولا يمنعن منها إلا من فتنة ، وبيوتهن خير لهن.

ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر أنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تمنعوا إماءَ الله مساجدَ الله]. وفي لفظ لأحمد وأبي داود: [وبيوتُهُنَّ خيرٌ لهنَّ][4]. وفي رواية: [وليخرجْنَ وهُنَّ تفِلات]. أي: لا ريحَ لهنَّ.

وفي صحيح مسلم عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: [إذا شَهِدتْ إحداكنَّ المسجدَ فلا تمسَّ طيباً][5].

وقوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾. قال القرطبي: (﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ يعني يوم القيامة. ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ يعني من هوله وحذر الهلاك).

---

(1) رواه أبو يعلىٰ والبزار والحاكم بسند صحيح. انظر صحيح الترغيب (1/ 311).
(2) إسناده صحيح ورجاله ثقات. انظر المرجع السابق (1/ 325) ، وكذلك (1/ 301).
(3) حديث صحيح. رواه الحاكم مرفوعاً. انظر صحيح الترغيب (1/ 327) ، في الترغيب في لزوم المساجد والجلوس فيها.
(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (900) ، ومسلم (442) ، وأحمد (2/ 76) ، (2/ 77). وأخرجه أبو داود (567). وانظر للرواية بعدها سنن أبي داود (565).
(5) حديث صحيح. أخرجه مسلم (443) ، وأحمد (6/ 363) ، والنسائي (8/ 155).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ [غافر: 18].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: 42].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: 9 ـ 10].

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [يحشر الناس يوم القيامة حُفاة عُراة غُرْلاً. قلت: يا رسول الله! الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: يا عائشة: الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض](1).

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾. قال النسفي: (أي يسبحون ويخافون ليجزيهم الله أحسن جزاء أعمالهم، أي ليجزيهم ثوابهم مضاعفاً ويزيدهم على الثواب الموعود على العمل تفضلاً).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. تقرير للزيادة، وتنبيه على كمال القدرة، ونفاذ المشيئة، وسعة كرم الرحمان عز وجل، ومقابلة الإحسان بالإحسان. قال القاسمي: (﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ كناية عن السعة. والمراد أنه لا يدخل تحت حساب الخلق وعدّهم).

أخرج ابن أبي الدنيا والبزار بسند حسن عن ابن عمر مرفوعاً: [لو تَعْلَمون قَدْر رحْمةِ الله عزَّ وجلَ، لاتَّكلْتُم عليها](2).

وفي المسند للإمام أحمد بسند صحيح عن العرباض بن سارية قال: كان النبي ﷺ يخرج علينا في الصفة وعلينا الحوتكية فيقول: [لو تَعْلَمون ما ذُخِرَ لكم، ما حَزِنْتم على ما زُوِيَ عنكم، ولَيُفْتَحَنَّ لكم فارِسُ والروم](3).

---

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم، حديث رقم، (1950)، ورواه البخاري.
(2) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (2/ 193/ 1)، وانظر: «زوائد البزار» للهيثمي (4/ 85/ 3256)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (2167).
(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 128)، وأبو نعيم في «الحلية» (2/ 14)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (2168): إسناده شامي صحيح.

39 ـ 40. قوله تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

في هذه الآيات: مَثَلان ضربهما الله تعالىٰ لنوعي الكفار: الرؤساء والأتباع. لا تنفعهم أعمالهم يوم الحساب أحوج ما يحتاجون إلى نفعها، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور.

فقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾. القيعة: جمع قاع، والقاع واحد القِيعَان، والمقصود الأرض المستوية المتسعة المنبسطة. والسراب: ما يُرىٰ نصف النهار في اشتداد الحرّ، كالماء في المفاوز يلتصق بالأرض. قال القرطبي: (وسمّي السَّرابُ سراباً لأنه يَسْرُبُ أي يجري كالماء).

وعن ابن عباس: (﴿ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ ﴾ يقول: الأرض المستوية). وقال: (هذا مثل ضربه الله لرجل عطش، فاشتدّ عطشه، فرأىٰ سراباً، فحسبه ماء، فطلبه وظنّ أنه قد قدر عليه، حتىٰ أتاه، فلما أتاه لم يجده شيئاً، وقُبض عند ذلك. يقول: الكافر كذلك، يحسب أن عمله مُغْنٍ عنه، أو نافعه شيئاً، ولا يكون آتياً على شيء حتىٰ يأتيه الموت، فإذا أتاه الموت، لم يجد عمله أغنىٰ عنه شيئاً، ولم ينفعه إلا كما نفع العطشان المشتدّ إلى السراب).

وقال ابن زيد: (هذا مثل ضربه الله للذين كفروا ﴿ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ ﴾: قد رأىٰ السراب، ووثق بنفسه أنه ماء، فلما جاءه لم يجده شيئاً، قال: وهؤلاء ظنوا أن أعمالهم صالحة، وأنهم سَيَرْجعون منها إلى خير، فلم يرجعوا منها إلا كما رجع صاحب السراب، فهذا مثلٌ ضربه الله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه).

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: [إذا كان يوم القيامة أذَّنَ مؤذِّنٌ: تَتْبَعُ كُلُّ أُمّـةٍ ما كانت تَعْـبُـدُ، فلا يبقىٰ مَنْ كان يَعْـبُـدُ غَيْرَ الله من الأصْنام

والأنصاب إلا يتساقطون في النّار ، حتىٰ إذا لم يبْقَ إلا مَنْ كان يَعْبُدُ الله بَرٌّ أو فاجِرٌ وغُبّراتُ أهلِ الكتاب ، فَيُدعىٰ اليهودُ ، فيُقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نَعْبُدُ عُزَيْراً ابنَ الله ، فيقال لهم: كَذَبْتُم ما اتَّخَذَ اللهُ من صاحِبَةٍ ولا وَلَدٍ ، فماذا تَبْغُون؟ فقالوا: عَطِشْنا رَبَّنا فاسْقِنَا ، فيشَارُ ألا تَرِدون! فَيُحْشَرونَ إلى النارِ كأنَّها سَرابٌ يَحْطِمُ بَعْضُها بَعْضاً فيتساقطون في النار ، ثم يدعىٰ النصارىٰ فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كُنّا نعبدُ المسيح ابنَ الله ، فيُقالُ لهم: كذبتم ما اتَّخَذَ الله من صاحبة ، فيقال لهم: ماذا تَبْغُونَ؟ فكذلك مِثْلَ الأول] الحديث[1].

وقوله: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾. أي: وإنما وجد في نهاية المسير زبانية العذاب تعتله إلى النار ، فيما قضاه الله تعالىٰ عليه من الذل والعذاب والهوان. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾. قال النسفي: (لأنه لا يحتاج إلى عد وعقد ، ولا يشغله حساب عن حساب ، أو قريب حسابه لأن ما هو آت قريب).

وقوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾. قال قتادة: (وهو العميق). والمقصود: كثير الماء ، فنسب إلى اللج وهو معظم ماء البحر.

فبعد أن ذكر الله أحوال أئمة الكفر أصحاب الجهل المركب ، عطف بذكر أصحاب الجهل البسيط. قال ابن كثير: (وهم الطَّماطم الأغْشامُ المقلِّدون لأئمة الكفر ، الصمُّ البكم الذين لا يعقلون).

وقوله: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾. قال ابن عباس: (يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر ، وهو كقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 7] ، وكقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 23]).

وعن أبي بن كعب قال: (ضرب مثلاً آخر للكافر ، فقال: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ...﴾ الآية ، قال: فهو يتقلب في خمس من الظلم: فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومَدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة ، إلى النار).

قال ابن جرير: (فجعل الظلمات مثلاً لأعمالهم ، والبحر اللجي مثلاً لقلب الكافر ،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4581) ـ كتاب التفسير ، ومسلم (183) في أثناء حديث طويل.

يقول: عَمِلَ بنية قلب قد غَمَرَه الجهل ، وتغشَّته الضلالة والحيرة ، كما يغشىٰ هذا البحر اللُّجي موج من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، فكذلك قلب هذا الكافر الذي مثل عمله مثل هذه الظلمات ، يغشاه الجهل بالله ، بأن الله ختم عليه ، فلا يعقل عن الله ، وعلى سمعه ، فلا يسمع مواعظ الله ، وجعل على بصره غشاوة ، فلا يبصر به حجج الله ، فتلك ظلمات بعضها فوق بعض).

وقال النسفي: (شبهها[1] ثانياً في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب).

وقوله: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾. أي: لا يقارب رؤيتها من شدة الظلمة، والتمثيل كناية عن انعدام نفع أعمال الكفار لهم في آخرتهم.

وقوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾. أي: من لم يهده الله لنور الوحي العظيم يهتدي به في ظلمات الجهل والشبهات والهوىٰ ، فماله من نور يهتدي به غيره ، بل يبقىٰ في الضلال وظلمات الغيّ والأهواء.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأعراف: 186].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: 17].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ [المؤمن: 35].

4 ـ وقال تعالىٰ: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ [الكهف: 17].

وفي صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأي قلب أُشربها نكتت فيه نكتةٌ سوداء ، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتىٰ يصير القلب أبيض مثل الصفا لا تضرّه فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مُرْبداً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه][2].

(1) أي أعمال الكفار.

(2) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1990) ـ كتاب الفتن.

41 ـ 46. **قوله تعالىٰ:** ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (44) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45) لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (46)﴾.

في هذه الآيات: إثباتُ تسبيح جميع ما في السماوات والأرض والطير لله الملك العزيز الحكيم. هو الذي يسوق السحاب بقدرته ويجمعه ويُراكم بعضه على بعض ليخرج من خلاله المطر وينزل البَرَدَ وإن لمعان البرق الذي يرسله يكاد يذهب بالأبصار. فسبحان مقلب شؤون خلقه ومعاقب الليل والنهار. لقد خلق سبحانه كل دابة من ماء فهي تمشي على البطن أو على رجلين أو أربع يخلق ما يشاء وينزل الآيات ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

فقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره لنبيه محمدﷺ: ألم تنظر يا محمد بعين قلبك، فتعلم أن الله يصلي له من في السماوات والأرض، من ملك وإنس وجنّ، ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ في الهواء أيضاً تسبح له). وقال القرطبي: (ومعنىٰ ﴿صَافَّاتٍ﴾ مصطفات الأجنحة في الهواء).

وفي التنزيل:

قال تعالىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: 44].

وقوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾. قال مجاهد: (صلاته: للناس، وتسبيحه عامة لكل شيء). قال ابن كثير: (أي: كلٌّ قد أرشَدَه إلى طريقته ومَسْلَكِهِ في عبادة الله عز وجل).

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴾. أي: عليم: بتسبيح عباده وصلاتهم وأعمالهم كلها، فلا يعزب عن علمه شيء.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾. أي: ولله سلطان السماوات والأرض وملكها، وكل ملك دون ملكه إلى الزوال، فخزائن السماوات والأرض بيده فأفردوه بالطاعة والخوف والرجاء، فإن مرجعكم إليه لا محالة.

وقوله: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا ﴾. قال ابن كثير: (يذكر تعالىٰ أنه بقدرته يسوق السحابَ أول ما ينشئها وهي ضعيفة، وهو الإزجاء، ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ﴾، أي: يجمعه بعد تفرّقه، ﴿ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا ﴾، أي: متراكماً، أي: يَرْكب بعضُه بعضاً).

قلت: وفي لغة العرب: زجّىٰ الشيءَ تزجية إذا دفعه برفق، والمزجَىٰ: الشيء القليل، وبضاعة مزجاة أي قليلة. والمقصود: يسوقُ الله السحاب بأمره حتىٰ يجمعه ثم يجعله متراكماً بعضه على بعض ليخرج المطر من خلاله، وهو الوَدْق. وقوله: ﴿ فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ ﴾. قال ابن زيد: (الودْق: القطر، والخِلال: السحاب). وقوله: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ ﴾. فيه تأويلان محتملان:

التأويل الأول: خلق الله في السماء جبالاً من بَرَد، فهو ينزل منها بَرَداً. أو خلق في السماء جبالاً فيها برد فهو ينزّل منها ما شاء.

التأويل الثاني: قيل بل المعنىٰ: ينزل من السماء قدر جبال، أو مثل جبال من بَرَدٍ إلى الأرض. أو ينزل من السماء برداً يكون كالجبال.

وقوله: ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ ﴾. قال القرطبي: (فيكون إصابته نقمة، وصرفه نعمة). قلت: وقد تكون إصابته برفق رحمة لهم ولزروعهم وماشيتهم، وتأخيره عنهم الغيث امتحاناً لهم. وقوله: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾. السنا: ضوء البرق ولمعانه. قال ابن عباس: (﴿ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ ﴾ قال: ضوء برقه). وقال قتادة: (يقول: لمعان البرق يذهب بالأبصار).

وقوله تعالىٰ: ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾. أي: يُعاقبُ الله الليل والنهار، فيأتي بأحدهما بعد الآخر، ويزيد في أحدهما وينقص من الآخر، ويغيّر النهار بظلمة السحاب مرةً وبضوء الشمس أخرىٰ، كما يغيّر الليل أحياناً بظلمة السحاب أو ضوء القمر، وفي كل ذلك موضع اعتبار لأولي البصائر والعقول والنهىٰ،

ليلجؤوا إليه دوماً بالرجاء والدعاء ويفردوه بالتسبيح والتعظيم.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾. إشارة جديدة إلى عظمته تعالىٰ وقدرته العجيبة، فهو خلق كل أنواع مخلوقاته على اختلاف ألوانها وحجومها وأشكالها وطريقة تحركها من ماء واحد. قال النسفي: (أي من نوع من الماء مختص بتلك الدابة، أو من ماء مخصوص وهو النطفة).

وقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾. أي: ثم فاضل بينها في طريقة حركتها، فالحية تمشي على بطنها، والإنسان والطير على رجلين، والأنعام وسائر الحيوانات كل يمشي على أربع، إن في ذلك لآية كبيرة على بديع قدرته سبحانه واستحقاقه العبادة وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. أي: ويُحدث الله ما يشاء من الخلق مما هو أعجب وأدق فلا حدود لقدرته وهو على كل شيء قدير.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. إرشادٌ منه تعالىٰ إلى تدبر آيات قرآنه وفهم بدائع هذه الحكم والأمثال والعبر التي أودعها كتابه، ثم من استحق الهداية فإنه تعالىٰ يوفقه لها ويجعله على صراط مستقيم.

47 ـ 52. قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

في هذه الآيات: ذكْر بعض صفات المنافقين، يُعلنون الإيمان وما هم بمؤمنين، ويعرضون عن التحاكم لله ورسوله وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين. وأما المؤمنون فيخبتون لله ويرضون بحكمه وحكم رسوله وأولئك هم الفائزون.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. نَعْتٌ لبعض صفات المنافقين، يظهرون الطاعة والإيمان، ويُبْطِنُون المكر والعصيان. قال ابن جرير: (﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: لتركهم الاحتكام إلى رسول الله ﷺ، وإعراضهم عنه إذا دُعُوا إليه).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾. أي: وإذا دعي هؤلاء المنافقون إلى التحاكم إلى كتاب الله وهدي رسوله ترىٰ فريقاً منهم كارهين منكرين مستكبرين.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ أي: وإن كان لهم ـ أي لهؤلاء المنافقين ـ حقٌّ عند من يدعونهم إلى كتاب الله ورسوله، لرأيتهم يأتون إلى رسول الله للمطالبة بحقهم مسرعين منقادين لحكمه وقضائه لاستخلاص حقهم. وقال مجاهد: (﴿يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ قال: سِراعاً).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. قال النسفي: (قسم الأمر في صدودهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم بأن يكونوا مرضىٰ القلوب منافقين، أو مرتابين في أمر نبوته، أو خائفين الحيف في قضائه، ثم أبطل خوفهم حيفه بقوله: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي لا يخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله، وإنما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول الله عليه الصلاة والسلام، فمن ثمّ يأبون المحاكمة إليه).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. أي: إنما صفة المؤمنين إذا دعوا للتحاكم لله ورسوله عند الخصومة الانقياد الكامل وإعلان السمع والطاعة، فهؤلاء أهل النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة.

وفي التنزيـــل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ﴾ [يوسف: 40].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: 48].

4 ـ وقال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: 59].

قال ابن عباس: (من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقرّ به ولم يحكم، فهو ظالم فاسق).

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الدارمي بسند صحيح عن زياد بن حُدَير قال: [قال لي عمر: هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قال: قلت: لا. قال: يهدمه زَلَّةُ العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين][1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند حسن عن عدي بن حاتم قال: [أتيت النبي ﷺ، وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «يا عَدِيُّ اطْرَحْ عنك هذا الوثَن»، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 31]، قال: «أما إنّهم لم يكونوا يَعْبُدونهم، ولكنّهم كانوا إذا أحَلُّوا لهم شيئاً استَحَلُّوه، وإذا حَرَّموا عليهم شيئاً حرَّموه»][2].

الحديث الثالث: أخرج أبو داود والنسائي بسند صحيح عن هانئ بن يزيد، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الله هو الحَكَمُ، وإليه الحُكم][3]. والحَكَمُ: هو الحاكم، وحقيقته: الذي سُلِّمَ له الحُكم ورُدَّ إليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾. قال قتادة: (﴿يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما أمراه، ويترك ما نَهَيا عنه، ﴿وَيَخۡشَ ٱللَّهَ﴾ فيما مضىٰ من ذنوبه، ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾ فيما يُسْتَقبل). قال ابن كثير: (وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾، يعني: الذين فازوا بكل خير، وأمنوا من كلِّ شَرٍّ في الدنيا والآخرة).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الدارمي (1/ 71) من حديث زياد بن حُدَير، وانظر تخريج المشكاة (1/ 269). قال الألباني: وسنده صحيح. وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 434) ـ توحيد التشريع ـ لمزيد من تفصيل هذا البحث.

(2) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي (2471) ـ أبواب تفسير القرآن، سورة التوبة، آية (31). وله شاهد عند الطبري (16634) من حديث حذيفة موقوفاً.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4955). وانظر صحيح سنن أبي داود (4145)، وصحيح الجامع (1841)، والإرواء (2682)، ورواه النسائي.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: 185].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: 33 ـ 35].

قال ابن عباس: (﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ قال: حزن النار). وقال قتادة: (كانوا في الدنيا يعملون وينصبون، وهم في خوف أو يحزنون). قلت: فأول لحظات السعادة الأبدية، والشعور بلذة الفوز والظفر، عند وضع أول قدم على باب الجنة.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: [إنّ أهل الجنة يتراءَون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله! تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرُهم. قال: بلىٰ والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين][1].

53 ـ 54. **قوله تعالىٰ:** ﴿۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

في هذه الآيات: فَضْحُ الله تعالىٰ المنافقين في تأكيدهم الخروج للجهاد مع رسول الله ﷺ بالحلف وهم كاذبون. إنه من يطع الله ورسوله ينعم بنور الهداية ومن يعرض فما على الرسول إلا البلاغ المبين.

فقوله: ﴿۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾. إخبار عن حال أهل النفاق في استخدامهم أغلظ أيمانهم وأشدّها في الحلف لرسول الله ﷺ لئن أمرهم بالخروج إلى جهاد عدوه وعدو المؤمنين ليخرجن. قال القرطبي: (﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: أي طاقة

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3256)، وانظر مختصر صحيح مسلم (1961).

ما قدروا أن يحلفوا). وقال مقاتل: (من حلف بالله فقد أجهد في اليمين). وقوله: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾. قال مجاهد: (قد عُرفت طاعتكم إليَّ أنكم تكذبون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: يقول: إن الله ذو خبرة بما تعملون من طاعتكم الله ورسوله، أو خلافكم أمرهما، أو غير ذلك من أموركم، لا يخفىٰ عليه من ذلك شيء، وهو مجازيكم بكل ذلك).

وقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾. أي: أخلصوا في اتباع كتابه وسنة نبيّه وذروا النفاق والرياء والكذب. قال النسفي: (صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريق الالتفات، وهو أبلغ في تبكيتهم). وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾. أي: فإن تتولوا فإنه وبال ذلك عليكم، وضرره راجع إليكم، فإن الرسول عليه البلاغ ـ وهو ما حَمَّلَهُ الله تعالىٰ ـ وأما أنتم فعليكم ما حُمِّلْتُم من التكليف ووجوب الإذعان لأمر الله والقيام بطاعته، فإن أبيتم وقعتم تحت سخط الله وتعرضتم لعقابه.

وقوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾. أي: إن تطيعوا رسولكم ترشدوا وتصيبوا الحق وطريق الهداية إلى سعادتكم في الدارين.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾. أي البلاغ بالوحي الذي فيه إقامة الحجة عليكم. قال ابن جرير: (يقول: فليس على محمد أيها الناس إلا أداء رسالة الله إليكم، وعليكم الطاعة، وإن أطعتموه لحظوظ أنفسكم تصيبون، وإن عصيتموه بأنفسكم فتوبقون).

55 ـ 57. قوله تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

في هذه الآيات: وَعْـدُ الله تعالىٰ المؤمنين الاستخلاف في الأرض والتمكين، فمن

كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون. وأمْرٌ بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول الكريم. وتقرير عجز الكافرين عن الهروب من عذاب الله ومأواهم النار ولبئس المصير.

أخرج الحاكم والطبراني بسند رجاله ثقات عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: [لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا ترون أنا نعيش حتىٰ نكون آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله، فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ إلى ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ يعني بالنعمة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾][1].

وقد حصل وعد الله تعالىٰ لرسوله ﷺ ولأصحابه من بعده، فقد أظهر الله نبيّه على مكة وخيبر والبحرين وسائر الجزيرة العربية وكامل أرض اليمن، وأخذ جزية مجوس هجر وبعض أطراف الشام، وهاداه هرقل والمقوقس والنجاشي ملك الحبشة بعد أصحمة. وتابع الصديق الفتوح بعده، فدانت له جزيرة العرب وبعث الجيوش إلى الشام وبلاد فارس ومصر، ففتحت دمشق وبصرىٰ وبعض مناطق حوران في زمانه، وأكمل الفتوح من بعده عمر رضي الله عنه ففتحت الشام في عهده بأكملها، وكذلك بلاد مصر وأغلب فارس، ثم تابع عثمان رضي الله عنه حتىٰ حكم أقصىٰ المشارق والمغارب بالإسلام، وأذلّ جيوش الكفر والطغيان. وهذه الآية عامة في كل زمان ومكان، فهي موعود الله تعالىٰ للمؤمنين الصادقين عبر الأيام.

والبشائر في ذلك كثيرة كما جاء في السنة العطرة:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ثوبان، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الله زوىٰ لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنّ أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها][2].

الحديث الثاني: أخرج أحمد وابن حِبّان بسند صحيح عن المقداد بن الأسود

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في «الأوسط» ورجاله ثقات. والحاكم وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. انظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة النور، آية (55).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 171)، وأبو داود (4252)، وأحمد (5/ 278)، والترمذي (2/ 27)، وابن ماجة (2952).

مرفوعاً: [ليبلغَنَّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به الإسلام ، وذلاً يذلّ به الكفر][1].

الحديث الثالث: روىٰ أحمد والدارمي بسند حسن عن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاصي ، وسئل أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، قال: فأخرج منه كتاباً قال: فقال عبد الله: [بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب ، إذ سئل رسول الله ﷺ: أيُّ المدينتين تفتح أولاً أقسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: مدينة هرقل تفتح أولاً. يعني قسطنطينية][2].

الحديث الرابع: روىٰ أحمد في المسند ، بسند صحيح عن حذيفة مرفوعاً: [تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت][3].

وخلاصة الآية: وعدٌ من الله تعالىٰ للمؤمنين القائمين بدينهم على منهاج النبوة بالاستخلاف والتمكين والأمن بعد الخوف لِيُعْبَدَ الله وحده في الأرض لا شريك له ومن خرج بعد ذلك عن الطاعة فله عذاب عظيم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. أي أقيموا أيها الناس الصلوات التي فرضها الله عليكم بحدودها وأركانها وواجباتها وشروطها ، وأدوا زكاة أموالكم على اختلاف أنواعها المفصلة في السنة المطهرة ، واتبعوا هدي نبيكم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولا تنحرفوا عنه ولا تبتدعوا فيه لتنالكم شفاعة ربكم ولتأمنوا عنده يوم القيامة.

---

(1) حديث صحيح. رواه ابن حبان في صحيحه (1631) ، (1632) ، ورواه أحمد والطبراني وجماعة من المحدثين. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (3).

(2) حديث حسن الإسناد. أخرجه أحمد (2/ 176) ، والدارمي (1/ 126) ، والحاكم (3/ 422). و«رومية» ـ هي رومة عاصمة إيطالية اليوم ، وانظر السلسلة الصحيحة (4).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 273) ، وانظر المرجع السابق ، حديث رقم (5).

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾. أي: لا تحسبن ـ يا محمد ـ جولة الكفار مستمرة باقية، بل إنهم واقعون تحت مكر الله تعالىٰ فلا يعجزونه، فإن الهلاك يهددهم في الدنيا، وعذاب جهنم نازل بهم لا محالة في الآخرة، ولبئس القرار لهم يومئذ والمأوىٰ نار الجحيم.

58 ـ 60. قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

في هذه الآيات: آداب رفيعة في استئذان الأقارب والأطفال والخدم، وبيان أوقات الأمر بذلك في ثلاثة أحوال: قبل صلاة الفجر حيث الناس نيامٌ على فرشهم، ووقت القيلولة مظنة الإنسان أن يضع ثيابه، ومن بعد صلاة العشاء فهو وقت النوم، وفي غير هذه الأوقات لا جناح عليهم في الدخول والحركة والتطواف في الخدمة ولو رأوا شيئاً من أوضاعكم للإذن لهم في ذلك. وإذا بلغ الأطفال الحلم فعليهم الاستئذان، ولا جناح على القواعد من النساء أن يضعن ثيابهن غير متبرجات، وأن يلتمسن العفاف والله سميع عليم.

فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾. قال مجاهد: (عبيدكم المملوكون). وهي عامة في جميع أملاك الأيمان، من الذكور والإناث. فعن أبي حصين، عن أبي عبد الرحمن قال: (هي في الرجال والنساء، يستأذنون على كل حال، بالليل والنهار).

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾. قال مجاهد: (لم يحتلموا من أحراركم). وقال

عطاء: (فذلك على كل صغير وصغيرة أن يستأذن). وقوله: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾. أي: ليستأذنوا في ثلاثة أوقات من ساعات ليلكم ونهاركم. قال ابن عباس: (يقول: إذا خلا الرجل بأهله بعد صلاة العشاء، فلا يدخل عليه خادم ولا صبيّ إلا بإذن، حتىٰ يصلّي الغداة، فإذا خلا بأهله عند صلاة الظهر فمثل ذلك).

وقوله: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾. العورات هنا الساعات التي تكون فيها العَورة، والمعنىٰ: هذه الخصال أو الأحوال ثلاث عورات في هذه الأوقات. قال ابن كثير: (فيؤمر الخدم والأطفال ألا يَهْجُموا على أهل البيت في هذه الأحوال، لما يُخشىٰ من أن يكون الرجلُ على أهله، أو نحو ذلك من الأعمال، ولهذا قال: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾، أي: إذا دخلوا في غير هذه الأحوال فلا جُناح عليكم في تمكينكم إياهم من ذلك، ولا عليهم إذا رأوا شيئاً في غير تلك الأحوال، لأنه قد أُذِنَ لهم في الهجوم، ولأنهم ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾، أي: في الخدمة وغير ذلك).

وقوله: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾. قال ابن عباس: (ثم رخص لهم في الدخول فيما بين ذلك بغير إذن، يعني فيما بين صلاة الغداة إلى الظهر، وبعد الظهر إلى صلاة العشاء، أنه رخص لخادم الرجل والصبي أن يدخل عليه منزله بغير إذن، قال: وهو قوله: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾ فأما من بلغ الحلُم، فإنه لا يدخل على الرجل وأهله إلا بإذن على كل حال).

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾. قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه: كما بينت لكم أيها الناس أحكام الاستئذان في هذه الآية، كذلك يبين الله لكم جميع أعلامه [1]، وأدلته وشرائع دينه. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ يقول: والله ذو علم بما يصلح عباده، حكيم في تدبيره إياهم، وغير ذلك من أموره).

وقوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾. قال ابن عباس: (أما من بلغ الحُلُم، فإنه لا يدخل على الرجل وأهله، يعني من الصبيان الأحرار، إلا بإذن على كل حال). وقال عطاء: (واجب على الناس أجمعين أن يستأذنوا إذا احتلموا، على من كان من الناس). وقال ابن شهاب عن ابن المسيب: (يستأذن الرجل على أمه). وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾. قال ابن

---

(1) هكذا وقع في تفسير الطبري، ولعل الأصح «أحكامه» بدل «أعلامه».

المسيب: (يقول: هكذا يبين الله لكم آياته، أحكامه وشرائع دينه، كما بين لكم أمر هؤلاء الأطفال في الاستئذان بعد البلوغ).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. أي: عليم بما يصلح لعباده من الآداب والتشريع وكل شيء من أحوالهم، حكيم في تدبيره وخلقه وتشريعه وتقديره.

وقوله: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾. القواعد من النساء: أي اللواتي قعدن عن الولد من الكبر، فلا يحضن ولا يلدن، والواحدة قاعد. قال الرازي في «مختار الصحاح»: (القاعد من النساء التي قعَدَت عن الولد والحيض). وعن سعيد بن جبير وقتادة: (﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: هُنَّ اللواتي انقطع عنهن الحيضُ ويَئِسْنَ من الولد). وعن مجاهد: (﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ قال: لا يردنه ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ قال: جلابيبهن). وعن ابن مسعود قال: (الجلبابُ، أو الرِّداء).

والمقصود: مَنْ لم يبق لهن تشوّفٌ إلى التزويج من النساء القواعد فليس على إحداهن من الحَجْر في التَسَتُّر كما على غيرها، فلها أن تضع الجلباب والرداء يكون فوق الثياب عند المحارم من الرجال وغير المحارم من الغرباء، غير متبرِّجات بزينة. وفي قراءة أبي بن كعب: «أن يضعن من ثيابهن».

أخرج أبو داود بسند حسن عن ابن عباس قال: [﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ الآية، فنسخ واستُثْنِيَ من ذلك ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ الآية][1].

وعن سعيد بن جبير: (﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾، يقول لا يتبرّجن بِوَضْع الجلباب أن يُرىٰ ما عليها من الزينة). والتبرج: هو إظهار المرأة من محاسنها ما ينبغي لها أن تستره.

فمقصود الآية: أنْ لا يُقابل الإذنُ لقواعد النساء بِوَضْع بعض ثيابهن تخفيفاً عليهن بإبراز الزينة أو تكلف ذلك أمام الرجال، فإن ذلك ينافي الحياء والعفاف.

وقوله: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. إرشاد للأفضل والأَوْلى، وهو تَرْكُ وضع الثياب مع وجود الجواز. قال القاسمي: (﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ أي من

(1) حسن الإسناد. أخرجه أبو داود (4111) ـ كتاب اللباس، وانظر صحيح أبي داود (3464).

وضع تلك الثياب ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ لأنه أبلغ في الحياء وأبعد من التهمة والمظنة. ولذا يلزمهن، عند المظنة، ألا يضعن ذلك. كما يلزم مثله في الشابة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي فيسمع مقالهن مع الأجانب، ويعلم مقاصدهن من الاختلاط ووضع الثياب. وفيه من الترهيب ما لا يخفىٰ.

61. **قوله تعالىٰ:** ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

في هذه الآية: رفْعُ الحرج عن الأعمىٰ والأعرج والمريض وأمثالهم ممن لا يجب عليهم النفير للجهاد ـ وكذلك أنتم ـ في الأكل من بيوت القرابة كالآباء والأمهات والإخوان والأخوات والأعمام والأخوال والخالات والأصدقاء. والأمْرُ بإلقاء السلام عند الدخول والله يبين الآيات لقوم يعقلون.

أخرج البزار ورجاله رجال الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: [كان المسلمون يرغبون في النفير مع رسول الله ﷺ فيدفعون مفاتيحهم إلى ضُمَنائِهم[1] ويقولون لهم قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما أحببتم، فكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا، إنهم أذنوا عن غير طيب نفس، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

(1) الضمانة الزمانة، ضمن الرجل فهو ضَمنٌ أي زمن مبتلىٰ.

عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾][1].

وفي رواية الزهري: [فكانوا يقولون: إنه لا يحلّ لنا أن نأكل، إنهم أذنوا لنا عن غير طِيب أنفسهم، وإنما نحن أمناء. فأنزل الله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾].

والمقصود: لا حرج على هؤلاء الذين سُمُّوا في هذه الآية، أن يأكلوا من بيوت من ذكره الله فيها. وفائدة إقحام النفس بقوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أن المراد به ليس على الضعفاء المطعمين، ولا على الذاهبين إلى بيوت القرابات، أو مَنْ هو في مثل حالهم وهم الأصدقاء ـ حرج في الأكل من بيوت من ذُكِر.

وعن الفرّاء: (قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي بيوت أزواجكم وعيالكم). أضافه إليهم، لأن بيت المرأة كبيت الزوج. وقال ابن قتيبة: (أراد بيوت أولادهم). فنسب بيوت الأولاد إلى الآباء، لأن الولد من كسب الوالد، وماله بمنزلة مال أبيه.

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [إن أَطْيَبَ ما أَكَلَ الرجلُ من كَسْبِهِ، وإنَّ ولَدَهُ من كَسْبِهِ][2] وفي رواية: [إن أَطْيَبَ ما أَكَلْتُم من كَسْبِكُم، وإن أولادكم مِنْ كَسْبِكُم]. وفي رواية عند أبي داود: [ولد الرجل من كَسْبِهِ، من أطيب كسبِهِ، فكلُوا من أموالهم][3].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو: [أن رجلاً أتىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّ لي مالاً وولداً، وإنَّ والدي يحتاج مالي؟ قال: أنت ومالُكَ لوالدك، إنَّ أولادكم من أطيب كسبكم، فكلوا من كسب أولادكم][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البزار ورجاله رجال الصحيح. انظر الصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي ـ سورة النور، آية (61)، وقال السيوطي في «لباب النقول»: سنده صحيح.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (2137) ـ كتاب التجارات، باب الحث على المكاسب. وانظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (1738). وحديث رقم ـ (1854).

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3529) ـ كتاب الإجازة. انظر صحيح أبي داود (3014).

(4) حديث حسن صحيح. أخرجه أبو داود (3530)، وابن ماجة (2292)، وانظر صحيح سنن أبي داود (3015)، وصحيح ابن ماجة (1856).

ورواه ابن ماجة بلفظ: [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إنّ أبي اجتاح مالي. فقال: أنت ومالُكَ لأبيك. وقال رسول الله ﷺ: إنَّ أولادَكم مِنْ أَطْيَبِ كَسْبِكُم، فكلوا مِنْ أموالهم].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن جابر بن عبد الله: [أنّ رجلاً قال: يا رسول الله! إنّ لي مالاً وولداً. وإنّ أبي يريد أن يجتاح مالي. فقال: أَنْتَ ومَالُكَ لأبيك][1].

قال القاسمي في «التفسير»: (﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ يعني أموال المرء، إذا كان له عليها قيّم ووكيل يحفظها له، أن يأكل من ثمر بستانه ويشرب من لبن ماشيته. وملك المفاتح كونها في يده وحفظه).

وقال ابن كثير في «التفسير»: (وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْۚ﴾، أي: بيوت أصدقائكم وأصحابكم، فلا جُناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشقُّ عليهم ولا يَكْرَهون ذلك).

قلت: وهذا فهم لطيف للآية، فإنه لا بد من الشعور بسماح الصديق بذلك وعدم إحراجه مع أهله. وعليه يفهم قول قتادة: (إذا دخلت بيتَ صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه). وفي الأثر عن جعفر الصادق: (من عظم حرمة الصديق، أن جعله الله من الأنس والثقة والانبساط وطرح الحشمة، بمنزلة النفس والأب والأخ والابن).

وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًاۚ﴾. رخصة من الله تعالىٰ أن يأكل الرجل وحده، ومع الجماعة، وإن كان الأولىٰ والأفضل الأكل مع الجماعة رجاء حصول البركة.

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بروائع هذا المعنىٰ:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن وحشي: [أنهم قالوا: يا رسول الله! إنا نأكل ولا نشبع. قال: فَلَعَلَّكُم تأكلون متفرِّقين؟ قالوا: نعم. قال: فاجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله عليه يُبَارَكْ لكمْ فيه][2].

الحديث الثاني: أخرج الطبراني في «الأوسط» بسند حسن عن ابن عمر قال: قال

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (2291). وانظر صحيح ابن ماجة (1855).

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (3286) ـ كتاب الأطعمة. باب الاجتماع على الطعام، وانظر صحيح سنن ابن ماجة (2657)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (664).

رسول الله ﷺ: [كلوا جميعاً ولا تتفرّقوا ، فإنَّ طعامَ الواحد يكفي الاثنين ، وطعامَ الاثنين يكفي الأربعة][1].

وله شاهد عنده في «المعجم الكبير» بلفظ: [طعام الاثنين يكفي الأربعة ، وطعام الأربعة يكفي الثمانية ، فاجتمعوا عليه ، ولا تتفرقوا عنه].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة ـ والترمذي نحوه ـ بسند حسن عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [كلوا جميعاً ولا تفرقوا ، فإن طعام الواحد يكفي الاثنين ، وطعام الاثنين يكفي الثلاثة والأربعة. كلوا جميعاً ولا تفرقوا ، فإن البركة في الجماعة][2].

الحديث الرابع: أخرج الطحاوي بسند صحيح عن عبد الله بن عباس مرفوعاً: [إنّ البركة تنزل وسط القصعة ، فكلوا من نواحيها ، ولا تأكلوا من رأسها][3].

وهو عند ابن ماجة من حديث واثلة بلفظ: [كلوا باسم الله مِنْ حَوالَيْها ، وأعْفُوا رأْسَها ، فإنَّ البركة تأتيها مِنْ فوقها].

وقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾. قال الضحاك: (﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾: يقول: سلموا على أهاليكم إذا دخلتم بيوتكم ، وعلى غير أهاليكم ، فسلموا إذا دخلتم بيوتهم).

وقال سعيد بن جبير وقتادة: (فليسلم بعضكم على بعض).

قلت: والآية عامة في أمر الله تعالىٰ المؤمنين بإلقاء السلام بعضهم على بعض سواء في المساجد أو البيوت أو أماكن التقائهم على اختلاف أنواعها ، ولا دليل على تخصيص شيء من ذلك دون شيء كما ذهب بعض المفسِّرين.

ونصب قوله: ﴿تَحِيَّةً﴾ بتقدير: سلموا تحية ، أو تحيّون أنفسكم تحية من عند الله ، وهي السلام. قال النسفي: (﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي ثابتة بأمره مشروعة من لدنه ، أو لأن التسليم والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه ، والمحيا من عند الله

---

(1) حسن بكثرة طرقه. أخرجه الطبراني في «الأوسط» (7597) ، وانظر السلسلة الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2691). وانظر «المعجم الكبير» (3/ 194/ 1). للشاهد بعده.

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (3255) ، وله شاهد عند مالك (2/ 928/ 20) ، وعند الترمذي (1/ 335) ، وفي مسند أحمد (2/ 244) ، وانظر السلسلة الصحيحة (1686).

(3) إسناده صحيح. أخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» (1/ 55) ، وانظر سنن ابن ماجة (2/ 305) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (2030).

﴿ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ وصفها بالبركة والطيب لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجىٰ بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق).

فالسلام هو اسم الله تعالىٰ ، ففي التحية به ذكر الله ودعاء بالسلامة.

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ في أحاديث:

الحديث الأول: روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تَدْخلون الجنة حتىٰ تُؤْمِنوا ، ولا تُؤْمنوا حتىٰ تحابُّوا ، أولا أدلكم على شيء إذا فَعَلْتُموه تحابَبْتُم؟ أفشوا السلام بينكم][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في «الأدب المفرد» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ السَّلامَ اسم من أسماء الله تعالىٰ وضعه الله في الأرض ، فأفشوا السلام بينكم][2].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي وابن ماجة بسند صحيح ، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [اعبدوا الرحمن ، وأطعموا الطعام ، وأفشوا السلام ، تدخلوا الجنة بسلام][3]. وفي رواية في الأدب المفرد: [تدخلوا الجنان].

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾. أي: هكذا يفصل الله لكم أحكام دينكم ، لتفقهوا عنه تعالىٰ أمره ونهيه وأدبه وبيان شرعه وهديه.

62 ـ 64. قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (54) ـ كتاب الإيمان. وفي رواية: «والذي نفسي بيده! لا تدخلون الجنة حتىٰ تؤمنوا ، . . . » الحديث.

(2) حديث حسن. أخرجه البخاري في «الأدب لمفرد» (989). انظر صحيح الأدب المفرد (760).

(3) حديث حسن صحيح. أخرجه الترمذي (2/ 340) ، وابن ماجة (3694) ، وأحمد (2/ 170). وانظر صحيح الأدب المفرد (752).

تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: إرشادٌ من الله تعالىٰ عباده المؤمنين إلى الأدب مع نبيهم ﷺ ، فإذا دخلوا أو خرجوا فليستأذنوا ولا يتفرقوا إلا عن أمره. والنهي عن مناداة الرسول كمناداة غيره أو ظن دعائه كدعاء غيره. والوعيد الشديد على من تعمد مخالفة أمره ، والله بكل شيء عليم.

فقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ . قال ابن كثير: (وهذا أيضاً أدَبٌ أرشد الله عبادَه المؤمنين إليه ، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول ، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف ، ولا سِيَّما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من صلاة جُمُعَةٍ أو عيد أو جماعة ، أو اجتماع لمشورة ونحو ذلك).

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ . شهادةٌ من الله تعالىٰ لملتزمي هذه الآداب الرفيعة مع نبيّهم بصدق الإيمان وكماله.

وقوله: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: فإذا استأذنك يا محمد الذين لا يذهبون عنك إلا بإذنك في هذه المواطن لبعض شأنهم ، يعني لبعض حاجاتهم التي تعرض لهم ، فأذن لمن شئت منهم في الانصراف عنك لقضائها ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ﴾ يقول: وادع الله لهم بأن يتفضل عليهم بالعفو عن تبعات ما بينه وبينهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لذنوب عباده التائبين ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بهم أن يعاقبهم عليها ، بعد توبتهم منها).

قلت: وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذه الآداب العالية في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عمر: [أنه أتىٰ النبي ﷺ ، وهو في مشْرُبَةٍ له ، فقال: السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليكم! أيدخل عمر؟][1].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (4/ 192) ، والبخاري (4913) نحوه ، وأبو داود (5201).

رسول الله ﷺ: [إذا انتهىٰ أحدكُمْ إلى المَجْلِسِ فَلْيُسَلِّمْ ، فإذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولىٰ بأحقَّ من الآخرة][1] .

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح عن ربعيّ ، قال: [حدثنا رجل من بني عامر: أنه استأذن على النبي ﷺ وهو في بيت فقال: ألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخْرُجْ إلى هذا! فَعَلِّمْهُ الاستئذان ، فقل له: قل: السلام عليكم ، أأدخل»؟ فسمعه الرجل ، فقال: السلام عليكم ، أأدخل؟ فأذن له النبي ﷺ ، فدخل][2] .

الحديث الرابع: أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي موسىٰ مرفوعاً: [إذا استأذن أحدُكم ثلاثاً فلم يُؤْذَنْ له فليرجعْ][3] .

وقوله: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ فيه تأويلان متكاملان:

التأويل الأول: التحذير من مناداته باسمه ، أو رفع الصوت بالنداء له .

قال ابن عباس: (كانوا يقولون: يا محمد يا أبا القاسم ، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظاماً لنبيِّه ﷺ. قال: فقولوا: يا نبي الله ، يا رسول الله). وقال مقاتل: (لا تُسَمُّوه إذا دعوتموه يا محمد ، ولا تقولوا يا ابن عبد الله ، ولكن شرفوه فقولوا: يا نبي الله ، يا رسول الله).

وهذا المعنىٰ كقوله تعالىٰ في سورة الحجرات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

التأويل الثاني: التنبيه إلى أن دعوته ﷺ مستجابة ، ليست كأي دعاء من غيره .

فعن الحسن البصري وعطية العوفي: (أي لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره ، فإن دعاءه مستجاب ، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا).

---

(1) حسن صحيح. أخرجه أبو داود (5208) ، والترمذي (2861). انظر صحيح أبي داود (4340).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (5177) ـ في الأدب ـ باب كيف الاستئذان. انظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (4312).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6245) ، ومسلم (6/ 178) ، وأبو داود (5180).

وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾. قال مقاتل: (هم المنافقون كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة فيلوذون ببعض أصحاب محمد ﷺ حتى يخرجوا من المسجد).

وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. تهديد ووعيد، لكل متجرئ على مخالفة أمر رسول الله ﷺ وهديه. والمعنى: فليحذر من خالف شريعة الرسول ﷺ باطناً وظاهراً أن تصيبهم في قلوبهم فتنة: من كفر أو نفاق أو بدعة، أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا: بقتل أو حَدٍّ أو حبس أو نحوه، ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله.

قلت: بل التهديد للمتجرئ على مخالفة الرسول ﷺ بالعذاب الأليم يشمل حصوله في الدارين: الدنيا والآخرة، وقد جاء هذا التحذير والوعيد في أكثر من حديث في السنة المطهرة:

الحديث الأول: روى مسلم عن جابر قال: [كان رسول الله ﷺ إذا خطب احْمَرَّتْ عيناه، وعلا صَوْتُه، واشْتَدَّ غضبُه، حتى كأنه مُنْذِرُ جَيْشٍ يقول: صَبَّحَكُمْ مَسّاكُمْ! ويقول: بُعِثْتُ أنا والساعةُ كهاتين. ويقرن بين إصْبَعَيْه السَّبَّابَةِ والوُسْطى، ويقول: أما بَعْدُ، فإن خير الحديث كِتابُ الله، وخَيْرُ الهَدْي هَدْيُ محمد، وشَرُّ الأمور مُحْدثاتها، وكُلُّ بِدْعة ضلالة][1].

الحديث الثاني: يروي ابن ماجة بسند صحيح عن ابن عمر: [أن رسول الله ﷺ قال: «لا تمنعوا إماءَ الله أن يصلين في المسجد». فقال ابن له: إنا لنمنعهن، فقال، فغضب غضباً شديداً، وقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول: إنا لنمنعهن؟][2].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن شهاب، أن سالم بن عبد الله حدّثه: [أنه سمع رجلاً من أهل الشام، وهو يسأل عبد الله بن عمر: عن التمتع بالعمرة إلى الحج، فقال عبد الله بن عمر: هي حلال. فقال الشامي: إنّ أباك قد نهى عنها. فقال عبد الله بن عمر: أرأيت إن كان أبي نهى عنها وصنعها رسول الله ﷺ: أَمْرُ أبي

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (867) ـ كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة.
(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (16). باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه.

يُتْبَع ، أم أمْرُ رسول الله ﷺ؟ فقال الرجل: بل أمر رسول الله ﷺ. فقال: لقد صنعها رسول الله ﷺ][1].

وقد ذكر الإمام الشاطبي في «الاعتصام»: (أن الزبير بن بكار قال: سمعت مالكاً بن أنس ـ وأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله من أين أحرم؟ قال: من ذي الحليفة حيث أحرم رسول الله ﷺ. فقال: إني أريد أن أحرم من المسجد. فقال: لا تَفْعَل. قال: فإني أريد أنْ أُحْرِمَ من المسجد من عند القبر. قال: لا تفعل فإني أخشىٰ عليك الفتنة. فقال: وأيُّ فتنة هذه؟ إنما هي أميال أزيدها ، قال الإمام مالك: وأي فتنة أعظم من أن ترىٰ أنك سبقت إلى فضيلة قصَّر عنها رسول الله ﷺ ، إني سمعت الله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. بيان لكمال علمه تعالىٰ وقدرته ، وتأكيد لكمال سلطانه وملكوته وجبروته.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: 61].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49].

قال ابن زيد: (﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ صنيعكم هذا أيضاً ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يقول: ويوم يَرْجِعُ إلى الله الذين يخالفون عن أمره ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ يقول: فيخبرهم حينئذ ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا ، ثم يجازيهم على ما أسلفوا فيها ، من خلافهم على ربهم

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (830). أبواب الحج. باب ما جاء في التمتع. وانظر صحيح سنن الترمذي (658) وقال الألباني: صحيح الإسناد.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ يقول: والله ذو علم بكل شيء عملتموه أنتم وهم وغيركم، وغير ذلك من الأمور، لا يخفىٰ عليه شيء، بل هو محيط بذلك كله، وهو مُوفٍّ كل عامل منكم أجر عمله يوم ترجعون إليه). قال القرطبي: (و﴿يَعْلَمُ﴾ هنا بمعنىٰ علم). وقال النسفي: (أدخل قد ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين، ويرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد، والمعنىٰ أن جميع ما في السماوات والأرض مختص به خلقاً وملكاً وعلماً، فكيف تخفىٰ عليه أحوال المنافقين وإن كانوا يجهدون في سترها).

تم تفسير سورة النور
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه

❑ ❑ ❑

دروس ونتـــائج وأحكـــام

1 ـ الزاني الحر المحصن المكلف حدّه الرجم حتىٰ الموت .

2 ـ الزاني غير الحر ـ العبد أو الأمة ـ لا رجم عليه ، ويجلد خمسين جلدة .

3 ـ حَدٌّ يُعْمَلُ به في الأرض ، خيرٌ لأهل الأرض مِنْ أن يُمْطروا أربعين صباحاً .

4 ـ الزاني لا يطأ إلا زانية مثله أو مشركة ، وحُرِّمَ على المؤمنين نكاح الزانية أو تزويج الزاني ، وإن الزنى من صفات المشركين .

5 ـ ثلاثة لا يدخلون الجنة : الدَّيوثُ ، والرَّجُلةُ من النساء ، ومدمنُ الخمر .

6 ـ قذف المحصنات الغافلات المؤمنات من السبع الموبقات .

7 ـ مضت السنة في المتلاعنين أن يفرق بينهما، ثم لا يجتمعان أبداً، ويلحق الولد بالمرأة .

8 ـ براءة عائشة إلى يوم القيامة ، والأصل في المؤمنين الظن بأنفسهم خيراً .

9 ـ إنما جُعِلَ الاستئذان من أجل البَصَر ، ومن اطّلعَ في بَيْتِ قومٍ بغير إذنهم ، فقد حَلَّ لهم أن يفقؤوا عَيْنَه .

10 ـ حقّ الطريق : غَضُّ البصر، وكفُّ الأذىٰ، وردّ السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر .

11 ـ لا تباشر المرأة المرأةَ لتنعتها لزوجها ، كأنما ينظر إليها .

12 ـ وجوب ليِّ الخمار على العنق والصدر للمرأة ، والوجه ليس بعورة .

13 ـ المرأة عورة ، فإذا خرجت استشرفها الشيطان ، وما عبدت امرأة ربها مثل أن تعبده في بيتها ، ولا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو مَحْرم .

14 ـ كلُ عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرّت بالمجلس فهي زانية .

15 ـ النكاح من سنته ﷺ ، ومن لم يعمل بسنته فليس منه ، ومن كان ذا طَوْلٍ فلينكح ومن لم يجد فعليه بالصيام ، فهو له وجاء .

16 ـ رغبّ الله في التزويج ، وأمر به الأحرار والعبيد ، ووعدهم عليه الغنىٰ.

17 ـ ثلاث حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف.

18 ـ الله نور السماوات والأرض: أي منورهما وهادي أهلهما.

19 ـ من بنىٰ مسجداً لله بنىٰ الله له في الجنة مثله.

20 ـ لا تقوم الساعة حتىٰ يتباهىٰ الناس في المساجد ، وإذا زَخْرَفْتُم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم.

21 ـ إذا رأيتم من يبيع أو يبتاعُ في المسجد فقولوا: لا أربحَ الله تجارتك. وإذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد فقولوا: لا ردّها الله عليك.

22 ـ من جحد ما أنزل الله فقد كفر ، ومن أَقرَّ به ولم يحكم ، فهو ظالم فاسق.

23 ـ إن الله تعالىٰ هو الحَكَمُ ، وإليه الحُكم.

24 ـ ليبلغن هذا الدين ما بلغ الليل والنهار ، وستفتح روما كما فتحت قسطنطينية ، وستكون خلافة على منهاج النبوة.

25 ـ العورات ـ في الآية ـ: الساعات التي تكون فيها العورة ، فلا يدخل الخادم أو الصبي إلا بإذن.

26 ـ القواعد من النساء: هن اللواتي قعدن عن الولد من الكبر ، فلا يحضن ولا يلدن ، والواحدة قاعد. فليس على إحداهن من الحَجْر في التستر كما على غيرها.

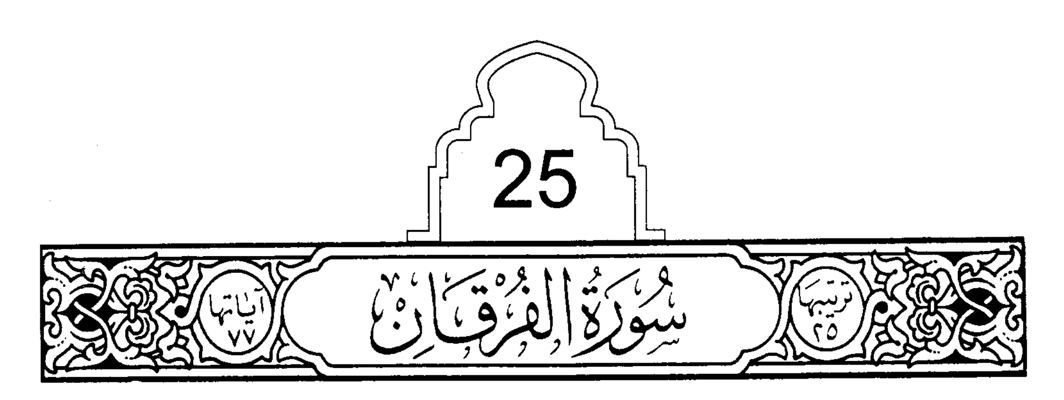
27 ـ رفع الحرج عن الأعمىٰ والأعرج والمريض ، وأطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإنَّ ولده من كَسْبه.

28 ـ كلوا جميعاً ولا تتفرقوا ، فإن طعام الواحد يكفي الاثنين ، وطعام الاثنين يكفي الأربعة ، وإن البركة في الجماعة.

29 ـ اعبدوا الرحمان ، وأطعموا الطعام ، وأفشوا السلام ، تدخلوا الجنة بسلام ، وإذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يُؤذن له فليرجع.

30 ـ مخالفة أمره ﷺ مظنة الوقوع في الفتنة ، أو نزول العذاب الأليم.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (77)

موضوع السورة

الفرقان بين أولياء الرحمان
وأولياء الشيطان

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ ثناء الله تعالى على نفسه منزل الفرقان بين الحق والباطل قد أحسن كل شيء خلقه ، فهو الملك الأحد الصمد والمشركون هم الخاسرون .

2 ـ افتراء الكفار على الوحي والرسول بالاتهام والتكذيب ، وتوعد الله لهم بالنكال والتعذيب .

3 ـ تنطع المشركين في طلب الآيات والمعجزات ، وتكذيبهم بالساعة والبعث بعد الممات .

4 ـ دعوةُ الكافرين لمقارنة منازل النعيم مع مدارك الجحيم ، وتبرؤ عيسى وعزير والملائكة من عبادة الظالمين .

5 ـ إثبات بشرية الرسل ، وإخبار عن شقاء المشركين يوم يرون الملائكة ، والمؤمنون يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً .

6 ـ تَفَطُّر السماء يوم القيامة، ونزول الملائكة لأرض المحشر وندم الظالمين، وانتصار الرسول للقرآن الكريم.

7 ـ تنطّعُ الكافرين واعتراضهم على نزول القرآن مفرقاً لا جملة واحدة ، وحكمة الله في ذلك تخرسهم ، ويوم القيامة يحشرون أذلاء على وجوههم.

8 ـ تسلية الله رسوله عما يلقاه من أذى المشركين ، بذكر أحوال الرسل قبله وإهلاك الظالمين.

9 ـ تَمَسُّكُ المشركين بدين الآباء الفاسد ، وتشبيههم بالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

10 ـ امتنان الله على عباده بنعمة الظل والليل والنهار والرياح والمطر.

11 ـ تحميلُ الله نبيّه كامل مهمة الإنذار للثقلين ، والأمر بمجاهدة المشركين بالقرآن الكريم ، وتذكيره تعالى عباده بنعمة الماء العذب والماء المالح والتزاوج والنسب والصهر والمودة والرحمة.

12 ـ توبيخُ الكفار في عبادتهم ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، وأمره تعالى نبيّه بالتوكل عليه وتنزيهه ، وهم يكفرون بالرحمان ، ولا يسجدون له بل يزدادون من المكر والطغيان.

13 ـ تنزيه الله تعالى الذي خلق البروج في السماء والشمس والقمر ، وجعل الليل والنهار متعاقبين لمن أراد أن يشكر أو يذكر.

14 ـ ثناء الله على عباده المؤمنين ، فهم يمشون على الأرض هوناً ، ويبيتون لربهم سجداً وقياماً ، ولا يسرفون ولا يزنون ولا يقتلون النفس التي حرّم الله ، والله تعالى يعفو عن التائبين. ولا يشهدون الزور ويبتعدون عن اللغو ويثابرون في الدعاء سائلين الله أن يقر أعينهم في أزواجهم وذرياتهم ويجعلهم قدوة للمتقين.

15 ـ جزاء التقوى جنات النعيم ، وجزاء التكذيب بالحق الخزي في الدارين.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 3. قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝٢ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾.

في هذه الآيات: تقديسُ الله منزل الفرقان بين الحق والباطل، المَلِك الأحد الصمد لم يتخذ ولداً ولا شريك له في الملك وقد أحسن كل شيء خَلَقَه، والمشركون خائبون في اتخاذهم آلهة من دونه لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ولا تستطيع إماتة ولا إحياء ولا نشوراً.

فقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

قال الضحاك عن عبد الله بن عباس: (تبارك: تَفاعَلَ من البركة). فالمعنى كما قال ابن جرير: (يقول: تبارك الذي نَزَّلَ الفصل بين الحق والباطل، فصلاً بعد فصل، وسورة بعد سُورة، على عبده محمد ﷺ، ليكون محمد لجميع الجنّ والإنس، الذي بعثه الله إليهم داعياً إليه، نذيراً: يعني منذِراً يُنذرهم عِقابه، ويخوّفهم عذابه، إن لم يوحدوه، ولم يخلصوا له العبادة، ويخلَعوا كل ما دونه من الآلهة والأوثان).

وقد وصف الله تعالى نبيّه في هذه الآية بأجمل صفة له، وهي صفة العبودية، فقوله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ نعت مدح وثناء، لأنه أضافه إلى عبوديته جل ثناؤه. وقد تكررت هذه الصفة العطرة في القرآن، في مدح نبينا عليه الصلاة والسلام.

1 ـ ففي مقام الإسراء، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ

ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1].

2 ـ وفي مقام إثبات التنزيل، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: 23].

3 ـ وفي مقام الدعوة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: 19].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: سمع عمرَ رضي الله عنه يقولُ على المِنْبَرِ، سمعت النبي ﷺ يقول: [لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عَبْدُهُ، فقولوا: عَبْدُ الله ورسولُهُ][(1)].

كما وصفه بأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مبعوث إلى الثقلين: الجن والإنس. فقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ إثبات رسالته إلى جميع الخلق.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [فُضِّلْتُ على الأنبياء بستٍّ: أُعطيتُ جوامعَ الكلِم، ونُصِرْتُ بالرُّعْب، وأُحِلَّتْ لي المَغَانِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأرض طهوراً ومَسْجِداً، وأُرْسِلْتُ إلى الخَلْقِ كافَّةً، وَخُتِمَ بيَ النبيُّون][(2)].

وقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾. إثباتُ الملك الكامل لله تعالى، وتنزيهٌ له سبحانه عن الشريك والولد.

وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾. أي: أحدث كل شيء وحده فأحسن خلقه، وهيأه لما يصلح له بلا خلل، فالإنسان في أحسن تقويم، وجميع الخلق كذلك في أحسن تقدير، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقوله: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾. تَعَجُّبٌ من اتخاذ المشركين آلهة عاجزة عن الخلق، مع أن الخلق أهم صفات الإله. قال القرطبي: (﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ يعني الآلهة. ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لمَّا اعتقد المشركون فيها أنها تضرّ وتنفع، عبرَّ عنها كما يُعَبِّرُ عما يعقل).

وقوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾. أي: لا دفع ضرّ وجلب نفع، فحذف

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3445) ـ كتاب أحاديث الأنبياء، وانظر (6830).
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (523) ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ورواه أحمد والبخاري.

المضاف. قال النسفي: (ولا يستطيعون لأنفسهم دفع ضرر عنها ولا جلب نفع إليها).

وقوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾. النشور: الإحياء بعد الموت، وهذه صفة يتحدى الله تعالى بها الخلق جميعاً. كما قال جل ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: 27].

وقال جل ثناؤه: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: 64].

قال القاسمي: (﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي: لا يملكون دفع ضر ولا جلب نفع ولا إماتة أحد وإحياءه أوّلاً وبعثه ثانياً. ومن كان كذلك فبمعزل عن الألوهية، لعرائه عن لوازمها واتصافه بما ينافيها. وفيه تنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء. أفاده القاضي).

4 ـ 6. **قوله تعالى**: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

في هذه الآيات: افتراء الكفار على الوحي والرسول بالاتهام والتكذيب، وَتَوعُّدُ الله ـ الذي أنزل هذا القرآن ـ المعاندين بالنكال والتعذيب.

فقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ ـ هو قول الكفار في القرآن يزعمون أن محمداً ـ ﷺ ـ اختلقه وتخرّصه. والإفك: الكذب. وقوله: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾. قال مجاهد: (يهود). قال ابن كثير: (أي: واستعان على جَمْعه بقوم آخرين).

وقوله: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾. قال ابن جريج، عن مجاهد: (قال: كذباً). قال القاسمي: (﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا﴾ أي بجعل الصدق إفكاً، والبريء عن الإعانة معيناً. ﴿وَزُورًا﴾ أي باطلاً لا مصداق له، يعلمون من أنفسهم أنه باطل وبهتان).

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾. أي: وزعموا أن ما جاء به من هذا الوحي العظيم إنما هو من كتب الأوائل استنسخها فهي تقرأ عليه أول النهار وآخره. قال ابن جريج: (﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أشعارهم وكهانتهم). قال ابن كثير: (وهذا الكلامُ ـ لسَخافتِه وكذِبِه وبَهْتِه منهم ـ كُلُّ أحد يعلم بطلانه، فإنه قد عُلِمَ بالتواتر وبالضرورة: أن محمداً رسول الله لم يكُنْ يُعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عُمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أوّلِ مَوْلِدِهِ إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخَله ومخرجه، وصِدْقه وبرَّه وأمانتَه ونزاهَتَه من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم لم يكونوا يُسَمُّونه في صِغَره وإلى أن بُعثَ إلا الأمينَ، لما يَعْلَمون من صِدْقِهِ وبرِّه. فلما أكرَمَهُ الله بما أكرَمَهُ به، نصبوا له العداوةَ، ورمَوْه بهذه الأقوال التي يعلم كلّ عاقل براءَته منها، وحاروا ماذا يقذفونه به، فتارةً من إفكهم يقولون: ساحرٌ، وتارةً يقولون: شاعرٌ، وتارةً يقولون: مجنونٌ، وتارةً يقولون: كذابٌ، قال الله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 48]).

وقوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. تسكيت لهم وزجْرٌ لافترائهم وقرْعٌ لكذبهم. فهذا الوحي العظيم، هو كلام رب العالمين، أنزله بعلمه، فهو الله الذي يعلم غيب السماوات والأرض وأسرارهما.

فَعن ابن جريج: (﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال: ما يسرّ أهل الأرض وأهل السماء). قال النسفي: (﴿ قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَنزَلَهُ﴾ أي القرآن ﴿ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي يعلم كل سرّ خفي في السماوات والأرض، يعني أن القرآن لما اشتمل على علم الغيوب التي يستحيل عادة أن يعلمها محمد عليه الصلاة والسلام من غير تعليم دل ذلك على أنه من عند علام الغيوب).

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. قال القرطبي: (يريد غفوراً لأوليائه رحيماً بهم).

7 ـ 14. قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ

جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: التفاتُ المشركين إلى النقد البارد لطبيعة شخص من أرسل إليهم ، وانصرافهم عن الوحي العظيم المنزل بشأنهم لنجاتهم وسعادتهم ، فهم كالأقوام من أمم الرسل قبلهم يحتجون على الرسول بأنه يأكل مثلهم ويدخل الأسواق للتكسب والتجارة ، ويتنطعون في طلب الآيات والمعجزات والخيالات ، وقد كذبوا بالساعة وقد توعدهم الله بسوء العذاب ونوال النكال .

فقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ ﴾ .

قال ابن جرير : (وقال المشركون ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ ﴾ : يعنون محمداً ﷺ ، الذي يزعم أن الله بعثه إلينا ﴿ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ﴾ كما نأكل ، ﴿ وَيَمْشِي ﴾ في أسواقنا كما نمشي . ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ ﴾ : يقول : هلا أنزل إليه ﴿ مَلَكٌ ﴾ إن كان صادقاً من السماء ﴿ فَيَكُونَ مَعَهُۥ ﴾ منذراً للناس ، مصدّقاً له على ما يقول ، أو يلقى إليه كنز من فضة أو ذهب ، فلا يحتاج معه إلىٰ التصرف في طلب المعاش ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾ يقول : أو يكون له بستان ﴿ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ ﴾) .

وقوله : ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ . قال القاسمي : (أي مغلوباً على عقله) .

وقوله تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ . توبيخ للمشركين وتسخيف لحججهم الدالة على تفاهة عقولهم ، إذ تجرؤوا على القدح بنبوّتك يا محمد بأساليب سخيفة فخسروا طريق الهداية وحُوصروا في باطلهم . قال ابن عباس : (﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ أي التمسوا الهدى في غير ما بعثتك به إليهم فضلوا ، فلن يستطيعوا أن يصيبوا الهُدى في غيره) .

وقال مجاهد : (﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ قال : مَخْرجاً يخرجهم من الأمثال التي ضربوا لك) .

وقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ . قال ابن عباس: (من أن تمشي في الأسواق ، وتلتمس المعاش كما يلتمسه الناس).

وقال مجاهد: (مما قالوا وتمنّوا لك ، فيجعل لك مكان ذلك ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ، ﴿ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾ قال: بيوتاً مبنية مشيدة ، كان ذلك في الدنيا ، قال: كانت قريش ترى البيت من الحجارة قصراً كائناً ما كان). فالمعنى: تقدّس الذي إن شاء جعل لك يا محمد خيراً مما قالوا وتخيّلوا ، بساتين ثمار وجمال ، تجري من تحتها الأنهار ، وبيوتاً مبنية مشيدة من حجارة وزخارف وعمران ، ولكن اقتضت حكمته أن يكون الجهاد في الدنيا لإعلاء كلمة الحق لا لسكن القصور والنظر في الأموال ، وأن يكون هذا القرآن بما بسط الله فيه من الآيات البديعة مصدر الإيمان والاستدلال ، وقد هيأ الله في الدار الآخرة من النعيم لرسله وأوليائه ما يعجز عنه الوصف والخيال ، فسبحان الله الكريم الحكيم المتعال.

وقوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ .

أي: بل أتوا بأعجب من ذلك الذي تنطّعوا به ، وهو تكذيبهم بالساعة ، وقد قضى الله تعالى لمن كذب بالساعة ناراً يصلاها ويذوق سعيرها ولهبها.

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ .

قال النسفي: (أي إذا كانت منهم بمرأى الناظرين في البعد سمعوا صوت غليانها، وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر، أو إذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضباً على الكفار).

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [يخرجُ عُنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق ، يقول: إني وُكِّلت بثلاث: بكل جبَّار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر ، وبالمصوِّرين][1].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ . معنى مقرَّنين: مُكتَّفين مقيدين مسلسلين بالأغلال. وعن الضحاك: (﴿ ثُبُورًا﴾ أي هلاكاً). وقال ابن عباس: (ويلاً).

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (2574) ، وقال: حسن غريب صحيح. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (512).

قال القاسمي: (﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ ﴾ أي قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ أي هلاكاً. أي نادوه نداء المتمني الهلاك، ليسلموا مما هو أشد منه. كما قيل: أشد من الموت ما يُتمنى معه الموت).

وقوله تعالى: ﴿ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾. قال ابن عباس: (أي: لا تدعوا اليوم ويلاً واحداً، وادعوا ويلاً كثيراً).

وعن الضحاك: (الثبور: الهلاك). قال ابن كثير: (والأظهر أن الثُّبور يجمع الهلاك والويل والخسارَ والدَّمار، كما قال موسى لفرعون: ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ أي: هالكاً).

وفي مستدرك الحاكم بسند حسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: [إنَّ أهل النار ليَبْكونَ حتى لو أُجْرِيت السفن في دموعهم جَرَتْ، وإنهم ليبكون الدم](1).

15 ـ 16. قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾.

في هذه الآيات: دعوةُ الكافرين لمقارنة منازل النعيم مع مدارك الجحيم، فالمتقون في جنات ونعيم، ومقام كريم، خالدين في الملذات وفي رضوان رب العالمين.

فقوله: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ ﴾.

قال القرطبي: (قيل: إنما قال ذلك لأن الجنة والنار قد دخلتا في باب المنازل، فقال ذلك لتفاوت ما بين المنزلتين).

فالمعنى: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء الأشقياء الذين سلكوا سبيل الجحيم، والجلوس في السعير مُقَرَّنِينَ، والخلود في مضايق جهنم بأنهم كانوا مجرمين، أذلك خير لكم أم طاعة الله التي كانت توردكم حياض النعيم، والتلذذ بألوان الطعام والشراب والملذات مع المتقين!؟

---

(1) حديث حسن. أخرجه الحاكم (4/ 605)، وابن ماجة (4324) من حديث أبي موسىٰ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1679).

وقوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾. أي ثواباً ومستقراً ومرجعاً.

قال النسفي: (وإنما قيل كانت لأن ما وعد الله كأنه كان لتحققه، أو كان ذلك مكتوباً في اللوح قبل أن خلقهم).

وقوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾. أي من ألوان الملذات وأشكال النعيم.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: 55 ـ 58].

2 ـ وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: 54 ـ 55].

3 ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: 31 ـ 36].

ومن روائع السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [غدوةٌ في سبيل الله أو رَوْحَةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحاً، ولنصيفُها على رأسها خير من الدنيا وما فيها][1]. والنصيف: الخمار.

الحديث الثاني: أخرج مسلم وابن ماجة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [يقول الله عز وجل: أعْدَدْتُ لعبادي الصالحين ما لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر، ذُخْراً، بَلْهَ ما أطلعكم الله عليه][2]. ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

الحديث الثالث: أخرج الترمذي والدارمي بسند حسن عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [مَوْضِعُ سَوْطٍ أحدكم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها، وقرأ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ

---

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح البخاري (1150) و(1152)، وصحيح الجامع (4027).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2824) ح (4). وأخرجه ابن ماجة (4328) ـ في صفة الجنة.

عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾][1] .

وقوله : ﴿خَٰلِدِينَ﴾ . أي : هم في هذا النعيم في خلود لا انقطاع له .

وقوله : ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ .

قال ابن عباس : (فسألوا الذي وعدهم وتنجزوه) .

وقال ابن زيد : (سألوه إياها في الدنيا ، طلبوا ذلك فأعطاهم وعدهم ، إذ سألوه أن يعطيهم ، فأعطاهم ، فكان ذلك وعداً مسؤولاً ، كما وقَّت أرزاق العباد في الأرض قبل أن يخلقهم ، فجعلها أقواتاً للسائلين ، وقَّتَ ذلك على مسألتهم ، وقرأ : ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت : 10]) .

وكان بعض أهل العربية يرى أن معنى قوله : ﴿وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ أي : وعداً واجباً. لابد أن يقع وأن يكون ، حكاه ابن جرير في التفسير .

17 ـ 19 . **قوله تعالى :** ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ .

في هذه الآيات : ذِكْرُ الخزي الذي ينتظر المشركين يوم الحشر في عبادتهم آلهة من دون الله ، وتبرؤ عيسى وعزير والملائكة ممن عبدوهم ، والظالمون في عذاب كبير .

فقوله : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ـ تقريع وتوبيخ للكفار يوم القيامة في عبادتهم آلهة من دون الله . قال مجاهد : (عيسى ، وعُزير ، والملائكة) .

وقوله : ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ .

خطاب من الله تعالى للذين كان هؤلاء المشركون قائمين على عبادتهم .

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3017) و(3288) ، والدارمي (2/ 332 ـ 333) ، والحاكم (2/ 299) ، وأحمد (2/ 438) ، وانظر صحيح ابن ماجة (3495) .

قال ابن جرير: (يقول: أأنتم أزلتموهم عن طريق الهدى، ودعوتموهم إلى الغيّ والضلالة، حتى تاهوا وهلكوا، أم هم ضلوا السبيل، يقول: أم عبادي هم الذين ضلوا سبيل الرشد والحق، وسلكوا العطب).

وقوله: ﴿ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾. يجيب به المعبودون يوم القيامة. وهو كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [المائدة: 116 ـ 117].

وكقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: 40 ـ 41].

وكذلك في هذه الآية: ﴿ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾. قال ابن كثير: (أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك، لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك. بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أَمْرِنا ولا رِضانا ونحن بُرآءُ منهم ومن عبادتهم).

وقوله: ﴿ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ ﴾. أي طال عليهم العمر وهم منغمسون في شهواتهم حتى نسوا الذكر وقست قلوبهم.

قال القاسمي: (ولكن متعتهم وآباءهم بأنواع النعم، ليعرفوا حقها ويشكروها، فانهمكوا في الشهوات حتى نسوا الذكر، أي ذكرك. أو التذكر في آلائك، والتدبر في آياتك، فجعلوا أسباب الهداية، بسوء اختيارهم، ذريعة إلى الغواية ـ أفاده أبو السعود).

وقوله: ﴿ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾. قال ابن عباس: (هلكى). وقال الحسن: (هم الذين لا خير فيهم). وقال ابن زيد: (يقول: ليس من الخير في شيء. البور: الذي ليس فيه من الخير شيء). والمقصود: فكانوا بكفرهم وانغماسهم في غيهم وشهواتهم هالكين.

وقوله: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾. قال مجاهد: (عيسى وعزير والملائكة، يكذِّبون المشركين بقولهم). والمقصود: تبرؤ الذين عُبِدوا من دون الله مِمَّن عَبدوهم.

قال النسفي: (ومعناه: فقد كذبوكم بقولهم: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من

دونك من أولياء. قال: وهذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة، وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول).

وفي التنزيل نحو ذلك. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: 5 ـ 6].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركتُه وشركَه][1].

وقوله: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾. قال ابن جريج: (لا يستطيعون صرف العذاب عنهم، ولا نصر أنفسهم). وقال مجاهد: (المشركون لا يستطيعونه).

وقوله: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾. قال ابن جريج: (﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾: بشرك). وقال الحسن: (هو الشرك). قال ابن جرير: (ومن يشرك بالله فيظلم نفسه، فذلك نذقه عذاباً كبيراً).

20 ـ 24. **قوله تعالى**: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝٢٠ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ۝٢١ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٢٢ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝٢٤﴾.

في هذه الآيات: إثبات بشرية الرسل، وطلب المشركين تنزل الملائكة عليهم استكباراً وغروراً، وإخبار الله تعالى عن شقائهم يوم يرون الملائكة ويقولون حجراً محجوراً. وأما المؤمنون فهم يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً.

فقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2985) ـ كتاب الزهد. باب تحريم الرياء.

﴿ٱلْأَسْوَاقِ﴾. تأييد للنبي ﷺ واحتجاج من الله تعالى على مشركي قومه الذين استنكروا بشرية الرسول وأكله الطعام ودخوله الأسواق للتكسب والتجارة.

قال ابن جرير: (فقد علموا أنا ما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا مَنْ إنهم ليأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، كالذي تأكل أنت وتمشي، فليس لهم عليك بما قالوا من ذلك حجة).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾. يشمل التفاوت بين الناس واصطفاء الرسل والأنبياء. قال الحسن: (يقول هذا الأعمى: لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان، ويقول هذا الفقير: لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان، ويقول هذا السقيم: لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان).

وقال ابن جريج: (يُمْسِك عن هذا، ويوسِّع على هذا، فيقول: لم يعطني مثل ما أعطى فلاناً، ويبتلي بالوجع كذلك، فيقول: لم يجعلني ربي صحيحاً مثل فلان، في أشباه ذلك من البلاء، ليعلم من يصبر ممن يجزع).

وقال محمد بن إسحاق: (﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ قال: يقول الله: لو شئت أن أجعلَ الدنيا مع رسلي فلا يخالَفون، لَفَعلتُ، ولكنّي قد أردت أن أبتليَ العِبادَ بهم، وأبتليهم بهم).

وفي صحيح مسلم من حديث عِياضِ بن حِمارٍ المُجَاشِعيِّ مرفوعاً: [وإن الله نَظَرَ إلى أهل الأرض فَمَقَتَهم، عربَهُم وعَجَمَهُم، إلا بقايا من أهلِ الكتاب، وقال: إنما بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وأَبْتَلِيَ بك، وأنزلت عليك كتاباً لايَغْسِلُهُ الماءُ، تَقْرَؤُهُ نائماً ويقظان][1].

ويوم خُيِّرَ النبي ﷺ بين مقام الملك ومقام العبودية اختار المقام الثاني لشرفه وعلوه.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن أبي زُرعة عن أبي هريرة قال: [جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال له جبريل: هذا الملك ما نزلَ منذ خُلِقَ قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد، أرسلني إليك ربك:

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2865) ـ كتاب الجنة ونعيمها، في أثناء حديث طويل.

أملكاً أجعلك أم عبداً رسولاً؟ قال له جبريل: تواضع لربك يا محمد! فقال رسول الله ﷺ: لا ، بل عبداً رسولاً](1).

وقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾. قال ابن جريج: (إن ربك لبصير بمن يجزع ، ومن يصبر).

وقوله: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ﴾ الآية. فيه تأويلان متكاملان:

التأويل الأول: قال ابن جريج: (قال كفار قريش: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فيخبرونا أن محمداً رسول الله ـ ﷺ ـ أو نرى ربنا فيخبرنا بذلك ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾).

وهذا الذي طلبوه يشبه ما حكى الله عنهم في سورة الإسراء حيث قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: 90 ـ 93].

التأويل الثاني: ذكره الحافظ ابن كثير حيث قال: (لولا أنزل علينا الملائكة: أي بالرسالة كما تنزل على الأنبياء).

وهو كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ [124].

فأجابهم الجبار سبحانه بأنهم لن يروا الملائكة في يوم خير لهم ، بل في يوم شؤم عليهم ، وشر يحيط بهم ، وهوساعة الاحتضار ، حين تبشرهم الملائكة بالنار ، والغضب من الجبار ، كما قال جل وعزّ في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [93].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 231) بسند صحيح على شرط مسلم ، وأخرجه ابن حبان (6365) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1002).

فبشرهم بقدوم الملائكة في أحرج ساعات حياتهم ، وهم يبسطون أيديهم إليهم بالضرب والإزعاج وتقطيع العصب ، أحوج ما يحتاجون إلى من يخفف عنهم سكرات الموت وآلام النزع والفراق ، ليرون خلاصة تكذيب المرسلين في هذه الدقائق الحُالكة ، والملائكة ينهالون عليهم بالضرب والنَّهْر والإيلام ، كما قال جل ذكره في سورة الأنفال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [50]. وكما قال في سورة محمد: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [27].

وقد أخرج الإمام أحمد في المسند وأبو داود في السنن عن البراء مرفوعاً: [. . ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبلول فتقطع معها العروق والعصب . .]الحديث(1).

فتأبى الأرواح الخروج من أجسادهم فتفرق في البدن ، فيضربونه لينتزعونها وقد تقطع مع خروجها العروق والعصب.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾. قال مجاهد: (يعني يوم القيامة). وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾. قال الضحاك: (تقول الملائكة: حراماً محرماً أن تكون لكم البشرى). وقال قتادة: (هي كلمة كانت العرب تقولها ، كان الرجل إذا نزل به شدة قال: حجراً، يقول: حراماً محرّماً). فأصل الحِجْر في كلام العرب: الحرام.

ومن ثمَّ فللآية تأويلان ممكنان:

التأويل الأول: قول مجاهد: (﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ قال: يوم القيامة ، ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ قال: عوذاً معاذاً ، الملائكة تقوله).

التأويل الثاني: أنه خبرٌ من الله عن قيل المشركين إذا عاينوا الملائكة. قال ابن جُريج: (حِجْراً: عوذاً يستعيذون من الملائكة).

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾.

قال مجاهد: (﴿وَقَدِمْنَآ﴾: عَمَدنا ، ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ يقول: فجعلناه

(1) حديث صحيح. وهو جزء من حديث طويل أخرجه أحمد (4/ 287 ـ 288) ، وأخرجه أبو داود (2/ 281) ، وصححه الألباني في أحكام الجنائز فقرة (108).

باطلاً ، لأنهم لم يعملوه لله وإنما عملوه للشيطان).

قال القرطبي: (فأما الهباء المنبث فهو ما تثيره الخيل بسنابكها من الغبار. والمنبث: المتفرق).

أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي عامر الألهاني ، عن النبي ﷺ أنه قال: [لأعْلَمَنَّ أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاً ، فيجعلها الله هباءً منثوراً. قال ثوبان: يا رسول الله صفهم لنا ، جَلِّهِمْ لنا ، أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم ، قال: أما إنهم إخوانكم ، ومِنْ جِلْدَتِكُم ، ويأخذون من الليل كما تأخذون ، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها][1].

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله لا يَظْلِمُ مُؤْمِناً حَسَنَةً ، يُعطي بها في الدنيا ويَجْزِي بها في الآخرة ، وأما الكافر فَيُطْعَمُ بحسناتِ ما عَمِلَ بها لله في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة ، لم تكُنْ له حَسَنَةٌ يُجْزَى بها][2].

وقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

قال ابن عباس: (إنما هي ضَحْوَةٌ ، فيقيلُ أولياء الله على الأسرَّةِ مع الحور العين ، ويقيلُ أعداءُ الله مع الشياطين مُقَرَّنين).

وقال سعيد بن جبير: (يفرغ الله من الحساب نصفَ النهار ، فيقيلُ أهل الجنة في الجنة ، وأهلُ النار في النار ، قال الله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾).

وعن قتادة: (﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: مأوى ومنزلاً).

قال النسفي: (والمستقر: المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم يتجالسون ويتحادثون. ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾: مكاناً يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم ، ولا نوم في الجنة ، ولكنه سمى مكان استراحتهم إلى الحور مقيلاً على طريق التشبيه).

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: [إن في الجنة

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4245) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (505) ، وأبو عامر الألهاني اسمه عبد الله بن غابر.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2808) ـ كتاب صفات المنافقين ، ح(56) ، (57).

خيمةً مِنْ لُؤلؤة مُجَوَّفة ، عَرْضُها سِتُّونَ مِيلاً في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمنون](1) . وفي رواية :

[إن للمؤمنينَ في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة ، طولها ستون ميلاً فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن ، فلا يرى بعضهم بعضاً] .

وفي لفظ آخر : [الخيمة درّة طولها في السماء ستون ميلاً ، في كل زاوية أهل للمؤمن لا يراهم الآخرون] .

قال ابن القيم : (وهذه الخيم غير الغرف والقصور ، بل هي خيام في البساتين وعلى شواطئ الأنهار) .

25 ـ 31 . **قوله تعالى** : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ .

في هذه الآيات : تَفَطُّرُ السماء يوم القيامة وانفراجها بالغمام ونزول الملائكة لأرض المحشر وكان يوماً على الكافرين عسيراً . ونَدَمُ الظالم وعضّه على يديه متمنياً أن لو كان قد اتخذ مع الرسول سبيلاً ، ولم يتخذ فلاناً من أصحاب السوء خليلاً . وقولُ الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً . وعداوة المجرمين للأنبياء والمرسلين والصالحين وكفى بالله هادياً ونصيراً .

فقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ .

إخبار من الله عز وجل عن أهوال القيامة من انشقاق السماء وتفطّرها وانفراجها

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4879) ـ كتاب التفسير. وأخرجه مسلم (2838) ح(24) ، وأخرجه الترمذي (2528) ، وأحمد (4/ 411) ، وابن حبان (7395) .

بالغمام ونزول الملائكة من السماء للإحاطة بالخلائق في أرض المحشر ثم مجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء.

قال مجاهد: (وهذا كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: 210]).

قال القاسمي: (﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي ينصدع نظامها فلا يبقى أمر ما فيها من الكواكب على ما يرى اليوم. فيخرب العالم بأسره. و«الباء» بمعنى «مع» أي مع السحب الجوية. أو بمعنى «عن» أي تنفطر عن الغمام الذي يسوِّد الجو ويظلمه، ويغم القلوبَ مرآه ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ فيحيطون بالخلائق في المحشر).

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾.

المُلْكُ الثابت يومئذ لله تعالى، وكل ملك دونه يزول، فلا يبقى يومئذ إلا ملكه. وكان ذلك اليوم شديد العسرة والضيق على الكافرين، لأنه يوم الفصل وكشف السرائر وإقامة العدل والحق المبين.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: 8 ـ 10].

2 ـ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: 9 ـ 10].

3 ـ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [يقبض الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض](1). وفي لفظ مسلم: [ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله قال: [جاء رجلٌ من أهل الكتاب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم! إنَّ الله يُمْسِكُ السماوات على إصْبَعٍ، والأرضين على إصْبَعٍ، والشَّجَرَ والثَّرَى على إصْبَعٍ، والخلائق على إصْبَعٍ، ثم يقول: أنا الملك، أنا الملكُ.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4812) ـ كتاب التفسير، وانظر صحيح مسلم (2788)، وسنن أبي داود (4732)، ومسند أبي يعلى (5558) من حديث ابن عمر.

قال: فرأيت النبي ﷺ ضَحِكَ حتى بَدَتْ نواجِذُهُ ، ثم قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: 67]][1].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾.

بيان لندم الظالم يوم القيامة غاية الندم ، حتى يعض على يديه من شدة ما اجترح من الآثام ، ورفقة سيِّئ الخِلّان ، حتى أسرف على نفسه بالكبر والكفر وطاعة الشيطان ، وهنالك يتبرأ اللعين منه ويخذله كما خذله في الدنيا عن طاعة ربه ، وزين له المعصية ليركبها ، ومازال يمنيه الطاعة ليسوِّفها.

أخرج أبو نعيم في (الدلائل) ، وابن مردويه بسند يرقى للحسن ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما: [أنّ أبا معيط كان يجلس مع النبي ﷺ بمكة لا يؤذيه ، وكان رجلاً حليماً ، وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آذوه ، وكان لأبي معيط خليل غائب عنه بالشام ، فقالت قريش: صبأ أبو معيط ، وقدم خليله من الشام ليلاً فقال لامرأته: ما فعل محمد مما كان عليه؟ فقالت: أشدّ مما كان أمر! فقال: ما فعل خليلي أبو معيط؟ فقالت: صَبأَ ، فبات بليلة سوء! فلما أصبح أتاه أبو معيط فَحَيَّاه فلم يردّ عليه التحية فقال: ما لك لا تردّ عليَّ تحيتي؟ فقال: كيف أرد عليك تحيتك وقد صبوت؟ فقال: أو قد فعلتها قريش؟ قال: فما يبرئ صدورهم إنْ أنا فعلت؟ قال: تأتيه في مجلسه وتبزق في وجهه وتشتمه بأخبث ما تعلمه من الشتم ففعل ، فلم يزد النبي ﷺ أن مسح وجهه من البزاق ثم التفت إليه فقال: إن وجدتك خارجاً من جبال مكة أضرب عنقك صبراً ، فلما كان يوم بدر وخرج أصحابه أبى أن يخرج ، فقال له أصحابه: اخرج معنا ، قال: قد وعدني هذا الرجل إنْ وجدني خارجاً من جبال مكة أن يضرب عنقي صبراً ، فقالوا: لك جمل أحمر لا يدرك ، فلو كانت الهزيمة طرت عليه ، فخرج معهم فلما هزم الله المشركين وَحَلَ[2] به جمله في جدد من الأرض ، فأخذه رسول الله ﷺ أسيراً في سبعين من قريش ، وقدم إليه أبو معيط ، فقال: تقتلني من بين هؤلاء؟ قال: نعم ، بما بزقت في وجهي ، فأنزل الله في أبي معيط: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ إلى

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2786) ح(21) ـ كتاب صفات المنافقين ، باب صفة القيامة والجنة والنار. وفي رواية أنه قرأ الآية كلها [الزمر: 67].

(2) أي وقع في الوحل.

قوله ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾][1] .

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ .

إخبارٌ من الله عن شكوى رسوله إليه في استهزاء قومه الذين بعث إليهم بهذا القرآن ، فلا يصغون إليه ولا يسمعونه ، بل يكثرون اللغط والفوضى عند سماعه يُتلى لئلا يؤثر في قلوب الناس.

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: 26].

قال ابن زيد: (لا يريدون أن يسمعوه ، وإن دعوا إلى الله قالوا لا ، وقرأ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 26] قال: ينهون عنه ، ويبعدون عنه).

وعن مجاهد: (قوله: ﴿ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ قال: يهجُرون فيه بالقول ، يقولون: هو سحر). وقال: (﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: 67] قال: مستكبرين بالبلد سامراً مجالس تهجرون ، قال: بالقول السَّيِّئ في القرآن غير الحق).

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ .

قال ابن عباس: (يوطن محمداً ﷺ أنه جاعل له عدواً من المجرمين كما جعل لمن قبله).

كما في التنزيل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١١٢ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: 112 ـ 113].

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لنبيه: وكفاك يا محمد بربك هادياً يهديك إلى الحق ، ويبصرك الرشد ، ونصيراً: يقول: ناصراً لك على أعدائك ، يقول: فلا يهولنك أعداؤك من المشركين ، فإني ناصرك عليهم ، فاصبر لأمري ، وامض لتبليغ رسالتي إليهم).

قلت: والخطاب يعمّ ببشائره كل من سار على منهاج النبوة في العلم والإيمان

---

(1) أخرجه ابن مردويه ، وأبو نعيم في «الدلائل». انظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ، الوادعي ـ سورة الفرقان ، الآيات (27 ـ 29).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومقارعة أهل الباطل ومجاهدتهم لإعلاء دين الله في الأرض.

أخرج الخطيب في «التاريخ» بسند صحيح عن أنس مرفوعاً:

[النَّصْرُ مع الصَّبْر، والفَرَجُ مع الكَرْب، وإنَّ مع العُسْرِ يُسْراً، وإنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً](1).

32 ـ 34. **قوله تعالى**: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

في هذه الآيات: تَنَطُّعٌ من الكفار واعتراض سفيه أن نَزَّلَ الله القرآن مُفَرَّقاً لا جملة واحدة، فكان الجواب من الله تعالى أنه إنما يثبت بذلك قلب نبيه على الحق، وكذلك قلوب المؤمنين الذين تنزل الآيات إجابة لتساؤلاتهم، وحلاً للمشكلات المستجدة في حياتهم، وهذا القرآن يحمل القوارع على الطغاة وأحسن الأمثال التي فيها إسكاتهم، ويوم القيامة يحشرون أذلاء على وجوههم.

فقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾.

قال ابن عباس: (كان الله ينزل عليه الآية، فإذا علمها نبي الله نزلت آية أخرى، ليعلمه الكتاب عن ظهر قلب، ويثبت به فؤاده).

وعن ابن جُرَيج: (قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ كما أنزلت التوراة على موسى، قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ قال: كان القرآن ينزّل عليه جواباً لقولهم، ليعلم محمد أنَّ الله يجيب القوم بما يقولون بالحق. ويعني بقوله: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ لنصحح به عزيمة قلبك ويقين نفسك، ونشجعك به).

---

(1) أخرجه الخطيب في «التاريخ» (10/ 287)، والديلمي (4/ 111 ـ 112)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2382)، وقال: الحديث صحيح.

وفي قوله: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ تأويلان متكاملان:

التأويل الأول: عن إبراهيم: (﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ قال: نزل متفرّقاً). قال الحسن: (كان ينزّل آية وآيتين وآيات جواباً لهم إذا سألوا عن شيء أنزله الله جواباً لهم، ورداً عن النبيّ فيما يتكلمون به، وكان بين أوله وآخره نحو من عشرين سنة). قال ابن جرير: (قوله: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ يقول: وشيئاً بعد شيء علمناكه حتى تحفظه، والترتيل في القراءة: الترسل والتثبت).

التأويل الثاني: قال قتادة: (﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾: وبيّناه تبييناً). وقال ابن زيد: (وفسّرناه تفسيراً).

وقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

قال ابن جريج: (الكتاب بما تردّ به ما جاؤوا به من الأمثال التي جاؤوا بها وأحسن تفسيراً).

وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: (﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ ـ أي: بما يلتمسون به عيبَ القرآن والرسول، ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، أي: إلا نزَلَ جبريلُ مِنَ الله بجوابهم).

وقوله: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾. أي: وأحسن مما جاؤوا به من المثل بياناً وتفصيلاً. قال ابن عباس: يقول: (أحسن تفصيلاً). وقال مجاهد: (بياناً). وقال الضحاك: (يقول: تفصيلاً).

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾.

إخبار من الله سبحانه عن سوء صفة المشركين في مظهر حشرهم يوم القيامة، فهم يحشرون بين الناس في صورة هي غاية من الذل والخزي والقبح إهانة لهم. قال مجاهد: (الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم).

وقال النسفي: (﴿أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي مكانة ومنزلة أو مسكناً ومنزلاً).

والمقصود: أن المؤمنين في نعيم وسرور، والكافرين في ذل وصغار وأسوأ منزلة.

وفي الصحيحين عن أنس: [أن رجلاً قال: يا نبي الله! كيف يحشر الكافر على وجهه

يوم القيامة؟ قال: أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة][1].

وقوله: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾. قال مجاهد: (طريقاً). وقال مقاتل: (أي: ديناً وطريقاً).

35 ـ 40. **قوله تعالى**: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

في هذه الآيات: تسلية من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ عما يلقاه من تكذيب قومه وأذاهم، وتوعد لقومه أن يحل بهم ما حَلّ من نقمة الله بالأمم المكذبة المعاندة قبلهم، يقول: فلقد آتينا ـ يا محمد ـ موسى التوراة كما آتيناك الفرقان، وجعلنا معه أخاه هارون ﴿وَزِيرًا﴾ أي: مُعيناً وظهيراً. فقلنا لهما: اذهبا إلى فرعون وقومه بالبلاغ المبين، فكذبوهما فدمرناهم تدميراً.

وكذلك قوم نوح من قبل لما واجهوا الرسل بالتكذيب والاستهزاء بالوحي أغرقناهم بالطوفان، وأعددنا لهم في الآخرة عذاباً أليماً غير ما نزل بهم في الدنيا. وكذلك دمّرنا عاداً وثمود وأصحاب الرس (قال مجاهد: الرّس: بئر كان عليها قوم) ﴿وَقُرُونًا﴾. أي: وأمماً ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ أي: بَيْنَ أضْعاف مَنْ ذُكِرَ أهلكناهم. وكل هذه الأمم التي قَضَيْنا إهلاكها أنذرناها قبل ذلك وأعذرنا إليها بالعبر والمواعظ فأصروا على كفرهم فدمرناهم بالعذاب إبادة ومحوناهم من الوجود عبرة لغيرهم. ولقد أتى هؤلاء المشركون على آثار قرية قوم لوط فرأوا ما حلّ بهم وكفى بذلك عبرة، ولكن ليس مع قوم لا يوقنون بالعِقاب والثواب ولا يؤمنون بقيام الساعة.

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (4760)، وصحيح مسلم (2806)، ومسند أحمد (3/ 229) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وعن قتادة: (﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ قال: كلّ قد أعذر الله إليه، ثم انتقم منه).

وعن الحسن: (﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ قال: تَبَّرَ الله كُلاًّ بعذاب تتبيراً).

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وكل هؤلاء الذين ذكرنا لكم أمرهم استأصلناهم، فدمرناهم بالعذاب إبادة، وأهلكناهم جميعاً).

قلت: وأصل (التَّبَار) في لغة العرب الهلاك، قال الرازي: (و«تَبَّره تتبيراً»: كَسَّره وأَهْلَكَهُ، وهؤلاء (متَبَّر) ما هُمْ فيه أي مُكَسَّر مُهْلَك).

فيكون المعنى: كل هذه الأمم التي سَلَف ذِكْرُها كَسَّرنا بنيانها وأهلكنا أهلها واستأصلناهم لَمّا طَغَوا فبادوا جميعاً.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ﴾.

يعني قرية قوم لوط، وهي سَدُوم، التي جعل الله عاليها سافلها وأمطرها حجارة من سجيل.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء: 173].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: 137 ـ 138].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر: 76].

4 ـ وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر: 79].

وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ﴾. قال ابن كثير: (أي: فيعتبروا بما حَلَّ بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول ومخالفتهم أوامرَ الله). قلت: والخطاب لقريش، أي أفلم يمروا كثيراً أثناء تجارتهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء، فيتفكروا فيؤمنوا.

وقوله: ﴿ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾. قال ابن جُريج: (بعثاً).

قال النسفي: (بل كانوا قوماً كفرة بالبعث لا يخافون بعثاً فلا يؤمنون، أو لا يأملون نشوراً كما يأمله المؤمنون لطمعهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم).

وقال القرطبي: (﴿ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾: أي لا يصدقون بالبعث. ويجوز أن

يكون معنى «يَرْجون» يخافون. ويجوز أن يكون على بابه ويكون معناه: بل كانوا لا يرجون ثواب الآخرة).

قلت: وقد صَنَّفَ الإمام مسلم في صحيحه في «كتاب صفات المنافقين» باباً سماه: «بابُ جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة، وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا». روى فيه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله لا يَظْلِمُ مُؤْمناً حَسَنَةً، يُعْطي بها في الدنيا ويَجْزي بها في الآخرة، وأما الكافِرُ فَيُطْعَمُ بحسناتٍ ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكنْ له حسنة يُجْزى بها][1].

وفي رواية: [إن الكافر إذا عَمِلَ حسنةً أُطْعِمَ بها طُعْمَةً من الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يَدَّخِرُ له حسناته في الآخرة، وَيُعْقِبُهُ رِزْقاً في الدنيا على طاعته].

وهذه الرواية مفسِّرة للرواية الأولى، فإن أعمال الخير من الكافر بالآخرة والبعث والحساب إنما يأخذ ثوابها في الدنيا، من زينتها وزخارفها وملذاتها وشهواتها ومناصبها، فإذا قدم يوم القيامة نثر الله أعماله فجعلها هباء منثوراً.

41 ـ 44. **قوله تعالى**: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٢ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤﴾.

في هذه الآيات: استهزاء المشركين بالرسول، ودعوتهم قومهم للتمسك بدين الآباء الفاسد، وسوف يعلمون من أضل سبيلاً. فالهوى والشهوات آلهة قوم لا يفقهون ولا يسمعون إن هم إلا كالأنعام بل أضل سبيلاً.

فقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾.

إنْ نافية. والتقدير: وإذا رآك يا محمد هؤلاء المشركون ما يتخذونك إلا سخرية

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2808) ـ كتاب صفات المنافقين ح(56)، وانظر للرواية الثانية ح(57) من الباب نفسه.

واستهزاء ، يريدون التنقّص والإشارة بالعيب أن اختارك الله عليهم واصطفاك من بينهم .

وقوله : ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ . أي يقولون : أهذا الذي بعث الله إلينا رسولاً من بين خلقه . قال ابن كثير : (أي : على سبيل التنقُّصِ والازدِراء ـ قَبَّحَهُم الله ـ) . وقال القاسمي : (والإشارة للاستحقار . لأن كلمة «هذا» تستعمل له) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالى : ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء : 36] .

2 ـ وقال تعالى : ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد : 23] .

وفي المسند بإسناد حسن عن ربيعة بن عَبَّاد الدُّؤَلي قال : [رأيت رسول الله ﷺ بذي المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله عز وجل ، ووراءه رجل أحول تقدُ وجنتاه وهو يقول : أيها الناس ، لا يغرّنكم هذا من دينكم ودين آبائكم . قلت : من هو؟ قالوا : هذا أبو لهب][(1)] .

وفي رواية : [ورسول الله يقول لهم : يا أيها الناس : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ـ ويزدحم الناس عليه صامتين وهو يكرر دعوتهم ـ وأبو لهب يصيح : إنه صابئ كاذب ، يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى] .

وروى أحمد وابن ماجة بسند جيد عن جابر قال : [كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموسم فيقول : ألا رجل يحملني إلى قومه ، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي][(2)] .

وقوله : ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ . قال ابن جريج : (ثبتنا عليها) . قال القرطبي : (أي قالوا قد كاد أن يصرفنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي حبسنا أنفسنا على عبادتها) .

---

(1) حديث حسن . انظر مسند أحمد (3/ 491 ـ 492) ، (3/ 493) ، (4/ 341) وسنده حسن .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (3/ 322) ، (3/ 339) ، ورجاله ثقات . وانظر كتابي : السيرة النبوية على منهج الوحيين (1/ 390) لتمام البحث .

وقوله: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه: سيبين لهم حين يعاينون عذاب الله قد حلّ بهم . . . من الراكب غير طريق الهدى، والسالك سبيل الردى أنت أو هم).

قلت: ولا شك أنهم عاينوا ذلك ورأوه يوم بدر، بل إنّ الله أسمعهم توبيخ نَبِيّه لهم وهم صرعى يوشك أَنْ يلقوا في حفرهم.

ففي صحيح مسلم ومسند أحمد من حديث أنس قال: [وقال رسول الله ﷺ بيده ـ أي قبل المعركة ـ فوضعها فقال: هذا مصرع فلان غداً، وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى، فالتقوا فهزمهم الله عز وجل، فوالله ما أماط رجل منهم عن موضع كفيّ النبي ﷺ. قال: فخرج إليهم النبي ﷺ بعد ثلاثة أيام وقد جَيَّفُوا فقال: يا أبا جهل، يا عتبة، يا شيبة، يا أمية، قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً. فقال له عمر: يا رسول الله تدعوهم بعد ثلاثة أيام وقد جَيَّفوا! فقال: ما أنتم بأَسْمَعَ لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون جواباً، فأمر بهم فَجُرُّوا بأرجلهم فألقوا في قليب بدر][1].

قال قتادة: (أحياهم الله له حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً، ونقمة، وحسرة وندما)[2].

وقوله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾. قال القرطبي: (عَجَّبَ نبيّه ﷺ من إضمارهم على الشرك وإصرارهم عليه مع إقرارهم بأنه خالقهم ورازقهم، ثم يعمد إلى حجر يعبده من غير حجة). قال ابن عباس: (الهوى إله يعبد من دون الله، ثم تلا هذه الآية).

وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾. أي حفيظاً وكفيلاً لتحمله على الرجوع إلى منهاج الإيمان. وهو تسلية للنبي ﷺ عن إصرار قومه على منهاجهم الفاسد. قال ابن عباس: (كانَ الرجلُ في الجاهلية يعبدُ الحجرَ الأبيض زماناً، فإذا رأى غيرَه أحسَنَ منه عبد الثاني وترك الأول).

وقوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾.

أي سماع تدبر وإصغاء، وتعقل للفهم والانتفاع. والمقصود: بل هم بمنزلة من

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2873) كتاب الجنة وصفة نعيمها، وأحمد (1/ 26).
(2) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (7/ 300) ـ من رواية البخاري.

لا يسمع ولا يعقل. قال النسفي: (أم منقطعة ، معناه: بل أتحسب ، كأن هذه المذمة أشدّ من التي تقدّمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها ، وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول ، لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذناً ، ولا إلى تدبره عقلاً).

وقوله: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: ما هم إلا كالبهائم التي لا تعقل ما يقال لها ، ولا تفقه ، بل هم من البهائم أضلّ سبيلاً لأن البهائم تهتدي لمراعيها ، وتنقاد لأربابها ، وهؤلاء الكفرة لا يطيعون ربهم ، ولا يشكرون نعمة من أنعم عليهم ، بل يكفرونها ، ويعصون من خلقهم وبرأهم).

45 ـ 50. **قوله تعالى**: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: امتنانُ الله تعالى على عباده بنعمة مدّ الظل وجعل الليل لباساً والنوم سباتاً والنهار نشوراً. وإرساله تعالى الرياح بشراً وإنزال الماء من السماء طهوراً. ليحيي به أرضاً يابسة ويسقيه من خلقه أنعاماً وأناسيّ كثيراً. وتصريفه تعالى مياه المطر في البلاد والفيافي والبحار ليذكر الناس ولكن أكثرهم أبى إلا كفوراً.

فقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾. قال ابن عباس: (يقول: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس). وقال مجاهد: (ظل الغداة قبل أن تطلع الشمس). فالمعنىٰ: ألم تر يا محمد كيف مدّ ربك الظل بين صلاة الصبح إلى طلوع الشمس. قال ابن كثير: (من هاهنا شرَعَ تعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده ، وقُدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة).

وقوله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾. قال ابن عباس: (يقول: دائماً). وقال مجاهد:

(لا تصيبه الشمس ولا يزول). وقال ابن زيد: (دائماً لا يزول).

وقوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾. قال قتادة: (دليلاً يتلوهُ وَيَتْبَعُهُ حتى يأتيَ عليه كُلِّه). وقال ابن عباس: (يقول: طلوع الشمس). وقال ابن زيد: (أخرجت ذلك الظلّ فذهبت به). والمقصود: لولا طلوع الشمس على ذلك الظل لما عُرِف ، فإن الضِّد يعرف بِضده ، وبضدها تتميز الأشياء.

وقوله: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ ﴾. أي: الظل ، وقيل: الشمس. ﴿ قَبْضًا يَسِيرًا ﴾: قال ابن عباس: (يقول: سريعاً). وقال مجاهد: (خفياً). وقال غيره: (سهلاً). وقال أيوب ابن موسى: (أي: قليلاً قليلاً). وقال السدي: (قبضاً خفياً ، حتى لا يبقى في الأرض ظلٌّ إلا تحت سقف أو تحت شجرة ، وقد أظلّت الشمسُ ما فوقه). قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ثم قبضنا ذلك الدليل من الشمس على الظّلِ إلينا قبضاً خفياً سريعاً بالفيء الذي نأتي به بالعشي).

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾. قال النسفي: (جعل الظلام الساتر كاللباس).

والمقصود: صار الليل ستراً كالثياب التي يُكسى بها العباد. كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ [الليل: 1]. وكقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾ [الشمس: 4].

وقوله: ﴿ وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾. قال القرطبي: (أي راحة لأبدانكم بانقطاعكم عن الأشغال. وأصل السبات من التمدد. يقال: سبتت المرأة شعرها أي نقضته وأرسلته. وقيل للنوم سبات لأنه بالتمدد يكون ، وفي التمدد معنى الراحة. وقيل: السبت القطع ، فالنوم انقطاع عن الاشتغال ، ومنه سبت اليهود لانقطاعهم عن الأعمال فيه. وقيل: السبت الإقامة في المكان ، فكأن السبات سكون مّا وثبوت عليه ، فالنومُ سُباتٌ على معنى أنه سكون عن الاضطراب والحركة. وقال الخليل: السبات نوم ثقيل ، أي جعلنا نومكم ثقيلاً ليكمل الإجمام والراحة) انتهى.

وقوله: ﴿ وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾. قال مجاهد: (ينشر فيه).

والمقصود: الانتشار للمعاش. قال ابن كثير: (أي: ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: 73].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: 10 ـ 11].

وفي صحيح البخاري عن حذيفة قال: [كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: باسْمِكَ أموت وأحْيا. وإذا قام قال: الحمد لله الذي أحْيانا بَعْدَمَا أماتنا وإليه النُّشُور][1]. تُنْشِرها: تُخْرِجُها.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

قال القاسمي: (أي مبشرات ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي قدام المطر. وهي استعارة بديعة. استعيرت الرحمة للمطر ثم رشحت).

والرياح أنواع: نوع يثير السحاب، ونوع يحمله، ونوع يسوقه، ونوع يبشر بين يديه، ونوع يقمّ الأرض قبل ذلك، ونوع يلقح السحاب ليمطر بإذن الله.

قال النسفي: (﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي قدام المطر، لأنه ريح ثم سحاب ثم مطر وهذه استعارة مليحة).

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾. أي: مطراً بليغاً في الطهارة والتطهير. قال سعيد بن المسيب: (أنزل الله ماء طهوراً لا يُنَجِّسُهُ شيء).

وفي سنن أبي داود والنسائي والترمذي بسند جيد عن أبي سعيد قال: [قيل: يا رسول الله، أنتوضأ من بئر بُضَاعة؟ ـ وهي بئر يُلقى فيها النَّتَن ولحومُ الكلاب ـ فقال: إن الماء طهورٌ لا ينجِّسُهُ شيء][2].

وقوله: ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾. أي: أرضاً هامدة طال انتظارها للغيث، فلما لامسها تلألأت بنسائم الحياة وأخرجت في رُباها ألوان الزهور والنباتات والثمار.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6312) ـ كتاب الدعوات. وأحمد (5/ 397)، وأبو داود (5049)، وأخرجه الترمذي (3417)، وابن حبان (5532) من حديث حذيفة.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (66)، والترمذي (66)، والنسائي (3/ 15 ـ 31)، وأبو يعلى (1304)، وله شواهد عند ابن ماجة (370)، وابن حبان (1242).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ [الزمر: 21].

2 ـ قال تعالى: ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: 5].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: 9 ـ 11].

ومن هنا كانت وصية النبي ﷺ لمعاذ إذا مرّ بشجر أن يذكر الله العظيم المنعم المتفضل. فقد أخرج الطبراني في «الكبير» بسند جيد عن أبي سلمة قال: قال معاذ: قلت: يا رسول الله أوصني. قال: [اعبُد الله كأنك تراه، واعدُدْ نفسكَ في الموتى، واذكر الله عند كل حجر، وعند كل شجر، وإذا عملت سيئة بجنبها حسنة، السِّرُ بالسِّر، والعلانية بالعلانية][1].

وقوله: ﴿ وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾.

أي: ونسقي الماء البهائم والناس. قال النسفي: (وقدم إحياء الأرض على سقي الأنعام والأناسي لأن حياتها سبب لحياتهما، وتخصيص الأنعام من الحيوان الشارب لأن عامة منافع الأناسي متعلقة بها).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

أي: ولقد قسمنا هذا الماء النازل بين العباد في القرى والأمصار ليشكروا ربهم على نعمته عليهم، وليعظموه وحده لا شريك له فيطيعوه ولا يعصوه، فأبى أكثر الناس إلا كبراً وجحوداً.

أخرج الحاكم على شرط الشيخين عن ابن عباس قال: [ما من عام بأكثر مطراً من عام، ولكن الله يصرفه بين خلقه حيث يشاء، ثم قرأ: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير كما ذكر الهيثمي (4/ 218)، والمنذري (4/ 132)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1475)، وله شواهد.

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 403)، وابن جرير في «التفسير» (19/ 15)، وقال الحاكم: =

وله شاهد عند البغوي عن ابن مسعود يرفعه: [ليس من سنة بأمَرَّ من أخرى ، ولكن الله قسم هذه الأرزاق ، فجعلها في السماء الدنيا في هذا القطر ، ينزل منه كل سنة بِكَيْلٍ معلوم ووزن معلوم ، وإذا عمل قوم بالمعاصي حَوَّل الله ذلك إلى غيرهم ، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار](1).

وفي معجم الطبراني بسند حسن عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: [خمس بخمس: ما نَقَضَ قوم العهد إلا سُلط عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا المكيال إلا مُنِعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا مَنَعوا الزكاة إلا حُبِسَ عنهم القطر](2).

وعن عكرمة: (﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ قال: قولهم في الأنواء).

قلت: يشير إلى ما رواه البخاري ومسلم عن زيد بن خالد الجُهَني أنه قال: [صَلّى لنا النبي ﷺ صلاةَ الصبح بالحديبية على إِثْر سماءٍ كانت من الليل ، فلما انْصَرَف أَقْبلَ على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال رَبُّكم؟ قالوا: الله ورسولهُ أعلم. قال: أَصْبحَ مِنْ عبادي مُؤمِنٌ بي وكافِرٌ ، فأمَّا مَنْ قال: مُطِرْنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأمّا من قال: بِنَوْءِ كذا وكذا ، فذلك كافِرٌ بي ومؤمنٌ بالكوكب](3).

51 ـ 54. قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢ ۞وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ۝٥٣ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ۝٥٤﴾.

في هذه الآيات: تحميلُ الله تعالى نبيّه محمداً ﷺ كامل مهمة النذارة للثقلين ،

= صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وأقره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (2461) وقال: وهو كما قالا.

(1) موقوف في حكم المرفوع. انظر: «معالم التنزيل» (6/ 184) ـ البغوي ، والمرجع السابق ، ـ السلسلة الصحيحة ـ ج(5) ، ص(593) عقب الحديث السابق.

(2) حديث حسن. انظر تخريج الترغيب (1/ 271) ، وصحيح الجامع الصغير (3235).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (846) ـ كتاب الأذان ، ومسلم (71) ، وأحمد (4/ 117).

وأمره مجاهدة المشركين بالقرآن الكريم. وتذكيرٌ من الله تعالى عباده ببعض نعمه العظيمة عليهم: كنعمة الماء العذب للشرب والسقي، ونعمة الماء المالح في البحار والمحيطات لصحة الهواء وطيب الميتة فيها، ونعمة إخراج نوعين من الخلق ـ ذكر وأنثى ـ وجعله منهما نسباً وصهراً والله على كل شيء قدير.

فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾.

أي: ولو شئنا يا محمد بعثنا إلى كل مصر ومدينة وقرية نذيراً ينذرهم بأسنا ويخفف عنك أعباء ما حملناك من أعباء البلاغ للأمم. قال ابن جرير: (ولكنا حملناك ثقل نذارة جميع القرى، لتستوجب بصبرك عليه إن صبرت ما أعدّ الله لك من الكرامة عنده).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: 92].

2 ـ وقال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: 19].

3 ـ وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158].

4 ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: 28].

ومن صحيح السنة المطهرة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري من حديث جابر مرفوعاً: [وكان النبي يُبْعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة][1].

الحديث الثاني: أخرج مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري ـ أيضاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: [أُعطيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قبلي: كان كُلُّ نبيّ يُبْعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى كُلِّ أحمرَ وأسودَ. .]الحديث[2].

قال مجاهد: (يعني الإنس والجن).

وقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾. قال ابن عباس: (بالقرآن).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (438) ـ كتاب الصلاة، وكذلك (335) ـ كتاب التيمّم.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (521) ح(3) ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، في أثناء حديث طويل. وفي لفظ: [بعثتُ إلى الأحمر والأسود].

وقال ابن زيد: (﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ قال: الإسلام).

قلت: والآية مكية، والمقصود بذل الوسع في مجاهدة الكفار بالوحي العظيم، وامتثال أحكام الدين. وفي هذا درسٌ بليغ للمسلمين أيام الغربة في كل زمان، فإن أعظم الجهاد يكون بالقرآن، واتباع هدي سيد الأنام، وإقامة شرائع الإسلام في النفس والبيت والمسجد والمجتمع حتى يأذن الله تعالى بإقامة دولة الحق.

وقوله: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾. أي خلق الماءين: الحلو والمالح. قال القاسمي: (أرسلهما متجاورين متلاصقين، بحيث لا يتمازجان ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي شديد العذوبة قامع للظمأ ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي بليغ الملوحة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي حاجزاً لا يختلط أحدهما بالآخر ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي منعاً من وصول أثر أحدهما إلى الآخر، وامتزاجه به، حتى بعد دخول أحدهما في الآخر مسافة).

وخلاصة معنى الآية: تذكير الله عباده ببعض نعمه العظيمة، فها هو الماء العذب أودعه مسارب ضخمة كالأنهار والعيون والآبار، وهو في حركته يحافظ على المذاق الحلو الفرات العذب الزُّلال. وذاك الماء المالح المُرُّ الزُّعاق أودعه الله تعالى المحيطات والبحار، فهي منشآت ساكنة مالحة الماء، لئلا يحصل بسببها نَتَنُ الهواء، فيفسد الوجود بذلك. فهي تجمع بملوحتها بين طهارة الماء، وصحة الهواء، وكون ميتتها طيبة.

أخرج أبو داود وابن ماجة ـ واللفظ له ـ عن أبي هريرة قال: [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنا نركب البحر. ونحمل معنا القليل من الماء. فإن توضأنا به عطشنا. أفنتوضأ من ماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: هو الطَّهورُ ماؤه، الحِلُّ مَيْتَتُهُ] وسنده صحيح[1].

وفي التنزيل: وصف بديع للبرزخ بين البحرين الحلو والمالح، وهو الحاجز بينهما من اليابسة من الأرض، ثم الاختلاط بينهما دون تمازج.

1 ـ قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 19 ـ 21].

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (386) ـ كتاب الطهارة وسننها، باب الوضوء بماء البحر. انظر صحيح سنن ابن ماجة (309)، وصحيح أبي داود (76).

2 ـ وقال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: 61].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ﴾.

أي: خلق الله الإنسان من نطفة ضعيفة، وهي ماء مهين، فسوى خلقه وعدّله وأخرجه بشراً نوعين: ذكراً وأنثى، ثم مازج بين النوعين بالنكاح فأخرج منهما نسباً وصهراً.

قال النسفي: (أراد تقسيم البشر قسمين، ذوي نسب: أي ذكوراً ينسب إليهم فيقال فلان بن فلان، وفلانة بنت فلان، وذوات صهر: أي إناثاً يصاهر بهن).

وقال ابن كثير: (﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ﴾، فهو في ابتداء أمره ولَدٌ نَسيبٌ، ثم يَتَزوَّج فيصير صهراً، ثم يَصِيرُ له أَصْهارٌ وأختانٌ وقرابات. وكل ذلك من ماء مهين. ولهذا قال: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾).

55 ـ 60. قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾.

في هذه الآيات: توبيخُ الكفار في عبادتهم ما لا ينفعهم ولا يضرهم، وإثبات إرساله تعالى نبيّه إلى جميع الخلق ليبشرهم وينذرهم ولا يبتغي الأجر منهم، وأَمْرُهُ تعالى نبيّه بالتوكل عليه وتنزيهه فهو الخبير سبحانه بأعمالهم، الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وهم يكفرون بالرحمان، ولا يسجدون له بل يزدادون من البغي والطغيان.

فقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ﴾.

تقريع من الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة لا تضر ولا تنفع، يصرفون لها

العبادة من دون الله العظيم ، وإنما قادهم إلى ذلك التحاكم للعادات والأهواء حتى تجرؤوا على معاداة الله من أجلها ورسوله والمؤمنين .

وقوله : ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ . أي معيناً للشيطان وحزبه على أولياء الله وأهل طاعته . قال مجاهد : (يظاهر الشيطان على معصية الله : يُعينُه) . وقال سعيد ابن جبير : (يقول : عوناً للشيطان على ربِّه بالعداوة والشِرك) .

وفي التنزيل :

1 ـ قال تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [يس : 74 ـ 75] .

2 ـ وقال تعالى : ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المجادلة : 19] .

وفي صحيح ابن حبان من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [إذا أصبح إبليس بثَّ جنوده ، فيقول : من أَضَلَّ اليوم مسلماً ألبستُه التاج ، فيخرجُ هذا فيقول : لم أزل به حتى طلق امرأته ، فيقول : أوشك أن يتزوج . ويجيء هذا فيقول : لم أزل به حتى عق والديه فيقول : يوشك أن يبرّهما . ويجيء هذا فيقول : لم أزل به حتى أشرك ، فيقول : أنت أنت ، ويجيء هذا فيقول : لم أزل به حتى قتل ، فيقول : أنت أنت ويُلبِسُه التاج][1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ .

أي مبشراً المؤمنين بثواب الله العظيم ، ونذيراً للكافرين من عقاب الله الأليم .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ .

أي : قل ـ يا محمد ـ لقومك الذين أرسلت إليهم : إنني لا أبتغي من وراء دعوتي لكم وإنذاري لنجاتكم ، ما في أيديكم من أموالكم ، وإنما أبتغي بذلك وجه الله . قال القرطبي : (﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ﴾ لكن من شاء ، فهو استثناء منقطع ، والمعنى : لكن من شاء ﴿ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ بإنفاقه من ماله في سبيل الله فلينفق . ويجوز أن يكون متصلاً

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن حبان (65) بإسناد رجاله ثقات ، رجال البخاري . وانظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1280) .

ويقدّر حذف المضاف ، التقدير : إلا أجر ﴿مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ باتباع ديني حتى ينال كرامة الدنيا والآخرة).

وقوله : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ .

أمر من الله تعالى لنبيّه محمد ﷺ بالاعتماد على ربه الحي الذي لا يموت .

والتوكل : هو تحقيق مقام التوحيد لله باعتماد القلب عليه ، والصدق في الأخذ بالأسباب .

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : وتوكل يا محمد على الذي له الحياة الدائمة التي لا موت معها ، فثق به في أمر ربك ، وفوِّض إليه ، واستسلم له ، واصبر على ما نابك فيه).

وفي التنزيل :

1 ـ قال تعالى : ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل : 9].

2 ـ وقال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك : 29].

وقوله : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ . أي : نـزِّهْه تعالى واقرن بين حمده وتسبيحه .

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : [كان رسول الله ﷺ يُكثِرُ أن يقول في ركوعه وسجوده : «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، الله اغفر لي» ، يتأول القرآن][1] .

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : [ألا أخبرك بأَحَبِّ الكلام إلى الله؟ إنَّ أحبَ الكلام إلى الله سبحانَ الله وبحمده][2] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم][3] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4968) ـ كتاب التفسير ، وأخرجه مسلم (484).

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (8/ 86) ـ كتاب الذكر ، باب : أحب الكلام إلى الله سبحان الله وبحمده ، وانظر مختصر صحيح مسلم (1907).

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (7563) ، كتاب التوحيد . وأخرجه مسلم (8/ 70) كتاب الذكر ، باب : في فضائل التسبيح . وانظر مختصر صحيح مسلم (1904).

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾.

أي: وحسبك ـ يا محمد ـ بالحي الذي لا يموت خابراً بذنوب خلقه، لا تخفى عليه خافية، فهو محص أعمالهم ومجازيهم عليها.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: [يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه][1].

وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: إن توكلك ـ يا محمد ـ هو على الله الحي الذي لا يموت، الخالق لهذا الكون الفسيح في ستة أيام، السماوات السبع في اتساعها وارتفاعها، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها.

خرّج الإمام مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده، عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: [خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثَّ فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة، في آخر الخلق، في آخرِ ساعةٍ من ساعاتِ الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل][2].

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾. أي: علا وارتفع، كما أفاد شيخ المفسرين. وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾. أي هو الرحمن. فالرحمن خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو. أو بدل من الضمير في استوى. وقد يكون ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مرفوعاً على الابتداء، ويكون الخبر قوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾. و﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ اسم مشتق من الرحمة على وجه المبالغة.

وقوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ فيه تأويلان متقاربان متكاملان:

التأويل الأول: قيل الباء بمعنى «عن»، ذكره بعض أهل اللغة. قال الزجاج:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 17)، وأخرجه أحمد في المسند (5/ 160).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2789) ـ كتاب صفات المنافقين، باب ابتداء الخلق، وخلق آدم عليه السلام. وانظر تفصيل هذا البحث: «كيف بدأ الخلق»؟ في كتابي: تحصيل السعادتين على منهج الوحيين ص(18 ـ 35).

(المعنى: فاسأل عنه). قال القرطبي: (أي فاسأل عنه خبيراً، أي عالماً به، أي بصفاته وأسمائه).

فيكون خبيراً قد نُصب على المفعول به بالسؤال.

التأويل الثاني: قيل بل المعنى: ﴿فاسأل له خبيراً﴾ بالنصب على الحال، وقيل: بل هو حال مؤكدة مثل قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾.

قال مجاهد: (يقول لمحمد ﷺ: إذا أخبرتك شيئاً فاعلم أنه كما أخبرتك. أنا الخبير). وقال شمر بن عطية: (﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾: هذا القرآن خبير به).

وخلاصة المعنى: فاسأل به سبحانه عالماً بصفاته وأسمائه، أو فاسأل الله يخبرك عن نفسه، أو فاسأل القرآن يخبرك عن الله.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

قال القاسمي: (أي من المسمى به؟ لأنهم ما كانوا يعرفونه تعالى بهذا الاسم ولايطلقونه عليه. أو الاستفهام للتعجب والاستغراب، تفنناً في الإباء. أي وما هذه الأسماء والأعلام التي تصدعنا بها، وتقرع آذاننا بالإذعان لها. ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ﴾ أي الأمر بالسجود، المراد به الإذعان بالإيمان ﴿نُفُورًا ۩﴾ أي استكباراً عن الإيمان).

وفي صحيح البخاري ـ في قصة الحديبية ـ قال الزهري: [فجاء سهيل بن عمرو، فقال: هاتِ اكتُبْ بيننا وبينكم كتاباً. فدعا النبي ﷺ الكاتب ـ وهوعلي رضي الله عنه ـ فقال النبي ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم. (وفي رواية أحمد: فقال رسول الله ﷺ: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم) فقال سهيل: أما الرحمن فو الله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ: اكتب باسمك اللهم][1].

قلت: وهذا من روائع سياسته الشرعية عليه الصلاة والسلام، وإلا فقد قرعهم الله بالقرآن أكثر من مرة باسمه «الرحمن» فقال جل ذكره: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: 30].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2731)، (2732)، كتاب الشروط، وأخرجه مسلم (1784) ـ كتاب السير، وأخرجه أحمد في المسند (4/ 325).

وقال جل ذكره: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: 1 ـ 4].

وسمى السورة بأكملها باسمه الجليل: «الرحمن». وقال جل ثناؤه: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الملك: 29].

وإنما منعهم من إقرار هذا الاسم لله تعالى الكبر.

وفي مسند أحمد بإسناد جيد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله عز وجل: أنا الرحمن، وهي الرحم، شققت لها من اسمي، من يصلها أصله، ومن يقطعها أقطعه فأبته][1].

61 ـ 62. **قوله تعالى**: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ۝٦١ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ۝٦٢﴾.

في هذه الآيات: تنزيهُ الله تعالى الذي خلق البروج في السماء والشمس والقمر، وجعل الليل والنهار متعاقبين لمن أراد أن يتفكر أو يتذكَّر.

فقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾. قال مجاهد: (الكواكب). وقال قتادة: (البروج: النجوم). وقال أبو صالح: (النجوم الكبار). وقيل: قصور في السماء للحرس، والقول الأول أرجح.

كما في التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الملك: 5].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾ [الحجر: 16 ـ 18].

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس قال: [انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 498)، وقال الألباني: (وهذا إسناد جيد رجاله ثقات رجال الشيخين). انظر السلسلة الصحيحة ج(2) ص(38).

عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين. فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب. .] الحديث[1].

وخلاصة المعنى: تقدس الله تعالى الذي جعل في السماء الكواكب والنجوم زينة لها ، وحفظاً من استراق السمع من الشياطين إذ تحرقهم شهبها.

وقوله: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾. قال قتادة: (السراج: الشمس). أي: وجعل سبحانه الشمس كالسراج المتوهج ، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ: 13]. وجعل القمر مضيئاً منيراً بعكس ضوء الشمس عليه ، وإلا فالقمر غير مضيء بنفسه.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس: 5].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح: 15 ـ 16].

وقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾.

قال أبو عبيدة: (الخِلفة كل شيء بعد شيء). ومنه قول مجاهد في هذه الآية: (هذا يخلف هذا ، وهذا يخلف هذا). وقيل: (خلفة: أسود وأبيض) والأول أرجح.

كما في التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: 40].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف: 54].

وعن الحسن قال: (جعل أحدهما خَلَفاً للآخر ، إن فات رجلاً من النهار شيء أدركه من الليل ، وإن فاته من الليل أدركه من النهار).

قلت: وقول الحسن مناسب لتتمة الآية: ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾. أي: لمن أراد أن يذكر عظمة الله وأمره فينيب إلى طاعته وشكره. قال مجاهد: (﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ قال: شكر نعمة ربه عليه فيهما).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4921) ـ كتاب التفسير ، ورواه مسلم والترمذي وغيرهما.

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى قال: [قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: إنّ الله عزّ وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القِسط ويَرْفعه، يُرْفَعُ إليه عَمَلُ الليل قبلَ عملِ النهار، وعملُ النهار قبلَ عمل الليل، حِجابُه النور، لو كشفه لأحْرَقت سُبُحات وَجْهِهِ ما انْتَهىٰ إليه بَصَرُهُ من خَلْقِه][1].

وفي صحيح مسلم أيضاً عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الله عَزَّ وجل يَبْسُطُ يده بالليل، ليتوبَ مسيءُ النَّهار، ويَبْسُطُ يدهُ بالنهار، ليتوبَ مسيءُ الليل، حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مَغْرِبها][2].

63 ـ 67. **قوله تعالى**: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾.

في هذه الآيات: ثناءُ الله تعالى على عباده المؤمنين، فهم يمشون في الأرض هوناً ولا يبتغون الجاهلين، ويبيتون لربهم قائمين ساجدين، ويسألونه تعالى النجاة من عذاب جهنم مستقر الكافرين، وينفقون من أموالهم دون إسراف ولا إقتار وإنما بشكل قويم.

فقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾. قال مجاهد: (بالوقار والسكينة). وعن ابن عباس: (بالطاعة والعفاف والتواضع). وقال ابن زيد: (لا يتكبرون على الناس، ولا يتجبرون، ولا يفسدون). وقال الحسن: (حلماء، وإن جُهل عليهم لم يجهلوا).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (179) ـ كتاب الإيمان، وأخرجه أحمد (4/ 395)، وأخرجه ابن ماجة في السنن (195) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. رواه مسلم (2759) ـ كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب.

قلت: وكلها أقوال متقاربة في صفات عباد الله المؤمنين مفادها أنهم يمشون بسكينة ووقار، وبحلم وتواضع لا باستكبار.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إذا سَمِعْتُم الإقامةَ فامشوا إلى الصلاة، وعليكم بالسكينة والوقار ولا تُسرعوا، فما أدركتم فَصَلّوا وما فاتكم فأتِمُّوا][1].

وقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾. قال مجاهد: (سداداً من القول).

والمقصود: إذا حصل أن سفِهَ عليهم بعض الجهال قابلوهم بالصفح والحلم ولم يقولوا إلا خيراً.

وفي التنزيل: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: 55].

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: [ليس المؤمن بالطَّعَّان ولا اللَّعان ولا الفاحِش ولا البَذِيّ][2].

وَعَن الحسن: (﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ قال: حلماء لا يجهلون، وإن جُهِلَ عليهم حلموا ولم يسفهوا، هذا نهارهم فكيف ليلهم؟ خير ليل صفوا أقدامهم، وأَجْرَوا دموعهم على خدودهم، يطلبون إلى الله جل ثناؤه فكاك رقابهم).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾.

أي: فإذا أقبل الليل ناموا ثم قاموا إلى السجود والركوع، والتذلل والخشوع، يبكون بين يدي ربهم عز وجل، يرجون رحمته ويخافون عذابه.

قال الحسن: (يُصاحبون عبادَ الله نهارَهم بما تسمعون. ثم ذكر: لَيلُهم خَيْرُ ليل).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: 17 ـ 18].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (636) ـ كتاب الأذان، ومسلم (602)، وأحمد (2/ 238) وأخرجه أبو داود (572)، والترمذي (327)، والنسائي (2/ 114)، وابن ماجة (775).

(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي (1978)، وأحمد (3839)، والحاكم (1/ 12).

2 ـ وقال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: 16].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: 9].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: [يَعْقِدُ الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاثَ عقد، يضرب على كل عُقدة: عليك ليل طويل فارقد! فإن استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عُقدة، فإن توضأ انحلت عُقدة، فإن صلى انحلت عُقَدُهُ كُلُّها، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان][1].

الحديث الثاني: أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أفضل الصيام بعدَ رمضان شهرُ الله المحرَّم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاةُ الليل][2].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: [عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى ربكم، ومَكْفَرَةٌ للسيئات، ومَنْهاةٌ عن الإثم][3].

الحديث الرابع: أخرج الطبراني بإسناد حسن عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: [في الجنة غرفةٌ يُرى ظاهرها من باطنها، وباطِنُها من ظاهرها. فقال أبو مالك الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟ قال: لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وباتَ قائماً والناس نيام][4].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

أي: ومن صفات هؤلاء المؤمنين عباد الرحمن سؤالهم ربهم عز وجل أن يصرف

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1142) ـ كتاب التهجد. وأخرجه مسلم (776) ـ في الصلاة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1163) ـ كتاب الصيام، ورواه أهل السنن إلا ابن ماجة.

(3) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3801). انظر صحيح سنن الترمذي (2814)، وتخريج المشكاة (1227)، وكذلك الإرواء (452).

(4) حديث حسن. أخرجه الطبراني والحاكم. انظر تخريج الترغيب (1/ 613) ـ كتاب النوافل.

عنهم عذاب النار يوم القيامة ، إن عذابها كان غراماً : أي : ملازماً دائماً مهلكاً .

قال ابن جُريج : (﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ قال : لا يُفارِقُه). وقال الحسن : (قد علموا أن كلّ غريم مفارق غريمه إلا غريم جهنم). وقال محمد بن كعب : (إن الله سأل الكفار عن نعمه ، فلم يردّوها إليه ، فأغرمهم ، فأدخلهم النار).

قلت : وأصل الغرام في لغة العرب الشَّرُ الدائم والعذاب. قال أبو عبيدة : (﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ : أي هلاكاً ولزاماً لهم).

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : [مَنْ سَأَلَ الله الجَنَّة ثلاثَ مراتٍ قالت الجَنّة : اللهم أدْخِلْه الجَنَّة . ومَنْ استَجار من النار ثلاثَ مرات ، قالت النار : اللهم أجِرْه من النار][1].

وأجمل من ذلك وأروع ما رواه أبو يعلى في مسنده بسند صحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : [ما استجار عبدٌ من النار سبعَ مرّات في يوم إلا قالت النار : يا رَبِّ إنَّ عبدك فلاناً قد استجاركَ مني فأجِرْه ، ولا يسألُ اللهَ عبدٌ الجنة في يوم سبعَ مرات إلا قالت الجنة : يا ربِّ! إنَّ عبدكَ فلاناً سألني فأدخِلْهُ الجَنَّة][2].

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ .

المستقر : القرار. والمقام : مكان الإقامة. قال ابن جرير : (كأن معنى الكلام : ساءت جهنم منزلاً ومقاماً). وقال القرطبي : (أي بئس المستقر وبئس المقام. أي إنهم يقولون ذلك عن علم ، وإذا قالوه عن علم كانوا أعرف بعظم قدر ما يطلبون ، فيكون ذلك أقرب إلى النجح).

وقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ .

الإسراف : الإنفاق الذي يجاوز الحدّ اللائق والمباح. والإقتار : ما قصر عما أمر الله به من النفقة. والقوام : بين ذلك.

ويبدو أن الإسراف يكون في الحلال ، وأما إن كان في الحرام فهو التبذير كما قال

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2704) ـ أبواب صفة الجنة. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2079) ، ورواه النسائي والحاكم. انظر صحيح الجامع (6151).

(2) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (4/ 1472 ـ 1473) ، والضياء في «صفة الجنة» (3/ 89/ 1) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2506).

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: 27].

فالمعنى: ومن صفات عباد الرحمن أنهم إذا أنفقوا أموالهم لم يبالغوا في الإنفاق فوق الحاجة، ولم يبخلوا عن أهليهم فيما يجب عليهم في حقهم، وإنما هم أهل العدل والوسطية في إنفاقهم كما هو كذلك في كل شيء.

وقوله: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾. قال النسفي: (أي عدلاً بينهما، فالقوام العدل بين الشيئين).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: 29].

2 ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البقرة: 254].

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [إذا أنفقت المرأة من بيت زوجها غيرَ مُفْسِدَة، كان لهاأَجْرُها، ولهُ مِثْلُهُ بما اكتسب، ولها بما أنفقت، وللخازنِ مِثْلُ ذلك، من غير أن يُنْقَصَ من أجورهم شيئاً][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري والنسائي عن أبي مسعود البدري مرفوعاً: [إذا أنفق الرجل على أهله نفقة يحتسبها فهي له صدقة][2].

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح عن معاوية القشيري قال: قلت: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: [أَنْ تطعِمَها إذا طَعِمْتَ، وتكْسُوَها إذا اكتسيت، أو «اكتسبت»، ولا تضرب الوجه، ولاتقبّحْ ولا تَهْجُرْ إلا في البيت][3].

68 ـ 71. قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1024) ح(81) ـ كتاب الزكاة. وانظر كذلك ح(80).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1/ 20)، والنسائي (1/ 353)، والطيالسي (ص 86) رقم (615)، وفي رواية للبخاري (6/ 189): «المسلم» بدل «الرجل».

(3) حديث حسن صحيح. أخرجه أبو داود (2142) ـ كتاب النكاح، باب في حق المرأة على زوجها. انظر صحيح سنن أبي داود (1875)، (1876)، (1877).

ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾.

في هذه الآيات: متابعةُ الثناء من الله تعالى على عباده المؤمنين، فهم يفردونه بالألوهية ولا يقتلون النفس التي حرّم ولا يزنون فإن من يفعل ذلك يصبح من الآثمين، ويضاعف له العذاب المهين، إلا من تاب وآمن وبادر بالعمل الصالح فإنه يلقى عفو الغفور الرحيم.

أخرج البخاري ومسلم وأحمد والنسائي عن عبد الله رضي الله عنه قال: [سألْتُ ـ أو سُئِلَ ـ رسولُ الله ﷺ: أيُّ الذنب عند الله أكْبَرُ؟ قال: أن تَجْعَلَ لله نِدّاً وهو خلقَكَ. قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَمَ معك. قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: أن تُزاني بحليلة جارِك. قال: ونزلت هذه الآية تَصْديقاً لقول رسول الله ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ﴾][1].

وفي الصحيحين أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما: [أنّ أناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أنّ لما عملنا كفارة، فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ﴾. ونزل: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: 53]][2].

فربط سبحانه في هذه الآية الكريمة بين الشرك والقتل والزنا، فإن الشرك بالله يتبعه كل كبيرة، فليس يحول بين المشرك والكبائر خوف من الله شأن المؤمنين، وكذلك

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4761) ـ كتاب التفسير، و(4762) كذلك نحوه، وأخرجه مسلم (3023) ح(20)، وأخرجه النسائي في «التفسير» (388)، وأخرجه أحمد في المسند (1/ 380)، (1/ 431 ـ 434)، (1/ 462).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4810) ـ كتاب التفسير، سورة الزمر، آية (53). ورواه مسلم. ورواه ابن جرير في «التفسير» (26504).

انتشار القتل وهو الهرج غالباً ما يتبعه استباحة الأعراض وركوب الفواحش ، نعوذ بالله من حال المجرمين والمستكبرين والمشركين.

وقوله: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾. أي يلق من الله تعالى جزاء إثمه عقوبة ونكالاً. والأثام: العقاب.

وقوله تعالى: ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾.

قال النسفي: (أي يعذب على مرور الأيام في الآخرة عذاباً على عذاب. وقيل إذا ارتكب المشرك معاصي مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصي جميعاً ، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه. ويخلد ﴿ فِيهِۦ ﴾ في العذاب. ﴿ مُهَانًا ﴾ حال أي ذليلاً).

وقال القاسمي: (﴿ مُهَانًا ﴾ أي ذليلاً محتقراً جامعاً لعذابي الجسم والروح).

قلت: ولا شك أنّ هذا اللفظ ﴿ مُهَانًا ﴾ فيه مبالغة في الوعيد مما ينتظر المشركين يوم القيامة ، من الإهانة والاحتقار والمذلة والصَّغار.

أخرج الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [يحشرُ المتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذّرِ في صُوَرِ الرجال ، يغشاهم الذُّل من كل مكانٍ ، يُساقون إلى سجنٍ في جهنم يُسمى بُولُسَ ، تعلوهم نار الأنيار ، يُسْقَون من عصارة أهل النار ، طينة الخبال][1].

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

أي: إلا من راجع طاعة ربه بالتوبة والإنابة وتصحيح الإيمان وامتثال صالح العمل فأولئك تصير سيئاتهم حسنات والله غفور رحيم.

أخرج الشيخان عن سعيد بن جبير قال: [أمرني عبد الرحمن بن أبْزى قال: سَل ابن عباس عن هاتين الآيتين ما أمرهما؟! ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ ، ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾. فسألت ابن عباس فقال: لَمَّا نزلت التي في الفرقان قال مشركوا أهل مكة: قد قتلنا النفس التي حرّم الله ، ودعونا مع الله إلهاً آخر ، وقد آتينا الفواحش! فأنزل الله: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾. وأما التي في النساء الرجل إذا عرفَ الإسلام

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي في السنن (2492). انظر صحيح سنن الترمذي (2025) ، وأخرجه أحمد. انظر صحيح الجامع (7896).

وشرائعه ثم قتل فجزاؤه جهنم خالداً فيها. فذكرته لمجاهد فقال: إلا من ندم][1].

وله شاهد عند الطبراني بسند حسن عن زيد بن ثابت قال: [لما نزلت هذه الآية التي في «الفرقان»: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ عَجِبْنا لِلِيْنِها، فلبثنا ستة أشهر، ثم نزلت التي في «النساء»: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ حتى فرغ].

وعن سعيد بن المسيب: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ قال: (تصير سيئاتهم حسنات لهم يوم القيامة).

وعن ابن زيد قال: (﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ قال: تاب من الشرك، قال: وآمن بعقاب الله ورسوله ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، قال: صدق، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ قال: يبدل الله أعمالهم السيئة التي كانت في الشرك بالأعمال الصالحة حين دخلوا في الإيمان).

قلت: فصدق الإيمان بالله مع التوبة الصادقة يقابله الله تعالى بتبديل السيئات التي تِيب منها حسنات.

فقد أخرج الحاكم بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوامٌ لو أكْثروا من السيئات، قالوا: بِمَ يا رسول الله؟ قال: الذين بدل الله سيئاتهم حسنات][2].

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. أي: وكان الله ولم يزل ذا عفو عن ذنوب من تاب من عباده، واستقبل طاعته وتعظيم أمره، وذا رحمة به أن يعاقبه على ما سلف من الذنوب بعد صدق التوبة منها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾.

أي: ومن يترك المعاصي ويندم عليها ويدخل في العمل الصالح، فإنه بذلك تائب إلى الله متاباً مَرْضِيّاً عنده، مكفراً للخطايا، محصلاً للثواب. قرّره الزمخشري.

قلت: والآية تدل أن التماس العمل الصالح والمثابرة عليه يؤكد صحة التوبة ويرجى من جراء هذه المثابرة قبولها.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4765) ـ كتاب التفسير، وكذلك (3855) كتاب مناقب الأنصار، ورواه مسلم (3023) ح(19) (20) ـ كتاب التفسير. وانظر للشاهد «المعجم الكبير» للطبراني (4869/150/5)، وسنده حسن في المتابعات والشواهد، كما في السلسلة الصحيحة (2799).

(2) أخرجه الحاكم (252/4)، ورجاله ثقات. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2177).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 110].

2 ـ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٤ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 104 ـ 105].

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الله تعالى يَبْسُطُ يده بالليل ليتوب مسيءُ النهار، ويَبْسُطُ يده بالنهار ليتوب مسيءُ الليل حتى تطلع الشمس من مَغْربها][1].

الحديث الثاني: خَرَّج مسلم في الصحيح عن أنس قال: [جاء رجُلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أصَبْتُ حَدّاً فأقِمْهُ عليَّ، قال: وحَضَرت الصلاةُ فصَلّى مع رسول الله ﷺ، فلما قضى الصلاةَ قال: يا رسول الله! إني أصَبْتُ حَدّاً فأقِمْ فِيَّ كتاب الله، قال: هل حَضَرْتَ مَعَنا الصلاة؟ قال: نعم، قال: قَدْ غُفِرَ لك][2].

وفي رواية: [فقال له رسول الله ﷺ: أرأيت حينَ خرجْتَ مِنْ بَيْتِكَ، أليس قد تَوَضَّأْتَ فأحسنْتَ الوضوء؟ قال: بلى، يا رسول الله! قال: ثم شهدت الصلاةَ معنا؟ قال: نعم، يا رسول الله! قال: فقال له رسول الله ﷺ: فإنَّ الله قد غَفَرَ لك حَدَّك، أو قال: ذَنْبَكَ].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند صحيح عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: [للشهيد عند الله سِتُّ خصال: يُغْفَرُ له في أوَّلِ دُفْعَةٍ ويُرى مَقْعَدَه من الجنة..] الحديث[3].

وفي لفظ: [يُغفر له في أول دفعة من دمه، ويَرى مقعده من الجنة].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2759) ـ كتاب التوبة. باب قبول التوبة من الذنوب.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2764) ـ (2765) ـ كتاب التوبة، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: 114]. وانظر في الباب الحديث (2763).

(3) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (1358)، وصحيح الجامع (5058)، بلفظ: «للشهيد عند الله سبع خصال..»، وكذلك «أحكام الجنائز» (35 ـ 36).

فانظر إلى أثر المبادرة بالعمل الصالح كالاستغفار طرفي النهار وفي الليل ، والحرص على صلاة الجماعة في المسجد ، والجهاد في سبيل الله ، في تأكيد صحة التوبة ورجاء قبولها .

72 ـ 74. **قوله تعالى:** ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾.

في هـذه الآيـات: استمرارُ المدح والثناء من الله تعالى لعباده المؤمنين ، فهم لا يشهدون الزور ويبتعدون عن اللغو وإذا ذُكِّروا بآياته سبحانه أصغوا إليها منصتين ، وهم مثابرون في دعائهم يسألون ربهم أن يهب لهم من أزواجهم وذرياتهم قرة أعين وأن يجعلهم أئمة وأسوة للمتقين .

فقوله : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ .

قال الضحاك : (الشرك) . وقال مجاهد : (لا يسمعون الغناء) . وقال ابن جُريج : (﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ قال : الكذب) .

قلت : وفي لغة العرب : (الزُّور : الكذب) . والتزوير : تزيين الكذب . قال الرازي : (و«زَوَّرَ» الشيء «تزويراً» حَسَّنَهُ وقَوَّمه) . فوصف الله عباده المؤمنين بأنهم لا يحضرون مجالس الزور ، فيدخل فيها مجالس المجون والكذب والباطل ، وأشدّ ذلك ـ أو من أشدّه ـ شهادة الزور .

قال النسفي : (﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي الكذب ، يعني ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يقربونها تنزهاً عن مخالطة الشر وأهله ، إذ مشاهدة الباطل شركة فيه ، وكذلك النظارة إلى ما لم تسوغه الشريعة هم شركاء فاعليه في الآثام ، لأن حضورهم ونظرهم دليل الرضا وسبب وجود الزيادة فيه . قال: أو لا يشهدون شهادة الزور على حذف المضاف) .

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: 30].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: 36].

وفي السنة العطرة من آفاق مفهوم هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم والترمذي عن أبي بَكْرَةَ رضي الله عنه قال: [قال رسول الله ﷺ: ألا أُنَبِّئُكم بأكْبَرِ الكبائِرِ؟ ـ ثلاثاً ـ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراكُ بالله وعقوقُ الوالدين. وكان مُتَّكِئاً فَجَلَسَ فقال: «ألا وقَوْلُ الزُّور، وشهادَةُ الزُّور، ألا وقَوْلُ الزُّور، وشهادَةُ الزُّور»، فما زال يقولها حتى قُلْتُ: لا يَسْكُت][1].
وفي لفظ: [فما زال يُكَرِّرُها حتى قُلنا: لَيْتَهُ سكت].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: [مَنْ حَلَفَ على مال امرئٍ مسلم بغَيْرِ حَقِّه، لقيَ اللهَ وهو عليه غضبان. قال: ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مِصْداقَهُ من كتاب الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 77] إلى آخر الآية][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: [الكبائِرُ: الإشراك بالله، وعقوقُ الوالدين، وقَتْلُ النفس، واليمينُ الغموس][3].

الحديث الرابع: أخرج الترمذي بسند حسن من حديث جابر أن النبي ﷺ قال: [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يَجْلِس على مائدة يُدارُ عليها الخمر][4].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾.

أي: وإذا حصل لهم مرور بمجالس الفحش أو الباطل مروا معرضين مكرمين

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5976) ـ كتاب الأدب، باب: عقوق الوالدين من الكبائر، وانظر (5977)، ورواه مسلم (87)، ورواه الترمذي (1901).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (11/ 485)، ومسلم (138)، وأبو داود (3243)، والترمذي (1269) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (11/ 482)، وكذلك (11/ 483).

(4) حديث حسن. أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (2965) ـ باب ما جاء في دخول الحمام. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2246).

أنفسهم عن التلوث برجس تلك المجالس ، متنزهين عن التدنس بما فيها من اللغو والفساد. قال الحسن: (اللغو كله: المعاصي). وعن سَيّار: (إذا مَرّوا بالرفث كفّوا). وقال مجاهد: (إذا أوذوا مروا كراماً ، قال: صفحوا).

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾.

قال قتادة: (يقول: لم يَصُمّوا عن الحق ولم يَعْموا فيه ، فهم ـ والله ـ قوم عقلوا عن الحق ، وانتفعوا بما سمعوا من كتابه).

وقال الحسن البصري: (كم من رجل يقرؤها ويخرّ عليها أصمَّ أعمى).

وعن مجاهد: (﴿ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ فلا يسمعون ، ولا يبصرون ، ولا يفقهون حقاً). قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: والذين إذا ذكَّرهم مذكر بحجج الله ، لم يكونوا صُمّاً لا يسمعون ، وعمياً لا يبصرونها. ولكنهم يِقَاظُ القلوب ، فهماء العقول ، يفهمون عن الله ما يذكِّرهم به ، ويفهمون عنه ما ينبههم عليه ، فيوعون مواعظه آذاناً سمعته ، وقلوباً وعته).

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾.

هو من جوامع الدعاء الذي أوحاه الله في صفة رجاء عباده المؤمنين ، فهم يرغبون إلى ربهم عز وجل في دعائهم ومسألتهم أن يجعل في أزواجهم وذرياتهم ما تقرّ به أعينهم حين يرونهم يقومون بطاعة الله ويعملون بهديه. وفي آفاق ذلك تكلم المفسرون:

1 ـ قال ابن عباس: (قوله: ﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ يعنون: من يعمل لك بالطاعة ، فتقرّ بهم أعيننا في الدنيا والآخرة).

2 ـ وعن الحسن قال: (المؤمن يرى زوجته وولده يطيعون الله).

3 ـ وعن ابن جُريج قال: (قوله: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ قال: يعبدونك يحسنون عبادتك ، ولا يجرّون علينا الجرائر).

4 ـ وقال ابن زيد: (يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام).

أخرج الإمام أحمد في المسند ، بإسناد صحيح ، عن عبد الرحمن بن جُبَير بن نُفَير ، عن أبيه قال: [جَلسنا إلى المِقداد بن الأسود يوماً ، فَمَرَّ به رجل فقال: طُوبى

لهاتين العينين اللّتين رأتا رسولَ الله ﷺ! لَوَدِدْنَا أنا رأينا ما رأيتَ ، وشهدنا ما شهدت . فاستغضَبَ ، فجعلتُ أعجَبُ ، ما قال إلا خيراً! ثم أقبل إليه فقال: ما يحمل الرجلَ على أن يتمنى مَحْضَراً غيّبَهُ الله عنه ، لا يَدري لو شَهِدَه كيف كان يكونُ فيه؟ والله لقد حَضَرَ رسولَ الله ﷺ أقوامٌ أَكَبَّهُم الله على مَنَاخِرِهم في جَهَنَّم ، لم يجيبوه ولم يُصَدِّقوه ، أولا تحمَدون الله إذا أخرَجَكُم لا تعرفون إلا ربَّكم مُصَدِّقين لما جاء به نَبِيُّكُم ، قد كُفيتم البلاء بغيركم؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشدِّ حالٍ بعثَ عليها نَبيّاً من الأنبياء في فترةٍ من جاهلية ، ما يَرونَ أنَّ ديناً أفضلَ من عبادةِ الأوثان. فجاء بِفُرقانٍ فَرَقَ به بين الحق والباطل ، وفَرَقَ بين الوالدِ ووَلده ، إن كان الرجل ليرى والده وولدَهُ ، أو أخاه كافراً ، وقد فتح الله قُفْلَ قلبِهِ للإيمان ، يعلَمُ أنه إن هلكَ دَخَلَ النار ، فلا تَقَرُّ عينُه وهو يعلم أن حبيبَه في النار ، وإنَّها التي قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾][1] .

وأما قوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ـ فيه أقوال متكاملة:

1 ـ قال ابن عباس: (يقول: أئمة يُقتدى بنا). قال إبراهيم النخعي: (لم يطلبوا الرياسة بل بأن يكونوا قدوة في الدين).

2 ـ وقال مجاهد: (أئمة نقتدي بمن قبلنا ، ونكون أئمة لمن بعدنا).

3 ـ وقال آخرون: (﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾: هداة مَهْدِيِّين ودعاةً إلى الخير).

4 ـ وقال مكحول: (اجعلنا أئمة في التقوى يقتدي بنا المتقون).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 124].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (6/ 3) بإسناد صحيح. وأورده الحافظ ابن كثير في التفسير عند هذه الآية ، وقال: وهذا إسناد صحيح ، ولم يُخرجوه ، وهو كما قال.

وفي الموطأ: «إنكم أيها الرهط أئمة يقتدى بكم» ـ فكان ابن عمر يقول في دعائه: [اللهم اجعلنا من أئمة المتقين][1].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق هذه الآية:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن ابن عمر قال: [لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات. حين يمسي وحين يصبح:

«اللهم! إني أسألك العَفْوَ والعافية في الدنيا والآخرة. اللهم! أسألك العَفْوَ والعافيةَ في ديني ودنْيايَ، وأهلي ومالي. اللهمَّ! اسْتُر عوراتي، وآمِنْ رَوْعَاتي واحفظني مِنْ بَيْنِ يَديَّ، ومِنْ خَلفي، وعن يميني وعَنْ شِمالي، ومِنْ فَوْقي. وأعوذ بكَ أنْ أُغْتالَ من تحتي»][2]. قال وكيع: (يعني الخسف).

الحديث الثاني: أخرج البزار والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس رفعه إلى النبي ﷺ قال: [إن الله لَيَرْفَعُ ذُرِّيةَ المؤمن إليه في درجته، وإنْ كانوا دونَهُ في العمل، لِتَقَرَّ بهم عَيْنُهُ، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ [الطور: 21] الآية، ثم قال: وما نَقَصْنا الآباء بما أعْطَيْنا البنين][3].

الحديث الثالث: خرّج مسلم في صحيحه في كتاب الوصية ـ باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ـ عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [إذا مات الإنسانُ انقطعَ عنه عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلاثةٍ: إلا مِنْ صَدَقة جاريةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدْعو له][4].

75 ـ 77. قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ

(1) ذكره مالك في «الموطأ» (1/ 219) عن ابن عمر بلاغاً.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (3871) ـ كتاب الدعاء. باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3121).

(3) حديث صحيح. أخرجه البزار ص (221)، وابن عدي (ق 270/ 1)، والبغوي في التفسير (8/ 82)، والحاكم (2/ 468) من طرق، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2490).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1631) ـ كتاب الوصية، ورواه أكثر أهل السنن.

رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالى عن جزيل الثواب وحسن الاستقبال لأولئك العباد المتقين في جنات النعيم، التي حسنت مستقراً ومنزلاً للصالحين، وجزاء التكذيب الخزي والمذلة للمكذبين في الدارين.

فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ خبر للمبتدأ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ في بداية الآيات، وما تخلل بين المبتدأ وخبره أوصافهم من التحلي والتخلي، وهي إحدى عشرة ـ كما ذكر القرطبي ـ: (التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والنزاهة عن الشرك، والزنى والقتل، والتوبة وتجنب الكذب، والعفو عن المسيء، وقبول المواعظ، والابتهال إلى الله).

وقوله: ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: يثابون على أفعالهم هذه التي فعلوها في الدنيا ﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾ وهي منزلة من منازل الجنة رفيعة).

وقال القرطبي: (و«الغُرْفة» الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا. حكاه ابن شجرة). وعن الضحاك: (الغرفة: الجنة). وقال السدي: (سُمِّيت بذلك لارتفاعها).

وقوله: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾. قال محمد بن علي بن الحسين: (﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ على الفقر والفاقة في الدنيا). وقال الضحاك: (﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ عن الشهوات).

قلت: والمقصود أعم من ذلك، فإنهم أثيبوا على صبرهم على إقامة الدين ومقارعة الطغاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقوله: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾. أي يستقبلون في الجنة بالتحية والسلام في توقير مستمر. قال ابن كثير: (أي يُبْتَدَرُون فيها بالتحية والإكرام، وَيُلَقَّون التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلامُ).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: 23 ـ 24].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: 73].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: 55 ـ 58].

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [ينادي مُنادٍ: إنَّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَموا أبداً، وإنَّ لكم أن تَحْيَوا فلا تموتوا أبداً، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تهرموا أبداً، وإنَّ لكم أن تَنْعَموا فلا تبأسوا أبداً. فذلك قوله عزّ وجل: ﴿ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾][1].

وقوله تعالى: ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾.

أي: ماكثون فيها طابت منزلاً ومقاماً وحسنت مقيلاً ونعيماً.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [مَنْ يَدْخُل الجنة يَنْعَمُ لا يَبْأَسُ، لا تَبْلى ثيابُه ولا يفنى شبابُه][2].

وفي صحيح مسلم عنه أيضاً أنَّ النبي ﷺ قال: [قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ على قلب بشر، ذُخْراً، بَلْهَ ما أطلعكم الله عليه][3].

وقوله: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى ﴾. أي: لا يبالي بكم ولا يكترث بكم إن اخترتم غيرمنهاج عبادته وتعظيمه. قال ابن زيد: (﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى ﴾ يصنع لولا دعاؤكم). وقال مجاهد: (يعبأ: يفعل).

وقوله: ﴿ لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾. أي: لولا طاعتكم وإيمانكم وعبادتكم.

قال ابن عباس: (يقول: لولا إيمانكم، وأخبر الله الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كان له بهم حاجة لحبَّبَ إليهم الإيمان كما حَبَّبَهُ إلى المؤمنين). وقال مجاهد: (﴿ لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾: لولا دعاؤكم إياه لتعبدوه وتطيعوه).

وقوله: ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾. قال ابن عباس: (فقد كذب الكافرون أعداء الله).

وقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴾. أي: حلول العذاب في الدنيا والنكال يوم القيامة.

---

(1) حديث صحيح. رواه مسلم (2837) ـ كتاب الجنة ونعيمها، باب في دوام نعيم أهل الجنة.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2836) ـ كتاب الجنة ونعيمها. الباب السابق.
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2824) ح (3) ـ كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها.

قال ابن مسعود: (فسوف يلقون لزاماً يوم بدر). وقال أبي بن كعب: (هو القتل يوم بدر). وقال ابن زيد: (اللزام: القتال. فسوف يكون قتالاً). وعن ابن عباس: (قال: موتاً). وقال الحسن البصري: (﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾، يعني: يوم القيامة).

قُلْتُ: ولا تعارض بين القولين، فإن المقصود أن تكذيب الكافرين ستلزمهم تبعاته، سواء في الإهانة والمذلة بالقتل والسبي في الدنيا، أو بالفضيحة والخزي وعذاب الحريق يوم القيامة.

ويجمع هذه المعاني كلها ما رواه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: [يا عبادي إني حَرّمتُ الظلم على نفسي وجعلته بينكم مُحَرّماً فلا تظالموا، يا عبادي كُلّكُم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أَكْسُكُمْ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضرّي فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيطُ إذا أُدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم، أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه][1].

تمّ تفسير سورة الفرقان بعون الله وتوفيقه،
وواسع منّه وكرمه.

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 17)، وأخرجه أحمد في المسند (5/ 160).

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ مقام العبودية أرفع مقام ، وقد أثنى الله به على نبينا عليه الصلاة والسلام.

2 ـ تَـنَـزُّه الله تعالى عن الشريك والولد ، فله ملك كل شيء وهو الواحد الأحد.

3 ـ اقتضاء حكمة الله جعل الجهاد في الدنيا لإعلاء كلمة الحق لا لسكنى القصور والنظر في الأموال ، وأن يكون هذا القرآن بما بسط الله فيه من الآيات البديعة مصدر الإيمان والاستدلال ، وقد هيأ الله في الدار الآخرة من النعيم لأوليائه ما يعجز عنه الوصف والخيال.

4 ـ البور: الذي ليس فيه من الخير شيء. والمشركون هم الهالكون.

5 ـ الله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك ، ومن يشرك بالله يترك وشركه.

6 ـ الحِجْر في كلام العرب: الحرام. والمشركون يقولون يوم يرون الملائكة: حِجْراً مَحْجُوراً. أي حراماً محرماً أن ينعموا بالبشرى.

7 ـ الخيمةُ في الجنة درّة طولها ستون ميلاً ، في كل زاوية أهل للمؤمن لا يراهم الآخرون ، يطوف عليهم المؤمن.

8 ـ النصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، وإنَّ مع العسر يُسراً.

9 ـ يُحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ، فالذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة.

10 ـ الكافر إذا عمل حسنةً أُطعم بها طُعمَةً من الدنيا ، والمؤمن يدخر الله له حسناته في الآخرة، ويُعقبه رِزقاً في الدنيا على طاعته.

11 ـ ما من عام بأكثر مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه بين خلقه حيث يشاء. فإذا عمل الناس بالمعاصي صرف الله المياه إلى الفيافي والبحار.

12 ـ البحر: هو الطهور ماؤه، الحِلّ ميتته.

13 ـ أحبّ الكلام إلى الله تعالى: سبحان الله وبحمده. وأحب الأسماء إليه: عبد الله، وعبد الرحمان.

14 ـ في الجنة غرفة يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وهي لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وباتَ قائماً والناس نيام.

15 ـ أكبر الذنوب: الشرك بالله، وقتل الرجل ولده خشية إطعامه، والزنى بحليلة جاره.

16 ـ ليتمنين أقوام لو أكثروا من السيئات: الذين بدّل الله سيئاتهم حسنات.

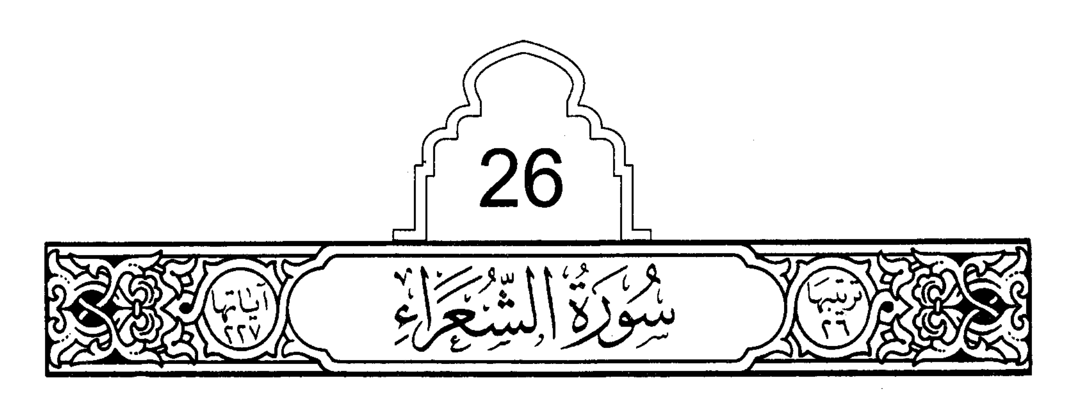
17 ـ يبسط الله يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبْسُطُ يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها.

18 ـ من حلفَ على مال امرئ مسلم بغير حَقِّه، لقي الله وهو عليه غضبان.

19 ـ إن الله ليرفع ذرية المؤمن إليه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقرَّ بهم عينه.

20 ـ مَنْ يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه، فجزاء التقوى جنات النعيم، وجزاء التكذيب بالحق الخزي في الدارين.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (227)

موضوع السورة

هلاك المكذبين من الأمم والشعراء .

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ انتصار الله تعالىٰ للقرآن ، وتسلية للنبي عليه الصلاة والسلام .

2 ـ تكذيب المشركين بالحق ، وسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ، فهلاّ نظروا كيف ينبت الله من كل زوج كريم ، إن في ذلك لآية من الله العزيز الرحيم .

3 ـ ذكر مناداة الله موسىٰ وتكليمه ، ومدّه بأخيه هارون ليعينه ، وحواره مع فرعون وتكذيبه ، وجمعه السحرة لتثبيت سلطانه ، وإيمان السحرة وكفرهم به ، وشروع فرعون بالتهديد والبطش والتوعد للسحرة الذي قابلوه بإيمان كالجبال ، ووصف نهاية فرعون وجنوده وغرقهم ونجاة موسىٰ والمؤمنين بأمر الله الكبير المتعال .

4 ـ ثناء الله على خليله إبراهيم ، في براءته من أوثان المشركين ، وخضوعه الكامل لله ربّ العالمين ، وسؤاله النجاة يوم الدين .

5 ـ دُنُوُّ الجنة يوم القيامة للمتقين ، وتكدس المشركين في نار جهنم صاغرين .

6 ـ تكذيب قوم نوح المرسلين ، وحثهم له على طرد المؤمنين ، واستمرارهم بالعناد والكفر حتىٰ دكّهم الطوفان فأغرقهم أجمعين .

7 ـ تكذيب عاد رسولهم وإصرارهم على الشرك والكبر ، حتىٰ جاء أمر هلاكهم من الله العزيز الحكيم ، وقد كان سبق في علمه أن أكثرهم لا يؤمنون .

8 ـ تكذيب ثمود نبيهم وعقرهم الناقة وقصة إهلاكهم .

9 ـ تكذيب قوم لوط رسولهم ، وإصرارهم على الفاحشة حتىٰ قلب الله عليهم مدينتهم ، وأمطر عليهم حجارة فأهلكهم .

10 ـ تكذيب أهل مدين نبيّهم ، والعبث بحقوق الناس وكيلهم ، حتىٰ جاء أمر الله بنزول نقمته بهم .

11 ـ نزول جبريل بهذا القرآن بلسان عربي مبين ، وخبر القرآن في كتب الأولين .

12 ـ سؤال المشركين حين نزول العذاب بهم النظرة والإمهال ، وسنة الله في أهل القرىٰ أن لا يهلكهم حتىٰ يأتيهم الإنذار .

13 ـ حفظ الله القرآن عن أيدي الشياطين وسمعهم برمي الشُّهب عليهم .

14 ـ الأمر بالبدء بإنذار العشيرة والأقربين ، وخفض الجناح للمؤمنين .

15 ـ تنزّلُ الشياطين على الأفاكين الآثمين ، وذمّ الشعراء الضالين المنافقين ، واستثناء المؤمنين الصالحين الذين ينتصرون للحق ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

❑ ❑ ❑

بسم الله الرحمن الرحيم

1 ـ 9. قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾.

في هذه الآيات: انتصارٌ لهذا القرآن وتسلية للنبي الكريم، وذكر حكمة الله تعالىٰ في اختيار العباد أحد الطريقين، فالمشركون معرضون مكذبون وسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون. فهلاّ نظروا إلى الأرض كيف ينبت الله فيها من كل زوج كريم؟! إن في ذلك لآية من الله العزيز الرحيم، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون.

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾.

تقدم القول في مفهوم الحروف المقطعة في أوائل السور، وأن غاية ما يقال: إن هذا القرآن هو من جنس هذه الأحرف، وهذه السورة الجامعة لتاريخ الأمم مع رسلها ومفهوم الخلق من مبدئه إلى منتهاه قد صيغت في بيان رائع من مثل هذه الحروف التي يتكلم العرب ويتخاطبون بها، ومع ذلك هم عاجزون عن معارضة هذا القرآن بمثله أو بسورة نحوه، أضف إلى ذلك ذكر الانتصار لهذا الكتاب المعجز بعد ذكر هذه الأحرف.

قال ابن القيم رحمه الله في «الكافية الشافية»:

وانظر إلى السور التي افتتحت بأحْرفها ... ترى سراً عظيم الشان
لم يأت قط بسورة إلا أتىٰ ... في إثرها خبر عن القرآن
إذ كان إخباراً به عنها وفي ... هذا الشفاء لطالب الإيمان

ويـــدل أن كـــلامـــه هـــو نفسهـــا لا غيـــرهـــا ، والحـــق ذو تبيـــان
فـانظـر إلـى مبـدا الكتـاب وبعـدهـا الـ أعـــراف ثـــم كـــذا إلـــى لقمـــان
مـع تلـوهـا أيضـاً ومـع حـمّ مـع يـــسّ وافهـــم مقتضـــىٰ الفـــرقـــان

وقوله تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ .

أي : هذه آيات هذا القرآن البيّن الجلي ، الفرقان الذي يفرق بين الحق والباطل .

وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

أي : لعلك ـ يا محمد ـ مهلك نفسك إن أصر قومك على كفرهم .

والبَخْعُ في كلام العرب : القتل والإهلاك . قال الرازي : (بَخَعَ نفسه قتلها غَمّاً) .

وعن ابن عباس : (﴿ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ : قاتل نفسك) . قال قتادة : (لعلك من الحرص على إيمانهم مخرج نفسك من جسدك ، قال : ذلك البخع) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ .

أي : إن نشأ أن ننزل عليهم آية تحملهم على الإيمان قهراً ، وتضطرهم إلى الإذعان للحق جبراً ، لفعلنا ذلك ، ولكن لا نريد لأحد أن يؤمن إلا باختياره ، فمضت حكمة الله بإرسال الرسل وإنزال الكتب .

قال ابن جريج : (لو شاء الله لأراهم أمراً من أمره لا يعمَل أحد منهم بعده بمعصية) .

وعن ابن عباس : (قوله : ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ قال : ملقين أعناقهم) .

وعن مجاهد : (فظلوا خاضعة أعناقهم لها) . وقال ابن زيد : (الخاضع : الذليل) .

وخلاصة المعنىٰ كما قال قتادة : (لو شاء الله لنزّل عليه آية يذلون بها ، فلا يَـلْوي أحد عنقه إلى معصية الله) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : 99] .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ [هود : 118 ـ 119] .

يروي أبو نعيم في «الحلية» بسند حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [إنَّ الله لو شاء أن لا يُعصىٰ ما خلق إبليس][1] .

ورواه البيهقي في «الأسماء» من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال النبي ﷺ لأبي بكر : [يا أبا بكر! لو أراد اللهُ أن لا يُعصىٰ ما خلق إبليس] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول تعالىٰ ذكره : وما يجيء هؤلاء المشركين الذين يكذبونك ويجحدون ما أتيتهم به يا محمد من عند ربك من تذكير وتنبيه على مواضع حجج الله عليهم على صدقك ، وحقيقة ما تدعوهم إليه مما يحدثه الله إليك ويوحيه إليك ، لتذكرهم به ، إلا أعرضوا عن استماعه ، وتركوا إعمال الفكر فيه وتدبيره) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ .

وعيد وإنذار ، وتهديد بالهلاك والدمار ، لأولئك المتمادين في تكذيبك يا محمد .

قال النسفي : (﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا ﴾ محمداً ﷺ فيما أتاهم به ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ ﴾ فسيعلمون ﴿ أَنبَاءُ﴾ أخبار ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهذا وعيد لهم وإنذار بأنهم سيعلمون إذا مسهم عذاب الله يوم بدر أو يوم القيامة ما الشيء الذي كانوا يستهزئون به وهو القرآن ، وسيأتيهم أنباؤه وأحواله التي كانت خافية عليهم) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ .

تذكير بعظمته تعالىٰ ، وتنبيه إلى بعض آلائه جل ذكره .

أي : أولم ير هؤلاء المشركون المكذبون بالبعث من القبور ، والنشر إلى الأرض يوم النشور ، كم أنبتنا فيها بعد أن كانت ميتة لا نبات فيها ، من كل زوج كريم : أي حسن بهي من الزروع والثمار .

قال مجاهد : (﴿أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ قال : من نبات الأرض ، مما تأكل الناس والأنعام) .

---

(1) حديث حسن . أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (6/ 92) ، والبيهقي في «الأسماء» (157) ، واللالكائي في «السنة» (1/ 141/ 1) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1642) .

وعن قتادة: (﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ قال: حسن).

قال الشعبي: (الناس من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: إن فيما ذكر من الإنبات في الأرض لدلالة على قدرة الله تعالىٰ الذي لا يعجزه شيء، ولكن أكثر الناس في غفلة وبُعد عن الإيمان والصدق واليقين.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

قال القرطبي: (يريد المنيع المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه).

10 ـ 22. قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾.

في هذه الآيات: ذِكْرُ الله نداءه عبده ورسوله وكليمه موسىٰ عليه الصلاة والسلام حين ناداه وناجاه من جانب الطور الأيمن وأرسله إلى القوم الظالمين ـ أي الكافرين ـ قوم فرعون الطاغية يحذرهم بأس الله وعقابه كي يتقوه. فرغب موسىٰ ﷺ إلى ربه تعالىٰ بإزاحة أعذار يجدها: من خوف تكذيبه، وضيق صدره، وعدم انطلاق لسانه ـ للعلة القديمة التي كانت به ـ، فرجا ربه أن يؤازره بأخيه هارون. ثم إن ذنب القتل الذي عليه يجعله يخشىٰ ثأر القوم وبطشهم به، فأيده ربه ليبلغ رسالته هو وهارون، إلى فرعون الذي أخذ يمتن عليه برعايته أيام طفولته ويأخذ عليه ذنب القتل والفرار، فقابله موسىٰ بإساءته الأكبر من ذلك، وهي جعله بني إسرائيل عبيداً له وخدماً، يقهرهم ويظلمهم.

والآيات الأولىٰ من هذه الفقرة تشبه قوله تعالىٰ في سورة طه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ [طه: 25 ـ 36].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾. قال مجاهد: (قتل النفس التي قتل منهم). وعن قتادة: (﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ يقول: فأخاف أن يقتلوني قوداً بالنفس التي قتلت منهم). والمقصود: قتله ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾.

أي: كلا لا تخف بطش القوم، فاذهب أنت وهارون، إنني معكما بحفظي وكلاءتي ونصري وتأييدي. وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [القصص: 35].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: 46].

قلت: فجاءت صفة السمع والبصر لتفسر المعية. أي إنه سبحانه بذاته فوق عرشه معهما بسمعه وبصره. كما في الآية الأخرىٰ: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: 7]. قال الإمام البغوي الشافعي(1): (أي: إلا هو رابعهم بالعلم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

قال ابن كثير: (وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: 47]، أي: كلٌّ منا رسولٌ من ربك إليك، ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي: أطلقهم من إسارِكَ وقبضتك وقهرك وتعذيبك، فإنهم عباد الله المؤمنون، وحِزْبُه المخلصون، وهم معك في العذاب المهين. فلما قال له موسىٰ ذلك أعرض فرعونُ عما هُنالك بالكلية، ونظر بعين الازدراء والغَمْص فقال: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾).

---

(1) هو الإمام محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي الشافعي صاحب «معالم التنزيل» (436 ـ 516 هـ). قال الذهبي: (كان محيي السنة من كبار أئمة المذهب، زاهداً، ورعاً، متعبداً، ألف كتاب «التهذيب» في المذهب فأتقنه، وصنف كتاب «شرح السنة»). انظر مختصر العلو (281).

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾. قال القرطبي: (على جهة المنّ عليه والاحتقار. أي: ربيناك صغيراً ولم نقتلك في جملة من قتلنا).

وقال النسفي: (والوليد الصبي لقرب عهده من الولادة، أي: ألم تكن صغيراً فربيناك).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾. أي: مكثت فينا تحت نعمتنا لك مدة من السنين، فمتى كان هذا الذي تدعيه؟!.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾. أي: الجاحدين.

قال ابن زيد: (قال: ربيناك فينا وليداً، فهذا الذي كافأتنا أن قتلت منا نفساً، وكفرت نعمتنا). وعن ابن عباس: (﴿ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ يقول: كافراً للنعمة أن فرعون لم يكن يعلم ما الكفر).

فالمعنىٰ: يقول فرعون: أفبعد أن أنعمنا عليك بالرعاية والتربية والإطعام مدة من السنين في بيتنا، قابلت تلك النعمة أن قتلت منا رجلاً، وجحدت إحساننا إليك.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾. قال مجاهد: (من الجاهلين). أي: أقدمت على ذلك القتل قبل أن يوحىٰ إليّ ويكرمني الله تعالىٰ بالرسالة والنبوة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾.

قال القاسمي: (أي تقتلوني على القتل الخطأ، فنجاني الله منكم، وزادني إنعاماً ﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا ﴾ أي حكمة أو نبوة ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي: لإبطال دعواك الربوبية، واستئصال شُبَه ما عليه قومك من الوثنية. وطلب إرسال قومي إلى مواطنهم الأصلية).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾.

قال مجاهد: (قهرتهم واستعملتهم). وقال قتادة: (يقول موسىٰ لفرعون: أتمنّ علي أن اتخذت أنت بني إسرائيل عبيداً). قال ابن كثير: (أي: وما أحسنتَ إليَّ وربَّيْتَني مُقابل ما أسأتَ إلى بني إسرائيل! فجعلتهم عبيداً وخدماً، تُصرِّفُهم في أعمالك ومشاقِّ رَعيَّتِك، أَفَيفي إحسانُكَ إلى رجلٍ واحدٍ منهم بما أسأتَ إلى مجموعهم؟!. أي: ليس ما ذكرتَه شيئاً بالنسبة إلى ما فعلتَ بهم).

23 ـ 28. **قوله تعالىٰ**: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (28)﴾.

في هذه الآيات: إخبارٌ من الله تعالىٰ عن عتو فرعون وطغيانه ، وعن تمرّده وجحوده وعناده ، فهو يريد إثبات الربوبية لنفسه ، وموسىٰ عليه السلام يحاجّه بقوارع الوحي ولوازم الربوبية التي لا تكون إلا لله رب السماوات والأرض والمشرق والمغرب ، ورب كل شيء ومليكه.

فقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. فيه تطاول ومماداة من فرعون اللعين ، لأنه صَدَّقَ كَذِبَه حين قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38]. ولأنه استجهل قومه واستصغر عقولهم كما قال تعالىٰ: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: 54].

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

قال ابن جرير: (﴿قَالَ﴾ موسىٰ هو ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومالكهن ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يقول: ومالك ما بين السماوات والأرض من شيء ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ يقول: إن كنتم موقنين أن ما تعاينونه كما تعاينونه ، فكذلك فأيقنوا أن ربنا هو رب السماوات والأرض وما بينهما).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾.

محاولة من فرعون لكسب تأييد الجماهير له عن طريق الاستخفاف بقيل موسىٰ له. قال القرطبي: (فقال فرعون: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ على معنىٰ الإغراء والتعجب من سفه المقالة إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم والفراعنة قبله كذلك).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

أي: قال لهم موسىٰ ـ حين أرادوا إظهار التعجب ـ بل هو الله تعالىٰ ربكم ورب

آبائكم وأجدادكم. فجاء بدليل يفهمونه عنه ، ففناء الآباء والأجداد بانتظام واستمرار لابد لتلك الحوادث من مُغَيِّر ، ولا يُعقل أنها تجري جزافاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ .

هو محاولة جديدة من فرعون لصرف قوة تأثير موسىٰ على قومه عن طريق الاستخفاف والاتهام بالجنون ، شأن المفلسين من الحجة على مدار الزمان.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

قال النسفي: (﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فتستدلون بما أقول فتعرفون ربكم ، وهذا غاية الإرشاد ، حيث عَمَّمَ أولاً بخلق السماوات والأرض وما بينهما ، ثم خَصَّصَ من العام للبيان أنفسهم وآباءهم ، لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد من أحواله من وقت ميلاده إلى وقت وفاته ، ثم خَصَّصَ المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السنة ، وحساب مستو من أظهر ما استدل به).

والمقصود: أن موسىٰ عليه الصلاة والسلام أراد تصغير فرعون وكبرياءه أمام قومه بحجة الوحي البالغة ، فكأنه يقول له: إنك إن كنت تملك بلداً واحداً وقوماً تتحكم بحياتهم وشؤونهم فلست بشيء أمام مالك ما بين المشرق والمغرب وما بين السماوات والأرض فاعقلوا معشر السامعين.

29 ـ 37. قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: تهديدُ فرعون لموسىٰ إن صرف الإلـٰهية لغيره ، ومقابلة موسىٰ له بالآيات الباهرات ، والدلالات المعجزات ، واتهامُ فرعون له بالسحر وجمعه السحرة للانتصار لسلطانه وطغيانه.

فقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾.

لجوء من فرعون لبسط نفوذه وسلطانه لاحتواء الموقف قبل أن يتدهور ويُكشف الكذب. فقال لموسىٰ: لئن أقررت بمعبود غيري لأسجننك مع من في السجن من أهله.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾.

قال ابن جرير: (ـ يقول ـ أتجعلني من المسجونين ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾ يبين لك صدق ما أقول يا فرعون وحقيقة ما أدعوك إليه. وإنما قال ذلك له، لأن من أخلاق الناس السكون للإنصاف، والإجابة إلى الحق بعد البيان).

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: مبين له خلق حية).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾. أي: وأخرج موسىٰ يده من جيبه فإذا هي بيضاء تلمع لمن ينظر إليها. قال النسفي: (فيه دليل على أن بياضها كان شيئاً يجتمع النظارة على النظر إليه لخروجه عن العادة، وكان بياضها نورياً).

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾.

قال ابن كثير: (أي: فاضِلٌ بارعٌ في السِّحْر. فَرَوّجَ عليهم فرعونُ أن هذا من قبيل السِّحر لا من قبيل المعجزة، ثم هَيَّجَهُمْ وحَرَّضَهم على مخالفته والكفْر به. فقال: ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾، أي: أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا، فيكثر أعوانُه وأنصارُه وأتباعُه ويغلبكم على دولتكم، فيأخذَ البلاد منكم، فأشيروا عليَّ فيه ماذا أصنعُ به؟).

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾.

أي: فأجابوه قائلين: أخِّره وأخاه حتىٰ تحشد له عمالقة السِّحر في أرجاء مملكتك ليقارعوا سحره بخبرتهم العالية في هذا الفن، فتكون الغلبة لك في النهاية بعد اندحار أمره وانحسار سحره.

38 ـ 48. قولـه تعـالىٰ: ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ

هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

في هذه الآيات: مجيءُ السحرة للميقات المعلوم، وتقريب فرعون لهم، واجتماع الناس لرؤية من تكون له الغلبة، وابتداء السحرة المشهد بِسحر حبالهم وعصيهم، وإلقاء موسىٰ عصاه لتلقف ما يأفكون، وليخر السحرة ساجدين، معلنين الإيمان بالله رب العالمين، رب موسىٰ وهارون.

فقوله تعالىٰ: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

قال النسفي: (أي: يوم الزينة وميقاته وقت الضحىٰ، لأنه الوقت الذي وقته لهم موسىٰ عليه السلام من يوم الزينة في قوله تعالىٰ: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: 59]).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾.

قال القاسمي: (أي: لرؤية ما يعارض معجزة موسىٰ. وكان خَامَرَ فؤادهم عجب منها واندهاش. والاستفهام مجاز عن الحث والاستعجال).

وقوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾.

قال ابن كثير: (وحُشِد الناسُ في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾، ولم يقولوا: نَتَّبع الحق سواءٌ كان من السَّحَرة أو من موسىٰ، بل الرعية على دين ملكهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

أي: فلما جاء السحرة للمكان المخصص لهم وقد حشد فرعون حشمه وخدَمه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته، كلّم السحرة فرعون قبل الشروع في مهمتهم يذكّرونه بما يأملون من الإحسان منه إليهم والرفع لمنزلتهم عنده إذا هم أفلحوا في

وظيفتهم وربحوا الجولة على موسىٰ. فأجابهم: نعم وبكل تأكيد إنكم ستكونون من أخص المقربين، ومن أقرب الجلساء والمعنيّين.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾.

أي: لما اطمأنوا من فرعون على ما يطمحون لديه من المنزلة بعد النصر، عادوا إلى مقام المناظرة. وفي الكلام اختصار يفسره قوله تعالىٰ: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ﴾ [طه: 65 ـ 66].

فألقوا حبالهم وعصيهم التي تشكل أدوات سحرهم وأقسموا بعزة فرعون ليكونن من يكسب هذه المنافسة والمناظرة. قال النسفي: (أقسموا بعزته وقوته وهو من أيمان الجاهلية). قال ابن كثير: (وهذا كما يقول الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئاً: هذا بثواب فلان).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾.

فيه اختصار لتفصيل أكبر ورد في سورة الأعراف وطه.

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: 116].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: 66 ـ 69].

3 ـ وقال هاهنا: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾. قال ابن جرير: (يقول: فإذا عصا موسىٰ تزدرد ما يأتون به من الفرية والسحر الذي لا حقيقة له، وإنما هو مخاييل وخدعة).

والمقصود: أن عصا موسىٰ تحولت بإذن الله إلى حَيَّة تخطف وتبتلع كل أدوات مكر السحرة ضمن مشهد رهيب.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾.

قال عكرمة: (أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء).

فنصر الله الحق في يوم مشهود، وكان نصراً كبيراً مؤزراً خُذِلَ فيه فرعون بغطرسته أيما خذلان، إذ استنصر بالسحرة ومهّد لهم من الوعود والآمال الكبيرة، فإذا بهم

يؤمنون ويخذلونه ويخرون لله ساجدين ، قائلين آمنا برب العالمين ، رب موسىٰ وهارون ، كافرين بربوبية فرعون الكاذبة ومكر أتباعه وجنده المجرمين.

49 ـ 51. **قوله تعالىٰ:** ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

في هذه الآيات: شروعُ فِرعون باللجوء إلى التهديد والبطش والتوعد للسحرة الذين قابلوه بإيمان كالجبال ، مستخفين ببأسه طامعين بمغفرة الله رب العالمين.

فقوله: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾.

يقول فرعون: إنه كان ينبغي أن تستأذنوني في أمر إيمانكم فإني أنا الحاكم المطاع والأمر لي ولا يكون الإيمان إلا بي.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾. قال ابن كثير: (وهذه مكابرة يعلم كُلُّ أحدٍ بُطلانَها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسىٰ قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرَهم الذي أفادهم صناعة السحر؟! هذا لا يقوله عاقل).

وقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. توعَّدهم بقطع الأيدي والأرجل والصَّلب.

قال القاسمي: (﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي: جانبين متخالفين). وقال النسفي: (﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ من أجل خلاف ظهر منكم).

وقوله: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ﴾. أي: لا حرج ، فليكن ما يكون ، لقد ظهر الحق وكُشِفَ عن القلوب حجاب الكفر ، فما كان من أمر موسىٰ لا يصدر عن بشر ، إلا أن يكون عن خالق البشر ، الذي أيده بنصره وتمكينه وأبطل المكر والسحر ، فاقض ما أنت قاض فإنا لا نبالي ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ ـ أي: المرجع والمآل إليه ، والثواب والعقاب بين يديه ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، ولا يخيب عنده جهاد المؤمنين وصبرهم على الأذىٰ والظلم. قال ابن زيد: (﴿لَا ضَيْرَ﴾ يقول: لا يضرّنا الذي تقول ، وإن

صنعته بنا وصلبتنا ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ يقول: إنا إلى ربنا راجعون، وهو مجازينا بصبرنا على عقوبتك إيانا، وثباتنا على توحيده، والبراءة من الكفر به).

وقوله: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾.

قال ابن زيد: (السحر والكفر الذي كانوا فيه).

وقوله: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. قال ابن وهب، قال ابن زيد: (كانوا كذلك يومئذ أول من آمن بآياته حين رأوها).

والمقصود: إنا نرجو عفو الله ومغفرته عما انغمسنا فيه من السحر والكفر وطاعة فرعون، ونتوسل إليه سبحانه بعمل صالح: أن كنا أول من أعْلنَ إيمانه بالله العظيم.

52 ـ 59. **قوله تعالىٰ:** ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾.

في هذه الآيات: وَحْيُ الله تعالىٰ إلى موسىٰ عليه السلام الخروج ليلاً مع بني إسرائيل، واتباع فرعون وجنوده لهم، وإغراق الله تعالىٰ فرعون وجنده واستخلاف بني إسرائيل.

فقوله تعالىٰ: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

سنة الله تعالىٰ في التوطئة لإنجاء المؤمنين، وإهلاك الكافرين، بعد رضاه سبحانه عن منهاج فئة الإيمان، وبلاغ حجة الرحمان، حجة الوحي البالغة. فإنه لما قام موسىٰ عليه السلام ببلاد مصر يدعو إلى عبادة الله وحده والكفر بفرعون وغروره في دعواه الربوبية، لم يكن بُدٌّ بعد حين مِن استعارِ نار العداوة من الطاغية إلى حد الطغيان، فهنا جاء أمر الله لموسىٰ والمؤمنين بالهجرة فقد اقترب يوم الفصل.

قال القرطبي: (أمر موسىٰ أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً وسمّاهم عباده، لأنهم آمنوا بموسىٰ. ومعنىٰ: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي: يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم. وفي ضمن هذا الكلام تعريفهم أن الله ينجيهم منهم، فخرج موسىٰ عليه السلام ببني إسرائيل سَحَراً،

فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر. قال: فلما أصبح فرعون وعلم بِسُرىٰ موسىٰ ببني إسرائيل، خرج في أثرهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾.

قال النسفي: (أي جامعين للناس بعنف). والمقصود: أن فرعون قد استنفر وبعث بأمره إلى مدائن مصر لتلحقه العسكر.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾.

قال القاسمي: (ـ أي ـ جامعين لعسكره، قائلين ما يقلِّل به الأعداء في أعين الجنود).

وأصل الشِّرذمة ـ في كلام العرب ـ الجمع القليل المحتقر، والجمع: الشَّراذِم. قال الجوهري: (الشِّرذمة الطائفة من الناس والقطعة من الشيء).

والمقصود: يقول فرعون مشجعاً جنوده في الأمصار، على الالتحاق به بسرعة واستنفار، إن هؤلاء ـ يعني بني إسرائيل ـ طائفة قليلة خرجت عن الطاعة ولا بد من تأديبها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾. هو من قيل فرعون الممتلئ صدره غيظاً مما يجري ضده.

أي: وإنهم في مسلكهم هذا يفعلون أفعالاً تغيظنا، وتضيق به صدورنا، من اختيارهم الإيمان على غير طريقتنا، وخلاف أمرنا، وخروجه دون إذننا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾. أي: متيقظون مستعدون حذرون، متهيئون بالسلاح لاستئصال شأفتهم وإبادة خضرائهم والإجهاز عليهم.

قال النسفي: (وهذه معاذير اعتذر بها إلىٰ أهل المدائن لئلا يظن به العجز والفتور).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾. أي: انقلب المكر على أهله.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: فأخرجنا فرعون وقومه من بساتين وعيون ماء، وكنوز ذهب وفضة، ومقام كريم).

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

أي: وأورث الله ذلك الجاه والمنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق مؤمني بني إسرائيل.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: 137].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: 5 ـ 6].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق تلك الآيات أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال: [لما فتحت قبرس فرق بين أهلها، فبكىٰ بعضهم إلى بعض، رأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير، ما أهونَ الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة، لهم الملك، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترىٰ][1].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عمرو بن مُرَّة قال: سمعت أبا البختري يقول: أخبرني مَنْ سَمِعَ النبي ﷺ يقول: [لَنْ يَهْلِكَ الناسُ حتىٰ يُعْذَروا من أنْفسهم][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند حسن من حديث جرير أن النبي ﷺ قال:

(1) أخرجه أحمد من حديث الوليد بن مسلم عن صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه. انظر: «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» ص (45).

(2) أخرجه أبو داود (4347) ـ كتاب الملاحم ـ باب الأمر والنهي، وأخرجه أحمد (4/ 260)، (5/ 293)، وهو حديث صحيح كما قال الألباني في «صحيح الجامع» رقم (5107).

[ما مِنْ قوم يُعْمَلُ فيهم بالمعاصي ، هُمْ أَعَزُّ وأكثرُ مِمَّنْ يَعْمَلُـهُ ، لمْ يُغيِّروه ، إلا عَمَّهم الله بعقاب][1] .

الحديث الرابع: أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» بسند حسن في الشواهد عن عائشة مرفوعاً: [إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله عز وجل بأسه بأهل الأرض ، وإن كان فيهم صالحون ، يصيبهم ما أصاب الناس ، ثم يرجعون إلى رحمة الله][2]. وله شاهد عند الطبراني والحاكم من حديث ابن عباس مرفوعاً: [إذا ظهر الزِّنا والرِّبا في قرية ، فقد أحَلُّوا بأنفسهم عذاب الله].

60 ـ 68. قوله تعالىٰ: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦٨ ﴾ .

في هذه الآيات: قصةُ غرق الطاغية فرعون وجنده الظالمين ، وانفلاق البحر ونجاة موسىٰ عليه السلام والمؤمنين ، وفي ذلك أكبر آية من الله العزيز الرحيم ، وقد كان سبق في علم الله أن أكثرهم لا يؤمنون.

فقوله تعالىٰ: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾. قال مجاهد: (فرعون وأصحابه ، وخيل فرعون في ملء أعنتها في رأي عيونهم ، ولا تبرح ، حبست عن موسىٰ وأصحابه حتىٰ تواروا). وقوله: ﴿مُّشْرِقِينَ ﴾ حال ، أي: داخلين في وقت شروق الشمس وهو طلوعها ، أدركَ فرعون ـ الذي خرج في جَحْفلٍ عظيم وجمع كبير من الجنود والأعوان والأمراء والوزراء ـ موسىٰ وقومه وقت طلوع الشمس.

---

(1) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (4009) في الفتن. باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والبيهقي في «السنن» (10/ 91) ، ورواه أحمد وغيره.

(2) حديث حسن. أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (2/ 441/ 2). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1372). وانظر للشاهد صحيح الجامع الصغير (692).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾.

أي: فلما رأى كل فريق من الفريقين صاحبه قال أصحاب موسىٰ له: إنا لملحقون. قال النسفي: (أي: قرب أن يلحقنا عدونا وأمامنا البحر).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾. قال السدي: (يقول: سيكفيني).

أي: قال موسىٰ لقومه كلا لا تخافوا وأحسنوا ثقتكم بالله فإنكم لن تُدْرَكُوا، إنَّ معي ربي سيهديني. قال ابن جرير: (يقول: سيهديني لطريق أنجو فيه من فرعون وقومه).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾. قال ابن عباس: (يقول: كالجبل). وقال السدي: (﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾: كالجبل العظيم). أي: فأوحينا أمرنا إلى موسىٰ أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق بإذن الله فكان كل جزء متفرق منه كالجبل الكبير.

قال ابن عباس: (صار البحر اثني عشر طريقاً، لكل سِبْطٍ طريق). وزاد السدي: (وصار فيه طاقاتٌ ينظر بعضهم إلى بعض، وقام الماء على حَيْلِهِ كالحيطان، وبعثَ الله الريح على قَعر البحر فَلَفَحته، فَصَار يَبَساً كوجه الأرض، قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: 77]).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ﴾. قال ابن عباس: (قرّبنا).

وقال قتادة: (هم قوم فرعون قربهم الله حتىٰ أغرقهم في البحر).

قال القاسمي: (﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ أي: قرّبنا ﴿ثَمَّ﴾ أي: حيث انفلق البحر ﴿ٱلْءَاخَرِينَ﴾ يعني قوم فرعون، أي: قدمناهم إلى البحر حتىٰ دخلوا على أثر بني إسرائيل).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾.

أي: حفظنا البحر على تلك الهيئة حتىٰ عبر موسىٰ ومن معه ونجوا. ثم أطبقنا البحر على قوم فرعون فهلكوا ولم يبق منهم أحد.

أخرج الإمام الترمذي في جامعه، والإمام أحمد في مسنده، بسند صحيح عن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال: [لمَّا أغرق الله فِرْعونَ قال: آمَنْتُ أنَّه لا إله إلا الذي آمنت به

بنو إسرائيل. فقال جبرئيل: يا مُحمَّدُ لو رَأَيْتَني وأنا آخذ من حالِ البَحْر وأدُسُّهُ في فيهِ مخافةَ أنْ تدركَهُ الرَّحْمة][1].

وكذلك روىٰ الترمذي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، ذكر أحدهما عن النبي ﷺ: [أَنّهُ ذَكَرَ أنَّ جِبْرَئيل جعل يَدُسُّ في فِي فِرْعونَ الطينَ، خَشْيَةَ أن يقولَ: لا إلهَ إلا الله فَيرحَمَهُ الله، أوْ خَشْيَةَ أن يَرْحَمَهُ][2].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

أي: إن في هذا الخبر عن فرعون ومصيره هو وقومه وما في ذلك من العجائب والنصر والتأييد من الله لعباده المؤمنين، لدلالة وحجة بالغة لمن أراد الاعتبار والتدبر، ولكن ما كان أكثر قومك ـ يا محمد ـ مؤمنين بما آتاك الله من الآيات والحق المبين. وإن ربك لهو ﴿الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممن كفر به وكذب رسله. ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه وأتباع رسله ومن أنجىٰ منهم أن ينالهم الغرق والعذاب الذي نزل بأعدائه.

قال ابن جرير: (﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يقول: وما كان أكثر قومك يا محمد مؤمنين بما آتاك الله من الحق المبين، فسابق في علمي أنهم لا يؤمنون).

69 ـ 77. قوله تعالىٰ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبارٌ من الله تعالىٰ عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم، عليه أفضل الصلاة والتسليم، إمام الحنفاء وقدوة الموحدين، وأسوة المخلصين والمتوكلين، في خطابه لأبيه وقومه المشركين، الذين يعبدون الأصنام محتجين بفعل آبائهم الضالين، وقد أعلن لهم براءته من أوثانهم وخضوعه الكامل لله رب العالمين.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3320). انظر صحيح الترمذي (2483) ـ في التفسير ـ من سورة يونس. ورواه أحمد عن ابن عباس. انظر صحيح الجامع (5082).

(2) صحيح الإسناد. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2484) ـ أبواب تفسير القرآن.

فقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ .

أي: واقصص يا محمد على قومك من المشركين خبر أبيهم إبراهيم ، إذ استنكر على أبيه وقومه ما يعبدون من دون الله من الأصنام والأوثان.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ .

قال ابن عباس: (الصلاة لأصنامهم). قال ابن جرير: (قالوا له نعبد أصناماً. فنظل لها خدماً مقيمين على عبادتها وخدمتها).

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ۝٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾ .

أي: قال لهم إبراهيم: هل يسمعون دعاءكم حين تدعونهم ، أو يجلبون لكم النفع إن عبدتموها ، أو يضرونكم بأذىٰ إن تركتم عبادتها؟! فأجابوه معترفين بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك وإنما هو تعظيم ميراث الآباء وطريقتهم.

قال أبو السعود: (اعترفوا بأنها بمعزل مما ذكر من السمع والمنفعة والمضرّة بالمرة. واضطروا إلى إظهار أن لا سند لهم سوىٰ التقليد).

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ .

قال ابن كثير: (أي: إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير فَلْتخْلُص إليَّ بالمساءة ، فإني عَدُوٌّ لها لا أباليها ولا أفكِّرُ فيها).

وفي التنزيل من سير الأنبياء نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ ـ مخبراً عن نوح عليه السلام ـ: ﴿ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس: 71].

2 ـ وقال تعالىٰ ـ مخبراً عن هود عليه السلام ـ: ﴿ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [هود: 54 ـ 56].

3 ـ وقال تعالىٰ ـ مخبراً عن إبراهيم ﷺ ـ: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: 4].

4 ـ وقال تعالىٰ عنه أيضاً: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الأنعام: 81].

78 ـ 82. قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾.

في هذه الآيات: إعلانُ إبراهيم لقومه بعض صفات ربه الكريم، فهو الذي خلقه ويهديه، ويطعمه ويسقيه، وإذا مرض فهو يشفيه، وهو الذي يميته ويحييه، وهو بذلك خاضع له طامع بمغفرته، والنجاة من سخطه وعذابه.

فقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾. أي: يرشدني إلى الدين الحق. قال ابن جرير: (﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ للصواب من القول والعمل، ويسدّدني للرشاد).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾.

أي: والذي هو يغذوني بالطعام والشراب، ويرزقني الأرزاق والطيبات.

قال القرطبي: (ودخول ﴿هُوَ﴾ تنبيه على أن غيره لا يُطعم ولا يسقي، كما تقول: زيد هو الذي فعل كذا، أي: لم يفعله غيره).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

أي: وإذا اعتل جسمي ونزلت به الأسقام والآلام، فهو وحده الذي يبرئه ويشفيه ويعافيه. وفي الآية دلالة على أدب رفيع تألق به إبراهيم ﷺ، إذ نسب المرض لنفسه والشفاء لله، مع أن الكل من عند الله، وإنما هذا منهاج العبودية الصحيحة لله جل ثناؤه، فإن المؤمن يعتبر ما يعتريه من المصائب والأسقام والهموم والآلام بسبب ذنوبه وتقصيره.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورىٰ: 30].

وفي معجم الطبراني «الصغير» بسند حسن عن البراء بن عازب مرفوعاً: [ما اخْتلَجَ عِرْقٌ ولا عَيْنٌ إلا بِذَنْبٍ ، وما يَدْفَعُ الله عنه أكثر][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾.

أي: وهو الذي يميتني إذا شاء ثم يحييني متىٰ شاء ، فالبدء والمنتهىٰ إليه ، وبأمره البعث للقيام بين يديه.

قال النسفي: (ولم يقل إذا مت لأنه الخروج من حبس البلاء ، ودار الفناء ، إلى روض البقاء ، لوعد اللقاء ، وأدخل ثم في الإحياء لتراخيه عن الإفناء ، وأدخل الفاء في الهداية والشفاء لأنهما يعقبان الخلق والمرض لا معاً معاً).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾.

قال مجاهد: (قوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات: 89] ، وقوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء: 63] ، وقوله لسارة: إنها أختي ، حين أراد فرعون من الفراعنة أن يأخذها).

وهذه الأخطاء التي كان يخشىٰ منها إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما هي إلا من المعاريض الجائزة ، وإنما استغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم ، وهضم لأنفسهم ، وتربية وتعليم لأمتهم ، لينهجوا نهج الاستغفار ، الذي هو مفتاح كثير من الفرج ونزول طيب الأقدار.

83 ـ 89. قوله تعالىٰ: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾.

في هذه الآيات: التجاءُ إبراهيم عليه السلام إلى ربه سائلاً العلم والحكمة واللحاق بركب الصالحين ، وحفظ السمعة العطرة له في الآخرين ، وجعله من ورثة جنة

(1) حديث حسن. أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (رقم 1053) ، وعنه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (2/ 247) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2215).

النعيم ، والمغفرة لأبيه الذي كان من الضالين ، وحفظه من الخزي يوم الدين ، يوم لا ينفع المال والولد بل العمل الصالح والقلب السليم.

فقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾. قال ابن عباس: (وهو العِلْم). وقال مجاهد: (هو القرآن). وقال السدي: (هو النبوة) ـ وبه قال ابن جرير. قال النسفي: (﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ أي: حكمة ، أو حكماً بين الناس بالحق ، أو نبوة ، لأن النبيّ عليه السلام ذو حكمة وذو حكم بين عباد الله).

وقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

قال القاسمي: (أي: وفقني لأنتظم في سلكهم ، لأكون من الذين جعلتهم سبباً لصلاح العالم وكمال الخلق).

وفي المسند وسنن النسائي من حديث ابن رفاعة الزُّرَقي عن أبيه ـ في دعاء النبي ﷺ بعد غزوة أحد: [اللهم توفنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مفتونين][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾. قال ابن عباس: (هو اجتماع الأمم عليه). وقال مجاهد: (يعني الثناء الحسن). وقال ابن زيد: (اللسان الصِّدق ، والذكر الصدق ، والثناء الصالح ، والذكر الصالح ، في الآخرين من الناس ، من الأمم).

والمقصود: أنَّ إبراهيم عليه السلام سأل ربه تعالىٰ أن يجعل له الذكر الجميل في الأمم وأن يجعله قدوة تتأسىٰ به الأجيال. وقد حصل له ذلك بفضل الله ، كما قال ليثُ بن أبي سُلَيم: (كُلُّ ملة تُحِبُّه وتتولاّه).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 108 ـ 110].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: 27].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: 122].

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (3/ 424) ، والنسائي في «الكبرىٰ» (10445).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

قال القرطبي: (دعاء بالجنة وبمن يرثها). وقال ابن جرير: (أورثني يا ربّ من منازل مَنْ هلك من أعدائك المشركين بك من الجنة ، وأسكني ذلك).

قلت: ومن السنة المطهرة في آفاق هذا المعنىٰ للآية أحاديث:

الحديث الأول: روى مسلم عن ابن عمر ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: [إنَّ أحدكم إذا مات عُرِضَ عليه مَقْعَدُهُ بالغداة والعشي ، إنْ كانَ مِن أهل الجنة فَمِنْ أهل الجنة ، وإنْ كان من أهل النار فمِنْ أهل النار. يقال: هذا مقعدك حتىٰ يبعثَكَ الله إليه يوم القيامة][1] .

وفي رواية: [ثم يقال: هذا مَقْعَدكَ الذي تُبْعَثُ إليه يوم القيامة].

الحديث الثاني: روىٰ مسلم كذلك عن أنس ـ في حديث سؤال الملكين ـ قال نبي الله ﷺ: [فأما المؤمن فيقول: أشهدُ أنه عبدُ الله ورسوله. فيقال له: انظر إلى مقعدِك مِنَ النار ، قد أبدلك الله به مَقْعَداً من الجنة. قال نبي الله ﷺ: فيراهُما جميعاً][2] .

قال قتادة: (وذُكِرَ لنا أنَّهُ يُفْسَحُ له في قبره سبعون ذِراعاً ، وَيُمْلأُ عليه خَضِراً إلى يوم يُبعثون).

الحديث الثالث: أخرج ابن عساكر ، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» من طرق عن أبي موسىٰ عن النبي ﷺ قال: [إذا كان يومُ القيامة بُعِثَ إلى كُلِّ مُؤْمِنٍ بِمَلَكٍ مَعَهُ كافِرٌ ، فيقول المَلَكُ للمؤمِن: يا مؤمن! هاكَ هذا الكافر ، فهذا فِداؤك من النار][3] .

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

أي: واصفح عن شرك أبي بك وتجاوز عنه ، إنه كان ممن ضَلّ عن سبيل الهدىٰ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2866) ـ كتاب الجنة ونعيمها ، من حديث عبد الله بن عمر.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2870) ـ كتاب الجنة ونعيمها ، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه ، وإثبات عذاب القبر ، والتعوذ منه.
(3) حديث صحيح. أخرجه ابن عساكر (18/ 143/ 2) ، وبنحوه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (2/ 80) ، وانظر مسند أحمد (4/ 391) ، وصحيح مسلم (8/ 104).

والحق. وهو كقوله: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ [إبراهيم: 41]. وقد تراجع إبراهيم ﷺ عن مثل هذا الدعاء حين علم نهي الله تعالىٰ عن ذلك.

كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: 114].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾. أي: نجني من الخزي يوم تبعث عبادك.

قال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه ـ باب: ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾: [وقال إبراهيم بن طَهْمان عن ابن أبي ذئبٍ، عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُرِيّ، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن إبراهيم عليه الصلاةُ والسلامُ يرىٰ أباه يَوْمَ القيامة عليه الغَبَرَةُ والقَتَرَة». والغَبَرَة: هي القترة][(1)].

ثم قال البخاري: حَدّثنا إسماعيل، حدثنا أخي عن ابنِ أبي ذِئب، عن سعيد المَقْبُرِيِّ، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [يَلْقىٰ إبراهيم أباهُ فيقول: يا رب إنك وَعَدْتني أن: ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ فيقول الله: إني حَرَّمتُ الجنة على الكافرين][(2)].

وقد أورد البخاري تفصيل هذه الرواية في كتاب أحاديث الأنبياء، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [يَلْقىٰ إبراهيمُ أباه آزرَ يَوْمَ القيامة وعلى وجهِ آزر قَتَرَةٌ وغَبَرَة، فيقول له إبراهيم: أَلَمْ أَقُلْ لك: لا تَعْصِني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أَعْصِيكَ، فيقول إبراهيم: يا رَبِّ إنَّك وَعَدْتني أنْ لا تُخْزِيَني يوم يُبعثون، فأيُّ خِزْيٍ أخْزىٰ مِنْ أبي الأبْعَد؟ فيقول الله تعالىٰ: إني حَرَّمْتُ الجنة على الكافرين، ثم يُقال: يا إبراهيمُ ما تَحْتَ رِجْلَيْك؟ فَينْظُرُ فإذا هو بِذِيخٍ مُتَلَطِّخ فَيُؤْخَذُ بقوائِمِه فَيُلْقىٰ في النار][(3)].

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾.

قال القاسمي: (أي: لا يقي المرء من عذاب الله ماله، ولو افتدىٰ بملء الأرض ذهباً. ولا بنوه، وإن كانوا غاية في القوة. فإن الأمر ثمة ليس كما يعهدون في الدنيا،

---

(1) ذكره البخاري تعليقاً (4768) ـ كتاب التفسير من صحيحه ـ سورة الشعراء، آية (87).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4769) ـ كتاب التفسير ـ الباب السابق، آية (87).
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3350) ـ كتاب أحاديث الأنبياء. وانظر (4769) ـ نحوه.

بل لا ينفع إلا الموافاة بقلب سليم من مرض الكفر والنفاق والخصال المذمومة والملكات المشؤومة).

قلت: فأما إن صرف المال في وجوه البر وكان بنوه صالحين فإنه ينتفع بهم، فيكون المال والبنون حينئذ من الباقيات الصالحات.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ [آل عمران: 92].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: [كانَ أبو طَلْحَةَ رضي الله عنه أكثرَ الأنصار بالمدينة مالاً مِنْ نَخْل، وكانَ أَحَبُّ أمْوالِهِ إليه بَيْرَحَاء، وكانت مستقبلةَ المسجد[1]، وكان رسول الله ﷺ يدخُلُها ويَشْرَبُ مِنْ ماءٍ فيها طَيِّبٍ[2]. قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنَّ الله تعالىٰ أَنْزَلَ عَلَيْك: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ وإنَّ أحَبَّ مالي إليَّ بَيْرَحاءُ، وإنها صَدَقَةٌ لله تعالىٰ أرجو بِرَّها[3] وذُخْرَها عند الله تعالىٰ، فَضَعْها يا رسول الله ﷺ حيث أراكَ الله، فقال رسول الله ﷺ: بخٍ[4]! ذلكَ مالٌ رابحٌ، ذلك مالٌ رابحٌ، وقد سَمِعْتُ ما قُلْتَ، وإني أرىٰ أن تَجْعَلَها في الأقربين. فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فَقَسَّمَها أبو طلحة في أقاربه، وبني عَمِّه][5].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عقبة بن عامر يقول: سمعت

---

(1) أي: المسجد النبوي. وبَيْرَحاءُ: حَدِيقَةُ نَخْلٍ، وروي بكسر الباء وفتحها.

(2) أي: ماء عذب.

(3) «بِرَّها»: أي خيرها، و«وذُخرها» أي: أجرها عند الله تعالىٰ.

(4) «بَخٍ» بفتح الموحدة وسكون المعجمة، وقد تنون مع التثقيل والتخفيف، بالكسر والرفع: كلمة تقال لتفخيم الأمر والإعجاب به.

(5) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (3/ 257)، وأخرجه مسلم في الصحيح (998).

رسول الله ﷺ يقول: [من كان له ثلاث بنات ، فصبر عليهن ، وأطعمهن ، وسقاهن ، وكساهن من جدته ، كن له حجاباً من النار يوم القيامة][1] .

الحديث الثالث: أخرج أبو يعلىٰ في مسنده بإسناد صحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [من كن له ثلاث بنات ، أو ثلاث أخوات ، فاتقىٰ الله وأقام عليهن كان معي في الجنة هكذا ، وأومأ بالسباحة والوسطىٰ][2] .

الحديث الرابع: أخرج أحمد وابن حبان بسند صحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [من عالَ ابنتين ، أو ثلاث بنات ، أو أختين أو ثلاث أخوات ، حتىٰ يمتن (وفي رواية: يبلغن) أو يموت عنهن كنت أنا وهو كهاتين ، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطىٰ][3] .

وله شاهد في صحيح مسلم وسنن الترمذي من حديث أنس مرفوعاً: [من عال جاريتين حتىٰ تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو ، وضم أصابعه][4] .

الحديث الخامس: خرّج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [إذا ماتَ الإنسانُ انْقَطَعَ عنه عَمَلُهُ إلا من ثلاثة: إلا مِنْ صَدَقَةٍ جارية ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ به ، أو وَلَدٍ صالحٍ يدعو له][5] .

وأما قولهُ تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ففيه أقوال متقاربة متكاملة.

1 ـ عن ابن عباس: (﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ، يعني: يشهد أن لا إله إلا الله).

2 ـ وقال مجاهد: (﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ يعني: من الشرك). أو قال: (ليس فيه شك في الحق).

3 ـ وقال ابن زيد: (سليم من الشرك ، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (3669) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (76) ، وأخرجه أحمد (4/ 154) ، وإسناده صحيح.

(2) أخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده» (1/ 170) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (295).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 147 ـ 148) ، وابن حبان (2045) من طريقين ، وأورده الهيثمي في «المجمع» (8/ 157) بنحوه من رواية الطبراني في «الأوسط».

(4) حديث صحيح. رواه مسلم (8/ 38 ـ 39) واللفظ له ، ورواه الترمذي (1/ 349).

(5) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1631) ـ كتاب الوصية. باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

4 ـ وقال سعيد بن المسيِّب: (القلب السليمُ: هو القلب الصحيح، وهو قلبُ المؤمن، لأن قلب المنافق مريض، قال الله تعالىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: 10]).

5 ـ وقال أبو عثمان النيسابوري: (هو القلب الخالي من البِدعة، المطمئِنُّ علىٰ السُّنَّةِ).

6 ـ وقال الضحاك: (﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال: هو الخالص).

قلت: وكل هذه الأقوال يدل على المعنىٰ، وهو أن القلب السليم هو القلب الذي سلم من الشرك والنفاق وخلص فيه التوجه إلى الله تعالىٰ على منهاج النبوة.

90 ـ 104. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالىٰ عن جنة الخلد كيف قربت يوم القيامة من أهلها وأدنيت منهم مزخرفة مزينة لأهل التقوىٰ أهل النعيم، وعن نار جهنم كيف أظهرت وهي تزفر لأهلها المشركين والمجرمين، ثم ألقوا فيها أذلاء صاغرين، فهم فيها وإبليس وجنوده يختصمون، وقد حيل بينهم وبين الشفاعة وما يشتهون، وفي ذلك أكبر الآيات من الله العزيز الرحيم، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

قال القرطبي: (أي قربت وأدنيت ليدخلوها). وقال الزجاج: (قرب دخولهم إياها).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: وأظهرت النار للذين غووا فضلوا عن سواء السبيل). وقال ابن كثير: (أي: أُظهِرت وكُشِفَ عنها، وبدت

منها عُنُقٌ فَزَفرت زَفرة بلغت منها القلوب الحناجر). وقال القرطبي: (أي: أظهرت ﴿ٱلْجَحِيمُ﴾ يعني جهنم. ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ أي: الكافرين الذين ضلوا عن الهدىٰ. أي: تظهر جهنم لأهلها قبل أن يدخلوها حتىٰ يستشعروا الروع والحزن، كما يستشعر أهل الجنة الفرح لعلمهم أنهم يدخلون الجنة).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [يؤتىٰ بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مَعَ كل زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾.

تقريع وتوبيخ لأهل النار الذين استحقوا دخولها بعبادتهم الأوثان والأنداد والطواغيت من دون الله. فيقال لهم: أين الأنداد اليوم لينقذوكم من عذاب الله وبأسه وغضبه؟! أو ينصرون أنفسهم فينجون من دخول النار معكم!؟

قال النسفي: (يوبخون على إشراكهم فيقال لهم: أين آلهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم لكم؟ أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم؟ لأنهم وآلهتهم وقود النار).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾. أي: فرمي ببعضهم في الجحيم على بعض منكبين على وجوههم إذلالاً لهم. قال ابن عباس: (﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا﴾ يقول: فجمعوا فيها). وقال مجاهد: (﴿فَكُبْكِبُواْ﴾: فدهوروا). وقال ابن زيد: (طرحوا فيها). وعن قتادة: (﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾: الشياطين).

وفي لغة العرب: كبكَبهُ أي كبَّهُ، وكبَّه الله لوجهه أي: صرعه. والمقصود: ألقي الكفار بعضهم على بعض في جهنم وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك. قال الزمخشري: (والكبكبة تكرير الكب ـ وهو الإلقاء على الوجه ـ جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنىٰ، كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتىٰ يستقر في قعرها).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: وكبكب فيها مع الأنداد والغاوين جنود إبليس أجمعون. وجنوده، كل من كان من تباعه من ذرّيته كان أو من ذرّية آدم).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (8/ 149) ـ كتاب صفة النار، باب: في ذكر أزِمَّةِ النار. والزمام: ما يزم به الشيء أي يشد ويربط. انظر مختصر صحيح مسلم (1975).

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: يتخاصم الضعفاء مع الطغاة في نار جهنم، يقولون لهم: تالله لقد كنا في ضلال عن الحق حين نعدلكم برب العالمين، فنطيعكم في غيكم ومكركم وكفركم بدلاً من طاعة الله رب العالمين.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾. قال عكرمة: (إبليس وابن آدم القاتل).

قال القاسمي: (﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: رؤساؤهم، كما في آية: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: 67]).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

تحَسُّرٌ من أصحاب النار على أنفسهم. أي: كانوا يظنون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله، وفي أصدقائهم من شياطين الإنس والجن أنهم أهل منفعة لهم في مثل هذه النوائب.

قال قتادة: (يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحاً نفع، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع).

قال الزمخشري: (و«الحميم» من الاحتمام وهو الاهتمام، وهو الذي يهمه ما يهمك. أو من «الحامة» بمعنىٰ الخاصة. وهو الصديق الخاص. وفيه معنىٰ الحدة والسخونة. كأنه يحتدّ ويحمىٰ، لحماية خليله ورعايته، والقيام بمهماته. وهذا هو الذي قيل: «إنه أعز من بيض الأنوق» وإنه اسم بلا مسمىٰ).

وفي التنزيل:

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67].

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: فلو أن لنا رجعة إلى دار الدنيا فنحسن الإيمان والعمل ونستأنف طريق النجاة. قال ابن كثير: (وذلك أنهم يتمنَّون أن يُردُّوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون، وهو سبحانه وتعالىٰ يعلم أنه لو رَدَّهم إلى الدار الدنيا لعادُوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

أي: إن في احتجاج إبراهيم على قومه بحجج الوحي البالغة أنه لا إله إلا الله، وأن من قلّد قوم إبراهيم في شركهم مآله كمآلهم يكبكبون في النار مع جنود إبليس أجمعين، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾. قال ابن جرير: (وما كان أكثرهم في سابق علمه مؤمنين. وإن ربك يا محمد لهو الشديد الانتقام ممن عبد دونه ثم لم يتب من كفره حتىٰ هلك، الرحيم بمن تاب منهم أن يعاقبه على ما كان سلف منه قبل توبته من إثم وجرم).

105 ـ 122. **قوله تعالىٰ**: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

في هذه الآيات: تكذيبُ قوم نوح رسولهم واستخفافهم بالمؤمنين، وحثهم له على طردهم والانتهاء من دعوته أو ليكونن من المرجومين، ولجوء نوح ﷺ إلى الله ليفصل بينه وبين قومه المكذبين، وإجابة الله تعالىٰ له بنجاته في السفينة والمؤمنين، وفي ذلك أكبر الآيات من الله العزيز الرحيم، وقد كان سبق في علم الله أن أكثرهم لا يؤمنون.

فقوله تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾.

قال القرطبي: (﴿كَذَّبَتْ﴾ والقوم مذكر، لأن المعنىٰ: كذبت جماعة قوم نوح، وقال: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ لأن من كذب رسولاً فقد كذب الرسل، لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل. وقيل: كذبوا نوحاً في النبوة وفيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده. وقيل: ذكر الجنس والمراد نوح عليه السلام).

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ .

قال النسفي: (﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ نسباً لا ديناً ﴿ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ خالق الأنام ، فتتركوا عبادة الأصنام).

قلت: وقد ضل بعض المغرورين في هذا الزمان من المتعالمين حين استدلوا بهذه الآية على جواز الإشارة إلى أهل الكتاب بأنهم إخوانهم ويقصدون الأخوة في الدين ، مع أن الآية تدل على أخوة المجانسة كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: 4]، أو أن نوحاً ابن أبيهم وهي أخوة نسب لا أخوة دين ، كقول العرب: يا أخا بني عمرو ، يعنون: ياواحداً منهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ .

إن نوحاً ﷺ هو أول رسول بُعث إلى أهل الأرض. كما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ـ حديث الشفاعة ـ: [فيأتون نوحاً ﷺ فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسمّاك الله عبداً شكوراً فاشفع لنا إلى ربك] الحديث[1]. فقال لقومه: إني لكم رسول ﴿ أَمِينٌ﴾ أي: صادق في إبلاغي لكم رسالة ربي أن تعبدوه وحده لا شريك له ، وتستتروا بطاعته من عقابه. وتطيعوني فيما آمركم به من الإيمان.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ . أي: ومالي طمع في أموالكم وإنما أرجو جزاء دعوتي إليكم عند الله رب العالمين. ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: استتروا بطاعته وتعظيم أمره ، وأطيعوني في نصحي لكم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ .

قال ابن جرير: (قالوا: أنؤمن لك يا نوح ، ونقرّ بتصديقك فيما تدعونا إليه ، وإنما اتبعك منا الأرذلون دون ذوي الشرف وأهل البيوتات).

قلت: وهذا شأن الملأ الكافر على مر الزمان ، فإنهم يحتجون على رسلهم بالكبر وحب الرياسة والشرف ويترفعون عن الجلوس مع ضعفاء المؤمنين. لقد اعتادوا الظلم والعلو والبغي في الأرض بغير الحق. وقد واجه مشركو قريش النبي ﷺ بهذه الصيغة كما جاء في السنة الصحيحة في أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن سعد رضي الله عنه قال: [فيَّ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1/ 127 ـ 129) ، في أثناء حديث طويل. ورواه البخاري وأحمد.

نزلت: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ ، قال: نزلت في ستة: أنا وابن مسعود منهم ، وكان المشركون قالوا: تدني هؤلاء][1] .

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن سعد قال: [كنا مع النبي ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدّث نفسه ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾][2] .

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ .

قال ابن جريج: (هو أعلم بما في نفوسهم).

قال القرطبي: («كان» زائدة ، والمعنىٰ: وما علمي بما يعملون ، أي: لم أكلف العلم بأعمالهم إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان ، والاعتبار بالإيمان لا بالحِرَف والصَّنائع. وكأنهم قالوا: إنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعاً في العزة والمال. فقال: إني لم أقف على باطن أمرهم وإنما إليّ ظاهرهم. وقيل: المعنىٰ إني لم أعلم أن الله يهديهم ويضلكم ، ويرشدهم ويغويكم ، ويوفقهم ويخذلكم. ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ ﴾ أي: في أعمالهم وإيمانهم ﴿ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ وجواب ﴿ لَوْ ﴾ محذوف ، أي: لو شعرتم أن حسابهم على ربهم لما عبتموهم بصنائعهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

أي: إنما بعثت نذيراً إلى الناس كافة ، وما أرسلت خصوصاً لأهل الغنىٰ والشرف دون أهل الفقر والحاجة. ومن ثمَّ فلا يجوز لي أن أطرد المؤمنين لخساسة أحوالهم وأشغالهم ، وأقدم الشرفاء والرؤساء.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ . قال ابن عباس: (من المقتولين). وقال قتادة: (﴿ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ : أي بالحجارة). وقال ابن جرير: (يقول: قال لنوح قومه: لئن لَمْ تنته يا نوح عما تقول ، وتدعو إليه ، وتعيب به آلهتنا ، لتكوننّ من المشتومين ، يقول: لنشتمنك).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (4/ 1878) ، حديث رقم (2413). وانظر تفصيل البحث في كتابي: السيرة النبوية (1/ 242 ـ 244).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (2/ 1383) ، وانظر المرجع السابق (1/ 243).

قلت: ومثل هذا التهديد عادة يشمل الشتم وبسط الأيدي في الأذىٰ كما حصل لكثير من الرسل من أقوامهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾. أي: احكم بيننا بما ينبغي لكل واحد منا، ونجني ومن اتبعني من المؤمنين. فهو لجوءٌ من نوح ﷺ إلى ربه تعالىٰ حين استعصىٰ القوم وأصروا على الكفر، كما قال جل ثناؤه في سورة القمر: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [10 ـ 14].

قال الزمخشري: (الفتاحة: الحكومة. والفتاح: الحاكم. لأنه يفتح المستغلق. كما سمي فيصلاً لأنه يفصل بين الخصومات).

وفي «التهذيب»: (الفتح أن تحكم بين قوم يختصمون إليك).

قلت: والله تعالىٰ هو: «الفتّاح» أي: الحاكم بين عباده، كما قال جل ذكره في سورة «سبأ»: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [26]. قال الحافظ ابن كثير: (﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ أي: الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾.

قال ابن عباس: (﴿ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾: يعني الموقر). وقال مجاهد: (المفروغ منه تحميلاً). وقال قتادة: (هو المحمل).

والمقصود: فاستجاب الله دعاء نوح ـ عليه السلام ـ فأنجاه والمؤمنين معه في الفلك المملوء بالأمتعة والأزواج التي أُمِرَ أن يحمل، ثم كان الغرق والهلاك على القوم المكذبين، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

123 ـ 140. قوله تعالىٰ: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا

تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

في هذه الآيات: تكذيبُ عاد رسولهم الذي حذّرهم نقمة الله بهم إن أصرّوا على شركهم وكبرهم، وكفرهم بنعمه تعالى عليهم، فما زالوا في عنادهم واستهزائهم حتىٰ نزل أمر هلاكهم من الله العزيز الرحيم، وقد كان سبق في علم الله أن أكثرهم لا يؤمنون.

فقوله تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. أي: كذبوا رسولهم ـ هوداً ـ ﷺ، فهم بذلك يكذبون جميع المرسلين.

قال القرطبي: (التأنيث بمعنىٰ القبيلة والجماعة). وقال النسفي: (هي قبيلة، وفي الأصل اسم رجل هو أبو القبيلة).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال ابن كثير: (وهذا إخبارٌ من الله تعالىٰ عن عبده ورسوله هُودٍ ـ عليه السلام ـ: أنه دعا قومه عاداً وكانوا قوماً يسكنُون الأحقاف، وهي جبالُ الرمل قريباً من بلاد حَضْرَموتَ، متاخمةٌ لبلاد اليمن، وكان زمانُهم بعد قوم نوح، كما قال في سورة الأعراف: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: 69]، وذلك أنهم كانوا في غاية من قُوَّةِ التركيب، والقُوَّة والبطش الشديد، والطولِ المَديدِ، والأرزاقِ الدارَّة، والأموالِ والجنّاتِ والعيونِ، والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غيرَ الله معه، فبعث الله إليهم رجلاً منهم رسولاً وبشيراً ونذيراً، فدعاهم إلى الله وحدَه، وحذّرهم نِقمَتَه وعذابه في مخالفته، فقال لهم كما قال نوح لقومه).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾.

الرِّيع كل مكان مشرف من الأرض مرتفع، أو طريق أو واد. قال الرازي في «مختار الصِّحاح»: (و«الرِّيع» بالكسر المُرْتَفِع من الأرض، وقيل الجبل، ومنه قوله تعالىٰ:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾). فالمراد المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة.

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ يقول: بكل شَرَف). أو قال: (بكل طريق). قال: (الآية: علم). قال: (﴿ تَعْبَثُونَ﴾: تلعبون).

وعن مجاهد: (الريع: الثنية الصغيرة. أو قال: فجّ وواد. وقال: بين جبلين). وقال أيضاً: (﴿ بِكُلِّ رِيعٍ﴾: شرف ومنظر. ﴿ءَايَةً﴾ بنيان). وقال النسفي: (﴿ءَايَةً﴾ برج حمام أو بناء يكون لارتفاعه كالعلامة يسخرون بمن مرّ بهم).

قلت: ـ والمقصود ـ قال هود لقومه: أتبنون على كل مرتفع وشرف من الأرض بناء محكماً باهراً هائلاً ليكون مَعْلماً مشهوراً تفعلون ذلك عبثاً ولهواً وكبراً لا لحاجة لكم، وإنما بقصد الزينة والتفاخر وإظهار القوة وتضييع الأموال والأوقات فيما لا جدوىٰ منه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾. أي: تتخذون القصور والبنيان المشيدة كأنكم تخلدون.

قال مجاهد: (﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾: قصور مشيدة، وبنيان مخلدة). أو قال: (قصور مشيدة وبنيان). أو قال: (حصون وقصور). وقال قتادة: (هي مآخذ الماء). قال الجوهري: (المصنَعة كالحوض يجتمع فيها ماء المطر، وكذلك المصنُعة بضم النون. والمصانع الحصون).

قال ابن جرير: (المصانع جمع مصنعة، والعرب تسمي كل بناء مصنعة، وجائز أن يكون ذلك البناء كان قصوراً وحصوناً مشيدة، وجائز أن يكون كان مآخذ للماء).

قال القاسمي: (﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: راجين الخلود في الدنيا إشارة إلى أن عملهم ذلك، لقصر نظرهم على الدنيا والإعجاب بالآثار، والتباهي بالمشيدات، والغفلة عن أعمال المجدّين البصيرين بالعواقب، الصالحين المصلحين).

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله: حدثنا أبي، حدثنا الحَكَمُ بن موسىٰ، حدثنا الوليد، حدثنا ابن عَجْلان، حدثني عَونُ بن عبد الله بن عُتْبَةَ، أن أبا الدرداء ـ رضي الله عنه ـ لما رأىٰ ما أحدث المسلمون في الغوطة من البُنيان ونَصْبِ الشَّجر قام في مسجدهم فنادىٰ: (يا أهل دمشقَ! فاجتمعوا إليه، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: ألا تَستحيُون! ألا تَستحيون! ألا تَسْتَحيون! تجمعون ما لا تأكلون، وتبنُون ما لا تسكُنون، وتأملُون ما لا تُدرِكون! قد كانت قبلكم قرونٌ، يجمعون فَيُوعون، ويَبْنون فيوثِقون، ويأمُلونَ فيُطيلون، فأصبح أملُهم غروراً، وأصبح جمعُهم بوراً،

وأصبحت مساكِنُهم قبوراً ، ألا إن عاداً مَلكت ما بين عَدَن وعُمان خيلاً ورِكاباً ، مَنْ يشتري مني ميراثَ عادٍ بدرهمين) ـ ذكره الحافظ ابن كثير.

قلت: والبناء الضروري لحاجة العبد مما يُكِنُّ من المطر ويظلل من الشمس يؤجر به العبد إن شاء الله ، وأما تضييعُ الأموال في تشييد البنيان الذي لا يسكنه العبد ولا حاجة له به فهذا لا يؤجر عليه. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عبد الله بن عمر ، قال: [مرّ علينا رسول الله ﷺ ونحن نُعالِجُ خُصّاً لنا[1]. فقال: ما هذا؟ فقلت: خُصٌّ لنا وَهَىٰ ، نحن نُصْلِحُه. فقال رسول الله ﷺ: مَا أُرَى الأمْرَ إلا أعْجَلَ مِنْ ذلك][2].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه ، وابن ماجة في سننه ـ واللفظ له ـ عن ابن عمر قال: [لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ بنيتُ بيتاً يُكِنُّني من المطر ويكنني من الشمس. ما أعانني عليه خلق الله تعالىٰ][3].

الحديث الثالث: أخرج الطبراني بسند صحيح عن خباب ، عن النبي ﷺ قال: [كل نَفَقة يُنْفقُها العبدُ يُؤْجَرُ فيها إلا البنيانَ][4]. وفي لفظ: [ما أنفقَ مُؤمِنٌ مِنْ نَفَقةٍ إلا أُجِرَ فيها ، إلا نفقتَه في هذا التراب].

وله شاهد أخرجه ابن ماجة عن حارثة بن مُضَرِّب قال: [أتينا خباباً نعوده فقال: لَقَدْ طال سُقْمِي. ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تَتَمنَّوا المَوْتَ» لتَمَنَّيْتُه. وقال: «إن العَبْدَ لَيُؤْجَرُ في نَفَقَتِهِ كُلِّها ، إلا في التراب. أو قال: «في البناء»]. والمقصود: البناء فوق الحاجة.

وشاهد آخر رواه الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [النفقة كلها في سبيل الله إلا البناء فلا خير فيه].

---

(1) نعالج: أي نُصلح. «خصاً» الخص بيت من قصب. وهىٰ: أي ضعف واسترخىٰ.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4160) ـ كتاب الزهد. باب في البناء والخراب. وانظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3356).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح، وابن ماجة في السنن (4162) ـ واللفظ له ـ. انظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3357)، الباب السابق.

(4) حديث صحيح. أخرجه الطبراني والترمذي وابن ماجة بألفاظ متقاربة. انظر تخريج المشكاة (5182) ـ (5183). وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3358)، وصحيح الجامع (4442).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾. أي: وإذا أخذتم أحداً بعقوبة كنتم غلاظاً جبابرة قُساة. قال ابن جُريج: (القتل بالسيف والسياط).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾. أي: فاستتروا بعبادة ربكم وطاعة رسولكم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

تذكير لهم ببعض نعم الله الجليلة عليهم عسىٰ أن ينتهوا بذلك عن الكفر والظلم. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل هود لقومه من عاد: اتقوا عقاب الله أيها القوم بطاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم، وانتهوا عن اللهو واللعب، وظلم الناس، وقهرهم بالغلبة والفساد في الأرض، واحذروا سخط الذي أعطاكم من عنده ما تعلمون، وأعانكم به من بين المواشي والبنين والبساتين والأنهار ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ﴾ من الله ﴿عَظِيمٍ﴾).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾.

أي: فأجابت عاد هوداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ: إن وعظك إيانا وعدمه سواء، فلا تتعب نفسك فلن نؤمن لك.

وهذا كما في التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 6]. قال القاسمي: (تناهوا في الغواية والضلال، إلى حيث لا يجديهم الإنذار والتذكير).

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 96 ـ 97].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 53].

قال ابن عباس: (كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدىٰ، فأخبره الله تعالىٰ أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول).

أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما

قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان ، فقال: أتدرون ما هذان الكتابان؟ قال: قلنا لا إلا أن تُخْبِرنا يا رسول الله ، فقال للذي في يده اليمنىٰ: هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أُجمِل على آخرهم ، فلا يُزاد فيهم ولا يُنْقَصُ منهم أبداً. ثم قال للذي في شماله: هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقَصُ منهم أبداً. فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأي شيء إذن نعمَلُ إن كان هذا أمْراً قد فُرِغَ منه؟ قال رسول الله ﷺ: سدّدوا وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل ، وإنّ صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل ، ثم قال بيده فقبضها ، ثم قال: فرغ ربكم عز وجل من العباد ، ثم قال باليمنىٰ فنبذ بها فقال: فريق في الجنة ، ونبذ باليسرىٰ فقال: فريق في السعير][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

قال ابن عباس: (دين الأولين). وقال مجاهد: (كذبهم). والمقصود: طريقة الأولين وعادتهم وأخلاقهم في التعامل مع الوحي والمرسلين ، فهم سائرون على نهجهم ، يعيشون كما عاشوا ، ويموتون كما ماتوا ، ولا يؤمنون ببعث ولا نشور ولا حساب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾. أي: لا يقرّونَ بالعذاب الذي كتبه الله على مخالفة الرسل سواء في الدنيا أو الآخرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: فلما كذبت عاد هوداً أهلكناهم بريح صرصر عاتية ، أي: شديدة الهُبوب ، ذات برد شديد قارس ، فكان الجزاء من جنس العناد والعتو والتجبر ، وتركهم الله عبرة لمن يعتبر ، وكان قد سبق في علم الله أن أكثرهم لا يؤمنون.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: 15].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/ 167) ، والنسائي في «الكبرىٰ» (11473) ، والترمذي (2141) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (46) ، وكذلك (47) ، (48) ، (49) ـ (50). وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 821) ـ لتفصيل مفهوم الكتابة في اللوح المحفوظ.

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: 6 ـ 7].

قال ابن كثير: (أي: بَقُوا أبداناً بلا رُؤوس، وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتَقتلِعهُ وتَرْفَعُه في الهواء، ثم تَنْكِسهُ على أُمِّ رأسه فتَشدَخ دِماغَه، وتكسِر رأسه، وتُلقِيه، كأنهم أعجاز نخلٍ مُنْقَعِر. وقد كانوا تَحَصَّنُوا في الجبال والكُهوفِ والمغارات، وحَفَروا لهم في الأرض إلى أنصافِهم، فلم يُغن عنهم ذلك من أ مر الله شيئاً).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾. أي: العزيز في انتقامه من أعدائه، الرحيم بإنجاء أوليائه وأتباع رسله.

141 ـ 159. **قوله تعالىٰ:** ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٤١ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٤٢ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٤٣ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٤٤ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٤٥ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۝١٤٦ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝١٤٨ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ۝١٤٩ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝١٥٢ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٥٤ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥٦ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ۝١٥٧ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٥٩﴾.

في هذه الآيات: ذِكْرُ قصة ثمود الذين كانوا عَرَباً يسكنون مدينة الحِجْر، التي بين وادي القرىٰ وبلاد الشام، وتحذيرُ صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ لهم مغبة الاستمرار على الشرك بالله والإفساد في الأرض وَعَقْر الناقة التي جعلها الله اختباراً لهم، فكذبوه وعقروها فأصبحوا نادمين، وأخذهم العذاب ليكونوا آية لمن بعدهم وقد سبق في علم الله أن أكثرهم لا يؤمنون.

فقوله تعالىٰ: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

قال القرطبي: (ذكر قصة صالح وقومه وهم ثمود، وكانوا يسكنون الحِجْر: وهي ذوات نخل وزروع ومياه).

ولقد دعاهم نبيّهم صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال: ألا تتقون عقاب الله ـ يا قوم ـ على خلافكم أمره، ولزومكم معصيته، والإفساد في الأرض.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

أي: إني أرسلت إليكم وأنا أمين على رسالة الله لكم، فاتقوا الله أيها القوم واستمعوا نصيحتي لكم، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في تحذيري إياكم، فإني لا أبتغي من وراء بلاغي لكم أجراً ولا منزلة، وإنما أرجو بذلك الثواب الجزيل عند الله تعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾.

أي: قال صالح لقومه ثمود: أتظنون أنكم متروكون في هذه الدنيا آمنين، في بساتين وعيون ماء، وزروع ونخل قد أرطب ثمره فهو لين نضيج.

قال النسفي: (إنكار لأن يتركوا خالدين في نعيمهم لا يزالون عنه ﴿ فِي مَا هَٰهُنَآ ﴾ في الذي استقر في هذا المكان من النعيم ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ من العذاب والزوال والموت).

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ يقول: أينع وبلغ فهو هضيم). أو قال: (إذا رَطُبَ واسترخىٰ). وقال عكرمة: (الهضيم: الرطب اللين).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾. قال ابن عباس: (يعني حاذقين). أو قال: (شَرهين أشرين). قال ابن كثير: (كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وبَطراً وعبثاً، من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذِقين مُتقِنين لنحتِها ونَقْشِها، كما هو المشاهَدُ من حالهم لمن رأىٰ مَنَازِلهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾.

أي: فخافوا الله ربكم، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في نصحي لكم، ولا تتبعوا أمر الرؤساء

والكبراء دعاة الشرك والبطر فيكم ، الذين يسعون في أرض الله بالمعاصي والآثام ، ولا يصلحون أنفسهم ولا ما يعود نفعه بخير على الأنام.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾. قال مجاهد وقتادة: (إنما أنت من المسحورين). قال القرطبي: (أي: أصبت بالسحر فبطل عقلك ، لأنك بشر مثلنا فلِمَ تدّع الرسالة دوننا).

وقوله تعالىٰ: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾.

قال ابن عباس: (قالوا إن كنت صادقاً فادع الله يخرج لنا من هذا الجبل ناقة حمراء عشراء[1] فتضع ونحن ننظر ، وترد هذا الماء فتشرب وتغدو علينا بمثله لبنا). فدعا الله وفعل الله ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

أي: هذه ناقة أخرجها الله لكم تردُ ماءكم يوماً ، ويوماً تردونه أنتم ، ليس لكم في يوم وردها أن تشربوا من شربها شيئاً ، ولا لها أن تشرب في يومكم مما لكم شيئاً. ولا تنالوها بضرب أو أذىً فينالكم عذاب أليم. قال ابن جرير: (ويعني بالشرب: الحظّ والنصيب من الماء).

وعن ابن جريج: (﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ لا تعقروها. وقوله: ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يقول: فيحل بكم من الله عذاب يوم عظيم عذابه).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾.

أي: فانبعث أشقاهم فعقرها برضاهم فأصبحوا نادمين على عقرها خوفاً من نزول العذاب بهم وحلول النقمة عليهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

أي: إن في خبر ثمود لعبرة كبيرة ، وقد سبق في علم الله أن أكثرهم لا يؤمنون. وإن ربك ـ يا محمد ـ هو العزيز في انتقامه من أعدائه ، الرحيم بإنجائه أولياءه.

---

(1) أي: مضى لحملها عشرة أشهر. فهي الناقة العشراء في كلام العرب.

160 ـ 175 . قوله تعالىٰ : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: تكذيبُ قوم لوط رسولهم حين دعاهم إلى إفراد الله تعالىٰ بالتعظيم ، ونبذ الفواحش وإتيان الذكران من العالمين ، فهدّدوه إن لم ينته عن نصحهم ليكونن من المخرجين ، وما زالوا على فاحشتهم حتىٰ دكهم الله بعذاب مهين ، وكان في ذلك آية من الله العزيز الرحيم ، وقد كان سبق في علم الله أن أكثرهم لا يؤمنون .

فقوله تعالىٰ : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال ابن كثير: (يقول الله تعالىٰ مخبراً عن عبده ورسولِه لوطٍ ـ عليه السلام ـ وهو: لوط بن هارانَ بن آزَرَ ، وهو ابنُ أخي إبراهيم الخليل ، وكان الله تعالىٰ قد بَعَثَه إلى أمة عظيمةٍ في حياة إبراهيم ، وكانوا يسكُنون «سَدُوم» وأعمالَها التي أهلكها الله بها ، وجُعل مكانها بُحيرةٌ مُنْتِنَةٌ خَبيثة ، وهي مشهورة ببلاد الغَور ، متاخمة لجبال بيت المقدس ، بينها وبين بلاد الكَرَك والشَّوبَك . فدعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوا رَسُولهم الذي بعثه الله إليهم ، ونهاهم عن معصية الله ، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم ، مما لم يسبقهُم الخلائقُ إلى فِعله ، من إتيان الذُّكْرَان دونَ الإناث) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال ابن جرير: (يعني: أتنكحون الذكران من بني آدم في أدبارهم . . يقول: وتدعون الذي خلق لكم ربكم من أزواجكم من فروجهنّ ، فأحله لكم) .

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾.

قال مجاهد: (تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال وأدبار النساء). وقال ابن جريج: (﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ قال: قوم معتدون).

وفي المسند ومستدرك الحاكم وسنن ابن ماجة بسند صحيح عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: [مَنْ وَجَدْتُموه يَعْمَلْ عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعِلَ والمفعولَ به][1].

وفي صحيح سنن ابن ماجة بسند حسن عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في الذي يعمل عمل قوم لوط، قال: [ارجموا الأعْلَىٰ والأسفل. ارجموهما جميعاً][2].

وفي الباب عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي عَمَلُ قومِ لوط][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾.

أي: ـ فأجابوه ـ لئن لم تنته يا لوط عن نهينا عن الاستمتاع بالذكران لننفينك من بين أظهرنا وبلدنا.

كما قال تعالىٰ: ﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: 56].

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾. أي: من المبغضين المنكرين لعملكم اللواط. والقلي: البغض.

قال ابن جرير: (يقول لهم لوط: إني لعملكم الذي تعملونه من إتيان الذكران في أدبارهم من القالين، يعني من المبغضين، المنكرين فعله).

وقوله تعالىٰ: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾.

أي: دعا لوط ـ ﷺ ـ ربه عز وجل حين استعصىٰ عليه قومه وأصروا على ركوب

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (2561) ـ كتاب الحدود ـ باب من عَمِلَ عملَ قوم لوط. ورواه أحمد والحاكم. انظر صحيح ابن ماجة (2075)، وصحيح الجامع الصغير (6465).

(2) حديث حسن. انظر صحيح سنن ابن ماجة (2076)، والإرواء (6/ 17).

(3) حديث حسن. انظر صحيح سنن ابن ماجة (2077)، الباب السابق. والمشكاة (3577).

الفاحشة المقيتة أن ينجيه الله من عذاب عملهم ، فأنجاه الله تعالىٰ وأهله الذين تابعوه على الإيمان. إلا امرأته كانت عجوز سوء. قال قتادة: (غبرت في عذاب الله عز وجل أي بقيت). قال ابن كثير: (بقيت فهلكَتْ مع من بَقِيَ من قومها).

وقال ابن جرير: (فإنها أهلكت من بين أهل لوط ، لأنها كانت تدل قومها على الأضياف). قلت: والله تعالىٰ أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ۝١٧٢ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾.

أي: أهلكناهم بالخسف والحصب. قال مقاتل: (خسف الله بقوم لوط وأرسل الحجارة على من كان خارجاً من القرية).

قال القرطبي: (﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ يعني الحجارة ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾. وقيل: إن جبريل خسف بقريتهم وجعل عاليها سافلها ، ثم أتبعها الله بالحجارة).

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

أي: إن في تدمير قرية قوم لوط على رؤوس أهلها لعبرة لمن سيأتي بعدهم ، وما كان أكثرهم في سابق علم الله مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز في انتقامه من الطغاة والعتاة والمجرمين ، الرحيم في إنجاء أوليائه الصالحين.

176 ـ 191. **قوله تعالى:** ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٧٨ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٧٩ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٠ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝١٨٣ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٨٤ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝١٨٦ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٨٧ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٨٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٩١ ﴾.

في هــذه الآيــات: تكذيبُ أهل مدين نبيّهم شعيباً ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، الذي

دعاهم إلى إفراد الله تعالىٰ بالعبادة والوفاء بالقسط والميزان ، فما زالوا على كبرهم وعنادهم حتى دكّهم الله بالعذاب ليكون آية لمن بعدهم تتناقله الأجيال عبر الزمان ، وقد كان سبق في علم الله أن أكثرهم لن يكونوا في أهل الإيمان .

فقوله تعالىٰ : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ . يعني أهل مدين كذبوا نبيهم شعيباً . والأيك : الشجر الملتف الكثير ، والواحدة أيكة . قال ابن عباس : (قوله : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ قال : أهل مدين ، والأيكة : الملتف من الشجر) . وقال ابن زيد : (بعث الله شعيباً إلى قومه من أهل مدين وإلى أهل البادية ، قال : وهم أصحاب ليكة . وليكة والأيكة : واحد) . قال ابن كثير : (وكان نبيُّ الله شُعيب من أنفسهم ، وإنما لم يَقُل هاهنا أخوهم شعيب ، لأنهم نُسِبُوا إلى عبادة الأيكة ، وهي شجرة . وقيل : شجَرٌ مُلْتَفٌّ كالغيضةِ ، كانوا يعبدونها) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

أي : إذ خاطبهم نبيّهم شعيب ﷺ ألا تستترون بطاعة الله وتحرزون أنفسكم من عقابه ، إني لكم رسول أمين على ما أرسلت به من الوحي إليكم ، فخافوا الله ربكم وأطيعوا رسولكم في نصحه لكم ، فما سألتكم أجراً على بلاغي لكم ، وإنما أحتسب ثواب ذلك عند الله بارئكم .

وقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴾ .

أي : أوفوا الناس حقوقهم إذا وزنتم لهم أو كِلْتم إليهم ، وإياكم والتطفيف .

قال القرطبي : (﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴾ الناقصين للكيل والوزن) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ .

القسطاس : هو الميزان . وقيل : القَبَّان . قال مجاهد : (القسطاس المستقيم : العدل بالروميّـة) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ . قال ابن جرير : (يقول : ولا تنقصوا الناس حقوقهم في الكيل والوزن) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ . قال النسفي : (ولا تبالغوا فيها في الإفساد ، نحو قطع الطريق والغارة وإهلاك الزروع ، وكانوا يفعلون ذلك فنهوا عنه) .

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. قال مجاهد: (الخليقة). وقال ابن زيد: (الخَلْقَ الأولين، الجبلة: الخَلْق). قال ابن كثير: (يُخَوِّفهم بأس الله الذي خلقهم وخَلَقَ آباءهم الأوائل).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ ـ يعنون من المسحورين. وهذا كقيل ثمود لرسولها من قبل، تشابهت قلوبهم، فهم يلجؤون عند إفلاس حججهم إلى الاتهام والمكر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

أي: وما أنت إلا بشر مثلنا تأكل وتشرب، ومن ثَمَّ فلا يُعقل اصطفاؤك من بيننا. قال القاسمي: (﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: فيما تدّعيه من النبوة).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

أي: فأسقط علينا قطعاً من السماء إن كنت صادقاً في دعواك النبوة. قال ابن عباس: (﴿كِسَفًا﴾ يقول: قِطعاً). وقال الضحاك: (جانباً من السماء). وقال ابن زيد: (﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: ناحية من السماء، عذاب ذلك الكسف). وقال السدي: (عذاباً من السماء).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

قال القرطبي: (تهديد، أي إنما عليَّ التبليغ وليس العذاب الذي سألتم إليّ وهو يجازيكم). وقال ابن كثير: (يقول: الله أعلمُ بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم. وكذلك وقع بهم كما سألوا، جزاءً وفاقاً، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. وهذا من جنس ما سألوا من إسقاط الكِسف عليهم، فإن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ جعل عقوبتهم أن أصابهم حَرٌّ شديد جداً مُدَّةَ سبعة أيام لا يَكُنُّهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أَظَلَّتهم، فجعلوا ينطلِقون إليها يستظِلّون بِظِلّها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالىٰ عليهم منها شَرَراً من نار، ولهباً وَوَهجاً عظيماً، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾).

وعن مجاهد: (﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ قال: أظلّ العذابُ قوم شعيب).

وقال ابن زيد: (بعث الله إليهم ظُلة من سحاب، وبعث إلى الشمس فأحرقت ما

على وجه الأرض ، فخرجوا كلهم إلى تلك الظلة ، حتىٰ إذا اجتمعوا كلهم ، كشف الله عنهم الظلة ، وأحمىٰ عليهم الشمس ، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المِقلَى) .

وقد ذُكِرَت قصة إهلاك أهل مدين في القرآن الكريم في أحوال ثلاثة ، حسب ما يناسب السياق .

الحال الأول: قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف : 91] .

الحال الثانية: قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود: 94] .

الحال الثالثة: قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : 189] .

ففي آية «الأعراف» ذكر هلاكهم بالرجفة ، وناسب ذلك محاولتهم الإرجاف بنبيّ الله ومن اتبعه حيث قالوا له : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ ﴾ [الأعراف : 88] .

وفي آية «هود» ذُكر هلاكهم بالصيحة ، وناسب ذلك محاولة التهكم بنبيِّهم والازدراء ، حيث قالوا له : ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود: 87] ، فناسب أن تأتيهم صيحة تخرسهم .

وهنا في آية «الشعراء» ذُكر هلاكهم بإسقاط الكسف عليهم كما سألوا ، وإنما كان الكسف شرراً ولهباً من نار تحرق أجسامهم وتزهق أرواحهم وتخترق الظلة التي كانت من مكر الله بهم .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

أي : إن في إهلاك أهل مدين بهذه الصورة المقيتة المؤلمة لعبرة لمن جاء بعدهم ، وما كان أكثرهم في سابق علمه تعالىٰ مؤمنين . وإن ربك ـ يا محمد ـ لهو العزيز في انتقامه من أعداء رسله ، الرحيم في إنجائه الصالحين منهم .

192 ـ 202 . قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن

لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: نزولُ جبريل ـ عليه السلام ـ بهذا القرآن ، بأمر من الرحمان ، على رسول الأنام ، عليه الصلاة والسلام ، بلسان عربي مبين ، ليكون نذيراً للعالمين ، وخبر هذا القرآن مذكور في كتب الأولين ، ولو نزل على بعض الأعاجم ممن لا يحسن العربية فقرأه عليهم قراءة فصيحة لاتهموه بالسحر لفرط عنادهم ، فهو لا يؤمنون حتىٰ يروا العذاب المباغت الأليم .

فقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . قال قتادة: (هذا القرآن) .

أي: أنزله الله تعالىٰ عليك ـ يا محمد ـ وأوحاه إليك .

وقوله تعالىٰ: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ . قال ابن عباس: (جبريل) .

وقوله تعالىٰ: ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ . قال ابن جرير: (يقول: نزل به الروح الأمين فتلاه عليك يا محمد ، حتىٰ وعيته بقلبك. يقول: لتكون من رسل الله الذين كانوا ينذرون من أُرسلوا إليه من قومهم ، فتنذر بهذا التنزيل قومك المكذّبين بآيات الله) .

وقوله تعالىٰ: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾. قال القرطبي: (أي لئلا يقولوا لسنا نفهم ما تقول). وقال ابن كثير: (أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك بلسانك العربيِّ الفَصِيح الكاملِ الشامل ، ليكون بيّناً واضحاً ظاهراً ، قاطِعاً للعُذر ، مُقيماً للحجَّة ، دليلاً إلى المحجَّة) .

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .

الزبر: الكتب ، واحدها زبور ، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ [القمر: 52]. أي: مكتوب في صُحف الملائكة. قال النسفي: (﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ وإن القرآن ﴿ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يعني ذكره مثبت في سائر الكتب السماوية ، وقيل إن معانيه فيها) .

قلت: والبشارة بأحمد ـ ﷺ ـ وصفاته مذكورة في التوراة والإنجيل نحو ما هي في القرآن .

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: 157].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6].

وفي صحيح السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الحاكم بسند صحيح عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [مكتوب في الإنجيل: لا فظٌّ، ولا غليظٌ، ولا سخَّابٌ بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلَها، بل يعفو ويصفح][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن عطاء بن يسار قال: [لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: أجل، والله إنه لموصوف ببعض صفته في القرآن، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: 45] وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتىٰ يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صمّاً وقلوباً غلفاً][2].

الحديث الثالث: أخرج الدارمي وكذلك صاحب «مشكاة المصابيح» ـ واللفظ له ـ عن كعب يحكي عن التوراة قال: [نجد مكتوباً محمد رسول الله، عبدي المختار، لا فظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، مولده بمكة، وهجرته بطيبة، وملكه بالشام، وأمته الحمادون، يحمدون الله في السراء والضراء، يحمدون الله في كل منزلة، ويكبرونه على كل شرف، رعاة للشمس، يصلون الصلاة إذا جاء وقتها، يتأزّرون على أنصافهم، ويتوضؤون على

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 614)، وابن عساكر (1/ 264/ 2)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (2458).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (2125) ـ كتاب البيوع ـ باب كراهية السَّخَب في السُّوق. وانظر كذلك ـ (4838) ـ كتاب التفسير.

أطرافهم ، مناديهم ينادي في جو السماء ، صفّهم في القتال وصفهم في الصلاة سواء ، لهم بالليل دوي كدوي النحل][1] .

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ .

قال مجاهد: (يعني عبد الله بن سَلام وسلمان وغيرهما ممن أسلم) .

قال ابن كثير: (أي: أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها؟! والمراد العدول منهم ، الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومَبْعَثِهِ وأمَّتِهِ ، كما أخبر بذلك مَنْ آمَنَ منهم كعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي ، عمن أدركه منهم ومن شاكلهم) .

قال القرطبي: (وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين ، لأنهم كانوا يرجعون في أشياء من أمور الدين إلى أهل الكتاب ، لأنهم مظنون بهم علمٌ) .

قلت: وقد روىٰ بعض أهل السنن خبر اكتشاف عبد الله بن سلام صدق النبوة في وجه النبي ﷺ خلال تأمله فيه ، وأن وجهه عليه الصلاة والسلام قد امتلأ صدقاً ونوراً .

فقد أخرج الترمذي وابن ماجة والحاكم بإسناد على شرط الشيخين عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: [أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، انجفَلَ الناس إليه ، فكنت فيمن جاءه ، فلما تأمَّلْتُ وجهَه واسْتَبَنْتُهُ ، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، قال: فكان أول ما سمعتُ من كلامه أن قال: أيها الناس! أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصِلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام][2] .

ثم أقبل عبد الله بن سلام فأسلم وشهد للنبي ﷺ بأنه رسول الله حقاً ، وأنه جاء بحق ، ثم باهت يهود في ذلك وكشف كذبهم ومكرهم أمام النبي ﷺ ، وذلك بعد أن استقر النبي ﷺ في دار أبي أيوب بعد وصوله المدينة .

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أنس قال: [. . . فقال نبيّ الله ﷺ: أيّ بيوت أهلِنا أقربُ؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبيّ الله، هذه داري وهذا بابي ، قال: فانطلقْ فَهيِّئْ لنا مقيلاً . قال: قوما على بركة الله ، فلما جاء نبي الله ﷺ جاء عبد الله بن سلام ،

---

(1) هذا لفظ المصابيح ، ورواه الدارمي مع تغيير يسير. انظر تخريج: «مشكاة المصابيح» (5771) ـ كتاب الفضائل والشمائل ـ وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 908 ـ 910) لتفصيل البحث.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي وابن ماجة والحاكم على شرط الشيخين. انظر صحيح الترغيب (1/ 612).

فقال: أشهد أنك رسول الله وأنك جئت بحق ، وقد علمت يهودُ أني سيدهم وابن سيِّدهم وأعلمهم وابن أعلمهم ، فادعهم فاسألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت ، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا فِيَّ ما ليس فِيَّ ، فأرسل نبي الله ﷺ فأقبلوا فدخلوا عليه فقال لهم رسول الله ﷺ: يا معشر اليهود! وَيْلكم اتقوا الله ، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً ، وأني جئتكم بحق فأسلموا. قالوا: ما نَعْلَمُهُ. قالوا للنبي ﷺ ، قالها ثلاثَ مرار. قال: فأيُّ رجل فيكم عبدُ الله بنُ سلام؟ قالوا: ذاكَ سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمُنا وابن أعلمنا. قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشىٰ لله ما كان لِيُسْلِم. قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشىٰ لله ما كان ليسلم. قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشىٰ لله ما كانَ لِيُسْلِم. قال: يا ابن سلام اخرج عليهم. فخرج فقال: يا معشر اليهود اتقوا الله ، فو الله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بحق. قالوا: كذبت ، فأخرجهم رسول الله ﷺ][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾.

الأعجم هو الذي لا يفصح ، وكذلك الأعجمي ، ففيه زيادة ياء النسبة للتأكيد.

قال القاسمي: (أي: ولو نزلناه بنظمه البديع على بعض الأعاجم الذي لا يحسن العربية ، فقرأه عليهم قراءة فصيحة ، انفتق لسانه بها ، خرقاً للعادة ، لكفروا به كما كفروا. ولتمحّلوا لجحودهم عذراً. ولسموه سحراً ، لفرط عنادهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

قال ابن جريج: (﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ ﴾ قال الكفر ﴿ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾). وقال عكرمة: (القسوة). وقال يحيىٰ بن سلاّم: (سلكنا التكذيب في قلوبهم ، فذلك الذي منعهم من الإيمان).

والمقصود: كذلك أدخلنا في قلوب المجرمين ترك الإيمان بهذا القرآن ، والجدال بالباطل لمحاربته ، ليذوقوا وبال عنادهم وتكبرهم عذاباً أليماً في عاجل الدنيا ويوم القيامة.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ (3911) ـ كتاب مناقب الأنصار ، وانظر تفصيل ذلك في كتابي: السيرة النبوية (1/ 465 ـ 467).

وقوله تعالىٰ: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾.

قال النسفي: (المراد معاينة العذاب عند الموت ويكون ذلك إيمان يأس فلا ينفعهم).

وقال ابن جرير: (فعلنا ذلك بهم لئلا يصدقوا بهذا القرآن، حتىٰ يروا العذاب الأليم في عاجل الدنيا، كما رأت ذلك الأمم الذين قصّ الله قصصهم في هذه السورة).

وقوله تعالى: ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

أي: فيأتيهم العذاب الأليم فجأة وهم لا يعلمون اقترابه، وإنما يبغتهم بغتة فإذا هم في العذاب المهين المذل.

203 ـ 209. قوله تعالىٰ: ﴿ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾.

في هذه الآيات: سؤالُ المشركين حين نزول العذاب بهم النظرة والإمهال دون جدوىٰ، وتوبيخٌ لهم وإنكار عليهم الاستهزاء بقدوم العذاب، وسنة الله إنذار أهل القرىٰ قبل حلول العذاب، فما الله بظلام للعبيد.

فقوله تعالىٰ: ﴿ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾.

قال النسفي: (يسألون النظِرة والإمهال طرفة عين فلا يجابون إليها).

وقال ابن كثير: (أي: يَتَمَنَّون حين يُشاهدون العذاب أن لو أُنظِروا قليلاً ليعملوا في زعمهم بطاعة الله، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: 44]، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته نَدِم نَدَماً شديداً).

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ـ توبيخ لهم، وإنكار عليهم الاستهزاء بقدوم العذاب، وقولهم تنطّعاً وغروراً: ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: 32]. وكقولهم: ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت: 29].

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾.

أي: أفرأيت ـ يا محمد ـ إن متعناهم في هذه الدنيا سنين ـ والمراد أهل مكة ومن ثم فالآية عامة في أمثالهم من المستكبرين ـ ثم نزل بهم العذاب والهلاك الذي وُعدوا به على بغيهم وعنادهم، فأي شيء يُجدي عنهم ما كانوا فيه من الزخارف والبهجة والنعيم، أو فما أغنىٰ عنهم الزمان الذي كانوا يمتعونه.

وفي الأثر عن الزهري[1]: إن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ ثم يبكي ويقول:

نهارُك يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ ... وليلُكَ نومٌ والرَّدىٰ لك لازمُ
فلا أنتَ في الأيقاظ يقظانُ حازمٌ ... ولا أنتَ في النُّوَّام ناجٍ فسالمُ
تُسَرُّ بما يَفنىٰ وتفرحُ بالمنىٰ ... كما سُرَّ باللذات في النوم حالم
وتسعىٰ إلى ما سوف تكره غِبَّهُ ... كذلك في الدنيا تعيشُ البهائم

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات: 46].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: 35].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ [الليل: 11].

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [يُؤتىٰ بأنعمِ أهلِ الدنيا، مِنْ أهل النار، يوم القيامة، فَيُصْبَغُ في النار صَبْغَةً، ثمَ يُقال: يا ابنَ آدمَ! هل رأيتَ خيراً قطّ؟ هل مَرَّ بك نعيمٌ قط؟ فيقول: لا، والله! يا رب!] الحديث[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾.

إخبار عن عدله تعالىٰ في خلقه، فإنه قد أعذر إلى كل أمة قبل إهلاكها، فلما طغوا وأبوا إلا الكفر والعناد قابلهم بالعذاب والدمار.

---

(1) ذكره القرطبي في التفسير، عند هذه الآية.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2807)، وأحمد (3/ 203)، وأخرجه أبو يعلىٰ (3521).

قال الكسائي: ﴿ذِكْرَىٰ﴾ في موضع نصب على الحال. وقال الفراء: بل في موضع نصب على المصدر والتقدير: يذكّرون ذكْرىٰ. واختاره القرطبي وقال: (وهذا قول صحيح، لأن معنىٰ ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ إلا لها مذكّرون. ويجوز أن يكون ﴿ذِكْرَىٰ﴾ في موضع رفع على إضمار مبتدأ. قال أبو إسحاق: أي إنذارنا ذكرىٰ. وقال الفراء: أي ذلك ذكرىٰ، وتلك ذكرىٰ. ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: 8].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر مرفوعاً إلى النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: [قال الله تعالىٰ: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا][1].

210 ـ 212. قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾.

في هذه الآيات: حفظُ الله القرآن عن أيدي الشياطين وسمعهم برمي الشهب عليهم، فهو تنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلب محمد النبي الأمين.

وعن قتادة: (قوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ قال: هذا القرآن. وفي قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ قال: عن سمع السماء).

فذكر سبحانه أن هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إنما هو تنزيل رب العالمين نزل به الروح جبريل الأمين، وما تنزلت به الشياطين، فإن ذلك ممتنع عليهم من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾. قال ابن كثير: (أي: ليس هو من بُغيتهم ولا من

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 17)، وأحمد في المسند (5/ 160) من حديث أبي ذر.

طَلِبَتهم ، لأن من سَجَاياهم الفساد وإضلال العباد ، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونورٌ وهدىٰ وبرهان عظيم ، فبينه وبين الشياطين منافاةٌ عظيمة).

الوجه الثاني: ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾. أي: ولو انبغىٰ لهم لما استطاعوا ذلك. قال النسفي: (وما يتسهل لهم ولا يقدرون عليه). وقال ابن جرير: (يقول: وما يستطيعون أن يتنزلوا به ، لأنهم لا يصلون إلى استماعه في المكان الذي هو به من السماء).

الوجه الثالث: ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾. قال القرطبي: (أي برمي الشهب). والمقصود: إنهم عن استراق السمع أصبحوا ممنوعين بعد بعثة النبي ﷺ.

ففي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك: 5].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴾ [الحجر: 16 ـ 18].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت: 12].

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: [انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين. فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب. قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث ، فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء. قال: فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر. فلما سمعوا القرآن تسمعوا له فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجباً] الحديث[1].

213 ـ 220. قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4921) ، كتاب التفسير ، ورواه مسلم والترمذي وغيرهم.

وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾.

في هذه الآيات: تحذيرُ الله تعالىٰ من الشرك، وأمرُه نبيّه ـ ﷺ ـ البدء بالقرابة والعشيرة في الدعوة وخفض الجناح للمؤمنين، والتوكل عليه إنه هو العزيز الرحيم، الذي يرىٰ قنوتك له ـ يا محمد ـ وتقلبك في الساجدين.

فقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾. قيل: المعنىٰ قل لمن كفر هذا. وقيل: الخطاب للنبي ﷺ والمراد من حوله وأمته فهو المعصوم لا يشرك بالله شيئاً. قال القرطبي: (ودلّ على هذا قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي: لا يتكلون على نسبهم وقرابتهم فيدعون ما يجب عليهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

أَمْرٌ بإنذار العشيرة والأقربين، فقد صحّ الخبر بانقضاء مرحلة الدعوة السرية بنزول هذه الآية، وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم ـ واللفظ للإمام البخاري ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فِهْر، يا بني عَدِيّ لبطون قريش حتىٰ اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرُجَ أرسلَ رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرأيتكم لو أخبرْتُكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغيرَ عليكم أكنتم مصدقيَّ؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبّاً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾][(1)].

الحديث الثاني: خرّج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: [لما أنزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فَعَمَّ وخَصَّ، فقال:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4770) ـ كتاب التفسير. وانظر (3525)، (4971). ورواه مسلم (208)، والترمذي (3363)، والنسائي في «الكبرىٰ» (10819)، وأخرجه أحمد (1/ 281)، (1/ 307)، وابن حبان (655).

يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني مُرَّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبدِ شمس أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد مَنَافٍ أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار ، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رحِماً سَأَبُلُّها بِبِلالِها][1] .

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن أبي هريرة قال: [قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ قال: يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبدِ مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباسُ بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا صفيةُ عمةَ رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمةُ بنتَ محمد سليني ما شِئت لا أغني عنك من الله شيئاً][2] . وله شاهد عند الترمذي من حديث أبي موسى الأشعري قال: [لما نزل: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ . وضع رسول الله ﷺ إصبعيه في أذنيه فرفع صوته فقال: «يا بني عبد مناف يا صباحاه»] .

فكان الأمر بالبدء بالأهل والقرابة في الدعوة ، فإن الأقارب والأرحام سند طبيعي للرجل ، وصلة فطرية فطر الله الخلق عليها ، فإن آمنوا كان ذلك قوة إلى قوة ، ونوراً على نور ، قد جمعوا بين قوة الإيمان ونور الإسلام ، وبين صلة القرابة والنسب وأُنس الأرحام .

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴾ [محمد: 22] .

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم: 6] .

وفي صحيح مسلم عن قبيصة أن النبي ﷺ قال: [يا بني عبد مناف ، يا بني عبد

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (204) ـ كتاب الإيمان ، وأخرجه الترمذي (3185) ، والنسائي (6/ 248) ، وأخرجه أحمد (2/ 333) . وانظر صحيح البخاري (2753) نحوه.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4771) ـ كتاب التفسير ، وانظر صحيح مسلم (206)، ح (352)، ومسند أحمد (2/ 398)، (2/ 350) . وانظر للشاهد صحيح الترمذي (2547) .

مناف! إني نذير ، إنما مثلي ومثلكم ، كمثل رجل رأىٰ العدوّ ، فانطلق يريد أهله ، فخشي أن يسبقوه إلى أهله ، فجعل يهتف: يا صباحاه ، يا صباحاه! أُتيتُم أُتيتم][1] .

ثم إن الرحم المظلومة والقرابة المقطوعة ستقف يوم القيامة أمام ربها عز وجل تلتمس منه النصر من الذي قطعها ومن الذي ظلمها ، فينتصر الله لها أمام الخلائق في مشهد الحساب .

فقد أخرج الإمام البخاري في «الأدب المفرد» بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو وأبي هريرة قالا: [عطف لنا النبي ﷺ إصبعه فقال: الرحم شَجْنَةٌ من الرحمن ، من يصلها يصله ، ومن يقطعها يقطعه ، لها لسان طلقٌ ذَلْقٌ يوم القيامة ، تقول: يا ربّ إني ظلمت ، يا ربّ إني قطعت ، يا ربّ إني إني ، فيجيبها: ألا ترضين أن أقطع من قطعك ، وأصل من وصلك؟ (وفي رواية: قالت بلىٰ يا ربّ. قال: فذلك لك). ثم قال أبو هريرة: فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: 22]][2] .

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

قال ابن زيد: (يقول: لِنْ لهم). قال ابن جرير: (يقول: وألن جانبك وكلامك لمن اتبعك من المؤمنين).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

أي: فإن أصرّت عشيرتك ـ يا محمد ـ وقرابتك على عبادة الأوثان ولزوم تقاليد الآباء الفاسدة وأبوا إلا معصية أمرك فيما تدعوهم إليه من الوحي الكريم والهدي العظيم ، فقل لهم: إني بريء مما أنتم عليه من عبادة الأصنام ومعصية رب الأنام.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ .

أي: واجعل اعتمادك ـ يا محمد ـ على العزيز في انتقامه من أعدائه ، الرحيم بأوليائه وأهل الإنابة إليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ . قال مجاهد: (أينما كنت).

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (207) ـ كتاب الإيمان، وكتابي: السيرة النبوية (1/ 186-197) لتفصيل هذا البحث: «مرحلة الجهر بالدعوة وخصائص المرحلة الجهرية».

(2) حديث صحيح. انظر: «صحيح الأدب المفرد» (39) باب فضل صلة الرحم. وكذلك (46) باب إثم قاطع الرحم ، لتفصيل الروايات.

قال النسفي: (﴿ الَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ متهجداً). وقال ابن جرير: (الذي يراك حين تقوم إلى صلاتك).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾. قال ابن عباس: (يقول: قيامك وركوعك وسجودك). وقال عكرمة: (قائماً وساجداً وراكعاً وجالساً).

وعن قتادة: (﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ قال: في المصلين). قال ابن عباس: (يراك وأنت مع الساجدين تقلب وتقوم وتقعد معهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

أي: السميع لأقوال عباده ومناجاتهم، العليم بأعمالهم وتقلبهم وحركاتهم وسكناتهم.

221 ـ 227. **قوله تعالىٰ:** ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ۝ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ۝ ﴾.

في هذه الآيات: تَنَزُّلُ الشياطين على الأفاكين الآثمين، وذمُّ الشعراء الضالين المنافقين، واستثناءُ الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات وانتصروا للحق وكانوا من الذاكرين، وسيعلم الظالمون أي منقلب ينقلبون.

فقوله تعالىٰ: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾.

أي: يقول تعالىٰ: هل أنبئكم أيها الناس على من تتنزل الشياطين؟! إنها تتنزل على كل كذاب بهات دجال آثم.

قال مجاهد: (﴿ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾: كل كذّاب من الناس). وقال قتادة: (هم الكهنة تسترق الجن السمع، ثم يأتون به إلىٰ أوليائهم من الإنس).

وقوله تعالىٰ: ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾. أي: يسترقون السمع فيقذفون

بالشهب فيزيدون الخبر بالكذب. قال مجاهد: (الشياطين ما سمعته ألقته على كلّ أفّاك كذّاب).

وفي صحيح السنة المطهرة من آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها قالت: [سألَ رسولَ الله ﷺ ناسٌ عن الكُهّان، فقال: لَيْسَ بشيء. فقالوا: يا رسول الله إنَّهم يُحَدِّثوننا أحْياناً بشيءٍ فيكون حقاً، فقال رسول الله ﷺ: تلك الكلمةُ من الحق يَخْطَفُها الجِنِّيُ فيُقِرُّها في أُذُنِ وَلِيِّهِ فيخلِطُون معها مئة كَذْبَةٍ][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري وأبو داود عن سفيان عن عمرو قال: سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يقول: إنَّ نبي الله ﷺ قال: [إذا قضىٰ الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعاناً لقوله، كأنه سِلْسِلَةٌ على صَفْوان، حتىٰ إذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحقَّ، وهو العَلِيُّ الكبير. فيسمعُها مُسترقو السمعِ، ومُسْتَرِقو السمع ـ هكذا بعضُهم فوق بعض ـ وَوَصَفَ سفيانُ بيَده فَحَرَفها، وبَدَّد بين أصابعه ـ فيسمَعُ الكلمةَ، فيُلْقِيها إلى مَن تَحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحتَه، حتىٰ يُلقِيها على لسانِ السَّاحر ـ أو: الكاهن. فرُبَّما أدركَهُ الشهابُ قبل أن يُلقيها، وربَّما ألقاها قبل أن يدرِكَهُ، فَيَكذِبُ معها مئة كذبة. فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكَذا؟ فَيُصَدَّقُ بتلك الكلمة التي سُمِعت من السماء][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: [الملائكةُ تحَدَّثُ في العَنانِ ـ والعَنانُ: الغمامُ ـ بالأمر يكون في الأرض فتَسْمَعُ الشياطين الكلمةَ فتَقُرُّهَا في آذان الكاهن كما تُقَرُّ القارورةُ فيزيدون معها مئة كِذْبَةٍ][3].

وفي رواية: تقول عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إنَّ الملائكة تنزلُ في العَنانِ ـ وهوَ السَّحاب ـ فتَذْكُرُ الأمْرَ قُضِيَ في السَّماء، فَتَسْتَرِقُ الشياطين السَّمْعَ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5762) ـ كتاب الطب. باب الكهانة، ورواه أيضاً برقم (6213)، وأخرجه مسلم في الصحيح (2228)، وأحمد في المسند (6/ 87).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4701)، وأبو داود (3989)، والترمذي (3223)، وأخرجه ابن ماجة في السنن (194)، وكذلك ابن حبان في صحيحه (36).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري ـ (3288) ـ كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، وانظر للرواية الثانية (3210) ـ كتاب بدء الخلق ـ باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم.

فَتَسْمَعُهُ ، فتوحيه إلى الكُّهان ، فيكذِبُون معها مئة كَذْبَةٍ من عِنْد أنفسهم].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾. قال مجاهد: (الشياطين).

وقال قتادة: (يتبعهم الشياطين). وقال عكرمة: (عصاة الجن). وقال ابن زيد: (الغاوون المشركون). وعن ابن عباس قال: (كان رجلان على عهد رسول الله ﷺ: أحدهما من الأنصار، والآخر من قوم آخرين، وأنهما تهاجيا، وكان مع كل أحد منهما غواة من قومه، وهم السفهاء، فقال الله: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾).

قال ابن جرير: (إن شعراء المشركين يتبعهم غواة الناس، ومردة الشياطين، وعصاة الجن).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ الرجل قَيْحاً يَرِيهِ، خيرٌ مِنْ أن يَمْتَلِئَ شِعْراً][1].

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: [بَيْنا نحنُ نَسيرُ مع رسول الله ﷺ بالعَرْج[2]، إذ عَرَضَ شاعِرٌ يُنْشِدُ، فقال رسول الله ﷺ: خذوا الشيطان، أو أمسكوا الشيطان، لأن يَمْتَلِئَ جوفُ رَجُلٍ قَيْحاً، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْراً][3].

والخلاصة: لا يتبع شعراء الجاهلية إلا الغاوون وهم السفهاء أو الراوون أو الشياطين أو المشركون، فإنهم يتبعونهم على باطلهم وكذبهم وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب ومدح من لا يستحق المدح وغير ذلك من وجوه الفساد.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾. أي: في كل واد من الكلام يخوضون ويتحدثون.

قال ابن عباس: (في كُلِّ لَغْوٍ يخوضون). وقال الضحاك عن ابن عباس: (في كُلِّ فَنٍّ من الكلام). وقال مجاهد: (في كل فن يَفْتَنُّون). وقال قتادة: (يمدحون قوماً بباطل، ويشتمون قوماً بباطل).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2257) ـ كتاب الشعر، وانظر (2258) من حديث سعد.

(2) العَرْج: قرية جامعة من عمل الفرع على نحو ثمانية وسبعين ميلاً من المدينة.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2259) ـ كتاب الشعر، باب: في إنشاد الأشعار وبيان أشعر الكلمة وذم الشعر. وانظر مسند أحمد (3/ 8)، (3/ 41).

وعن الحسن البصري قال: (قد ـ والله ـ رأينا أوديتهم التي يهيمون فيها ، مَرَّةً في شَتْمةِ فلان ، ومرة في مِدْحة فُلان).

قال النسفي: (﴿يَهِيمُونَ﴾ خبر أن ، أي: في كل فن من الكذب يتحدثون ، أو في كل لغو وباطل يخوضون ، والهائم الذاهب على وجهه لا مقصد له ، وهو تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم حتىٰ يفضلوا أجبن الناس على عنترة ، وأبخلهم على حاتم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾.

قال ابن عباس: (أكثر قولهم يَكْذِبون فيه). قال: (وعنىٰ بذلك شعراء المشركين).

قال ابن كثير: (فإن الشعراء يَتَبَجَّحُون بأقوال وأفعال لم تصدُر منهم ، ولا عنهم ، فيتكثَّرون بما ليس لهم).

قلت: وطربُ العامة ببعض هؤلاء الشعراء يدفع شعراء الجاهلية ـ هؤلاء ـ إلى تسويق أي شيء لسدّ الفراغ ولو على حساب الاستهزاء بالحق وثوابت الدين: كسؤال الملكين في القبر وأمر الموت والحساب والجنة والنار وأمر الملائكة والرسل وغير ذلك ، فتراهم مدفوعين إلى التجاوزات والمبالغات بتشجيع أولئك السفهاء لهم ليحق قول الله فيهم: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾.

ومما يُذكر في هذا الجانب عن الفرزدق ، أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله:

فبتن بجانبيّ مصرعات وبت أفض أغلاق الختام

فقال: وجب عليك الحد. فقال: قد درأ الله عني الحد بقوله: ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ حيث وصفهم بالكذب والخلف في الوعد.

وقوله: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾.

استثناء لشعراء الإسلام الأبطال ، كعبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير ، وكعب بن مالك رضي الله عنهم ، ومن مضىٰ على منهاجهم في الشعر المتألق ، الذي سخروه لنصرة هذا الدين ، ومدح الله العظيم ، ورسوله الكريم ، والذب عن عرض المسلمين.

قال ابن عباس: (ثم استثنىٰ المؤمنين منهم ، يعني الشعراء ، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾).

وقوله: ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾. قال ابن عباس: (في كلامهم). وقال ابن زيد: (ذكروا الله في شعرهم).

قال النسفي: (﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: كان ذكر الله وتلاوة القرآن أغلب عليهم من الشعر ، وإذا قالوا شعراً قالوه في توحيد الله تعالىٰ والثناء عليه والحكمة والموعظة والزهد والأدب ومدح رسول الله والصحابة وصلحاء الأمة ونحو ذلك مما ليس فيه ذنب).

قلت: وهذا الذي ذكره الإمام النسفي في تفسير هذه الآية هو من روائع البيان والتأويل لجوامع الكلم في قوله تعالىٰ: ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾.

قال ابن عباس: (يردون على الكفار الذين كانوا يهجون المؤمنين). وقال ابن زيد: (﴿وَٱنتَصَرُواْ﴾ من المشركين ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾).

قال ابن جرير: (يقول: وانتصروا ممن هجاهم من شعراء المشركين ظلماً بشعرهم وهجائهم إياهم ، وإجابتهم عما هجوهم به).

وفي السنة العطرة كثير من آفاق هذا الاستثناء لشعراء هذا الدين ، ومن ذلك:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في مسنده ، وابن حبان في صحيحه ، بإسناد على شرط الشيخين عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ: إنّ الله ـ عز وجلّ ـ قد نزل في الشعر ما أنزل ، فقال رسول الله ﷺ: [إنَّ المؤمن يُجاهِدُ بسيفِهِ ولسانِه ، والذي نفسي بيده لكأنَّ ما تَرمونَهُمْ به نَضْحُ النَّبْلِ][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن البراء بن عازب قال: [سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت: اهْجُهُم ، أو هَاجِهِمْ ، وجِبْرَئِيلُ معك][2].

الحديث الثالث: خرّج مسلم في الصحيح عن أبي هريرة: [أنَّ عُمَرَ مَرَّ بِحَسَّانَ وهو يُنْشِدُ الشِّعْرَ في المسجد ، فَلَحَظَ إليه ، فقال: قَدْ كُنْتُ أُنْشِدُ ، وفيه مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ ،

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (6/ 387) ، والبيهقي (10/ 239) ، وابن حبان (5786).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2486) ـ كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل حسان بن ثابت.

ثم التفتَ إلى أبي هريرة ، فقال: أنشُدُكَ الله أسَمِعْتَ رسولَ الله ﷺ يقول: أَجِبْ عَنِّي ، اللهمَّ! أَيِّدْهُ بِروحِ القُدُسِ؟ قال: اللهمَّ! نَعَم][1].

الحديث الرابع: أخرج مسلم عن عائشة قالت: [قال حَسَّانُ: يا رسولَ الله! ائذن لي في أبي سفيان. قال: كَيْفَ بقرابتي مِنْه؟ قال: والذي أكْرَمك! لأَسُلَّنَّكَ منهم كما تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ الخَميرِ ، فقال حسّان:

وإنَّ سَنَامَ المَجْدِ مِنْ آل هاشِم بنو بِنْتِ مَخزُومٍ ، ووالِدكَ العَبْدُ

قصيدته هذه[2]]. وفي رواية: [والذي بعثك بالحق! لأسُلَّنَّكَ منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين. قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إن روح القدس لا يزال يؤيِّدُكَ ، ما نافَحْتَ عن الله ورسوله». وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هجاهم حَسّانُ فشفىٰ واشتفىٰ»][3].

الحديث الخامس: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس: [أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء ، وعبد الله بن رواحة بين يديه يمشي وهو يقول:

خَلُّوا بني الكُفَّار عن سبيلِهِ اليَوْمَ نَضْرِبْكُم على تَنْزيلِهِ
ضَرْباً يزيل الهامَ عَنْ مَقِيْلِهِ ويُذْهِلُ الخليلَ عَنْ خليلِهِ

فقال له عمر: يا ابن رواحة ، بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال رسول الله ﷺ: خَلِّ عَنْهُ يا عُمر فلهي أسْرَعُ فيهم مِنْ نَضْحِ النَّبْل][4].

وقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾. تهديد لمن انتصر بظلم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2485) ـ كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل حسان بن ثابت.

(2) وبعد هذا بيت لم يذكره مسلم وبذكره تتم الفائدة وهو:

ومن ولدت أبناء زهرة منهم كرام ولم يقرب عجائزك المجد

وقوله: «بنت مخزوم»: أي فاطمة أم عبد الله والزبير وأبي طالب. وقوله: «أبناء زهرة منهم»: أي هالة بنت وهب بن عبد مناف أم حمزة وصفيّة. وقوله: «العبد» سب لأبي سفيان بن الحارث لأن أم الحارث وهي سمية بنت موهب ، وموهب غلام لبني عبد مناف ، وكذا أم أبي سفيان كانت كذلك وهو مراده بقوله: «ولم يقرب عجائزك المجد». والحديث رواه مسلم (2489) ـ الباب السابق.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (2490) ـ كتاب فضائل الصحابة ، الباب السابق ـ في أثناء حديث طويل.

(4) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3017) في السنن. باب ما جاء في إنشاد الشِّعر ، وانظر صحيح سنن الترمذي (2283) ، وكتابي: السيرة النبوية (2/ 1188 ـ 1189).

قال ابن زيد: (وسيعلم الذين ظلموا من المشركين أي منقلب ينقلبون).

وقال شريح: (سيعلم الظالمون كيف يخلصون من بين يدي الله عز وجل ، فالظالم ينتظر العقاب ، والمظلوم ينتظر النصرة).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: 52].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [الحج: 71].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: 18].

وفي صحيح السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: خرّج مسلم في صحيحه عن جابر ، أن رسول الله ﷺ قال: [اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم][1].

الحديث الثاني: روىٰ مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتىٰ يُقادَ للشاة الجَلْحاء ـ التي لا قرن لها ـ من الشاة القَرْناء][2].

الحديث الثالث: أخرج الشيخان عن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ الله لَيُملي للظالم ، فإذا أخذه لم يُفْلِتْهُ ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]][3].

تمّ تفسير سورة «الشعراء»
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منِّه وكرمه

❑ ❑ ❑

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2578) ـ كتاب البر والصلة. باب تحريم الظلم.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2582) ـ كتاب البر والصلة ، الباب السابق.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686) ـ كتاب التفسير. وأخرجه مسلم (2583) ـ كتاب البر والصلة ، من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه.

دروس ونتــــائج وأحكـــــام

1 ـ البَخْعُ: القتل والإهلاك. وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمان يقلبها كيف شاء، فمن شاء أقامه، ومن شاء أزاغه.

2 ـ سحرة فرعون أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء، والسحر من أعمال الكفر.

3 ـ لن يهلِكَ الناسُ حتىٰ يُعذروا من أنفسهم، وإذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله.

4 ـ جعل جبريل يدسُ في في فِرعون الطين خشية أن يقول: لا إله إلا الله، فيرحمه الله، أو خشية أن يَرْحمه.

5 ـ ما اختلج عِرْق ولا عين إلا بذنب، وما يدفع الله عنه أكثر.

6 ـ تَألُّقُ أدب إبراهيم عليه الصلاة والسلام، في نسبه الضر لذنبه وما يكون من الزلل أو التقصير والوقوع في الآثام.

7 ـ يؤتىٰ بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرّونها.

8 ـ هلاك الأمم بتكذيب الرسل، والإصرار على الكفر، وإشاعة الفواحش والفساد والآثام.

9 ـ مكتوب في الإنجيل: «لا فظٌ، ولا غليظٌ، ولا سخّابٌ بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها، بل يعفو ويصفح» ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومكتوب في التوراة نحو ذلك.

10 ـ القرآن أكبر معجزة خالدة في الأرض إلى يوم القيامة.

11 ـ البدء بالقرابة في الدعوة إلى الله ، وَالرحم معلقة بالعرش ، وهي شجنة من الرحمن ، من يصلها يصله ، ومن يقطعها يقطعه .

12 ـ الملائكة تحدَّث في العَنان بالأمر يكون في الأرض فَتَسمع الشياطين الكلمة فتقُرُّها في آذان الكاهن ، فيكذبون معها مئة كذبة .

13 ـ الشعر بمنزلة الكلام ، فحسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام .

14 ـ اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشحّ أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم .

15 ـ إن الله ليملي للظالم ويستدرجه ، فإذا أخذه لم يفلته .





وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (93).

موضوع السورة

ملك سليمان عليه الصلاة والسلام
وتسخير الله لدولته الجن والإنس والطير والنمل لإقامة سلطان الإسلام

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ ثناء الله تعالىٰ على القرآن الكريم ، وأهله المؤمنين ، وذمّ المشركين المكذبين.

2 ـ قصة موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، وخبر خروجه من مدين إلى مصر ، ورؤيته النار وتكليم الله له ، وتحميله المهمة مع الآيات إلى فرعون وقومه ، وجحود فرعون وملئه ونزول العذاب بهم.

3 ـ خبرُ داود وسليمان عليهما السلام ، وتسخيره تعالىٰ لسليمان الجن والإنس والطير وسماع حوار النمل ، ومقابلة سليمان ربه تعالىٰ بالشكر والتعظيم.

4 ـ تفقُّد سليمان الهدهد ، ومجيء الهدهد بالخبر المُسَوِّغ لتأخره.

5 ـ استقبال سليمان عليه السلام الخبر من الهدهد على وجه التثبت والتحقق قبل اتخاذ القرار ، وإعطاؤه رسالة عاجلة منه إلى بلقيس يأمرهم بالخضوع لسلطانه القائم بأمر الله قبل أن لا ينفعهم الفرار.

6 ـ استشارة بلقيس قومها محذرة لهم بأس الملوك ، واستقرار رأيها على إرسال هدية لسليمان تستطلع بذلك طبيعة الأمر وما يُتوقع من السلوك.

7 ـ غضب سليمان عليه السلام من فعل بلقيس ، وتقريره الزحف بجيش كبير نحوها ، ورؤيته إبراز شيء من قوته وسلطانه ليباغتها به عند وصولها ، واستعانته بجنوده من الجن لتحقيق ذلك.

8 ـ وصول بلقيس ووضعها أمام الاختبار ، وإعلان إسلامها في نهاية الأمر بعد التفكر والاعتبار.

9 ـ قصة ثمود مع نبيهم صالح عليه السلام ، وإصرارهم على التكذيب والمكر حتىٰ دمرهم الله فما استطاعوا القيام.

10 ـ إنذار لوط قومه مغبة فاحشتهم ، وإصرارهم على ما هم فيه حتىٰ نزل العذاب بهم.

11 ـ دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، توحيد الربوبية يقتضي توحيد الألوهية.

12 ـ انفراد الله بعلم الغيب ، وجهل الكفار بالحق ، وتسلية النبي ﷺ عما يلقاه من الأذىٰ.

13 ـ ثناء الله على القرآن ، وأمره نبيّه التوكل عليه ، وتقريره تعالىٰ له أنه لا يسمع الموتىٰ أو الصم ولا يهدي العمي ، بل الهداية من الله للمؤمنين.

14 ـ خروج الدابة من علامات الساعة ، فتنة للناس عند فسادهم.

15 ـ ذكر مشهد الحشر ، واجتماع الناس خلف راياتهم وآلهتهم في أرض المحشر.

16 ـ امتنان الله على الناس بنعمة الليل ليسكنوا فيه ، والنهار لينتشروا فيه.

17 ـ أحداث القيامة : نفخة الفزع ، وحركة الجبال ، والميزان يزن أعمال العباد.

18 ـ إعلامُ النبي ﷺ قومه أنه أُمِرَ بإفراد الله رب هذه البلدة بالعبادة والتعظيم.

19 ـ أمره تعالىٰ نبيّه ﷺ بتلاوة القرآن وإقامة الحجة على الناس أجمعين.

20 ـ الحمد لله الذي بيده عجائب الآيات يريها خلقه ليؤمنوا وما هو بغافل عما يعملون.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 6. قوله تعالىٰ: ﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

في هذه الآيات: انتصارٌ للقرآن الكريم، الذي يحمل الهدىٰ والبشرىٰ للمؤمنين، الذين يقيمون الصلاة بأركانها وواجباتها ومواقيتها وخشوعها، ويؤتون الزكاة المفروضة في أموالهم بأوقاتها ومقاديرها، وبالآخرة هم يوقنون. إن الذين يكفرون بالآخرة هم في تزيين الشيطان يتخبطون، وهم في الآخرة هم الأخسرون، وهذا القرآن ـ يا محمد ـ تُلقاه من الله الحكيم العليم.

فقوله: ﴿طسٓۚ﴾ ـ تقدم الكلام في أوائل السور التي ابتدأت بمثل هذه الحروف المقطعة، وأنها تحمل معنىٰ التحدي والإعجاز لهذا القرآن العظيم الذي هو من جنس هذه الأحرف.

وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾. انتصار لهذا القرآن وتعظيم له وثناء عليه بعد ذكر تلك الحروف. قال ابن كثير: (أي: هذه آيات ﴿ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، أي: بَيِّنٌ واضح). وقال القاسمي: (مبين لما تضمنه من الحكم والأحكام والمواعظ والاعتبار).

وقوله تعالىٰ: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. قال القرطبي: (﴿هُدًى﴾ في موضع نصب على الحال من الكتاب، أي تلك آيات الكتاب هادية ومبشرة. ويجوز فيه الرفع على الابتداء، أي هو هدىٰ. وإن شئت على حذف حرف الصفة، أي فيه هدىٰ. ويجوز أن يكون الخبر ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾).

والمقصود: أي هذا القرآن هدىٰ من الضلالة، وبشرىٰ للمؤمنين برحمة الله ورضوانه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

أي: هذه البشرىٰ للمؤمنين الموصوفين بإقامة الصلاة بأركانها وواجباتها وإتمام وضوئها وخشوعها والمحافظة على مواقيتها، وكذلك بإيتاء الزكاة المفروضة حسب أنواعها ومقاديرها، وهم موقنون برجوعهم إلى ربهم عز وجل في الدار الآخرة، راجون عفوه ومغفرته وكرمه.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾.

قال الزجاج: (جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه).

وعن ابن عباس: (﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾: يتمادون). وقال قتادة: (يلعبون). وقال الحسن: (يتحيرون).

والمقصود: إن الذين يستبعدون البعث للحساب يوم القيامة، ويكذبون بوعد الله ووعيده في ذلك، حَسَّنَّا لهم ما هم عليه من التيه والغرور، ومددنا لهم في غيِّهم فهم في ظلمات العمل يتيهون.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: 110].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: 8].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق معنىٰ هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد

الله بعبده الخير عجلَ له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشَّر أمسك عنه بذنبه حتىٰ يُوَافىٰ به يوم القيامة][1] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند قوي عن عقبة بن عامر مرفوعاً: [إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج . ثم تلا : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44]][2] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في الصحيح عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا يظلم مؤمناً حَسَنَةً ، يُعطي بها في الدنيا ويَجْزي بها في الآخرة. وأما الكافر فيُطْعَمُ بحسنات ما عَمِلَ بها لله في الدنيا ، حتىٰ إذا أفضىٰ إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُجزىٰ بها][3] .

وقوله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ .

أي: هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة لهم عذاب الخزي في الدنيا والآخرة ، ثم هم في الآخرة أخسر من كل خاسر. قال القرطبي: (فإن من الناس من خسر الدنيا وربح الآخرة ، وهؤلاء خسروا الآخرة بكفرهم فهم أخسر كل خاسر). وقال ابن كثير: (أي: ليس يخسر أنفسَهم وأموالَهم سِواهُم من أهل المحشر).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ .

قال قتادة: (﴿ لَتُلَقَّى ﴾ ، أي: لتَأخذ). و﴿ لَّدُنْ ﴾ بمعنىٰ عند ، وهي مبنية غير معربة. فالمعنىٰ: وإنك يا محمد ليلقىٰ عليك هذا القرآن فتلقاه وتعلمه من عند حكيم بتدبير خلقه ، عليم بمصالح عباده وجميع أحوال ما في ملكه.

7 ـ 14. قوله تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ

---

(1) حسن صحيح. أخرجه الترمذي (2520). انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (1953).

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (4/ 145) ، وابن جرير في «التفسير» (7/ 115) ، وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (4/ 115): «رواه أحمد والطبراني والبيهقي في «الشعب» بسند حسن». وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (414).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2808) ح (57)، كتاب صفات المنافقين ، ورواه أحمد.

ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ .

في هذه الآيات: خبرُ موسىٰ عليه الصلاة والسلام أثناء مسيره من مدين إلى مصر ورؤيته النار وتكليم الله له وتحميله المهمة مع الآيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين. وجحودُ فرعون وملئه الحق بعد ظهوره ظلماً وعلواً فكيف كان عاقبة المفسدين ؟! .

فقوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ .

قال ابن جرير: (و﴿إِذْ﴾ من صلة عليم. ومعنىٰ الكلام عليم حين قال موسىٰ ﴿لِأَهْلِهِۦٓ﴾ وهو في مسيره من مدين إلى مصر، وقد آذاهم برد ليلهم لما أصلد زنده ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي أبصرت ناراً أو أحسستها، فامكثوا مكانكم ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ يعني من النار).

وقوله: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ . أي: أو آتيكم من النار بشعلة أقتبسها منها.

وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ . أي تتدفؤون به. قال النسفي: (﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ﴾ أي شعلة مضيئة ﴿قَبَسٍ﴾ نار مقبوسة بدل أوصفة. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون بالنار من البرد الذي أصابكم، والطاء بدل من تاء افتعل لأجل الصاد).

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ .

أي: فلما جاء موسىٰ النار التي آنسها رأىٰ منظراً هائلاً عظيماً حيث انتهىٰ إليها. قال ابن كثير: (والنار تضطرم في شجرةٍ خضراءَ، لا تزدادُ النارُ إلا توقُّداً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونَضْرَةً، ثم رفَّ رأسه فإذا نورُها متصل بِعَنان السماء). فهنالك نودي ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ .

ومن أقوال المفسرين في ذلك:

1 ـ قال ابن عباس: (لم تكن ناراً، إنما كانت نوراً يتوهَجّ). أو قال: (نور رب

العالمين). وقال: (﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ يقول: قدس). قال: (كان نور رب العالمين في الشجرة. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قال: يعني الملائكة).

2 ـ قال قتادة: (﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾: نور الله بورك). وقال مجاهد: (بوركت النار).

3 ـ وقال محمد بن كعب: (﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قال موسىٰ النبي والملائكة).

قلت: والراجح عندي أنه لما جاء موسىٰ النار التي آنسها نودي أن تقدس نور رب العالمين وبورك من حول النار: موسىٰ والملائكة.

وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. أي: وتنزيهاً لله رب العالمين، العلي العظيم، نور السماوات والأرض، الأحد الصمد الذي ليس كمثله شيء، عما يصفه الظالمون.

وفي صحيح مسلم عن أبي موسىٰ قال: [قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كَلِماتٍ فقال: إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ ويرفَعُه، يُرْفَعُ إليه عَمَلُ الليل قبل عمل النهار، وعَمَلُ النهار قبل عمل الليل، حجابُه النور ـ وفي رواية: النارُ ـ لو كشفه لأحْرقت سبحاتُ وجْهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

إعلام منه سبحانه لموسىٰ أن الذي يخاطبه ويناجيه إنما هو ربُّه الله العزيز في انتقامه من فرعون وأمثاله من الطغاة، الحكيم في ترتيب حياة أنبيائه والصالحين وفي تدبير كل أمور خلقه. ثم أمره تعالىٰ بإلقاء عصاه من يده ليريه دليلاً واضحاً على أنه القادر على كل شيء، فيهون عليه أمر فرعون وطغيانه.

وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

قال ابن جريج: (﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ قال: حين تحولت حية تسعىٰ).

وعن مجاهد: (﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ قال: لم يرجع).

قال القاسمي: (﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ هو ضرب من الحيات، أسرعه حركة وأكثره اضطراباً ﴿وَلَّىٰ﴾ أي من الخوف ﴿مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي لم يرجع على عقبه من شدة

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (179)، كتاب الإيمان، ح (293)، (294)، (295).

خوفه ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أي لحفظي لهم وعنايتي بهم وعصمتي إياهم مما يؤذيهم. وفيه تبشير له باصطفائه بالرسالة والنبوة. وتشجيع له بنزع الخوف. إذ لا يتمكن من أداء الرسالة ، ما لم يزل خوفه من المرسل إليه).

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

استثناء منقطع ، وفتح باب عظيم من أبواب الأمل بعد الزلل ، فإن من وقع في المعصية ثم تدارك أمره بالتوبة والإنابة يجد الله غفوراً رحيماً.

قال الزمخشري: (يوشك أن يقصد بهذا ، التعريض بما وجد من موسىٰ. وهو من التعريضات التي يلطف مأخذها ، وسماه ظلماً كما قال موسىٰ: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى ﴾ [القصص: 16]).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: 53].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: 31].

ومن السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: خَرَّجَ مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [من تاب قبل أن تطلع الشمسُ من مغربها تاب الله عليه][1].

الحديث الثاني: روىٰ مسلم عن أبي موسىٰ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إنّ الله تعالىٰ يبسط يدَهُ بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيءُ الليل حتىٰ تطلع الشمس من مغربها][2].

الحديث الثالث: أخرج البزار في مسنده بسند حسن لطرقه عن عبد الرحمن بن جُبَيْر ، عن أبي طويل شطْب الممدود: [أنه أتىٰ رسول الله ﷺ فقال: أرأيت رجلاً عمل

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2703)، كتاب الذكر والدعاء. باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه. والمقصود المسارعة بالتوبة قبل فوات الأوان.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2759)، كتاب التوبة. باب قبول التوبة من الذنوب ، وإن تكررت الذنوب والتوبة ، وانظر (2758).

الذنوب كُلَّها ، فلم يترك منها شيئاً ، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجَةً إلا أتاها ، فهل له من توبة ؟ قال: فهل أسلمت ؟ قال: أما أنا ، فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنك رسول الله. قال: نعم ، تفعل الخيرات وتترك السيئات. فيجعلهُنَّ الله لك خيرات كُلَّهن. قال: وغَدَراتي وفجراتي ؟ قال: نعم. قال: الله أكبر ! فما زال يكبر حتىٰ تواریٰ][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾.

قال ابن كثير: (هذه آية أخرىٰ ، ودليلٌ باهرٌ على قدرة الله الفاعل المختار ، وصِدْقِ مَنْ جعل له مُعجزةً، وذلك أن الله تعالىٰ أمره أن يُدخِلَ يَده في جيب دِرْعِه، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطِعةً ، كأنها قطعة قَمَرٍ لها لَمَعانٌ يتلألأ كالبرق الخاطِفِ. وقوله تعالى: ﴿ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ ﴾ ، أي: هاتان ثنتانِ من تسع آياتٍ أُؤيدك بِهنَّ ، وأجعلهن بُرهاناً لك إلى فرعون وقومه ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾. وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الإسراء: 101]).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

قال ابن جُريج: (﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ قال: بينة ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾. يقول: قال فرعون وقومه: هذا الذي جاءنا به موسىٰ سحر مبين ، يقول: يبين للناظرين له أنه سحر).

وقوله: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾.

قال ابن زيد: (استيقنوا أن الآيات من الله حق ، فلِمَ جحدوا بها ؟ قال: ظلماً وعلواً).

وقال ابن جريج: (﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾: تعظماً واستكباراً).

والمعنىٰ: لقد جحد فرعون وقومه الآيات التسع وكذبوها بعدما أيقنتها قلوبهم ، وعلموا يقيناً أنها من عند الله ، وإنما حملهم على معاندتها والتنكر لها الكبر والظلم

(1) أخرجه البزار في «مسنده» (4/ 79 ـ 80/ 3244 ـ كشف الأستار) ، والطبراني في «المعجم الكبير» (7/ 375 ـ 376/ 7235) ، وانظر السلسلة الصحيحة (3391).

الذي ألفوه وأحبوه وظنوا أنه يجرّ لهم المنافع والمناصب والمصالح ، حتىٰ انتقم الله منهم وانقلب السحر على الساحر.

وقوله: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

أي: فانظر ـ يا محمد ـ بعين قلبك كيف كان مصيرهم بعد طغيانهم، وكيف أغرقهم الله عن آخِرهم في صبيحة واحدة. والخطاب بطريق الأولىٰ لمشركي قريش الذين يواجهون الوحي بعنادهم وكبرهم ، فإن التاريخ المؤلم قد يعيده الله على مستحقيه متىٰ شاء وأين شاء ، فليعتبر هؤلاء الطغاة أن ينالهم ما نال فرعون وقومه من الدمار والهلاك والأيام النَّحِسات.

15 ـ 19. قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

في هذه الآيات: خبرُ داود وسليمان عليهما السلام وحمدهما الله تعالىٰ الذي فضلهما على كثير من عباده المؤمنين ، وتسخيره تعالىٰ لسليمان الجن والإنس والطير فهم يوزعون. وسماعُه حديث النملة في وادي النمل وتبسمه من قولها وشكره الله الذي أنعم عليه وعلى والديه وسؤاله الدخول في عباده الصالحين.

فقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ ﴾. قال قتادة: (أي فهماً).

وقيل: علماً بالدين والحكم وغيرهما، كما قال جلّ ذكره: ﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ [الأنبياء: 80].

قال ابن جرير: (﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ ﴾ وذلك علم كلام الطير والدّواب، وغير ذلك مما خصّهم الله بعلمه).

قلت: ولا شك أن الله تعالىٰ اختص داود وسليمان عليهما السلام إضافة إلى علوم الوحي والنبوة والحكمة، بعلوم كثيرة تفيد التمكين في الأرض، وقوة الملك والنفوذ لإقامة دولة الحق.

وقوله: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فيه مسألتان:

المسألة الأولىٰ: حَمْدُ الله تعالىٰ على النعمة، وهو أفضل من النعمة نفسها.

قال تعالىٰ: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13].

وفي سنن ابن ماجة بإسناد حسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [ما أنعم الله على عَبْدٍ نِعْمَةً فقال: الحَمْدُ لله، إلا كان الذي أعطاه أَفْضَلَ مما أخذَ][1].

المسألة الثانية: شرف العلم ورفعة منزلته على بقية النعم.

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة: 11]. وقال هنا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال القرطبي: (وفي الآية دليل على شرف العلم وإنافة محلّه وتقدّم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجَلّ النِّعَم وأجزل القِسَم، وأن مَنْ أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من عباد الله المؤمنين).

وقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾. قال ابن كثير: (أي: في الملك والنبوة، وليس المرادُ وِراثة المال، إذ لو كان كذلك لم يَخُصَّ سليمان وحدَه من بين سائر أولاد داودَ، فإنه قد كان لدوادَ مئةُ امرأة، ولكن المراد بذلك وراثةُ المُلك والنبوة، فإن الأنبياء لا تورثُ أموالهم. كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ: «نحن معشر الأنبياء لا نُورث، ما تركنا فهو صدقة»).

وقوله: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ﴾.

قال النسفي: (تشهيراً لنعمة الله تعالىٰ واعترافاً بمكانها، ودعاء للناس إلى التصديق

---

(1) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (3805)، كتاب الأدب، باب فضل الحامدين. وانظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3067).

بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير. والمنطق كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد، وكان سليمان عليه السلام يفهم منها كما يفهم بعضها من بعض).
قال ابن جرير: (﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يقول: وأعطينا ووهب لنا من كل شيء من الخيرات).

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾.

اعتراف من سليمان عليه الصلاة والسلام لله تعالىٰ بهذه النعم الجليلة، وشكر منه له جل ثناؤه على تلك العطايا والمواهب الجميلة.

قال القاسمي: (﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أي البين الظاهر. وهو قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة. كما قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[1] أي أقول هذا القول شكراً، ولا أقوله فخراً).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

قال ابن زيد: (يوزعون: يُساقون). وقال الحسن: (يتقدمون). وقال قتادة: (يردّ أولهم على آخرهم). وفصّل ذلك ابن عباس بقوله: (جعل على كل صنف من يرد أولاها على أُخراها لئلا يتقدموا في المسير كما تصنع الملوك).

قال ابن كثير: (أي: وجُمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير. يعني رَكِبَ فيهم في أبهة وعظمة كبيرة، في الإنس وكانوا هم الذين يَلُونَه، والجنُّ بعدَهم في المنزلة، والطير ومنزلتها فوق رأسه، فإن كان حَرٌّ أظلته منه بأجنحتها.

وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، أي: يكُفّ أولهم على آخرهم، لئلا يتقدَّم أحدٌ عن مَنْزِلَتِهِ التي هي مَرْتَبَةٌ له).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾. أي: حتىٰ إذا أتىٰ سليمان وجنوده أثناء المسير على وادي النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾.
قال ابن جرير: (يقول: لا يكسرنكم ويقتلنكم سليمان وجنوده).

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. أي: وهم لا يعلمون أنهم يحطمونكم. قال النسفي: (أي لو شعروا لم يفعلوا، قالت ذلك على وجه العذر واصفة سليمان وجنوده بالعدل).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في: (39) ـ كتاب السنة، (13) ـ باب في التخيير بين الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، حديث رقم (4673).

وقوله: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾. أي فهم ذلك سليمان فتبسم ضاحكاً متعجباً من حذرها واهتدائها لمصالحها ونصيحتها للنمل، أو فَرَحاً لظهور عدله.

وقوله: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾. قال ابن عباس: (يقول: اجعلني). وقال ابن زيد: (﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ ألهمني وحرضني على أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلىٰ والديّ).

وفي لغة العرب: أوزعه بالشيء أغراه به. واسْتَوْزَعْتُ الله شكره فَأَوْزَعَني أي اسْتَلْهَمْتُه فألهمني. والمقصود: توجه سليمان عليه الصلاة والسلام إلى الله عز وجل أن يلهمه شكر نعمته عليه من تعليمه منطق الطير والحيوان، وعلى والديه بنعمة الإسلام والإيمان.

وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

أي: وألهمني العمل الصالح الذي تحبه وترضاه ووفقني إليه.

وقوله: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قال ابن زيد: (مع عبادك الصالحين الأنبياء والمؤمنين).

قال ابن جرير: (يقول: وأدخلني برحمتك مع عبادك الصالحين، الذين اخترتهم لرسالتك، وانتخبتهم لوحيك، يقول: أدخلني من الجنة مداخلهم).

20 ـ 26. قوله تعالىٰ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾.

في هذه الآيات: تفقُّد سليمان عليه السلام للهدهد، وتريّثُه لمعرفة عذر غيابه أو

لينزلن به العقاب الأليم. ومجيء الهدهد بالخبر المُسَوِّغ لتأخّره بوجود ملكة وقومها يسجدون للشمس من دون الله العلي العظيم.

فعن وهب بن منبه: (﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ أخطأه بصري في الطير، أو غاب فلم يحضر؟).

والتفقد طلب ما غاب عنك. قال النسفي: (﴿أم غاب﴾ أم بمعنىٰ بل، والمعنىٰ أنه تعرف الطير فلم يجد فيها الهدهد، فقال مالي لا أراه على معنىٰ أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره أو غير ذلك، ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول بل هو غائب).

قلت: وهذا يدل على قيام سليمان على أمر جنوده ومتابعته لشؤونهم وأحوالهم وما وكل إليهم من أعمال، وهو درس للقادة المسلمين بعده في الحرص على إقامة العدل والانضباط، والتأكد من جاهزية الجنود والعمال، وحسن أدائهم لوظائفهم.

وقوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾. قال ابن عباس: (يعني نَتْفَ ريشه).

وقال عبد الله بن شداد: (نتف ريشه وتشميسُه). وقيل: نتف ريشه وتَركه ملقىٰ يأكله الذّرُ ـ صغار النمل.

قلت: ولا دليل على كل ما ذُكر، والله أعلم كيف مقصود سليمان بهذا العذاب الشديد.

وقوله: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾. قال الضحاك: (يقول: أو لأقتلنه).

وقوله: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾. أي بعذر واضح جلي.

قال ابن عباس: (يقول: ببينة أعذره بها، وهو مثل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ [غافر: 35] يقول: بغير بيّنة).

وقال عكرمة: (كل شيء في القرآن سلطان، فهو حجة).

وقوله: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي الهدهد، غاب زماناً يسيراً ثم أقبل فقال لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي: اطلعت على أمر غاب عنك وعن جنودك.

قال وهب بن منبه: (أي أدركت ملكاً لم يبلغه ملكك).

وقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾. أي: أتيتك من سبأ بِخبرِ صِدْقٍ حق يقين.

وسبأ: هم حِمير، وهم ملوك اليمن.

وقوله: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾. قال الحسن: (وهي بلقيسُ بنتُ شُراحِيلَ ملكة سبأ). قال القرطبي: (ويقال: كيف خفي على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطِّهِ وبين بلدها قريبة، وهي من مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب؟ والجواب أن الله تعالىٰ أخفىٰ ذلك عنه لمصلحة، كما أخفىٰ على يعقوب مكان يوسف).

وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مبالغة، والمقصود: أعطيت من كل شيء تحتاج إليه أمور مملكتها وقوام حكمها، شأن كل ملك متمكِّن. قال الحسن: (يعني: من كل أمر الدنيا).

وقوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾. قال ابن عباس: (سرير كريم، قال: حَسن الصَّنعة، وعرشها: سرير من ذهب قوائمه من جوهر ولؤلؤ).

وقال الحسن: (﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾: يعني سرير عظيم).

وقوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: وجدت هذه المرأة ملكة سبأ، وقومها من سبأ، يسجدون للشمس فيعبدونها من دون الله. وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يقول: وحَسَّن لهم إبليس عبادتهم الشمس، وسجودهم لها من دون الله، وحبب ذلك إليهم).

وقوله: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

أي: فمنعهم بتحسينه وتزيينه لهم من اتباع الصراط المستقيم، وهو دين الله القويم، فهم لا يهتدون إلى طريق الحق، بل هم في غَيِّهم يترددون.

وقوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

قال ابن عباس: (يعلم كل خبيئة في السماء والأرض).

وقد قرأ بعض قراء مكة والمدينة والكوفة ﴿أَلا﴾ بالتخفيف. والتقدير: ألا يا هؤلاء اسجدوا لله وحده الذي يعلم كل خفية في السماوات والأرض فيخرجها إن شاء.

وقرأ أبو عمرو ونافع وعاصم وحمزة ﴿أَلَّا﴾ بالتشديد. والتقدير: وزيَّنَ لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا لله.

وهما قراءتان مستفيضتان مشهورتان في قراء الأمصار، كما ذكر شيخ المفسرين.

وعن مجاهد: (﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قال: الغيث).

وقال ابن زيد: (﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال: خبء السماء والأرض: ما جعل الله فيها من الأرزاق، والمطر من السماء، والنبات من الأرض، كانتا رتقاً لا تمطر هذه ولا تنبت هذه، ففتق السماء، وأنزل منها المطر، وأخرج النبات).

قلت: والآية أعم من ذلك، فهي تشمل كل خفية في السماوات والأرض، وكل غائبة صغيرة أو كبيرة، فهو يعلمها ويخرجها متىٰ شاء، كما قال سبحانه في آخر هذه السورة: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: 75]. فيشمل الخبء كل ما هو مخبوء فيهما من نبات ومعادن وأرزاق ومخلوقات مختلفة لا يعلمها إلا الله.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

أي: ويعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال، لا يخفىٰ عليه سبحانه من أمر خلقه شيء.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: 5].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: 10].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7].

وفي المسند وسنن النسائي عن عروة عن عائشة قالت: [الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية][1].

وفي صحيح مسلم من حديث عمر ـ قال جبريل للنبي ﷺ ـ أخبرني عن الإحسان؟ قال ـ: [الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (6/ 46)، والنسائي (3460)، والبخاري تعليقاً (7385)، وأخرجه ابن ماجة (188) و(2063)، وأخرجه عبد بن حميد (1514)، وأخرجه ابن جرير في «التفسير» (33726)، وإسناده على شرط مسلم.

وفي لفظ من حديث أبي هريرة: [قال: يا رسول الله ! ما الإحسان ؟ قال: أنْ تخشىٰ الله كأنك تراه ، فإنَّك إنْ لا تكنْ تراه فإنه يراك][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴾.

قال ابن زيد: (هذا كله كلام الهدهد).

والمعنىٰ: هلا يسجدون لله العظيم الذي لا تصلح العبادة إلا له ، لا إله إلا هو ، رب العرش العظيم الذي ليس في المخلوقات أعظمُ منه.

أخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: [ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة][2].

وأخرج ابن خزيمة في «التوحيد» ، وعبد الله بن أحمد في «السنة»، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: [الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر أحد قدره][3].

فائدة: لقد نطق النمل في أول السورة بكلام حق ، وفهمه سليمان عليه السلام وتبسم لذلك تعجباً ، ثم تبعه الهدهد في هذا الموقف النبيل الذي يدل فيه قائده على ما فيه تمام قوته وشوكته وحماية دولة الحق. وقد نهىٰ الله سبحانه ـ على لسان نبيه ﷺ ـ عن قتل النمل والهدهد.

فقد أخرج أبو داود وابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [نهىٰ النبي ﷺ عَنْ قَتْلِ أرْبَعٍ من الدَّواب: النَّملةِ والنَّحْلَةِ والهُدْهُدِ والصُّرَد][4].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [قرصَتْ نَمْلَةٌ نبياً من الأنبياء ،

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (10)، كتاب الإيمان، في أثناء حديث طويل. باب: الإسلام ما هو وبيان خصاله.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة في «كتاب العرش» (1/ 114) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص (290). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (109).

(3) صحيح موقوف. رواه ابن خزيمة والدارمي وعبد الله بن أحمد. انظر مختصر العلو (45) ص (102)، ورجاله كلهم ثقات. وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 1161) لتفصيل البحث.

(4) إسناده صحيح. أخرجه أبو داود (5267)، وابن ماجة (3224)، وأحمد (1/ 332)، وأخرجه البيهقي (9/ 317)، وكذلك ابن حبان (5646).

فأمر بقريةِ النمل فأُحرِقَت ، فأوحىٰ الله إليه ، أن قرصَتْكَ نَمْلَةٌ أحرقْتَ أُمَّةً من الأمم تُسَبِّحُ الله ؟][1] .

وفي رواية : [نزل نبيٌّ من الأنبياء عليه السلام تحت شجرة ، فلدغَتْهُ نَمْلَةٌ ، فأمَرَ بِجَهازِهِ فَأُخْرِجَ من تحتِها ، وأمرَ بها فأُحرقت في النار ، قال : فأوحىٰ الله إليه : فهلاّ نَمْلَةً واحدة] .

وفي لفظ : [أفي أن قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أهلكت أُمّةً من الأمم تُسَبِّح] .

27 ـ 35 . **قوله تعالىٰ** : ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : استقبالُ سليمان عليه السلام الخبر من الهدهد على وجه التثبت والتحقق قبل اتخاذ القرار ، وإعطاؤه رسالة عاجلة منه إلى بلقيس يأمرهم بالخضوع لسلطانه القائم بأمر الله قبل أن لا ينفعهم الفرار . واستشارة بلقيس قومها محذرة لهم بأس الملوك وأبعاد هذا الإنذار ، واستقرار الرأي منها على إرسال هدية لسليمان لاستخلاص ما يكون وراء ذلك من الأخبار .

فقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ . أي : سنتحقق مما قلت أصِدْقٌ هو أم أردت أن تتخلّص بذلك الإخبار من الوعيد والعقاب .

قال ابن جرير : (يقول تعالىٰ ذكره : ﴿ ۞ قَالَ ﴾ سليمان للهدهد ﴿ سَنَنظُرُ ﴾ فيما

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3019)، كتاب الجهاد والسير ، وأخرجه مسلم (2241) ، ح (150)، كتاب السلام ، باب النهي عن قتل النمل ، ورواه أبو داود (266) ، والنسائي : (7/ 210 ـ 211) ، وابن ماجة (3225) ، وأحمد (2/ 313) ، وابن حبان (5614) .

اعتذرت به من العذر ، واحتججت به من الحجة لغيبتك عنا ، وفيما جئتنا به من الخبر ﴿أَصَدَقْتَ﴾ في ذلك كله ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ فيه).

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾.

قال الضحاك: (فمضىٰ الهدهد بالكتاب ، حتىٰ إذا حاذىٰ الملكة وهي على عرشها ألقىٰ إليها الكتاب).

قال ابن كثير: (وذلك أن سليمان ـ عليه السلام ـ كتب كتاباً إلى بلقيس وقومِها. وأعطاه لذلك الهدهد فحمله ، قيل: في جناحه كما هو عادةُ الطير ، وقيل: بمنقاره ، وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بِلْقيس ، إلى الخَلْوَةِ التي كانت تختلي فيها بنفسِها ، فألقاه إليها من كُوَّةٍ هنالِكَ بينَ يديها ، ثم تولىٰ ناحيةً أدباً ورياسة فتحيَّرت مما رأت ، وهالها ذلك ، ثم عَمَدت إلى الكتاب فأخذَته ، ففتحت خَتْمَهُ وقرأته ، فإذا فيه: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾).

وقوله: ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾.

الملأ: أشراف قومها. والمقصود: أنها جمعت أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها وأخبرتهم قائلة لهم: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾. وفي تأويله وجوه:

1 ـ **الوجه الأول**: قال النسفي: (﴿أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾ حسن مضمونه وما فيه).

2 ـ **الوجه الثاني**: قال ابن جرير: (قال بعضهم: وصفته بذلك لأنه كان مختوماً).

3 ـ **الوجه الثالث**: قال ابن زيد: (هو كتاب سليمان حيث كتب إليها). فوصفت الكتاب بالكريم لأنه من عند عظيم في نفسها ونفوسهم فعظَّمته إجلالاً لسليمان عليه السلام.

4 ـ **الوجه الرابع**: قيل: لأنه بدأ فيه بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ـ ذكره القرطبي.

5 ـ **الوجه الخامس**: قيل: تعني بكرمه ما رأته من عجيب أمره ، كون طائر أتىٰ به فألقاه إليها ، ثم تولّىٰ عنها أَدَباً. وهذا أمْرٌ لا يقِدرُ عليه أحدٌ من الملوك ، ولا سبيل لهم إلى ذلك ـ ذكره ابن كثير.

6 ـ **الوجه السادس**: قيل: وصفته بذلك ، لما تضمن من لين القول والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله عز وجل ، وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سَبّاً ولا لعناً ، ولا ما يغيّر النفس ، ومن غير كلام نازل ولا مستغلق ، على عادة الرسل في

الدعاء إلى الله عز وجل ، ألا ترىٰ إلى قول الله عز وجل لنبيّه ﷺ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125] ، وقوله لموسىٰ وهارون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: 44]. ذكره القرطبي بعد أوجه أخرىٰ ثم قال: (وكلها وجوه حسان وهذا أحسنها).

قلت: ولا شك أن مجموع ما سبق من الخصال يمكن أن يوصف به كتاب سليمان عليه الصلاة والسلام إلى بلقيس ملكة سبأ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾.

أي قالت: يا أيها الملأ إني ألقي إليّ كتاب كريم ، وإنه من سليمان ابتدأه بـ: ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام. وأنه لا قِبَل لهم به. قال ابن كثير: (وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوَجازَةِ والفصاحة ، فإنه حَصَّل المعنىٰ بأيسر عبارة وأحسنها ، قال العلماء: ولم يكتب أحد ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قبل سليمان عليه السلام).

قال ابن زيد: (﴿ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾: أن لا تمتنعوا من الذي دعوتكم إليه ، إن امتنعتم جاهدتكم. ﴿ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ يقول: وأقبلوا إليّ مذعنين لله بالوحدانية والطاعة).

وقال ابن جرير: (وعنىٰ بقوله: ﴿ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾: أن لا تتكبروا ولا تتعاظموا عما دعوتكم إليه).

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾.

قال ابن زيد: (دعت قومها تشاورهم. قالت: ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا﴾ بمعنىٰ: قاضية).

قال القاسمي: (أي: لا أبتُّ أمراً إلا بمحضركم ومشورتكم. ولا أستبدّ بقضاء إلا باستطلاع آرائكم والرجوع إلى استشارتكم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾.

قال ابن زيد: (عرضوا لها القتال ، يقاتلون لها ، والأمر إليك بعد هذا ﴿ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾).

قال النسفي: (أرادوا بالقوة قوة الأجساد والآلات ، وبالبأس النجدة والبلاء في الحرب).

أي: قالوا لها: نحن أولو قوة في العدَدِ والعُدَدِ، وأولو بأس ونجدة وبلاء في الحرب كما تعلمين ، وإنما أمر القتال أو الصلح مفوض إليك ، فرأينا من رأيك ، فانظري ما هو أبقىٰ لشرفك وملكك.

وقوله: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾.

قال ابن عباس: (إذا دخلوها عنوة خرّبوها).

وقوله: ﴿ وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾. قال ابن كثير: (أي: وقصدوا من فيها من الوُلاةِ والجنود فأهانوهم غاية الهوان ، إما بالقتل أو بالأسر).

وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾. قال ابن عباس: (قالت بِلْقيسُ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ ، قال الرب عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾.

قال قتادة: (رَحِمَها الله ورَضِيَ عنها. ما كان أعقَلَها في إسلامها وفي شِرْكِها ! عَلِمَت أن الهدية تقع مَوقعاً من الناس).

قال القرطبي: (﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ ﴾ هذا من حسنِ نظرها وتدبيرها ، أي إني أجرب هذا الرجل بهدية، وأعطيه فيها نفائس من الأموال، وأُغْرِبُ عليه بأمور المملكة: فإن كان ملكاً دنياوياً أرضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبياً لم يرضه المال ولازَمَنا في أمر الدِّين ، فينبغي لنا أن نؤمن به ونتبعه على دينه).

36 ـ 40. **قوله تعالىٰ**: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ

مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

في هذه الآيات: استشارةُ سليمان عليه السلام من فعل بلقيس وهديتها، وتقريره الزحف بجيش كبير نحوها، ورؤيته إبراز شيء من قوته وسلطانه ليباغتها به عند وصولها، واستعانتُه بالجن وعالِمِهم في ذلك وشكره ربه تعالىٰ على ما آتاه من القوة والتمكين، وأغدق عليه من ألوان النعيم.

فقوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾. قال ابن كثير: (أي: أتصانعونني بمال لأترككم على شرِكِكم ومُلْكِكم ؟! ﴿ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ﴾ أي: الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خيرٌ مما أنتم فيه، ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾، أي: أنتم الذين تنقادونَ للهدايا والتحَف، وأما أنا فلا أقبل إلا الإسلامَ أو السَّيف).

قلت: وقد أكثر المفسرون من ذكر تفاصيل الهدية دون دليل يليق علىٰ منهاج النبوة، وإنما أَكْثَرُ ذلك مأخوذٌ مِنَ الإسرائيليات. ومِن ثمَّ فلا ينبغي تسويد صفحات كتب التفسير به، والظاهر أن سليمانَ عليه الصلاة والسلام لم يأبه إلى ماهية هديتهم وما فيها من زينة وعجائب، بل نظر أبعدَ من ذلك بكثير، وهو مستقبل الناس بين يدي الله عز وجل ونجاتهم من عذاب الله يوم القيامة، هذا من جهة، ومستقبل دولة الإسلام أن لا يجاورها دولة شرك في الأرض من جهة أخرىٰ.

وقوله: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾. أي: رُدَّ عليهم هديتهم. قال ابن جرير: (وهذا قول سُليمان لرسول المرأة).

وقوله: ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾. قال أبو صالح: (لا طاقة لهم بها). قال النسفي: (وحقيقة القبل المقاومة والمقابلة، أي لا يقدرون أن يقابلوهم).

وقوله: ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾. قال وهب بن منبه: (أو لتأتيني مسلمة هي وقومها).

والمقصود: ولنخرجهم من سبأ مهانين أذلاء إن لم يأتوا مسلمين ويدينوا بالولاء للإسلام ودولة الحق.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾.

إخبار عن إرادة سليمان إظهار عظمة ما وهبه الله من الملك واستقرار دولة الحق،

وتسخيره ـ تعالىٰ ـ له أسباب التمكين من الجنود الكثيرة ، والخبرات الكبيرة ، وبعض نواميس الطبيعة .

وقد ذكر المفسرون تفاصيل سرير بلقيس الذي كانت تجلس عليه وأنه من ذهب مُفَصَّص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ وغير ذلك ، والمهم بالنسبة لنا ما ذكر القرآن الكريم أنه عرش عظيم. فأراد سليمان عليه الصلاة والسلام أن يُريها صغار قوتها أمام عظمة ما آتاه الله من الملك والتسخير والتمكين. فخاطب جنوده قائلاً : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ . قال ابن عباس : (مستسلمين) .

قال ابن زيد : (استدعاه ليريها القدرة التي هي من عند الله ، ويجعله دليلاً علىٰ نبوته ، لأخذه من بيوتها دون جيش ولا حرب) .

وقوله : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ .

قال مجاهد : (﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ ماردٌ من الجن) . وقال ابن عباس : (﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ : يعني قبل أن تقومَ من مجلسك) . وقال مجاهد : (مقعدك) .

وقوله : ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ . قال ابن عباس : (أي قويٌّ على حَمْلِهِ ، أمينٌ على ما فيه من الجوْهر) .

وقوله : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ .

الظاهر أن سليمان أراد أعجل من ذلك في إحضار السرير ليظهر لبلقيس عظمة ما هو عليه مِمّا وهبه الله من الملك والتمكين والتسخير الذي لم يكن لأحد قبله ، ولا يكون لأحد بعده. فقام جنّي آخر من المؤمنين ممن عنده علم على منهاج النبوة فقال لسليمان : ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ .

قال وهب بن منبه : (امدُد بَصَرك ، فلا يبلغ مداه حتىٰ آتيك به) .

قلت : وقد ذكر المفسرون هنا أقوالاً كثيرة في تعريف الذي عنده علم من الكتاب ، وبعضهم أتى من ذلك بالعجائب ، ولادليل عندهم تقوم به الحجة ، وإنما سياق الآيات يقتضي ما ذكرنا والله تعالىٰ أعلم.

وفي ذلك تنبيه لفضل العلم وشرفه ومكانته ، فإنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، وقد رأينا في زماننا هذا سَبْقَ الأمم العاملةِ المتقنةِ الأممَ النائمةَ الضعيفةَ إنما كان بالعلم والدأب والإتقان. فإذا جمع العَالِمُ بين علم الدنيا والآخرة ، وبين

التقوىٰ والصلاح ، فلا أعجب حينئذ من ذلك ولا أقوىٰ ولا أفضل. وهذا ما جمعه الله تعالىٰ لسليمان عليه الصلاة والسلام وأعطاه بعض جنوده.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: 11].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28].

وفي كنوز السُّنة العطرة من آفاق ذلك أحاديث ، منها:

الحديث الأول: روىٰ البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: [لا حَسَدَ إلا في اثْنَتَيْن: رَجُلٍ آتاه اللهُ مالاً فَسُلِّطَ على هلكتِه في الحق ، ورجُلٍ آتاه الله الحِكْمَةَ فهو يقضي بها ويُعَلِّمُها][1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي في السنن بإسناد صحيح عن أبي أمامة الباهلي قال: ذُكِرَ لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما: عابد ، والآخر: عالم. فقال رسول الله ﷺ: [فَضْلُ العالِمِ على العابدِ كَفَضْلي على أدناكم. ثم قال رسول الله ﷺ: إنّ الله وملائكته وأهْلَ السماوات والأرض حتىٰ النَّملة في جُحْرِهَا ، وحتىٰ الحوت لَيُصَلُّونَ على مُعَلِّمِ الناسِ الخير][2].

قال أبو عيسىٰ: سمعت أبا عمار الحسين بن حريث الخزاعي يقول: سمعت الفضيل بن عياض يقول: (عالم عامل معلم يدعىٰ كبيراً في ملكوت السماوات).

الحديث الثالث: أخرج البزار والطبراني بإسناد حسن عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [فَضْلُ العِلْمِ خيرٌ من فضلِ العبادة ، وخيرُ دينكم الورَعُ][3]. وفي لفظ: (أحبُّ إلي) بدل «خير».

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (73)، كتاب العلم ، باب الاغتباط في العلم والحكمة.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2161) ـ أبواب العلم ـ باب في فضل الفقه على العبادة. وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (4089).

(3) إسناده حسن. أخرجه الطبراني في «الأوسط» ، والبزار في المسند. انظر صحيح الترغيب (1/ 66)، كتاب العلم. الترغيب في العلم وطلبه. وانظر صحيح الجامع (4090).

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

أي: فلما رأىٰ سليمان عليه السلام عرش بلقيس ماثلاً أمام عينيه مستقراً بين يديه أدرك عِظم فضل الله عليه وقال: هذا من نِعَم الله عليّ ليختبرني ويمتحنني، أأشكر ذلك من منّه وكرمه عليّ، أم أكفر نعمته علي فأهمل شكرها.

وقوله: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾.

أي: ومن شكر الله تعالىٰ على نعمه فهو إنما يرجع بفائدة ذلك الشكر على نفسه: من رضا الله تعالىٰ عليه، والزيادة له في نعمه، وذكره في عباده الشاكرين. فإن الله تعالىٰ لا يحتاج إلى شكر عبده، ومن كفَرَ نعم الله تعالىٰ فجحدها أو أهمل شكرها فإنما يرجع وبال ذلك عليه، فالله تعالىٰ غني لا يفتقر إلى أحد، كريم يغدق على جميع عباده كافرهم ومؤمنهم.

قال ابن جرير: (﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ يقول: ومن كفر نعمه وإحسانه إليه وفضله عليه، لنفسه ظَلَمَ وحظّها بَخَسَ، والله غني عن شكره، لا حاجة به إليه، لا يضره كفر من كفر به من خلقه، كريم: ومن كرمه إفضاله على من يكفر نعمه، ويجعلها وصلة يتوصل بها إلى معاصيه).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر مرفوعاً إلى النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: [قال الله تعالىٰ: يا عبادي، لو أن أولكم وآخرَكم، وإنسكم وجنَّكم، كانوا على أتقىٰ قلبِ رجُلٍ واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلبِ رجلٍ منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أُحْصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجَدَ خيراً فليحمد الله، ومن وَجَدَ غير ذلك فلا يلُومَنَّ إلا نَفْسَه][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2577)، والبخاري في «الأدب المفرد» (490)، والترمذي (2495)، وابن ماجة (4257)، وأخرجه أحمد (5/ 160)، وابن حبان (619) من حديث أبي ذر مطوّلاً.

وفي سنن ابن ماجة بإسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم الله تعالىٰ على عبدٍ نعمة فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أعطىٰ أفضلَ مما أخذ](1).

وله شاهد عن الطبراني بإسناد حسن من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم الله على عبدٍ نعمة فحِمَدَ الله عليها إلا كان ذلك الحمد أَفضَلَ من تلكَ النعمة].

41 ـ 44. **قولـه تعـالىٰ:** ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

في هذه الآيات: أمرُ سليمان جنده بتنكير عرش بلقيس ليختبر فطنتها، وإجابتها بقولها: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ عند سؤاله لها عن عرشها، وقد فَضَّل الله سليمان بالعلم والقوة وأضعفها ودولتها بكفرها وقومها، فلما اختبرها بالصرح الممرد من قوارير ما ملكت إلا أن اعترفت بظلمها نفسها وأعلنت إسلامها.

فقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

قال قتادة: (﴿نَكِّرُوا۟﴾: غيِّروا). وقال مجاهد: (﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾: غيِّروه ﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾ أتعرفه).

قال ابن عباس: (وتنكير العرش، أنه زيد فيه ونقص). قال: (زيد في عرشها ونقص منه، لينظر إلى عقلها، فوُجدت ثابتة العقل).

وعن وهب بن منبه: (﴿أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾: أي أتعقل، أم تكون من الذين لا يعقلون. ففعل ذلك لينظر أتعرفه، أو لا تعرفه).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (3805)، كتاب الأدب، باب فضل الحامدين. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3067)، وكذلك للشاهد: صحيح الجامع (5438).

والمقصود: لما أُتي سليمان عليه الصلاة والسلام بِعَرْش بَلْقِيس قبل وصولها إليه، أمر بالعرش أن تُغَيَّر بعض صفاته ليختبِر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تهتدي لمعرفة عرشها أو لا.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ﴾.

قال وهب بن منبه: (لما انتهت إلى سليمان وكلمته أخرج لها عرشها ثم قال: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ﴾؟ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ﴾). قال قتادة: (شبَّهته). وقال ابن زيد: (شكّت). قال ابن كثير: (أي عُرِض عليها عرشُها، وقد غُيِّـرَ وَنُـكِّرَ، وزيدَ فيه ونُقِصَ، وكان فيها ثَباتٌ وعقلٌ، ولها لُبّ ودَهاءٌ وحَزْمٌ، فلم تُقدِم على أنه هو لِبُعْدِ مسافتِه عنها، ولا أنه غيرُه، لِمَا رأت من آثاره وصِفاتِه، وإنْ غُيِّرَ وَبُدِّلَ ونُكِّرَ، فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ ۚ﴾، أي: يُشْبِهُه ويُقارِبُه. وهذا غاية في الذَّكاء والحَزْم).

وقوله: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾. قال مجاهد: (سليمان يقوله).

قال ابن جرير: (وقال سليمان: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ أي هذه المرأة، بالله وبقدرته على ما يشاء، ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ لله من قبلها).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.

أي: وكان صدّها عن الهداية ما كانت تعبد مع قومها الشمس من دون الله، فمنعها نشؤها بين أظهر الكفار من عبادة الله وحده.

قال مجاهد: (كفرها بقضاء الله، صدّها أن تهتدي للحق).

قال النسفي: (﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ﴾ متصل بكلام سليمان، أي وصدّها عن العلم بما علمناه، أو عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين أظهر الكفرة، ثم بين نشأها بين الكفرة بقوله: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾. أو كلام مبتدأ، أي: قال الله تعالىٰ: ﴿وَصَدَّهَا﴾ قبل ذلك عما دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل، أو صدّها الله، أو سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل).

وقوله: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ﴾. أي القصر أو صحن الدار.

قال وهب بن منبه: (أمر سليمان بالصرح، وقد عملته له الشياطين من زجاج كأنه الماء بياضاً، ثم أرسل الماء تحته، ثم وضع له فيه سريره، فجلس عليه، وعكفت عليه الطير والجن والإنس، ثم قال: ﴿ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ﴾ ليريها مُلْكاً هو أعزّ من مُلْكها،

وسلطاناً هو أعظم من سلطانها. ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ لا تشك أنه ماء تخوضه، قيل لها: ادخلي إنه صرح ممرّد من قوارير).

قال القاسمي: (وكان سليمان عليه السلام اتخذ قصراً بديعاً من زجاج، فأراد أن يريها منه عظمة ملكه وسلطانه، ومقدار ما آثره الله به ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ ﴾ أي صحنه ﴿ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ﴾ أي ماء عظيماً ﴿ وَكَشَفَتْ ﴾ أي: للخوض فيه ﴿ عَن سَاقَيْهَا ﴾، قال: ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ ﴾ أي مملّس ﴿ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ أي من الزجاج.

﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أي بكفرها السالف وعبادتها وقومها الشمس ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي متابعة له في دينه وعبادته لله وحده لا شريك له).

تنبيه: أَكْثَرَ المفسرون في هذا المقام من روايات واهية لا تقوم بها الحجة، في شأن سليمان ـ عليه السلام ـ مع بلقيس، وأكثرها لا يليق بمقام النبوة وعصمتها، وكان أولىٰ أن لا تذكر، فإن أغلبها من الإسرائيليات والأحاديث الموضوعة المكذوبة.

45 ـ 53. **قوله تعالىٰ:** ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالىٰ عن إرساله نبيّه صالحاً ـ عليه السلام ـ إلى ثمود بعبادة الله وحده ونبذ ما يُعبد من دونه فإذا هم ينقسمون إلى فريقين: فريق مصدق، وفريق مكذب. فدعاهم إلى توحيد الله واستغفاره، فقابلوه بالتطير منه، والمكر

بالاشتراك مع الرهط المفسدين ، فمكر الله بهم وهو أشد مكراً بالقوم الظالمين ، فدمرهم وكتب النجاة للقوم المؤمنين .

فقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ .

قال مجاهد : (مؤمن وكافر ، قولهم صالح مرسل ، وقولهم صالح ليس بمرسل . ويعني بقوله : ﴿ يَخْتَصِمُونَ ﴾ يختلفون) .

وقوله : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ . قال مجاهد : (السيئة : العذاب ، قبل الحسنة : قبل الرحمة . أو قال : قبل العافية) .

أي قال لهم صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ : يا قوم لم تدعون بحضور العذاب ونزول النقمة ، ولا تسألون الله الرحمة والعافية ؟!

وقوله : ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ . قال ابن جرير : (يقول : هلا تتوبون إلى الله من كفركم ، فيغفرلكم ربكم عظيم جرمكم ، يصفح لكم عن عقوبته إياكم على ما قد أتيتم من عظيم الخطيئة) . قال النسفي : (﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ بالإجابة) .

وقوله : ﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ . أي : تَشَاءَمْنا بك وبمن تبعك .

قال مجاهد : (تشاءموا بهم) . قال ابن كثير : (أي : ـ قالت ثمود لرسولها صالح ـ ما رأينا على وَجْهِك وَوُجُوهِ من اتَّبعك خير . وذلك أنهم ـ لشقائهم ـ كان لا يُصيبُ أحداً منهم سوءٌ إلا قال : هذا مِن قِبَل صالح وأصحابه) .

ويبدو أن هذه الصفة متوارثة في الأمم المكذبة للرسل .

ففي التنزيل :

1 ـ قال تعالىٰ ـ مخبراً عن قوم فرعون ـ : ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأعراف : 131] .

2 ـ وقال تعالىٰ ـ مخبراً عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون ـ : ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ [يس : 18 ـ 19] .

3 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [النساء : 78] .

قلت: وإنما منهاج المرسلين في بعث الأمل في نفوس العباد بإشراقة الثقة بالله، وباختيار الكلمة الطيبة التي ترضي الله سبحانه فيغير أحوال عباده ويسعدهم.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [لا عدوىٰ، ولا طيرة، ولا هَامَةَ، ولا صَفَرَ، ولا نَوْءَ، ولا غُول][1].

والعدوىٰ من الإعداء، أي يُصاب الرجل بمثل ما بصاحب الداء، فأخبر أن ذلك إن حصل فبقدر الله. والطِّيَرَةُ من أمر الجاهلية وهي تعليق الخير والشر على حركة طائر. قال عكرمة: (كنا جلوساً عند ابن عباس، فمرّ طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير خير. فقال ابن عباس: لا خير ولا شر، فبادره بالإنكار عليه، لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر).

والهامة: طير من طير الليل كأنه البومة، كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم.

والصفر: حية تصيبُ بطن الماشية والناس، وهي أعدىٰ من الجرب عند العرب.

والنَوْء: جمعها أنواء وهي منازل القمر، فكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة يكون مطر.

والغول: جنس من الجن والشياطين، تزعم العرب أنه يخرج في الطريق فيضلهم ويهلكهم.

وفي سنن أبي داود بسند صحيح عن ابن مسعود مرفوعاً: [الطِّيرة شرك، الطِّيرةُ شِرك، وما منا إلا، ولكن الله يُذهِبُهُ بالتوكل][2].

والخلاصة: إن التطير عادة جاهلية قبيحة، حاربها الإسلام، وردّها المرسلون على أقوامهم.

وقوله: ﴿قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾. قال ابن عباس: (مصائبكم). وقال قتادة: (علمكم

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (2220)، وكذلك (2222) ـ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وفيه لفظة «ولا غول». وانظر كتابي: منهج الوحيين في معالجة زلل النفس وتسلط الجن ـ ص (143) ـ لتفصيل أكبر.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2/ 158)، والبخاري في «الأدب المفرد» (131)، والترمذي (1/ 304)، وابن ماجة (2/ 362 ـ 363)، والحاكم (1/ 17 ـ 18)، وابن حبان (1427)، وأحمد (1/ 389)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (430).

عند الله). والمقصود: الله يقسم أيامكم وأعمالكم وأرزاقكم وأقداركم وليست معلقة على حركة طائر.

قال ابن جرير: (أي مازجرتم من الطير لما يصيبكم من المكاره عند الله علمه، لا يُدرىٰ أيُّ ذلك كائن، أم ما تظنون من المصائب أو المكاره، أم ما لا ترجونه من العافية والرجاء والمحاب).

وقوله: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾. أي تختبرون وتمتحنون، وربما تُستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال. قال قتادة: (تُبْتَلون بالطاعةِ والمعصية).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾.

قال ابن عباس: (هم الذين عقروا الناقة[1] وقالوا حين عقروها: نبيّت صالحاً وأهله فنقتلهم، ثم نقول لأولياء صالح: ما شهدنا من هذا شيئاً، وما لنا به علم. فدمرهم الله أجمعين).

والمقصود: أنه كان في مدينة ثمود تسعة نفر من طغاة ثمود ورؤوسهم، وأصحاب المكر والتكذيب فيهم، وقد انبعث أشقاهم لعقر الناقة، وهَمُّوا بقتل صالح كذلك، وكانوا أهل فساد وإفساد في البلاد.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾.

قال القاسمي: (أي ليحلف كل واحد منكم على موافقة الآخرين، بالله الذي هو أعظم المعبودين ﴿لنبيتنه﴾ أي لنقتلنّهُ ليلاً. وقرئ بالتاء على خطاب بعضهم لبعض ﴿ وَأَهْلَهُ ﴾ أي من آمن معه. ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ﴾ أي الطالب ثأره علينا ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ أي ما حضرنا مكان هلاك الأهل، مع تفرقهم في الأماكن الكثيرة، فضلاً عن مكانه، فضلاً عن مباشرته ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ أي ونحلف إنا لصادقون. أو: والحال إنا لصادقون فيما ذكرنا).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

قال ابن زيد: (احتالوا لأمرهم، واحتال الله لهم، مكروا بصالح مكراً، ومكرنا بهم مكراً ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بمكرنا وشَعَرْنا بمكرهم).

---

(1) أي: الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم، فانبعث لعقرها أشقاهم.

قلت: وقد ثبت ـ لله تعالىٰ ـ صفة المكر والكيد بالكافرين.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[الرعد: 13].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: 15 ـ 16].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: 54].

ومن صحيح السنة المطهرة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الترمذي عن أنس عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد الله بعبده الخير عجلَ له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشّرَ أمسك عنه ذنبه حتىٰ يُوافىٰ به يوم القيامة] وسنده صحيح[1].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق، إنْ نَسِيَ ذَكَّرَه، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد به غير ذلك جعلَ له وزيرَ سوء، إن نسيَ لم يذكِّرْهُ، وإن ذكر لم يُعِنْهُ][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسىٰ عن النبي ﷺ قال: [إنّ الله تعالىٰ ليُملي للظالم، حتىٰ إذا أخذه لم يُفْلته][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قال القرطبي: (أي بالصيحة التي أهلكتهم. وقد قيل: إن هلاك الكل كان بصيحة جبريل. والأظهر أن التسعة هلكوا بعذاب مفرد، ثم هلك الباقون بالصيحة والدمدمة).

وقوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾. أي فارغة ليس فيها منهم أحد، قد أبادهم الله فلا أثر لهم، وكان ذلك بظلمهم أنفسهم: بشركهم الله وتكذيب الرسل.

و﴿خَاوِيَةًۢ﴾ بالنصب على الحال. أي خالية عن أهلها خراباً ليس بها ساكن.

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (1953)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (1220).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث (2932) ـ كتاب الخراج والإمارة والفيء. باب في اتخاذ الوزير. وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (2544).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686)، كتاب التفسير، وأخرجه مسلم (2583)، كتاب البر والصلة. باب تحريم الظلم.

قال النسفي : (﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ ساقطة منهدمة من خوىٰ النجم إذا سقط أو خالية من الخواء ، وهي حال عمل فيها ما دل عليه تلك).

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول : أي : إن بفعلنا ذلك بثمود لآية لقوم يعلمون قدرتنا فيتَّعِظون وينزجرون.

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ .

سُنَّةُ الله بين أوليائه المؤمنين وأعدائه الكافرين ، فإن العاقبة والنجاة للمتقين ، والدمار والهلاك على القوم الظالمين.

والمقصود هنا : وأنجينا صالحاً والذين آمنوا معه وكانوا من المتقين.

54 ـ 58. قوله تعالىٰ : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : إنذارُ لوط ﷺ قومه مغبة استمرارهم على فواحشهم ، ومقابلتهم له بالتهديد بالإخراج ومن آمن معه من قريتهم ، فأنجاه الله ـ إلا امرأته ـ وأخزاهم وأمطرهم العذاب الذي زلزلهم.

فقوله تعالىٰ : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول تعالىٰ ذكره : وأرسلنا لوطاً إلى قومه ، إذ قال لهم : يا قوم ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أنها فاحشة ، لِعِلْمِكُم بأنه لم يسبقكم إلى ما تفعلون من ذلك أحد). وقال ابن كثير : (أنذر قومه نِقْمَةَ الله بهم ، في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحدٌ من بني آدم ، وهي إتيان الذكور دونَ الإناث ، وذلك فاحشة عظيمة ، استغنىٰ الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، فقال : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ ، أي : يرىٰ بعضكم بعضاً ، وتأتون في ناديكم المنكر !؟). قال القرطبي :

(﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أنها فاحشة، وذلك أعظم ذنوبكم. وقيل: يأتي بعضكم بعضاً وأنتم تنظرون إليه. وكانوا لا يستترون عتوّاً منهم وتمرّداً).

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾.

قال ابن كثير: (أي: لا تعرفون شيئاً لا طبْعاً ولا شَرْعاً، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء: 165 ـ 166]).

قال القرطبي: (﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ﴾ أعاد ذكرها لفرط قبحها وشنعتها).

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾.

أي: فلم يكن من قوم لوط حين دُعوا إلى التطهر من تلك القذارة إلا أن حَمَلوا على لوط والمؤمنين معه وطلبوا إخراجهم من القرية لمخالفتهم لهم فعلتهم الدنيئة وترفعهم عن رجس ما هم عليه.

قال ابن عباس: (قوله: ﴿ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ قال: من إتيان الرجال والنساء في أدبارهن).

وعن مجاهد، في قوله: ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ قال: (من أدبار الرجال وأدبار النساء استهزاءً بهم).

قال قتادة: (عابوهم بغير عيب: أي إنهم يتطهرون من أعمال السوء).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾. أي الباقين مع الهالكين.

قال ابن كثير: (أي: من الهالكين مع قومها، لأنها كانت رِدْءاً لهم على دينهم، وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تَدُلُّ قومها على ضِيفان لوطٍ، ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعلُ الفاحشة، تكرمةً لنبيِّ الله ـ ﷺ ـ لا كَرَامة لها).

وقوله: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ ﴾. أي: حجارة من سجيل. كما قال جل ثناؤه: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: 82 ـ 83].

وقوله: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

أي: فساء مطر من أُنذر فلم يقبل الإنذار، وأصرّ على ركوب الفواحش والآثام.

59 ـ 64. **قوله تعالىٰ:** ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

في هذه الآيات: خلاصة دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم إلى أقوامهم:

ـ ليس هناك شركاء ولا شفعاء ولا وسطاء، ومن حق كل امرئٍ أن يُهرعَ إلى ربه عز وجل، وأن ينكر من أقاموا أنفسهم أو أقيموا من غيرهم زلفىٰ إلى الله من البشر والحجارة.

ـ وإذا كنتم تُقِرُّون بأنه الخالق فلم تخضعون لغيره، وإذا كنتم تقرون بأنه المحيي والمميت فلم تسألون حجراً أو قبراً أو صالحاً مضىٰ لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

ـ وإذا كنتم تُقِرُّون بأنه الرازق فلم تلتمسون الرضىٰ من غيره، وإذا كنتم تقرون بأنه الممطر أرضكم والمخصب زرعكم فلم تشكرون غيره.

ـ وإذا كنتم تُقِرُّون بأنه وحده يلجأ إليه في الشدائد والنائبات والكرب، فلم تسجدون

لغيره ، ولم تستغيثون بغيره ، ولم تنافقون لبشر من خلقه ، ولم تحتكمون لغير شرعه ولغير منهاجه .

فاحتجَّ الأنبياء والرسل على أقوامهم بإقرارهم لله بالربوبية ، لماذا لم يفردوه سبحانه بالألوهية ، ولماذا لم يوحدوه في أسمائه وصفاته ومحامده ، ولماذا لم يفردوه بالتشريع والحاكمية .

فقوله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ .

قال ابن عباس : (أصحاب محمد اصطفاهم الله لنبيه) . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (إن المراد بعباده الذين اصطفىٰ هم الأنبياء) .

قلت : ولا تعارض بين القولين ، فإن الأنبياء هم عباد الله الذين اصطفىٰ وكذلك من تبعهم من حوارييهم ومن سار على منهاجهم إلى يوم الدين .

والمقصود: أمر الله رسوله ﷺ بحمده على نعمه وآلائه التي لا تحصىٰ ، وعلى اتصافه ـ جل ثناؤه ـ بالصفات العُلا والأسماء الحسنىٰ ، والخطاب من باب أولى لجميع الأمة .

وفي التنزيل :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات : 180 ـ 182] .

فنزه الله تعالىٰ نفسه عما يقوله المشركون وينسبونه له من النقص والعيوب ، ثم أثنىٰ على عباده المرسلين لسلامة ما وصفوه به سبحانه ، ثم حمد نفسه جل ثناؤه على تفرده بأوصاف الكمال والجمال .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : 1] .

3 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء : 111] .

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ: [لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس][1].

الحديث الثاني: خرّج مسلم كذلك في الصحيح عن أبي ذرّ الغفاري رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: [ألا أخبرك بأحبِّ الكلام إلى الله ؟ إنَّ أحبَّ الكلام إلى الله سبحان الله وبحمده][2].

الحديث الثالث: أخرج مسلم أيضاً في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: [جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: عَلِّمني كلاماً أقوله. قال: قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً، سبحان الله رب العالمين، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم..] الحديث[3].

وقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ـ استفهام إنكار على اختيار المشركين آلهة يعبدونها مع الله تعالىٰ.

وقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾.

أي: كيف تختارون معشر المشركين عبادة أوثان لا تضر ولا تنفع على عبادة خالق السماوات بارتفاعها وصفائها، وكواكبها ونجومها، وأفلاكها وملائكتها، وخالق الأرض بجبالها وسهولها، وأشجارها وثمارها، وبحارها وبراريها، وإنسها وجنها، وطيرها وحيوانها. ثم أنزل لكم من السماء مطراً جعله رزقاً للعباد أنبت به البساتين والحدائق ذات المنظر الحسن والشكل البهيّ.

قال مجاهد: (البهجة: الفقاح مما يأكل الناس والأنعام).

وقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾. قال النسفي: (أراد أن تأتّي ذلك محال من غيره).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 70)، كتاب الذكر. باب في فضائل التسبيح.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2731) ح (85)، كتاب الذكر والدعاء. باب فضل سبحان الله وبحمده. وانظر مختصر صحيح مسلم (1907).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 70)، كتاب الذكر. باب: في التهليل والتحميد والتكبير. وانظر مختصر صحيح مسلم، حديث رقم (1905).

والمقصود: أنه لا يقدر على ذلك الإنبات إلا الله الخالق الرازق، ومع ذلك يعبد المشركون أوثاناً لا تضر ولا تنفع، ولا تنبت ولا تطعم.

وقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾. قال ابن كثير: (أي: أإلهٌ مع الله يُعْبَدُ وقد تبيّنَ لكم ولكلِّ ذي لُبٍّ مما يَعرِفون به أيضاً أنه الخالق الرزاق؟! ومن المفسرين من يقول معنىٰ قوله ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ فَعَلَ هذا؟. ثم قال في آخر الآية: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، أي: يجعلون لله عدْلاً ونظيراً).

وقوله: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾. قال ابن جرير: (تستقرون عليها لا تميد بكم).

أي: من الذي جعل هذه الأرض التي تسكنون عليها قارّة ساكنة ثابتة لا تميد ولا تتأرجح، ولو جُعلت تهتز وترجف بأهلها كلما تحركوا على أرجائها لاستحالت الحياة وتعقّدت.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ أي: وشَقّ في أرجائها أنهاراً طويلة وقصيرة، تعبر البلاد والأمصار، تسقي الأرض والبهائم والعباد.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ ـ وهي ثوابت الجبال، تثبت الأرض من أن تميد بأهلها.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ﴾. قال ابن عباس: (سلطاناً من قدرته فلا هذا يغيّر ذاك، ولا ذاك يغيّر هذا، والحجز المنع).

والمقصود: جعل سبحانه حاجزاً بين المياه الحلوة العذبة والمياه المالحة ليتوازن العيش على هذه الأرض، فلا يزال يُستفاد من الماء العذب الزلال في الأنهار والبحيرات لسقي الحيوان والنبات والثمار. ولا يزال الهواء عليلاً بانتشار تلك البحار والمحيطات المالحة فلا يفسد العيش.

وقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾. قال القرطبي: (أي إذا ثبت أنه لا يقدر على هذا غيره فلم يعبدون ما لا يضر ولا ينفع).

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. أي: بل أكثرهم جاهلون حق ربهم عز وجل وما يجب له من توحيد الإلهية.

وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾.

أي: أمْ مَن يلجأ إليه العباد عند النوازل والمحن والمصائب، يرجون رحمته ويطمعون بكشف الضر عنهم مما نزل بهم.

قال ابن عباس: (﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ قال: هو ذو الضرورة المجهود).

وقال السديّ: (الذي لا حول له ولا قوة). وقال ذو النون: (هو الذي قطع العلائق عما دون الله). وقال سهل بن عبد الله: (هو الذي إذا رفع يديه إلى الله داعياً لم يكن له وسيلة من طاعة قدّمها).

وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال: أنا أسألك بالله أن تدعو لي فأنا مضطر، قال: (إذن فاسأله فإنه يجيب المضطر إذا دعاه).

وعن ابن جريج: (﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ قال: الضّر).

قال القرطبي: (ضمن الله تعالىٰ إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه، والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجاء ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عما سواه، وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمّة، وجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر، كما قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: 22]. وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: 65] فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: 65] فيجيب المضطر لموضع اضطراره وإخلاصه).

قلت: وهذا تفسير رائع من الإمام القرطبي رحمه الله لآفاق هذه الآية الكريمة، وقد حفلت السنة العطرة ببدائع جوامع الكلم في ذلك.

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أبي تميمة الهُجيمي، عن رجل من بَلْهُجَيْم قال: [قلت: يا رسول الله، إلامَ تدعُو؟ قال: أدعو إلى الله وحدَه، الذي إنْ مَسَّكَ ضُرٌّ فدعوته كشفَ عنكَ، والذي إنْ أَضْلَلْتَ بأرضٍ قَفْرٍ فدعوتَه ردَّ عليك، والذي إن أصابتك سنةٌ فدعوتَه أنبتَ لك. قال: قلت: أَوْصِني. قال: لا تَسُبَّنَ

أحداً ، ولا تَزْهَدَنّ في المعروف ، ولو أن تلقىٰ أخاك وأنت مُنْبَسِطٌ إليه وجهكَ ، ولو إن تُفْرِغَ من دلوكَ في إناء المُسْتَقي ، واتّزِر إلى نصف الساق ، فإن أبيت فإلىٰ الكعبين. وإياك وإسبالَ الإزار فإن إسبالَ الإزار من المخيلة ، وإن الله لا يحب المخيلة][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس: أن نبيَّ الله ﷺ كان يقول عند الكرب: [لا إله إلا اللهُ العظيمُ الحليمُ ، لا إله إلا الله ربُّ العرشِ العظيم ، لا إله إلا الله ربُّ السماوات وربُّ الأرض ربُّ العرش الكريم][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح ، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [ما أصابَ أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض فيَّ حكمك ، عدل فيَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي ، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجاً. قيل يا رسول الله ألا نتعلمها ؟ قال: بلىٰ ، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها][3].

الحديث الرابع: يروي الترمذي بسند صحيح عن سعد ، عن النبي ﷺ قال: [دعوةُ ذي النون إذ دعا ربَّه وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فإنه لم يدعُ بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب له][4].

وله شاهد رواه الحاكم بلفظ: [ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم كَرْبٌ ، أو بلاء ، من أمر الدنيا دعا به فَفُرِّج عنه ؟ دعاء ذي النون: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين].

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾. أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً ، جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن. وقال الكلبي: (خلفاً من الكفار ينزلون أرضهم ، وطاعة الله بعد كفرهم).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (5/ 64) من حديث أبي تميمة ، وإسناده صحيح على شرطهما ، وجهالة الصحابي لا تضر.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2730) ، كتاب الذكر والدعاء. باب دعاء الكرب.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (1/ 391) ، (1/ 452) ، وأبو يعلى (5297) ، والحاكم (1/ 509).

(4) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (3505). انظر صحيح سنن الترمذي (2785) ، وللشاهد بعده ـ صحيح الجامع ـ حديث رقم ـ (2602).

وقوله: ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ـ توبيخ وتقريع. أي: أبعد كل ما ذكر تعبدون مع الله غيره. وهو الإلـه الحق الأحد الصمد المتفرد بالخلق والتدبير والإماتة والإحياء وكشف الضر وجلب الخير وبعث الأمل.

وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: تذكراً قليلاً من عظمة الله وأياديه عندكم تذكرون، وتعتبرون حجج الله عليكم يسيراً، فلذلك أشركتم بالله غيره في عبادته).

وقوله: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

قال ابن جريج: (والظلمات في البر، ضلاله الطريق، والبحر، ضلاله طريقه وموجه وما يكون فيه).

والمقصود: مَنْ يهديكم إلى سبيل النجاة إذا تهتم في البر، أو ضللتم في ظلمات البحر وبين تلاطم أمواجه. أليس الله تعالىٰ الذي جعل لكم من الدلائل السماوية والأرضية ما يرشدكم بها إذا أشرفتم على الضياع والهلاك.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 16].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: 97].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (وقد أخبر سبحانه في كتابه من منافع النجوم، فإنه يهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر، وأخبر أنها زينة للسماء الدنيا، وأخبر أن الشياطين تُرجم بالنجوم).

وقوله: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾.

قال ابن جريج: (يقول: والذي يرسل الرياح نُشُراً[1] لموتان الأرض بين يدي رحمته، يعني: قدام الغيث الذي يحيي موات الأرض). قال ابن كثير: (أي: بين يدي السحاب الذي فيه مطرٌ، يغيثُ به عباده المجُدبينَ الآزِلين[2] القنطين).

(1) قراءة نافع «نُشُراً». وأما قراءة حفص «بُشْراً».

(2) الأزْلُ: الضيق والشدة، وتأزّلَ: ضاق صدره.

وقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

توبيخ آخر، وتقريع بعد تقريع. أي أإلـه مع الله يفعل ذلك ويعينه عليه ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من دونه.

وقوله: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

قال القرطبي: (كانوا يقرّون أنه الخالق الرازق، فألزمهم الإعادة، أي إذا قدر على الابتداء فمن ضرورته القدرة على الإعادة، وهو أهون عليه).

وقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾. أي: يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويبعث للحساب والنشور؟

وقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. أي: قل لهم ـ يا محمد ـ قدّموا حجتكم إن كان لديكم ما يدل أن أحداً سوى الله يفعل شيئاً من ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم وزعمكم!!.

وهو تحدّ للمشركين، وقد عُلِمَ أنهم فارغون من الدليل والحجة، وما لهم إلا اتباع سبيل الآباء وتعظيم أعراف الجاهلية.

وفي التنزيل نحو ذلك:

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: 117].

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال:

[مفاتيحُ الغيب خمسٌ لا يعلمُها إلا الله تعالىٰ: لا يعلم أحدٌ ما يكون في غدٍ إلا الله تعالىٰ، ولا يعلم أحدٌ ما يكون في الأرحام إلا الله تعالىٰ، ولا يعلم متىٰ تقوم الساعة إلا الله تعالىٰ، ولا تدري نفس بأي أرض تموتُ إلا الله تعالىٰ، ولا يدري أحدٌ متىٰ يجيءُ المطر إلا الله تعالىٰ][1].

65 ـ 75. قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4697)، كتاب التفسير، وانظر (1039)، (7379) كذلك.

عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

في هذه الآيات: انفرادُ الله تعالىٰ بعلم الغيب، وجهل الكفار بالحق وشكهم في الآخرة، وتحذيرهم نزول نقمة الله بهم كما نزل بالأمم قبلهم، وتسلية للنبي ﷺ عما يلقاه من استهزاء قومه ومكرهم.

فقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُل﴾ يا محمد لسائليك من المشركين عن الساعة متىٰ هي قائمة ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ﴾ الذي قد استأثر الله بعلمه، وحجب عنه خلقه غيره، والساعة من ذلك ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: وما يدري من في السماوات والأرض من خلقه متىٰ هم مبعوثون من قبورهم لقيام الساعة).

وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ استثناء منقطع، أي: إن الله وحده هو المتفرد بعلم الغيب لا شريك له.

والخطاب وإن كان لمشركي مكة فهو عام لجميع الخلق أن يعلموا أن ربهم عز وجل قد أحاط بالغيب وحده، ولم يطلع أحداً من خلقه على شيء منه إلا بما شاء.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 59].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: 34].

ومن صحيح السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه عن الشَّعبي ، عَنْ مَسْروق قال: [كنت مُتَّكِئاً عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة ! ثلاثٌ من تَكَلَّمَ بواحِدةٍ منهن فقد أَعْظَمَ على الله الفِرية ، قلتُ ما هُنَّ ؟ قالت: مَنْ زَعَمَ أن مُحَمداً ﷺ رأىٰ رَبَّهُ فقد أعظَمَ علىٰ الله الفرية. . . قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتمَ شيئاً مِن كتابِ الله فقد أعظم على الله الفِرْيَة ، والله يقول: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة: 67]. قالت: ومن زعمَ أنه يُخْبِرُ بما يكون في غَدٍ فقد أعظَمَ على الله الفِرية. والله يقول: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ ﴾][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة قال: [كان رسول الله ﷺ يوماً بارزاً للناس. فأتاه رجل فقال: يا رسول الله ! متىٰ الساعة ؟ فقال: ما المسؤول عنها بأعْلَمَ من السائل. ولكن سأخبرك عن أشراطها. إذا ولدت الأمة رَبَّتَها ، فذاكَ مِنْ أشراطها ، وإذا كانت الحُفاةُ العراةُ رؤوس الناس ، فذاك من أشراطها. وإذا تطاولَ رِعـاءُ الغنم في البُنيان ، فـذاك من أشراطِها. في خمسٍ لا يَعْلَمُهنَّ إلا الله. فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ ﴾ الآية][2].

قال قتادة: (إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء ، وجعلها يُهتدىٰ بها ، وجعلها رجوماً فمن تعاطىٰ فيها غير ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حَظَّهُ ، وأضاع نصيبَهُ ، وتكلَّف ما لا عِلْمَ له به. وإنّ ناساً جَهَلَةً بأمر بالله ، قد أحدثوا من هذه النجوم كَهَانة: من أعْرَسَ بِنَجْم كذا وكذا ، كان كذا وكذا. ومن سافَرَ بنجم كذا وكَذا ، كان كذا وكذا. ومن وُلِدَ بِنَجْم كذا وكذا ، كان كذا وكذا ، ولعمري[3] ما من نجم إلا يُولَد به الأحمرُ والأسودُ ، والقصير والطويلُ ، والحسَنُ والدَّميمُ ، وما عِلْمُ هذا النجم

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (177) ، كتاب الإيمان ، في حديث طويل هذا معظمه وأهمه.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (64) ، (4044). وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3268).

(3) قلت: هذا الحلف لا ينبغي ، والصواب لعمر الله ، وإنما كان منه نحوه في الجاهلية. والأثر رواه ابن أبي حاتم. وذكره ابن كثير في التفسير وقال: وهو كلام جليل متين صحيح.

وهذه الدّابةِ وهذا الطير بشيءٍ من الغيب ! وقضىٰ الله تعالىٰ أنه : ﴿ لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾) .

وقوله : ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِۚ ﴾ .

قرأه قراء مكة : ﴿بل أَدْرَكَ علمهم في الآخرة﴾ . والتقدير : هل أدرك علمهم علم الآخرة .

وقرأه قراء الكوفة : ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِۚ ﴾ . والتقدير : أي لم يدرك .

ومن أقوال المفسرين في ذلك :

أ ـ على القراءة الأولى :

1 ـ عن ابن عباس : (﴿بل أَدْرَكَ علمهم في الآخرة﴾ يقول : غاب علمهم) .

2 ـ وقال مجاهد : (﴿بل أَدْرَكَ علمهم﴾ قال : أم أدرك علمهم من أين يدرك علمهم) .

3 ـ وقال قتادة : (﴿بل أَدْرَكَ علمهم في الآخرة ﴾ ، يعني بِجَهْلِهِم رَبَّهم ، يقول : لم يَنْفُذْ لهم إلى الآخرة علمٌ) .

4 ـ وقال عطاء عن ابن عباس : (﴿بل أدرك علمهم في الآخرة﴾ حين لم ينفع العلم) .

والمقصود: أن علمهم إنما يُدرِكُ ويكمُل يومَ القيامة حيثُ لا ينفعهم **ذلك** كما قال تعالىٰ : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم : 38]. وقد جاء في قراءة الحسن : ﴿بل ادّرك علمهم﴾ قال : (اضمحلّ علمهم في الدنيا حين عاينوا الآخرة) .

ب ـ على القراءة الثانية :

1 ـ عن أبي حمزة ، عن ابن عباس : (﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِۚ ﴾ : أي لم يدرك) .

2 ـ قال ابن زيد : (يقول : ضلّ علمهم في الآخرة فليس لهم فيها علم ، ﴿ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾) .

وفي الحديث السابق : «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» ـ أي تساوى في العجز عن درك ذلك علم السائل والمسؤول .

والخلاصة: أنّ المعنى حسب القراءتين المشهورتين يقتضي انتهاء علمهم وعجزهم عن معرفة وقت قيام الساعة ، وكثير منهم يوقنون بها يوم حدوثها فيعلمون أنها حق .

وقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾.

أي: بل الكافرون شاكون بوقوعها غير مصدقين بحدوثها بعد فنائهم. ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾. قال ابن كثير: (أي: في عَمَايةٍ وجهل كبير في أمرها وشأنها).

قال الزمخشري: (وهو العمىٰ، وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه، لا يُخْطِرُ بباله حقاً ولا باطلاً، ولا يفكر في عاقبة. وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه. فلذلك عداه بـ «من» دون «عن» لأن الكفر بالعاقبة والجزاء، هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾.

إخبار من الله تعالىٰ عن استبعاد منكري البعث إعادة الله أجسامهم بعد صيرورتها تراباً وإخراجهم من قبورهم بعد فنائهم للبعث والحساب والقصاص.

وقوله: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾. قال ابن جرير: (يقول: لقد وعدنا هذا من قبل محمد، واعدون وعدوا ذلك آباءنا، فلم نر لذلك حقيقة، ولم نتبيّن له صحة).

وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. قال القاسمي: (أي أحاديثهم وأكاذيبهم التي سطروها بعبارة مموّهة).

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بالمعاد: الدليل عليه هلاك الأمم المكذبة به وبالوحي قبلكم، ونجاة رسلهم والمؤمنين معهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

أي: ولا تحزن ـ يا محمد ـ على إدبار هؤلاء المشركين عنك وتكذيبهم لما جئت به، ولا يضيق صدرك من مكرهم، فإن الله سينصرك عليهم وسيخذلهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (71) قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

أي: ويقول المشركون المكذبون بالبعث والمعاد ـ لك يا محمد ـ: فمتىٰ حصول هذا الوعد الذي تعدنا إياه ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تعدوننا به. قل لهم ـ يا محمد ـ: عسىٰ أن يكون قد اقترب لكم بعض الذي تستعجلون. قال مجاهد: (ردف: أزف).

وقال أيضاً: (ردف: أعجل لكم). وقال الضحاك: (﴿رَدِفَ لَكُم﴾ اقترب لكم).

وعن ابن جريج: (﴿رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ قال: من العذاب).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

أي: وإن نعم الله على الناس لا يحصيها أحد منهم، ومع ذلك أكثرهم يجحدون فضله ويهملون شكره. قال القرطبي: (﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ في تأخير العقوبة وإدرار الرزق، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضله ونعمه).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78].

وفي صحيح البخاري عن أبي موسىٰ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [ليس أحدٌ ـ أو ليس شيءٌ ـ أصْبَرَ على أذىً سمِعَه من الله، إنهم ليدعونَ له ولداً، وإنه ليعافيهم ويرزقُهم][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾. أي: يعلم السرائر والضمائر، كما يعلم العلانية من ذلك والظواهر. قال ابن جريج: (﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ قال: السر).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: 19].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: 5].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر: 7].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [كتب الله مقادير

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (6099)، كتاب الأدب، باب الصبر في الأذىٰ.

الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. وكان عرشه على الماء][1].

وفي معجم الطبراني بسند صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: [فَرَغَ الله عز وجل إلى كل عبد من خمس: من أجله ورزقه وأثره ومضجعه وشقي أو سعيد][2].

وله شاهد عن ابن عساكر بسند جيد من حديث أنس بلفظ: [فرغَ الله من أربع: من الخَلق والخُلُق والرزق والأجل].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: ما من شيء في السماء والأرض سرّ ولا علانية إلا يعلمه).

76 ـ 81. قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

في هذه الآيات: ثناءُ الله تعالىٰ على هذا القرآن، وعلى حكمه ـ جلت عظمته ـ بين الأنام، وأمرُه نبيّه ﷺ بالتوكل عليه للثبات على الحق المبين، وتقريره له أنه لا يسمع الموتىٰ أو الصم ولا يهدي العمي وإنما الهداية من الله للمؤمنين.

فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

قال النسفي: (أي يبين لهم. قال: فإنهم اختلفوا في المسيح فتحزَّبوا فيه أحزاباً ووقع بينهم التناكر في أشياء كثيرة حتىٰ لعن بعضهم بعضاً، وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا وأخذوا به وأسلموا، يريد اليهود والنصارىٰ).

---

(1) حديث صحيح. رواه مسلم (8/ 51) في القدر. باب: كتب المقادير قبل الخلق. وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1841).

(2) حديث صحيح. أخرجه الطبراني وغيره. انظر صحيح الجامع (4077) ـ (4078)، وكذلك (4079) للشاهد بعده. وانظر تفصيل البحث في كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 806 ـ 814).

والمقصود: أن هذا القرآن وسط عدل بين افتراء اليهود وغلو النصارىٰ، فعيسىٰ عليه الصلاة والسلام عبدٌ من عباد الله وأنبيائه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: 59].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: 34].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: سَمِعَ عمرَ رضي الله عنه يقولُ على المِنبر: سمعت النبي ﷺ يقول: [لا تُطْرُوني كَما أطرت النصارىٰ ابنَ مريم، فإنما أنا عبدُهُ فقولوا: عَبْدُ الله ورسولُه](1).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وإن هذا القرآن هدىٰ لقلوب المؤمنين ورحمة لمن صدق به وعمل بأمره.

قال القرطبي: (خصَّ المؤمنين لأنهم المنتفعون به).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

أي: إن ربك ـ يا محمد ـ يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل بحكمه فيهم، فيجازي المحسن بإحسانه، والمبطل بجزائه. قال القاسمي: (﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ﴾ أي بين مَنْ آمن بالقرآن ومن كفر به، بعدله وحكمته ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي فلا يردّ قضاؤه، الغالب في انتقامه من المبطلين ﴿الْعَلِيمُ﴾ أي بالفصل بينهم وبين المحقين).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾.

أي: ففوض أمرك ـ يا محمد ـ إلى الله العظيم، فإنك أنت على سبيل الحق المبين.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾.

أي: إنك يا محمد لا تسمع الكفار فهم كالموتىٰ لا حسّ لهم ولا عقل، بسبب إعراضهم عن التدبر، كذلك هم بمنزلة الصم عن فهم المواعظ وسماع ما ينفعهم. قال

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3445)، كتاب أحاديث الأنبياء. وانظر (6830) كذلك.

القرطبي: (فإذا دعوا إلى الخير أعرضوا وولّوا كأنهم لا يسمعون، نظيره: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: 18]).

قلت: والآية نص في عدم سماع الأموات، وما حصل من كلام النبي ﷺ لقتلىٰ المشركين يوم بدر خاص به ﷺ. واستنكار عمر يدل على هذا الأصل.

ففي صحيح البخاري من حديث أنس بن مالك عن أبي طلحة: [أن نبيَّ الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً مِنْ صَناديد قُريشٍ فَقُذِفوا في طَوِيٍّ مِنْ أطواءِ بَدْرٍ خبيثٍ مُخْبِثٍ، وكان إذا ظَهَرَ على قومٍ أقامَ بالعرْصَةِ ثلاثَ ليالٍ، فلما كان بِبَدْرٍ اليومَ الثالثَ أمَرَ براحلته فَشُدَّ عليها رَحْلُها إلا لِبَعْضِ حاجَتِهِ، حتىٰ قامَ على شَفَةِ الرَّكِيِّ فجعل يُناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلانُ بنَ فلانٍ، ويا فلانُ بنَ فلانٍ، أيَسُرُّكُمْ أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وَجَدْنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعَدَ ربكم حقاً؟ قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تُكَلِّمُ مِنْ أجْسَادٍ لا أرواحَ لها، فقال رسول الله ﷺ: والذي نَفْسُ محمد بيده، ما أنتم بأسمعَ لِما أقولُ منهم. قال قتادة: أحْياهُم الله، حتىٰ أسْمَعَهُم قَوْلَهُ تَوْبيخاً وتصغيراً ونِقْمَةً وحَسْرةً ونَدَماً][1].

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾.

أي: وما أنت ـ يا محمد ـ بهادي من عمي عن الحق وغرق في الكفر، فليس بوسعك خلق الإيمان في قلوبهم.

وقوله: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

قال ابن كثير: (أي: إنما يستجيب لكَ من هو سميعٌ بصيرٌ، السمعُ والبصرُ النافعُ في القلْبِ والبَصيرة الخاضعُ لله، ولما جاء عنه على ألسنة الرسل عليهم السلام).

قلت: فمن عمي عن الحق وصمّ عن سماع حججه وبيانه فقد اختار البقاء في ظلمة الخلق الأولىٰ التي خلق الله عباده فيها.

فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: [إنّ الله تعالىٰ خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقىٰ عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدىٰ، ومن أخطأه ضلَّ][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3976)، كتاب المغازي، وانظر صحيح مسلم (2875).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 176)، (2/ 197)، وأخرجه ابن حبان (1812)، والحاكم (1/ 30)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1076).

والظلمة: هي ظلمة الطباع والجهل والأهواء والخضوع للغرائز والشهوات.

والنور: هو نور الوحي ونور السنة، نور النبوة والرسالات. نور الفطرة والميثاق مع الله، الذي أخذه سبحانه على عباده بِنَعْمان وهو واد إلى جنب عرفات.

82. **قوله تعالىٰ:** ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

في هذه الآية: ذكر الدابة التي تخرج في آخر الزمان تخاطب الناس عند فسادهم وتبديلهم الدين الحق، وانتشار المنكر بينهم، فتنة لهم، وعلامة من علامات اقتراب الساعة.

ومن أقوال المفسرين في ذلك:

1 ـ عن مجاهد: (﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ قال: حقّ عليهم. أو قال: حقَّ العَذاب).

2 ـ وعن قتادة: (القول: الغضب). وقال عطية العوفي، عن ابن عمر: (هو حين لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر). وروي عن علي رضي الله عنه قال: (تكلمهم كلاماً، أي: تخاطبهم مخاطبة).

3 ـ وعن ابن عباس: (﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ تحدثهم). قال: (كلامها تنبئهم ﴿ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾)، واختاره ابن جرير.

وفي صحيح السنة العطرة من ذكر الدابة أحاديث:

الحديث الأول: روىٰ مسلم في صحيحه عن حذيفة بن أَسيد الغفاري قال: [أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمرَ الساعة فقال: لا تقوم الساعة حتىٰ تَرَوا عشر آيات: طلوعُ الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوجَ، وخروج عيسىٰ بن مريم، والدجال، وثلاثةُ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بالمغرب، وخَسْفٌ بالمشرق، وخَسْفٌ بجزيرة العرب، ونار تخرج من قَعْرِ عدن تسوق ـ أو تحشر ـ الناس، تبيتُ معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2901)، وأخرجه أحمد في المسند (3/ 6)، (3/ 7).

الحديث الثاني: روىٰ مسلم في الصحيح عن عبد الله بن عَمْرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أَنْسَهُ بعد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إنَّ أَوَّلَ الآيات خروجاً طلوع الشمس من مَغْرِبها، وخروج الدابة على الناس ضحا، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتها، فالأخرىٰ علىٰ إثرها قريباً][1].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: [بادروا بالأعمال سِتّاً: طلوعَ الشمس مِنْ مَغْرِبِها، والدُّخانَ، ودابَّةَ الأرض، والدَّجالَ، وخوَيْصَّةَ أَحَدِكُمْ، وأمْرَ العامة][2].

والمقصود: المبادرة بصالح الأعمال لمواجهة هذه الفتن. «وخويصة أحدكم»: يريد حادثة الموت التي تخص كل إنسان. وهي تصغير خاصة. وصغرت لاحتقارها في جانب ما بعدها من البعث والعرض والحساب وغير ذلك.

«وأمر العامة»: أي بادروا بالاشتغال بالأعمال الصالحات، قبل أن يتوجه إليكم أمر العامة والرياسة، فيشغلكم عن العلم وصالح الأعمال.

83 ـ 86. قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

في هذه الآيات: ذِكْرُ مشهد حشر الأمم يوم القيامة زمرة زمرة من المكذبين، حتىٰ إذا اجتمعت أفواج الناس حسب راياتهم وما كانوا يعبدون، قال الله لهم: أكذبتم بآياتي أمّاذا كنتم تعملون، فوجب السخط والغضب من الله عليهم بما كانوا يكذبون، ألم يروا كيف أنعم الله عليهم بالليل ليسكنوا فيه والنهار لينتشروا فيه ولكن أكثرهم لا يؤمنون.

فعن مجاهد: (﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ قال: زمرة زمرة). وعن ابن عباس:

---

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (2053)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 1063) لمزيد من التفصيل في أمر الدابة وعلامات الساعة وأشراطها.

(2) حسن صحيح. أخرجه ابن ماجة (4056)، كتاب الفتن. انظر صحيح ابن ماجة (3279)، باب الآيات، والحديث أخرجه مسلم (8/ 208)، وأحمد (2/ 324)، والحاكم (2/ 511).

(﴿ مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ قال: يقول: فهم يدفعون). وقال ابن زيد: (يُساقون). وقال قتادة: (وَزَعَةٌ تردُّ أولهم على آخرهم).

والمقصود: إخبار عن يوم القيامة وحَشْر الظالمين المكذبين بآيات الله للسؤال والتوبيخ والتقريع والتصغير والتحقير ثم صِليّ النار جزاء بما كانوا يكسبون.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير: 7].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات: 22 ـ 24].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [يجمع الله الناس يوم القيامة، فيقول: مَنْ كانَ يَعْبُدُ شيئاً فَلْيَتَّبِعْهُ، فيتَّبعُ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشمسَ، ويتَّبعُ مَنْ يَعْبُدُ القمرَ القمرَ، ويتَّبعُ من يَعْبُدُ الطواغيت الطواغيت، وتبقىٰ هذه الأمة فيها منافقوها..] الحديث[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

أي: حتىٰ إذا اجتمعت أفواج الناس وجماعاتهم حسب راياتهم وما كانوا يعبدون من دون الله قال الله لهم: ﴿ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى ﴾ التي أنزلتها على رسلي، وأقمتها دلالة على توحيدي وإفرادي بالعبادة والتعظيم. ﴿ وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا ﴾. قال القرطبي: (أي ببطلانها حتىٰ تعرضوا عنها، بل كذبتم جاهلين غير مستدلين. ﴿ أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ تَعْمَلُونَ ﴾ تقريع وتوبيخ، أي ماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها ولم تتفكروا بما فيها).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: ووجب السخط والغضب من الله على المكذبين بآياته ﴿ بِمَا ظَلَمُوا۟ ﴾ يعني بتكذيبهم بآيات الله، يوم يحشرون ﴿ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ يقول: فهم لا ينطقون بحجة يدفعون بها عن أنفسهم عظيم ما حلّ بهم ووقع عليهم من القول).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (182)، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية.

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

تنبيه على قدرته التامة، وهيمنته العامة، وعظيم سلطانه وجبروته.

قال ابن كثير: (﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ أي: فيه ظلام تسكُنُ بسببه حركاتُهم وتهدأُ أنفاسهم، ويستريحون من نَصَبِ التَّعب في نهارهم. ﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾، أي: منيراً مشرقاً، فبسبب ذلك يتصرَّفون في المعايش والمكاسب، والأسفار والتِّجارات، وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾).

87 ـ 90. **قوله تعالىٰ:** ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تصويرُ الله الأحداث التي تسبق القيام بين يديه للحساب، من نفخة الفزع وحركة الجبال وهي تمر مرّ السحاب، ثم توضع الحسنات والسيئات على الميزان ليكون بعد ذلك الثواب والعقاب.

والنفخ في الصور على ثلاثة أنواع:

الأولىٰ: نفخة الفزع. كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [النمل: 87]. أي: واذكر يا محمد أو ذكرهم يوم ينفخ في الصور فيفزعون من الخوف والحزن.

الثانية: نفخة الصعق. كما قال جل ذكره في سورة الزمر: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: 68].

يروي البخاري عن ابن عباس: [قال في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ الصور. و﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾: النفخة الأولىٰ. و﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾: الثانية][1].

والثالثة: نفخة القيام لرب العالمين. كما قال سبحانه في تتمة آية الزمر: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: 68].

فبنفخة الصعق يموت الأحياء من أهل السماوات والأرض إلا من استثنى الله، ثم يقبض سبحانه أرواح الباقين حتىٰ يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء، ويقول: «لمن الملك اليوم، لمن الملك اليوم، لمن الملك اليوم» ثم يجيب نفسه بنفسه سبحانه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أنا الذي كنت وحدي، وقد قهرت كل شيء، وحكمت بالفناء على كل شيء. ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل ويأمره أن ينفخ في الصور نفخة أخرىٰ وهي النفخة الثالثة نفخة البعث والقيام لرب العالمين ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

والصور قرن ينفخ فيه إسرافيل. قال مجاهد: (كهيئة البوق). وقيل هو البوق بلغة أهل اليمن. وقد جاءت السنة الصحيحة بتفصيل تلك الأحداث في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [إنِّي مِنْ أَوَّلِ مَنْ يَرْفَعُ رأسَهُ بَعْدَ النفخة الآخِرة، فإذا أنا بموسىٰ مُتَعَلِّقٌ بالعَرْشِ، فلا أدري أكذلك كان، أمْ بعد النفخة][2].

وفي رواية لمسلم: [فإذا موسىٰ آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بعث قبلي]. وفي لفظ: [فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور].

قال أهل العلم: (والصعق لتجلي الله لعباده إذا جاء لفصل القضاء، فموسىٰ إن كان لم يصعق معهم يكون قد جوزي بصعقة يوم تجلىٰ ربه للجبل فجعله دكاً).

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(1) حديث صحيح. رواه البخاري في ترجمة باب. انظر تخريج المشكاة (5529)، وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 725 ـ 728) ـ النفخ في الصور والقيام.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4813)، كتاب التفسير، ورواه مسلم (7/ 100 ـ 101)، وانظر مختصر صحيح مسلم (1612)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 728).

[ما بين النفختين أربعون. قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً ؟ قال: أبيت[1]. قالوا: أربعون شهراً ؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة ؟ قال: أبيت. ثم يُنْزِلُ اللهُ من السماء ماء فينبتون كما ينبتُ البقلُ. قال: وليس من الإنسان شيء لا يبلىٰ إلا عَظماً واحداً وهو عَجْبُ الذنب[2] ومنه يركب الخلق يوم القيامة][3].

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في صحيحه، والإمام أحمد في مسنده، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [يخرج الدجال في أمتي فيمكث فيهم أربعين لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً أو أربعين ليلة، فيبعث الله تعالىٰ عيسىٰ بن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه عروة بن مسعود الثقفي فيظهر فيهلكه الله تعالىٰ. (وفي رواية: فيطلبه فيهلكه). ثم يلبث الناس بعده سنين سبعاً ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله تعالىٰ ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقىٰ أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته حتىٰ لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلت عليه. ويبقىٰ شرار الناس في خفة الطير[4] وأحلام السباع[5]، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً. قال: فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها، وهم في ذلك دارَّة أرزاقهم حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغىٰ ليتاً ورفع ليتاً ـ أي: أمال صفحة عنقه ـ وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه ـ أي: يصلحه ويطينه ـ فيصعق، ثم لا يبقىٰ أحد إلا صعق، ثم يرسل الله تعالىٰ مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرىٰ فإذا هم قيام ينظرون. ثم يقال: أيها الناس، هلموا إلى ربكم ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال كم ؟ فيقال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين، فيومئذ تبعث الولدان شيباً، ويومئذ يكشف عن ساق][6].

وقوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾. قال أبو هريرة: «هم الشهداء» ـ رواه ابن جرير.

---

(1) أي: امتنعت عن الجواب لأني ما أدري ما الصواب.
(2) عجب الذنب: هو العظم بين الأليتين أسفل الصلب.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4814)، كتاب التفسير، وأخرجه مسلم (2955/ 141).
(4) المراد سرعتهم للشرور والشهوات والفساد والإفساد كسرعة الطير.
(5) المراد بذلك العدوان والظلم كالسباع الضارية العادية.
(6) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2940)، وأحمد (2/ 166)، وأخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (11629)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (7353).

فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون. قال النسفي: (﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾: إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة، قالوا: هم جبريل وميكائيل وإسرافيل، وملك الموت عليهم السلام. وقيل: الشهداء. وقيل: الحور، وخزنة النار، وحملة العرش، وعن جابر رضي الله عنه: منهم موسىٰ عليه السلام لأنه صعق مرة).

قلت: وكل ما سبق محتمل في التأويل، والله تعالىٰ أعلم بمن يستثني.

وقوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾. قال ابن عباس: (يقول: صاغرين).

قال ابن زيد: (الداخر: الصاغر الراغم. قال: لأن المرء الذي يفزع إذا فزع إنما همته الهرب من الأمر الذي فزع منه، قال: فلما نُفخ في الصور فزعوا، فلم يكن لهم من الله منجىٰ).

وقد قرأته بعض قراء الأمصار بالمدّ ﴿وكل آتوه﴾، وقرئ ﴿أَتَوْهُ﴾ والمعنىٰ واحد، أي جاؤوه طائعين صاغرين لم يتخلف منهم أحد.

وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾.

قال ابن عباس: (﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ يقول: قائمة، وهي تسير سيراً حثيثاً).

وقال القتبي: (وذلك أن الجبال تُجمع وتُسيَّر، فهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: 9 ـ 10].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: 105 ـ 107].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: 47].

4 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: 20].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود قال: [جاء حَبْرٌ من اليهود إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد! إنَّ الله يُمْسِكُ السماوات يوم القيامة على أصبع، والأرضين على أصبع، والجبال والشجر على أصبع، والماء والثرىٰ على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، ثم يهزّهن، فيقول: أنا الملك، أنا الله، فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما قال الحَبْرُ تصديقاً له، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ

ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطۡوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر: 67]][1].

وقوله: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾. قال ابن عباس: (يقول: أحسن كل شيء خلقه وأوثقه). وقال أيضاً: (أحكم كل شيء).

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾. قال قتادة: (إن الله ذو علم وخبرة بما يفعل عباده من خير وشرّ وطاعة له ومعصية، وهو مجازي جميعهم على جميع ذلك على الخير الخيرَ، وعلى الشرِّ الشرّ نظيره).

وقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾.

قال ابن عباس: (من جاء بلا إله إلا الله). وقال مجاهد: (كلمة الإخلاص).

والخلاصة: من جاء بالعمل الصالح على منهاج التوحيد فله بالحسنة خير منها إلى عشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة. كما قال تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: 160].

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ ـ فيما يروي عن ربه عز وجل ـ قال: [إن الله كتبَ الحسنات والسيئات، ثم بيَّنَ ذلك، فَمَنْ هَمَّ بحسنة فلم يَعْمَلْها كتبَها الله عنده حسنةً كامِلةً، فإنْ هَمَّ بها فَعَمِلَها كَتبها الله عز وجل عنده عَشْرَ حَسَناتٍ إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة] الحديث[2].

وقوله: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾.

قال القاسمي: (أي لا يعتريهم ذلك الفزع الهائل. وقرىء ﴿فَزَعِ يَوۡمِئِذٍ﴾ بالإضافة وكسر الميم وفتحها. وفزع منوناً وفتح الميم، على أنه ظرف لـ ﴿ءَامِنُونَ﴾ أو المحذوف هو صفة للفزع. والتنوين في ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ عوض عن جملة محذوفة، أي يوم إذ جاؤوا بالحسنة).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: 103].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4811)، ومسلم (2786)، وانظر تفصيل بحث: النفخ في الصور والقيام ـ في كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 725 ـ 730).

(2) حديث صحيح. خرّجه مسلم في صحيحه (131)، كتاب الإيمان، وانظر الحديث (129) كذلك.

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: 37].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: 40].

أخرج أبو نعيم في «الحلية»، وعبد الله بن المبارك في «الزهد» بسند حسن في الشواهد، عن شداد بن أوس، أن رسول الله ﷺ قال: [قال الله عز وجل: وعزتي لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع فيه عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع فيه عبادي][1].

وقوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾. قال ابن عباس: (الشرك).

وعن قتادة: (﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ قال: الإخلاص، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ قال: الشرك).

قال ابن كثير: (أي: مَنْ لقي الله مُسيئاً لا حَسَنَةَ له، أو: قد رَجَحت سيئاتُه على حسناته، كُلٌّ بِحَسَبِه. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾).

وفي الصحيحين عن عائشة أن النبي ﷺ قال: [ليس أحد يحاسَبُ يومَ القيامة إلا هلك. قلت: أوليس يقول الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ فقال: إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش في الحساب يهلك][2].

91 ـ 93. قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

في هذه الآيات: إعلامُ النبي ﷺ قومه أنه أُمِرَ بإفراد الله ربّ هذه البلدة التي حرّمها بالعبادة والتعظيم، وتلاوة القرآن وإقامة الحجة على الناس أجمعين، وحَمْد الله الذي

(1) حسن لغيره. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (6/ 98)، وأخرجه عبد الله بن المبارك في «الزهد» برقم (157)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (742).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4939)، وأخرجه مسلم (2876)، وغيرهما.

بيده عجائب الآيات يريها خلقه ليؤمنوا به وما هو بغافل عما يعملون.

فقوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾. قال قتادة: (يعني مكة).

وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها كقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: 3 ـ 4].

قال ابن جرير: (﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ على خلقه أن يسفكوا فيها دماً حراماً، أو يظلموا فيها أحداً، أو يصاد صيدها، أو يختلىٰ خلاها دون الأوثان التي تعبدونها أيها المشركون).

وفي الصحيحين عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال في خطبته عام الفتح: [لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا، فإن هذا بلدٌ حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، وهو حرام بِحُرْمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يَحِلَّ القتالُ فيه لأحدٍ قبلي، ولا يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعْضَدُ شوكُهُ ولا يُنَفَّرُ صَيْدُه، ولا يُلْتَقَطُ لُقَطَتُهُ، إلا من عرَّفها، ولا يُخْتَلىٰ خلاها، إلا الإذخِرَ][1].

وقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾. قال ابن كثير: (من باب عطف العام على الخاص، أي: هو ربُّ هذه البلدة، وربُّ كلِّ شيء ومليكُهُ لا إله إلا هو).

وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. قال القرطبي: (أي من المنقادين لأمره، الموحِّدين له).

وقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾. أي: وأمرت أن أقرأ القرآن وأرتله وأتدبره، وأن أتلوه على الناس لأبلغهم.

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

قال النسفي: (﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ باتباعه إياي فيما أنا بصدده من توحيد الله ونفي الشركاء عنه والدخول في الملة الحنيفية واتباع ما أنزل عليّ من الوحي ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ فمنفعة اهتدائه راجعة إليه لا إليّ ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي: ومن ضل ولم يتبعني فلا عليّ وما أنا إلا رسول منذر وما على الرسول إلا البلاغ المبين).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1834)، كتاب جزاء الصيد، وأخرجه مسلم (1864) نحوه، كتاب الإمارة، والإذخر: نبات طيب الرائحة.

وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾.

قال مجاهد: (في أنفسكم، وفي السماء والأرض والرزق).

والمعنى: قل ـ يا محمد ـ لمكذبي البعث والمعاد والوحي من قومك: الحمد لله على نعمته الكبرىٰ ـ نعمة الهداية للحق الذي أنتم عنها عمون ـ، وسيريكم ربكم آيات انتقامه وسخطه فتعرفونها، كما يريكم آيات وحدانيته ودلائل قدرته فتنكرونها.

وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: وما ربك ـ يا محمد ـ بغافل عن شيء من أعمال عباده، بل هو شهيد على كل ما يصدر منهم، جل جلاله، ولا إله إلا هو.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر مرفوعاً إلى النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: [قال الله تعالى: يا عبادي: إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه][1].

تمّ تفسير سورة النمل
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 17)، وأخرجه أحمد في المسند (5/ 160).

دروس ونتـــائج وأحكـــام

1 ـ إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج.

2 ـ إن الله عز وجل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه. أي: يبسط العطاء أو يُقَتِّره بعدله وحكمته.

3 ـ إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها.

4 ـ ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله، إلا كان الذي أعطاه أفضلَ مما أخذ.

5 ـ ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾: ألهمني وحرضني. والعرب تقول: أوزعه بالشيء أغراه به. واسْتوزَعْتُ الله شكره فأوزعني أي استلهمته فألهمني.

6 ـ القادة في الإسلام يحرصون على إقامة العدل والانضباط، والتأكد من جاهزية الجنود والعمال، وحسن أدائهم لوظائفهم.

7 ـ الخبء: كل ما هو مخبوء، من نبات ومعادن وأرزاق ومخلوقات لا يعلم ذلك إلا الله.

8 ـ الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره.

9 ـ نهىٰ النبي ﷺ عن قتل أربع من الدّواب: النَّمْلةِ والنَّحْلةِ والهُدْهُدِ والصُّرَد.

10 ـ الملوك الفجار إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة.

11 ـ فَضْلُ العلم خيرٌ من فضل العبادة، وخير دينْكم الورع.

12 ـ الإسرائيليات والأحاديث الموضوعة المكذوبة أساءت لشرف النبوة.

13 ـ الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل.

14 ـ إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه ذنبه حتى يُوافىٰ به يوم القيامة .

15 ـ أحبُّ الكلام إلى الله تعالى : سبحان الله وبحمده .

16 ـ ليس أَحَدٌ أصبرَ على أذى سمعه من الله ، إنهم ليدعون له ولداً ، وإنه ليعافيهم ويرزقهم .

17 ـ إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدىٰ ، ومن أخطأه ضلّ .

18 ـ إنَّ أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مَغْربها ، وخروج الدابة على الناس ضحا .

19 ـ النفخ في الصور على ثلاثة أنواع : أ ـ نفخة الفزع . ب ـ نفخة الصعق . ج ـ نفخة القيام لرب العالمين .

20 ـ الناقور : الصور . والراجفة : النفخة الأولى . والرادفة : الثانية .

21 ـ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف أو أكثر ، والسيئة بمثلها .

22 ـ ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك . فمن نوقش في الحساب يهلك .

23 ـ البلد الحرام لا يعضَدُ شوكه ولا يُنَفَّرُ صيده ولا يلتقَطُ لقطته .

24 ـ أُمِرَ رسول الله ﷺ بتلاوة القرآن وتدبره وتبليغه ، وهو أمر لأمته بعده .

25 ـ من وجد يوم الحساب خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه .

❑ ❑ ❑



وهي سورة في غالبها مكية ، وعدد آياتها (88)

روى أحمد في المسند بسند رجاله ثقات عن معد يكرب قال: [أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا ﴿طسٓمٓ﴾ المئتين ، فقال: ما هي معي ، ولكن عليكُم مَنْ أخذَها من رسول الله ﷺ: خَبَّابُ بن الأرت. قال: فأتينا خَبَّابَ بن الأرتِّ ، فقرأها علينا ، رضي اللهُ عَنْهُ][1].

موضوع السورة

تقرير الله تعالى بالقصص الحق
سنته في نصر المؤمنين وإهلاك الكافرين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ انتصار الله للقرآن ، وخبر موسىٰ عليهِ السلام ، مع الطاغية فرعون أمكر اللئام.

2 ـ تقريرُ الله تعالى جعل الغلبة والقوة للمستضعفين المؤمنين ، ليكونوا هم الوارثين ، وليري الطغاة منهم ما كانوا يحذرون.

---

(1) رجاله ثقات. أخرجه أحمد (3980) ، والطبراني (3614) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (7/ 84): ورجاله ثقات. وأورده الحافظ ابن كثير في مقدمة هذه السورة.

3 ـ قصة إرضاع موسىٰ ، والتقاط آل فرعون التابوت ، ليربىٰ موسىٰ في بيت الطاغية بإذن الله الذي يمكر بالمجرمين من حيث لا يشعرون.

4 ـ تثبيت الله تعالى أم موسىٰ ، وتحريمه المراضع حتىٰ أرجعهُ سبحانه إلى أمه.

5 ـ رعايةُ الله موسىٰ ، وإعطاؤه العلم والحكمة ، ودخول موسىٰ المدينة ووقوفه جانب الرجل من شيعته ، وشعور موسىٰ بالخوف من تبعة قتله القبطي ، واستصراخ الرجل به ثانية ، والنصيحة لهُ بالخروج وتوجهه إلى مدين.

6 ـ قصة موسىٰ والمرأتين وسقايتهُ لهما ، ودعوة والد الفتاتين له وتزويجه إحداهما.

7 ـ انقضاء المدة في خدمةِ موسىٰ والد زوجته ، ومسيره إلى مصر وتكليم الله له ، وإظهار الآيات له لتعينه في مهمته إلى فرعون ، وشُدَّ عضده بأخيه.

8 ـ جحود فرعون وقومه الآيات ، وإهلاك الله فرعون والطغاة ، ولعنهم في الدنيا والآخرة.

9 ـ إنزال التوراة ، وإهلاك فرعون ، أخبار تصدق نبوة محمد ﷺ.

10 ـ مطالبة المشركين بالآيات والمعجزات ، وكفرهم بالوحي واتباعهم الأهواء.

11 ـ مضاعفة الأجر لمؤمني أهل الكتاب ، آمنوا بنبيهم ثم آمنوا بمحمد ، ـ عليه وعلى الأنبياء والرسل الصلاة والسلام ـ.

12 ـ أمر الهداية لله ، والحرم الآمنُ نعمة الله على قريش ، وإهلاك القرىٰ الظالم أهلها سنة الله في العالمين.

13 ـ بهجة الدنيا وزينتها إلى فناء ، والدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون ، والمجرمون يساقون يوم القيامةِ ليكونوا من المحضرين ، ويقال لهم ماذا أجبتم المرسلين ، فعميت عليهم الأنباء ولم ينجُ إلا من كان من المؤمنين التائبين.

14 ـ كمال علم الله تعالى ونفاذ مشيئته ، فهو الحَكمُ وله الحُكْمُ وإليهِ ترجعون.

15 ـ امتنان الله تعالى على عباده نعمة تقليب الليل والنهار ولعلهم يشكرون.

16 ـ إثبات خزي المشركين يوم يناديهم ربهم تبارك وتعالىٰ ليخرجوا شركاءه الذين كانوا يزعمون. وخروج الرسول من كل أمة ليشهد عليها وضل عن المشركين ما كانوا يفترون.

17 ـ قصة قارون وغروره ، واستخدامه الأموال للفساد ، وخسف الله به الأرض ، وجعله عبرة لمن يعتبر.

18 ـ تكريمُ الله المؤمنين في الجنة لقيامهم على منهاج النبوة ، ومحاربتهم الفساد والطغاة في الأرض ، وتضاعف الحسنات لهم.

19 ـ إثبات المعاد إلى الله ليجزي نبيَّهُ ﷺ أجر المجاهدين الصابرين ، والله تعالى هو أعلمُ بالمهتدين.

20 ـ هذا القرآنُ نعمة الله الكبرىٰ على النبي والمؤمنين ، وفيه الهدىٰ وبه الثبات على الحق إلى يوم الدين.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 6. **قوله تعالى**: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾.

في هذه الآيات: انتصارٌ من الله تعالى لهذا الكتاب المبين، فيه خبر موسىٰ عليهِ السلام مع فرعون الطاغية الذي كان من المفسدين، وفيه تأكيدُ إرادته سبحانه تمكين المستضعفين في الأرض من المؤمنين، لِيُرِيَ الطغاة منهم ما كانوا يحذرون.

فقوله تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾. شأن الحروف المقطعة أوائل جميع السور تفيد الإعجاز وتحدي الثقلين أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو سورة منه، مع أنه مركب من مثل هذه الأحرف التي يتخاطب العرب بها.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾. انتصار لهذا القرآن العظيم، الواضح في آياته، الكاشف عن العلوم العالية التي فيها سرّ السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة. قال قتادة: (﴿مبين﴾ يعني مبين والله بركته ورشده وهداه).

وقوله تعالى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: نقرأ عليكَ ـ يا محمد ـ ونقص في هذا القرآن من خبر موسىٰ ـ عليه السلام ـ مع الطاغية فرعون، ليفيد بذلكَ أهل الإيمان باللهِ وسننه وأيامه.

قال قتادة: (يقول: في هذا القرآن نبؤهم).

وقوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾. قال السدي: (يقول: تجبر في الأرض). وقال قتادة: (بغىٰ في الأرض).

وقوله: ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾. قال مجاهد: (فِرقاً). وقال: (فَرَّقَ بينهم). قال ابن زيد: (الشيع: الفِرَق).

والمقصود: قَسّمهم طوائف وأصنافاً ليستعملهم في أمور دولته وخدمة مصالحه.

وقوله: ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

قال قتادة: (يستعبد طائفة منهم، ويذبح طائفة، ويقتل طائفة، ويستحيي طائفة). قال ابن كثير: (﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾، يعني بني إسرائيل. وكانوا في ذلكَ الوقت خيارَ أهل زَمانِهم. هذا وقد سُلِّطَ عليهم هذا الملكُ الجبّار العَنيد يَسْتَعْمِلُهم في أخسِّ الأعمال، ويَكُدُّهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رَعيَّتِهِ، ويقتلُ مع هذا أبناءهم ويَسْتَحيي نِساءَهم، إهانةً لهم واحتقاراً، وخَوْفاً مِنْ أَنْ يُوجَدَ منهم الغلامُ الذي كان قد تخوَّفَ هو وأهلُ مَمْلَكَتِهِ مِنْ أَنْ يُوجَد منهم غلامٌ يكونُ سَبَبُ هَلاكِهِ وذهابُ دولتِهِ على يديهِ. وكانت القِبطُ قد تَلَقَّوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يَدْرُسُونه من قولِ إبراهيم الخليل، حينَ ورَدَ الديار المصريّة، وجَرَىٰ لهُ مَع جَبَّارها ما جَرىٰ، حين أَخَذَ سارَة ليَتَّخِذَها جاريةً، فصَانَها الله منه، ومَنَعها منه بقدرته وسُلْطانِهِ. فبشَّر إبراهيم ـ عليه السلامُ ـ ولَده أنه سَيُولَدُ مِنْ صُلْبِهِ وَذُرِّيتِهِ مَنْ يكون هلاك مَلِكِ مِصرَ على يديهِ، فكانتِ القبطُ تتحدَّثُ بهذا عند فِرْعَونَ، فاحترز فِرعونُ مِنْ ذلكَ، وأَمر بِقَتْلِ ذُكورِ بني إسرائيل. ولن ينفعَ حَذَرٌ من قَدَر، لأنَّ أجل الله إذا جاء لا يُؤَخَّرُ، ولكل أَجَلٍ كتابٌ).

وقوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾. أي: ونريد أن نتفضل على المؤمنين الذين استضعفوا من بني إسرائيل ونحدث الشوكة لهم.

قال قتادة: (بنو إسرائيل ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أي: ولاة الأمر ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾: أي: يرثون الأرض بعد فرعون وقومه).

وقوله: ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾. قال ابن جرير: (يقول: ونوطئ لهم في أرض الشام ومصر).

وقوله: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

قال النسفي: (أي يرون منهم ما حذروه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: 137].

2 ـ وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: 25 ـ 28].

3 ـ وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: 57 ـ 59].

قلت: وهذه الآيات الكريمة تحمل بشائر النصر والظفر لطائفة الحق والإيمان على مدار الزمان، وتحملُ الويل والدمار وبشائر الهلاك للطغاة والعتاة الذين يستهزئون بالحق ويكيدونَ لدين الله وأوليائه.

7 ـ 9. قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9)﴾.

في هذه الآيات: وَحْيُ الله تعالى إلى أم موسىٰ إرضاعهُ ثم إلقاءه في البحر ليرجع إليها بإذن الله وليكون من المرسلين. والتقاط آل فرعون التابوت ليربىٰ موسىٰ في بيت فرعون بإذن الله وهم لا يشعرون.

فعن قتادة: (﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ وحياً جاءها من الله، فقذف في قلبها، وليس

بوحي نبوة أن أرضعي موسىٰ ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ الآية).

وعن السدي قال: (أمر فرعون أن يذبح مَنْ وُلِدَ مِنْ بني إسرائيل سنة، ويتركوا سنة، فلما كان في السنة التي يذبحون فيها حملت بموسىٰ، فلما أرادت وضعه، حزنت من شأنِهِ، فأوحىٰ اللهُ إليها، أن أرضعيهِ فإذا خفتِ عليه فألقيهِ في اليم).

وفي التفاسير أن فرعون لما أكثر من قتلِ ذكور بني إسرائيل خافت القِبْطُ أن يُفني بني إسرائيل فيتحملون هم الأعمال الشاقة، فألحوا لفرعون ذلكَ، فأمر بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً، فوُلِدَ هارون ـ عليه السلام ـ في السنة التي يتركون فيها، ووُلِدَ موسىٰ ـ عليهِ السلام ـ في السنة التي يقتلون فيها الولدان. وكانت دار أمه على حافة النيل، فاتخذت تابوتاً ومَهَدَتْ فيهِ مهداً، وجعلت ترضِعُ ولدها، فإذا دخل عليها من تخافه جعلته في ذلكَ التابوت وسَيَّرته في البحر، وربطته بحبل عندها.

فنسيت يوماً ربطهُ فذهب مع الماء حتىٰ مرَّ بدارِ فرعون فاحتملته الجواري إلى امرأةِ فرعون، وألقىٰ اللهُ عليهِ محبةً فأقنعت زوجها أنه قرة عين، وكان لم يولد لها ولدٌ منه.

وعن السدي: (﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ قال: هو البحر، وهو النيل).

وقوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾. قال ابن زيد: (لا تخافي عليه البحر، ولا تحزني لفراقهِ ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾).

قال ابن جرير: (يقول: لا تخافي على ولدك من فرعون وجنده أن يقتلوه، ولا تحزني لفراقه).

وقوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾. أي: لتكوني أنت ترضعيه.

وقوله: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. قال ابن إسحاق: (وباعثوه رسولاً إلى هذا الطاغية، وجاعلو هلاكه ونجاة بني إسرائيل مما هم فيه من البلاء على يديه).

وقوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾. أي: ليقضي الله بالتقاطهم ما كتب عليهم من الخزي. قال القرطبي: (لما كان التقاطهم إياهُ يؤدي إلى كونه لهم عدواً وحزناً، فاللامُ في ﴿لِيَكُونَ﴾ لام العاقبة ولام الصيرورة)[1].

قال ابن كثير: (ولكن إذا نظر إلى معنىٰ السياق فإنه تبقىٰ اللام للتعليل، لأن معناهُ

(1) وكذلكَ قال محمد بن إسحاق: (اللام هنا لام العاقبة لا لام التعليل).

أن الله ـ تعالى ـ قيَّضهم لالتقاطهِ ليجعلهُ لهم عدواً وحزناً فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه).

وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾. أي: كانوا بربهم آثمين.

قال النسفي: (أي كانوا مذنبين فعاقبهم الله بأن ربىٰ عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم).

وقوله: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾.

قال قتادة: (ألقيتْ عليه رحمتها حين أبصرته).

والمقصود: أن آسية بنت مزاحم ـ امرأة فرعون ـ شرعت تحبب الطفل إلى زوجها فرعون لئلا يفكر بقتلهِ وذبحه، فقالت له: هو قرةُ عينٍ لي ولك، وربما انتفعنا باتخاذهِ ولداً حيث ليس لنا ولد.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. قال قتادة: (وهم لا يشعرون أن هلكتهم على يديهِ، وفي زمانه). وقال ابن إسحاق: (يقول الله: وهم لا يشعرون أي بما هو كائن بما أراد الله به).

10 ـ 13. **قوله تعالى:** ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

في هذه الآيات: تثبيتُ الله تعالى أم موسىٰ وإنزال الصبر والطمأنينة على قلبها لتكون من المؤمنين. وتحريمُ الله المراضع عليهِ حتىٰ عملوا بنصيحةِ أُختهِ برده إلى أمّه وهم لا يشعرون.

فقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾.

قال ابن عباس: (فارغاً من كل شيءٍ إلا من همّ موسىٰ). قال: (لا تذكرُ إلا موسىٰ). وقال مجاهد: (﴿فَٰرِغًاۖ﴾ من كل شيءٍ غير ذكر موسىٰ).

وقوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ قال قتادة: (أي لتبدي به أنه ابنها من شدةِ وجدها). والمقصود: أي: إن كادت من شدة حزنها وأسفها لتظهر أنه ذهبَ لها ولد، وتعلنَ بحالها، لولا تثبيت الله لها وتصبيرها.

وهو قوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال القاسمي: (أي: لولا أن ألهمناها الصبر. ومعنىٰ ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدقين بوعد الله).

وقوله: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾. قال مجاهد: (اتبعي أثره كيف يصنع به).

أي: أمرت أم موسىٰ ابنتها ـ وكانت كبيرة تعي ما يجري حولها ـ أن تتبع أثر ابنها في نواحي البلد. وفي لغة العرب: قصصت آثار القوم: إذا اتبعتُ آثارهم.

وقوله: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾. قال ابن عباس: (عن جانب). وقال مجاهد: (عن بُعد). وقال قتادة: (يقول: بصرت به وهي محاذيته لم تأته). وقال: (جعلت تنظر إليه وكأنها لا تُريدهُ).

قال ابن كثير: (وذلك أنه لما استقرّ موسىٰ عليهِ السلام بدار فِرعون، وأَحَبَّتْهُ امرأةُ الملك، واستطلقته منه، عَرَضوا عليهِ المراضعَ التي في دارهم، فلم يقبل منها ثَدْياً، وأبىٰ أن يقبلَ شيئاً من ذلكَ. فخرجوا به إلى السوق لَعلَّهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فلما رأته بأيديهم عرفته. ولم تُظْهِر ذلكَ ولم يشعروا بها).

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. قال قتادة: (أنها أخته، قال: جعلت تنظرُ إليهِ كأنها لا تُريده). وقال ابن إسحاق: (أي: لا يعرفون أنها منه بسبيل). وقال مجاهد: (﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال: آل فرعون).

وقوله: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾. أي: تحريماً قدرياً ليمتن الله على أمه بتسكين نفسها وتطمين قلبها حين لا يقبل إلا ثديها. قال مجاهد: (لا يقبل ثدي امرأةٍ حتىٰ يرجعَ إلى أمه).

قال السدي: (أرادوا له المرضعات، فلم يأخذ من أحد من النساء، وجعل النساء

يطلبن ذلكَ لينزلن عند فرعون في الرضاع ، فأبىٰ أن يأخذ) .

وقوله : ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ .

قال النسفي : (﴿ فَقَالَتْ ﴾ أخته وقد دخلت بين المراضع ورأته لا يقبل ثدياً ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ أرشدكم ﴿ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ ﴾ أي موسىٰ ﴿ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾) .

قال ابن جريج : (﴿ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ : هم للملك ناصحون) . وقال ابن إسحاق : (﴿ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ أي لمنزلته عندكم ، وحرصكم على مسرّة الملك ، قالوا : هاتي) .

وقوله : ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ .

قال قتادة : (ووعدها أنه رادّه إليها وجاعله من المرسلين ، ففعل الله ذلك بها) .

وقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

أي : ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله حق ، ولا يعلمون أن قضاءه في شؤون عباده ليس إلا في خير ، وأن أهل الإيمان منهم يرعاهم سبحانه برحمته وعنايته .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 216] .

2 ـ وقال تعالى : ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : 19] .

3 ـ وقال تعالى : ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم : 6 ـ 7] .

ومن صحيح السُّنة العطرة في ذلكَ أحاديث :

الحديث الأول : روىٰ أحمد في المسند ، ومسلم في الصحيح ـ نحوه ـ عن صهيب قال : [بينا رسول الله ﷺ قاعد مع أصحابه إذ ضحك ، فقال : ألا تسألوني مم أضحك؟ قالوا : يا رسول الله! ومم تضحك؟ قال : عجبتُ لأمر المؤمن ، إنَّ أمره كله خير ، إن

أصابه ما يحب حمد الله وكان له خير ، وإن أصابه ما يكره فصبر كان له خير ، وليس كل أحد أمره كله خير إلا المؤمن][1] .

الحديث الثاني: روىٰ عبد الله بن أحمد في مسند أبيه ، وكذلكَ أبو يعلىٰ بسند صحيح عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [عجباً للمؤمن لا يقضي اللهُ له شيئاً إلا كان خيراً له][2] .

الحديث الثالث: أخرج البيهقي والطيالسي بسند صحيح من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً: [عجبت للمسلم إذا أصابتهُ مصيبةٌ احتسب وصبر ، وإذا أصابه خيرٌ حمدَ الله وشكر ، إنَّ المسلم يُؤجَرُ في كل شيء حتىٰ في اللّقمةِ يرفعها إلى فيه][3] .

14 ـ 17 . قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: رعايةُ الله تعالى موسىٰ عليه السلام ، وإعطاؤهُ العلم والحكمة جزاء الإحسان ، ودخول موسىٰ المدينةَ ووقوفه بجانب الرجل من شيعتهِ ليَكز خصمهُ فيقتله ، ثم يندمُ ويستغفرُ ويعترف بذنبه ، ونعمة الله عليهِ ، ويعاهد الله تعالى ألا يكون ظهيراً للمجرمين .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (6/ 16) ، والدارمي (2/ 318) ، وسنده صحيح على شرط مسلم ، وقد أخرجه في «صحيحه» (8/ 227) نحوه . وانظر السلسلة الصحيحة (147) .

(2) حديث صحيح . رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه (5/ 24) ، وأبو يعلىٰ (2/ 200) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (148) .

(3) إسناده صحيح . أخرجه الطيالسي (211) ، والبيهقي من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه . انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3881) .

فقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾.

قال ابن جرير: (﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ موسىٰ. ﴿أَشُدَّهُۥ﴾، يعني حان شدّة بدنه وقواه، وانتهىٰ ذلكَ منه). قال مجاهد: (﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾: الفقه والعقل والعمل قبل النبوة). وقال ابن إسحاق: (آتاه الله حكماً وعلماً: فقهاً في دينهِ ودين آبائه، وعلماً بما في دينهِ وشرائعهِ وحدوده). وقيل: النبوة.

قلت: والراجح أنه أوتي عند استوائه واشتداد قوتهِ ما يمهد لاستقبال النبوة والرسالة.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

قال الزجاج: (جعل الله تعالى إيتاء العلم والحكمة مجازاة على الإحسان لأنهما يؤديان إلى الجنة التي هي جزاء المحسنين).

وقوله: ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾. أي: من غير أن يشعروا بدخوله.

قال النسفي: (﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ﴾ أي مصر ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾ حال من الفاعل، أي مختفياً، وهو ما بين العشاءين أو وقت القائلة يعني انتصاف النهار. وقيل: لمّا شبّ وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم فأخافوه، فلا يدخل المدينة إلا على تغفل).

وقوله: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ﴾.

قال قتادة: (أما الذي من شيعتهِ فمن بني إسرائيل، وأما الذي من عدوّه فقبطي من آل فرعون).

وقال ابن إسحاق: (﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ مسلم، وهذا من أهل دين فرعون كافر).

وقوله: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾.

قال ابن إسحاق: (وكان موسىٰ قد أوتي بسطة في الخلق وشدّة في البطش، فغضب بعدوّهما فنازعه ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ وكزة قتله منها وهو لا يريد قتله).

قال مجاهد: (﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾: بجمع كفهِ). قال ابن كثير: (فاستغاث الإسرائيلي بموسىٰ عليهِ السلام، ووجد موسىٰ فُرصَةً، وَهِيَ غفلة الناس، فَعَمَدَ إلى القبطي ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ قال: أي: كان فيها حتفُه فمات).

وقوله: ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: قال موسىٰ حين قتل القتيل: هذا القتل من تسبب الشيطان لي بأن هَيَّجَ غضبي حتىٰ ضربتُ هذا فهلكَ من ضربتي، ﴿ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ ﴾ يقول: إن الشيطان عدوّ لابن آدم ﴿ مُّضِلٌّ ﴾ له عن سبيل الرشاد بتزيينه له القبيح من الأعمال، وتحسينهِ ذلكَ له ﴿ مُّبِينٌ ﴾ يعني أنه يبين عداوته لهم قديماً، وإضلاله إياهم).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

قال ابن جريج: (قوله ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ قال: بقتلي، من أجل أنه لا ينبغي لنبيّ أن يقتل حتىٰ يؤمر، ولم يؤمر). قال قتادة: (عرف المخرج، فقال: ﴿ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ﴾).

قلت: وهذا هو المخرجُ دوماً من ألم اجتراح الذنوب أن يهرع العبد إلى ربهِ تعالى متذللاً له بالتوبة والاستغفار راجياً رحمتهُ ومغفرته وتجاوز الزلل والصفح والستر، وقد وعد اللهُ تعالى عباده إذا أخبتوا إليهِ بالمغفرة والرحمة.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: 37].

2 ـ وقال تعالى ـ في تفصيل تلك الكلمات ـ: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: 23].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: 201].

ومن صحيح السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج مسلم في صحيحه عن أبي أيوب مرفوعاً: [لو أنكم لم تكن لكم ذنوب يغفرها الله لكم، لجاء اللهُ بقومٍ لهم ذنوب يغفرها لهم](1).

وله شاهد عند البزار من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً بلفظ: [لو لم تُذنبوا لذهب اللهُ بكم، ولجاء بقومٍ يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم].

الحديث الثاني: أخرج الطبراني بإسنادٍ حسن عن أبي سعيد الأنصاري رضي اللهُ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 94)، وانظر للشاهد: «مجمع الزوائد» (10/ 215).

عَنْهُ ، عن النبي ﷺ قال: [الندم توبة والتائب من الذنب كمن لا ذنب له][1].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إنَّكَ ما دعوتني ورَجَوتني غَفَرْتُ لك ، على ما كان فيك ولا أبالي. يا ابنَ آدمَ لو بَلَغَتْ ذنوبُكَ عَنَانَ السماءِ ثم استغفرتني غَفَرْتُ لكَ ولا أُبالي. يا ابن آدم إنَّكَ لو أتَيْتَنِي بقُرابِ الأرضِ خطايا ثمَ لقيتني لا تُشْرِكُ بي شيئاً لأتيتُكَ بقُرابِها مَغْفِرَةً][2].

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾.

أي: قال موسىٰ مقبلاً على ربه متواضعاً بين يديهِ بعد اجتراحِ الذنب: رب بما آتيتني من العلم والحكمة والجاه والعزة والقوة فلن أكون معيناً لأعدائكَ أو مقوياً لهم ، بل ولياً للمؤمنين من غير تفريط ولا ظلم.

قال قتادة: (يقول: فلن أعين بعدها ظالماً على فُجْره).

18 ـ 19. **قوله تعالى**: ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

في هذه الآيات: شعورُ موسىٰ عليه السلام بالخوف من تبعة قتله القبطي ، واستصراخ صاحبه مرة أخرىٰ به على قبطي آخر ، وظنُّ الإسرائيلي أن موسىٰ يهجم عليهِ ليقتله هو بدل القبطي.

فقوله: ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾. قال ابن عباس: (خائفاً من قتله النفس ، يترقب أن يؤخذ).

وقوله: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ﴾. قال السدي: (يقول: يستغيثه).

---

(1) حديث حسن. أخرجه الطبراني بإسناد حسن. انظر صحيح الجامع الصغير (6679).

(2) حديث صحيح. أخرجهُ الترمذي في السنن (3789). وانظر صحيح سنن الترمذي (2805).

قال قتادة: (الاستنصار والاستصراخ واحد). وقال عكرمة: (الذي استنصره: هو الذي استصرخه).

والمقصود: بينما موسىٰ عليه الصلاة والسلام يمشي خائفاً من مغبة قتل القبطي بالأمس، يتلفت ويتوقع ما يمكن أن يكون، إذ مرّ ببعض الطرق بذلكَ الإسرائيلي يقاتل قبطياً آخر فاستصرخهُ فقال له موسىٰ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾. أي شديد الغواية، كثير الوقوع في المآزق والشرور. قال ابن إسحاق: (فأصبح موسىٰ غادياً الغد، وإذا صاحبه بالأمس معانق رجلاً آخر من عدوه، فقال له موسىٰ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أمس رجلاً، واليوم آخر؟).

وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾.

قال ابن كثير: (ثم عزم على البطش بذلكَ القبطي، فاعتقد الإسرائيلي لِخَوَرِهِ وضَعْفِهِ وذِلَّتِهِ أن موسىٰ إنما يُريدُ قَصْدَهُ لمَّا سَمِعَهُ يقولُ ذلك، فقال يدفع عن نفسه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾. وذلكَ لأنه لم يعلم به إلا هُوَ وموسىٰ عليه السلام، فلما سَمِعَها ذلكَ القبطي لَقِفَها من فَمِهِ، ثم ذهبَ بها إلى بابِ فِرعونَ فألقاها عندهم، فعَلِمَ بذلكَ، فاشتدَّ حَنَقُه، وعَزَمَ على قتلِ موسىٰ، فطلبوه وبَعثُوا وراءَهُ لِيُحْضِروه لذلك).

وقوله: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. قال قتادة: (إن الجبابرة هكذا، تقتل النفس بغير النفس). وقال ابن جريج: (تلك سيرةُ الجبابرة أن تقتل النفس بغير النفس).

وقوله: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾. قال ابن إسحاق: (أي: ما هكذا يكون الإصلاح). وقال ابن جريج: (يقول: ما تريد أن تكون ممن يعملُ في الأرض بما فيه صلاحُ أهلها، من طاعة الله).

20 ـ 22. **قوله تعالى**: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ

رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

في هذه الآيات: تحذيرُ رجل ـ من شيعة موسىٰ ـ موسىٰ عليه السلام من مكر القومِ به، ناصحاً له بالخروج من المدينةِ، وخروج موسىٰ على خوفٍ يرجو ربّه النجاة من القومِ الظالمين، وتوجّهُه إلى مدين بإذن الله السميع العليم.

فقوله: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾.

قال ابن عباس: (فأرسل فرعون الذَّباحين لقتل موسىٰ، فأخذوا الطريق الأعظم، وهم لا يخافون أن يفوتهم، وكان رجل من شيعة موسىٰ في أقصىٰ المدينة، فاختصر طريقاً قريباً، حتىٰ سبقهم إلى موسىٰ، فأخبره الخبر). قال ابن كثير: (وصفه بالرُّجُوليّةِ لأنه خالفَ الطريق، فسلك طريقاً أقرب من طريقِ الذين بُعثوا وراءه، فسبق إلى موسىٰ، فقال له: يا موسىٰ، ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾، أي: يتشاورون فيكَ ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾، أي: من البلد، ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾).

وقوله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ قال قتادة: (خائفاً من قتله النفس يترقب الطلب). وقال ابن زيد: (يترقب مخافة الطلب).

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. قال ابن إسحاق: (ذُكر لي أنه خرج على وجهه خائفاً يترقب ما يدري أي وجه يسلك، وهو يقول: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾).

وقوله: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾. قال ابن عباس: (خرج ولم يكن له علم بالطريق إلا حسن الظن بربه).

ومدين: قرية لم تكن في سلطان فرعون، بينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام.

وقوله: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾. قال مجاهد: (الطريق إلى مدين).

وقال قتادة: (قصد السبيل). وقال الحسن: (الطريق المستقيم).

23 ـ 28. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ

ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾﴾.

في هذه الآيات: قصة موسىٰ عليهِ السلام والمرأتين وسقايته لهما، ودعوةُ والد الفتاتين موسىٰ إلى بيتهِ وتزويجه إحداهما.

فقوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾.

قال السدي: (يقول: كثرةُ من الناس يسقون). وقال ابن إسحاق: (وقع إلى أمة من الناس يسقون بمدين أهل نعم وشاء).

والمقصود: لما وصل موسىٰ عليهِ السلام إلى مدين وورد بئراً فيها كانت ترده رعاء الشاء، وجد جماعة من الناس قائمين على ذلكَ الماء يسقون مواشيهم ونعمهم.

وقوله: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾. الذود: الطرد والدفع. قال ابن عباس: (تحبسان). وقال السدي: (تحبسان غنمهما). والمقصود: تحبسان غنمهما لئلا تختلط مع غنم القوم.

قال النسفي: (تطردان غنمهما عن الماء، لأن على الماء من هو أقوىٰ منهما فلا تتمكّنان من السقي، أو لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم).

وقوله: ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾. قال ابن عباس: (قال لهما: ﴿مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾ معتزلتين لا تسقيان مع الناس).

أي: لما رآهما موسىٰ عليه الصلاة والسلام رقَّ لهما وتوجه إليهما مستخبراً عن شأنهما لماذا لا تردان مع هؤلاء؟

وقوله: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾. قال ابن إسحاق: (امرأتان لا نستطيع أن نزاحم الرجال). وقال ابن عباس: (أي: لا نستطيعُ أن نسقي حتىٰ يسقي الناس، ثم نتبع فضلاتهم). قال ابن جريج: (تنتظران تسقيان من فضول ما في الحياض حياض الرعاء).

وقوله: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾. قال ابن إسحاق: (لا يقدر أن يمسّ ذلكَ من نفسه، ولا يسقي ماشيته فنحن ننتظر الناس حتىٰ إذا فرغوا أسقينا ثم انصرفنا).

وقوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

قال مجاهد: (فتح لهما عن بئر حجراً على فيها، فسقىٰ لهما منها). قال شريح: (انتهىٰ إلى حجر لا يرفعهُ إلا عشرة رجال، فرفعهُ وحده).

قال السدي: (رحمهما موسىٰ حين ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فأتىٰ إلى البئر فاقتلع صخرة على البئر كانَ النفر من أهل مَدْين يجتمعون عليها، حتىٰ يرفعوها، فسقىٰ لهما موسىٰ دلواً فأروتا غنمهما، فرجعتا سريعاً، وكانتا إنما تسقيان من فُضول الحياض).

وعن ابن إسحاق، قال: (أخذ دلوهما موسىٰ، ثم تقدّمَ إلى السقاء بفضل قوته، فزاحم القوم على الماء حتىٰ أخّرهم عنه، ثم سقىٰ لهما).

قال أبو بكر بنُ أبي شَيْبة: حدثنا عُبيد الله، أنبأنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عَمْرو بن مَيمون الأَوْدِيِّ، عن عمر بن الخطاب ـ رضي اللهُ عَنْهُ ـ: (أنَّ موسىٰ ـ عليه السلام ـ لما وَرَدَ ماءَ مَدْينَ، وجَدَ عليه أمةً من الناسِ يسقون، قال: فلما فرغوا أعادُوا الصخرة على البئر، ولا يُطيقُ رفعَها إلا عَشَرةُ رجالٍ، فإذا هو بامرأتين تذودان، قال: ما خطبُكُما؟ فحَدَّثتاه، فأتىٰ الحجر فرفعه، ثم لم يَسْتَقِ إلا ذنوباً واحداً حتىٰ رَوِيت الغنم)[1].

وقوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

قال ابن عباس: (انصرف موسىٰ إلى شجرة، فاستظل بظلها، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ

---

(1) رواه ابن أبي شيبة من طريق عمرو بن ميمون. وذكره الحافظ ابن كثير في «التفسير» ـ سورة القصص ـ آية (24). وقال: إسناد صحيح.

أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾). قال ابن عطاء: (نظر من العبوديةِ إلى الربوبية وتكلم بلسان الافتقار، لما ورد على سره من الأنوار).

قلت: وقد أكثر المفسرون هنا من روايات لا تقوم بها الحجة فصرفوا الآية إلى حاجة موسىٰ إلى الطعام وليسَ له دراهم وقد اشتد عليه الجوع. والأَوْلىٰ أن يكون قال ذلكَ تواضعاً لله وعظمته أن أعطاه ما أعطاه من القوة والعلم، وصرفَ عنه طلب أهل الظلم، ورعاه منذ طفولتِهِ إلى أن أوصلهُ إلى مضارب هؤلاء القومِ، وهو الآن يطمعُ في خيرِ ربهِ من أسباب القوةِ والمال والنجاة والعناية بشكلها الأعم.

وقوله: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾.

في الكلام محذوف، والتقدير: فذهبتا مسرعتين إلى أبيهما على غير عادتهما، فأخبرتاه عن روعة هذا الرجل الذي سقىٰ لهما، فأمر إحداهما أن تذهب وتدعوه له.

فجاءته تمشي على استحياء. أي: مَشْي الحرائر. قال النسفي: (أي: مستحية، وهذا دليل كمال إيمانها وشرف عنصرها لأنها كانت تدعوهُ إلى ضيافتها، ولم تعلم أيجيبها أم لا، فأتته مستحية قد استترت بكم درعها).

وجملة: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ في محل نصب حال. أي جاءته مستحية.

وروىٰ ابن جرير بسنده عن ضرار بن عبد الله بن أبي الهُذيل عن عمر رضي اللهُ عَنْهُ قال: (مستترة بِكمٍّ درعها، أو بكم قميصها). أو قال: (واضعة يدها على وجهها مستترة). ودِرْعُ المرأةِ: قميصها ـ والمِدْرعة: ثوبٌ لا يكون إلا من صوف.

وروىٰ ابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن عمرو بن ميمون قال: قال عُمر ـ رضي اللهُ عَنْهُ ـ: (جاءَتْ تمشي على استحياء، قائِلةً بِثَوبها، على وَجْهِها، ليست بِسَلْفَعٍ من النساء، خرَّاجَةً ولاّجَةً)[1].

وقوله: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

قال ابن كثير: (وهذا تأدُّبٌ في العبارة، لم تطلبهُ طلباً مُطلقاً لئلا يُوهِمَ ريبةً، بل قالت: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، يعني: لِيُثِيبَكَ ويكافِئَكَ على سَقْيِكَ لغنمنا).

---

(1) ذكره الحافظ ابن كثير وقال: هذا إسناد صحيح. قال الجوهري: السَّلْفَعُ من الرجال: الجسور. ومن النساء: الجريئة السليطة، ومن النوق: الشديدة.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

أي: فلما أقبل إليهِ وقابله وأخبره أمره وسبب خروجه من بلده، طمأنهُ الرجل الصالح[1] بأن لا سلطان لفرعون في هذه القرية ـ مدين ـ وقد أصبحت بإذن الله ناجياً من مكر القومِ الظالمين.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾.

أي: قالت إحداهما ـ قيل هي التي أرسلها أبوها لتأتي بموسىٰ ـ يا أبتِ: استعملهُ ليرعىٰ ماشيتكَ وشؤونك، فإنه القوي على ذلكَ الأمينُ فيما ولي واستودع لا تخشىٰ منه خيانة.

قال ابن عباس: (فأحفظته الغيرةُ أن قال: وما يدريكِ ما قوّته، وأمانتهُ؟ قالت: أما قوتهُ، فما رأيت منه حين سقىٰ لنا، لم أرَ رجلاً قط أقوىٰ في ذلكَ السقي منه ـ وفي رواية غيره قالت: إنه رفَعَ الصخرة التي لا يُطيقُ حَملَها إلا عَشَرَةُ رجال ـ وأما أمانتهُ، فإنه نظر حين أقبلت إليهِ وشخصت له، فلما علمَ أني امرأة صوّب رأسه فلم يرفعه، ولم ينظر إليّ حتىٰ بلغته رسالتكَ، ثم قال: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، ولم يفعل ذلكَ إلا وهو أمين، فسريَ عن أبيها وصدَّقها وظنَّ به الذي قالت).

وفي رواية: قال ابن عباس: (إنَّ موسىٰ لما سقىٰ لهما، ورأت قوّتهُ، وحرّكَ حجراً على الركِيّةِ، لم يستطعهُ ثلاثون رجلاً، فأزالهُ عن الركية، وانطلقَ مع الجاريةِ حينَ دعته، فقال لها: امشي خلفي وأنا أمامك، كراهية أن يرىٰ شيئاً من خلفها مما حَرَّمَ اللهُ أن ينظر إليه).

وفي الأثر عن عبد الله بن مسعود قال: (أفرسُ الناس ثلاثةٌ: أبو بكر حين تفرّسَ في عُمَرَ، وصاحب يوسف حين قال: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾، وصاحبة موسىٰ حين قالت: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾).

وقوله: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَـٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾.

أي: قال الشيخ الصالح لموسىٰ ـ عليه السلام ـ إني أرغبُ بتزويجكَ إحدىٰ ابنتي

(1) أكثر المفسرون هنا من اعتبار الرجل والد الفتاتين أنه شعيب عليه الصلاة والسلام، ولا دليلَ عندهم تقوم به الحجة، وإنما الراجح أنه رجل صالح في ذلكَ الزمان في تلك القرية.

هاتين مقابل أن ترعىٰ غنمي وتكونَ لي أجيراً ثماني سنين ، فإن رأيتَ زيادة سنتين تطوعاً منك فالأمرُ إليك .

وقوله : ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ . قال ابن كثير : (أي : لا أشاقك ، ولا أؤذيكَ ، ولا أُماريك) . وقال ابن جرير : (﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ باشتراط الثماني الحجج عشراً عليك) . قلت : والراجح الأول ، فهو أعم وأشمل ، أي : وما أبتغي في معاملتكَ إيذاء ومشقة وضرراً يلحقُ بك .

وقوله : ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال ابن إسحاق : (أي في حسن الصحبة والوفاء بما قلت) . قال النسفي : (ويجوز أن يرادَ الصلاح على العموم ويدخل تحته حسن المعاملة ، والمراد باشتراطه مشيئة الله فيما وعد من الصلاح الاتكال على توفيقه فيه ومعونته لأنه إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ذلك) .

قلت : وجعل المهر فائدة ترجع على الأب في التزويج خاص بهذه القصة وشرع لمن قبلنا ، وإلا فالمهر حق المرأة مقابل استحلال فرجها .

قال تعالى : ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء : 4] .

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي اللهُ عَنهُ : [أن عبد الرحمن بن عوف جاء إلى رسول الله ﷺ وبه أثر صفرة ، فسألهُ رسول الله ﷺ فأخبره أنه تزوج امرأة من الأنصار ، قال : كم سقت إليها؟ قال : زِنَةَ نواة من ذهب . قال رسول الله ﷺ : أَوْلِمْ ولو بشاة][1] .

وفي الصحيحين والسنن الأربعة عن سهل بن سعد قال : [إني لفي القوم عند رسول الله ﷺ إذ قامت امرأة فقالت : يا رسول الله إنها قد وهبت نفسها لك ، فَرَ فيها رأيك . فلم يجبها شيئاً . ثم قامت فقالت : يا رسول الله إنها قد وهبت نفسها لكَ ، فَرَ فيها رأيك . ثم قامت الثالثة فقالت : يا رسول الله إنها قد وهبت نفسها لك ، فَرَ فيها رأيكَ . فقام رجل فقال : يا رسول الله ، أنكحنيها ، قال : هل عندكَ من شيء؟ قال : لا . قال : اذهب فاطلب ولو خاتماً من حديد ، فذهب وطلب ، ثم جاء فقال : ما وجدتُ شيئاً ولا خاتماً من حديد .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5153) ، ومسلم (1427) ، وأبو داود (2095) ، والترمذي (1100) ، وابن ماجة (1907) ، وأخرجه النسائي (119) .

قال: هل معكَ من القرآن شيءٌ؟ قال: معي سورة كذا وسورة كذا. قال: اذهب فقد أنكحتكها بما معكَ من القرآن](1).

فالصداق حق المرأةِ على الرجل، وهو ملك لها، لا يحلُ لأحدٍ أباً كان أو غيره أن يأخذ منهُ شيئاً إلا إذا طابت المرأة نفساً بهذا الأخذ.

وقوله: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ﴾.

أي: قال موسىٰ لوالد زوجته: الأمرُ على ما قلت، فقد رضيتُ بالزواج بابنتكَ مقابل أنك استأجرتني على ثمان سنين، فإن تَبَرَّعْتُ بسنتين فأكملتها عشراً، فذاك إليّ، ولا حرج عليّ في اختيار أقلهما وأكون قد برئت من العهد.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾. قال مجاهد: (شهيد على قول موسىٰ وختنه).

قال ابن جرير: (يقول: واللهُ على ما أوجب كل واحد منا لصاحبه على نفسه بهذا القول، شهيد وحفيظ).

أخرج أبو يعلىٰ وابن جرير والحاكم بسند يتقوىٰ بكثرةِ طرقه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [سألتُ جبريل: أيَّ الأجلين قضىٰ موسىٰ عليه السلام؟ قال: أكملَهما وأتمهما](2).

وله شاهد عند البزار من حديث أبي ذر: [أن النبي ﷺ سُئِلَ: أَيَّ الأجلين قضىٰ موسىٰ؟ قال: أوفاهما وأبرَّهما].

29 ـ 32. **قوله تعالىٰ**: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5149)، ومسلم (1425)، واللفظ للبخاري، وأخرجه أبو داود (2097)، والترمذي (1121)، وابن ماجة (1889)، مختصراً، وأخرجه النسائي (123).

(2) حسن بمجموع طرقه وشواهده، أخرجه أبو يعلىٰ (2/ 634)، وابن جرير (20/ 44)، والحاكم (2/ 407)، وانظر للشاهد ما أخرجه البزار (2244)، والطبراني في «الصغير» (815)، والحديث أورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (1880).

ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ .

في هذه الآيات: انقضاءُ المدةِ في خدمة موسىٰ والد زوجته ، ومسيره في طريق العودة إلى مصر ، وتكليم الله له عند النار التي استأنس بها في الليل أثناء الطريق ، وإظهار الله تعالى له الآيات التي تعينهُ في مهمته إلى فرعون وملئه .

فقوله : ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾ . قال ابن عباس : (أتمهما وأخيرَهما) . وقال : (قضىٰ موسىٰ آخر الأجلين) . وقد مضىٰ حديث ابن عباس وأبي ذر في ذلك .

وقوله : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ . قال ابن جرير : (شاخصاً بهم إلى منزله من مصر) .

وقوله : ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ . قال قتادة : (أي أحسست ناراً) . أي : أبصر موسىٰ في طريقه وأحسّ ناراً فقال لأهله : تمهّلوا وانتظروا ، إني أبصرتُ ناراً .

قال ابن كثير : (كان موسىٰ قد اشتاق إلى بلاده وأهله ، فعزمَ على زيارتهم في خِفْيَةٍ مِنْ فِرعونَ وقَومِه ، فتَحمَّلَ بأهله وما كانَ معه من الغنم التي وهبَها له صِهرُه ، فسلكَ بهم في ليلةٍ مطيرة مظلمة باردة ، فنزل منزلاً ، فجعل كلما أورىٰ زَنْدَه لا يُضيء شيئاً ، فتعجَّب من ذلكَ ، فبينما هو كذلكَ إذ ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ﴾ ، أي : رأىٰ ناراً تُضيءُ له على بُعْدٍ ، ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ ، أي : حتىٰ أذهبَ إليها ، ﴿ لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ . وذلك لأنه كان قد أضلَّ الطريق ، ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ ، أي : قِطعة منها ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ ، أي : تتدفؤون بها من البرد) .

وعن ابن عباس : (﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ يقول : شهاب) . قال قتادة : (والجذوة : أصل شجرة فيها نار) . قال : (﴿ أَوْ جَذْوَةٍ ﴾ : أو شُعلة من النار) .

وقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ . قال ابن جرير : (يقول : لعلكم تسخنون بها من البرد ، وكان في شتاء) .

وقوله: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾.
أي: فلما وصل إليها نودي موسىٰ من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينهِ من ناحية الغرب، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ [القصص: 44].

قال ابن كثير: (فهذا مما يرشد إلى أن موسىٰ قصد النار إلى جهة القبلة، والجبلُ الغربي عن يمينه، والنار وجدها تضطرمُ في شجرة خضراء في لِحْفِ الجبل مما يلي الوادي، فوقف باهتاً في أمرها، فناداه ربه: ﴿ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾).

وقوله: ﴿ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

أي: إنما يتوجه إليكَ الخطاب يا موسىٰ من الله تعالىٰ رب العالمين، رب كل شيء ومليكهُ، لا إله إلا هو، الإله الحق، ليس كمثلهِ شيء وله صفات الكمال والجمال.

وقوله: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾. أمرٌ من الله تعالى لموسىٰ عليه السلام بإلقاء عصاه التي في يدهِ، ليريه تعالى فيها آية تناسب مقام التكليم، ومفاجأة هذا الأمر العظيم.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾. الجانّ واحد الجِنَّان، وهو نوع عظيم من الحيات. والمقصود: فألقىٰ موسىٰ عصاه فصارت حية تَسعىٰ، فلما رآها تضطرب وتتحرك كالجان من الحيات ولىٰ موسىٰ هارباً منها ومن هول ما رأىٰ. قال قتادة: (﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ فاراً منها، ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ يقول: ولم يرجع على عقبه). أو قال: (لم يلتفت من الفرق). وقال السدي: (لم ينتظر).

وقوله: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾. أي: ناداه ربه مطمئناً له ليرجع. قال النسفي: (أي أمنتَ من أن ينالك مكروه من الحية).

وقوله: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾.

أي: أدخل يدك في جيبِ قميصكَ تخرج بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس من غير برص ولا أذىٰ. قال الحسن: (فخرجت كأنها المصباح، فأيقن موسىٰ أنه لقي ربه).

وقوله: ﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾. قال ابن عباس: (يدك).

وقوله: ﴿ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾. قال مجاهد: (الفَرَق). وقال قتادة: (أي من الرعب).

قلت: والمقصود: واضمم يدكَ إلى صدركَ ـ يا موسىٰ ـ يذهب عنكَ ما وجدته من

الفزع والخوف من الحية. ثم هي آية لك كلما شعرت بخوف أو فزع أثناء مسيركَ في مواجهة فرعون وطغيانِهِ هو وجنودِهِ، ولذلك قال جل ذكرهُ بعدها: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾. أي خارجين عن طاعة ربهم.

وعن السدي: (﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾: العصا واليد آيتان).

وقال مجاهد: (﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾: تبيانان من ربك).

33 ـ 35. **قوله تعالى:** ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝٣٣ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَاتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَالِبُونَ ۝٣٥﴾.

في هذه الآيات: توجه موسىٰ عليه الصلاة والسلام إلى ربه عز وجل حين أمره بالذهاب إلى فرعون في مصر ـ وكان قد خرج فراراً من أذاهُ وبطشه ـ بما يجد من خوف من ذلكَ على حياته بعد قتله القبطي منهم. فلما علم أمر الله له بذلك وتوليه له سأله الاستعانة بأخيه هارون، حيث هو أفصح في التعبير منه، بسبب عقدة اللسان القديمةِ عند موسىٰ، فآنسه الله تعالى وجعل هارون وزيراً له ومقوياً لأمره وكتب لهما الحمايةَ من بطش فرعون والغلبة بآياته وإبلاغ رسالته.

قال ابن جرير: (﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾: فأخاف إن أتيتهم فلم أبن عن نفسي بحجة أن يقتلوني لأن في لساني عقدة، ولا أبين معها ما أريد من الكلام). قال ابن كثير: (وذلكَ أن موسىٰ ـ عليه السلام ـ كان في لسانِهِ لُثغَةٌ بسبب ما كان تناول تلك الجَمْرَة، حين خُيِّر بينها وبين التمرة أو الدُّرَّة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانِهِ، فحصل فيهِ شدة في التعبير، ولهذا قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ۝٢٨ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ [طه: 27 ـ 32]).

وقوله: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾. أي أحسن بياناً وإعراباً عما يريدُ بيانهُ وتبليغه.

وقوله: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾. أي: عوناً يصدقني ويدعمُ حجتي ويبين لهم

مفهوم خطابي. قال ابن إسحاق: (أي يبين لهم عني ما أكلمهم بهِ ، فإنه يفهم ما لا يفهمون).

وقال ابن زيد: (﴿ يُصَدِّقُنِيٓ ﴾: لأن الاثنين أحرىٰ أن يصدّقا من واحد).

وعن قتادة: (﴿ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ ﴾ أي عوناً). قال ابن عباس: (كي يصدقني). أو قال: (يقول كيما يصدقني). والردء في كلام العرب: هو العون.

وقوله: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: إني أخاف أن لا يصدقوني على قولي لهم إني أرسلتُ إليكم).

وقوله: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾.

العضد من الإنسان: الساعد، وهو ما بينَ الكتف والمرفق، وعَضَدَهُ أي أعانه، فكُني عن الإعانة بقوة الساعد. والمعاضَدَةُ المعاونة. والعضد في كلام العرب فيهِ لغات أربع: العَضُد، والعَضْدُ، والعُضُد، والعُضْد. ذكره الرازي.

والمقصود: أجاب الله تعالى سؤال موسىٰ عليه السلام بأن سنقوي أمرك، ونُعِزُّ جانبك بأخيك، الذي سألت له أن يكون نبياً معك.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: 36].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴾ [مريم: 53].

وقوله: ﴿ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا ﴾. قال مجاهد: (حجة). قال النسفي: (غلبة وتسلطاً وهيبة في قلوب الأعداء).

وقوله: ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾. أي: فلا يصلون إليكما بالأذىٰ، وإنما تمتنعان منهم بإبلاغكما آيات الله وحجته البالغة.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴾ [الأحزاب: 39].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: 67].

فتبليغُ آيات الله وهديه وهدي رسوله ﷺ فيه عناية الله ورعايته وتوفيقه.

أخرج الترمذي بإسناد حسن عن عائشة قالت: [كان النبي ﷺ يُحرَسُ حتىٰ نزلت هذه الآية: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾. فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبةِ، فقال لهم: يا أيها الناس انصرفوا، فقد عصمني الله][1].

وقوله: ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾.

قال الأخفش: (بآياتنا). واختاره ابن جرير، والتقدير: أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا. فالباء في قوله: ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ من صلة غالبون. قال المهدوي: (وفي هذا تقديم الصلة على الموصول).

والمقصود الأعم: أنتما ـ يا موسىٰ وهارون ـ ومن تابعكما على الحق ومنهج النبوة ستحفلون بالنصر والتأييد والغلبة على عدوكم.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: 21].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: 51].

قلت: وهذه البشارة بالنصر والتمكين لفئة الحق على منهاج النبوة قد بُثّت إلى أمة نبينا المصطفىٰ ﷺ في أحاديث:

الحديث الأول: روىٰ مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة مرفوعاً: [لا يزالُ هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عَشَرَ خَليفة. كلهم من قريش][2].

الحديث الثاني: روىٰ مسلم عن جابر بن عبد الله يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: [لا تزال طائفةٌ من أمتي يُقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة. قال: فينزل عيسىٰ

(1) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي (2440)، وكتابي: السيرة النبوية (1/ 523).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1821) ح (9) ـ كتاب الإمارة. باب الناس تبع لقريش، والخلافة في قريش. وانظر كذلكَ ح (5)، ح (6)، ح (7)، ح (8).

ابن مريم ﷺ فيقول أميرهم: تعالَ صَلِّ لنا ، فيقول: لا ، إنَّ بعضكم على بعضٍ أُمراءُ ، تكرمة اللهِ هذه الأمة][1] .

الحديث الثالث: أخرج أبو يعلىٰ والبزار في مسنديهما ، وابن المبارك في «الزهد» عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: [يظْهَرُ هذا الدين حتىٰ يجاوزَ البحار ، وحتىٰ تُخاضَ بالخيلِ في سبيل الله] الحديث[2] .

36 ـ 42. **قوله تعالى**: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ .

في هذه الآيات: جحودُ فرعون وقومهِ الآيات التي جاء به موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، واستكبار فرعون ومطالبتهُ الناس بصرف الطاعةِ والألوهيةِ له ، وإهلاك الله له ولجندهِ وتسليطه عذاب القبر عليهم إلى يوم الدين ، ولعنهم على ألسنةِ الخلق في الدنيا ثم هم يوم القيامةِ من المقبوحين.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (156) ، كتاب الإيمان ، باب: نزول عيسىٰ بن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ ، وإكرام الله هذه الأمة زادها الله شرفاً.

(2) حسن في مجموع الطرق والشواهد. أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (152/ 450) ، وأخرجه أبو يعلىٰ (12/ 56/ 6698) ، وأخرجهُ البزار: (1/ 99/ 174) ، وانظر السلسلة الصحيحة (3230).

فقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾.

قال القرطبي: (﴿بَيِّنَاتٍ﴾ أي ظاهرات واضحات. ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ مكذوب مختلق). والمقصود: لما عرض موسىٰ حجج الله تعالى البالغات، والمعجزات الباهرات بين يدي فرعون وملئه وحوصروا بدلالة الحق، لجؤوا إلى الاتهام بالسحر واستخدام المكر والحيلة.

وقوله: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾. قال الشهاب: (وهذا إما تعمد للكذب وعناد بإنكار النبوات، وإن كان عهدُ يوسف قريباً منهم. أو لأنهم لم يؤمنوا به أيضاً).

والمقصود: محاولة من فرعون وملئه إنكار دعوة موسىٰ إليهم إلى عبادة الله وحده، ونبذ الشرك والكفر الذي هم عليه، وذلك بادعاء غرابة ما يدعوهم إليه وأنه لم يكن في أسلافهم وآبائهم الذين مضوا قبلهم.

وقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾.

أي: قال موسىٰ لفرعون: إن ربي ـ يا فرعون أعلم مَنِ المحِقُّ مِنا مِنَ المُبْطل، الذي غَرَّ قومهُ وأضل أتباعهُ وأهلكَ جنوده أم الذي قرّب إليهم طريق الهداية والنجاة، وجاءهم بالآيات البينات؟! قال المهايمي: (معناه: كفى دليلاً علىٰ كونها آيات، أنها خوارق لم يسبق لها نظير. مع أن ما جئت به هدىٰ. والساحر لا يدعو في العموم إلى هدىٰ. فإن لم تعترفوا بكونهِ هُدىٰ، فربي أعلم بمن جاء بالهدىٰ من عندهِ، ويعلم ذلكَ بالعاقبة، فإن الله يحسن عاقبة أهل الهدىٰ لا محالة).

قال النسفي: (والمراد بالدار الدنيا، وعاقبتها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقي الملائكة بالبشرىٰ والغفران).

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. أي: إن الله عزيز حكيم، لا يرسل الكاذبين، ولا ينبىء السحرة المشعوذين، وقد كتب الخسارة على الظالمين.

وقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾.

هو انهزام قبيح من فرعون أمام حجة الحق البالغة، ولجوء إلى بسط التسلط والجبروت، والاستفادة من تخويف الناس بالبطش والرعب لاستعادة الأبهة الكاذبة. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وقال فرعون لأشراف قومه وسادتهم ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ فتعبدوه ، وتصدقوا قول موسىٰ فيما جاءكم به من أن لكم وله رباً غيري ومعبوداً سواي).

وقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾.

أي: أَمَرَ فرعونُ وزيرَهُ هامان أن يعمل له صرحاً من الآجر ليرتفع عليه فينظر إلى إله موسىٰ في الأعلىٰ. قال القاسمي: (﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي ناراً ، فأتخذ منه آجرّاً). قال الزمخشري: (﴿صَرْحًا﴾ أي قصراً رفيعاً إلى السماء).

وقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾. أي في قوله إن ثمَّ رباً غيري.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: 29].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: 36 ـ 37].

قال الإمام الجويني أبو محمد والد إمام الحرمين: (وهذا يدل على أن موسىٰ أخبره بأن ربه تعالى فوق السماء ، ولهذا قال: وإني لأظنهُ كاذباً)(1).

قلت: ومن ثمَّ فمن شكّ أن الله في السماء اليوم ، فقد تشبهَ بطريقة فرعون.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: أصَرَّ فرعون وجنوده الذين معه على الطغيان والكفر بآياتِ الله وحجج الحق تعدياً وعتواً على ربهم وحسبوا أنهم بعد مماتهم لا يبعثون ولا يحاسبون. فركبوا أهواءهم وتمردوا على بارئهم وضيّعوا فرصة عمرهم في الإخبات لله العظيم ، والإنابة إليه ليصفح عن جرائمهم وهو التواب الرحيم ، فأخذهم الله جميعاً فأهلكهم غرقىٰ في البحر في صورة من الخزي والذل ، فانظر ـ يا محمد ـ كيف كان مآل القوم الظالمين ، وقُصّ خبرهم على قومكَ لعلهم يختاروا غير هذه النهاية القبيحة.

أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [أنّه ذكر أنّ جبريلَ

(1) انظر: «مختصر العلو». ـ الذهبي ـ ص (80). وكتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 175).

جَعَلَ يَدُسُّ في فِي فِرعونَ الطِّين ، خشية أن يقول: لا إله إلا الله فيرحمه الله ، أو خشية أَنْ يَرْحَمَهُ][1] .

وله شاهد عنده عنه أن النبي ﷺ قال: [لما أغرق اللهُ فرعونَ قال: آمنْتُ أنه لا إله إلا الذي آمنت بهِ بنو إسرائيل. فقال جبرئيل: يا محمدُ لو رأيتني وأنا آخذُ مِنْ حالِ البَحْرِ وَأَدُسُّهُ في فِيهِ مخافةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرحمة].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾. قال ابن كثير: (أي: لمن سَلَكَ وراءَهم وأخذ بطريقتهم ، في تكذيب الرسُل وتعطيل الصانع).

والمقصود: تركهم الله تعالى في الأرض مثلاً لأهل العتو والبغي والكفر ليصيروا إلى ما صاروا إليه.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

أي ولّىٰ زمن الاستعلاء بالنصرة في الدنيا من الجنود والقادة والوزراء والأتباع ، ولم يبق إلا الخزي في الدار الآخرة. ليجتمع عليهم سوء النهاية في الدنيا موصولاً بسوء المصير يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾.

أي: جعل الله لعنتهم ولعنة ملكهم الطاغية فرعون تمضي على ألسنةِ المؤمنين في هذه الحياة الدنيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾. قال أبو عبيدة وابن كيسان: (أي: من المهلكين الممقوتين). قال قتادة: (لعنوا في الدنيا والآخرة. هو كقوله: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: 99]).

والمقصود: أنهم يكونون يوم الحساب في أسوأ حال ، وأشقىٰ مآل ، والعياذ باللهِ الكبير المتعال.

43 ـ 47. قولـه تعالـىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ

(1) صحيح الإسناد. أخرجه الترمذي في التفسير (3321) ـ سورة يونس ـ. انظر: صحيح سنن الترمذي (2484) ، وكذلك (2483) للشاهد به.

ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ .

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالى عن إنعامه على موسىٰ ﷺ بإنزال التوراة بعد إهلاكه فرعون لتكون هدىً ورحمة لقوم يتذكرون. وإثبات نبوة محمد ﷺ لمنكريها أمام هذا الإخبار بالغيوب الماضية التي لا تكون إلا بالوحي الكريم.

فقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره، ولقد آتينا موسىٰ التوراة من بعد ما أهلكنا الأمم التي كانت قبله، كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين).

وقال ابن كثير: (يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسىٰ الكليم ـ عليه من ربه الصلاة والتسليم ـ من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلكَ فِرعونَ ومَلأَهُ).

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني أنه بعد إنزال التوراة لم يُعَذِّب أُمَّةً بعامةٍ، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداءَ الله من المشركين، كما قال: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: 9 ـ 10]).

قلت: والذي ذهب إليه ابن كثير متوافق مع الحديث الصحيح الوارد في هذه الآية.

فقد أخرج الحاكم والبزار بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: [ما أهلك اللهُ قوماً، ولا قَرْناً، ولا أمّةً، ولا أهل قريةٍ منذُ أُنْزِلَ التوراةَ على وجه الأرض بعذاب من السماء، غيرَ أهل القريةِ التي مُسِخَتْ قِرَدَةً، ألمْ تَرَ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا

مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾][1] .

وقوله: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ .

قال النسفي: (﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ حال من الكتاب ، والبصيرة نور القلب الذي يبصر به الرشد والسعادة ، كما أن البصر نور العين الذي يبصر به الأجساد. يريد آتيناه التوراة أنواراً للقلوب لأنها كانت عمياً لا تستبصر ولا تعرف حقاً من باطل ﴿وَهُدًى﴾ وإرشاداً لأنهم كانوا يخبطون في ضلال ، ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن اتبعها لأنهم إذا عملوا بها وصلوا إلى نيل الرحمة ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون).

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ .

قال قتادة: (﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ يقول: بجانب غربي الجبل ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾).

قال القرطبي: (إذ كلفناه أمرنا ونهينا ، وألزمناهُ عهدنا).

والمقصود: إثبات نبوة محمد ﷺ لمنكريها من قومه أمام هذا الإخبار بالغيوب الماضية التي لا يمكن برهانها إلا بالوحي من الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾. أي: وما كنت لذلكَ من الشاهدين.

وقوله: ﴿وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾. قال القاسمي: (أي بين زمانك وزمان موسىٰ).

وقوله: ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾. أي طالت فترةُ انقطاع الوحي ، وعمّ الظلم والجهل والبغي ، فاقتضت حكمتهُ سبحانه استئنافَ النبوةِ فبعثكَ يا محمد بهذا الوحي.

قال النسفي: (﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي طالت أعمارهم وفترت النبوة ، وكادت الأخبار تخفىٰ ، واندرست العلوم ، ووقع التحريف في كثير منها ، فأرسلناكَ مجدداً لتلكَ الأخبار ، مبيناً ما وقع فيه التحريف ، وأعطيناكَ العلم بقصص الأنبياء وقصة موسىٰ).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 408) ، والبزار (2248 ـ الكشف) ، وكذلكَ ابن جرير في «التفسير» (20/ 50) من طرق ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2258).

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾.

قال ابن زيد: (الثاوي: المقيم. ﴿تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾. يقول: تقرأ عليهم كتابنا ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾. يقول: لم تشهد شيئاً من ذلكَ يا محمد، ولكنا كنا نحنُ نفعل ذلكَ ونرسل الرسل).

والمقصود: نحن ـ يا محمد ـ أوحينا إليكَ خبر أهل مدين مع نبيّهم شعيب عليه الصلاة والسلام، ولم تكن أنتَ مقيماً بينهم حين أَخْبَرْتَ قومكَ عنهم، بل قَصَصْتَهُ عليهم مِنْ خَبَرِ هذا الوحي العظيم، فليعتبر قومكَ بهذا على برهان نبوتك.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾. أي: إذ نادينا موسىٰ لحمل الأمانةِ وأخذ الكتاب بقوة.

قال القرطبي: (أي كما لم تحضر جانب المكان الغربي إذ أرسل اللهُ موسىٰ إلى فرعون، فكذلكَ لم تحضر جانب الطور إذ نادينا موسىٰ لما أتىٰ الميقات مع السبعين).

ويبدو أن هذه الآية تخصيص لعموم الآية التي قبلها: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: 10].

2 ـ وقال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: 15 ـ 16].

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: 52].

وقوله: ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قال مجاهد: (كان رحمة من ربك النبوة). وقال ابن زيد: (﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ قال: الذي أنزلنا عليك من القرآن ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبۡلِكَ﴾) قال النسفي: (في زمان الفترة بينك وبين عيسىٰ وهو خمس مئة وخمسون سنة).

والمقصود: إنما بعثناكَ ـ يا محمد ـ بهذا القرآن رحمة لقومكَ بعد فتور النبوات،

لتنقذ أمتكَ بهذا الوحي المُثبِتِ لصدقكَ بما فيه من صحيح الأخبار عن الأمم قبلك، لعلهم ينتفعون بالذكرىٰ وينجون في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إنما بعثناكَ ـ يا محمد ـ بالرسالة إلى قومكَ لإقامة الحجةِ عليهم إعذاراً وإنذاراً، فإذا نزل بهم أمر الله بعقاب أو مصيبة كان ذلكَ بما قدمت أيديهم، سنةُ الله تعالى في جميعِ الأمم.

وفي التنزيل نحو ذلكَ:

1 ـ قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: 165].

2 ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: 19].

3 ـ وقال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: 156 ـ 157].

وفي صحيح البخاري عن أبي موسىٰ قال: قال رسول الله ﷺ: [مَثلي وَمَثَلُ ما بعثني الله كمثلِ رَجُلٍ أتىٰ قوماً فقال: رأيتُ الجيش بِعَيْنَيَّ، وإني أنا النذيرُ العُريانُ، فالنَّجاءَ النَّجاءَ. فأطاعهُ طائفةٌ فأَدْلجوا على مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا، وكَذَّبَتْهُ طائفةٌ فَصَبَّحهُم الجيشُ فاجْتَاحهم][1]. وفي رواية: [فذلكَ مثلُ من أطاعني فاتَّبعَ ما جئت بِهِ، ومثلُ من عصاني وكذّب بما جئتُ به من الحق][2].

48 ـ 51. قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6482) ـ كتاب الرقاق. باب الانتهاء عن المعاصي.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7283) ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة. باب: الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، في ختامِ نحو الحديث السابق.

كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ .

في هذه الآيات: مطالبةُ المشركين بالآيات والمعجزات وقد كفروا بما أوتي موسىٰ من قبل وكانوا ظالمين. فقل لهم ـ يا محمد ـ: فهلاّ أتيتم بكتاب من عند الله بعد كفركم بهذين الكتابين. فإن لم يفعلوا فاعلم ـ يا محمد ـ أن القوم إنما يتبعون أهواءهم فهم في غيِّهم يعمهون.

فقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ .

قال مجاهد: (يهود تأمر قريشاً أن تسأل محمداً مثل ما أوتي موسىٰ ، يقول الله لمحمد ﷺ: قل لقريش يقولوا لهم: أولم يكفروا بما أوتي موسىٰ من قبل).

قلت: وقد يكونُ ذلكَ التعنت من قريش على سبيل العناد ، يريدون تقليد الأمم السالفة قبلهم في طلب الآيات ، مع أن الإيمان باللهِ وصدق وَحْيِهِ لا يحتاج إلى الخوارق لإثباته ، فهو حجة بنفسه ، فهم يطلبون مثل ما أوتي موسىٰ من الآيات الكثيرة: كالعصا واليد ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وفلق البحر وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ . قال ابن كثير: (أي: أولم يكفر البشر بما أوتي موسىٰ من تلك الآيات العظيمة).

وقوله: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ . قال مجاهد: (يعني موسىٰ وهارون عليهما السلام). و﴿تَظَٰهَرَا﴾ أي تعاونا وتناصرا وصدّق كل منهما الآخر.

وعن ابن عباس: (﴿قالوا ساحران تظاهرا﴾ يعني موسىٰ ومحمد ﷺ). وفي رواية عنه: (يعنون التوراة والقرآن). قال السدي: (يعني صدّق كل واحد منهما الآخر).

قلت: والبيانُ الإلهي يحتمل ما سبق من التأويل ، وأما من أدخل في التأويل: عيسىٰ عليهِ السلام والإنجيل فقد أبعد لعدم ورود ذلكَ في السياق.

وقوله: ﴿وَقَالُوٓا إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ . أي: إنا بكل واحد منهما كافرون.

قال مجاهد: (قال يهود أيضاً: نكفر بما أوتي محمد أيضاً).

قال النسفي: (وقيل: إن أهل مكة كما كفروا بمحمد عليه السلام وبالقرآن فقد كفروا بموسىٰ والتوراة، وقالوا في موسىٰ ومحمد: ساحران تظاهرا، أو في التوراة والقرآن: سحران تظاهرا).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قال ابن زيد: (فقال الله: ائتوني ﴿بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ من هذين الكتابين، الذي بعث به موسىٰ، والذي بعث به محمد ﷺ).

والمقصود: قل ـ يا محمد ـ لكفار قومك، أما وقد كفرتم بهذين الكتابين فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدىٰ منهما أتبعه ليكون ذلكَ عذراً لكم في الكفر عند ربكم إن كنتم صادقين في أنهما سحران.

وقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

قال القرطبي: (﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ يا محمد أن يأتوا بكتاب من عند الله ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي آراء قلوبهم وما يستحسنونه ويحببه لهم الشيطان، وأنه لا حجة لهم).

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: لا أحد أضل وأبعد سبيلاً ممن مضىٰ خلف هواه بغير حجةٍ من كتاب الله وهديه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: إن الله لا يوفق لإصابة الحق وسبيل الرشد القوم الذين خالفوا أمر الله وتركوا طاعته، وكذبوا رسوله، وبدّلوا عهده، واتبعوا أهواء أنفسهم إيثاراً منهم لطاعة الشيطان على طاعة ربهم).

وقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. قال سفيان بن عيينة: (وصلنا: بيّنا). وقال مجاهد: (فصلنا لهم القول). وقال قتادة: (وصل الله لهم القول في هذا القرآن، يخبرهم كيف صنع بمن مضىٰ، وكيف هو صانعُ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾).

والمقصود: ولقد وصلنا ـ يا محمد ـ هذا الحق إلى قريش ليكون عليهم حجة وبياناً مبيناً.

أخرج الطبراني في «الكبير»، وابن جرير في التفسير، بسند صحيح عن يحيىٰ بن جعدة، عن رِفاعَةَ القُرَظيِّ، قال: [نزلت هذه الآية في عشرةٍ أنا أحدهم: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾][1].

ورواه ابن جرير من طريق آخر ـ بعد روايته عن ابن عباس: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ قال يعني محمداً ﷺ ـ ثم قال ابن جرير: (فكأن ابن عباس أراد بقوله يعني محمداً، لعلهم يتذكرون عهد الله في محمد إليهم، فيقرّون بنبوته ويصدقونه).

52 ـ 55. **قوله تعالىٰ**: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

في هذه الآيات: ثناءُ الله تعالى على المؤمنين من أهل الكتاب آمنوا بنبيّهم وآمنوا بمحمد صلوات الله وسلامهُ عليهما وعلى المرسلين أجمعين، فأولئك يؤتون أجرهم مرتين، ثم هم يدفعون بحسنات أفعالهم سيئاتهم ومما رزقهم ربهم ينفقون، ويعرضون عن اللغو وأماكنه وعن مصاحبة الجاهلين.

فقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

قال ابن عباس: (يعني من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب). وقال مجاهد: (هم مُسْلِمةُ أهل الكتاب).

والمقصود: إخبار عن العُلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن كما آمنوا بكتابهم.

(1) إسناده صحيح. أخرجه ابن جرير في «التفسير» (27504)، (27505)، وكذلكَ ذكره الهيثمي في «المجمع»، وقال: رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله ثقات. وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة القصص ـ آية (51).

وقوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وإذا يُتلىٰ هذا القرآن على الذين آتيناهم الكتاب من قبل نزول هذا القرآن ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ يقول: يقولون: صدّقنا به ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ يعني من عند ربنا نزل).

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾. قال ابن زيد: (على دين عيسىٰ). والمقصود قولهم: إنه من قبل هذا القرآن كنّا مسلمين. أي: مُوَحِّدين مخلصين لله مستجيبين له.

وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾.

قال ابن زيد: (فلما جاء النبي ﷺ أسلموا، فكان لهم أجرهم مرتين: بما صبروا أول مرّة، ودخلوا مع النبي ﷺ في الإسلام). قال ابن كثير: (أي: هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ بإيمانهم بالرسول الأول ثم الثاني. ولهذا قال: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾، أي: على اتباع الحقّ، فإنَّ تَجَشُّمَ مثل هذا شديد على النفوس). وقال القرطبي: (﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ عام في صبرهم على ملتهم، ثم على هذه وعلى الأذىٰ الذي يلقونه من الكفار وغير ذلك).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 199].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: 121].

3 ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: 107 ـ 108].

4 ـ وقال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: 82 ـ 83].

5 ـ وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 4].

وفي الصحيحين والمسند والسنن عن أبي موسىٰ الأشعري رضي اللهُ عَنْهُ ، أنَّ رسول الله ﷺ قال : [ثلاثةٌ يُؤتونَ أجرهم مرَّتَيْن : رجلٌ مِنْ أهل الكتابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وأدْرَكَ النبي ﷺ فآمنَ بِهِ واتَّبعَهُ وصدَّقَهُ فله أجران ، وعَبْدٌ مَمْلوكٌ أدّىٰ حقَّ الله تعالى عليه وحق سَيِّده فله أجران ، ورجل كانت له أمةٌ فغذاها فأحسن غِذاءها ، ثم أَدَّبَها فأحْسَنَ أدبها ، ثم أعتقها وتزوَّجها ، فله أجران][1] .

وقوله : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ . قال مجاهد : (يقول : ويدفعون بحسنات أفعالهم التي يفعلونها سيئاتهم) . وقال النسفي : (يدفعون بالطاعة المعصية أو بالحلم الأذىٰ) .

وقوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ . قال مجاهد : (في طاعة الله ، إما في جهاد في سبيل الله ، وإما في صدقة على محتاج ، أو في صلة رحم) .

وقوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ . قال القاسمي : (﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ ﴾ أي من الجهال . وهو كل ما حقه أن يلغىٰ ويترك ، من العبث وغيره ﴿ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ أي تكريماً للنفس عن ملابسة الأدنياء ، وتشريفاً للسمع عن سقط باطلهم) .

وقوله : ﴿ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ . أي بطريق التوديع والمتاركة والترفع عن النزول إلى سوية الجاهلين . قال النسفي : (﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أمان منا لكم بأن نقابل لغوكم بمثله) .

وقوله : ﴿ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ .

قال الحسن : (كلمة حلم من المؤمنين ﴿ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أي لا نريد مخالطتهم وصحبتهم ، ولا نريد مجازاتهم بالباطل على باطلهم) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان : 63] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (97) ، (3011) ، (3446) ، وأخرجه مسلم (154) ـ كتاب الإيمان ـ واللفظ له ، وأخرجه أبو داود (2053) ، والترمذي (1116) ، والنسائي (6/ 115) ، وابن ماجة (1956) ، وأخرجه أحمد (4/ 395) ، وابن حبان (227) .

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: 72].

وفي جامع الترمذي بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: [ليس المؤمن بالطّعان، ولا اللّعان ولا الفاحش، ولا البذِيّ][1].

56 ـ 59. قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

في هذه الآيات: إعلامُ الله تعالى نبيّه ﷺ أن أمر الهداية بيده سبحانه فهو أعلم بالمستحقين. وامتنانٌ منه ـ جلّ ذكره ـ على قريش نعمة الحرم الآمن يجبىٰ إليهِ الرزقُ من جميع الأمصار بإذن الله رب العالمين. وإخبارٌ منهُ ـ تعالى ـ عن سنته في إهلاك القرىٰ إذا فسد أهلها وكانوا ظالمين.

فقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هدايته، ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أن يهديه من خلقه، بتوفيقه للإيمان به وبرسوله).

وقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. قال مجاهد: (لمن قدر له أن يهتدي). أو قال: (بمن قدر له الهدىٰ والضلالة).

قلت: والآية في مفهومها عامة بحق جميع الخلق، فإن التوفيق للهداية بيد الله سبحانه الذي اطلع على قلوب عبادهِ، وهو أعلم بالشاكرين.

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (1978)، وأخرجه أحمد (3839)، والحاكم (1/ 12).

وأما سبب نزولها فقد صحّ الخبر عن رسول الله ﷺ أنها نزلت في عمه أبي طالب ، واسمه عبد مناف ، الذي كان يحوطه وينصره ، ويغضب له ويقوم في صفه ، ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شرعياً .

ففي الصحيحين عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : [لما حَضرتْ أبا طالب الوفاة ، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل ، وعبدَ الله بن أبي أمية بن المغيرة .

فقال رسول الله ﷺ : يا عم قل لا إله إلا الله ، كلمةً أشهد لكَ بها عند الله .

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملةِ عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليهِ ويعيد له تلك المقالة حتىٰ قال أبو طالب آخِرَ ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبىٰ أن يقول لا إله إلا الله . فقال رسول الله ﷺ : أما واللهِ لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عَنك . فأنزل اللهُ عزَّ وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة : 113] ، وأنزل الله تعالى في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾](1) .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : [قال رسول الله ﷺ لِعَمِّهِ ، عند الموت «قل : لا إله إلا الله ، أشهدُ لكَ بها يوم القيامة» . فأبىٰ . قال : فأنزل اللهُ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ الآية](2) .

وفي رواية : [قال : لولا أن يُعَيِّرَني قريش ـ يقولون : إنما حَمَلَهُ على ذلكَ الجَزَعُ ـ لأقْرَرْتُ بها عَيْنكَ ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾] .

والخلاصة : لما احتضر أبو طالب دعاه النبي ﷺ إلى الإيمان ، فسبق القدر فيهِ ، واختطف من يده ، ومات على الكفر وللهِ الحكمةُ التامة .

لقد شبَّ أبو طالب على أفكار الجاهليةِ التي رسخت في قلبهِ وعقله ، وعلى التعلق بالعصبية وتقليد الآباء الذي شغل على أمثاله حياتهم ، فما تمكن من تغييرها وهو شيخٌ كبير ، وقد حضره أقرانه عند احتضاره ، فقضىٰ وأبىٰ أن يقول لا إله إلا الله .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1360) ، (3884) ، وأخرجه مسلم (24) واللفظ له ، وأخرجه النسائي (4/ 90) ، وأحمد (5/ 433) ، وأخرجه ابن حبان (982) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (25) كتاب الإيمان ، ح (41) ، وانظر للرواية بعده ح (42) ، وكذلكَ سنن الترمذي (3188) .

أخرج الإمامُ أحمد في المسند ، بإسناد صحيح عن علي رضي اللهُ عَنْهُ قال: [لما توفي أبو طالب ، أتيتُ النبي ﷺ فقلتُ: إنَّ عمَّكَ الشيخ الضالَ قد مات ، فمن يواريه؟ قال: اذهب فوارِه ، ثم لا تحدث شيئاً حتىٰ تأتيني. فقال: إنه مات مشركاً ، فقال: اذهب فواره. قال: فواريتهُ ثم أتيتهُ ، قال: اذهب فاغتسل ثم لا تحدث شيئاً حتىٰ تأتيني ، قال: فاغتسلت ، ثم أتيته ، قال: فدعا لي بدعوات ما يسرني أن لي بها حُمُر النَّعَم وسودها ، قال: وكان علي إذا غسل الميت اغتسل][1].

لقد أفقد موت أبي طالب رسول الله ﷺ سنداً كبيراً ، فلم يعد بنو هاشم مستعدين لتقديم الحماية نفسها ، وتطاولت قريش ، وقد خفف الله عن أبي طالب قسطاً كبيراً من العذاب يوم القيامةِ بسبب مساندته لرسول الله ﷺ.

يروي البخاري في صحيحه عن العباس بن عبد المطلب: [أنه قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: هو في ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار][2].

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي ﷺ ـ وذكر عنده عمه ـ فقال: [لعلهُ تنفعه شفاعتي يوم القيامة. فيجعل في ضحضاح من النار تبلغ كعبيه][3].

وفي صحيح الإمام مسلم عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [أهون أهل النار عذاباً أبو طالب ، وهو منتعل بنعلين من نار ، يغلي منهما دماغه][4].

وفي لفظ: [أهونُ أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل ، يوضع في أخمص قدميهِ جمرتان يغلي منهما دماغُه].

وقوله: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ ﴾.

قال ابن عباس: (هم أناس من قريش قالوا لمحمد: إن نتبعك يتخطفنا الناس ، فقال الله: ﴿ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند برقم (807) ، وأخرجه أبو داود في السنن (2/ 70) ، وصححه الألباني في: «أحكام الجنائز» ـ ص (134).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3883) ، وانظر كذلك: «فتح الباري» (7/ 194).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (3885) ، وأخرجهُ مسلم في الصحيح (210).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم (212) ـ كتاب الإيمان ، من حديث ابن عباس ، وانظر كذلك ـ حديث رقم ـ (213) للفظ بعده.

والمقصود: محاولة بعض كفار قريش اعتذارهم للنبي ﷺ عن اتباع هذا الوحي الذي هو الدين الحق بتَخَوُّفِهم من تألُّبِ قبائل العرب عليهم ، واستهدافهم بالمحاربةِ والأذىٰ فأثبت اللهُ تعالى كذبهم في ما اعتذروا به ، وبطلان استدلالهم.

فقال: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾. قال ابن عباس: (ثمرات الأرض).

قال قتادة: (أولم يكونوا آمنين في حرمهم لا يغزون فيه ولا يخافون ، يُجبىٰ إليهِ ثمراتُ كل شيء).

قال ابن زيد: (آمناكم به. قال: هي مكة ، وهم قريش).

قال ابن كثير: (يعني هذا الذي اعتذروا به كَذِبٌ وباطل ، لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين ، وحَرَمٍ مُعَظَّمٍ آمِنٍ منذُ وُضِعَ ، فكيف يكونُ هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق؟! وقوله تعالى: ﴿ يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ، أي: من سائر الثِّمار مما حوله من الطائف وغيره ، وكذلك المتاجر والأمتعة).

وقوله: ﴿ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. أي: هذه النعم العظيمة من الأمن والرزق إنما كانت رزقاً من عندنا ، ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون نعمة الله عليهم ولا يقومون بما يجب عليهم من شكرها.

وقوله: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾.

قال ابن زيد: (البطر: أَشَرُ أهل الغفلة وأهل الباطل والركوب لمعاصي الله).

وقال الزجاج: (البطر الطغيان بالنعمة).

وفي التنزيل نحو ذلك:

قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [النحل: 112 ـ 113].

أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» بسند صحيح لغيره عن عائشة مرفوعاً: [إذا ظهرَ

السوء في الأرض أنزل الله عز وجل بأسه بأهل الأرض، وإن كان فيهم صالحون، يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يرجعون إلى رحمة الله][1].

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: [إذا ظهر الزِّنا والرِّبا في قريةٍ، فقد أحلُّوا بأنفسهم عذاب الله][2].

وقوله: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قال ابن عباس: (لم يسكنها إلا المسافر أو مارّ الطريق يوماً أو ساعة).

قال القرطبي: (أي لم تسكن بعد إهلاكِ أهلها إلا قليلاً من المساكن وأكثرها خراب).

وقوله: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

أي: دثرت ديارهم وعادت كما كانت قبل سُكْناهم فيها، لا مالك لها إلا الله، الذي له ميراث السماوات والأرض.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾.

قال النسفي: (﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ في كل وقت ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ أي في القرية التي هي أمها أي أصلها ومعظمها ﴿رَسُولًا﴾ لإلزام الحجة وقطع المعذرة. أو وما كان في حكم الله وسابق قضائه أن يهلكَ القرىٰ في الأرض حتىٰ يبعثَ في أم القرىٰ ـ يعني مكة لأن الأرض دحيت من تحتها ـ رسولاً، يعني محمداً عليه السلام ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي القرآن).

وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾.

قال ابن عباس: (قال الله: لم يهلك قرية بإيمان، ولكنه يهلكُ القرىٰ بظلمٍ إذا ظلم أهلها، ولو كانت قرية آمنت لم يهلكوا مع من هلك، ولكنهم كذّبوا وظلموا، فبذلكَ أُهلكوا).

60 ـ 61. قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا

(1) صحيح لغيره. أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (2/ 441/ 2)، وأبو نعيم في «الحلية» (10/ 218)، وأحمد في المسند (6/ 294). وانظر السلسلة الصحيحة (1372).

(2) حديث صحيح. أخرجه الطبراني والحاكم. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (692).

عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إعلامُ الله تعالى عن فناءِ بهجة الحياة الدنيا وزينتها وأنّ ما عنده خير وأبقىٰ للذاكرين. وتأكيدٌ أنّ وعدهُ المؤمنين في الدار الآخرة ليس كهذه الزينة الزائلة من يد المسرفين، ثم يكون صاحبها بأيدي الملائكةِ يُساقُ إلى الحساب في الأذلين.

فقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾. أي: إن كل ما في هذه الدنيا من زينةٍ وبهجةٍ ومتاع إنما هو مما يتمتع ويتزين بهِ أياماً قلائل، ثم تنقضي بالموتِ أو الزوال، وأما ما عند اللهِ مما أعدَّهُ لعبادهِ الصالحين في جنات الخلود فهو دائم لا محيدَ عنهُ ولا انقطاعَ، ولا يشوبهُ مُنَغِّصٌ أو خوف أو قلق.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ ﴾ [النحل: 96].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ [الرعد: 26].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلىٰ: 16 ـ 17].

4 ـ وقال تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: 198].

ومن صحيح السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الترمذي والحاكم بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود قال: [اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلتُ أمسح جنبه، فقلتُ: يا رسول الله ألا آذنتنا حتىٰ نبسط لك على الحصير شيئاً؟ فقال رسول الله ﷺ: ما لي وللدنيا؟! ما أنا والدنيا؟! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظَلَّ تحت شجرة ثم راحَ وتركَها][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن قيس بن أبي حازم، قال: سمعتُ

(1) حديث حسن صحيح. أخرجه الترمذي (2/ 60)، والحاكم (4/ 310)، وابن ماجة (2/ 526)، وأحمد (1/ 391 ـ 441)، وانظر السلسلة الصحيحة (439).

المُستَورِدَ ، أخا بني فِهْرٍ ، يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: [ما مثل الدنيا في الآخرةِ ، إلا مَثَلُ ما يجعَلُ أحَدُكُمْ إصبعَه في اليمِّ. فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِع][1].

الحديث الثالث: أخرج ابن حبان والحاكم وأحمد بسند صحيح لغيره ، عن ابن عباس: [أن رسول الله ﷺ دخل عليهِ عمر وهو على حصير قد أثَّرَ في جنبِهِ فقال: يا نبي الله لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا ؟ فقال: ما لي وللدنيا؟! ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظلَّ تحت شجرةٍ ساعة من نهار ، ثم راح وتركها][2].

الحديث الرابع: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن سهل بن سعد قال: [كنا مع رسول الله ﷺ بذي الحُليفة. فإذا هو بشاة ميتة شائلة برجلها. فقال: أتُرَوْنَ هذه هَيِّنَةً على صاحبها؟ فوالذي نفسي بيدهِ! للدنيا أهونُ على اللهِ ، مِنْ هذه على صاحبها. ولو كانت الدنيا تَزِنُ عند الله جناحَ بعوضَةٍ ، ما سقىٰ كافراً مِنْها قَطْرَةً أبداً][3].

الحديث الخامس: أخرج الإمامُ مسلم في الصحيح عن أبي هريرةَ عن النبي ﷺ قال: [مَنْ يَدْخُلِ الجنَّةَ يَنْعَمُ لا يبْأسُ ، لا تَبْلىٰ ثيابُهُ ولا يَفْنَىٰ شَبابُهُ][4].

والخلاصة: الآية السابقة تخبر عن حقارة هذه الحياة الدنيا ، وما فيها من الزينةِ الدنيئةِ والزهرة الفانية ، وعدم الاستقرار بالنسبة لاستقرار نعيم الآخرة ودوام بهجته وزهرته وزينته. وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. أي: أفلا يعقل من يعظِّمُ أمر هذه الدنيا ومتاعها فوق أمر الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾. أي: هل يستوي المؤمن الموعود جزيل الثواب على الإيمان والعمل الصالح بالكافر الممتَّعِ أياماً قلائل في هذه الحياة الدنيا ثم يحضر يوم القيامةِ إلى العذاب الأليم.

قال قتادة: (المؤمن سمع كتاب الله فصدق به وآمن بما وعد الله فيه ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4108) ـ كتاب الزهد ، باب مثل الدنيا انظر صحيح سنن ابن ماجة (3316) ، وأصله في صحيح مسلم.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (2526) ، والحاكم (4/ 309 ـ 310) ، وأحمد (1/ 301) ، ورواه البيهقي كما في «الترغيب» (4/ 114) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (440).

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4110) ـ كتاب الزهد. انظر صحيح ابن ماجة (3318).

(4) حديث صحيح. رواه مسلم في الصحيح (2836) ـ كتاب الجنة ونعيمها. باب في دوام نعيم أهل الجنة ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هو هذا الكافر، ليس واللهِ كالمؤمنِ ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أي في عذاب الله).

وقال مجاهد: (﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾: من المعذبين).

62 ـ 67. قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ۝٦٣ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ۝٦٤ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ۝٦٧﴾.

في هذه الآيات: تصويرُ الله تعالى الخزي وذل المشهد يوم القيامة على المشركين، وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون ونودوا ماذا أجبتم المرسلين، فعميت عليهم الأنباء ولم ينج يومئذ إلا من كانَ من المؤمنين التائبين.

فقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

تقريع وتهديد، وتوبيخ وتنديد، بالمشركين الذين عبدوا الأوثان والأنداد والطواغيت في الدنيا من دون الله. قال القرطبي: (أي ينادي الله يوم القيامةِ هؤلاء المشركين ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ بزعمكم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم).

وقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾. يعني الشياطين والطواغيت والرؤساء.

وقوله: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾. قال قتادة: (هم الشياطين).

قال القاسمي: (﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي وجب وثبت مقتضاه. وهو لحوق الوعيد بهم. والمراد بهم، رؤساء الضلال، وقادة الكفر والفساد ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ أي أضللناهم. ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي أضللناهم بالوسوسةِ والتسويل، كما ضللنا باختيارنا، وإيثار ما يفنىٰ على ما يبقىٰ).

وقوله: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾. قال النسفي: (منهم ومما اختاروه من الكفر).

وقوله: ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾. أي لم يكونوا يعبدوننا. فشهدوا عليهم أنهم

أغووهم فمضوا خلفهم واتبعوهم وعَظَّموهم ، ثم تبرؤوا من عبادتهم وتنصَّلوا من أفعَالهم.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: 81 ـ 82].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: 5 ـ 6].

3 ـ وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: 166 ـ 167].

4 ـ وقال تعالى: ـ يحكي كلام الخليل لقومه ـ ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: 25].

ومن صحيح السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث ، منها:

الحديث الأول: روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشِّرك ، مَنْ عَمِلَ عملاً أَشْرَكَ فيهِ معي غيري ، تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ][1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري ـ وكان من الصحابة ـ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: [إذا جمع الله الناسَ ليوم القيامةِ لِيَوم لا ريْبَ فيهِ ، نادىٰ منادٍ: مَنْ كَانَ أشركَ في عَمَلٍ عَمِلَهُ لله أحداً ، فليطلب ثوابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله ، فإن اللهَ أغنىٰ الشركاء عن الشِّرك][2].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسندصحيح عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2985) ـ كتاب الزهد ، باب تحريم الرياء.

(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3374) ـ في التفسير ، انظر صحيح سنن الترمذي (2521) ، وأخرجهُ ابن ماجة في السنن (4203) ـ كتاب الزهد ، باب: الرياء والسمعة.

قال: [قال الله عزَّ وجل: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك ، فمن عَمِلَ لِي عملاً أشركَ فيهِ غيري ، فأنا منه بريءٌ. وهو للذي أشركَ][1].

وقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾.

أي: وقيل نادوا شركاءكم اليوم ليخلصوكم من هذا المأزق وينقذوكم مما أنتم قادمون عليه من العذاب ، فدعوهم كما كانوا يدعونهم في الدنيا فلم يجيبوهم ، وعاينوا العذاب وودّوا أنهم كانوا في الدنيا مهتدين للحق متبعين سبيل الرسل.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

قال ابن جُريج: (قال: بلا إله إلا الله ، التوحيد).

قال ابن كثير: (النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوّات: ماذا كانَ جوابكم للمرسلين إليكم؟ وكيف كان حالُكم معهم؟).

قلت: وكُلُّ مَنْ مات بعد خاتم النبيين ، محمد عليه وعلى المرسلين أفضل الصلاة والتسليم ، فإنه يُسأل عنه صراحة إذا نزل في قبرهِ بعد سؤالهِ عن التوحيد: عن ربه ودينهِ. وفي ذلكَ أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أحمد وأبو داود والحاكم بسند صحيح من حديث البراء مرفوعاً قال: [فيأتيهِ ملكان شديدا الانتهار ، فينتهرانه ويجلسانهِ فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله ، فيقولان له: ما دينكَ؟ فيقول: ديني الإسلام ، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ ، فيقولان لهُ: وما عملك؟ فيقول: قرأتُ كتاب الله ، فآمنتُ بهِ ، وصدقت][2].

وأما الفاجرُ والكافر: [فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه ، هاه ـ لا أدري ، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه ـ لا أدري ، فيقولان: فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فلا يهتدي لاسمهِ ، فيقال: محمد! فيقول: هاه هاه لا أدري ، سمعت الناس يقولون ذاك! فيقال: لا دريت ولا تلوت].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4202) ـ كتاب الزهد. الباب السابق. وانظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3387).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 287) ، وأبو داود (2/ 281) ، والنسائي (1/ 282) ، وابن ماجة (1/ 469) ، والحاكم (1/ 37 ـ 40) ، وانظر: «أحكام الجنائز» (159).

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند حسن من حديث أبي هريرةَ مرفوعاً: [إذا قُبِرَ الميتُ أتاهُ ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر، وللآخر النكير، فيقولان: ما كنت تقولُ في هذا الرجل؟ فيقول: ما كانَ يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول][1].

قال: [وإن كان منافقاً قال: سمعتُ الناس يقولون قولاً فقلتُ مثلهُ، لا أدري].

وفي لفظ عند ابن ماجة: [فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: سمعت الناس يقولون قولاً فقلته].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح من حديث أبي هريرةَ عن النبي ﷺ قال: [فيجلس الرجل الصالح في قبره، غيرَ فزع ولا مَشْعوف ـ الشعف: شدة الفزع ـ ثم يقال له: فيمَ كنتَ؟ فيقول: كنتُ في الإسلام، فيقالُ لهُ: ما هذا الرجل؟ فيقول: محمد رسول الله ﷺ جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه، فيقالُ لهُ: هل رأيتَ الله؟ فيقول: ما ينبغي لأحدٍ أن يرىٰ الله][2].

والخلاصة: يُسأل الرجل في قبره عن رسول الله ﷺ بعد أن يُسأل عن أصول دينه: معرفة الله ودينه وبعض الصفات الموافقة لمنهج التوحيد.

ورحم اللهُ القائل:

فَواحَرَّ قَلبي من جهول مُسَوَّدٍ ... بهِ يُقتدىٰ في جهله لشقائه
إذا قلت قول المصطفىٰ هو مذهبي ... متىٰ صَحَّ عندي لم أقل بسوائهِ
يرىٰ أنها دعوىٰ اجتهاد صحيحة ... فواعجباً من جَهْلِهِ وجفائه
فسَلْهُ أَقَوْلُ الله ماذا أجبْتُم ... لمن هو يوم الحشر عند ندائه
أيسألهم ماذاأجبتم مُلوكَكُمْ ... وما عَظَّمَ الإنسانُ من رؤسائه
أم الله يوم الحشر يمتحن الورىٰ ... بماذا أجابوا الرُّسْلَ من أنبيائه
وهل يُسألُ الإنسان عن غير أحمد ... إذا ما ثوىٰ في الرّمْسِ تحتَ ثرائه
وهل قوْلُه يا ربّ قَلَّدْتُ غيره ... لدى الله عُذْرٌ يوم فصل قضائه

(1) حديث حسن أخرجه الترمذي (2/ 163)، وابن أبي عاصم في «السنة» (864)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1391).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4268)، وانظر صحيح الجامع الصغير (1964).

وقوله تعالى: ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾.

قال ابن جريج، عن مجاهد: (بالأنساب. وقيل معنىٰ ذلك: فعميت عليهم الحجج يومئذ فسكتوا، فهم لا يتساءلون في حال سكوتهم).

وعن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: (﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ قال: لا يتساءلون بالأنساب، ولا يتماتُّونَ بالقرابات، إنهم كانوا في الدنيا إذا التقوا تساءلوا وتَماتُّوا).

قال الشهاب: (﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ ـ فيه استعارة تصريحية تبعية استعير العمىٰ لعدم الاهتداء. فهم لا يهتدون للأنباء. ثم قلب للمبالغة. فجعل الأنباء لا تهتدي إليهم. وضمن معنىٰ الخفاء. فعدّي بـ ﴿على﴾. ففيه أنواع من البلاغة: الاستعارة والقلب والتضمين).

قال النسفي: (خفيت عليهم الحجج أو الأخبار. وقيل: خفي عليهم الجواب فلم يدروا بماذا يجيبون إذ لم يكن عندهم جواب ﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً عن العذر والحجة رجاء أن يكون عنده عذر وحجة، لأنهم يتساوون في العجز عن الجواب).

وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾.

أي: فأما من تدارك نفسه في هذه الدنيا من المشركين فأناب إلى الله وأخلص له الألوهية وأفرده بالعبادة والتعظيم، وعَدَّل ما فاته بالعمل الصالح، فهو بإذن الله من الناجين المُنجِحين المدركين رجاءهم السعادة والخلود في جنات النعيم.

68 ـ 70. قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

في هذه الآيات: كمال علم الله ونفاد إرادته ومشيئته في خلقه وأكثرهم يشركون. وهو سبحانهُ يعلم ما تخفي صدورهم وما يعلنون، وهو الله الإله الحق الأحد الصمد الحَكَمُ وإليهِ يرجعون.

فقوله: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾.

قال ابن عباس: (والمعنىٰ: وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار منهم من يشاء لطاعته).

وقال يحيىٰ بن سلاّم: (وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار من يشاء لنبوته).

والآية بعمومها إخبار من الله تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، فلا منازع لأمره ولا معقب لحكمهِ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾. قال النسفي: (ما لنفي اختيار الخلق تقريراً لاختيار الحق). والمقصود: ليس لهم أن يختاروا على الله شيئاً ما، وله الخيرة عليهم.

واختار ابن جرير أنَّ «ما» بمعنىٰ الذي، واستفاد من ذلكَ طائفةٌ من المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح. أي: ويختار الذي لهم فيه خيرة. والراجح أنها نافية. قال ابن كثير: (نفي على أصحِّ القولين. فإن المقام في بيان انفراده تعالى بالخَلقِ والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك).

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. تنزيه لله وتقديس وتمجيد، فهو المنفرد بالخلق والتدبير، لا ما يشرك به المشركون من الأنداد والأوثان والطواغيت.

وقوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾.

تمدح له سبحانه بأنه عالم الغيب والشهادة لا يخفىٰ عليهِ شيءٌ، وأنه يعلمُ ما تخفيهِ صدور عباده وما يعلنونه بجوارحهم.

كقوله جل ذكره: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: 10].

وكقوله جل ثناؤه: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: 19].

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾. تقرير للألوهية بعد إثبات تفرّده بخصائص الربوبية.

أي: فكما أنه وحده يخلق ويختار فهو الربّ العظيم لا ربَّ سواه، فكذلكَ هو الإله الحق المستحق للعبادة لا إله غيره.

والآية تقريع للمشركين الذين هم مقهورون بربوبيته عز وجل، والتي كان ينبغي أن تقتضي منهم إفراده تعالى بالعبادةِ والتعظيم.

وقوله: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾. قال القرطبي: (جميع المحامد إنما تجبُ له).

أي: فهو المحمود أولاً وآخراً لكمال عدلِه وحكمته جل ثناؤه.

وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. أي: لا حكم إلا له، والمرجع للفصل إنما هو بين يديه.

قال ابن جرير: (يقول: وله القضاء بين خلقه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقول: وإليه تردّون من بعدِ مماتكم، فيقضي بينكم بالحق).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: 57].

2 ـ وقال تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: 46].

وفي صحيح سنن أبي داود والنسائي عن هانئ بن يزيد، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الله هو الحَكَمُ، وإليهِ الحُكْم][1].

71 ـ 73. قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

في هذه الآيات: امتنانُ الله تعالى على عبادهِ نعمة تقليب الليل والنهار وتعاقبهما، فإنه تعالى لو شاء استمرار الليل على عبادهِ دون انقطاع لوقع الضرر بمصالحهم، ولسئمت نفوسهم، ولأظلمت آمالهم. ولو شاء استمرار النهار عليهم دون انقطاع لحصل الضرر بأبدانهم، ولوقع المللُ والضجر من تتابع أشغالهم.

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4955)، وكذلكَ النسائي. انظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (4145)، وصحيح الجامع (1841).

ولكنه سبحانهُ وتعالى عاقب الليل والنهار عليهم لينتشروا في نهارهم بالأسفار والترحال، والحركات والأشغال، وليسكنوا في ليلهم من تعب الحركة والانتقال، ولعلهم بذلك أن يكونوا من الشاكرين.

فقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. قال ابن عباس: (يقول: دائماً). وقال مجاهد: (قوله: ﴿سَرْمَدًا﴾ دائماً لا ينقطع).

وقوله: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾. أي: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين: كيف يكون حالكم لو تابع الله تعالى عليكم الليل دون انقطاع، من معبود يقدر أن يأتيكم بضياء النهار إلا الله المعبود الحق.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾. قال ابن جرير: (يقول أفلا تُرعون ذلكَ سمعكم، وتفكرون فيه فتتعظون، وتعلمون أن ربكم هو الذي يأتي بالليل ويذهب بالنهار إذا شاء، وإذا شاء أتىٰ بالنهار وذهب بالليل، فينعم باختلافهما كذلك عليكم).

وقال القرطبي: (﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ سماع فهم وقبول).

وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾. قال ابن جرير: (فتستقرّون وتهدؤون فيه).

وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾. قال القرطبي: (ما أنتم فيهِ من الخطأ في عبادةِ غيره، فإذا أقررتم بأنه لا يقدر على إيتاء الليل والنهار غيره فلمَ تشركون به).

قال النسفي: (قرن بالضياء ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده، وقرن بالليل ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنتَ من السكون ونحوه).

وقوله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾. هو من باب اللفِّ والنَّشر.

أي: ومن رحمته بكم أيها الناس خالف بين الليل والنهار، فجعل الليل ظلاماً تسكنون فيهِ وترتاحونَ من عناء السعي وتعب التصرف، وجعل النهار ضياءً ليناسب انتشاركم في الأسفار والترحال، والحركات والأشغال.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. قال ابن كثير: (أي: تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار. ومن فاته شيء بالليل استدركهُ بالنهار، أو بالنهار استدركهُ بالليل).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: 62].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ [قَ: 39 ـ 40].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه: 130].

وفي صحيح مسلم عن أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الله عزَّ وجلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بالليل، ليتوبَ مُسيءُ النَّهار، ويَبْسُطُ يَدَهُ بِالنهار، ليتوبَ مُسيءُ الليل، حتىٰ تطلعَ الشمس من مغربها][(1)].

74 ـ 75. قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٧٤ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٧٥ ﴾.

في هذه الآيات: إثباتُ خزي المشركين يوم يناديهم ربهم تباركَ وتعالى لِيُخْرجوا له شركاءَهُ الذين كانوا يزعمون. وخروجُ الرسول من كل أمةٍ ليشهد عليها وضل عن المشركين ما كانوا يفترون.

فقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾.

توبيخ آخر وتقريع وزيادة خزي. يناديهم الرب تبارك وتعالى على رؤوس الأشهاد مطالباً لهم بإخراج شركائه الذين صرفوا لهم العبادة والأموال.

قال النسفي: (كرر التوبيخ لاتخاذ الشركاء ليؤذن أن لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به، كما لا شيء أدخل في مرضاتهِ من توحيده).

(1) حديث صحيح. رواه مسلم في الصحيح (2759)، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه.

وقوله: ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾. قال مجاهد: (رسولاً). وقال قتادة: (وشهيدُها: نبيها، يشهدُ عليها أنه قد بَلَّغَ رسالة ربه). وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: 41].

وقوله: ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾. قال مجاهد: (حجتكم لما كنتم تعبدون وتقولون).

وقوله: ﴿ فَعَلِمُوٓا أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ ﴾. قال القرطبي: (أي علموا صدق ما جاءت به الأنبياء).

وقال القاسمي: (﴿ فَعَلِمُوٓا أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ أي في الألوهية، لا يشاركه فيها أحد).

وقوله: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾.

أي: وغاب عنهم واضمحل ما كانوا يشركون، وما كانوا يتخرصون ويكذبون على ربهم، فلم ينفعوهم ولم يشفعوا لهم كما كانوا يزعمون ويظنون.

76 ـ 82. **قوله تعالى**: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُولِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ

تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ .

في هذه الآيات: قصة قارون ـ صاحب الأموال العظيمة ـ الذي كان من المفسدين ، وكان يتمنىٰ ما عنده كل من حولهُ ولم ينج من فتنة ذلكَ إلا من كانَ من أهل العلم الراسخين. فخرج على قومهِ مستكبراً متزيناً بالعجب والغرور حتى خسف الله به الأرض ليكون عبرة للمعتبرين.

فقوله: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ ـ فيه تأويلان:

1 ـ قال القاسمي: (أي من شاكلتهم في الكفر والطغيان. وقوم موسىٰ ، جماعته الذين أرسل إليهم ، وهم القبط وطاغيتهم فرعون ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي بالكبر والاستطالة عليهم ، لما غلب عليهم الحرص ومحبة الدنيا ، لغروره وتعززه برؤية زينة نفسه).

2 ـ قال النسفي: (كان إسرائيلياً ابن عم لموسىٰ. قال: وكان يسمىٰ المُنَوِّر لِحُسْنِ صوته ، وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة ولكنهُ نافق كما نافق السامري ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ من البغي وهو الظلم ، قيل: ملكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم ، أو من البغي الكبر ، تكبّر عليهم بكثرة ماله وولده ، أو زاد عليهم في الثياب شبراً).

قلت: وقيل غير ذلك ، وأهمها ما سبق. والعبرة أنه كان قريباً من قومِ موسىٰ دون يقين راسخ بالله تعالى وتدبير أمور خلقه وشؤونهم ، فأتاه المنصب والمال فكانت فتنته فيهما التي أفسدت عليه مصيره ، وجعله الله تعالى عبرة لمن يعتبر.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ .

أي: وآتاه الله من وفرة الأموال ما تحتاج العصبة لتنهض بمفاتح خزائنه.

قال ابن كثير: (﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي: الأموال. ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ ، أي: لَيُثقلُ حملُها الفِئامَ من الناسِ لِكَثْرَتِها).

قلت: وأصل تنوء ـ في لغة العرب ـ من نوأ. وناءَ فلانٌ بالحِمْلِ إذا نَهضَ بهِ مُثْقلاً. قال الرازي: (وناءَ به الحِمْلُ أَثْقَلَهُ ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ أي لَتُنِيءُ العُصْبَة بثقلِها).

وقد ورد في التفاسير هنا من المبالغات الكثيرة في وصف تلك المفاتيح دون دليل

صحيح تقوم به الحجة ، فنكتفي بمجمل التنزيل ودلالته البليغة دون خوض فيما لا فائدة منه.

وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ .

أي : أرشده صالحو قومه أن لا تَبطر فيما وهبك الله من هذه الأموال الكثيرة ، فإن الله تعالى لا يحب أهل البَطَرِ والكبر والغرور.

قال ابن عباس : (﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ : يعني المرحين). وقال مجاهد : (يعني الأشِرين البَطِرين ، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم).

فالفرح هنا بمعنىٰ العجب والغرور ، والكبر الذي يدفع إلى الظلم والشرور.

قال مجاهد : (هو فرح البغي).

أخرج ابن عدي والعقيلي بسند حسن لغيره عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : [لو لم تكونوا تذنبون خشيت عليكم أكثر من ذلك : العجب][1].

ورواه البيهقي بسند حسن عن أنس كذلك بلفظ : [لو لم تكونوا تُذنِبُون ، لخِفْتُ عليكم ما هو أكبرُ من ذلكَ ، العُجْبَ العُجْب].

وقوله : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

قال ابن كثير : (أي : استعمِل ما وَهَبكَ الله من هذا المالِ الجزيلِ والنِّعمةِ الطائلةِ في طاعةِ رَبِّك والتقرّب إليه بأنواع القُربات التي تُحصِّل لك الثواب في الدار الآخرة. ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، أي : ما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكِن والمناكِح ، فإن لِرَبكَ عليكَ حقاً ، وَلِنَفْسِكَ عَليكَ حقاً ، ولأهلِكَ عليكَ حقاً ، ولزَوْرِكَ[2] عَليكَ حقاً ، فآت كلَّ ذي حقٍّ حقَّه).

وقوله : ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ .

قال النسفي : (﴿ وَأَحْسِن ﴾ إلى عباد الله ﴿ كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ . أو : أحسِن بشكرك وطاعتك لخالق الأنام كما أحسن إليكَ بالإنعام).

---

(1) حديث حسن. أخرجه العقيلي (171) ، وابن عدي (1/ 164) ، والقضاعي في «مسند الشهاب» (1/ 117) ، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (658) ، ورواه البيهقي وغيره. وانظر صحيح الجامع (5179) للرواية الثانية.

(2) ولزَوْرِك : أي زوّارك الذين يزورونك.

وقوله: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. قال القرطبي: (أي لا تعمل بالمعاصي).

وقال ابن جرير: (يقول: ولا تلتمس ما حرَّم الله عليكَ من البغي على قومك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ يقول: إن الله لا يحب بُغاة البغي والمعاصي).

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾. قال قتادة: (على خبر عندي).

وقال ابن زيد: (قال: لولا رضا الله عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: 49] أي: على عِلم من الله بي وباستحقاقي وفضلي.

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ [فصلت: 50].

وإنما هذه فتنة واستدراج من الله تعالى للمغرورين والمستكبرين يعقبها النقمة وحلول العذاب.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند، وابن جرير في «التفسير» بسند صحيح عن عقبة ابن عامر مرفوعاً: [إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج. ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾][1].

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾.

أي: لو كان الله يعطي الأموال والقوة كُلَّ من يحب، لما أهلك أرباب الأموال وأصحاب القوة عبر الزمان. قال ابن كثير: (أي: قد كان من هو أكثرُ منه مالاً وما كانَ ذلكَ عن محبَّةٍ منا له، وقد أهلكهم الله مع ذلكَ بكفرهم وعدم شكرهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، أي: لكثرةِ ذنوبهم).

---

(1) حديث صحيح. أخرجهُ أحمد (4/ 145)، وابن جرير في «التفسير» (7/ 115)، وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (4/ 115): «رواه أحمد والطبراني والبيهقي في «الشعب» بسند حسن». وانظر السلسلة الصحيحة (414).

وقوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ـ فيه أقوال متقاربة متكاملة:

1 ـ قال الحسن: (أي لا يسألون سؤال استعتاب كما قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: 84]. ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: 24]. وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ لقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 92]).

2 ـ قال مجاهد: (لا تسأل الملائكةُ غداً عن المجرمين، فإنهم يعرفون بسيماهم، فإنهم يحشرون سود الوجوه زرق العيون).

3 ـ وقال قتادة: (لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها، بل يدخلون النار بلا حساب).

4 ـ وقيل: لا يسأل مجرمو هذه الأمةِ عن ذنوبِ الأمم الخالية الذين عذبوا في الدنيا.

وقيل: أهلك من أهلك من القرون على علم منه بذنوبهم فلم يحتج إلى مسألتهم عن ذنوبهم. ذكره القرطبي.

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾.

قال ابن كثير: (يقول تعالىٰ مخبراً عن قارون: أنه خرجَ ذاتَ يومٍ على قومِهِ في زينةٍ عظيمةٍ، وتَجَمُّلٍ باهِرٍ، مِنْ مراكبَ وملابسَ عليهِ وعلى خَدَمه وحَشَمه، فلما رآهُ مَنْ يريدُ الحياة الدنيا ويميلُ إلى زُخرفها وزينتها تَمنَّوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي، ﴿يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، أي: ذو حظٍّ وافر من الدنيا. فلما سمعَ مقالتَهم أهل العلم النافع قالوا لهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾، أي: جزاء الله لعبادهِ المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون، كما في الحديث الصحيح: [يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر على قلبِ بشر، واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17]).

قلت: وقد امتلأت كتب التفاسير بروايات لا تقوم بها الحجة في وصف الزينةِ التي خرج بها قارون على قومِهِ بأشكالها وألوانها وأعدادها وغير ذلكَ مما لا حاجة إلى معرفتهِ، وإنما يكفينا العبرةُ بإجمال القرآن، وأنها زينة عظيمة بهرت العيون وشغلت

القلوب ، ولكنها كانت في موضع غرور وكبر ، فكان مآلها التدمير والهلاك.

وقد أحسن الحافظ ابن كثير رحمه الله بتجاوز تلك الروايات والإتيان بكلامٍ جامع مفيد كما سبق ، في حين أكثر مُعظَمُ المفسرين من تلك الروايات.

وقوله: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾. إمّا من تمام كلام أهل العلم ، أو هو كلام مستأنف. قال ابن جرير: (يعني بذلك: الذين صبروا عن طلب زينةِ الحياة الدنيا ، وآثروا ما عند الله من جزيل ثوابه على صالحات الأعمال على لذّات الدنيا وشهواتها ، فجدّوا في طاعةِ الله ، ورفضوا الحياة الدنيا).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 153].

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن أنس ، قال النبي ﷺ: [إنَّ عِظَمَ الجزاءِ مع عِظَمِ البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم ، فَمَنْ رضي فله الرِّضىٰ ، ومن سَخِطَ فَلَهُ السُّخطُ][1].

وفي سنن الترمذي كذلك بإسناد حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عَنْه قال: قال رسول الله ﷺ: [ما يزالُ البلاءُ بالمؤمن والمؤمنةِ في نفسه وولدهِ وماله حتىٰ يلقىٰ الله تعالى وما عليهِ خطيئة][2].

وقوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾.

هو إخبار عن نهاية الكبر والخيلاء ، والبطر والغرور وسبيل الأشقياء. فقد خسف الله بقارون وبداره التي فيها أمواله ومتاعه وزينته الأرض.

أخرج البخاري ومسلم عن الزُّهري ، قال: أخبرني سالِمٌ: أنَّ ابن عمر حدَّثَه أن

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2398) وقال: حديث حسن. وانظر سنن ابن ماجة (4024) من حديث أبي سعيد الخدري ، والحديث حسن في الشواهد.

(2) رواه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (2401) ، وقال حديث حسن صحيح. وإسناده حسن.

النبي ﷺ قال: [بينما رجلٌ يَجُرُّ إزارَهُ من الخُيلاء خُسِفَ بِهِ فهو يتجَلْجَلُ في الأرض إلى يومِ القيامة](1).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة يقول: قال النبي ﷺ ـ أو قال أبو القاسم ﷺ ـ: [بينما رجلٌ يمشي في حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نفسُهُ، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ، إذ خَسَفَ اللهُ به، فهو يَتَجَلْجَلُ إلى يوم القيامة](2).

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾.

أي: فلم يكن له جند يستنجد بهم، ولا فئة يرجع إليهم، يلتمس منهم النجدة والنصر، ولا كانَ هو ممن ينتصر من الله إذ أنزل عليهِ سخطه وأحلَّ بِهِ نقمته.

قال قتادة: (﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ﴾ أي جند ينصرونه، وما عنده منعة يمتنعُ بها من الله).

وقوله: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾.

قال قتادة: (﴿وَيْكَأَنَّهُۥ﴾ ألم تر أنه). وفي رواية: (أولا يعلمُ أنه). وقيل: ﴿ويكأن﴾: معناها: «ويلك اعلم أنّ». وقيل: «وي» للتعجب أو التنبيه، وكأنَّ: بمعنىٰ أحسب وأظن.

والمقصود: فلما رأىٰ الذين تمنوا زينة قارون بالأمسِ ما حَلَّ به من سخط الله ونِقمتهِ علموا أن المال ليس بدالٍّ على رضا الله عن صاحبِهِ، فإنه تعالى قد يعطي المال استدراجاً لعصاة عباده، فهو الذي يُضَيِّق ويوسِّع، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، وإنما يقسم الأرزاق بين عباده بحكمته جل ثناؤه.

أخرجَ الإسماعيلي في «المعجم» بسند صحيح عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله قَسَمَ بينكم أخلاقكم كما قَسَمَ بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحبُّ ومن لا يحبُّ، ولا يعطي الإيمان إلا من أَحبَّ، فمن ضنَّ بالمال أن ينفقَه، وخافَ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3485)، كتاب أحاديث الأنبياء، وكذلكَ (7590)، كتاب اللباس، ورواه مسلم (2088) من حديث أبي هريرة بنحوه.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5789)، كتاب اللباس. باب من جرَّ ثوبَهُ من الخيلاء.

العدو أن يجاهِدَهُ ، وهابَ الليل أن يكابدَهُ ، فليكثر من قول: سبحان الله ، والحمدُ لله ، ولا إله إلا الله ، واللهُ أكبر][1].

وقوله: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾.

أي: لولا لطف الله ورحمته بنا لخسف بنا كما خسف بقارون الذي تمنّينا مثل حاله بالأمس.

وقوله: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: ألم تعلم أنه لا يفلح الكافرون ، فتُنْجِح طلباتهم).

قال ابن كثير: (يعنون أنه كان كافراً ، ولا يفلحُ الكافرون عند الله ، لا في الدنيا ولا في الآخرة).

83 ـ 84. قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

في هذه الآيات: إعدادُ الله تعالى في الجنةِ منازل لأهل كرامته الذي كانوا على منهاج النبوةِ ولم يكونوا من المسرفين. وتضاعف الحسنات للمؤمنين ولا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون.

فقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.

قال عكرمة: (العُلُوّ: التجبر). وقال سعيد بن جبير: (العلو: البغي).

وقال سفيان الثوري: (العلو في الأرض: التكبّر بغير حق. والفساد: أخذُ المال بغيرِ حق). وقال ابن جُريج: (﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ، تعظُّماً وتجبراً ، ﴿وَلَا فَسَادًا﴾: عملاً بالمعاصي).

والمقصود: إنّ الله تعالى أعدّ النعيم المقيم في دار الخلود لعباده الصالحين ،

---

(1) حديث صحيح في الشواهد. أخرجه الإسماعيلي في «المعجم» (1/ 114) ، وانظر مستدرك الحاكم (1/ 33) ، ومعجم الطبراني «الكبير» (8990) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (2714) ، وذكر الألباني أنه موقوف في حكم المرفوع ، وأورد له بعض الشواهد المرفوعة.

المؤمنين المتواضعين، المخبتين المتذللين لأمره وشرعه، الذين يريدون إعلاء كلمته في الأرض والحكم بشريعته، ولا يبغون ظلماً ولا تكبراً، ولا تجبراً ولا نشراً للمعاصي والآثام.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: 18 ـ 19].

2 ـ وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: 15 ـ 16].

3 ـ وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: 63].

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الطبراني في «المعجم الكبير» بسند حسن لغيره عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: [ما من آدمي إلا في رأسِهِ حَكَمَة بيد ملك، فإذا تواضعَ قيل للملك: ارفع حكمته، وإذا تكبَّر قيل للملك: ضع حكمته][1].

قلت: والحَكَمَةُ: موضع أعلى الناصية، كما هو معروف في كلام العرب.

الحديث الثاني: أخرج مسلم وأبو داود وابن ماجة من حديث عياض بن حمار، عن النبي ﷺ أنه قال: [إنَّ الله أوْحَى إليَّ أن تواضَعوا حتىٰ لا يَفْخَرَ أَحَدٌ على أَحَدٍ، ولا يبغي أَحَدٌ على أَحَدٍ][2].

الحديث الثالث: خرّج مسلم في الصحيح عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال:

---

(1) حسن لشواهده. أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (3/ 182/ 1) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «المجمع» (8/ 82): «رواه الطبراني وإسناده حسن». وقال المنذري في «الترغيب» (4/ 16): «رواه الطبراني، والبزار بنحوه من حديث أبي هريرة، وإسنادهما حسن». وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (538).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2865) ح (64)، كتاب الجنةِ ونعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار. ورواه أبو داود (4895)، وابن ماجة (4214).

[لا يدخلُ الجنَّةَ مَنْ كانَ في قلبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ. قال رجل: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يكونَ ثوبُهُ حَسَناً، ونَعْلُهُ حَسَنةً. قال: إنَّ الله جميلٌ يُحِبُّ الجمال، الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ الناس][1].

وقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. قال قتادة: (أي: الجنة للمتقين).

والمقصود: إن غاية السرور والرضا وحسن الختام وحسن الاستقبال يومَ القيامة إنما هو لأهل التقوىٰ في جنات النعيم المقيم.

وقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قال قتادة: (﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ﴾. أي: لهُ منها حظّ خير، والحسنة: الإخلاص، والسيئةُ: الشرك).

قال ابن كثير: (﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ﴾: أي ثوابُ الله خير من حسنة العبدِ، فكيفَ والله يضاعفه أضعافاً كثيرة، وهذا مقامُ الفَضْل. ثم قال: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: 90]، وهذا مقامُ الفَصْلِ العَدْل).

وفي التنزيل نحو ذلك:

قال تعالى: ﴿**مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ [الأنعام: 160].

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس عن رسول الله ـ ﷺ ـ فيما يرويهِ عن ربه عز وجلٍ، قال: [إنَّ الله كتَبَ الحسنات والسيئات، ثم بَيَّنَ ذلك، فَمَنْ هَمَّ بِحسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبها اللهُ عِندَهُ حَسنةً كامِلةً، فإنْ هَمَّ بها فعَمِلَها كَتَبها اللهُ عزَّ وجلَّ عنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إلى سَبع مئةِ ضعفٍ إلى أضعاف كثيرة، وإنْ هَمَّ بسيئة فَلم يَعْمَلْها كتبها اللهُ عنده حسنةً كاملة، وإن همَّ بها فعَمِلَهَا، كَتَبَها اللهُ سيئةً واحدة][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (91)، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (131)، كتاب الإيمان. باب إذا همّ العبد بحسنةٍ كُتبت، وإذا همّ بسيئة لم تكتب. وانظر كذلكَ الحديث (130).

وفي رواية: [ولا يَهْلِكُ على الله إلاّ هالِكٌ].

85 ـ 88. **قوله تعالى:** ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

في هذه الآيات: إثباتُ المعاد إلى الله ليجزي نبيّه ﷺ أجر المجاهدين الصابرين، واللهُ تعالى أعلم بعبادهِ المهتدين ممن كان في ضلال مبين. وإعلامُ الله تعالى نبيّهُ رحمته به بإنزال هذا القرآن ليثبته على الحق ولئلا يكونَ ظهيراً للكافرين، أو يزل في فتنةِ أهل الشرك والهوىٰ فلله الحكم وإليهِ جميع الخلق يرجعون.

فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾. قال مجاهد: (الذي أعطاكَ القرآن).

أي: إنَّ الذي أنزل عليكَ القرآن ـ يا محمد ـ وافترض عليك أداءه إلى الناس ﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ ـ وهو يوم القيامة، فسائلك عما استرعاكَ من أعباء النبوة.

وقوله: ﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ فيه أقوال كثيرة:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾: إلى مَعْدِنِك من الجنة). أو قال: (إلى الجنة). وقال أبو سعيد الخدري: (معاده آخرته الجنة).

2 ـ قال أبو مالك: (إلى الجنة ليسألك عن القرآن).

3 ـ وقال مجاهد: (﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال: يجيء بك يوم القيامة).

4 ـ وعن الحسن: (إي والله، إن له لمعاداً يبعثهُ الله يوم القيامةِ، ويدخلهُ الجنة).

5 ـ وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: (﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال: إلى الموت).

6 ـ روىٰ البخاري عن عكرمة، عن ابن عباس: (﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال: إلى مكة). وقال: (يقول: لرادّكَ إلى مكة، كما أخرجكَ منها). قال مجاهد: (إلىٰ مولدك بمكة).

قلت: والجمع ممكن بين هذه الأقوال: فإن الله تعالى افترض على رسوله ﷺ إبلاغ هذا القرآن الذي أنزله عليه، ثم هو سبحانهُ نصره على طغاة مكة حتىٰ فتحها بعدما أخرجوه منها، ثم إنه تعالى قبضه إليه ثم إن الموعد ين يديه، ليثيبه على جهاده وقيامهِ بأعباء النبوةِ في جنَّةٍ عرضها السماوات والأرض، هو خيرُ من يدخلها ويستقر فيها.

وقوله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: قل ـ يا محمد ـ لمن كذّبكَ من قومكَ وأصرّ على مخالفتكَ، ولمن مضىٰ على منهاجهم في الكفر: إن ربي هو أعلم بالمهتدي الذي هو على سبيل الهدىٰ، وإذا سلكه نجا، ومن هو على منهاجِ الغي والضلال، يمضي على سبيل العمىٰ، ويجور عن طريق الهدىٰ.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وما كنت ترجو يا محمد أن ينزل عليكَ هذا القرآن، فتعلم الأنباء والأخبار عن الماضين قبلك، والحادثة بعدك، مما لم يكن بعدُ، مما لم تشهده ولا تشهده، ثم تتلو ذلكَ على قومكَ من قريش، إلا أن ربكَ رحمك، فأنزله عليك، فقوله: ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ استثناء منقطع).

وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾.

قال ابن كثير: (أي: إنما أُنزل الوحي عليكَ من الله من رَحْمَتِهِ بكَ وبالعبادِ بِسَبَبِكَ فإذا مَنَحكَ بهذه النعمة العظيمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا﴾ أي: معيناً. ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾، ولكن فارِقْهُمْ ونابِذْهُم وخالِفهم).

وقوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ﴾. قال القرطبي: (يعني أقوالهم وكذبهم وأذاهم، ولا تلتفت نحوهم وامض لأمرك وشأنك).

والمقصود: لا تلتفت يا محمد إلى محاولات مكرة قومك في تكذيبك وصدّ الناس عنك، بل امض مستعيناً بربكَ، فإن الله ناصرك ومؤيدك.

وقوله: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾. أي: إلى توحيده وإفراده بالعبادةِ والتعظيم.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: ولا تتركنّ الدعاء إلى ربك، وتبليغ المشركين رسالته، فتكون ممن فَعَل فِعل المشركين بمعصيته ربه، وخلافه أمره).

وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

قال ابن عباس: (الخطاب في الظاهر للنبي ﷺ والمراد أهل دينه).

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. أي: لا معبود تصلح له العبادة إلا الله جل ثناؤه.

وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾. فيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: كل شيء هالك إلا هو.

قال ابن كثير: (إخبارٌ بأنه الدائم الباقي الحيُّ القيُّوم، الذي تموت الخلائق ولا يموتُ، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 26 ـ 27]، فعبَّر بالوجه عن الذات، وهكذا قولنا ها هنا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، أي: إلا إيّاه).

التأويل الثاني: كل شيء هالك إلا ما ابتغي به وجهه.

قال مجاهد: (﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي: إلا ما أُريد بِهِ وجهُه).

قال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه: (﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾: إلا مُلْكَهُ، ويُقالُ: إلا ما أُريد به وَجْهُ الله).

التأويل الثالث: فيه إثبات صفة الوجه لله تعالى.

والتقدير: كل شيء هالك إلا الله الذي له الوجهُ الكريم.

قال البيهقي: (تكرر ذكر الوجه في القرآن والسنة الصحيحة وهو في بعضها صفة ذات، كقوله ﷺ: «إلا رداء الكبرياء على وجهه». وفي بعضها بمعنىً من أجل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾. وفي بعضها بمعنى الرضىٰ كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾).

قلت: ولا منافاة بين هذه الأقوال، فإنه يفنىٰ كل شيء إلا الله ذو الوجه الكريم، وتبقىٰ الباقيات الصالحات التي قُصد بها وجهُه جل ثناؤه. وكذلكَ تحمل الآيات والأحاديث على إثبات تلك الصفة له جل ذكره ـ صفة الوجه ـ وعلى المعاني الطيبةِ الأخرىٰ.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 27].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: 272].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: 9].

وفي صحيح مسلم عن أبي موسىٰ قال: [قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: إنّ الله عزَّ وجلَّ لا ينامُ، ولا يَنْبَغِي له أن ينامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ ويَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إليهِ عَملُ الليل قَبْلَ عَملِ النهار، وعَمَلُ النَهار قَبل عملِ الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انتهىٰ إليهِ بصرهُ من خلقِهِ][1].

فهذا الحديث العظيم، فيه إثبات كثير من صفاته جل ذكره، كصفة الوجه، وصفة البصر، وصفة خفض القسط ورفعه، وصفة القيومية على عبادهِ فهو سبحانه لا ينام لكمال حياته وقيوميته، وصفات أخرىٰ جليلة يمكن استنباطها من هذا النص النبوي الكريم.

وقوله: ﴿ لَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾. قال النسفي: (القضاء في خلقه). وقال القاسمي: (أي القضاء النافذ في الخلق).

قلت: والمقصود، أنَّ الله تعالى له الملك والتصرف فهو الحاكم الذي سُلِّمَ له الحُكم وَرُدَّ إليهِ.

كما في التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ [الأنعام: 57].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: 50].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: 46].

وقد ثبت في السنة الصحيحة أن من أسمائه الحسنىٰ: «الحَكَم».

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (179)، وأخرجه الطيالسي (491)، وأحمد (4/ 395)، ورواه ابن ماجة (195)، وابن حبان (266) من حديث أبي موسى.

ففي صحيح سنن أبي داود والنسائي عن هانئ بن يزيد ، عن النبي ﷺ قال : [إن الله هو الحَكَمُ ، وإليهِ الحُكْمُ][1] .

وقوله : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ . أي : إليهِ تردون يوم معادكم ، فيقضي بينكم بالعدل ، فيثيب مؤمنكم ويعاقب كافركم .

تمّ تفسير سورة القصص
بعون الله وتوفيقه ، وواسع مَنِّهِ وكرمه

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (4955)، وانظر صحيح سنن أبي داود (4145) ، وأخرجه النسائي وغيره . انظر صحيح الجامع (1841) ، وكذلك «إرواء الغليل» (2682) .

دروس ونتــائج وأحكــام

1 ـ هل تنصرون إلا بضعفائكم ، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم.

2 ـ مكر الله بالطغاة من حيث لا يشعرون ، ورعاية الله المجاهدين من أوليائه الصالحين ، وجعله تعالى العاقبة للمتقين.

3 ـ عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له.

4 ـ الندم توبة ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

5 ـ مقام العبودية يقتضي التذلل إلى الله والاعتراف له تعالى بالافتقار.

6 ـ الصداق حق المرأة على الرجل ، وهو ملك لها ، ولا يحل لأحدٍ التصرف فيهِ.

7 ـ قضىٰ موسىٰ عليهِ السلام أوفىٰ الأجلين وأكملهما وأَتَمهُما وأبرَّهما.

8 ـ لا تزال طائفةٌ من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامةِ ، ويظهرُ هذا الدين حتىٰ يجاوز البحار ، وحتىٰ تخاضَ بالخيل في سبيل الله.

9 ـ جعلَ جبريل يدسّ الطين في فم فرعون خشية أن تدركه الرحمة.

10 ـ ما أهلك الله قوماً ، ولا قرناً ، ولا أمةً ، ولا أهل قريةٍ ، منذ أنزل التوراة على وجه الأرض بعذاب من السماء غير أهل القريةِ التي مسخت قردة.

11 ـ مَنْ آمن مِنْ أهلِ الكتاب بنبيِّه وأدركَ النبي ﷺ فآمَنَ بهِ واتَّبعهُ وصدقه فله أجران.

12 ـ أهون أهل النار عذاباً يوم القيامةِ رجل ، يوضع في أخمص قدميهِ جمرتان يغلي منهما دماغه.

13 ـ إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله عز وجل بأسه بأهل الأرض.

14 ـ لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضةٍ ما سقىٰ كافراً قطرة ماء. ومن يدخل الجنة ينعم لا يَبأس ، لا تبلىٰ ثيابُه ولا يفنىٰ شبابُه.

15 ـ قال اللهُ تبارك وتعالى: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك ، مَنْ عمل عملاً أشرك فيهِ معي غيري ، تركتهُ وشِرْكَه.

16 ـ يُسألُ العبد في قبره عن أصول دينهِ: من ربك؟ ما دينكَ؟ ما كنتَ تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ هل رأيت الله؟

17 ـ إن الله تعالى هو الحَكَمُ وإليهِ الحُكم.

18 ـ إنَّ الله عزَّ وجلَّ يبسط يدهُ بالليل ليتوب مُسيء النهار ، ويبسطُ يدهُ بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتىٰ تطلع الشمس من مغربها.

19ـ إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم وأموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.

20 ـ بينما رجل يَجُر إزاره من الخيلاء خُسِفَ بهِ فهو يتجلْجَلُ في الأرض إلى يوم القيامة.

21 ـ ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسهِ وولده ومالهِ حتىٰ يلقىٰ الله تعالى وما عليهِ خطيئة.

22 ـ إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر: بطرُ الحق وغَمْطُ الناس.

23 ـ من هم بالحسنةِ فلم يعملها كتبت حسنة فإن عملها كتبها اللهُ عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ولا يهلك على الله إلا هالك.

24 ـ حجاب الله تعالى النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليهِ بصره من خلقه.

25 ـ إثبات صفة الوجه لله ، وصفة البصر ، وصفة خفض القسط ورفعه ، وصفة القيومية ، فهو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (69)

موضوع السورة

الشرك ووهن أهله في الدارين
كوهن بيت العنكبوت لو كانوا يعلمون
والنصر والعاقبة للمحسنين والمجاهدين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ سنة الله في اختبار المؤمنين ، لبيان الصادقين وكشف المنافقين .

2 ـ بيان سبيل النجاة المتضمن الإيمان والجهاد والعمل الصالح ، والله يجزي المحسنين .

3 ـ الوصية ببر الوالدين والإحسان إليهما ، وترك طاعتهما في المعصية ، والإخبار بما أعدّ الله في الجنة لعباده الصالحين .

4 ـ سقوط كثير من الناس في الفتن ، وسلوك المنافقين عند الغنائم ، والله تعالىٰ أعلم بالمؤمنين الصادقين والمنافقين الكاذبين .

5 ـ استهتار الكافرين بحمل الأوزار ، وسيحملون أوزاراً مع أوزارهم ، وليسألن عما كانوا يفترون .

6 ـ إرسال الله تعالىٰ نبيّه نوحاً ﷺ ، ومكثه فيهم طيلة ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ، وهم يصرون على الكفر حتىٰ أخذهم الطوفان وهم ظالمون ، وأنجىٰ الله برحمته المؤمنين.

7 ـ دعوة إبراهيم ﷺ قومه ، وتحذيره لهم مغبة الشرك ومصير الأمم الهالكة.

8 ـ احتجاج الله تعالىٰ على منكري المعاد والبعث ، ودعوتهم للنظر في بدء الخلق.

9 ـ مكر الكفار بإبراهيم ، ونجاته من النار بإذن الله ، وتحذيره لهم الإصرار على الكفر.

10 ـ تصديق لوط وهجرته وإبراهيم ـ عليهما الصلاة والسلام ـ إلى الله العزيز الحكيم ، وإكرامه تعالىٰ إبراهيم بإسحاق ويعقوب وجعله النبوة في ذريته وهو في الآخرة من الصالحين.

11 ـ تحذير لوط قومه مغبة الإصرار على الفاحشة التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين ، واستعجال القوم العذاب حتىٰ لجأ لوط إلى الله طالباً النصر على القوم المفسدين.

12 ـ بثُّ الملائكة البشرىٰ لإبراهيم عليه السلام بولد صالح وبإهلاك القوم الظالمين. ووصول الرسل إلى لوط ﷺ وخوفه عليهم حتىٰ بشروه بهلاك القوم المفسدين.

13 ـ قصة شعيب وقومه ، وخبر الأمم الكثيرة: كعاد وثمود وقارون وفرعون وهامان ، وقصة إهلاكهم بالصيحة أو الخسف أو الريح أو الطوفان.

14 ـ تمثيل تعلق المشركين بآلهتهم كالمتعلق بشبكة العنكبوت لا تفيد شيئاً.

15 ـ خَلْقُ الله السماوات والأرض بالحق ، ودعوته الرسول والمؤمنين لتلاوة الوحي وإقام الصلاة ، ولذكر الله أكبر ، والله عليم بما يصنعون.

16 ـ الدعوة لمجادلة أهل الكتاب بالحسنىٰ ، وهذا القرآن آيات بينات في صدور أهل العلم ، وهو أكبر معجزة في الأرض إلى قيام الساعة.

17 ـ استعجال المشركين العذاب ، والعذاب قريباً سيغطيهم من فوقهم ومن تحتهم.

18 ـ النصيحة بالهجرة إلى دار الإيمان ، فكل نفس ذائقة الموت ، ثم إلى الله ترجعون.

19 ـ المؤمنون العاملون للصالحات يسكنون الغرف يوم القيامة ، تجري من تحتها الأنهار ثواباً لهم مقابل صبرهم وحسن توكلهم.

20 ـ ما من دابة ممن لا يستطيع ادخار رزقه لغد إلا والله رازقها وإياكم.

21 ـ إقرار المشركين أن الله تعالىٰ خالق السماوات والأرض ومسخِّر الشمس والقمر ثم هم يشركون.

22 ـ بَسْطُ الله تعالىٰ الرزق وتضييقه بحكمته، والكفار مقرّون أنه ـ تعالىٰ ـ المنزل للماء من السماء ليحيي به الأرض الميتة ثم هم به يعدلون.

23 ـ إعلامُ الله تعالىٰ بغرور هذه الحياة الدنيا، وأن العيش عيش الآخرة.

24 ـ إخلاص المشركين الدعاء لله عند الهلاك في البحر، وامتنان الله عليهم بنعمة الحرم الآمن.

25 ـ جعل الله في جهنم مثوىٰ للمتكبرين، وكتب الهداية والنصر للمجاهدين، وإنه تعالىٰ لَمَعَ المحسنين.



بسم الله الرحمن الرحيم

1 ـ 7. **قوله تعالىٰ:** ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٧﴾.

في هذه الآيات: تقريرُ الله تعالىٰ سنته في اختبار المؤمنين وكشف الصادق من الكاذب وفضح المنافقين. وإخباره ـ جلّت صفاته ـ عن سبيل النجاة المتضمن الإيمان والجهاد والعمل الصالح والله يجزي المحسنين.

فقوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ﴾ ـ كسابقه في سورة البقرة وغيرها من السور التي ابتدأت بمثل هذه الحروف المقطعة، والتي تقتضي الإعجاز لهذا القرآن العظيم المؤلف من جنس هذه الأحرف، ومع ذلك فالخلق عاجزون عن معارضته بمثله.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾. استفهام إنكار، والمقصود: أظنّ الناس أن يدّعوا الإيمان دون أن يحصل لهم من ربهم اختبار يبيّن صدق دعواهم. قال مجاهد: (﴿ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ قال: يُبْتَلون في أنفسهم وأموالهم). وقال قتادة: (﴿وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾: أي لا يُبْتَلون).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: 142].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: 214].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: 31].

ومن صحيح السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة والحاكم بسند صحيح من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: [أشدُّ الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلىٰ بالفقر، حتىٰ ما يجد أحدهم إلا العباءة التي يحويها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء](1).

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند حسن عن أبي عبيدة بن حذيفة عن عمته فاطمة أنها قالت: [أتينا رسول الله ﷺ، نعوده في نسائه، فإذا سقاء معلق نحوه يقطر ماؤه عليه من شدة ما يجد من حرّ الحمىٰ، قلنا: يا رسول الله لو دعوت الله فشفاك. فقال رسول الله ﷺ: إنّ من أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم](2).

الحديث الثالث: أخرج الترمذي وابن ماجة وابن حبان بسند جيد عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت لرسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: فقال: [أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلىٰ الرجل على حسب (وفي رواية: قدر) دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة، ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتىٰ يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة](3).

الحديث الرابع: أخرج الترمذي وابن ماجة بإسناد حسن عن أنس عن النبي ﷺ قال:

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4024)، والحاكم (4/ 307)، وابن سعد (2/ 208).
(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (6/ 369)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (145).
(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2/ 64)، وابن ماجة (4023)، والدارمي (2/ 320)، والطحاوي (3/ 61)، وابن حبان (699)، والحاكم (1/ 40 ـ 41)، وأحمد (1/ 172)، وسنده جيد رجاله كلهم ثقات معظمهم رجال الشيخين.

[إنّ عِظَمَ الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ .

أي: ولقد اختبرنا الذين مضوا من الأمم قبل أمتك ـ يا محمد ـ ، ولَيُظْهِرَنَّ اللهُ صِدْقَ الصادقين وكَذِبَ الكاذبين.

قال مجاهد: (﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ ﴾: ابتلينا الذين من قبلهم).

والعلم هنا بمعنىٰ الإظهار. قال ابن عباس: («إلا لنعلم»: إلا لنرى). وكذلك الآيات المشابهة ، فإن الله عليم بما كان ويكون وسيكون وما لن يكون كيف لو كان يكون. قال ابن كثير: (وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أَعَمُّ من الرؤية ، فإنه يتعلَّق بالمعدوم والموجود). وقال القرطبي: (ولكن القصد قصد وقوع العلم بما يجازىٰ عليه).

قال ابن عطاء: (يتبين صدق العبد من كذبه في أوقات الرخاء والبلاء ، فمن شكر في أيام الرخاء وصبر في أيام البلاء فهو من الصادقين ، ومن بطر في أيام الرخاء وجزع في أيام البلاء فهو من الكاذبين).

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

أي: أمْ ظَنَّ الذين يجترحون السيئات أن يفوتونا فَيَفِرُّوا من الفِتْنَةِ والبلاء ، والامتحان في الشدة والرخاء ، كلا فإن من ورائهم العقوبة والنكال ، وَوُرودِ أسوأِ الأحوال.

قال قتادة: (﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي: الشرك). وقال مجاهد: (﴿ أَن يَسْبِقُونَا ۚ ﴾: أن يعجزونا). وقال القاسمي: (﴿ أَن يَسْبِقُونَا ۚ ﴾ أي يفوتونا ، فلا نقدر على مجازاتهم بمساوئ أعمالهم ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي بئس الذي يحكمونه حكمهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

أي: من كان يرجو الله عند لقائه ، ويطمع في ثوابه ، والنجاة من عذابه ، فإن أجل الله الذي أجّله لبعث عباده وإكرام أوليائه لآت قريباً ، وهو السميع لدعاء عباده

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2/ 64) ، وابن ماجة (4031) ، بإسناد حسن.

ورجائهم ، العليم بصدق إيمانهم من كذب توجههم. فليبادر الصادق إلى إثبات صدقه بالإيمان والعمل الصالح.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

قال النسفي: (﴿ وَمَن جَٰهَدَ ﴾ نفسه بالصبر على طاعة الله ، أو الشيطان بدفع وساوسه ، أو الكفار ﴿ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ ﴾ لأن منفعة ذلك ترجع إليها. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ وعن طاعتهم ومجاهدتهم وإنما أمَرَ ونهىٰ رحمة لعباده).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.

قال القرطبي: (﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: صدّقوا ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ ﴾ أي: لَنُغَطِّيَنها عنهم بالمغفرة لهم ﴿ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ أي بأحسن أعمالهم وهو الطاعات).

قلت: ويشمل هذا من كان في الجاهلية ثم أحسن في الإسلام. فقد أخرج الحاكم بسند حَسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لَيَتَمَنَّيَنَّ أقْوامٌ لَوْ أكْثَروا من السَّيئاتِ ، قالوا: بِمَ يا رسول الله؟ قال: الذين بَدَّلَ الله سيئاتهم حَسنات](1).

8 ـ 9. قوله تعالىٰ: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ٩ ﴾.

في هذه الآيات: وصيةُ الله الإنسان ببر الوالدين والإحسان إليهما وترك طاعتهما في معصيته ولكن مصاحبتهما بالمعروف والله عليم بالمتقين. وإخباره تعالىٰ عن جميل ما أعدّ في الجنة لعباده الصالحين.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه نزلت فيه آيات من القرآن قال: [حلفت أم سعد ألا تكلمه أبداً حتىٰ يكفر بدينه ولا تأكل ولا تشرب. قالت: زَعَمْتَ أن الله وَصَّاك بوالديك وأنا أمك وأنا آمرك بهذا. قال: مَكَثَتْ ثلاثاً حتىٰ

(1) حديث حسن. أخرجه الحاكم (4/ 252) ، بإسناد حسن. وانظر السلسلة الصحيحة (2177).

غشي عليها من الجهد ، فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها فجعلت تدعو على سعد ، فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت : 8] ، ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان : 15]][1] .

فالآية أَمْرٌ من الله تعالىٰ عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد أَمْرِهِ جَلَّ ثناؤه بإحسانِ العبادة إليه ، وإفراده بالتعظيم والاستعداد للوقوف بين يديه ، فإن برّ الوالدين من أحسن الأعمال ، فهما سبب وجوده ، وهما نَبْعُ العطف والحنان عليه ، فالوالد بالإنفاق ، والوالدة بالإشفاق ، وقد ربط الله تعالىٰ برّهما ببره ، وعلَّق هذا الرحم بعرشه ، فالإحسان إليهما واجب كبير ، والإساءة إليهما شر مستطير ، فإن أمراه بِشِرْكٍ أو كُفْرٍ فلا يتابعهما ولكن يُصاحبهما بالمعروف .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : 23 ـ 24] .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان : 14] .

3 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ ﴾ [الأحقاف : 15] .

ومن كنوز السنة الصحيحة في ذلك أحاديث :

الحديث الأول : روىٰ مسلم في صحيحه عن أسماءَ قالت : [قلت : يا رسول الله! إن أمِّي قدمت عليَّ ، وهي راغبةٌ ـ أو راهبةٌ ـ أفأصِلُها؟ قال : نعم] .

وفي رواية : قالت أسماء بنت أبي بكر : [قلت : يا رسول الله! قَدِمت عَلَيَّ أُمِّي وهيَ مُشْرِكَةٌ ، في عهد قريشٍ إذْ[2] عاهَدَهم ، فاسْتَفْتَيْتُ رسولَ الله ﷺ ، قلتُ :

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1748) ـ كتاب فضائل الصحابة ، باب في فضل سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، في أثناء حديث طويل.

(2) قال الحافظ ابن حجر : (أرادت بذلك ما بين الحديبية والفتح ، أي مدة عهد قريش).

يا رسولَ الله! قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وهي راغِبَةٌ ، أفأصِلُ أُمِّي؟ قال: نعم ، صِلي أُمَّكِ][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [سألت النبي ﷺ: أيُّ العمل أحَبُّ إلى الله تعالىٰ؟ قال: الصلاةُ على وَقْتِها. قُلْتُ: ثُمَّ أيُّ؟ قال: بِرُّ الوالدين. قلتُ: ثُمَّ أيُّ؟ قال: الجهادُ في سبيل الله][2].

الحديث الثالث: روىٰ مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يَجْزي ولدٌ والِداً إلا أن يَجِدَهُ مَمْلوكاً ، فَيَشْتَرِيَهُ ، فَيُعْتِقَهُ][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾.

أي: المرجع والمآل إليه تعالىٰ فيجازي عباده بأعمالهم ، فالذين صدقوه الإيمان وأكدوا ذلك بالعمل الصالح سيدخلهم سبحانه في كرامة عباده الصالحين.

وفي الآية فائدة جليلة ، فإنه تعالىٰ عطف العمل الصالح على بر الوالدين ، وكأنّ المقصود أن أفضل ذلك العمل بعد الإيمان بالله هو مباشرة رضىٰ الوالدين ، فهو طريق السعادة في الدارين.

أخرج البخاري في «الأدب المفرد» بإسناد صحيح عن ابن عباس ، أنَّهُ أتاه رجل فقال: [إني خَطَبْتُ امرأةً فَأَبَتْ أن تَنْكِحَني ، وخطبها غيري فأحَبَّتْ أن تنكِحَهُ ، فَغِرْتُ عليها فقتلتها ، فهل لي من توبة؟ قال: أمُّكَ حيَّة؟ قال: لا ، قال: تُبْ إلى الله عَزَّ وجلَّ ، وتقرَّب إليه ما استطعت. قال عطاء بن يسار: فذهبت فسألت ابن عباس: لِمَ سألته عن حياة أُمِّهِ؟ فقال: إنِّي لا أعلمُ عملاً أقربُ إلى الله عزَّ وجَلَّ مِنْ برِّ الوالدة][4].

ثم روىٰ في باب: «لين الكلام لوالديه» ـ عن طَيْسَلَةَ بن مَيّاس قال: [كنتُ في النَّجدات[5] ، فأصبْتُ ذنوباً لا أراها إلا من الكبائر ، فذكرت ذلك لابن عمر قال: ما هي؟ قلت: كذا وكذا. قال: ليست هذه من الكبائر ، هن تسع: الإشراك بالله ، وقتل

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1003) ـ كتاب الزكاة ، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ، ولو كانوا مشركين. ح (49) ، ح (50).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (10/ 336) ، وأخرجه مسلم في الصحيح (85).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1510) ، وأبو داود (5137) ، والترمذي (1907).

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (4) ـ باب بر الأم. وسنده صحيح.

(5) النَّجدات: أصحاب نجدة بن عامر الخارجي ، وهم قومٌ من الحرورية.

نسمة ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنة ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وإلحاد في المسجد ، والذي يستسخر[1] ، وبكاء الوالدين من العقوق. قال لي ابن عمر: أتفرق[2] من النار وتحب أن تدخل الجنة؟ قلت: إي ، والله! قال: أحيٌّ والدك؟ قلت: عندي أمي. قال: فوالله! لو ألنتَ لها الكلام وأطعمتها الطعام لتدخلن الجنة ما اجتنبت الكبائر][3].

وفي مسند الإمام أحمد والطيالسي بسند صحيح عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [الوالد أوسط أبواب الجنة][4].

10 ـ 11. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

في هذه الآيات: سقوطُ كثير من الناس عند هبوب رياح الفتن مع الساقطين ، فإذا كان الرخاء والنصر وتدفّق النعم طالبوا إشراكهم في الغنائم ليكونوا من الفرحين. والله تعالىٰ هو أعلم بالمؤمنين الصادقين والمنافقين الكاذبين.

فقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾. قال ابن عباس: (فتنته أن يرتد عن دين الله إذا أوذي في الله). وقال مجاهد: (أناس يؤمنون بألسنتهم ، فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة في أنفسهم افتتنوا ، فجعلوا ذلك في الدنيا كعذاب الله في الآخرة).

والآية إخبارٌ عن قوم يدّعون الإيمان بألسنتهم ، فإذا جاءت الفتن والمحن سقطوا وانتكسوا ورجعوا إلى الكفر والضياع.

---

(1) يستسخر: الاستسخار من السخرية واللمز.

(2) أتفرق من النار: الفَرَق ، الخوف والفزع.

(3) حديث صحيح. انظر: «صحيح الأدب المفرد» ـ (6) ، باب لين الكلام لوالديه.

(4) صحيح الإسناد. أخرجه أحمد (5/ 196) ، وابن ماجة (2089) ، والحاكم (4/ 152) ، والطيالسي في «مسنده» (981) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (913).

كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: 11].

أخرج ابن جرير ورجاله ثقات عن ابن عباس قال: [كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم وقتل بعض. فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: 97] إلى آخر الآية. قال: وكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين هذه الآية لا عذر لهم قال: فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة فنزلت هذه الآية: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية. فكتب المسلمون إليهم بذلك فخرجوا وأيسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: 110] فكتبوا إليهم بذلك إن الله قد جعل لكم مخرجاً فخرجوا فأدركهم المشركون فقاتلوهم ثم نجا من نجا وقتل من قتل][1].

وقوله: ﴿ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: ولئن جاء نصر من ربك ـ يا محمد ـ لأهل الإيمان وفتح ومغانم، ليقولن هؤلاء لكم: إنا كنا معكم ننصركم على أعدائكم، ونحن إخوانكم في الدين. أو ليس الله بأعلم بما تخفيه قلوبهم وما تكنه صدورهم!!

وفي التنزيل نحو ذلك:

ـ قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 141].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [تَعِسَ عَبْدُ الدِّينار وعَبْدُ الدرهم وعَبْدُ الخميصة، إنْ أُعطي رَضِيَ وإنْ لم يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وانتكسَ، وإذا شيك فلا انتقَشَ، طوبىٰ لِعَبْدٍ آخذٍ بِعنانِ فرَسه في سبيل الله أشعثَ

(1) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (27706) ـ وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح، غير محمد بن شريك هو ثقة. وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ النحل (110).

رأسُهُ ، مُغْبَرَّةٍ قدماه ، إنْ كان في الحِراسةِ كان في الحِراسةِ ، وإنْ كان في السَّاقةِ كان في السَّاقةِ . .] الحديث[1] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ .

أي : وليميزنّ الله أولياءه وحزبه أهل الإيمان و الثبات على الحق بالابتلاء في السَّراء والضراء ، وكذلك ليميزنَّ أهل النفاق بالمحن والاختبار والابتلاء . فإنه بالاختبار يتميز هؤلاء من هؤلاء ، وَبِغير ذلك فالادّعاء سهل وأكثر الناس يزعمون ويدّعون .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : 103] .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : 31] .

3 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران : 179] .

وفي صحيح مسلم عن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [تُعْرَضُ الفِتَنُ على القلوب كالحصيرِ عُوداً عُوداً ، فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سوداءُ ، وأيُّ قلب أنكرها نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بيضاءُ ، حتىٰ تصيرَ على قلبين ، على أبيض مِثْل الصَّفا ، فلا تضُرُّه فِتْنَةٌ ما دامتِ السماوات والأرض . والآخرُ أسْوَدُ مُرْباداً كالكوزِ مُجَخِّياً لا يَعْرِفُ مَعروفاً ولا يُنْكِرُ مُنكراً إلا ما أُشرِبَ من هواه][2] .

12 ـ 13 . قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2887) ـ كتاب الجهاد والسير . باب الحراسة في الغزو في سبيل الله . وانظر كذلك (2886) من الباب نفسه .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (144) ـ كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب . ورواه كذلك في كتاب الفتن في أثناء حديث أطول .

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)﴾.

في هذه الآيات: استهتارُ الكافرين بحمل الذنوب وسيعلمون مغبة ما يستهزئون. إنهم سيحملون يوم القيامة أوزارهم وأوزار من أضلوا وليسألن يومئذ كما كانوا يفترون.

فقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾.

قال مجاهد: (قول كفار قريش بمكة لمن آمن منهم. يقول: قالوا: لا نبعث نحن ولا أنتم، فاتبعونا إن كان عليكم شيء فهو علينا).

وقال الضحاك: (هم القادة من الكفار، قالوا لمن آمن من الأتباع: اتركوا دين محمد واتبعوا ديننا).

والمقصود: أن كفار قريش أرادوا إغراء من آمن منهم واتبع سبيل الهدىٰ بالرجوع إلى دين الآباء الذي كانوا عليه، ويزعمون أن ذلك في رقابهم وهم يتحملون تبعته.

وقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. تكذيب من الله تعالىٰ لهم. فإنه لا يحمل أحد وزر أحد، ولا يستطيع أحد أن يقف يوم القيامة ويقول: عليّ فلان.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: 18].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج: 10 ـ 11].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: 34 ـ 37].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: [قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214] قال: يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبدِ مَنَاف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بنَ عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمّة رسول الله لا أغني

عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمةُ بنتَ محمد سليني ما شِئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً][1] .

وقوله: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ .

إثْباتٌ لِحَمْلِ توابعِ إضلالهم ، فإنهم يحملون أوزارَ أنفسهم ، ثم يُضاف عليهم أوزار الذين أضلوهم ، وتوابع انتشار إفسادهم في الأرض.

فعن قتادة: (﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾ أي: أوزارهم ﴿ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ يقول: أوزار من أضلوا).

وفي التنزيل نحو ذلك: قال تعالىٰ: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: 25].

ومن صحيح السنة المطهرة في آفاق هذا المفهوم أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تُقْتَلُ نفسٌ ظُلْماً ، إلا كان على ابن آدمَ الأوّل كِفْلٌ من دَمِها ، لأنه كان أوّلَ مَنْ سَنَّ القتل][2] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم أيضاً عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [مَنْ دعا إلى هُدَىٰ ، كان له من الأجْرِ مِثْلُ أُجورِ من تَبِعَهُ ، لا يَنْقُصُ ذلك مِنْ أجورهم شيئاً ، ومَنْ دعا إلى ضلالةٍ ، كان عليه من الإثْمِ مِثْلُ آثامِ مَنْ تَبِعَهُ ، لا يَنْقُصُ ذلك من آثامهم شيئاً][3] .

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوفٍ المزني. حدّثني أبي ، عن جَدِّي ، أن رسول الله ﷺ قال: [مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتي فَعَمِلَ بها الناسُ ، كانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بها لا يَنْقُصُ مِنْ أُجورهم شيئاً. ومن ابتدع

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (4771) ـ كتاب التفسير. وانظر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (204) ـ كتاب الإيمان.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1677) ـ كتاب القسامة والمحاربين ، باب بيان إثم من سنّ القتل ، وفي لفظ آخر لآخر الحديث: «لأنه سَنَّ القَتل».

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2674) ـ كتاب العلم ، وأخرجه أبو داود (4609) ، وابن ماجة في السنن (206). وانظر صحيح أبي داود (3853) ـ كتاب السنة.

بِدْعَةً فَعُمِلَ بها ، كان عليه أوزار مَنْ عَمِلَ بها لا ينقصُ مِنْ أوزارِ مَنْ عَمِلَ بها شيئاً][1] .

وقوله : ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ .

قال ابن جرير : (وليسألن يوم القيامة عما كانوا يكذبونهم في الدنيا بوعدهم إياهم الأباطيل ، وقيلهم لهم : اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم فيفترون الكذب بذلك) .

14 ـ 15 . قوله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ .

في هذه الآيات : إرسالُ الله تعالىٰ نبيّه نوحاً ﷺ إلى قومه لينذرهم طيلة ألف سنة إلا خمسين عاماً وهم يصرون على كفرهم حتىٰ أخذهم الطوفان وهم ظالمون . وكتب الله النجاة في السفينة للمؤمنين وجعلها آية للعالمين .

فقوله : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ .

تسليةٌ من الله تعالىٰ لرسوله ﷺ عما يلقاه من أذىٰ قومه وتكذيبهم ، فهذا نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ قبله مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، ونبذ ما هم عليه من الجاهلية والوثنية والكبر ، ثم ما آمن معه إلا قليل .

قال ابن عباس : (بُعِثَ نوحٌ وهو لأربعين سنة ، ولبث في قومه ألفَ سنة إلا خمسين عاماً ، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً ، حتىٰ كَثُر الناسُ وفَشُوا) .

فإنه قد كَثُرَ الجهلُ وانتشر الشركُ قُبيل بعثة نوح ﷺ ، وبَعُدَ العهدُ بالنبوة على الناس بعد آدم عليه الصلاة والسلام ، فاحتاج الأمر لجهاد طويل في طريق دعوة الناس ومحاولة إنقاذهم من عذاب الله .

أخرج الحاكم بسند صحيح عن أبي أمامة مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال : [كان بين آدمَ ونوحٍ عشرَةُ قرونٍ ، وبينَ نوحٍ وإبراهيمَ عشَرةُ قرون][2] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة (209) ـ باب من أحيا سنة قد أميتت . انظر صحيح ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (173) . وكذلك (170) ، (171) ، (172) من الباب قبله .

(2) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (2/ 262) ، والطبراني في «المعجم الكبير» (8/ 139 ـ 140) ، =

وقوله: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾. قال الضحاك: (الطوفان: الغرق). وقال قتادة: (هو الماء الذي أرسل عليهم).

والمعنىٰ: كانت نهاية إصرار القوم على كفرهم وظلمهم أنفسهم أن أغرقهم الله تعالىٰ بالطوفان ليكونوا عبرة لمن بعدهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: فأنجينا نوحاً وأصحابَ سفينته، وهم الذين حملهم في سفينته من ولده وأزواجهم. يقول: وجعلنا السفينة التي أنجيناه وأصحابه فيها عبرة وعظة للعالمين، وحجة عليهم).

16 ـ 18. قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾.

في هذه الآيات: دعوةُ إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قومه إلى إفراد الله تعالىٰ بالعبادة والتعظيم، وتحذيره لهم مغبة شركهم ومصير الأمم الهالكة قبلهم وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

فقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: واذكر أيضاً يا محمد إبراهيم الخليل إذ أنذر قومه وحذرهم مغبة الشرك بالله، وأمرهم بإفراد الله تعالىٰ بالعبادة والتعظيم. قال النسفي: (﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الكفر ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كان لكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم).

وقوله: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾. أي: أصناماً. قاله قتادة.

= وفي «المعجم الأوسط» (1/ 24/ 2/ 398). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (3289).

وقوله: ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ ـ فيه أقوال متقاربة:

1 ـ قال ابن عباس: (يقول: تصنعون كذباً). وقال مجاهد: (يقول: تقولون كذباً).

2 ـ وقال عطاء عن ابن عباس: (تنحتون تصورون إفكاً). وقال قتادة: (أي: تصنعون أصناماً).

3 ـ وقال ابن زيد: (﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ الأوثان التي ينحتونها بأيديهم).

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ﴾.

قال القرطبي: (أي: اصرفوا رغبتكم في أرزاقكم إلى الله، فإياه فاسألوه وحده دون غيره).

وقوله: ﴿ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

قال ابن جرير: (﴿ وَٱعْبُدُوهُ ﴾ يقول: وذلوا له ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ﴾ على رزقه إياكم، ونعمه التي أنعمها عليكم. إلى الله تردون من بعد مماتكم، فيسألكم عما أنتم عليه من عبادتكم غيره وأنتم عباده وخلقه، وفي نعمه تتقلبون، ورزقه تأكلون).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

هو من تمام كلام إبراهيم الخليل ﷺ لقومه كما هو ظاهر من السياق، وفي الآية تعزيةٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ عما يلقاه من تكذيب قومه وعنادهم. فإنه على الرسول البلاغ، وعلى الله الحساب.

19 ـ 23. قوله تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ

مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

في هذه الآيات: احتجاجُ الله تعالىٰ على منكري المعاد والبعث للحساب، ودعوتُهم للنظر في بدء الخلق والاستعداد للرحيل والنشأة بعد ذلك من القبور للجزاء ونيل الثواب أو العقاب.

فعن قتادة: (﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ قال: بالبعث بعد الموت). والآية إخبار من الله تعالىٰ عن إرشاد الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ قومه إلى إثبات المعاد بما يرونه من آيات المقدرة له تعالىٰ. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: أو لم يروا كيف يستأنف الله خلق الأشياء طفلاً صغيراً، ثم غلاماً يافعاً، ثم رجلاً مجتمعاً، ثم كهلاً. وقوله: ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ يقول: ثم هو يعيده من بعد فنائه وبلاه، كما بدأه أوّل مرة خلقاً جديداً، لا يتعذر عليه ذلك ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ سهل كما كان يسيراً عليه إبداؤه).

وقوله: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾. قال قتادة: (خلق السماوات والأرض).

وقوله: ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾. قال ابن عباس: (هي الحياة بعد الموت وهو النشور).

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. أي: إنه تعالىٰ قادر على إنشاء خلقه بعد إفنائهم، وعلى غير ذلك فلا يعجزه شيء.

وقوله تعالىٰ: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾.

قال النسفي: (﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ بالخذلان ﴿ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ﴾ بالهداية، أو بالحرص والقناعة، أو بسوء الخلق وحسنه، أو بالإعراض عن الله وبالإقبال عليه، أو بمتابعة البدع وبملازمة السنة ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ تردون وترجعون).

وفي سنن أبي داود وابن ماجة من حديث زيد بن ثابت مرفوعاً: [إن الله لو عذب

أهل سَماواته وأهل أرضه لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم][1] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

أي : هو القاهر سبحانه لأهل سماواته وأهل أرضه ، وكل شيء فقير إليه ، محتاج إلى رحمته ، وما لكم أيها الناس من دون الله من ناصر ولا معين إن أنزل به نقمته ، وأحلّ بكم عذابه .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قال القرطبي : (﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ ﴾ أي : بالقرآن ، أو بما نصب من الأدلة والأعلام . ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى ﴾ أي : من الجنة ، ونسب اليأس إليهم والمعنىٰ أويسوا . وهذه الآيات اعتراض من الله تعالىٰ تذكيراً وتحذيراً لأهل مكة) .

24 ـ 25 . **قوله تعالىٰ** : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٢٤ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ۝٢٥ ﴾ .

في هذه الآيات : عودةٌ إلى قصة خطاب إبراهيم عليه السلام مع قومه ، فإنهم لما عجزوا عن مواجهة حجج الحق البالغة لجؤوا إلى استخدام الجاه والقوة والسطوة ، فأنجاه الله من النار ومن مكرهم ، وقد حذّرهم إبراهيم مغبة شركهم ، والخزي يوم القيامة إذا ركبوا الهوىٰ ومضوا على إصرارهم وكفرهم .

---

(1) إسناده قوي . أخرج أبو داود (4699) ـ في القدر ، وابن ماجة (77) ، وأحمد (5/ 182) ، (5/ 189) ، وابن حبان (727) ، والبيهقي (10/ 204) ، وانظر صحيح أبي داود (3932) .

فقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

كقوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ۝ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: 97 ـ 98].

قال النسفي: (قال بعضهم لبعض، أو قاله واحد منهم وكان الباقون راضين فكانوا جميعاً في حكم القائلين فاتفقوا على تحريقه ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ حين قذفوه فيها).

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إن في إنجاء الله إبراهيم من لهب النار وسعيرها، وجعلها عليه برداً وسلاماً، لأدلة وحججاً لقوم يصدقون بالحجج والأدلة إذا رأوا وعاينوا. وإن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون بقدرة الله على خرق العادات والسنن فيزيدهم ذلك إيماناً وتسليماً.

وقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. قال ابن جرير: (أي: تتحابون على عبادتها، وتتوادون على خدمتها، فتتواصلون عليها). وهذا على قراءة ﴿مودةَ﴾ بالنصب على أنه مفعول له. وأما على قراءة الرفع ﴿مودةُ﴾ فالمعنىٰ: إنما اتخذتم هذا لتحصل لكم المودة في الدنيا فقط. والمقصود متقارب، والقراءتان مشهورتان.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

أي: ثم يوم القيامة تنقلب عليكم هذه المودة لتصبح هذه الصداقة بَغْضَةً وشنآناً، ثم تتجاحدون ما كان بينكم ويبرأ بعضكم من بعض، ويلعن بعضكم بعضاً. قال قتادة: (صارت كُلُّ خُلَّةٍ في الدنيا عداوة على أهلها يوم القيامة إلا خُلَّة المتقين).

قال القاسمي: (﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: تتجاحدون ما كان بينكم، ويلعن الأتباع المتبوعين، والمتبوعون الأتباع).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: 38].

3 ـ وقال هنا: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾. أي: ما لكم من منقذين

يحولون بينكم وبين عذاب الله الذي كتبه عليكم ، أنتم ومن كنتم معه على منهاج الوثنية وتعظيم غير الله .

أخرج الحاكم بإسناد صحيح عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال : [إنَّ أهلَ النار ليَبْكُون ، حتىٰ لو أُجْرِيَت السُّفُنُ في دُموعهم ، لجرت ، وإنهم ليبكون الدم ـ يعني ـ مكان الدمع][1] .

وله شاهد عن ابن ماجة وابن أبي الدنيا بسند صحيح لغيره عن أنس بن مالك مرفوعاً بلفظ : [يُرْسَلُ البكاء على أهل النار فيبكون حتىٰ تنقطع الدموع ، ثم يبكون الدم حتىٰ يصير في وجوههم كهيئة الأخدود ، لو أرسلت فيه السفن لجرت][2] .

26 ـ 27 . **قوله تعالىٰ** : ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : تصديقُ لوط وهجرته وإبراهيم ـ عليهما الصلاة والسلام ـ إلى الله العزيز الحكيم . وإكرامه تعالىٰ إبراهيم بإسحاق ويعقوب وجعله النبوة في ذريته وهو في الآخرة من الصالحين .

فقوله : ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ ﴾ . قال ابن عباس : (صدّق لوط) .

وقوله : ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ ﴾ . قال ابن عباس : (هو إبراهيم) .

قال قتادة : (هاجرا جميعاً من كوثىٰ ، وهي من سواد الكوفة إلى الشام) .

وقال ابن زيد : (كانت هجرته إلى الشام) .

أخرج أبو داود والحاكم بسند حسن في الشواهد عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً : [ستكونُ هجرةٌ بَعْدَ هِجرةٍ ، فخِيارُ أهل الأرض ألزمُهم مهاجَرَ إبراهيم ، ويبقىٰ

(1) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (4/ 605) وقال : «حديث صحيح الإسناد» ، ووافقه الذهبي .
(2) صحيح لغيره . أخرجه ابن ماجة (4324) ، وابن أبي الدنيا في «صفة النار» (ق 12/ 1) . وأخرجه الخطيب (11/ 283) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1679) .

في الأرض شِرارُ أَهْلِها ، تلفِظُهم أرضُوهم ، تقذُرهم نَفْسُ الله ، وتحشُرُهم النار مع القردة والخنازير][1] .

ووجه الجمع بين قول إبراهيم لسارة: «ليس على وجه الأرض مؤمن غيرك وغيري ، فأنت أختي في الدين» ـ حين عرض لها الطاغية ، وإيمان لوط في ذلك الزمان أن المراد ـ والله أعلم ـ ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك ، أو المقصود ليس على وجه تلك الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك ، أو المقصود ليس على وجه تلك الأرض التي مرّا عليها ، أو المراد ذلك على التغليب ، وإلا فإن لوطاً عليه الصلاة والسلام آمن به من قومه ، وهاجرَ معه إلى بلاد الشام ، ثم أرسله الله في حياة الخليل إلى أهل «سَدُوم» وإقليمها ، فكان من أمرهم انتشار تلك الفاحشة الخبيثة حتىٰ قلب الله عليهم قريتهم وجعل عاليها سافلها .

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ . أي: العزيز في نصرة رسله والمؤمنين ، وفي انتقامه من أعدائه المجرمين ، الحكيم في أقواله وأفعاله وقدره وشرعه .

وقوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ .

إخبار عن هديته ـ تعالىٰ ـ الكبرىٰ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، لما فارق قومه واعتزلهم في عبادتهم ، فأكرمه في غربته أن جعل النبوة في ذريته ، والكتب المنزلة ترافق بعثتهم . كما قال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم: 49] .

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: [الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريم: يُوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بن إبراهيم عليهم السلام][2] .

والخلاصــة: إن شجرة الأنبياء جميعها تنبعث في أصلها من إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، حتىٰ

---

(1) حديث حسن في الشواهد. أخرجه أبو داود (1/ 388 ـ جهاد) ، والحاكم (4/ 486 ـ 487) ، وأحمد (2/ 84) ، (2/ 198 ـ 199) ، وعبد الرزاق (11/ 376/ 20790) ، وكذلك أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (6/ 54 ـ 66) . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (3203) .

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3382) ـ كتاب أحاديث الأنبياء ، وانظر كذلك (3390) ، وكذلك (4688) ـ كتاب التفسير ، ورواه مسلم وغيره من أهل السنن .

كان آخرهم عيسىٰ بن مريم ـ الذي بشر بخاتم النبيين محمد ﷺ ، وهو الوحيد من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ـ وجميع الكتب التوراة والإنجيل والزبور والفرقان رافقت تلك الذرية المباركة. فالمراد بقوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبَ﴾ جنس ذلك، أي: من الكتب المشار إليها.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾. قال مجاهد: (الثناء). وقال ابن عباس: (الولد الصالح والثناء). أو قال: (الذكر الحسن). وقال عكرمة: (أجره في الدنيا أن كل ملة تتولاه، وهو عند الله من الصالحين).

وعن قتادة: (﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ قال: عافية وعملاً صالحاً، وثناء حَسَناً، فلست بلاق أحداً من الملل إلا يرىٰ إبراهيم ويتولاه).

والخلاصة: لقد أبقىٰ الله تعالىٰ لإبراهيم ـ عليه السلام ـ الثناء الحسن في الأرض، والصلاة عليه إلى آخر الدهر، ومحبة أهل الملل له، واستمرار الذرية الصالحة في عقبه.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. قال الحسن: (أي من أهل الجنة).

قال ابن جرير: (﴿إِنَّهُۥ﴾ مع ذلك ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فله هناك أيضاً جزاء الصالحين، غير منتقص حَظُّه بما أعطي في الدنيا من الأجر على بلائه في الله، عَمَّا له عنده في الآخرة).

28 ـ 30. قوله تعالىٰ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

في هذه الآيات: يقول تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ: واذكر يا محمد لوطاً إذ حذّر قومه مغبة الفاحشة التي كانوا عليها من إتيان الذكور دون النساء ولم يسبقهم إليها أحد من العالمين، ومقابلة قومه له بالتكذيب والإصرار واستعجال العذاب حتىٰ لجأ إلى الله طالباً النصر على القوم المفسدين.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال عمرو بن دينار: (ما نزا ذكرٌ على ذكر حتىٰ كان قوم لوط).

وقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾.

أي: إنهم جمعوا بين منكرات كثيرة، من كفر بالله وتكذيب لرسوله، وقطع للطرق على المسافرين يبتزّونهم للفاحشة ويقتلونهم ويأخذون أموالهم، ويفعلون ما لا يليق فعله في مجالسهم من مجاهرة بالمنكر وتضارُطٍ وتضاحك خبيث وتكشُّفٍ مَشين.

فعن ابن زيد: (﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ قال: السبيل: الطريق. المسافر إذا مرَّ بهم، وهو ابن السبيل قطعوا به، وعملوا به ذلك العمل الخبيث).

وعن عكرمة: (﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قال: كانوا يُؤذون أهل الطريق يحذفون من مرَّ بهم). وقال مجاهد: (كان يجامع بعضهم بعضاً في المجالس). وقال ابن زيد: (ناديهم المجالس، والمنكر: عملهم الخبيث الذي كانوا يعملونه، كانوا يعترضون بالراكب فيأخذونه ويركبونه). وذكر ابن جرير بسنده عن عروة بن الزبير، عن عائشة في قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قال: (الضراط). قيل: كانوا يتضارطون ويضحكون.

قلت: والآية بعمومها تشمل جميع أنواع المنكرات التي ذُكِرَتْ، وغير ذلك مما لم يُذكر، وتدلّ أنّ قوم لوط جمعوا من الخبائث ألواناً شتىٰ وأصرّوا عليها متكبرين مستهزئين بالعذاب مطالبين به تهكّماً، وهو قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

لجوءٌ صحيح من لوط ﷺ إلى ربه حين استعصىٰ عليه قومه، وأَصَرُّوا على بَغْيهم وكفرهم وفجورهم، فاستنصر ربه عز وجل عليهم.

31 ـ 35. قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ

رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

في هذه الآيات: بثُّ الملائكة البشرىٰ لإبراهيم عليه السلام بولد صالح وبإهلاك القوم الظالمين، ووصول الرسل إلى لوط وضيقه وخوفه عليهم حتىٰ بشَّروه بهلاك القوم المفسدين، لتبقىٰ قصتهم آية لقوم يعقلون.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾.

أي: جمعوا له بين البشارة بولد صالح وبين إهلاك قوم لوط الذين أصروا على الظلم من كفر ومعصية.

قال ابن كثير: (لما استنْصَرَ لوطٌ ـ عليه السلام ـ الله عليهم، بعثَ الله لِنُصْرَتِه ملائكةً فَمَرُّوا على إبراهيم ـ عليه السلام ـ في هيئة أضياف، فجاءهم بما يَنبغي لِلضَّيفِ، فلما رأىٰ أنه لا هِمَّةَ لهم إلى الطعام نَكِرَهُم وأوجسَ منهم خيفة، فَشَرَعوا يؤانسونه ويُبَشِّرونه بوجود ولدٍ صالحٍ من امرأته سارَّة ـ وكانت حاضرة ـ فتعجَّبَت من ذلك. قال: فلما جاءت إبراهيم البُشرىٰ، وأخبروه بأنهم أُرسِلوا لهلاكِ قوم لوطٍ، أخذَ يدافِعُ لعلهم يُنْظرون، لعل الله أن يَهديهم. ولما قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾، ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، أي: من الهالكين، لأنها كانت تُمالِئُهم على كُفْرهم وبَغْيِهم ودَبْرِهم).

وقوله: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾.

قال قتادة: (ضاق ذرعه بضيافتهم لِما علم من خُبث فعل قومه). أو قال: (﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ بالضيافة مخافة عليهم مما يعلم من شرّ قومه).

والمقصود: أنه لما سارت الملائكة من عند إبراهيم متوجهين إلى لوط ـ عليهما السلام ـ وَرَدُوا عليه في صورة شبابٍ حسان فلما رآهم اغتَمَّ بأمرهم فإن أضافهم خشي

عليهم مكر قومه ، وإن لم يضفهم خاف عليهم اعتداءهم ، ولم يعرف حقيقة أمرهم بعد.

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: قالت الرسل للوط: لا تخف علينا أن يصل إلينا قومك ، ولا تحزن مما أخبرناك من أنّا مهلكوهم. وذلك أن الرسل قالت له: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: 81]. ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ من العذاب الذي هو نازل بقومك ﴿وَأَهْلَكَ﴾ يقول: ومنجو أهلك معك ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ فإنها هالكة فيمن يهلك من قومها ، كانت من الباقين الذين طالت أعمارهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

أي: إنا منزلون ـ يا لوط ـ على أهل هذه القرية ـ سدوم ـ عذاباً من السماء بما كانوا يستهترون بركوبهم الفواحش وإصرارهم عليها.

لقد اقتلع جبريل عليه السلام قراهم من قرار الأرض فرفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم. وأتبعهم الله حجارة من سجيل منضود. مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

قال مجاهد: (عبرة). وقال قتادة: (هي الحجارة التي أمطرت عليهم).

قال القاسمي: (﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يعني قصتها العجيبة ، أو آثارها الخربة).

قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: 137 ـ 138].

36 ـ 40. قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٣٦ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٣٧ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم

مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ .

في هذه الآيات: خبرُ شعيب ﷺ وقومه ودعوتهم لعبادة الله والاستعداد لليوم الآخر وترك الفساد في الأرض ، وإصرارهم حتىٰ أخذتهم الرجفة فأصبحوا جاثمين. وخبر عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان وغيرهم من الأمم الباغية الذين سلّط الله عليهم ألوان العذاب وما كانوا سابقين.

فقوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: وأرسلت إلى مَدْين أخاهم شعيباً ، فقال لهم: يا قوم اعبدوا الله وحده ، وذِلّوا له بالطاعة ، واخضعوا له بالعبادة ، ﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ يقول: وارجوا بعبادتكم إياي جزاء اليوم الآخر وذلك يوم القيامة).

وقال بعضهم: (﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾: واخشوا اليوم الآخر). وقيل: (﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ أي صدقوا به فإن القوم كانوا ينكرونه).

وقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ .

العُتُوُّ والعِثيّ أشد الفساد. والمقصود: نهيهم عن السعي في الأرض بالفساد والبغي والإفساد. وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ، ويقطعون الطريق على الناس ، هذا مع كفرهم بالله ورسوله.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ .

قال قتادة: (﴿جَٰثِمِينَ﴾: أي ميتين). وقال غيره: (قد أُلقي بعضهم على بعض).

قال ابن كثير: (فأهلكهم الله بِرَجْفَةٍ عظيمة زَلْزَلَت عليهم بلادهم ، وصَيحةٍ أخرجت القلوب من حَناجرها ، وعذاب يَوْمِ الظلّة الذي أزهَقَ الأرواحَ من مُستَقَرِّها ، إنه كان عذاب يوم عظيم).

وقوله: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ ﴾.

أي: واذكروا كذلك ـ أيها القوم ـ مصير عاد وثمود ومآل مساكنهم إلى الدمار والخراب. وذلك أن عاداً ـ قوم هود ـ كانوا يسكنون الأحقاف، وهي قرية قريبة من حَضْرموت بلاد اليمن، وثمود ـ قوم صالح ـ كانوا يسكنون الحِجْرَ قريباً من وادي القرىٰ. وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً، فهم يمرون على آثار ديارهم كثيراً أثناء الأسفار والترحال، فذكرهم الله تعالىٰ بما يشاهدونه من تلك البقايا من الأطلال.

وقوله: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾. قال القرطبي: (أي أعمالهم الخسيسة فحسبوها رفيعة). والمقصود: حَسّن لهم الشيطان ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي.

وقوله: ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾.

أي: فأزاحهم الشيطان بتزيينه لهم الكفر والآثام عن سبيل الله القويم، وطريق الحق المتين، وكانوا في ضلالتهم مستبصرين، فهم مُعْجَبون ببغيهم يحسبون أنهم على هدىٰ وصواب وهم على الضلال المبين.

ففي قوله: ﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ قولان متكاملان في المعنىٰ:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ يقول: كانوا مستبصرين في دينهم). وقال مجاهد: (﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ في الضلالة). وقال قتادة: (﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ في ضلالتهم مُعْجبين بها).

2 ـ قال الفراء: (كانوا عقلاء ذوي بصائر فلم تنفعهم بصائرهم). وقال النسفي: (﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ عقلاء متمكنين من النظر وتمييز الحق من الباطل ولكنهم لم يفعلوا).

وقوله: ﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴾.

أي: وكذلك اذكر يا محمد ـ وَذَكِّر قومك ـ أمر قارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة، وأمر فرعون ملك مصر في زمان موسىٰ ووزيره هامان، وكانا ـ من القبط ـ على الكفر بالله ورسوله، جاءهم موسىٰ بالبينات من الأدلة الواضحات، فاستكبروا في الأرض وأبوا الإيمان بالله الواحد الأحد، فَدَكَّهم العذاب وما كانوا سابقينا بأنفسهم فيفوتونا، بل كنا مقتدرين عليهم. قال القاسمي: (﴿ وَمَا كَانُواْ

سَٰبِقِينَ﴾ أي: فائتين لله سبحانه، بل لحقهم عذابه فدمرهم تدميراً).

وقوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ﴾.

قال ابن عباس: (﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ قوم لوط). أي: أمطر الله عليهم حجارة من سجيل منضود. قال ابن جرير: (والعرب تسمي الريح العاصف التي فيها الحصىٰ الصغار أو الثلج أو البَرَد والجليد حاصباً).

وعن ابن جريج، عن ابن عباس: (﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ قال: ثمود). وقال قتادة: (قوم شعيب). ولا شك أن ثمود ومدين قد أخذتهم الصيحة فيشملهما الإخبار.

وعن ابن عباس قال: (﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ قارون، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ﴾ يعني قوم نوح وفرعون وقومه).

والخلاصة: لقد أخذ الله جميع هؤلاء الأقوام بذنوبهم، فكانت عقوبة كل منهم بما يناسب ظلمهم، فقوم عاد طغوا وقالوا من أشد منا قوة؟ فأزاحتهم ريح عاتية محملة بالحصباء ترفع الرجل منهم عالياً ثم تنكسه على رأسه فتشدخُه، فيبقىٰ بدناً بلا رأس كأنهم أعجاز نخل منقعر. وثمود الذين عقروا الناقة وعتوا وتهددوا نبيَّ الله صالحاً ومن آمن معه بأن يخرجوهم ويرجموهم، فجاءتهم صيحة أخمدت أصواتهم وحركاتهم. وقارون الذي مشىٰ متبختراً، فرحاً بالمال متكبراً، فخسف الله به وبداره الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

وفرعون الطاغية الذي ادّعىٰ الربوبية وملك البلاد والأنهار والبحار، فسلّط الله عليه مياه اليم فأغرقه وجنوده، وأبقاه عبرة لمن جاء بعده.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

قال القرطبي: (لأنه أنذرهم وأمهلهم وبعث إليهم الرسل وأزاح العذر).

41 ـ 43. **قولـه تعالىٰ**: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: تمثيلٌ بديع لحال المشركين في تَعَلُّقِهم بآلهتهم التي لا تضر ولا تنفع فهم كالمتعلق بشبكة خيوط العنكبوت لو كانوا يعلمون. وهذه الأمثال يضربها الله للناس وما يعقلها إلا العالمون.

قال ابن عباس: (قوله: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ ﴾.. إلى آخر الآية، قال: ذلك مثل ضربه الله لمن عبد غيره، إن مثله كمثل بيت العنكبوت). قال ابن جرير: (﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ أي: أضعف البيوت). ﴿ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ ﴾. قال الضحاك: (ضرب مثلاً لضعف آلهتهم ووهنها فشبهها ببيت العنكبوت). وقال قتادة: (هذا مثل ضربه الله للمشرك، مثل إلهه الذي يدعوه من دون الله كمثل بيت العنكبوت واهن ضعيف لا ينفعه).

وقال ابن زيد: (هذا مثل ضربه الله، لا يغني أولياؤهم عنهم شيئاً كما لا يغني العنكبوت بيتها هذا). قال القرطبي: (﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾: أي لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت التي لا تغني عنهم شيئاً، وأن هذا مثلهم لما عبدوها، لا أنهم يعلمون أن بيت العنكبوت ضعيف).

والمقصود: أن اتخاذ المشركين آلهة من دون الله وتعظيم الطواغيت يرجون نَصْرهم ورزقهم ويستغيثون بهم في النائبات والشدائد، إنما هم في ذلك كمن يتعلق للنجاة ببيت العنكبوت لا يجدي عنه شيئاً لضعفه ووهنه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

تجهيلٌ للكفار حين عبدوا من دون الله جماداً لا علم له ولا قدرة، وتركوا عبادة الله الواحد القادر القاهر الأحد. فالله تعالىٰ يعلم عجز آلهتهم التي يدعون من دونه، وهو ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الغالب الذي يقهر كل الأوثان والطواغيت ومن عظّمها، الحكيم في تدبير شؤون خلقه وإمهال المشركين إلى حين.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾.

أي: وهذه الأمثال البديعة التي يضربها الله تعالىٰ للناس إنما هي ليتدبروا أمرهم قبل فوات الأوان، فيفردوه تعالىٰ بالعبادة والتعظيم، وإنما يعي آفاق هذه الأشباه والنظائر والحكم الراسخون في العلم والإيمان.

قال النسفي: (كان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون: إنّ رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ويضحكون من ذلك، فلذلك قال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ به وبأسمائه وصفاته، أي: لا يعقل صحتها وحسنها ولا يفهم فائدتها إلا هم، لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المستورة حتىٰ تبرزها وتصورها للأفهام). وعن عمرو بن مرة قال: (ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها، إلا أحزنني. لأني سمعت الله تعالىٰ يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾).

44 ـ 45. **قوله تعالىٰ:** ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

في هذه الآيات: خَلْقُ الله السماوات والأرض بالحق، ودعوته تعالىٰ رسوله ﷺ والمؤمنين لتلاوة الوحي وإقام الصلاة، فهي تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر، والله يعلم جميع شؤون عباده وأعمالهم.

فقوله: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾. أي: محقاً، أراد بخلقه ذلك الجِدّ والعمل، لا اللهو والعبث والكسل. قال النسفي: (يعني لم يخلقهما باطلاً بل لحكمة، وهي أن تكونا مساكن عباده، وعبرة للمعتبرين منهم، ودلائل على عظم قدرته).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 16 ـ 18].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: 31].

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ:

[إنِّي أرىٰ ما لا تَرَوْنَ ، وأسْمَعُ ما لا تَسْمعون. إنَّ السَّماء أطَّت[1] وحقَّ لها أن تَئِطَّ. ما فيها مَوْضِعُ أَرْبَعِ أصابعَ إلا وَمَلَكٌ واضعٌ جَبْهَتَه ساجداً لله. واللهِ! لو تعلمون ما أعْلَمُ ، لَضَحِكْتُم قليلاً ولبكيتم كثيراً. وما تَلَذَّذْتُم بالنساء على الفُرُشاتِ. ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون إلى الله][2].

الحديث الثاني: يروي ابن ماجة في كتاب الزهد بإسناد حسن عن عبد الله بن ضمرة السلولي ، قال: حدثنا أبو هريرة ، قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول: [الدنيا مَلْعُونَةٌ. مَلْعونٌ ما فيها ، إلا ذِكْرَ الله وما والاهُ ، أو عالِماً أو مُتَعَلِّماً][3].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. أي: لدلالة بينة أنه تعالىٰ الإله الحق المستحق للعبادة دون ما سواه.

وقوله: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

أمْرٌ من الله سبحانه لرسوله ﷺ والمؤمنين بقراءة القرآن وتبليغه والقيام بأوامره ومقتضىٰ ما فيه من الحق.

وقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ ـ أمْرٌ من الله تعالىٰ نبيّه والمؤمنين بإقام الصلاة بحدودها وأركانها وواجباتها ، وما يجب لها من إتمام الوضوء والتطهر.

وقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: في الصلاة منتهىٰ ومزدجر عن معاصي الله).

أخرج الإمام أحمد في المسند ، ورجاله رجال الصحيح عن أبي هريرة قال: [جاءَ رَجُلٌ إلى النبي ﷺ فقال: إنّ فلاناً يُصَلِّي بالليل فإذا أصْبَحَ سَرَق! فقال: إنه سَيَنْهَاهُ ما تقولُ][4].

---

(1) الأطيط: صوت الأقتاب ، وأطيط الإبل أصواتها وحنينها ، والمقصود سُمِعَ صوت ثقل الملائكة وكثرتها وازدحامها كصوت الحركة على السقف من الخشب.

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في السنن (4190) ـ كتاب الزهد ، باب الحزن والبكاء. وانظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3378).

(3) إسناده حسن. أخرجه ابن ماجة (4112) ـ في السنن ـ كتاب الزهد. باب مثل الدنيا. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3320) ، وتخريج المشكاة (5176).

(4) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 447) ، والبزار كما في «المجمع» (2/ 258) ، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح. وله رواية للبزار من طريق جابر ، ورجاله ثقات.

قلت: وأما حديث أكثر من ذكره هنا المفسرون: «مَنْ لم تنْهَهُ صلاتُه عن الفحشاء والمنكر لم يزْدَد بها من الله إلا بُعْداً» ـ فهو ضعيف. أخرجه الطبراني وفي سنده ليث بن أبي سُليم قد اختلط. وكذلك حديث: «لا صلاة لمن لم يُطع الصلاة» ـ فهو ضعيف جداً ـ أخرجه ابن جرير في التفسير، وفيه جويبر متروك متهم، فتَنَبَّه.

والمقصود: أَنَّ إقبال العبد على الله في صلاته بصدق يورثه تعظيم أوامره واجتناب نواهيه، فلا بد أن تأمره صلاته بترك الفحشاء والمنكر.

وقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾. أي: منهاج الذكر أكبر شيء وأجَلُّه، والذي في الصلاة جزء منه، وإنما ذِكْرُهُ تعالىٰ فَوْقَ كُلِّ أَمْر.

ومن أقوال المفسرين في ذلك:

1 ـ قال ابن عون الأنصاري: (إذا كنت في صلاة فأنت في معروف، وقد حَجَزتك عن الفحشاء والمنكر، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر).

2 ـ قال ابن عباس: (يقول: ولذكر الله لعباده أكبر إذا ذكروه من ذكرهم إياه). أو قال: (ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته).

3 ـ وقال ابن عطاء: (ذِكْرُ اللهِ لكم أكبر من ذكركم له الآن، لأن ذكره بلا علة وذكركم مشوب بالعلل والأماني، ولأن ذكره لا يفنىٰ وذكركم لا يبقىٰ).

4 ـ وقال سلمان: (ذكر الله أكبر من كل شيء وأفضل).

5 ـ وقيل: ذكر الله أكبر من أن تحويه أفهامكم وعقولكم.

6 ـ وقيل: ذكر الله أكبر من تلقي معه معصية. أو ذكر الله أكبر عن الفحشاء والمنكر من غيره.

قلت: والراجح عندي إطلاق اللفظ على حاله، فهو إضافة لأنه يشمل كل ما ذكر، إلا أنه يفيد في تأصيل مفهوم عظيم، وهو أن ذكره تعالىٰ أعلى من كل شيء، بل هو غاية كل عمل صالح. قال تعالىٰ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

فقد أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي الدرداء قال: قال النبي ﷺ: [ألا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أعمالِكُمْ وأزكاها عِنْدَ مَليكِكُمْ وأرفعِها في درجاتِكُم، وخَيْرٌ لكم من إنفاق الذَّهَبِ

والوَرِقِ ، وخيْرٌ لكم مِنْ أَنْ تَلْقوا عَدُوَّكُم فتضربوا أعناقَهُم ويضربوا أعناقكمْ؟ قالوا: بلىٰ ، قال: ذِكْرُ الله][1] .

قال معاذ بن جبل : (ما شيء أنجىٰ من عذاب الله ، من ذكر الله) .

فذكر الله تعالىٰ أعلى من الجهاد في سبيل الله الذي هو ذروة سنام الإسلام ، لأن الجهاد إنما شُرِعَ لإعلاء كلمة الله والحكم بمنهاجه ، فَذِكْرُهُ تعالىٰ وكلامه وصفاته وأسماؤه فوق كل شيء .

وقد جاء في آفاق منهج الذكر أحاديث جليلة ، منها :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: [خرج معاوية إلى المسجد فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك ، قال: أما إني لم أستحلفكم تُهمة لكم ، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ ، أقلَّ حديثاً عنه مِنِّي: إنَّ رسول الله ﷺ ، خرج على حلقة من أصحابه ، فقال: ما يُجلِسُكُمْ؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده ، لما هدانا للإسلام ، ومَنَّ علينا به. فقال: آلله. ما أجْلَسَكُمْ إلا ذاك. قالوا: الله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما أنّي لمْ أَسْتَحْلِفْكُم لِتُهْمَةٍ لكم ، إنه أتاني جِبْرَئيلُ وأخبرني: أن الله يُباهي بكم الملائكة][2] .

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عبد الله بن بسر ، أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ: إن شرائعَ الإسلام قد كثرت علي. فأنبئني منها بشيء أتشبث به. قال: [لا يزالُ لِسَانُكَ رَطْباً مِنْ ذِكْرِ الله عز وجل][3] .

الحديث الثالث: روىٰ مسلم والترمذي وابن ماجة عن الأغَر أبي مُسلم: أنه شهد على أبي هريرة ، وأبي سعيد الخدري ، أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: [ما مِنْ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3617) ـ أبواب الدعوات ، وكذلك ابن ماجة (3790) ـ في فضل الذكر ، وانظر صحيح سنن الترمذي (2688).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 72) ، ورواه الترمذي (3619) ـ أبواب الدعوات ، باب ما جاء في القوم يجلسون فيذكرون الله ما لهم من الفضل. انظر صحيح سنن الترمذي (2690).

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (2793) ـ في فضل الذكر. والترمذي (3615) ـ أبواب الدعوات. باب فضل الذكر. انظر صحيح سنن الترمذي (2687) ، وصحيح ابن ماجة (3060).

قوم يذكرون الله إلا حَفَّتْ بهم الملائِكَةُ ، وغَشيتهم الرحمةُ ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده][1] .

منهاج الذكر كما جاء في الوحيين : القرآن والسنة الصحيحة :

وهنا فائدة جليلة : لما أفادت الآية السابقة أن ذكر الله أجل الأعمال ، كان من الواجب على العباد الاعتناء بآداب ذكرهم لله تعالىٰ ولزومهم لهدي نبيّه ﷺ ومنهاجه في ذلك :

أ ـ مجالس الذكر هي مجالس العلم .

جاء في «المدخل» لابن الحاج «1/ 86 ـ 87» : (قال علماؤنا ـ رحمهم الله ـ : الذكر والمجالس المذكورة في هذه الأحاديث مجالس العلم ، وهي مجالس الحلال والحرام ، هل يجوز أو لا يجوز ، كيف يتوضأ ، وما يجب عليه ، ويسن ويستحب ، ويكره ويمنع ، وكيف يصلي ، وكيف ينكح ، وكيف يبيع ويشتري ، إلى غير ذلك ، حتىٰ الحركات والسكنات ، والنطق والصمت) .

وجاء فيه «1/ 89 ـ 90» : (وقد قالت عائشة رضي الله عنها : «كم من قارئٍ يقرأ القرآن والقرآن يلعنه ، يقرأ : ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود : 18] وهو ظالم) .

وقد قال ابن بطال[2] في شرح البخاري عن العلماء أنهم قالوا : (الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ يحتاج فيها إلى معرفة تلقي الصحابة رضي الله عنهم لها . كيف تلقوها عن صاحب الشريعة ﷺ فإنهم أعرف بالمقال ، وأفقه بالحال) .

ب ـ عدم رفع الصوت عند الذكر .

قال تعالىٰ : ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف : 205] .

قال قيس بن عُباد[3] : (كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون رفع الصوت عند

---

(1) حديث صحيح . رواه مسلم (8/ 72) ، وابن ماجة (2/ 418) ، وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3058) ، وصحيح سنن الترمذي (2689) .

(2) هو علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال أبو الحسن القرطبي عالم بالحديث شرَحَ صحيح البخاري . توفي سنة (449 هـ) رحمه الله تعالىٰ .

(3) هو قيس بن عُبَاد الضُبَعي أبو عبد الله البصري ، ثقة مخضرم . مات بعد الثمانين ـ رحمه الله تعالىٰ ـ .

الذكر). وممن روى كراهة رفع الصوت عند قراءة القرآن: سعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب، والحسن وابن سيرين والنخعي، وكرهه مالك بن أنس، وأحمد بن حنبل.

روىٰ مالك في الصلاة، باب العمل في القراءة، من حديث البياضي رضي الله عنه مرفوعاً ـ أنه خرج النبي ﷺ على أصحابه رضي الله عنهم وهم يرفعون أصواتهم بالقرآن، فكره ذلك وقال: [لا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن][1].

وله شاهد عند أبي داود في السنن، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: [اعتكف رسول الله ﷺ في المسجد، فسمعهم يجهرون بالقراءة، فكشف السِّتْرَ وقال: ألا كلكم مناج ربه فلا يؤذين بعضكم بعضاً، ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة][2].

وفي صحيح البخاري عن أبي موسىٰ الأشعري قال: لما غزا رسول الله ﷺ خيبر أشرف الناس على واد، فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: [ارْبَعُوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصَمَّ ولا غائباً. إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم][3].

ج ـ عدم الاجتماع على صوت واحد في الذكر.

قال ابن وهب: قلت لمالك رحمه الله: أرأيت القوم يجتمعون فيقرؤون جميعاً سورة واحدة حتىٰ يختموها؟ فأنكر ذلك وعابه وقال: (ليس هكذا كان يصنع الناس إنما كان يقرأ الرجل على الآخر يعرضه)[4].

ثم ذكر حديث: «لا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن». وقال: (ومحال في حقهم أن يكون ﷺ نهاهم عن رفع الصوت بالقرآن فيجتمعون للذكر رافعين أصواتهم به).

ثم قال: (وأما قوله ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالىٰ يتلون كتاب الله

---

(1) أخرجه مالك في «الصلاة» ـ باب العمل في القراءة (1/ 80) ـ حديث رقم ـ (29).

(2) رواه أبو داود (1332) ـ في الصلاة، باب رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (2/ 543) رقم (2658). وسنده صحيح.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (4202) ـ كتاب المغازي. باب غزوة خيبر. وانظر كذلك (2992).

(4) انظر: «المدخل» لابن الحاج (1/ 91)، وكتاب: «إنارة الفكر بما هو الحق في كيفيّة الذكر» ـ البقاعي (ت: 885 هـ) (ص 36).

ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة. . . ». فالدراسة المذكورة تشعرك بأنهم لم يجتمعوا على التلاوة صوتاً واحداً متراسلين ، لأن المدارسة إما أن تكون تلقيناً ، أو عرضاً ، وهذا هو المروي عنهم).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

أي والله يعلم أحوالكم وصفة عبادتكم وموافقتها لمنهاج النبوة أو انحرافها ، كما يعلم جميع أعمالكم وشؤونكم.

46 ـ 49. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

في هذه الآيات: الدعوةُ لمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن ، والتصريح بالإيمان بهذا القرآن وما قبله من الكتب ، وتوحيد الله الإله الحق منزل الكتاب بالحق وما يجحد به إلا الكافرون. إنك ـ يا محمد ـ لو كنت قارئاً كاتباً في قومك ثم جئتهم بهذا القرآن لاتهمّك بأخذه من الكتب المبطلون. وإنما هذا القرآن آيات بينات في صدور أهل العلم وما يجحد بآيات الله إلا الظالمون.

فقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

قال مجاهد: (هي محكمة ، فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن على معنىٰ الدعاء لهم إلى الله عز وجل ، والتنبيه على حججه وآياته ، رجاء إجابتهم إلى الإيمان ، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة). وقيل منسوخة بآية السيف ، فلهم الإسلام أو السيف أو الجزية. قلت: والراجح قول مجاهد ، فإن الآية عامة في ملاطفة المعتدلين من أهل الكتاب بالجميل من القول ، رجاء إسلامهم واتباعهم هدي النبي محمد ﷺ.